بنو رسول وبنو طاهر

وعلاقات اليمن الخارجية في عهدهما

٦٢٨ - ٩٢٣ هـ/١٢٣١-١٥١٧م

دكتور محمد عبد العال أحمد
جامعة القاهرة

دار المعرفة الجامعية
٤٠ ش سوتير - إسكندرية
ت : ٤٨٣٠١٦٣

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

تتضمن هذه الدراسة، تاريخ اليمن وعلاقاتها الخارجية فى عصر دولتى بنى رسول وبنى طاهر ، وهى امتداد طبيعى لدراستى فى الماجستير عن « دولة بنى أيوب في اليمن » . وإن اختلفت أوضاع اليمن خلال تلك الحقبة عما كانت عليه زمن الأيوبيين ، فقد استقلت بلاد اليمن فى العصر موضوع الدراسة ، وانقطعت تبعيتها المباشرة لمصر ، وطرأ تطور واضح المعالم نتيجة لذلك على الأوضاع الداخلية ، كان له أعمق الأثر فى الدور المستقل لسلاطين هاتين الدولتين ، وخاصة فى مجال السياسة الخارجية.

وتتمثل أهمية الموضوع في جدته ، فهو يمثل حلقة من سلسلة قليلة الحلقات فى تاريخ منطقة هامة لم تحظ بنصيبها من الدراسة . وإذا كان البحث قد تناول بالدراسة الأحوال السياسية الداخلية، وعلاقات بلاد اليمن الخارجية خلال القرون الثلاثة الأخيرة من العصور الوسطى ، فليس من شك فى أن القصد من امتداد الفترة موضوع البحث إنما يهدف إلى تغطية فترة طويلة من تاريخ اليمن السياسى ، أعقبت استقلالها عن مصر الأيوبية ، وانتهت بتبعيتها المباشرة للعثمانيين . فهى فترة استقلت بحكم اليمن خلالها دولتان على التوالى، لعبت كل منها دورا كبيرا في مجال العلاقات الخارجية ، تعدى حدود المنطقة .

وكان طبيعيا أن يتركز الاهتمام أولا على دراسة الجانب التاريخى باعتباره الركيزة الأساسية التى يتحتم استيفاؤها ، بسبب الفراغ الهائل الذى سببه إهمال البحث فيه ، وعدم سابقة توفر دراسات حديثة يمكن أن يعول عليها . ويمكن القول بأن دراسة قطاع طويل من الجانب السياسي لتاريخ اليمن ، من شأنه أن يوجه أنظار الباحثين إلى أهمية هذا الجانب ، ويساعد

على فتح مجال هذه الدراسات على مصراعيه ، ويتيح الفرص ـ من ناحيــة أخرى ـ لدراسة الجوانب المختلفة من تاريخ تلك البلاد ، وبوضح التفسيرات المناسبة والصحيحة لمتغيرات الجوانب الأخرى .

وقد اتسمت الفترة موضوع البحث بكثرة الاضطرابات ، وتنــوع الصراعات ، وانتشار الفوضى ، وافتقاد الاستقرار ، وتفتت الوحدة السياسية لليمن ، الأمر الذى أدى ـ بطبيعة الحال ـ إلي اشتغال سلاطين هاتين الدولتين فى حروب تكاد توصف بالاستمرار والتواصل . ولهذا لم يكن فى الإمكان تجاهل تلك الأحداث ، أو تفادى الخوض فى متاهات الحــروب الداخلية الكثيرة ، أو دراسة الحركات التى لا تكاد تخمد فترة حتى تشتعل من جديد . وكان من الضرورى تسجيل تلك الحوادث المعقــدة ، لأهميتها فى إيضاح الأحوال الداخلية لليمن، كمقدمة لبيــان الآثار المترتبة عليها فى جميع مناحى الحيـاة المختلفة . ومع ذلك فقد روعى عدم الخوض فى التفصيلات الدقيقة ، بهدف التركيز ما استطعت إلي ذلك سبيلا ، والاقتصار على الضرورى بالقدر الذى يسمح بتصور الأوضاع الداخلية خلال تلك الفترة .

وفيما يتعلق بالمجال الخارجى ، فقد حاولت الدراســة توضيــح الدور الخطير الذى لعبته بلاد اليمن سواء كان إيجابيا أو سلبيا ، وخاصة فى البحــر الأحمر، بحكم موقعها الهام على الطريق التجارى الرئيسى بين الشرق والغرب، وتحكمها فى المدخل الجنوبى للبحر الأحمر ، ويمكن القول بأن دراسة هذا الجانب قد ساعد على توضيح كثير من الأسس الرئيسية للسياسة التى انتهجتها كل من مصر واليمن فى البحر الأحمر خلال عصر دولتى المماليك فى مصر ، وكشف عن جانب هام من تاريخ اليمن كان مطـلويا فى زوايا الاهمال والنسيان، واستكمل من غير شك دراسة الفترة المقابلة لتاريخ مصر والعالم العربى أواخر العصور الوسطى فيما بين نهاية ، الحكم الأيوبى والفتح العثمانى .

ويعتبر تاريخ اليمن الاسلامى ، أكثر تواريخ الإسلام صعوبة وتعقيدا، ويحتاج البحث فيه إلي تكتيل الجهود وتضافرها لابرازه . فلقد تعرض الكثير من مصادره للتلف والضياع نتيجة للحروب المتصلة والقلاقل الداخلية السائدة ، وكان هذا التراث يشكل هدفا للقوى المذهبية المتصارعة فى اليمن ، سنية كانت أم زيدية أو إسماعيلية ، كل يعمل على إتلاف مادونه الآخرون . كما كان لعدم العناية بهذا التراث وإهمال المحافظة عليه ، أو انتقال ملكية بعضه بالوراثة إلى من ليس أهلا بمعرفة قيمته ، أثره فى ضياع الكثير منه . أما ماتبقى فمتناثر ، يصعب التعرف عليه بأكمله ، أو تجميع شتاته، ذلك أن بعضه موجود فى البيوتات العلمية فى اليمن، ويحرص أصحابه على كتمان أمره، ولا يسمحون - بالاطلاع على بعضه - إلا نادرا، خوفا من الضياع أو المصادرة . أما مقتنيات المكتبات العامة فى اليمن، فمن الصعب الحصول على نسخ مصورة منها، لافتقار تلك المكتبات لمعدات التصوير الحديثة ؛ الأمر الذى استلزم الاطلاع عليها فى أماكنها ، وتصوير مايلزم تصويره منها ، والعمل فى نفس الوقت للحصول على ما يهم البحث من مخطوطات مصورة من المكتبات العالمية ، بالإضافة إلى الاطلاع على مقتنيات كل من دار الكتب المصرية ومعهد المخطوطات العربية ومكتبات جامعتى القاهرة والاسكندرية ، ومكتبة بلدية الاسكندرية من هذه المخطوطات . وهى ما أرشدتنا إليها كتب فهارس هذه المكتبات والمؤلفات البيليوجرافية ، مثل كتاب كارل بروكلمان عن (تاريخ الأدب العربى) ، وغيره ، مما سهل عملية الافادة من هذه المصادر القليلة والمتناثرة

ولم أكتف بالاطلاع على المصادر المحفوظة بدور الكتب بمصر أو الحصول على مصورات من دور الكتب العالمية، وإنما قمت برحلات ثلاث الى بلاد اليمن،

لم تكن قاصرة على مجرد الاستفادة الخاصة بالدراسة ، وإنما تعدت ذلك إلى الإسهام في تسهيل وتيسير الدراسات اليمنية على الباحثين .

فكانت أولى هذه الرحلات سنة ١٩٦٤ ، حيث أتيح لي خلالها الاشتراك في أعمال بعثة وزارة الثقافة والإرشاد المصرية - التي وصلت إلى صنعاء لتصوير المخطوطات اليمنية ، والقيام بترتيب وتنظيم وفهرسة وتصنيف مقتنيات الجامع الكبير بصنعاء والكتب المصادرة من مكتبات الأئمة والأفراد ، وإعدادها للاطلاع ، وانتقاء النادر منها لتصويره وإيداع تلك المصورات في دار الكتب المصرية بالقاهرة .

أما ثاني تلك الزيارات ، فكانت في سنة ١٩٧٠ ، وفي اطار بعثة الجامعات المصرية التي توجهت إلى جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية لوضع أسس تجميع التراث اليمني ، والتخطيط لإقامه مكتبة قومية تضم هذا التراث في عدن. وقد زارت البعثة حسب برنامجها - بالاضافة إلى عـــدن عددا من مدن وقرى حضرموت حيث تنتشر المكتبات العامة والخاصة أوالموقوفة . وقد أنهت البعثة زيارتها بتقرير عن دراستها وتوصياتها لانجاز هذا المشروع .

أما ثالث الزيارات وأطولها ، فكانت أيضا لجمهورة اليمن الديمقراطية ، فبمناسبة إعارتي من جامعة الاسكندريه للعمل محاضرا للتاريخ الإسلامي بكلية التربية العليا في عدن خلال العام الجامعي ٧٢/ ١٩٧٣ ، دعيت أثناء ذلك لاستكمال دراسة مشروع تجميـــع التراث الذى سبق لبعثة الجامعات مجتمعة دراسته . وقد تمكنت قبل نهاية ذلك العام الدراسي من الانتهاء من إعادة دراسة المشروع على ضوء المتاعب التي واجهت التنفيذ ، والتقدم بتقرير متكامل لوزير الثقافة والسياحة اليمنى عن (المراحل التنفيذية لمشروع تجميع التراث اليمني)؛ استعرضت فيه أهم توصيات البعثة وماتم تنفيذه منها ، وما اعترض

الانجاز الكامل من عقبات متعددة ، والمقترحات التفصيلية التى تساعد على انجاز هذا العمل الكبير ، وقد نشر هذا التقرير بالمجلد العشرين من مجلة معهد المخطوطات بالجامعة العربية (مايو ١٩٧٤) . واسترشدت به بعثة المخطوطات التى أوفدتها الجامعة العربية سنة١٩٧٦ إلى اليمن الديمقراطية، كما كان أساسا فى المحادثات الثقافية بين اليمن الجنوبى وبين الدول والهيئات العلمية المهتمة بهذا المجال .

وقد أفادنى هذا الاحتكاك كثيرا فى التعرف على التراث اليمنى فى موطنه الأصلى ، أو فى المكتبات العالمية ، وتمكنت من الحصول على نسخ بالميكروفيلم لبعض مايتصل منها بهذه الدراسة . ولم تقتصر معالجة كافة نقاط البحث على مصدر واحد ، وإنما روعى مقارنة الأصل بغيره من المصادر المعاصرة أو المتأخرة تحقيقا للنصوص وبيان مدى اتفاقها ، ومناقشة ما اختلف المؤرخون فيه ، ومحاولة التوفيق بينها أو ترجيح أحداها أو التوصل إلى رأى خاص بشأنها مع تدعيم ذلك بالأسانيد .

وإذا كان البحث قد اعتمد على العديد من المصادر اليمنية ، فقد أسهمت غيرها من المصدر والمراجع العربية والأجنبية الأخرى فى استكمال وتدعيم كثير من نقاطه ، سيما ما يتعلق بدراسة العلاقات الخارجية ، ويتضح ذلك من مراجعة هوامش البحث وقائمة المصادر والمراجع المتنوعة الملحقة به .

وبعد ، فقد اشتمل هذا البحث على مقدمة وبابين وخاتمة ، وقد تضمنت المقدمة بيان أهمية الموضوع ، والجهود التى بذلت فيه . وخصصت الباب

الأول لدراسة التاريخ السياسي لدولتي بني رسول وبني طاهر ، وقسمته إلى تمهيد وثلاثة فصول. أما الباب الثاني ، فقد خصصته لدراسة العلاقات الخارجية في عصر هاتين الدولتين ، وقسمته إلى فصلين . أما الخاتمة ، فقد تضمنت أهم النتائج التي تم التوصل إليها .

والكتاب في أساسه ، كان رسالة بعنوان « اليمن فيما بين نهاية الدولة الأيوبية والفتح العثماني ، دراسة في العلاقات السياسية الخارجيه » حصلت بموجبها علي درجة الدكتوراه بمرتبة الشرف الأولى من كلية الآداب بجامعة الاسكندرية . وكانت تحت إشراف عالمين جليلين هما :

الأستاذ الدكتور سعد زغلول عبد الحميد ، أستاذ التاريخ والحضارة الاسلامية بجامعة الاسكندرية وبيروت العربية والكويت .

والاستاذ الدكتور السيد عبد العزيز سالم ، أستاذ التاريخ والحضارة الاسلامية بجامعة الاسكندرية وبيروت العربية ومدير معهد الدراسات الاسلامية بمدريد .

وقد حظيت برعايته وعطف كل منهما ، واستفدت من علمهما ومنهجهما الكثير ، وإليهما يرجع الفضل في إرشادي وتوجيهي ، ولم يبخل أي منهما بعلمه ووقته وجهده ونصائحه .

ولما تمت إعارة الأستاذ الدكتور سعد زغلول عبد الحميد لجامعة بيروت العربية سنة ١٩٧٣ ، ظل الأستاذ الدكتور السيد عبد العزيز سالم خير ناصح ومعين ، وتولي سيادته الاشراف الفعلي ، وقام بمراجعة الرسالة في جميع مراحلها ، وظهرت بصماته واضحه فيها ، ولقي في سبيل ذلك كثيرا من المتاعب التي أثمرت هذا البحث ، الذي أرجو أن أكون قد تمكنت به من معالجة

تاريخ اليمن وعلاقاتها الخارجية ، العربية والدولية، خلال فترة تاريخية هامة.
وأن تكون هذه الدراسة جديرة باحتلال مكانتها في المكتبة العربية .

وبالله التوفيق

الاسكندرية في ١٢ ربيع الأول ١٤٠٠
٣٠ يناير ١٩٨٠

دكتور محمد عبد العال احمد
معهد البحوث والدراسات الافريقية

الباب الأول

التاريخ السياسي

تمهيد : أحوال اليمن الداخلية حتى نهاية الحكم الأيوبي.

الفصل الأول : قيام دولة بني رسول على عهد مؤسسها نور الدين عمر بن رسول.

الفصل الثاني : دولة بني رسول بعد نور الدين.

الفصل الثالث : دولة بني طاهر.

تمهيد

أحوال اليمن الداخلية حتى نهاية الحكم الأيوبي

أصبحت بلاد اليمن منذ أسلم أهلها ، تشكل جزءا من الكيان السياسى للدولة الاسلامية . وارتبط تاريخها ـ منذئذ ـ بتاريخ تلك الدولة ، وظلت بلاد اليمن الموحدة تابعة للحكومة المركزية ، وتتابع عليها الولاة من قبل الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين والدولتين الأموية والعباسية .

وذكر مؤرخو اليمن، أن اليمنيين أسلموا جميعا فى حياة الرسول[1] صلى الله عليه الصلاة والسلام، وتلاحقت وفودهم على النبى [2] صلى الله عليه وسلم،

---

(١) الجندى ، يوسف بن يعقوب : السلوك فى طبقات العلماء والملوك ـ مخطوط بمكتبة كوبريلى رقم ١١٠٧، مصور بالميكروفيلم بالجامعة العربية برقم (٧٧٦) ـ ص ٤٧ ، الخزرجى،على بن الحسن: العسجد المسبوك فيمن ولى اليمن من الملوك ، مخطوط بمكتبة بلدية الاسكندرية رقم(١٢٦٥ ب) ص ٦ ، العقد الفاخر الحسن فى طبقات أعيان اليمن ، مخطوط بالمتحف البريطانى رقم (Kings College 7½) ، مصور بالميكروفيلم بالجامعة العربية (بدون رقم) لوحة ٣٠ (أ)، الأهدل ، الحسين بن عبد الرحمن : تحفة الزمن فى تاريخ سادات اليمن ـ مخطوط بمكتبة خدابخش بهنة مصور بالميكروفيلم بالجامعة العربية برقم (٣٠٨٨) ـ لوحة ٢٧ ب .

(٢) ابن سمرة ، عمر بن على : طبقات فقهاء اليمن ـ تحقيق فؤاد سيد ، القاهرة ١٩٥٧ ـ ص ٨ وما بعدها ، دكتور السيد عبد العزيز سالم : تاريخ العرب فى العصر الجاهلى ـ بيروت ١٩٧٠ ـ ص ٥٤٨.

وكانوا من الكثرة بحيث قال الرسول صلى الله عليه وسلم فيهم: « أتاكم أهل اليمن، هم أرق أفئدة وألين قلوبا، الإيمان يمان والحكمة يمانية »[١] .

وكان اليمنيون سريعي الاستجابة لداعي الجهاد، ففي عهد الخليفة أبي بكر توجه الكثيرون منهم – بكامل معداتهم – إلى المدينة للاشتراك في جيش المسلمين، وقيل انه بلغ عدد الواصلين منهم إليها ٢١ ألفا في يوم واحد، فأرسل الخليفة نصفهم إلى الشام، ووجه الباقين إلى العراق[٢] . فكان أبناء اليمن في طليعة الجيوش الإسلامية في موقعتي اليرموك والقادسية وغيرهما، وأسهموا بنصيب كبير في الفتوحات الإسلامية، وقاموا بدور فعال في كثير من مراحلها، شرقا وغربا . وان الأسماء اليمنية التي أطلقت – على سبيل المثال – على كثير من قلاع الأندلس، ستظل شاهدة على الدور البارز الذي قاموا به ، مثل قلعة همدان الواقعة بالقرب من غرناطة ، وحصن مراد المعروف بين أشبيلية وقرطبة، وقلعة بني سعيد المشهورة في مملكة غرناطة[٣] ، وقلعة خولان بين

---

(١) الحديث رواه البخاري عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم، (الأهدل، محمد بن علي : نثر الدر المكنون من فضائل اليمن الميمون – القاهرة ١٩٢١ – ص ٢٥ ، الرازي ، أبو العباس أحمد بن عبد الله بن محمد : تاريخ صنعاء – مخطوط بالمتحف البريطاني رقم ٢٩٠٣، مصور بالفوتستات بمكتبة جامعة القاهرة (برقم ٢٦٠٥٧ لوحة ٢ «أ») .

(٢) الجرافي ، عبد الله بن عبد الكريم : المقتطف من تاريخ اليمن ، القاهرة سنة ١٩٥١ ، ص ٤٤ .

(٣) المقري : نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب – تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، القاهرة سنة ١٩٤٩ جـ ١ ص ٢٧٦ .

الجزيرة الخضراء واشبيلية[١] وقلعة يحصب[٢] وغيرها من القلاع والحصون. كما أطلق على اليمنيين فى الأندلس (البلديين أو أهل البلد)[٣]، لأنهم استقروا فى تلك البلاد واعتبروا أنفسهم من أهلها وأصحابها[٤] . أضف إلى ذلك أن الجماعات اليمنية كانت تفوق غيرها من العدنانية عددا وقوة ، وقدذكر المقرى أنهم « الأكثر بالأندلس ، والملك فيهم أرسخ »[٥] .

ومن الجدير بالذكر أن اليمنيين لم يقفوا موقفا سلبيا من الحركات الداخلية فى العالم الإسلامى، بل قاموا بدور بارز فيها. ففى فتنة الأمصار التى حدثت فى خلافة عثمان، انقسم اليمنيون ـ وفقا لمنازلهم ـ إلى فريقين ، فريق يؤيد على بن أبى طالب، والآخر يؤيد معاوية[٦] . ومن المعروف أنه على الرغم من انبثاق الحركة من مصر ، فإن الرأس المدبر لها هو عبد الله بن سبأ الصنعانى، الذى استغل العناصر اليمنية الكثيرة التى كانت قد استقرت فى مصر منذ أن فتحها عمرو بن العاص، والتى بلغت عدتها فى الاسكندرية وحدها ٢٧ ألفا

---

(١) المقرى : نفس المصدر والجزء ص ٢٧٧ .

(٢) المقرى : نفس المصدر والجزء ص ٢٧٨ .

(٣) أخبار مجموعة فى فتح الأندلس لمؤلف مجهول ـ مدريد سنة ١٨٦٧ ـ ص ٤٤ ، ٤٦ .

(٤) دكتور السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ـ لبنان ١٩٦٢ ـ ص ١٢٠ .

(٥) المقرى : نفح الطيب جـ١ ص٢٧٤ ، السيد عبد العزيز سالم : نفس المرجع ص ١٢١ .

(٦) كان معظم المنضمين لمعاوية ينتمون إلى الأزد الغساسنة .

فى عهد معاوية (١) .

وإذا كان اليمنيون قد ناصروا على بن أبى طالب فى موقعتى الجمل وصفين، وكان لهم رأيهم المتحفظ من التحكيم ، فقد كان اختيار أبا موسى الأشعرى (اليمنى) سببا فى تعقد الأمور. وإذا كان على بن أبى طـالب قد اعتمد على بعض القبائل اليمنية، فإن قبائل يمنية أخرى قد ساندت معاوية بن أبى سفيان، حتى قيل أن قيام الدولة الأموية تم على أكتاف اليمنيين . كذلك آزرت اليمنية المروانية فى الشام ضد الزبيرية، وكان لذلك أثره العميق فى انبعاث الصراع بين العصبيتين اليمنية والقيسية، وهو صراع شمل العالم الإسلامى شرقا وغربا ، وكان من العوامل الرئيسية فى انهيار الدولة الأمـوية . كما كان فى الأندلس من الأسباب التى أدت إلى عبور عبد الرحمن الداخل وقيامه بتأسيس الدولة المروانية (٢) .

ومهما يكن من شىء فقد قصد الباحث من وراء تلك اللمحة السريعة ، بيان أن اليمنيين لم يقتصر دورهم على المجال المحلى داخل بلادهم فقط ، وإنما كان لهم دور بارز فى حركة الفتوح ، كما أثروا وتأثروا بشكل فعال بالأحداث والصراعات الدائرة فى قلب الدولة الاسلامية . ولست بصدد تتبع حركة القبائل اليمنية وتفصيل دورها ، فذلك موضوع ضخم يحتاج لعـــدة دراسات لابرازه .

---

(١) المقريزى ، احمد بن على : البيان والاعراب عما بأرض مصر مـن الأعراب ، تحقيق فستنفيلد ، جوتنجن سنة ١٨٧٤ ، ص ٣٥ .

(٢) انظر ، السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص١٨١ ومابعدها .

وظلت بلاد اليمن تابعة للأمويين ثم للعباسيين من بعدهم . وتتابع عليها ولاتهم . وفى نفس الوقت استغلها الخارجون على الخلافه العباسية لتكون ملجأ لهم ، لبعدها عن مركز الخلافة ، ومانتميز به من طبيعة جبلية وعرة ، وحصون عالية منيعة ، يصعب الوصول إليها أو الانتقال فيما بينها ، الأمر الذى يجعل مهمة إرسال الامدادات من دار الخلافة غير ميسور . وإذا وضعنا فى الاعتبار انشغال ولاة العباسيين فى اليمن وتكريس جهودهم لتحصيل الأموال ، لتبين لنا إلى أى مدى كانت بلاد اليمن هدفا للخارجين على العباسيين لاسيما الشيعة منهم .

وهكذا يمكن القول بأن تاريخ اليمن بدأ يصطبغ منذ تلك اللحظة بلون الصراعات المذهبية ، مما كان له أكبر الأثر على الجانب السياسي فى البلاد. ولهذا لم تحظ بلاد اليمن بالاستقرار الذى نعمت به غيرها من الولايات الاسلامية الأخرى ، والذى كان من أهم عوامل تطور حياتها الحضارية، فحرمت بلاد اليمن من تلك الميزة الهامة فى كثير من مراحلها التاريخية التالية . وقد أتاح ذلك المجال للشيعة للقيام بنشر دعوتهم ، وبلغ من نشاطهم أن قيل بأن جبال اليمن تحولت إلى مذهب الشيعة ، أما سائر المناطق فقد ظلت على مذهب أهل السنة(١) وتمسكت به . ولقد كانت بلاد اليمن سنية ـ كبقية الأمصار ـ وكان الغالب عليها مذهب مالك وأبى حنيفة (٢) ، أما مذهب الشافعي ، فقد

---

(١) Hogerth (D.G.): A History of Arabia, Oxford, 1922, p. 90,
حسن ابراهيم حسن ، وطه شرف : عبيد الله المهدى إمام الشيعة الاسماعيلية ومؤسس الدولة الفاطمية فى بلاد المغرب ـ القاهرة سنة ١٩٤٧ ـ ص٣٠٧.

(٢) ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن ص ٧٤.

انتشر فى اليمن ــ من عدن إلى صنعاء ــ ابتداء من المائة الرابعة للهجرة (١).

وفى أواخر القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى) بدأت القلاقل فى بلاد اليمن ، فخرج الأشاعر (٢) فى وادى زبيد عن طاعة العباسيين (٣) . كما ثار العلويون سنة ٢٠٣ هـ / ٨١٨ م بزعامة ابراهيم بن موسى العلوى المشهور بالجزار (٤) ، فجهز إليهم الخليفة العباسى المأمون جيشا بقيادة محمد بن زياد (٥)

---

(١) ابن سمرة : نفس المصدر ص ٨٨ ، الجندى : السلوك فى طبقات العلماء والملوك ص ٦٨ ، الأهدل : تحفه الزمن فى تاريخ سادات اليمن لوحة ٥٤ «أ».

(٢) الأشاعر عرب من القحطانيين يقيمون بوادى زبيد . ومن أشهر رجالاتهم أبو الحسن على الأشعرى صاحب المذهب الذى يعرف أتباعه بالأشاعرة . Kay (H. C.) : Yaman, Its Early Mediaeval History)
London. 1897, p. 123).

(٣) عمارة ، أبو الحسن نجم الدين الحكمى : تاريخ اليمن ، تحقيق ونشر هنرى كاى ، لندن سنة ١٨٩٢ ، ص ٢ .

(٤) ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، بولاق سنة ١٢٨٤ هـ ، جـ ٤ ص ٢١٢ . حسن سليمان محمود : تاريخ اليمن السياسى فى العصر الإسلامى ، بغداد سنة ١٩٦٩ ، ص ١١٨ .

(٥) يتصل نسب محمد بن زياد بعبيد الله بن زياد المعروف بزياد ابن أبيه الذى قام بدور رئيسى فى مقتل الحسين بن على . (ابن خلدون ، عبدالرحمن بن محمد : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، جـ ٤ ص ٢١٣ ، القلقشندى ، أبو العباس أحمد : صبح الأعشى فى صناعه الانشاء القاهرة ١٩١٣ — ١٩١٩ جـ ٥ : ص ٢٧ ، Kay : op., cit. , p. 219

استولى به على تهامة ٢٠٤ هـ / ٨١٩ م بعد حروب جرت بينه وبين العرب[١] واختط بها مدينة زبيد[٢] ، واتخذها حاضرة لدولته[٣] . واتسعت دولة ابن زياد حتى شملت حضرموت وديار كندة[٤] والشحر[٥] ومرباط[٦] وأبين[٧] ولحج وعدن والتهايم إلى حلي ابن يعقوب[٨] ، ومن جبال اليمن

---

(١) ابن عبد المجيد ، تاج الدين عبد الباقي : بهجة الزمن فى تاريخ اليمن ـ مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس رقم (٥٩٧٧ عربى) لوحة ١١ «أ» .

(٢) عمارة : تاريخ اليمن ص٣ :

(٣) بامخرمة ، أبو محمد عبد الله الطيب : تاريخ ثغر عدن ، نشر أوسكار لوفجرين ، ليدن سنة ١٩٣٦ ، جـ٢ ص ٢١٦ .

(٤) ديار كندة من جبال اليمن مما يلى حضرموت وجبال الرمل ، وقاعدتها دمون (ابن خلدون : العبر جـ ٢ ص ٣٦٧ ، جـ ٤ ص ٢٢٥ .

(٥) تقع الشحر على ساحل بحر الهند بين عدن وعمان (ياقوت ، شهاب الدين أبى عبد الله الحموى الرومى : معجم البلدان ـ القاهرة سنه ١٩٠٦ : ـ جـ٣ ص ٢٦٣ ، ابن عبد الحق، صفى الدين عبد المؤمن : مراصد الاطلاع ، طبع القاهرة سنة ١٩٥٤ ، حـ ٢ ص ٧٨٥) وتسمى ببلاد المهرة (ابن خلدون : العبر حـ ٤ ص ٢٢٦) .

(٦) مرباط ، مدينة من مدن الشحر ، تقع على الساحل بين عمان وحضرموت (ابن عبد الحق : مراصد الاطلاع ص ١٢٥٣) وهى على مسافة يوم ونصف يوم من ظفار (Kay op. cit. p. 223)

(٧) أبين ، مخلاف ووادى مشهور فى جنوب اليمن على البحر الهندى ، وإليه تضاف عدن (ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن ص ٣٠٦) .

(٨) حلى ، مدينة مشهورة فى اليمن ، تقع على ساحل البحر الأحمر شمال تهامة ، وتعرف بحلى ابن يعقوب ، وبينها وبين مكة ثمانية أيام (عمارة : تاريخ اليمن ص ٤ ، القلقشندى : صبح الأعشى حـ ٥ ص ١٣) .

أعمال المعافر (١) . والجند(٢) وأعمالها ، ومخلاف جعفر (٣)وصنعاء وصعدة ونجران(٤) وبيحان (٥) وواصل ابن زياد الخطبة لبنى العباس (٦) .

ولما تعرضت الدولة العباسية للاضطرابات الداخلية بعد سيطرة الأتراك على الخلفاء العباسيين ، منذ عهد المعتصم (٢١٨ — ٢٢٧ هـ /٨٣٣– ٨٤٢م)،

(١) المعافر ، من مخاليف اليمن بين ذبحان وجبا (ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ١٧ «أ») واليه تنسب الثياب المعافرية (ياقوت : معجم البلدان جـ ٨ ص ٩٢) وهو بلد واسع ذو مزارع وقرى (المقدسي : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ـ ليدن سنة ١٩٠٦ ـ ص ٨٧) وهو من أشهر مخاليف الجبال والسهول الشرقية (الجرافى :المقتطف من تاريخ اليمن — القاهرة سنة ١٩٥١ ص ٧) ويعرف الآن بالحجرية .

(٢) الجند ، مخلاف معروف باليمن يقـع إلى الشمال الشرقى من تعـز (القلقشندى : صبح الأعشي جـ ٥ ص١٤) وعلى بعد عشرين كيلو متـرا منها (الويسى : اليمن الكبرى ، القاهـرة سنة ١٩٦٢ ، ص ٣٩) ، وقـد سميت بهذا الاسم لأنها كانت مسكنا للجند (ابن المجاور : صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز ، ليدن ١٩٥١ — ١٩٥٤ ، ج ، ص ١٦٣) .

(٣) مخلاف جعفر ، وينسب إلى جعفر مولى ابن زياد مؤسس دولة بنى زياد باليمن سنة ٢٠٤هـ .

(٤) نجران ، مدينة عظيمة وولاية واسعة باليمن ، وهى من مخاليف اليمن شمال نجد (ابن المجاور :صفة بلاد اليمن جـ٢ ص٢١١) من ناحية مكة (ياقوت : معجم البلدان جـ ٨ ص ٢٥٨) .

(٥) بيجان ، مخلاف معروف باليمن (ياقوت : معجم البلدان جـ ١ ص ٧٨٢ وتقع إلى الجنوب الغربى من مأرب وإلى الشمال الشرقى من ذمار (الهمدانى : صفة جزيرة العرب ـ ليدن ١٨٩١ ـ ص ٢٧، ٨٠، ٨٧، ١٣٤).

(٦) عمارة : تاريخ اليمن ص ٤ .

وكنتيجة لمقتل الخليفة المتوكل (٢٣٢ - ٢٤٧ ﻫ/ ٨٤٧ - ٨٦١ م)، وموت المنتصر مسموما (٢٤٧ - ٢٤٨ ﻫ/ ٨٦١ - ٨٦٢م)، وخلع المستعين(١) (٢٤٨ - ٢٥٢ ﻫ / ٨٦٢ - ٨٦٦ م)، استغل ابن زياد تلك الاضطرابات، واستبد بملك اليمن وعظم شأنه، وتوراث بنوه الملك من بعده، واقتصرت التبعية للخلافة العباسية على الجانب الاسمى المتمثل في الدعاء للخليفة على المنابر.

لم يدم استقرار دولة بنى زياد طويلا، فقد نشطت الدعوة الاسماعيلية، وأصبحت بلاد اليمن منذ سنة ٢٦٨ ﻫ/٨١٩م مركزا لنشر تلك الدعوة. واستطاع الداعيان على بن الفضل الجدنى والحسن بن فرج بن حوشب - المعروف بمنصور اليمن - السيطرة على كثير من المناطق (٢). كما نشطت الدعوة الزيدية

---

(١) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ - القاهرة ١٣٠٣ ﻫ - جـ ٧ ص ٥٠، ابن طباطبا: الفخرى فى الآداب السلطانية ص ٢٢٠، د. حسن ابراهيم حسن: تاريخ الاسلام السياسي - الطبعة الخامسة سنة ١٩٦٠ - جـ٣ ص ٢ - ٩، د. احمد مختار العبادى: فى التاريخ العباسي والأندلسي - بيروت سنة ١٩٧٢، ص ١٢٣ وما بعدها.

(٢) انظر، الحمادى، محمد بن مالك: كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة - القاهرة سنة ١٩٣٩ - ص ٢١ وما بعدها، الجندى: أخبار القرامطة - ملحق بكتاب تاريخ اليمن لعمارة - ص ١٣٩ وما بعدها، ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن ص ٧٥ وما بعدها، ابن عبد المجيد: بهجة الزمن لوحة ١٥ وما بعدها، الخزرجى: العقد الفاخر الحسن جـ ٢ لوحة ٤٨ ب، حسين الهمداني وحسن سليمان محمود: الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن - القاهرة سنة ١٩٥٥ - ص ٣١ وما بعدها.

وقامت دولتهم فى اليمن على يد الامام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين (١) سنة ٢٨٤ هـ/ ٨٩٧ م ، وأصبح الصراع على أشده فى اليمن بين أتباع المذاهب الثلاثة ـ الاسماعيلى والزيدى والسنى (٢) ـ كل يعمـــل على توطيد دعائمه وتقويض الآخرين (٣) . وهكذا كان لذلك الصراع المذهبي ذى الطـابع السياسي ، أثره الكبير في انتشار الفوضي ، وانعدام الاستقرار ، وفقـدان الوحدة السياسية فى البلاد ، إلى انقسمت إلى أجزاء متنـاحرة (٤) . وقد ساهمت طبيعة البلاد الجبلية وضعف الخلافة العباسية وولاتها فى اليمـن ، فى

---

(١) انظر ، العلوى ، على بن محمد بن عبد الله العباسى: سيرة الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين ـ بيروت سنة ١٩٧٢ ـ ص ١٧٢ وما بعدها ، عمـارة : تاريخ اليمن ص ١٠٥ ، نشوان بن سعيد الحميرى : الحور العين ـ القاهرة سنة ١٩٤٨ ـ ص ١٩٦ ، الصعدى ، بدر الدين محمد بن يوسف : مآثر الأبرار فى تفصيل مجملات جواهر الأخبار ـ مخطوط ملك الباحث ـ ورقة ٥٨ وما بعدهـا ، زبارة : محمد بن محمد بن يحيي الحسنى : أئمة اليمن ـ تعز سنه ١٩٥٢ ـ ص ٨ وما بعدها ، الجرافي : المقتطف ص ١٠٤ وما بعدها ، محمد عبد الله ماضي : دولة اليمن الزيدية ـ بحث فى المجلة التاريخية المصرية ، العدد الأول من المجلد الثالث ، مايو سنة ١٩٥٠ ـ ص ٢٥ وما بعدها

Kay : Yaman, p. 226.

(٢) الصعدى : مآثر الأبرار ورقة ٦١ «أ» .

(٣) حسين الهمدانى وحسن سليمان محمود : الصليحيون والحركة الفاطمية فى اليمن ص ٢٦ .

(٤) محمد عبد العال أحمد : دولة بنى أيوب فى اليمن ـ رسالة ماجستير ، آداب اسكندريه ١٩٦٨ ـ ص ٢٤ .

التوصل إلى ذلك الموقف الخطير . ويمكن إجمال الصراع المذهبي في اليمن إلى نهاية الدولة الأيوبية ، وتحديده في أربع مراحل رئيسية .

فالمرحلة الأولى ، وتبدأ في أعقاب انتشار المذهب الاسماعيلي ، وقيام الامامة الزيدية في الربع الأخير من القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادى) وكانت هاتان القوتان - الاسماعيليه والزيدية - تستهدفان إقامة دولة موالية لأهل البيت ، وتتطلع كل منهما الي أن تكون هي المؤسسة لتلك الدولة ، باعتبارها أحق من الأخري بذلك . فلما تحقق لكل من القوتين قيام دولته ، تطورت المنافسة بينهما إلى صراع من أجل الانفراد بالإمامه والحكم ، وأدى ذلك إلى عجز تلك القوى الشيعية عن التعاون للصمود أمام القوى السنية المتداعية ، وأعنى بها دولة بنى زياد . وقد ساعد هذا الصراع المتشابك بين تلك القوى إلى إضعافها جميعا ، فسقطت الدولة الاسماعيلية بعد وفاة منصور اليمن سنة ٣٠٢ ه / ٩١٤ م ، وعلى بن الفضل بعده بعام . أما الزيدية ، فقد فتر نشاطهم وقنع إمامهم بالبقاء في هدوء في قاعدة دولته صعدة [١] .

أما المرحله الثانية من مراحل الصراع المذهبي ، فتبدأ بسقوط دولة بنى زياد في زبيد سنة ٤٠٩ ه / ١٠١٨ م ، وقيام دولة بنى نجاح السنية على أنقاضها . وتتميز تلك المرحلة بعودة النشاط الشيعي من جديد ، حيث استطاع الداعى الاسماعيلي على بن محمد الصليحى إقامة الدولة الصليحية سنة ٤٣٩ ه / ١٠٤٧ م ، وأن يتخذ من صنعاء حاضرة لدولته [٢] . وكان طبيعياً أن يدخل في صراع

---

(١) محمد عبد العال أحمد : دولة بنى أيوب في اليمن ص ١٢ وما بعدها .

(٢) انظر الحمادى : كشف أسرار الباطنية ص ٤٢ وما بعدها ، عمارة : تاريخ اليمن ص ٢٢ وما بعدها ، ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن لوحة ٢٤ وما بعدها ،

مع دولة بنى نجاح السنية ، وأن يؤدى الصراع المستمر بينهما إلى اضعافهما معا . فسقطت الدولة الصليحية سنة ٥٣٢هـ/ ١١٣٧م وتوارث ملكها دولة بنى زريع فى عدن (١) وبنى حاتم فى صنعاء (٢) . أما دولة بنى نجاح فقد انهكتها

= الخزرجى : العسجد ص ١٣٠ ومابعدها ، العقد الفاخر الحسن جـ ٢ لوحة ١٣٧ ومابعدها ، العرشى : بلوغ المرام فى شرح مسك الختام فى من تولى ملك اليمن من ملك وإمام — القاهرة سنة ١٩٣٩ — ص ١٥ ومابعدها ، الواسعى : تاريخ اليمن — القاهرة سنة ١٩٤٧ ص ١٥٣ ومابعدها ، حسن سليمان محمود : الصليحيون وعلاقاتهم بالفاطميين — رسالة دكتوراه بجامعة القاهرة ، الملكة أروى سيدة ملوك اليمن — القاهرة بدون تاريخ — علاقات الفاطميين بالدول الاسلامية — رسالة ماجستير بجامعة القاهرة — ص ٧٨ ومابعدها ، حسين الهمدانى وحسن سليمان محمود : الصليحيون والحركة الفاطمية فى اليمن .

Lane-Poole (st.), The Mohammadan Dynasties, Paris, 1925, P.92, The History of Egypt in the Middle Ages, London 1936. pp. 202 -203

(١) انظر ، عمارة : تاريخ اليمن ص ٤٩، ابن المجاور : صفة بلاد اليمن جـ١ ص١٢٣، ابن عبد المجيد : بهجة الزمن — لوحة ٢٦ ب ، الخزرجى : العسجد ص ١٠٦ ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ ١ ص ٤١ ، محمد جمال الدين مرور : النفوذ الفاطمى فى جزيرة العرب — القاهرة سنة ١٩٦٤ — ص ١٠٢ .

Lane-Poole: The Mohammadan Dynastics, p. 97, Kay: Yaman ,p.268

(٢) انظر ، ابن عبد المجيد : بهجة الزمن لوحة ٢٩ ب ، الخزرجى : العقد الفاخر الحسن جـ ٢ لوحة ٣٧ ، العسجد ص ٩٧ ، ابن رسول ، الملك الأشرف اسماعيل : فاكهة الزمن — مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٤٠٩ تيمور ص ١٨٠، يحيى بن الحسين : ابناء الزمن من تاريخ اليمن — مخطوط =

الحروب ضد الصليحيين والمنازعات بين أفراد الأسرة الحاكمة ، ثم توالى على حكمها ملوك ضعاف ، لايملكون من رسوم الملك سوى ذكر أسمائهم فى الخطبة بعد الخليفة العباسي، ونقش السكة ، والركوب بالمظلة فى المناسبات. أما الأمر والنهي والتدبير فقد استأثر به عبيدهم الذين قاموا بأمر الوزارة لهم[1] إلى أن سقطت دولتهم سنة ٥٥٤ هـ/ ١١٥٩ م .

أما المرحلة الثالثة ، فتبدأ بظهور على بن مهدى وتأسيس دولته[2] على

= بدار الكتب المصرية رقم ١٢٤٧ تاريخ ص٥٢، الشرفى، احمد بن محمد بن صلاح : اللآلى المضية فى أخبار أئمة الزيدية — مخطوط بمكتبة الجامع الكبير بصنعاء رقم ١٠٨ — جـ٢ ورقة رقم ١٣١ العرشي : بلوغ المرام ص ٢٩ ، الواسعى : تاريخ اليمن ص١٦٦ ، حسين الهمدانى وحسن سليمان محمود : الصليحيون ص ٢٣٩ .

(١) محمد عبد العال أحمد : دولة بنى أيوب فى اليمن ص ٢٦ ومابعدها .

(٢) انظر، عمارة : تاريخ اليمن ص ٩٢، ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن ص ١٨٧ ، ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ورقة ٤٢ب ، ابن الوردى ، عمر بن المظفر : تاريخ ابن الوردى — القاهرة ١٢٨٥ هـ — جـ ٢ ص٦١ ، ابن رسول : الملك الأفضل عباس : نزهة العيون فى تاريخ طوائف القرون ، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٣٥١ تاريخ ، الخزرجى : العسجد ص١٢٦، العقد الفاخر الحسن جـ ٢ لوحة ٥٥ب ، القلقشندى : صبح الأعشى جـ٥ ص٢٩، ادريس عماد الدين : نزهة الأفكار وروضة الأخبار فى ذكر من قام باليمن الميمون من الملوك الكبار والدعاة الأخيار ، مخطوط بمكتبة أحد علماء حراز باليمن ص ٦ ، ابن الديبع، أبو عبد الله عبد الرحمن بن على : بغية المستفيد فى أخبار مدينة زبيد مخطوط مصور رقم ١١م تاريخ بدار الكتب المصرية ، =

أنقاض دولة بنى نجاح سنة ٥٥٤هـ/١١٥٩م وكان ابن مهدى يشكل خطرا كبيرا على أهل السنة والشيعة على حد سواء بحيث فشلت دولتى بني زريع وبنى حاتم الشيعيتين ، كذلك الامام الزيدى احمد بن سليمان في الوقوف أمام مطامعه .
وأدى ذلك الصراع المستمر إلى انتشار الفوضى وعدم الاستقرار ، وانقسمت البلاد إلى أجزاء متناحرة مرة أخرى ، وتقطعت أوصالها ، وفقدت وحدتها السياسية تماما(١) . فكانت منطقة تهامة المطلة على البحر الأحمر تشغلها دولتان، واحدة في المخلاف السليمانى فى الشمال وهى تحت حكم الأشراف من بنى سليمان، والثانية دولة بنى مهدى فى زبيد وتمتد إلى حدود مدينة حرض شمالا. أما منطقة تهامة المطلة على المحيط الهندى فكانت تحت حكم بنى زريع . أما منطقة جبال اليمن، فقام بها عدد من الدويلات ، فبلاد الجريب وما إليها من بلاد الشرف ـ وهى منطقة مطلة على تهامة ـ فكانت تابعة لأولاد عمر بن شرحبيل. أما ذمار وما إليها ـ جنوبى صنعاء ـ فلقبائل جنب، فى حين كان بنو حاتم يحكمون صنعاء وأعمالها، وكانت شهارة ـ فيما بين صنعاء وصعدة ـ لبنى القاسم بن على العيانى. وفى أقصى جبال اليمن شمالا كانت صعدة وأعمالها وهى للأشراف الزيدية أولاد .

= ورقة ٩ « أ »، بامخرمة : أبو محمد الطيب بن عبد الله : قلادة النحر فى وفيات أعيان الدهر ـ مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٦٧ تاريخ، جـ ٢ ص ٧٥٥، العبدلى ، أحمد فضل بن على : هدية الزمن فى أخبار ملوك لحج وعدن ـ القاهرة سنة ١٣٥١ هـ ، ص ٦٣ ، العقيلى ، محمد بن أحمد عيسى ، المخلاف السليمانى ـــ الرياض سنة ١٣٧٨ هـ -- جـ ١ ص ٦١ ،

Derenbourg (H.), Omara du Yémen, Sa vie et son Oeuvre, Paris 1897-1902, vol. 2, p. 566;

(١) محمد عبد العال احمد : دولة بنى أيوب فى اليمن ص ٣٥ وما بعدها.

الإمام أحمد بن سليمان . أما بلاد الجوف ، والهضبة الشرقية فكانت للسلاطين آل الدعام [١] .

ثم تبدأ المرحلة الرابعة والأخيرة من مراحل الصراع المذهبي والسياسي من الفتح الأيوبي لليمن على يد تورانشاه بن أيوب ٥٠٩ هـ / ١١٧٤ م ، حيث تم القضاء على الدويلات المتصارعة في اليمن ، وتوحدت البلاد تحت الحكم الأيوبي [٢] بعد طول انقسام وشقاق .

ومع الفتح الأيوبي لليمن ، كانت الدعوة الاسماعيلية قد ضعفت ، وقل نشاط القائمين عليها نتيجة لصراع ابن مهدى مع أتباعها . فلما استولى الأيوبيون على اليمن وقضوا على دولتي بني ذريع [٣] وبني حاتم الإسماعيليتين ، تحول أتباع الدعوة إلى السرية حفاظا عليها .

أما الزيدية ، فكانوا قد أخلدوا إلى السكينة بعد وفاة إمامهم أحمد بن سليمان سنة ٥٦٦ هـ / سنة ١١٧١ م واستمر أتباع المذهب الزيدى بغير إمام ،

---

(١) يحيي بن الحسين: أنباء الزمن ص٥٣ ، زبارة : أئمة اليمن جـ ١ ص١٠٨ .

(٢) انظر ، محمد عبد العال أحمد : دولة بنى أيوب في اليمن ص٤٩ وما بعدها ،

Scott : In the High Yemen p. 226. Kay : Yaman, Introduction, p. VII, Derenbourge : Oumara Du Yemen, vol. 2, p. 548, Arnold (T.W.) ; The Caliphate, Oxford, 1924, p. 85. Marin(M.): Histoire De Saladin, Sulthan D,Egypte et Syrie, Tome, I, p. 221. Lane-Poole (St.): A History of Egypt. London, 1936. p. 197, The Mohammadan Dynasties, p. 74, Saladin and Fall of the Kingdom of Jerusalem, London, 1898, p. 124.

(٣) Lane-Poole : The Mohammadan Dynasties, p. 97.

ودون أن يصطدموا بالقوى الأيوبية إلى سنة ٥٩٤ هـ/ ١١٩٨ م عندما قام بإمامتهم الإمام عبد الله بن حمزة [١] .

ومن الجدير بالذكر ، أنه على الرغم من القضاء على الدويلات السنية فى اليمن قبيل الفتح الأيوبى ، فقد ظل السواد الأعظم من شعب اليمن متمسكا بالمذاهب السنية ، التى ظلت سائدة معظم أرجاء اليمن طيلة حكم الأيوبيين ومابعده ، باعتبارها مذهب الدولة الرسمى . وهذا ما كان صلاح الدين يعمل على تأكيده فى جميع أنحاء دولته ، كما كان القضاء على المذاهب الشيعية من أهم أسباب استيلائه على اليمن ، إلى جانب ماحققه ذلك من تخليص اليمنيين من حكامهم الطغاة امثال ابن مهدى ، وتوحيد البلاد ، ووضع حد للصراعات الداخلية ، بالاضافة إلى عامل آخر فى غايه الأهمية ، وأعنى به تأمين الحدود الجنوبية لدولة صلاح الدين ، وإحكام السيطرة على البحر الأحمر .

ولما استكمل تورانشاه فتح بلاد اليمن ، وأقر الأمور فيها ، أناب فيها نوابا له ، ثم غادرها - بعد أن أصبحت عملا له [٢] - متوجها إلى الشام لمعاونة أخيه صلاح الدين، وظل نوابه يرسلون له مايحصلونه من أموال . فلما توفى سنة ٥٧٦ هـ/ ١١٨٠ م أستأثر نوابه بالسلطة ، وطمع كل منهم فى الاستحواذ على ملك البلاد [٣] . وأمام الموقف المتأزم فى اليمن واضطراب

---

(١) محمد عبد العال احمد : دولة بنى أيوب فى اليمن ص ٣٥ .

(٢) العرشى : بلوغ المرام ص ٤١ ، الواسعى : تاريخ اليمن ص ١٨١ .

(٣) ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ص ٢١٢ ، أبو الفدا : المختصر فى أخبار =

الأمور فيها ، واستمرار الفتن بين نواب تورانشاه ، خشى صلاح الدين أن تخرج البلاد عن السيطرة الأيوبية (١) . فعقد العزم على إعادة الأمور إلى نصابها ، ووضع حد للاضطرابات والفوضى ، ولهذا جهز حملة تأديبية لليمن بقيادة مملوكه صارم الدين خطلبا والى القاهرة (٢) مستهدفا استعادة السيطرة الأيوبية على البلاد ، وإصلاح ما اختل من الأمور فيها (٣) .

البشر ـ الآستانة سنة ١٢٨٦ هـ ـ جـ ٣ ص ٦٦ ، الذهبى : سير أعلام النبلاء مخطوط بدار الكتب المصرية رقم١٢١٩٥ تاريخ ـ جـ ١٣ ص ١٥، الخزرجى المسجد ص ١٨٦ ، طراز الزمن فى طبقات أعيان اليمن ـ مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٢٦٥٧ تاريخ ـ جـ ٢ ـ ص ٤٥٥ ، العقود اللؤلؤية فى تاريخ الدولة الرسولية ـ القاهرة سنة ١٩١١ ـ جـ ١ ص ٢٩ ، القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ٢٩ ، العامرى : غربال الزمان فى وفيات الاعيان ـ مخطوط بمكتبة الجامع الكبير بصنعاء ـ ص ١٧١ ب ، الشرفى : اللآلى المضية جـ ٢ ص ١٣٢ ب يحيى بن الحسين : انباء الزمن ص ٥٠ .

( ) ابن الأثير: نفس المصدر والجزء ص ٢١٣ ، ابن واصل : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب، نشر الشيال ١٩٥٣، ـ ١٩٦٠ ـ جـ ٢ ص ١٠٤.

(٢) ابن أيبك الدوادارى ، أبو بكر بن عبد الله : درر التيجان وغرر تواريخ الأزمان ـ مخطوط بمكتبة بلدية الاسكندرية رقم ٣٨٢٨ جـ حوادث سنة ٥٧٧ ـ ، المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ـ نشر الدكتور زيادة، الطبعة الثانية سنة ١٩٥٦ ـ جـ ١ ص ٦٤ ، ص ٧٢ .

(٣) أبو شامة : الروضتين فى أخبار الدولتين ـ القاهرة سنة ١٢٨٧ هـ جـ ٢ ص ٢٥ ، ابن أيبك الدوادارى : كنز الدرر وجامع الغرر ـ مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢٥٧٨ تاريخ جـ ٧ ص ٥١ .

والحقيقة أنه على الرغم من بعد بلاد اليمن عن مسرح الصراع الأيوبى ، إلا أن أهميتها ظهرت بجلاء عندما تعرض البحر الأحمر لحملة أرناط [١] ، تلك الحملة التى لو قدر لها النجاح لكان قد ترتب عليها نتائج خطيرة . وكان من المأمول أن تتصدى القوة الأيوبية المرابطة فى اليمن لتلك الحملة ، غير أن الخلافات بين نواب تورانشاه لم تلبث أن نشبت من جديد بعد وفاة خطلبا . ولم تجد تلك القوات القيادة الرشيدة القيام بأعباء المواجهة لحملة أرناط ، ولهذا أسرع الملك العادل أبو بكر - أخو صلاح الدين - وأرسل حملة

---

(١) عن حملة أرناط ، انظر ، ابن جبير : رحلة ابن جبير - تحقيق حسين نصار ، القاهرة سنة ١٩٥٥ ص ١٢٦ ، ابن الأثير : الكامل حـ ١١ ص ٣٢٦ ، أبو شامة : الروضتين حـ ٢ ص ٣٦ ، ابن واصل : مفرج الكروب حـ ٢ ص ١٢٧ ، ابن خلدون : العبر حـ ٥ ص ٢٩٩ ؛ المقريزى : السلوك حـ ١ ص ٧٨ ، الخطط حـ ٤ ص ١٢٩ ، نظير حسان سعداوى : التاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين - القاهرة سنة ١٩٥٧ - ص ١٤٠ ، السيد الباز العرينى : مصر فى عصر الأيوبيين - القاهرة سنة ١٩٦٠ - ص ٦٩ ، جمال الدين الشيال : تاريخ مصر الاسلامية - القاهرة ١٩٦٧ - حـ ٢ ص ٥٨.

Lane-Poole: Saladin, p. 125, Wiet (G.) : Histoire de la Nation Egyptienne (L'Egypte Arabe), Paris 1926, vol IV. p. 332, Kammerer : La Mer Rouge, La Caire 1929, Tome I, p. 60, Lamb (H.): The Crusades, The Flame of Islam, London, 1931, p. 59 Fuller (J.F.C.) : Decisive Battles. Their influence upon history & civilization, London, 1950, part I, p. 234, De Gaury (G.): Rulers of Mecca, London, 1951, p 69, Reinaud ; Extraits des Historiens Arabes Ralatifs aux Guerres de Croisades, p. 1781

بحرية ، تمكنت من تحطيم قوة أرناط فى شـــوال سنة ٥٧٨ هـ / فـــبراير سنة ١١٨٣ م [١] .

وهكذا كانت حملة أرناط درساً استفاد منه صلاح الدين ، إذ تأكد له أهمية الدور الذى كان من الممكن أن تلعبه القوات الأيوبية المرابطة فى اليمن فى مثل تلك الظروف، لو أنها كانت تحت قيادة وسيطرة شخصية قوية . ولهذا جهز حمـــلة جديدة بقيادة أخيه الملك العزيز سيف الاسلام طغتكين سنة ٥٧٩ هـ / ١١٨٣ م ليتولى أمر السلطنة ببلاد اليمن ، ويحمى الحدود الجنوبية للبحر الأحمر . واستطاع طغتكين السيطرة على البلاد ، والقضاء على نفوذ نواب أخيه تورانشاه . ولم تقف جهوده على مجـــرد استرجاع السيادة الأيوبية على المناطق التى كانت تابعة للأيوبيين ، بل تعدت ذلك إلى فتح مناطق أخرى لم يكن قد فتحها الأيوبيون بعد [٢]. فأصبح طغتكين سيد البلاد بلا منازع ، وأطاعه جميع أهل اليمن ، وساد الأمن والاستقرار ربوع البلاد فى عهده ، فكانت فترة حكمه من أزهى فترات الحكم الأيوبى لليمن.

ومما يذكر أن الاتصالات كانت مستمرة بين صلاح الدين وسلاطين الأيوبيين فى اليمن أثناء حياته ، ولكن الوضع اختلف بعد وفاته سنة ٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م حيث انقطعت الامدادات إليهم ، وتحمل الأيوبيون فى

---

(١) أبو شامة . الروضتين جـ ٢ ص ٣٦ ، ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ص ١٢٩، سعيد عبدالفتاح عاشور: الأيوبيون والماليك فى مصر والشام، القاهرة ١٩٧٠ ، ص ٦٤ .

(٢) ابن عبد المجيد . بهجة الزمن لوحة ٨٤ ب

اليمن عبء الاعتماد على أنفسهم بعد ذلك (١). وقد ظهر ذلك واضحا عندما اختلت الأمور بعد وفاة طغتكين سنه ٥٩٣ هـ / ١١٩٧ م ، وانحراف خلفه المعز اسماعيل بن طغتكين ، وخروجه على المذهب السنى ، واساءته إلى الخلافة العباسية ، وانتسابه إلى بنى أمية وادعاؤه الخلافة . ولم يتحرك الملك العادل ، بل اكتفى بمجرد رسالة توبيخ أرسلها إليه (٢) ، ولم يعمل على إجباره على التخلى عن أفكاره ، ولم يقم بتدعيم الجيش الأيوبى بها بأية إمدادات عندما تعرض الانقسام نتيجة تصرفات المعز وإساءته إلى كبار قادة الأجناد ، مما أدى إلى تعرض الوجود الأيوبى فى اليمن لخطر محقق ، وخاصة بعد انضمام المنشقين منهم إلى الامام الزيدى عبد الله بن حمزة والتعاون معه ضد المعز إسماعيل (٣) . واستمر توقف الاتصالات بعد مقتل المعز سنة ٥٩٨ هـ / ١٢٠٢ م ، رغم أن الأمور كانت تسير من سيء إلى أسوأ فى عهـــد خلفه النـــاصر أيوب بن طغتـــكين الذى مات مسموما ســنة

---

(١) محمد عبد العال أحمد : دولة بنى أيوب فى اليمن ص ٢٢٨ .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ، القــاهرة ١٣٤٨ هـ ، جـ ١٣ ص ١٥ ، ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، مخطوط مصور بدار الكتب المصرية رقم ٣١٩٧ تاريخ ، مصور عن نسخة فينا ، جـ ٨ ص ٩٢ – ٩٣ ، العينى : عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان ، مخطوط مصور بدار الكتب المصرية رقم ١٥٨٤ تاريخ عن نسخة الأستانة ، مجلد ٥٢ ص ٢١٦ .

(٣) المحلى ، حميد بن أحمـــد : الحدائق الوردية فى مناقب الأئمة الزيدية ، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٤٨٧٥ تاريـــخ ، جـ ٢ ص ٣٥١ ، زبارة : أئمة اليمن جـ ١ ص ١١٣ .

٦١١هـ/ ١٢١٤م بتدبير من وزيره بدر الدين غازى بن جبريل [١]، وبوفاته خلت اليمن من العناصر الصالحة للسلطنة من أسرة بنى أيوب، فقامت أم الملك الناصر أيوب بأمر الملك إلى أن تم التعرف على سليمان بن شاهنشاه بن تقى الدين عمر الأيوبى، الذى لم تكد أم الناصر تتأكد من صحة نسبته إلى الأسرة الأيوبية حتى نصبته سلطانا سنة ٦١١هـ/ ١٢١٤م، ولكنه أساء السيرة، فزادت الأحوال فى عهده سوءا، وقامت حركات العصيان ضده، وانتشرت الفوضى، وعمت جميع أرجاء البلاد [٢]. وأمام الانهيار الكبير الذى هدد بخروج اليمن عن السيطرة الأيوبية، واستجابة لطلب الخليفة العباسى الناصر أحمد بن المستضىء، جهز الملك الكامل محمد بن العادل ابنه المسعود يوسف فى حملة سنة ٦١٢هـ/ ١٢١٥م إلى بلاد اليمن لاقرار الأمور فيها [٣] واستمر حكم

---

(١) الخزرجى: العسجد ص ٢١١، طراز الزمن جـ ١ ص ٤١٥، العقد الفاخر الحسن جـ ٢ لوحة ٧٦ «أ»، باخرمة: قلادة النحر جـ ٣ ص ٧٢٠، تاريخ ثغر عدن جـ ٢ ص ٢٤، الشرفى: اللآلى المضية جـ ٢ ص ١٣٤ «أ».

(٢) محمد عبد العال احمد: دولة بنى أيوب فى اليمن ص ١٩٨ ومابعدها.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٣ ص ١٣٩، أبو الفدا: المختصر فى أخبار البشر جـ ٣ ص ١٠٨، ابن الوردى: تاريخه جـ ٢ ص ١٢٠، الحنبلى: شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب، مخطوط بالمتحف البريطانى رقم ٧٣١١ إضافات، مصور بالميكروفيلم بمعهد المخطوطات بالجامعة العربية رقم ٣، لوحة ١١٢، ابن مظفر، محمد بن أحمد بن حمزة: الترجمان المفتح لثمرات كمائم البستان، مخطوط ملك القاضى حسين السياغى من علماء صنعاء. الجندارى، صفى الدين أحمد بن عبد الله: الجامع الوجيز فى وفيات العلماء أولى التبريز، مخطوط بمكتبة الجامع الكبير بصنعاء، لوحة ٧٤.

المسعود لبلاد اليمن حتى وفاته سنة ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م ، فكان آخر ملوك بنى أيوب فى اليمن [١] .

وصفوة القول أن الحكم الأيوبى المباشر لليمن استمر قرابة الستة والخمسين عاما (٥٦٩ - ٦٢٦هـ / ١١٧٤ - ١٢٢٩م) شغل الأيوبيون خلالها بحروب تكاد تكون مستمرة ، فمنها ما كان يستهدف الفتح أو استكماله ، أو القضاء على الفتن والحركات الداخلية المعادية ، ومنها ما كان ناتجا عن سوء سياسة بعض السلاطين ، وما تبع ذلك من انقسام فى صفوف القوى الأيوبية ، مما أدى إلى انضمام الكثير من قادة الأيوبيين بجندهم للعمل فى صفوف الامام الزيدى ، وما ترتب على ذلك من تهديد بزوال الوجود الأيوبى فى اليمن ، كما حدث منذ بداية عهد المعز اسماعيل بن طغتكين [٢] . أضف إلى ذلك تلك الحملات التفقدية والتقليدية التى كثيرا ما كانت تأخذ الصفة الدورية أو المستمرة .

ولقد بعث الملك المسعود الأمل من جديد فى حياة مستقرة باليمن ، إذ قام بعدة حملات أسفرت عن استقرار الأوضاع فى البلاد . ولم يكتف بمجرد السيطرة على بلاد اليمن فحسب بل ضم مكة إلى سيطرته . وبلغ من درجة اطمئنانه أن كان يتردد على مصر لزيارة أبيه الملك الكامل ، كلما سمحت الظروف بذلك ، وهو أمر لم يسبق لغيره من سلاطين الأيوبيين فى اليمن القيام به .

---

(١) محمد حسن : قلب اليمن ، بغداد سنة ١٩٤٧ ص ٣٨ ، محمد عبد العال أحمد : دولة بنى أيوب فى اليمن ص ٢٣٣ .

(٢) انظر ، دولة بنى أيوب فى اليمن ، ص ١٢٠ ومابعدها .

وكان الملك المسعود يعتمد على أبناء رسول كلما توجه إلى مصر ، فكانوا يتولون حكم البلاد نيابة عنه . فبزغ نجمهم فى عهده ، وقاموا بأعمال بطولية أثناء غيابه ، مما أوغر صدور حسادهم حقدا عليهم ، فوشوا بهم الى الملك المسعود ، واتهموهم بالعمل على الاستقلال بالبلاد . فقام الملك المسعود بالقبض على أبناء على بن رسول وأرسلهم جميعا إلى مصر خوفا على الملك منهم ، فيما عدا نور الدين عمر الذى شفعت له مكانته عند الملك المسعود فتركه وقربه ، وأنابه عنه عندما توجه إلى مصر فى المرة الأخيرة ٦٢٦هـ/١٢٢٩م بحيث توفى الملك المسعود فى مكة . واستمر نور الدين عمر بن على بن رسول نائبا عن الأيوبيين فى اليمن ، وأخذ منذ تلك اللحظة يمهد الطريق للاستيلاء على البلاد ، حتى نجحت جهوده وأعلن استقلاله بملك اليمن سنة ٦٢٨ هـ / ١٢٣١ م .

الفصل الأول

قيام دولة بني رسول

على عهد مؤسسها نور الدين عمر بن رسول

ورث بنو رسول ملك اليمن عن الأيوبيين ، فكانوا نوابهم عليها فى عهد الملك المسعود يوسف بن الكامل آخر سلاطين الأيوبيين فى اليمن . وكان الملك المسعود قد استناب عنه نور الدين عمر بن على بن رسول فى حكم اليمن ، عندما عزم على التوجه لزيارة أبيه فى مصر سنة ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م ولكنه توفى أثناء توقفه فى مكة ودفن بها . فلما علم نور الدين ، خشى أن ينتدب الملك الكامل نائبا آخر بدله ، فسعى جاهدا لإثبات ولائه للملك الكامل ، حتى استطاع أن يحظى في النهاية بثقته ، وأن يستمر نائبا له فى حكم اليمن . فلما تحقق له ذلك ، عمل منذ تلك اللحظة على التمهيد للسيطرة على البلاد ، واستمر يعمل تدريجيا لتحقيق استقلاله بحكمها ، حتى تكللت جهوده فى النهاية بالنجاح ، فخلع طاعة بنى أيوب فى مصر . واستقل بحكم اليمن سنة ٦٢٨ هـ / ١٢٣١ م أى بعد مضى عامين فقط من وفاة المسعود يوسف .

١ - محاولات إسباغ الصفة الشرعية على حكم بنى رسول :

رأى بنو رسول أنه لابد من العمل على إسباغ الصفة الشرعية على حكمهم

لبلاد اليمن ضماناً لاستمراره . وقد أورد بعض مؤرخي اليمن عـــددا من الروايات ، نقلها عنهم غيرهم ، منها مايتعلق بنسب بنى رسول وإرجاعهم إلى أصل يمنى ، ومنها ماهو منسوب إلى بعض الصالحين وتتضمن التبشير بقيام دولتهم فى اليمن ، وثالث تلك الروايات ماسب إلى الملك المســعود نفسه ، مما يعتبر تنازلا منه عن حكم اليمن لنور الدين عمر بن على بن رسول وأخيراً مايتعلق بالحصول على اعتراف الخليفة العباسى بقيام نور الدين بملك اليمن .

وبهذا يكون بنو رسول قد استندوا فى قيـــام دولتهم على أصلهم اليمنى باعتبارهم من أهل البلاد وليسوا أجانب عنها كالأيوبيين . كما استندوا على تنبوءات بعض الصالحين من أهل اليمن بقيام دولتهم ، وعلى أنهم لم يغتصبوا الحكم من الأيوبيين لأن ذلك آل إليهم بعد أن تنازل الملك المسعود عنه لأولهم قبل وفاته . وأخيراً يستند بنو رسول على اعتراف الخلافة العباسية استكمالا للصفة الشرعية، باعتباره ضرورة من ضرورات العصر، يستند إلى حق ثابت لهم.

أولا :ـ مشكلة انتحال بنى رسول للنسب اليمنى :

ينتسب نور الدين عمر بن على – مؤسس دولة بنى رســـول – إلى جده رسول ، وهو محمد بن هارون بن أبى الفتح بن يوحى بن رستم الغسانى الجفنى المنجكى التركمانى ، من نسل جبلة بن الأيهم [(١)] .

---

(١) هو جبلة بن الأيهم الغسانى الذى يرتفع نسبه إلى كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان . (عن نسب بنى رسول انظر ، الجنـــدى : السلوك ص ٤٥٧ ، ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥١ (أ) ، الذهبى: سير =

وإذا كان من الثابت فى المصادر اليمنية أن على بن رسول وأولاده قد توجهوا إلى اليمن صحبة الأيوبيين ، فقد كان لزاما على تلك المصادر أن توضح كيفية هجرة أجدادهم الأول من اليمن ، إذا كانوا يرجعون فعلا إلى أصل يمنى ، مع إيجاد التفسير المقنع لعدم نسبتهم إلى التركمان ، ومع أن المصادر السابقة على الخزرجى قد اكتفت بنسبة بنى رسول إلى جبلة بن الأيهم —

= أعلام النبلاء جـ ١٢ ص ٢٦٣ ، الأفضل الرسولى : العطايا السنية والمواهب الهنية فى المناقب اليمنية — مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٣٥١ تاريخ — ص ٣٠ ب ، نزهة العيون فى تاريخ طوائف القرون — مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٣٥١ تاريخ ص ٢٧١ ب ، الأشرف الرسولى : طرفة الأصحاب فى معرفة الأنساب — تحقيق سترستين ، دمشق سنة ١٩٤٩ — ص ١٨ — ٢٨ ، ٣٩ — ٤٢ ، ٨١ — ٩٢ ، الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ١ — ٢٨ ، طراز الزمن جـ ٢ ص ٣٧١ ، الفاسى : شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ، القاهرة ١٩٥٦ ، جـ ص ٥٦ ، ابن الديبع : قرة العيون فى أخبار اليمن الميمون — مخطوط رقم ١٣٥٥ تاريخ بدار الكتب المصرية — ص ٢٦٥) . أما عن سلسلة نسب جبلة بن الأيهم ، انظر (ابن واضح اليعقوبى : تاريخ ابن واضح — نشر هوتسما ، ليدن ١٨٨٣ — جـ ١ ص ٤ ، الهمدانى : الاكليل ، الكتاب العاشر ، تحقيق محب الدين الخطيب ١٣٦٨ هـ ، ص ٥ ، النويرى : نهاية الأرب — طبعة دار الكتب — جـ ٢ ص ٣١١ ، ابن خلدون : العبر جـ ٢ ص ٢٥٣ ، القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١ ص ٣١٩ ، قلائد الجمان فى التعريف بقبائل عرب الزمان — نشر الابيارى ١٩٦٣ — ص ٩٤ ، ٩٥ . سعد زغلول عبد الحميد : فى تاريخ العرب قبل الاسلام — بيروت ١٩٧٥ — ص ٧٠ ومابعدها .

آخر ملوك الغساسنة بالشام [١] ـ واتصـــال هذا النسب إلى سبأ [٢] أو عبدشمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان [٣] ، إلا أن الخزرجى

---

(١) كان الغساسنة عمالا للقياصرة على عرب الشام ، ويرجع سبب انتقالهم للشام إلى خوفهم من انهيار سد مأرب فتركوا موطنهم قبل انهيار السد أو بعده ، واستقر بهم المقام ببلاد الشام التى كان على ملكها سليح بن حلوان ابن عمران بن الحاف بن قضاعة ، فاستولت غسان على البلاد ، وأخرجت سليحا منها ، فكان جفنة بن عمرو أول ملوك الغساسنة بالشام . (حمزة بن الحسن الأصفهانى : تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء ـ برلين ١٣٤٠ هـ ـ ص ٧٧ ، الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٢٠ - ٢١ ، القلقشندى : قلائد الجمان ص ٩٤ ، السيد عبد العزيز سالم : تاريخ العـــرب فى العصر الجاهلى ص ١٩٥ ـ ١٩٨ ، سعـــد زغلول عبد الحميد : تاريخ العرب ص ٢٠٩ ـ ٢٢٠ .

(٢) قيل أنه سمى سبأ لأنه أول من سبى السبايا ؛ وكان له من الأولاد حمير وكهلان ، فلما أحس بدنو أجله ، قلد الأول الملك ، وخص الثانى بأمور الحرب ، وأعقب كل منهما بنوه فيما قرر له . ومما يذكر أن عامر بن حارثة الأزدى الكهلانى ـ المسمى ماء السماء ـ كان معاصرا للحارث الرائش الحميرى الذى نسب إليه الخـــزرجى قصيدة تنبأ فيها بأشياء كثيرة ، منها تولى بنى رسول ملك اليمن . (الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ١٠ ـ ١٦) .

(٣) الخزرجى : طـــراز الزمن جـ ٢ ص ٣٧١ ، ابن عبد المجيد : بهجة الزمن لوحة ٥١ « أ » ، (يلتقى قحطان وعدنان فى جدهما عابر بن شالخ ، وكان لعابر ولدان ، هما هود وفالغ ، فهود أبو قحطان ، وفالغ أبو عدنان ومن ذريته ابراهيم عليه السلام ، ومن ابراهيم بنى اسرائيل وبنى عدنان من ذرية اسماعيل) الأشرف الرسولى : طرفة الأصحاب ص ١٠٨ (وبنو =

كان أول من اهتم بذكر كيفية خروج الغساسنة، باعتبارهم أجداد بنى رسول من اليمن، ونزولهم بأرض الشام الجنوبية ، ثم تتبع هجرتهم من بلاد الشام حتى عودة محمد بن هارون (رسول) ، وانضمام ابنه على إلى الأيوبيين ودخوله اليمن صحبتهم ، وذلك دون أن يمدنا الخزرجى بأسماء المصادر التى اعتمد عليها فى ذلك .

وذكر الخزرجي [١] أن الغساسنة وغيرهم من قبائل الأزد تركوا بلاد اليمن عند خراب سد مأرب بسيل العرم، وتشتتوا وتبعثرت قبائلهم فى مناطق متعددة من شبه الجزيرة العربية وتخوم الشام والعراق ، فكانت المنطقة الممتدة من الجولان إلى البلقاء منزلا للغساسنة بعد تغلبهم على بنى سليح بن حلوان المعروفين بالضجاعم ، فحلوا محل الضجاعم فى خدمة الدولة البيزنطية ، وكان جفنة بن عمرو مزيقياء أول أمراء الغساسنة بالشام ، وتتابع خلفاؤه على حكمها إلى عهد جبلة بن الأيهم ــ آخر أمرائهم ــ الذى أدرك الاسلام ودخل فيه . بعد انتصار المسلمين على الروم ومنتصرة العرب فى وقعة اليرموك [٢]، ثم حدث ماجعله يرتد عن الاسلام إلى دين النصرانية ، وتوجه

= رسول باعتبارهم من بنى جفنة ، أشهر قبائل الأزد ــ يمتون بصلة القربى لقبائل همدان ، ويتصلون بهم عند مالك بن زيد بن كهلان) الأشرف الرسولى : طرفة الأصحاب ص ٧ و ١٩ و ٢٥ و ٢٩ .

(١) العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٢٠ ــ ٢١ ، القلقشندى: قلائد الجمان ص ٩٤ ــ ٩٦ .

(٢) حمزة الأصفهانى : تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء ص ٧٦ ، =

فيمن وافقه من قومه إلى بلاد الروم . وظل فى بلاط هرقل فى القسطنطينية فى رغد من العيش حتى مات على دين النصرانية فى قول ، وقيل بل ندم على ماأقدم عليه ومات على الاسلام [١] .

أما بنو جبلة وقومه، فقد انتقلوا بعد وفاته إلي بلاد التركمان ، واستقروا مع قبيلة من أشرف قبائلها ، هى قبيلة منجك واختلطوا بها وتعلموا لغتها ، واستمروا معها [٢] إلى أن انقطعت أخبارهم عن كثير من الناس ، فنسبهم من لايعرفهم إلى منجك من التركمان [٣] ثم كان دخولهم إلى العراق، واتصال

= المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر ـ القاهرة ١٩٥٨ ـ جـ ٢ ص ١٠٩ ، السيد عبد العزيز سالم : تاريخ العرب فى العصر الجاهلى ص ١٩٥ و ١٩٧ و ٢٠٩ ، محمد جمال الدين سرور : قيام الدولة العربية ـ الطبعة الرابعة ١٩٦٤ ـ ص ٣٧ و ٣٦ ، عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسى للدولة العربية ـ الطبعة الثالثة ١٩٦٥ ـ جـ ١ ص ٨٩ ـ ٩٠

EL-KHAZREJIYY (A.H.), The Pearl - Strings; A History of The Resuliyy Dynasty of Yemen. vol. III, The Annotations, by Sir J. W. Redhouse, p. 2, Note. 5

(١) الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٢٥ ـ ٢٧ ، القلقشندى . قلائد الجمان ص ٩٦ .

(٢) EL - Khazrejiyy : op. cit., p. 30, Note 165.

(٣) الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٢٧ ، العسجد ص ٢٢٣ ، ابن الديبع : قرة العيون ورقة ٦٥ ب .

رئيسهم محمد بن هارون بخدمة الخليفة العباسي . ويستطرد الخزرجي فيذكر . أن محمد بن هارون – جد مؤسس دولة بنى رسول ـ كان رجلا جليل القدر عظيم الشأن من بيت شجاعة ورئاسة [1] ، وله وجاهة عند الملوك ، أنس اليه الخليفة العباسى ووثق به ، فقربه إليه وأدناه منه ، وسمح له بارتياد مجلسه بغير حجاب. وارتفع شأنه عند الخليفة حتى اختصه برسائله إلى الشام ومصر [2] وإلى من يريد من الملوك، فى الأمور السرية التى يخشى تسربها ويحرص على كتمان تفاصيلها ، لا سيما الشفوية منها ، ذلك أن الرسائل المكتوبة قد يطلع عليها ـ ولو بعد حين ـ فيعرف القوم مالا يريد الخليفه نشره . ولهذا كان محمد ابن هارون يتحدث بلسان الخليفة وبغير رسالة مكتوبة منه ، ويعود بالجواب شفاهة ، اطمئنانا له وثقة بأمانته [3] .

وهكذا كانت هذه المنزلة الرفيعة التى توصل إليها محمد بن هارون عند الخليفة، سببا فى إطلاق لقب« رسول الخليفة »عليه . فشاع ذلك حتى شهر به وطغى على اسمه، فجهله الكثيرون ولم يعد يعرفه بإسمه إلا القليل من الناس [4].

---

(١) الخزرجى: العقــــود اللؤلؤية جـ١ ص ٢٧ ، ابن الديبع : قرة العيون ٦٥ب.

(٢) الخزرجي : نفس المصدر والصفحة . ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٧١ .

(٣) الخزرجي : العسجد ص ٢٢٣

(٤) الخزرجى : العسجد ص ٢٢٣ ـ ٢٢٤ ، العقــــود جـ ١ ص ٢٧ ، الفاسى : العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين ـ مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٨٤٩ تاريخ تيمور ـــ جـ ٣ ص ٣٩٣.

ويتضح لنا مما سبق أن المؤرخين اليمنيين قد عملوا على إرجاع نسب بنى رسول إلى أصل يمنى، واجتهدوا لاثبات أنهم من نسل جبلة بن الأيهم، الذى يرتفع نسبه إلى قحطان، الذى ينتسب إليه عرب اليمن جميعا [1] . وهؤلاء « الرسوليون » وإن كانوا غرباء قد وفدوا إلى اليمن فى صحبة الأيوبيين إلا أنهم ينتسبون إلى إحدى القبائل اليمنية العريقة ، مما يكسبهم الصفة الشرعية فى حكم بلاد اليمن، باعتبارهم من أبنائها .

مناقشة نسب بنى رسول :

واذا ماتطرق الباحث إلى مناقشة ماذكرته المصادر عن نسب بنى رسول، يتضح أن سلسلة النسب لم ترد كاملة ، بمعنى أنها توقفت عند أبى الفتح بن يوحى بن رستم ، ثم قفزت طفرة واحدة ، قاطعة تسلسل النسب بعده مايقرب من خمسمائة عام، دون استكمال إلى جبلة بن الأيهم ، ثم إلى آخر سلسلة النسب المعروفة فى كتب الأنساب إلى آدم عليه السلام . ومما لاشك فيه أن وجود تلك الفجوة فى سلسلة النسب ، يجعل من الصعب تتبعه إلى جبلة بن الأيهم ، وفى نفس الوقت يستثير الشك فى صحة انتساب بنى رسول إلى الغساسنة ومن ثم إلى القحطانيين . ولو أن المصادر قد استكملت تلك الفجوة، لكان من السهل متابعة هذا النسب والتأكد من مدى صحته .

واذا كانت الرواية قد ذكرت أن ابن هارون (رسول) قد شهر بلقب « رسول الخليفه » إلى حد اغفال اسمه الحقيقى، بحيث لم يعد يعرف اسمه

---

(١) Kay : Yaman, pp. 215 – 216

ونسبه إلا القليل من النـاس (١) ، فمعنى ذلك أنه كان فى الامكان استكمال سلسلة النسب عن طريق هؤلاء الذين كانوا على اتصال وثيق به ، ومن المحتم أنهم كانوا يعرفون اسمه الصحيح ، لتأكدهم من نسب محمد بن هارون ، وأنه من نسل جبلة بن الأيهم الذى مضى على اتصاله بهرقل قيصر الروم — وهجرة أبنائه من بعده إلى بلاد التركمان — مايقرب من خمسمائة وخمسين عاما إلى بداية العصر الأيوبى ، أو ستمائة عام إلى قيام دولة بنى رسول .

وإذا وضعنا فى الاعتبار أن ذكر النسب قد ورد فى مصادر متأخرة ، وأن المصادر المعاصرة لم تذكر شيئا عن نسبهم فى ثنايا الأحداث السابقة على قيام الدولة أو بعدها ، لتأكد لنا أن هذا النسب قد تم الاعداد له بعد قيـام الدولة ، إذ أن أول مايقابلنا فيما يتعلق بذلك ما كتبه أحد سلاطين بنى رسول أنفسهم — وهو السلطان الملك الأشرف عمر بن يوسف بن عمر بن على بن رسول ثالث ملوك بنى رسول (ت ٦٩٦هـ/١٢٩٧م) ، حيث ركز فى معرض ذكره لانساب العرب فى كتابه « طرفة الأصحاب فى معرفه الأنساب » على نسب أسرته باعتبارهم من نسل جبلة بن الأيهم . وقد نقل عنه غيره من مؤرخى اليمن كالجندى (ت٧٣٢) وابن عبد المجيد (ت ٧٤٣) والسلطان الملك الأفضل (ت ٧٧٨) والخزرجى (ت ٨١٢) ، وقد ورد النسب فى كتبهم — فيما عدا الخزرجى — مجملا ، أما الخزرجى فقد زاد على سلسلة النسب بيان خروج أجدادهم — بعد سيل العرم — إلى الشام ثم القسطنطينية وبلاد التركمان وعودتهم إلى العراق ثم مصر ومنها إلى اليمن ، متتبعا بذلك هجرتهم وعودتهم ، لازالة عوامل الشك فى انتسابهم إلى الغساسنة ، وإثبات أصلهم اليمنى ، ولهذا يعتبر

---

(١) الخزرجى : العسجد ص ٢٢٣ — ٢٢٤ ، العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٢٧ ، الفاسى : العقد الثمين جـ ٣ ص ٢٩٣ .

الخزرجي أول من أعطى هذه التفصيلات بل بلغ من اهتمامه ــ بالاضافة إلى ما أورده فى كتاب « العقود اللؤلؤية » وفى غيره مثل « العسجد المسبوك» ــ أن أفرد مؤلفا خاصا سماه « المحصول فى انتساب بنى الرسول » (١) وهو كتاب مفقود .

وعلى ضوء ماسبق ، فإنه من المعتقد أن رواية النسب هذه ملفقة من أساسها ــ الأمثلة المماثلة فى التاريخ كثيرة ــ أو على الأقل مشكوك فى صحتها ، وأنها محاطة بظلال من الشك ، وتحتاج إلى الدليل القاطع على صحتها . ويؤكد ما توصلنا إليه، أن المؤرخ اليمنى بدر الدين محمد بن حاتم صاحب كتاب « السمط الغالى الثمن فى أخبار الملوك من الغز باليمن » والذى كان معاصرا للسلطان الرسولى المظفر يوسف بن نور الدين عمر ثانى سلاطين بنى رسول ، ودخل فى خدمته ، ذكر فى مقدمة كتابه ، أن الدافع له على تأليفه يرجع إلى أنه لما لم « يكن أحد قد صرف همته إلى أخبار الغز باليمن وتخليدها فى كتاب يتداول إلى آخر الزمن ، أحببت أن أكون السابق إلى ذلك » (٢) ، وقد

(١) ألف الخزرجى كتابه « المحصول فى انتساب بنى الرسول » شرح فيه قصيدة نسبها للحارث الرائش الحميرى الذى عاش فى فترة ماقبل خراب سد مأرب ، وتنبأ فيها بما سيكون من الحوادث ، ومنها قيام دولة بنى رسول ، وذكر الخزرجى أنه ألف هذا الكتاب لما شهد به من انتسابهم « وقل أن يوجد دليل على صحة نسب أحد من الناس كصحة هذا النسب » . الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٢ ــ ٦

(٢) ابن حاتم ، بدر الدين محمد : السمط الغالى الثمن فى أخبار الملوك من الغز باليمن ــ مخطوط بالمتحف البريطانى رقم ٤١ د ٢٧ إضافات ــ ورقه ١ (ب) محمد عبد العال أحمد : الفتح الأيوبى لليمن ص ١٤٦ .

تناول ابن حاتم فى كتابه، تاريخ الأيوبيين فى اليمن ومن جاء بعدهم من ملوك بنى رسول إلى بداية سلطنة الأشرف عمر بن يوسف بن عمر بن على بن رسول ثالث سلاطين بنى رسول .

ويعتبر كتاب السمط المصدر الأول والأساسى لتاريخ بنى رسول فى فترة قيام دولتهم واستقرارها ،ولم يتعرض ابن حاتم لانتساب بنى رسول للغساسنة، بل على العكس فإنه يكون قد أكد نسبتهم إلى الغز ، وهم جنس من الترك ، منهم السلاجقة[١] . والغز أو الأغز أطلقها دوزى Dozy على الأكراد أيضا[٢] . كما ذكر ابن خلدون أنه باستيلاء الأيوبيين على اليمن ، انقرض ملك العرب من اليمن ، وصار للغـز (الأيوبيين) ومواليهم بنى رسول من بعدهم [٣] . وهـذا يعنى أن بنى رسول لا يمتون إلى أصل عربى ، وهكذا فإن انتسابهم إلى أصل يمنى يقصد به لإثبات أنهم من أبناء اليمن مما يكسبهم الصفة الشرعية فى الحكم .

أما فيما يتعلق بمحمد بن هارون (رسول) ومغادرته بلاد التركمان دون

---

(١) القلقشندى : قلائد الجمان ص ٢٨ ، سعد زغلول عبد الحميد : الترك والمجتمعات التركية عند الكتاب العرب وغيرهم . بحث بمجلة كلية آداب الاسكندرية ، المجلد العاشر ديسمبر سنة ١٩٥٦ ، ص ١٦ .

(٢) انظر مادة (غز) فى ، Dozy : Supplement aux Dictionnaires Arabes.

(٣) ابن خلدون : تاريخ اليمن ، ملحق بكتاب تاريخ اليمن لعمارة ؛ نشر Kay ، ص ١٢٠ .

سبب معروف إلى العراق، واتصاله فى بغداد بخدمة الخليفة العباسي ، فإننا إذا سلمنا جدلا بصحة هـذه الرواية نجـد أنها قد أغفلت ذكر تاريخ رحيله إلى العراق ، كما لم تصرح بإسم الخليفة العباسي المقصود والمدة التى عمل فيها رسولا له، وأسباب وتاريخ تركه خدمة الخليفة۔ بعدما بلغ هذه المنزلة الكبيرة عنده ۔ وتوجهه إلى الشام ثم إلى مصر .

غير أنه اعتمادا على ماذكره الخزرجى نقلاعن صاحب السيرة المظفرية[١]، يتبين لنـــا أن بنى رسول كانوا فى مصر فى بداية عصر الدولة الأيوبية ، وباستخدام هذه الرواية بشيء من الحـذر ، يمكن القول بأن توجه محمد بن هارون من بلاد التركمان إلى العراق تم على وجه التقريب ولأسباب غير معروفة فى طليعة النصف الثانى من القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميـلادى) . وعلى هذا يكون الخليفة العباسى المقصود هو المستنجد بالله[٢] ، وأن مغادرته العراق حدث بعد وفاة الخليفة مباشرة أو قبـــله لأسباب تتعلق باحتمال عدم احتفاظه بمكانته المرموقة ، أو عـلى أكـثر تقدير فى عهـد خلفه المستضيء ابن المستنجد[٣] ، وأنه لم يستمر فى خدمة هـذا الخليفة طويلا ولحق بالشام

---

(١) الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٢٨ .

(٢) هو الخليفة أبو المظفر يوسف المستنجد بالله بن المقتفى (٥٥٥-٥٦٦ هـ) زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحـاكمة فى التاريخ الاسلامى ـ ترجمة د . زكي محمد حسن وآخرون ـ القاهرة ١٩٥١ ، جـ ١ ص ٤) :

(٣) هو الخليفـة المستضيء بأمر الله بن المستنجد (٥٦٦ - ٥٧٥ هـ) ، زامباور: المرجع السابق جـ ١ ص ٤ .

ومنها إلى مصر . وربمـا كان قد قصد خدمة نور الدين محمود بن زنكى فأرسله إلى صلاح الدين فى مصر (١) .

ولايزعم الباحث أنه بهذا التعليل قد توصل إلى إثبات صحة هذه الرواية، إذ يبقى من الضرورى تفسير نقطتين هامتين : ــ

أولاهما ، إيجـاد تعليل مناسب لأسباب عدم ذكر محمد بن هارون ــ اسما ولقبا ــ فى المصادر التاريخية أو كتب التراجم المعاصرة له ، رغم ما كان يتمتع به من شهرة كبيرة ، ومكانة مرموقة لدى الخليفة، فالمصادر قد تعودت الإشارة إلى أخبار من هم فى مثل مكانته ، وذكرهم بأسمائهم وألقابهم .

أما النقطة الثانية ، فتختص بما ذكر عن توجهه رسولا للخليفة إلى مصر ، وهـذا يعنى أنه كان قد ترسل إلى الفاطميين ، وهو أمر مستبعد ، لمـا هو معروف عن العداء المذهبى التقليدى بين الخلافتين .

وعلى هذا نرى أن هـــذه الرواية يشوبها الشك أيضا ، وتحتاج إلى مايدعمهـا لورودها فى المصادر اليمنية المتأخرة دون غيرهـا ، وبغير سند إلى مصادر معاصرة .

وصفوة القول أن ماذكر حول نسب بنى رسول للغساسنة هو محض ادعاء ليس له ما يدعمه، وأن ذلك قد بدأ نسجه متأخراً بعد قيام الدولة، وبتوجيه من ملوك بنى رسول أنفسهم . والمرجح أن ذلك تم فى عهـد السلطان المالك

---

(١) EL-Khazrejiyy : The Pearl - Strings, vol. 111, 3, P. 29, N. 162.

المظفر يوسف بن عمر بن على بن رسول - ثانى سلاطين بنى رسول (٦٤٧ - ٦٩٤هـ) الذى ألفت برسمه السيرة المظفرية — وهى من المخطوطات المفقودة — والتى نقل عنها الخزرجى .

واستنادا إلى كل ما تقدم أرى أن بنى رسول لا يمتون إلى أصل عربى ، وأن محاولة المصادر اليمنية المتأخرة نسبتهم إلى الغساسنة يقصد بها اكساب حكمهم الصفة الوطنية . وعلى هذا فإنهم يرجعون إلى أصل تركمانى ، وهو العنصر الذى كان يتكون منه ومن الأكراد معظم جيش صلاح الدين، والذين توجهوا إلى مصر صحبة أسد الدين شيركوه فى أواخر عصر الدولة الفاطمية، أو ضمن الامدادات التى توالت تباعا على صلاح الدين لتدعيم سيطرته على مصر بعد القضاء على الخلافة الفاطمية .

٢ - التنبوء بقيام دولة بنى رسول :

أما عن الروايات التى وردت بشأن التنبوء والتبشير بقيام دولة بنى رسول، فهى متعددة ومنسوبة إلى شخصيات متنوعة .

وأول هذه الروايات ما ورد منسوبا إلى الحارث الرائش الحميرى (١) .

---

(١) كان ملك الحارث الرائش لليمن قبل ظهور النبى (صلعم) بنحو ستمائة عام. وكان معاصرا لعامر بن حارثة الأزدى - جد جفنة بن عمرو مؤسس دولة الغساسنة بالشام - وقد ذكر الخزرجى أن الحارث الرائش كان محدثا - بفتح الدال المشددة - أى الذى يتحدث بمستقبلات الأيام، ويتنبأ بما سيقع فيها من الأحداث ، فتثبت الأيام صدق تنبوءاته، وقد نسب الخزرجى إليه قصيدة تنبأ فيها بمن سيملك اليمن من حمير بعده ، وما كان من تملك الحبشة لها ، =

فقد نسب إليه التنبوء بظهور بنى رسول الغساسنة وقيام دولتهم فى اليمن . ويستدل على ذلك من بيت فى القصيدة يقول فيه :

ويظهر راية المنصور فيهم ... على خاء إذا نطقوا ولام[1]

والبيت المذكور فيه تصريح ـ فى شطره الأول ـ باسم المنصور (نور الدين عمر بن على بن رسول) ، وقد خصه بالاشارة والبشارة . أما الشطر الثانى ، فهو مبهم وغامض ، ولكن يمكن حل رموزه باستخدام حساب الجمل . (فالخاء) طبقا لهذا الحساب تساوى ستمائة ، أما (اللام) فتساوى ثلاثين فيكون التفسير أن قيام دولة بنى رسول على يد المنصور (نور الدين عمر) فى سنة ٦٣٠ ، وهو تاريخ استكمال مظاهر استقلاله بملك اليمن وضرب السكة باسمه[2] .

وثانى هذه الروايات ، ما ذكره الخزرجى منسوبا إلى نور الدين عمر مؤسس الدولة ، من أن عفريتا من الجن بشره بالملك[3] .

= ومن ملك بعدهم إلى ظهور الدعوة المحمدية ، والخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين ، وقيام بنى رسول بملك اليمن . وهذه القصيدة هى التى شرحها الخزرجى فى كتابه « المحصول فى انتساب بنى الرسول » (الخزرجى : العقود ج ١ ص ٢ ـ ٦) .

(١) الخزرجى : العقود ج ١ ص ٣ ، ٥ .

(٢) الخزرجى : العقود ج ١ ص ٥ ـ ٦ .

(٣) قال الخزرجى ، ومما يروى عن نور الدين عمر بن رسول قوله : « أمسيت ليلة من الليالى مهموما لعارض عرض لى ، فلما أخذت مضجعى ومضى نحو من شطر الليل ، سمعت دويا فى الهواء ، فرفعت رأسى ، وإذا عفريت يهرب

وثالث هذه الروايات، ينسبها الخزرجي إلى بعض الصالحين الذين بشروا نور الدين بالسلطنة وأن ملك اليمن سيظل في ذريته إلى آخر الزمان [١] .

ورابع هـذه الروايات ، نقلهـا الخزرجي عن صاحب السيرة المظفرية ، وتتعلق أيضا بالتنبوء بقيـــام دولة بني رسـول واستمرارها إلى آخر الدهر [٢] .

= من الشواظ حتى حط نفسه عندي - وهو يلهث وكأنه معصرة من عظمته - فقمت من مضجعي وأخذت اداوة المـاء فسكبتها في فيه . فلما اطمأن وزال عنه روعه قال، أسفر وأبشر يا أبا الخطاب بالملك من عدن إلى عيذاب ، ثم ذهب عني (الخـزرجي : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٤٤ - ٤٥ العسجد ص ٢٢٤ - ٢٢٥ ، العقد الفاخر الحسن جـ ٢ لوحة ٦٦ « أ » ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ ٢ ص ١٧٥) .

(١) ذكر الخزرجي أن ثلاثة من الصالحـين توجهوا إلى نور الدين عمر عندما كان أتابكا للمسعود، فألقى أحدهم السلام عليه ، فرد عليه نور الدين، ثم سأله الثاني : « أنت الأتابك وغير ذلك ؟ » فقـال ، وما غير ذلك ، فعقب الثالث بقوله : « سلطان اليمن ، وملكها من ذريتك إلى آخر الزمان». (العقود اللؤلؤية جـ١ ص٤٥ ، العسجد ص ٢٢٥ ، العقد الفاخر الحسن جـ٢ لوحة ٦٦ «أ» ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ ٢ ص ١٧٥) .

(٢) تتلخص هـذه الرواية في أن شيخين من مشايخ الصوفيـة الصالحين رأيا الملك المسعود عند دخوله اليمن بعد عودته من مصر ، وقبل سفره الأخير إليها . فسأل أحدهما الآخر عما إذا كان يرى ما يراه ، فاستفسر منه عما يراه ، فقال : « أرى شخصا إن سار ، سار العسكر جميعه ، وإن وقف ، وقف =

وخامس هـذه الروايات ، رواها الخزرجي أيضا ، وهي أن رجلا سمع هاتفا من الجن يبشر بزوال ملك الأيوبيين في اليمن (١) .

أما سادس هذه الروايات وآخرها ، فمأخوذة من الشيخ الصالح محمد بن أبي بكر الحكمي صاحب عواجـة (٢) من بلاد وادي سهـــام ، الذي بشر نور الدين عمر بالملك (٣) .

مناقشة الروايات الخاصة بالتنبوء والتبشير بقيام دولة بني رسول : —

وبمناقشة هذه الروايات ، نجـــد أنه بالنسبة لتنبوء الحارث الرائش في القصيدة التي نسبها الخزرجي إليه ، أن هذه القصيدة قد توقفت عندحد التنبوء بملك المنصور (نور الدين عمر) ، وقد ذكر الخزرجي أن القصيدة « ربمـا

= العسكر جميعه ، فقال له لعل ذلك المسعود ، فقال له : بل هو الملك المنصور عمر بن علي بن رسول ، والملك في عقبـه إلى آخر الدهر . (الخزرجي : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٤٥ ، العسجد ص ٢٢٥) .

(١) انظـر الرواية في الخزرجي : العقود جـ ١ ص ٤٥ — ٤٦ ، العسجد ص ٢٢٥ — ٢٢٦ ، العقد الفاخر الحسن جـ ٢ لوحة ٦٦ «أ» .

(٢) عواجة ، بلدة من بلاد وادي سهام ، تقع إلى الشمال من مدينة الكدراء على خط عرض ٥َ ر١٥° شمالا وخط طول ٢٠َ و ٤٣° شرقا تقريبا .

(EL — Khazrejiyy : The Pearl-Strings, vol. III, 3, p. 44, Note 255) .

(٣) الخزرجي : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٤٦ ، العسجد ص ٢٢٦ ، ابن الديبع : قرة العيون ورقة ٧٠ ب .

أنها أكثر من هذا »[1] . ويبدو أنه استدرك أن وقوف أحداث التنبوء عند هذا الحد قد يثير الشك حولها . ولو كان للقصيدة بقية لذكرها الخزرجي ، وخاصة إذا ما كانت هذه البقية تتعلق بأحداث تالية لعصر نور الدين والخزرجي، مما يساعد على التأكد من صدق هذا القول أو زيفه ، إذا ما قورنت تنبوءاتها بما سيقع من أحداث بعد ذلك. ولكن ورود هذه القصيدة على يد الخزرجي متضمنة أحداث سابقة ، ودون إسنادها إلى مصدر سابق لهذا العصر ، لمما يؤكد أنها من وضع الخزرجي لانفرادة بها .

أما الروايات الأخرى الباقية، فكلها تتعلق بالتبشير بقيام دولة بني رسول، وهذه الروايات جميعها تدخل فى عداد الأساطير ، ولم يكن الخزرجي منطقيا فيها ، أو على الأقل لم يعمل على تدعيمها وإسنادها إلى الأصل الذى استقاها منه . ولو كان الخزرجي معاصرا لقيام الدولة لالتمسنا له العذر باعتباره من المعاصرين ، ولكنه متأخر عن هذا العصر بأكثر من قرن ونصف قرن . وهذا كله كاف لخلق جو من الشك حول هذه الروايات ، خاصة وأن أحــــدا من المؤرخين السابقين له لم يذكر من ذلك شيئا .

وهكذا تكون هـذه الروايات ـ شأنها فى ذلك شأن موضوع النسب ـ قد وضعت فى عصر متأخر على يد الخزرجي من أجل إسباغ نوع من الشرعية على حكم بنى رسول ، وتأكيد وتدعيم دولتهم فيها .

---

(١) الخزرجي : العقود اللؤلؤية حـ ١ ص ٣ .

٣ — إدعاء تنازل المسعود لنور الدين عمر : —

واستكمالا لنوعيات الروايات التى قصد منها إيجاد سند شرعى تستند عليه دولة بنى رسول التى أولاها الخزرجى عناية خاصة ، فقد ذكر أنه لما استقر رأى المسعود يوسف — آخر سلاطين الأيوبيين فى اليمن — على مغادرتها إلى دمشق ليتولى عليها بعدما استولى عليها أبوه عقب وفاة صاحبها المعظم عيسى ابن العادل الأيوبى (١) ، استدعى أتابكه نور الدين عمر ، وأبلغه بعزمه على السفر ، واستخلفه على نيابة اليمن (٢) ، وعهد إليه بالسلطنة بعد وفاته ، وأوصاه ألا يمكن أحدا من بنى أيوب من البلاد (٣) ، وقال له : « فإن مت فأنت أولى

---

(١) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان — حيدر أباد الهند ١٩٥٢ — جـ ٨ ص ٦٥٨ ، النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب ، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٥٤٩ معارف عامة ، مصور عن نسخة كوبريلى بالآستانة ، جـ ٢٧ ص ٤١ ، الذهبى : سير أعلام النبلاء جـ ١٣ ص ٤٠٣ ، الفاسى : العقد الثمين جـ ١ ص ١٧٩ ، المقريزى : الذهب المسبوك فى ذكر من حج من الخلفاء والملوك ، نشر الشيال ١٩٥٥ ، ص ٧٨ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، القاهرة سنة ١٩٣٥ جـ ٦ ص ٢٧٢ ، الحنبلى : شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب مخطوط — لوحة ٩٩ « أ » .

(٢) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر جـ ٣ ص ١٤٩ ، المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٢٣٧ ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ ٢ ص ١٧٥ ، يحيى بن الحسين : أنباء الزمن ص ٧٠ ، الكبسى : اللطائف السنية فى أخبار الممالك اليمنية ، مخطوط بدار الكتب رقم ٤١٦٣ تاريخ ، ورقة ٣٩ ب .

(٣) ابن تغرى بردى : المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى ، القاهرة ١٩٥٦ ، جـ ١ ص ٢٣٠ ، النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٧٣ .

بملك اليمن من إخوتى ، لأنك خدمتنى ، وعرفت منك النصيحة والاجتهـاد . وإن عشت فأنت على حالك ، وإياك أن تترك أحدا يدخل اليمن من أهلى ، ولو جاءك الملك الـكامل - والدى - مطويا فى كتاب [١] . فإذا ألح عليك أعلمتنى حتى أجتمع أنا وعمى الأشرف عليه ونحاربه ونشغله»[٢] .

ولو صحت رواية الخزرجى لكانت وصية شرعية باستخلاف المسعود لنور الدين عمر فى حكم اليمن أثناء حياته: ووثيقة بتنازله له عن ملك اليمن ، وعهداً له بتقلد عرش السلطنة بعد وفاته، وعلى هذا الأساس يتبرأ نور الدين من تهمة اغتصاب ملك اليمن من الأيوبيين .

إلا أن المؤرخ بدر الدين محمـد بن حاتم - وهو من أوائل من أرخ لبنى رسول - ذكر فى كتابه [٣] ، أن الملك المسعود لم يعرض نيـابة السلطنة على نور الدين فى بداية الأمر ، وأنه أراد استصحابه معـــه عندما قرر التوجه إلي دمشق ، وطلب منه الاستعداد للرحيل معـــه ، ثم عاد وعرض عليه البقـاء فى اليمن نائبا عنه عندما استعفى منهـا نائب صنعاء جسام الدين لؤلؤ[٤]، وبعد أن استعرض أرباب دولته وأعيانها وسائر خواصه،

---

(١) الفاسى : العقد الثمين جـ ٣ ص ٣٩٤ .

(٢) الخزرجى: العقود اللؤلؤية جـ١ص٤٠-٤١، ابن الديبع: بغية المستفيد ورقة ١١ «أ» .

(٣) السمط الغالى الثمن ورقة ٤٢ «أ» .

(٤) أدريس عماد الدين : نزهة الأفكار ص ٥٢ .

واستقر رأيه على نور الدين ، فاستخلفه على اليمن كله سهله ووعره وبحره وبره . وقال له : « تقف أنت نائبنا حتى يصلك أمرنا بتسليم البلاد لمن تتعين له ، وتلحقنا بعد ذلك إلى الديار المصرية»[1] .

وهكذا فإن رواية الخزرجي لا تستند إلى مصدر معاصر ، بل على العكس فإن ما ذكر ابن حاتم يقطع بأن نيابة نور الدين عن المسعود كانت لفترة مؤقتة إلى أن يصله من يحل محله ، ثم يلحق بالملك المسعود . وهذا مما يؤكد ضعف رواية الخزرجي كغيرها مما ذكره عن شرعية دولة بنى رسول .

والخزرجي - كمؤرخ - له مكانته المرموقة بين مؤرخي اليمن ، غير أنه فيما ذهب إليه من محاولات لإثبات شرعيـة ملك بنى رسول ، قد اختلق هذه الروايات تقربا إلى سلاطين تلك الدولة ، ثم توج محاولاته بما زعمه من تنازل نسبه إلى الملك المسعود ، وهذا الاختلاق يضعف رواياته ويضعه موضع الشك والاتهام ، لعدم تحريه الدقة فيما يتعلق بهذا الموضوع .

٤ — اعتراف الخليفة العباسي باستقلال نور الدين بملك اليمن : —

كان نور الدين يتوقع رد فعل مضاد من جانب القوى الأيوبية بمصر بعد خروجـه عن طاعتهم واستقلاله بملك اليمن ، خاصة وأن بلاد الحجاز كانت تابعة للأيوبيين[2] ، وفيها حامية أيوبية كانت تشكل خطرا على دولته

---

(١) ابن حاتم : السمط الغالي الثمن ورقة ٤٢ «أ» .

(٢) الفاسى : العقد الثمين جـ ١ ص ١٧٩ .

الناشئة . ولهذا السبب كان من الطبيعي أن يعمل على الحصول على تقليد بالسلطنة من الخليفة العباسي ، باعتبار أن هذا التقليد ضرورة يلجأ إليها السلاطين التابعين للخلافة لاكتساب الصفة الشرعية في حكمهم ، كما أنه بهذا التقليد سوف يجعل من دولته أمرا واقعا وحقيقة ملموسة . أضف إلى ذلك أن نور الدين عمر لم يقنع ببلاد اليمن فقط، بل تطلع إلى ضم بلاد الحجاز كذلك (١) ، مما يكسبه احترام العالم الاسلامي ، باعتباره حامي حمى الحرمين الشريفين ، كما أنه يجعل من بلاد الحجاز حصنا أماميا ، تتوقف عنده الحملات الأيوبية وتعوق سيرها إلى اليمن ، ولهذا لم ينتظر نور الدين حتى تداهمه القوات الأيوبية. بل أسرع ـ بعد أن علم بأن الملك الكامل قد جرد حملة سنة ٦٢٩ هـ/ ١٢٣٢م إلى مكة تمهيداً لاسترداد اليمن(٢)ـ بإرسال بجيش لمحاصرة الحامية وتطويق القوة الأيوبية بمكة(٣)، مما اضطرها إلى التوجه إلى ينبع للاحتماء بها(٤) ، واستولت قوات نور الدين على مكة ، وتوالت

---

(١) بامخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ ٢ ص ١٧٨ .

(٢) ابن حاتم : السمط لوحة ٤٣ «أ» ، ابن الفوطي : الحوادث الجامعية والتجارب النافعة في المائة السابعة ، بغداد سنة ١٣٥١ هـ ، ابن ظهيرة : الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف ، الطبعة الثانية ١٩٣٨ ، ص ٣١١ .

(٣) ابن حاتم : السمط لوحة ٤٣ «أ» ، الخزرجي : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٤٩ ، الفاسي : العقد الثمين جـ ١ ص ١٧٩ ، جـ ٣ ص ٣٩٥ .

(٤) الخزرجي : العسجد ص ٢٢٨ ، المقريزي : السلوك جـ ١ ص ٢٤٤ .

الحملات من الجانبين (١) ، فتارة يستولي عليها وأخرى يستردها الأيوبيون منه (٢) .

وفى سنة ٦٣١هـ/١٢٣٤م أرسل نور الدين هدية عظيمة (٣) مع رسول من أتباعه يقال له الشمفورى (٤) إلى بغداد لطلب تشريف بالنيابة وتقليد بالسلطنة من الخليفة العباسي المستنصر بن الظاهر (٥) . وعاد الشمفورى بوعد بإرسال المطلوب فى موسم الحج صحبة الحاج العراقي إلى عرفات (٦) . ولهذا توجه نور الدين لأداء فريضة الحج واستقبال التشريف والتقليد (٧) ، ولكنه

---

(١) ابن تغرى بردى : حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور ، نشر Popper ، كاليفورنيا ١٩٣٠ – ١٩٣١ ص ٣٧٥.

(٢) الكبسي: اللطائف السنية ص ٣٩ ب ، العرشى: بلوغ المرام ص ٤٤ ، De Gaury (Gerald) : Rulers of Mecca, London, 1951, pp. 81-89.

(٣) الخزرجي : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٥٤ . العسجد ص ٢٢٩ ، ابن الديبع : قرة العيون ورقة ٦٦ ب .

(٤) ابن حاتم : السمط ورقة ٤٣ ب .

(٥) الخزرجى : العقد الفاخر الحسن جـ ٢ ورقة ٦٦ ب ، الفاسى : العقد الثمين جـ ٣ ص ٣٩٥ ، ابن تغرى بردى : حوادث الدهور ص ٣٧٥ ، يحيي ابن الحسين : انباء الزمن ص ٧١ .

(٦) الخزرجى . العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٥٤ ، العسجد ص ١٢٩ ، ابن الديبع : قرة العيون ورقة ٦٦ ب .

(٧) ابن حاتم : السمط ورقة ٤٣ ب : الخزرجى : العقد الفاخر الحسن جـ ٢ ص ٦٦ ب .

عاد إلى اليمن بعد أداء الفريضة لعدم وصول ركب الحاج العراقي في ذلك العام (١).

وفي سنة ٦٣٢هـ / ١٢٣٥م وصل ركب الحاج العراقي بكسوة الكعبة إلى مكة (٢)، وفي صحبتهم رسول من الحسنيين يسمى مهنا (٣) حاملا لرسالة من الخليفة إلى سلطان اليمن لابلاغه أن التشريف والتقليد في طريقهما مع رسول آخر إليه عن طريق البحر من البصرة (٤). ووصل الرسولان إلى اليمن في وقت واحد، (٥) وتقابلا في مدينة الجند حيث كان نور الدين موجوداً آنذاك وتمت مراسم التقليد في مسجدها، حيث ارتقى رسول الخليفة ـ ويدعى معالي ـ المنبر، وقال: «يانور الدين، إن العزيز يقرئك السلام، ويقول: قد تصدقت عليك، ووليتك إياه، وألبسه الخلعة الشريفية على المنبر (٦).

---

(١) كان العربان قد قطعوا الطريق وكبسوا الآبار فاشتغلوا باصلاحها مما فوت عليهم الحج واضطروا للعودة (ابن حاتم: السمط ورقة ٤٣ ب، الخزرجي: العقود اللؤلؤية جـ١ ص٥٤، العسجد ص ٢٢٩، ابن الديبع: قرة العيون ورقة ٦٦ ب.

(٢) الخزرجي: العسجد ص ٢٢٩، العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٥٤.

(٣) ابن حاتم: السمط لوحة ٤٣ ب.

(٤) الخزرجي: العسجد ص ٢٢٩، العقود اللؤلؤية جـ١ ص ٥٥، العقد الفاخر الحسن جـ ٢ لوحة ٦٦ ب، باخرمة: تاريخ ثغر عدن جـ ٢ ص ١٧٦.

(٥) ابن حاتم: السمط لوحة ٤٣ ب، ٤٤ «أ».

(٦) الخزرجي: العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٥٥، الفاسي: العقد الثمين جـ ٣ ص ٣٩٥.

وهكذا استكمل نور الدين مظاهر استقلاله بحـــكم اليمن تحت السيادة العباسية ، وبتقليد من الخليفة فاكتسب الصفـة الشرعية فى ملكه على البلاد ، دون باقى الروايات الأسطورية الأخـــرى ، السابق تفنيدها ، والتى كانت تستهدف تأكيد حـكمه الوطنى ، باعتباره من أصل يمنى ، واكتساب الصفة الشرعية لتنبوء القدماء بملكه ، وتبشير المعاصرين بدولته .

ثانيا — ظهور بنى رسول على مسرح الأحداث اليمنية قبيل قيام دولتهم : —

١ — اولوية بنى رسول فى اليمن :

من الثابت أن بنى رسول قد توجهوا إلى بلاد اليمن فى صحبة الأيوبيين ، بدليل اشـتراك والدهم شمس الدين أبو الحسن على بن رسول فى إحـدى الحملات الأيوبية المتوجهة إلى تلك البلاد ، وصحب معــه أولاده الأربعة ، بدر الدين الحسن — أكبرهم — وشرف الدين موسى ، وفخر الدين أبو بكر ، ونور الدين عمر وهو أصغرهم .

أما عن تاريخ وصولهم إلى اليمن ، فقد اختلف فى تحـديده ، فقد ذكر الخزرجى نقلا عن صاحب السيرة المظفرية قوله ، أنه لما « استوثق الملك لبنى أيوب فى مصر لم يزل معهم عصبة من بنى رسول لعلمهم بتقـــدم منصبهم فى الملك ، وعلو همتهم وشدة بسالتهم وثبوت آرائهم . فاجتمع رأى بنى أيوب على أن يسلموا إليهم اليمن . فقال ذو رأيهم : إذاً يستقوون بها عليكم وينازعونكم فى الشام . فاجمع رأيهم على تسييرهم إلى اليمن صحبة الملك المعظم تورانشاه بن أيوب ، فخرجوا صحبته بعـــد أن استحلفهم له أخوه الملك الناصر (صلاح الدين) يوسف بن أيوب ، وأوصاهم بحسن صحبته والنصح

فى مسايرته وخدمته »(1) .

وإذا كان بنو رسول قد بلغوا هذا القدر من المكانة والشهرة إلى حد أن صلاح الدين خشي منهم على دولته ، فيعدل عن فكرة إسناد إمرة الفتح إليهم ، ويسيرهم صحبة تورانشاه ، ويوصيهم به خيرا ، مع ما عرف عن تورانشاه من المكانة الكبيرة والخبرة الواسعة والقدرة الحربية الفائقة ، فإن عدم اعتماد تورانشاه عليهم ، وسكوت المصادر المعاصرة عن الإشارة إليهم أو إبراز دورهم خلال تلك الفترة ، لما يؤكد أن وصولهم إلى اليمن لم يكن ضمن حملة تورانشاه ، اللهم إذا كانوا قد اشتركوا فى الحملة كجنود عاديين ، وهذا يتنافى والمكانة التى أسبغتها عليهم المصادر المتأخرة .

وإذا سلمنا بصحة ما ذكره الخزرجى ، فإن ذلك يعنى أن نور الدين عمر — مؤسس الدولة — وهو أصغر إخوته ، قد ظل فى اليمن ٧٨ عاما منذ وصوله إليها حتى وفاته ، بخلاف ما كان قد بلغه من العمر وقت مجيئه ، ومع ذلك فقد كان من الممكن التجاوز عن ذلك لو أن لدينا ما يؤيد الرواية المذكورة ، وللأسف لم يرد فى مصنفات مؤرخى اليمن المعاصرين ما يشير إلى ذلك من قريب ولا من بعيد ، كما أن هؤلاء المؤرخين لم يذكروا عنهم شيئا فى سياق ما أوردوه من أحداث الفتح أو بعده ، كما فعلوا بالنسبة لغيرهم من البارزين من قادة الجند وممن أنابهم تورانشاه على البلاد والحصون وقت وجوده فى اليمن أو بعد مغادرته لها .

---

(١) الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٢٨ .

ولهـــذا فإنني أستبعد وصول بني رسول إلى اليمن صحبة تورانشاه ٥٦٩ هـ/١١٧٤م ، وأرى أنهم وفدوا إليها ضمن حمـــلة طغتكين بن أيوب سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م. والدليل على ذلك ما ورد صريحا في مؤلفات أخرى[١]، منها ما هو للخزرجي نفسه [٢] . وعلى هذا يكـون ما أورده الخزرجي في كتابه «العقود اللؤلؤية » قد حرفه الناسخ ، ولم يتنبه محقق الكتاب أو مترجمه إلى ذلك [٣] .

ومهما يكن من شيء، فقـــد كانت بداية ظهور بني رسول على مسرح الأحداث اليمنـــية في عصر السلطان الملك العزيز طغتكين بن أيوب ، حيث ذكرت المصادر أن علي بن رسول قد تولى نائبا لطغتكين على مدينة حيس[٤]

---

(١) ابن الديبع : قرة العيون ورقة ٦٥ ب.

(٢) الخزرجي : العسجد ص ٢٢٤ ، العقـــد الفاخر الحسن جـ ٢ لوحة ٤٢ ب .

(٣) الخزرجي : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٢٨ والترجمة الانجليـزية والتعليقات الـتي قام بهـا Sir J. .W Redhouse, بعنـــوان The Pearl-Strings ; A History of the Resuliyy Dynasty of yemen vol. III,1 p. 75.

(٤) حيس ، مدينة بتهامة ، تقع إلى الجنوب من زبيد ، على خط عرض ١٣,٥٥° شمالا، وخط طول ٤٣,٢٨° شرقا . El-Khazrejiyy, ;) The Pearl - Strings, vol. III, 3, p, 34, Note 192.)

وأعمالها (١) ، وأنه بلغ من المكانة وحسن السيرة أن نساء سيف الإسلام (طغتكين) لم يكن يحتجبن منه (٢) ، ومع هذه المنزلة ، تقف المصادر عند حد إمدادنا بهذا الخبر طوال فترة حكم طغتكين .

فلما تولى المعز اسماعيل بن طغتكين ملك اليمن بعد أبيه ، انتهج مع أهل اليمن سياسة تقوم على البطش ، وأساء معاملة قادة الجند والنواب . فكان لهذه السياسة أثرها في فرار معظمهم والانضمام إلى القوى المعادية للأيوبيين في اليمن . ويستدل على ذلك مما ذكره صاحب « السمط » في حوادث ٥٩٤ هـ من أن بدر الدين الحسن بن على بن رسول كان رهينة عن والده عند المعز (٣) الذى ظل محتفظاً به إلى نهاية عهده سنة ٥٩٨ هـ (٤)/١٢٠٢ م. فلما خلفه أخوه الناصر أيوب ، عاد الفارون إليه وعلى رأسهم الأتابك سيف الدين سنقر ، فولاه الناصر أتابكا له وقام بأمر مملكته . فبذل سنقر جهداً كبيرا لاستعادة الاستقرار في البلاد ، وولى ثقاته على البلاد والحصون ، فكان لبنى رسول الحظ الوافر من الثقة لديه ، فولى شمس الدين على بن رسول على حصن

---

(١) الأفضل الرسولى : العطايا السنية لوحة ٣٠ ب ، الخزرجى : العقد الفاخر الحسن جـ٢ ٤٢ لوحة ٤٢ ب ، المسجد : ص ٢٢٤ ، ابن الديبع : قرة العيون ٦٥ ب .

(٢) الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ١ ص ٣٢ .

(٣) ابن حاتم : السمط ورقة ٩ ب .

(٤) ابن حاتم : نفس المصدر ورقة ١٦ «أ».

حب [١] سنة ٥٩٩ /١٢٠٢ م فظل به حتى مات [٢]. كما ولى فخر الدين أبا بكر ابن على بن رسول على وصاب [٣]، وبدر الدين الحسن بن رسول على ريمة [٤].

---

(١) حب قلعة منيعة بالقرب من مدينه إب بنواحى جبل بعدان، وتقع على خط عرض ٥٧َ و١٣° شمالا، وخط طول ١٧َ و٤٤° شرقا تقريبا
(El-Khazrejiyy : op. cit., vol. III,3, p: 44, Note 261.)

(٢) ابن حاتم : السمط ورقة ٢٢ب (وكان مولد على بن رسول فى بلاد التركمان، وكانت أمه من قبيلة منجك) الأفضل الرسولى : نزهة العيون لوحة ٢٦٤ «أ»، (وفى الوقت الذى لم يتعرف الخزرجى على تاريخ وفاته، مكتفيا بالقول بأنها كانت بناحية المجبالى) العقد الفاخر الحسن، جـ٢ لوحة ٤٢. (نجدة يحدد - فى كتاب له آخر - تاريخ وفاته، وأنها كانت فى شهر صفر سنة ٦١٤) العقود اللؤلؤية، جـ١ ص ٣٠ (وأن قبره فى قرية عكار، حيث بنى عليه ابنه بدر الدين الحسن مسجدا) نفس المصدر والجزء ص ٦٦ (وأوقف عليه وقفا جيدا، ورتب فيه إماماً ومؤذنا وطلبة ومدرسا . وكان الوقف يقوم بكفاية الجميع منهم، وإطعام الوافدين . وكان ذلك المسجد لا يزال موجودا فى عصر الخزرجى) العقود اللؤلؤية جـ١ ص ١٤٦ .

(٣) وصاب ، جبل محاذى لزبيد، وفيه عدة بلاد وقرى وحصون (ياقوت : المعجم جـ٨ ص ٤٢٥، مراصد الاطلاع جـ٣ ص ١٤٣٩) وتقع إلى الشرق من زبيد فيما بين وادى زبيد، ووادى رمع.

(Kay Yaman p. 247).

(٤) ابن حاتم : السمط ورقة ٢٢ ب (ريمة، بلد معروف باليمن تقع إلى الشرق من مدينة بيت الفقيه، وهى الجبال الواقعة بين وادى برع شمالا ووصاب جنوبا (الويسى : اليمن الكبرى ص ٧٠).

والظاهر أن الأشراف الزيدية تمكنوا من انتزاع وصاب من فخر الدين أبي بكر ، بدليل أن الأتابك سنقر أعد حملة لاستردادها سنة ٦٠٤ هـ [١] / ١٢٠٧ م ، ولكن قبائل المنطقة ساندت الزيدية في التصدى لحملته ، ثم سارعوا للاعتذار له ، ودخلوا في طاعته خوفا من انتقامه [٢].

ولما توفى سنقر خلفه على الأتابكية بدر الدين غازى بن جبريل والى لحج [٣] ، فانتهج سياسة العزء ، وعمل على الفتك بأمراء الأجناد بالسم [٤]. وأخذ يتخلص منهم الواحد تلو الآخر . وكان بدر الدين الحسن بن علي ابن رسول من بينهم ، ولكن السم لم يؤثر فيه ، «وغلب عليه الأجل » [٥] ، ثم نقله الملك الناصر من ريمة إلى حرض والمهلية [٦] ، أما فخر الدين أبو بكر

---

(١) ابن حاتم : نفس المصدر ورقة ٢٩ «أ» .

(٢) ابن حاتم : نفس المصدر ورقة ٢٩ «ب» .

(٣) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن لوحة ٤٩ ب ، يحيى بن الحسين : أنباء الزمن ص ٦٧ .

(٤) ابن حاتم : السمط ورقة ٣٠ ب ، يحيى بن الحسين : أنباء الزمن ص ٦٧ .

(٥) ابن حاتم : نفس المصدر والصفحة ، الكبسى : اللطائف السنية ورقة ٣٦ «أ» .

(٦) ابن حاتم : نفس المصدر والصفحة ، يحيى بن الحسين : أنباء الزمن ص ٦٧ (حرض ، من أهم مدن شمال تهامة اليمن ، وتقع على الطريق بين زبيد ومكة ، على خط عرض ٢٠َ ر١٦° شمالا ، وخط طول ٤٣° تقريبا)

(El-Khazrejiyy : op. cit. vol. III,3 p. 174, Note. 2·5,)

ابن علي بن رسول ، فقد استمر في ولايته على وصاب[1] .

فلما توفى الناصر أيوب سنه ٦١١ هـ/١٢١٤ م أصبحت اليمن بغير سلطان، وشملت الفوضى أنحاء البلاد[2] ، طمع الامام الزيدى عبد الله بن حمزة في الاستيلاء على المناطق التابعة للأيوبيين مما هدد بزوال دولتهم[3] . ولما كانت اليمن خالية من رجالات البيت الأيوبي ، فقد قامت الخاتون أم الملك الناصر بأمر الملك ، وظلت تترقب وصول أحد أمرائهم لتوليته سلطانا على البلاد[4] . وفى نفس الوقت أرسلت بعض أتباعها إلى الحجاز في موسم الحج لتقصي أخبار مصر ، لعلهم ينجحون في التعرف على أحدهم هناك ، فتصادف وجود سليمان بن شاهنشاه الأيوبي[5] في مكة ، فلما تأكدوا من نسبه

---

(١) ابن حاتم : السمط ورقة ٣٢ ب ، يحيى بن الحسين : أنباء الزمن ص ٦٧ .

(٢) أبو الفدا : المختصر جـ ٣ ص ١٠٨ ، الذهبي : تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام ، مخطوط بدار الكتب رقم ٣٩٦ تاريخ ، جـ ٢٧ ص ٤٥٣ ، الحنبلي : شفاء القلوب لوحة ٧٤ ب.

(٣) ابن الديبع : بغية المستفيد ورقة ٩١ « أ » ، العقيلي : المخلاف السليماني جـ ١ ص ١٨١ .

(٤) العيني : عقد الجمان جـ ٥٢ ص ٢٧٩ .

(٥) هو سليمان بن سعد الدين شاهنشاه بن الملك المظفر تقي الدين عمر ابن شاهنشاه بن نجم الدين أيوب (ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٣ ص ١٣٩ ، أبو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ١٠٨ ، ابن كثير: البداية والنهاية

استصحبوه معهم إليها ، فخلعت عليه وتزوجته ونصبته سلطاناً على اليمن (١).

وقيل أن بنى رسول لعبوا دوراً كبيراً فى تنصيبه، فقد ذكر ابن حاتم رواية نقلها عمن حكاها عن الأمير بدر الدين الحسن بن على بن رسول ، قال: « كنت يومئذ أمير حرض والملية ومعى صنوى نور الدين ... وكنت لا أسمح بمفارقته ـ ننتظر ما يكون مـن الأمر ، فجاءنى من أعلمنى أنه قد دخل حرض رجل فى زى الفقراء ينتسب إلى بنى أيوب ، فأمرت بإحضاره، وقلت نسأله ونبحثه عن نسبه ، فإن كان كما قد زعم فهو يكون السلطان. فحضر إلى وسألته فانتسب فعرفته ... وأقمناه ، ولقبناه بالملك المعظم، ونشرنا له الدعوة من وقته وسرنا فى خدمته... حتى وصلنا به زبيد وقد صار ملكاً » (٢).

أما ما يتعلق بموقف سليمان من بنى رسول، فإنه قد أظهر فى البداية ثقته بهم ، ثم لم يلبث أن انقلب عليهم لأسباب لم توضحها المصادر ، ذلك أنه قلد بدر الدين الحسن بن على بن رسول والياً على صنعاء ، ثم بلغه ـ وهو فى

= جـ ١٣ ص ٦٨ ، المقريزى : السلوك جـ ١ ص ١٨١ ، العينى : عقد الجمان جـ ٢٥ ص ٢٧٩ ، ابن الشحنة : روض المناظر فى أخبار الأوائل والأواخر مطبوع على هامش الجزء التاسع من كتاب الكامل لابن الأثير ـ القاهرة ١٢٩٠ هـ ، ص ٥٥).

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٣ ص ١٣٨ ـــ ١٣٩ ، الشرقى : اللآلى المضية جـ ٢ ص ١٣٤ «أ» .

(٢) ابن حاتم : السمط ورقة ٣٤ «ب»

طريقه إليها ـ أن سليمان قد دبر له مكيدة للقبض عليه ، فتحول عن طريقه ، ولجأ إلى حصن الدملوة[1] ، وجاءه أخواه فخر الدين أبو بكر من البلاد الوصابية ، ونور الدين عمر من ريمة . ولكن سليمان عاد فأمنه بعد أن توسط فى الأمر بعض ثقات سليمان ، وأعاده إلى ولاية صنعاء . فتوجه إليها بصحبة أخيه نور الدين ، وكان الإمام قد استولى عليها ، فلما وصلها نور الدين خرج منها الإمام[2] . أما فخر الدين فقد عاد إلى ولايته فى وصاب .[3]

ولكن سليمان كان لا يزال يضمر الشر لبنى رسول ، إذ لم يكد بدر الدين يستقر فى صنعاء حتى جهز له سليمان عسكرا للقبض عليه ، فأثار ذلك غضب بدر الدين ، وأسرع بعسكره إلى تهامة لا تخاذ إجراء مضاد . فلما وصل إلى مدينة الكدراء[4] ، كان سليمان قد أعد حملة قادها بنفسه للقضاء على

---

(١) ابن حاتم : نفس المصدر ، ورقة ٣٥ أ ، الكبسى : اللطائف السنية ورقة ٣٧ ب (الدملوة : قلعة حصينة على جبل الصلو جنوبى شرق تعز (Kay : Yaman p. 305) ويضرب بامتناعه وحصانته المثل (القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ١٣) .

(٢) الكبسى : اللطائف السنية ورقة ٣٧ ب .

(٣) ابن حاتم : السمط ورقة ٣٥ أ .

(٤) الكدراء ، مدينة أنشأها الحسين بن سلامة مولى بنى زياد فى وادى سهام (ابن المجاور : صفة بلاد اليمن جـ ١ ص ٦٠ ، ابن عبد المجيد ، بهجة الزمن ١١ ب ، الخزرجى : العسجد ص ١٢٣ ، بامخرمه تاريخ ثغر عدن جـ ٢ ص ٥٩) وتقع إلى الشرق من الحديدة .

بدر الدين ، ولكن الأخير انتصر عليه [١] ، ثم جرت بينهما مفاوضات للصلح ، وتم عقد الصلح ، وبمقتضاه احتفظ بدر الدين بأحد كبار أتباع سليمان رهينة عنده ، ضمانا للوفاء بما تعهد به سليمان . وبالرغم من أن هذه الرواية قد أوردها ابن حاتم ، إلا أنه قال : « وعندى فيها توقف »[٢] .

وتستمر العلاقات السيئة بين الجانبين ، ففى رمضـــان ٦١١ هـ / يناير سنة ١٢١٥م حدث خلاف بين سليمان وكبار أمراء أجناده ، ومنهم بدرالدين الحسن بن على بن رسول، فخرجوا من طاعته وانتصرت جموعهم على تجريدة كان قد أرسلهـا سليمان فى اثرهم ، ولجأ الفارون إلي مكاتبة الامام عبـد الله ابن حمزة . ولم يقتصر الأمر علي ذلك ، فقد شاركهم فخر الدين أبو بكـر ابن على بن رسول الرغبة في الانضمام للامام ، مما شجع الإمام على تجريد عدة حملات توجهت إحداها إلى مدينة المهجم [٣] وأشعلت فيها النيران ، وتوجهت حملة أخرى إلى عدن وأبين فتصدت لها الحامية الأيوبية فى كل منهما . وهكذا قويت شوكة الإمام وطمع فى الاستيلاء على اليمن [٤].

---

(١) ابن حاتم : السمط ورقة ٣٥ «أ» ، يحيى بن الحسين : أنبـاء الزمن ص ٦٨ .

(٢) ابن حاتم : نفس المصدر ورقة ٣٥ ب .

(٣) المهجم ، مدينة من أهم مدن تهامة بعد زبيد ، وتقع فى وادى سردد (صبح الأعشى جـ ٥ ص ١٣) .

(٣) ابن حاتم : نفس المصدر ورقة ٣٦ «أ» .

(٤) ادريس عماد الدين : نزهة الأفكار ص ٤٨ .

وترتب على ذلك أن ساءت الأوضاع فى اليمن ، وضعف سلطان سليمان ابن شاهنشاه وتفتتت القوى الأيوبية، وازداد نفوذ الإمام بانضمام الفارين من سليمان إليه، مما أنذر بالقضاء على الوجود الأيوبى فيها. ولهذا أصدر السلطان الملك العادل الأيوبى أمره إلى ابنه الكامل محمد صاحب مصر بتجهيز حملة إلى اليمن لإقرار الأمور فيها ، فأعد حملة بقيادة ابنه الملك المسعود يوسف [١] ، وتوجه معه أتابكه ومقدم عسكره جمال الدين قليت ، وكتب له أبوه إلى شمس الدين على بن رسول ، وإلى باقى أمراء الأيوبيين فى اليمن للعمل تحت إمرته وحسن صحبته[١]. ووصل المسعود إلى زبيد فى مستهل المحرم ١٢ هـ[٣] / مايو ١٢١٥ م ، وقبض على سليمان وأرسله إلى مصر ، فظل مقيما فيها إلى أنه قتل شهيداً فى موقعة المنصورة ٦٤٧ هـ [٤] / ١٢٤٩ م.

المهم أنه ما كادت الأخبار تصل إلى اليمن بقرب وصول المسعود ، حتى بادر سليمان

---

(١) الخزرجى : العسجد ص٢١٣ ، العينى: عقد الجمان حـ ٥٢ ص٣٤١، ادريس عماد الدين : نزهة الأفكار ص ٤٩ ، محمد حسن : قلب اليمن ص ٣٨.

(٢) الخزرجى : العقود اللؤلؤية حـ ١ ص ٣٠.

(٣) ابن خلكان :وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، القاهرة سنة١٩٤٨، حـ ٤ ص ١٧٤ ، ابن حاتم : السمط ورقة ٣٦ ب ، النويرى : نهاية الأرب حـ ٢٧ ص ١٨ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة حـ ٦ ص ٢٣٤ ، الشرفى : اللآلى المضية حـ ٢ ص ١٣٤ «أ» .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب حـ ٣ ص ٢٢٧ ، أبو الفدا : المختصر حـ ٣ ص ١٢٢ ، المقريزى : السلوك حـ ١ ص ١٨١ .

بالفرار من زبيد (١) وتحصن في تعز (٢). وفي نفس الوقت بادر أتباعه — وفي مقدمتهم بدر الدين الحسن بن علي بن رسول وإخوته نور الدين عمر (٣) وشرف الدين موسى وفخر الدين أبو بكر (٤) — إلى لقاء المسعود. فلما وصلوا إليه أحسن استقبالهم وأكرمهم وخلع عليهم الخلع السنية، وأنعم على بدر الدين بفرجية وشربوش وقدم له حصانا بسرج، بالإضافة إلى ألف دينار ذهب، وولاه على مدينة القحمة (٥)، وولي نور الدين عمر على صهبان (٦)، فكانت هذه أول ولاية منفردة لنور الدين.

---

(١) العيني: عقد الجمان جـ ٢ ٥ ص ٣٤٢.

(٢) ابن حاتم: السمط ورقة ٣٦ «أ»، يحيى بن الحسين: أنباء الزمن ص ٦٩.

(٣) ابن حاتم: المصدر السابق، نفس الصفحة، يحيى بن الحسين: أنباء الزمن ص ٦٨.

(٤) الكبسي: اللطائف السنية ورقة ٣٧ ب.

(٥) القحمة، مدينة هامة على وادي ذؤال، اختطها الحسين بن سلامة مولى بني زياد، وكانت تعرف باسم المعقر (بامخرمة: تاريخ ثغر عدن جـ ٢ ص ٦٠)، وتقع على بعد خمسة أميال شمال بيت الفقيه على خط عرض ٣٨َ و١٤° شمالا وخط طول ٢٤َ و٤٣° شرقا (El-Khazrejiyy : op. cit. vol. III,3, p. 90 Note 541.)

(٦) ابن حاتم: السمط ورقة ٣٦ ب (وصهبان منطقة متسعة بالقرب من ذي جبلة) الشرجي: طبقات الخواص ص ٥١.

وقيل أن المسعود كان يسعى إلى مفاوضة سليمان على أساس أن يقتسما البلاد فيما بينهما ، فيحتفظ سليمان بمنطقة الجبال ، وتكون منطقة تهامة للمسعود[1] . وهنا يبرز دور بني رسول حيث قام بدر الدين الحسن باقناع المسعود بالعدول عن هذا الاتجاه ، ونصحه بالتوجه إلى تعز ، وإصدار الأمر إلى أمراء الأجناد فيها للقبض على سليمان . فلما كتب المسعود إليهم بذلك ، وهددهم إذا ما خالفوا أمره ، استجابوا له واعتقلوه وقيدوه وسلموه له [2] . وعلى هذا النحو ركز المسعود جهوده لاستعادة السيطرة الأيوبية على البلاد ، ولم يمض عام حتى تمكن من تحقيق هدفه وتنفيذ خطته[3] ، وجاءته وفود القبائل من كل جهة مقرة له بالطاعة ومعلنة له الولاء [4] ، وقدموا إليه الرهائن دليلا على ذلك ، فأكرمهم المسعود وبذل لهم الخلع والأموال [5] .

---

(١) ابن حاتم : السمط ورقة ٣٦ ب ، الخزرجي : العسجد ص ٢١٣ ، العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٣١ ، الشرفي : اللآلي المضية ورقة ١٣٤ «أ» ، يحيي بن الحسين : أنباء الزمن ص ٦٩ ، الكبسي : اللطائف ص ٣٧ ب .

(٢) ابن حاتم: نفس المصدر والصفحة، الشرفي: نفس المصدر والصفحة، يحيي بن الحسين : نفس المصدر والصفحة ، الكبسي : اللطائف ص ٣٨ «أ» .

(٣) ابن حاتم : نفس المصدر : ورقة ٣٧ «أ» .

(٤) زبارة : أئمة اليمن ص ١٤١ .

(٥) ابن حاتم : نفس المصدر ورقة ٣٦ ب ، يحيي بن الحسين : أنباء الزمن ص ٦٩ .

وفى جمادى الآخر سنة ٦١٤ هـ /سبتمبر ١٢١٧ م أقام المسعود الأمير بدر الدين الحسن بن على بن رسول استاذ داره [١] ، ثم ولاه على صنعاء فى ربيع الأول ٦١٨ هـ [٢] / ابريل ١٢٢١ م . أما نورالدين فقد ولاه المسعود الحصون الوصابية [٣] ، ثم ولاه مكة سنة ٦١٩ هـ/١٢٢٢ م بعد أن انتزعها المسعود من الشريف حسن بن قتادة [٤]، فلما عاد إلى اليمن قام حسن بن قتادة بتنظيم صفوف أتباعه تمهيدا لاسترجاع مكة ، ولكن نور الدين لم يمهله ، وباغته بالهجوم على معسكره ، ومزق حشوده وأوقع به وبأتباعه الهزيمة . وتصادف وقتئذ أن كان المسعود قد أخذ يتجهز للسفر إلى مصر لزيارة أبيه وتجديد العهد له، فأرسل إلى نور الدين يستدعيه إلى اليمن [٥]. وكان المسعود قد أناب على اليمن حسام الدين لؤلؤ، وجعل بدر الدين الحسن بن على بن رسول

---

(١) ابن حاتم : نفس المصدر ورقة ٣٧ ب.

(٢) ابن حاتم : نفس المصدر ورقة ٣٨ «أ» ، أدريس عماد الدين : نزهة الأفكار ص ٥٠ .

(٣) الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٣٣ .

(٤) ابن حاتم : نفس المصدر ورقة ٣٨ «أ» ، الفاسى : العقد الثمين جـ ٢ ص ٥٥١ ، المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٢١٣ ، ابن تغرى بردى : المنهل الصافى جـ ١ ص ٢٢٩ ، حوادث الدهور ص ٢٧٤ العصامى : سمط النجوم العوالى فى أنباء الأوائل والتوالي ، مخطوط بدار الكتب رقم ٥٣ م تاريخ ، ص ٤٧٨ ، الكبسى : اللطائف ص ٣٩ «أ» ، زينى دحلان : خلاصة الكلام ص ٢٥ .

(٥) ابن حاتم : السمط ٣٨ «أ».

على صنعاء [١] . وقيل بل استخلف نور الدين عمر بن على بن رسول على اليمن [٢] . ولكن الأحداث التالية تؤكد القول الأول حسب ما أوردته المصادر.

ومما هو جدير بالذكر أن حالة الاستقرار فى البلاد كانت كاملة ، بحيث يمكن القول بأن البلاد لم تشهد عهدا من الهدوء والاستقرار مثلما شهدته فى تلك الآونة ، والظاهر أن الفضل الأعظم فى استقرار الأوضاع إنما يرجع أساسا إلى وفاة الامام عبد الله بن حمزة فى أول سنة ٦١٤ هـ[٣] /١٢١٧ م : وقد قام ابنه عز الدين محمد محتسبا[٤] ، لأنه لم يكن قد بلغ بعد درجة الامامة

---

(١) ادريس عماد الدين : نزهة الأفكار ص ٥٠ ، ابن تغرى بردى : المنهل الصافى جـ ١ ص ٢٢٩ ، حوادث الدهور ص ٣٧٤ .

(٢) الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٣٣ ، العسجد ص ٢١٦ ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ ٢ ص ١٧٩ ، الشرقى : اللآلى المضية جـ ٢ ص ١٣٤ .

(٣) المحلى : الحدائق الوردية جـ ٢ ص ٤١٦ ، الخزرجى : العقود جـ ١ ص ٣٣ ، الشرفى : اللآلى المضية جـ ٢ ورقة ١٣٤ ب ، الجندارى : الجامع الوجيز لوحة ٧٣ .

(٤) الصعدى : مآثر الأبرار ص ٩٩ ب : ابن حاتم : السمط ٣٧ أ، (يمثل الاحتساب عند الزيدية ما اصطلح على تسميته – عند الشيعة – بالداعى، وهى الدرجة السابقة على الامامة عندهم . وقد يصبح الرجل محتسبا ، ولكنه لا يرقى إلى مرتبة الامامة ، ولا يصل إليها ، إلا باستيفاء شروطها المعتبرة) =

المعتبرة (١) عند أهل مذهبه (٢) ، فتحمل عبء النضال ضد القوى الأيوبية بعد وفاة أبيه ، ولكن لم تلبث أن انقسمت القوى الزيدية ، عندما أعلن يحيى ابن الحسن دعوته بالإمامة (٣)، ودخوله فى صراع ضدالقوى الزيديةالمعارضة التى تزعمها عز الدين محمد ابن الامام الراحل (٤).

ولم تستمر الأوضاع المستقرة طويلا فى اليمن ، فقد حدث ماعكر صفو هذا الهدوء أثناء غياب المسعود فى مصر ، إذ قام أحد الصوفية ، ويدعى مرقم

= انظر الهامش التالى (وإجماع علماء وقتة على إمامته ومبايعته) . انظر ، دولة بنى أيوب فى اليمن ص ١١٦.

(١) يشترط فى الامام الزيدى أن يكون فاطميا (من ذرية على من فاطمة) ذكرا حرا سليم الحواس والأطراف بالغا عاقلا لم يمارس الرذيلة ، ورعا تقيا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، عالما مجتهدا حسن الدراية بتصريف الأمور، عادلا سخيا ، شجاعا مجاهدا ، وأن يخرج داعيا لنفسه . وهذا الشرط الأخير يخالف ما درجت عليه بقية فرق الشيعـــة الأخرى من سرية الدعوة ، وستر الامام (دولة بنى أيوب فى اليمن ص ٢٠) .

(٢) الكبسي : اللطائف ٣٨ أ .

(٣) هو الداعى المعتضد يحيى بن الحسن بن المحفوظ بن محمد بن يحيى بن يحيى من نسل الامام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين أول إمام زيدى باليمن. وكان عالما مبرزا ، قال عنه الامام عبد الله بن حمزة أن معه علم أربعة أئمة ، ولكن علماء الزيدية لم يجمعوا على إمامته وعارضوه (الكبسي : اللطائف ٣٨ ب ، الجندارى : الجامع الوجيز لوحة ٧٤) .

(٤) Kay : Yaman, p. 319.

الصوفي بنشر دعوته ، بإعتبـاره داع لامام حق (١) وأخذ يدعو إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر (٢) حتى ذاع صيته واستجاب لدعوته الكثيرون، وقام بتنظيم صفوف أتباعه استعدادا للاستيلاء على بعض المناطق اليمنية ، وسير أولى حملاته على حصن ذروان (٣) ـ من أعمال ذمار – في جمادى الآخـرة سنة ٦٢٣ هـ (٤) / يونية ١٢٢٦ م . فلما توجه للاستيلاء عليها خرج نور الدين عمر بن على بن رسول اليه ـ وكان موجودا بداخله ، ولكن نور الدين لم يستطع الصمود أمام حشوده ، وتراجع إلى الحصن واحتمى به . وتلاحقت جموع القبائل الموالية للصوفي إلى الحصن وحاصرته ، تمهيدا للاستيـلاء عليه، واتخاذه قاعدة للتوسع منه على حساب القوى الأيوبية . وهكذا كان لهذه الحركة الصوفية أسوأ الأثر على الأيوبيين فى اليمن .

وأمام هذا الخطر ، بادر نور الدين بمراسلة حسـام الدين لؤلؤ نائب

---

(١) الشرقى : اللآلى المضية جـ ١ ص ١٣٤ ب (كان مرغم الصـوفى ناسكا ، وكان فى بداية أمره حائكا فى بلاد عنس . وأول ظهور دعوته فى جبل سحمر ، واستجابت لدعوته قبايل عنس وجنب وبنى سيف من بلاد يريم) ابن حاتم : السمط ص ٣٨ ب، الخزرجى : العقد الفاخر جـ ٢ ص ١٢٤ أ.

(٢) الخزرجى، العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٣٣ ـ ٣٤ ، العقد الفاخر جـ ٢ ص ١٢٤ « أ » ، الشرقى : اللآلى المضية جـ ٢ ص ١٣٤ ب .

(٣) ذروان ، حصن من حصون الحقل من أعمال ذمار ، إلى الجنـــوب من صنعاء .

(٤) ابن حاتم : السمط ص ٣٨ «أ» .

المسعـــود على اليمن يطلب نجدته ، ولكن الأحوال كانت قـد تطورت عنده أيضا ، مما حال دون إنجاده ، واكتفى بتشجيعه على الصمـــود والاعتماد على نفسه ، وقال له : « ليس لك منا إلا الدعاء » [١] ، فاستنجد نورالدين بأخيه بدر الدين في صنعاء ، وعندئذ وجد الأشراف الزيدية أن الفرصة قد أصبحت مواتية لاستعادة مكانتهم ، فحشد عز الدين محمد ابن الامام الراحل جموعه وزحف بها إلى صنعاء [٢] .

وعلى الرغم من أن أخبار هذه الحشـود قد وصلت إلى علم بدر الدين إلا أنه بادر إلى معاونة أخيه والعمل على تخليصه من الحصار . فرتب الأمور في صنعاء ، وترك فيها حامية لمناوشة جموع الزيدية عند وصولهـــا انتظاراً لعودته ، وفي طريقه إلى ذروان اعترضته بعض القبائل ، فقتلهم عن آخرهم [٣] فكان لهذا الموقف أثره في إشاعة الرعب في قلوب القبائل المحاصرة لنورالدين ، وكان ذلك كافيا لتفريق جمعهم ، ذلك أنه ما أن وصـل إلى ذروان ، حتى كانت القبـائل الموالية للصوفي قد تركت حصـار الحصن وولت الأدبار ووهنت عزيمة الصوفي وانفض أتباعه من حوله ، وظهر للناس كذب دعواه وفساد مذهبه ، ففـر بنفسه وأخذ يتنقل شريدا في البلدان حتى وافته منيته في وصـاب [٤] .

---

(١) ابن حاتم : السمط ص ٣٨ ب

(٢) ادريس عماد الدين : نزهة الأفكار ص ٥٠ .

(٣) ابن حاتم : نفس المصدر ص ٣٩ « أ » .

(٤) ابن الديبع : قرة العيون ص ٦٤ « أ » .

أما الزيدية فقد زحفوا بحشودهم الكثيفة إلى صنعاء يتقدمهم عـز الدين محمد بن الإمام ، وحطت جموعهم عند جبل عصر (١) . ومن الجدير بالذكر أن بنى حاتم الذين كانوا يرتبطون بروابط ودية مع الأيوبيين توجهوا فى جموع من قبائل همدان إلى صنعاء ـ على أثر خروج بدر الدين منها مددا لأخيـه ـ دعما للحامية الأيوبية والوقوف معها أمام القوى الزيدية الطامعة فى الاستيلاء على المدينة (٢) . وتعاونت حامية صنعـاء مع بنى حاتم واشتبكت مع القوات الزيدية (٣) لشغلها وتعويق تقدمها إلى المدينة ، حتى يعود بدر الدين حسـن ابن رسول إليها . ونجحت هذه الخطة وعاد بدر الدين فور الانتهاء من مهمته . فوصل إلى صنعاء فى اليوم الأول من القتال ، فكان لذلك أثره فى رفع معنويات أهلها . ولم يمكث فى المدينة طويلا إذ بادر بالخروج على رأس قواته إلى ميدان المعركة . وكانت الخطة تقضى بأن يتقدم بدر الدين للقتال وأن يرابـط نور الدين قريبا من مسرح القتال ، لمتابعة تطوراته ، وليعيد الصفوف إذا ماحدث وتراجعت بعض القوات لأى سبب من الأسبـاب (٤) . وكان بدر الدين قد

---

(١) الخزرجى : العسجد ص ٢١٧ ، العقـود اللؤلؤية جـ ١ ص ٣٤ ، يحيى ابن الحسين : أنباء الزمن ص ٧٠ (عصر ، جبل يقع إلى الغرب من صنعاء) الواسعى : البدر المزيل الحزن ص ٢٥ .

(٢) ابن حاتم : السمط ٣٩ « أ » ، الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٣٤ ، الشرفى : اللآلى المضية جـ ٢ لوحة ١٣٥ .

(٣) الخزرجى : العسجد ص ٢١٧ ، يحيى بن الحسين : أنباء الزمن ص ٧٠ .

(٤) الخزرجى : العسجد ص ٢١٧ ، العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٣٥ ، يحيى ابن الحسين : أنباء الزمن ص ٧٠ .

رتب أصحابه ميمنة وميسرة وقلب ، ودار القتال وحمى وطيسه ، وأبلى الأشراف الزيدية بلاء عظيما [١] . فأخذ بدر الدين يحث أصحابه على الاستبسال فى القتال ، والتفت فيهم يمينا شمالا ، وقال : « هى هى ، وكان هذا شعاره فى عسكره » [٢]. فحمل الجند الأيوبى معه حملة رجل واحد [٣] ، وصمموا على الانتصار فمنحهم الله النصر والظفر ، وانهزم جيش الأشراف [٤] ولم يقم منهم أحد ، وولوا مدبرين وقتل فيهم قتيلا ذريعا [٥] ... ولم يزل القتل والأسر فيهم إلى أن دخل الليل وغشيهم الظلام » [٦] ، وأصيب الأمير عز الدين محمد بن الإمام بفردة نشاب فى عينه فعورت [٧] ، ثم مرض بعد ذلك ومات متأثرا بجراحه [٨] . واستولى بدر الدين على جميع ماتركه الأشراف

---

(١) الشرفى : اللالى المضية حـ ٢ ص ١٣٥ « أ » .

(٢) الخزرجى : العسجد ص ٢١٧ ، العقود اللؤلؤية حـ ١ ص ٣٥ ، يحيى ابن الحسين : أنباء الزمن ص ٧٠ .

(٣) زبارة : أئمة اليمن حـ ١ ص ١٤٧ .

(٤) يحيى بن الحسين : أنباء الزمن ص ٧٠ .

(٥) ادريس عماد الدين : نزهة الأفكار ص ٥١ .

(٦) الخزرجى : العسجد ص ٢١٧ ، العقود اللؤلؤية حـ ١ ص ٣٥ ، يحيى ابن الحسين : أنباء الزمن ص ٧٠ .

(٧) ابن حاتم : السمط ص ٣٩ ب ، الخزرجى : العقد الفاخر الحسن حـ ٢ لوحة ١٤٩ « أ » ، ادريس عماد الدين : نزهة الأفكار ص ٥١ .

(٨) الصعدى : مآثر الأبرار ، ورقة ٩٩ ب ، زبارة : أئمة اليمن حـ ١ ص ١٤٨ .

من أموال ودواب وغير ذلك في ساحة المعركة[١] .

٢ ـ نكبة أولاد رسول في أواخر عهد المسعود :

كان الانتصار الذى أحرزه بدر الدين حسن بن رسول فى موقعه عصر حاسما « لم يسمع بمثله فيما مضى »[٢] . وانهزم الأشراف الزيدية هزيمة نكراء سحقت قوتهم وعصفت بكيانهم ودمرت معنوياتهم ، فذلوا بعد عز ، وعمدوا إلى الانزواء إلى حين . وهكذا أبلى بنو رسول فى القتال بلاء حسنا وأدوا واجبهم فى هذه المعركة على أكمل وجه ، فارتفع بهذا النصر قدرهم ، وأثبتوا لليمنيين مقدرتهم فى القضاء على القوى المناوئة ، وقمع كافة الحركات الداخلية المعارضة للوجود الأيوبى فى اليمن .

وشاعت أخبار هذه الموقعة فى أنحاء اليمن ، فقوى بها أمر بنى رسول[٣] ، وأقيمت الأفراح احتفالا بهذه المناسبة ، وتبارى الشعراء فى الإشادة بها[٤] ومما يجدر بالذكر أن بدر الدين حسن الرسولى أرسل إلى الملك المسعود فى مصر برسالة يبلغه فيها بهذه الأحداث ، وأرفق بالرسالة أبياتا نظمها له الأمير مدرك بن بشر بن حاتم[٥] ، فى ذكر المعركة ووصفها والفخر بما أحرزه

---

(١) ابن حاتم السمط ٤٠ « أ » .

(٢) ابن حاتم : نفس المصدر ص ٣٩ ب .

(٣) الكبسى : اللطائف ص ٣٩ « أ » .

(٤) الخزرجى : العقود اللؤلؤية حـ ١ ص ٣٦ ، العقد الفاخر الحسن حـ ٢ لوحة ١٤٩ « أ » .

(٥) ادريس عماد الدين : نزهة الأفكار ص ٥١ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٦٥ ب .

من انتصار باهر ، وجاء في نهاية القصيدة قوله :

ونحن متى شئنا دمرنا عـدونا ولا نحقد حقدا دفينا ولا ضغنا
فلا زالت الأخبار منكم تسرنا كما سركم في مصر مخبركم عنا[١]

فلما قرئت الرسالة والأبيات في حضور الملك الكامل بن العادل الأيوبي ، سأل ابنه الملك المسعود عمن يخاطبه بنون العظمة؛ فأخبره بأنه أحد أمرائه ، فقال له : « هيهـات ، والله ماهذه مخاطبة أمير بل مخاطبة ضد . فإن لم تثب عليه وثب عليك» [٢]. فاشتد خوف المسعود على اليمن من بني رسول ، وعقد العزم على العودة إليها سريعاً فكان وصوله إلى تعز في السابع من صفر ٦٢٤ هـ/[٣] يناير سنة ١٢٢٧ م .وقد تصادف أن كان حسام الدين لؤلؤ قد حسـد بني رسول لانتصاراتهم ضد الصوفي والأشراف الزيدية ، وفي نفس الوقت خشي أن يكون محل سخط المسعود وانتقامه لتقاعسه عن تقديم العون لنور الدين عندما حاصره الصوفي ، وعدم قيامه ـ بعد ذلك ـ بدور ما عنـدما تعرضت صنعاء لهجوم الزيدية . ولذلك فما أن عاد المسعود إلى اليمن حتى أسرع لمقابلته، ووجه إلى بدر الدين حسن الرسولي إتهامات باطلة ، أشهد على صحتها بعض أتباعه من الناقمين على بدر الدين . وادعى بأن بدر الدين طلب تزويده بالمال

---

(١) ابن حاتم : السمط ورقة ٤٠ ب ، الخزرجي : العسجـد ص ٢٢٠ ؛ العقود حـ ١ ص ٣٨ ـ ٣٩ .

(٢) ابن حاتم : نفس المصدر والصفحة ، ادريس عماد الدين : نزهة الأفكار ص ٥١ .

(٣) ابن حاتم : المصدر السابق ص ٤١ ب .

فلما اعتذر د عاد جوابه يقول : إذا لم ترســلوا لى الأموال نزلت وأخذت الحريم بمقصهم [1] » . وهكذا كان لهذه الدسيسة أثرها فى تثبيت مخاوف المسعود من أبناء رسول وصمم على تنفيذ ماأوصاه به والده الملك الكامل.

أما بنو رسول فإنهم ماأن بلغهم وصول الملك المسعود حتى أسرعوا لقائه والترحيب بعودته [2] . ولكن المسعود لم يظهر ماعزم على اتخـاذه معهم، وتريث حتى تحين الفرصة المناسبة للتنفيذ ، وجاءت هذه الفرصة عندما أقام وليمة فى مدينة الجند حضرها أبناء رسول مع غيرهم ، فاعتقلهم على السماط فى الخامس والعشرين من رجب سنة ٦٢٤هـ[3] / ١٢٢٧ م ،وقيل فى الخامس عشر منه[4]. وقيل بأنه لم يعتقلهم جميعا وإنما اكتفى ببدر الدين حسن ، وفخـر الدين أبى بكر وشرف الدين موسى [5] ، أما نور الدين عمر فلم يكن بينهم [6] ، لأن المسعود كان قد كلفه بمهمة إلى عدن [7] . وقيل إنما اعتقلهم جميعـا ثم أطلق

---

(١) ابن حاتم : نفس المصدر والصفحة .

(٢) ادريس عماد الدين : نزهة الأفكار ص ٥١ ، الكبسى : اللطائف ٣٩ أ .

(٣) ابن حاتم : السمط ورقة ٤١ ب ، ادريس عماد الدين : نزهة الأفكار ٥٢ .

(٤) الخزرجى : العسجد ص ٢٢١ ؛ العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٣٩ .

(٥) الخزرجى : العسجد نفس الصفحة، العقود: نفس الجـزء والصفحة ، العقد الفاخر الحسن جـ ٢ ص١٤٩ ب، الشرفى اللآلى المضية جـ ٢ ورقة ١٣٥ أ ؛

(٦) بامخرمه تاريخ ثغر عدن جـ ٢ ص ١٧٥ ، الكبسى: اللطائف ورقة ٣٩ أ .

(٧) ابن حاتم: السمط ورقة ٤١ ب ، ابن الديبع : قرة العيون ورقة ٦٥ ب .

نور الدين عمر فيما بعد [١] ، لما كان يربطه به من روابط المودة ، إذ كان يأنس به ، ويميل إليه ، ويثق فيه دون باقي إخوته [٢]. ولهذا حظي نور الدين بمكانة كبيرة عنده ، وقيل أن المسعود اعتذر إليه وطمأنه إلى أن هذا الإجراء مؤقت ، وأنه سيعيدهم مرة أخرى [٣]. وفي قول آخر أن اعتقال أبناء رسول الثلاثة تم بإيعاز من نور الدين نفسه [٤] ، ومرجع ذلك أن المسعود كان يفكر في التوجه إلى مصر ، وبحث ذلك مع نور الدين ، وأعرب عن رغبته في استنابته على اليمن ، ولكن نور الدين اعتذر عن عدم استعداده لقبول ذلك خوفاً من إخوته ، فهم يكبرونه سناً ويفضلونه خبرة بأمور الحكم ، وأبدى استحالة قيامه بإدارة شئون البلاد في وجودهم ، لأنه بالضرورة سيكون خاضعاً لهم ، منفذاً لرغباتهم بل وتحت إمرتهم . ولهذا قبض المسعود عليهم [٥] ،

---

(١) الخزرجي : العقود اللؤلؤية حـ ١ ص ٤٠ ، الفاسي : العقد الثمين حـ ٣ ص ٣٩٤ .

(٢) الخزرجي : العقد الفاخر الحسن حـ ٢ ص ٦٦ « أ » ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة حـ ٨ ص ٧٣ ، ابن الديبع : بغية المستفيد ١١ « أ » ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن حـ ٢ ص ١٧٤ — ١٧٥ .

(٣) ابن حاتم : السمط ورقة ٤١ب ، ادريس عماد الدين : نزهة الأفكار ٥٢ .

(٤) الخزرجي : العقد الفاخر الحسن حـ ٢ ص ٦٦ « أ » ، ابن الديبع : بغية المستفيد ١١ « أ » ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن حـ ٢ ص ١٧٥ ، وتعليقات Sir . j . W . Redhouse على كتاب العقود اللؤلؤية للخزرجي في ، The Pearl – Strings ; A History of the Resuliyy Dynasty of Yemen, Vol. III, 3, P. 39 – 40 , Note 224, P. 41, Note 235 .

(٥) الخزرجي : العقود اللؤلؤية حـ ١ ص ٤٠ ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن حـ ٢ ص ١٧٥ .

وأودعهم السجن ثم أرسلهم - تحت الاعتقال - إلى مصر [1] . أما نور الدين فقد قربه ورفع مكانته وجعله أستاذ داره [2] وأتابك عسكره [3] .

ويتضح من كل ماسبق ، أن وصول بنى رسول إلى اليمن ، وإن كان قد تم فى نطاق حملة الملك العزيز سيف الإسلام طغتكين بن أيوب سنة ٥٧٩ هـ / ١١٨٣ م ، وأن طغتكين قد ولى أباهم على بن رسول على مدينة حيس وأعمالها ، إلا أن بروزهم على مسرح الأحداث اليمنية تم تدريجيا . فكان دورهم ثانويا فى عهد كل من المعز اسماعيل بن طغتكين وأخيه الناصر أيوب ، ثم احتلوا مكانة متوسطة منذ بداية عصر سليمان شاهنشاه ، أما فى عهد المسعود فقد ازدادت مكانتهم وعظم قدرهم ، وخاصة بعد الانتصارات التى أحرزوها ضد القوى الخارجة على الحكم الأيوبى فى اليمن . وكانت مكافأتهم أن نكبهم المسعود نتيجة الدسائس والسعايات التى وجهت ضدهم ، وأثارت مخاوف المسعود من مطامعهم .

---

(١) الخزرجى : نفس المصدر والصفحة ، العقد الفاخر الحسن جـ ٢ ص ١٤٩ ب ، الفاسى : العقد الثمين جـ ٣ ص ٣٩٤ ، ابن تغرى بردى : المنهل الصافى جـ ١ ص ٢٢٩ .

(٢) ابن حاتم : السمط ورقة ٤١ ب ، ادريس عماد الدين : نزهة الأفكار ص ٥٢ .

(٣) الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٤٠ ، الفاسى : العقد الثمين جـ ٢ ص ٣٩٤ .

٣ ـ دور نور الدين عمر بن علي بن رسول في التمهيد لقيام دولة بني رسول :

على الرغم من الجهود الكبيرة التي بذلها بنو رسول في خدمة الدولة الأيوبية في اليمن ، وقيامهم بقمع الحركات الداخلية المناهضة لها ، والحفاظ على الكيان الأيوبي في اليمن ، فقد جزاهم المسعود يوسف بن الكامل الأيوبي جزاء سنمار . أما أخوهم الأصغر نور الدين عمر ، فقد شفع له ما كان بينه وبين المسعود من مودة ومحبة ، فاصطفاه دون باقي إخوته ، وحباه بملازمته وأبقاه في خدمته . واستمر نور الدين يؤدي ما أسند إليه من أعمال بكفاءة بحكم كونه استادارا للمسعود وأتابكا لعسكره إلى أن اضطرت الظروف الملك المسعود إلى مغادرة البلاد . ففي ذي القعدة ٦٢٤ هـ / نوفمبر ١٢٢٧ م توفي عمه الملك المعظم عيسى صاحب دمشق ، وخلفه ابنه الناصر داود ، فاستولى الملك الكامل على مملكته ومن جملتها بيت المقدس ونابلس ودمشق[(١)]. فلما علم المسعود بذلك ، طمع في الاستيلاء عليها لنفسه[(٢)] . وقيل أن أباه استدعاه لنفس الغرض[(٣)] ، فتجهز لمغادرة البلاد واستدعى حسام الدين لؤلؤ

---

(١) المقريزي : الذهب المسبوك ص ٧٨ ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٢٣٣ ، السيد الباز العريني : مصر في عصر الأيوبيين ص ١١٩ .

(٢) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان جـ ٨ ص ٦٥٨ ، الذهبي : سير أعلام النبلاء جـ ١٣ ص ٤٠٣ ، ابن أيبك : كنز الدرر جـ ٧ ص ٣٠٠ ، الفاسي : العقد الثمين جـ ١ ص ١٧٩ ، الحنبلي : شفاء القلوب لوحة ٩٩ « أ » .

(٣) ابن حاتم : السمط ورقة ٤٢ « أ » ، الخزرجي : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٤٠ .

واليه على صنعاء ، وعرض عليه نيابة السلطنة ، فأبدى اعتذاره عن تحمله لمسئوليتها ، وأعرب عن رغبته في مغادرة اليمن بصحبته ، فلما استعرض المسعود أرباب دولته وسائر البارزين ، استقر رأيه على استخلاف نور الدين وأنابه عنه على اليمن ، وولى نجم الدين أحمد بن أبي ذكرى على صنعاء [١] .

غادر المسعود اليمن في ربيع الأول سنة ٦٢٦ هـ / [٢] فبراير سنة ١٢٢٩م ولكن ماأن وصل إلى مكة حتى اشتد به المرض ، ولم يلبث أن توفى فى الثالث عشر من جمادى الأولى سنة ٦٢٦ هـ / [٣] ابريل سنة ١٢٢٩ م ، فكان آخر ملوك بنى أيوب فى اليمن [٤] .

فلما علم نور الدين عمر بن على بن رسول بوفاة الملك المسعود يوسف ، طمع فى الاستيلاء على ملك اليمن والاستقلال بحكمها ، ولكنه اجتهد فى بداية الأمر لاظهار الولاء والاخلاص للأيوبيين ، وأرسل إلى الملك الكامل يعزيه

---

(١) ابن حاتم : نفس المصدر والصفحة ، الخزرجي : العسجد ص ٢٢٦، العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٤٣ ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ ٢ ص ١٧٥ .

(٢) ابن حاتم : السمط ٤٢ « أ » ، الخزرجي: العسجد ص ٢٢٦؛ العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٤٣ ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ ٢ ص ص ١٧٥ .

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٤ ص ١٧٥، النويرى : نهاية الأرب جـ ٣١ ص ٤٢ ، الفاسى : العقد الثمين جـ ٤ ص ٣٥٤ ، المقريزى : الذهب المسبوك ص ٧٨ .

(٤) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٢٣٧ ، محمد حسن : قلب اليمن ص ٣٨ .

فى وفاة المسعود ، ويجدد ولاءه للأيوبيين ويؤكد أنه لايزال نائبا له [1] ، وبعث إليه بالهدايا والتحف والأموال تعبيرا عن خضوعه له ، فاعتبر الملك الكامل ذلك دليلا على الطاعة والتبعية وحسن الولاء [2] ، واطمأن إليه ، ولم يقدم على عزله أو استبداله ، وأقره نائبا عنه فى حكم اليمن [3] .

والحقيقة أنه لم يكن فى استطاعة الملك الكامل الاستغناء عن جزء من جيشه ليرسله مع نائب يختاره لحكم اليمن ، إذ أن الظروف السياسية فى مصر والشام لم تكن تسمح بذلك . فقد كان الصراع على أشده بين أفراد البيت الأيوبى فى مصر والشام ، إذ استقل كل منهم ــ عقب وفاة الملك العادل أبى بكر ــ بما تحت يده من الولايات التى يحكمها . ودخل الاخوة فى صراعات عنيفة ، وانقسموا فريقين ، أحدهما بزعامة الملك الكامل ، والثانى بزعامة أخيه المعظم فتفككت بذلك دولة الأيوبيين وتمزقت وحدتها التى بذل صلاح الدين الكثير. وهدد ذلك بتقويض أركانها ، وأطمع الخوارزمية فى التوسع حسابها ، وجدد آمال الصليبيين فى الاستيلاء على المنطقة بعدما فقدوا كل أمل فيها .

وبدلا من بذل الجهود لتوحيد دولة الأيوبيين واستعادة مجدها ، لجأ كل من الملك الكامل والملك المعظم إلى التحالف ضد الآخر ، الكامل مع فريدريك

---

(١) الفاسى : العقد الثمين جـ ١ ص ١٧٩ ، ابن تغرى بردى: المنهل الصافى جـ ١ ص ٢٣٠ .

(٢) النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٧ ص ٤٢ .

(٣) المقريزى : جـ ١ ص ٢٣٧ .

الثانى والمعظم مع الخوارزمية . وكاد الأمر أن ينتهى بموت المعظم، واستيلاء أخيه الكامل على ولايته ، ولكن الكامل كان قد اتفق مع فريدريك على التنازل له عن بيت المقدس ، ولم يعترض على تسليمه المدينة ، تنفيذا لذلك الاتفاق ، رغم زوال الأسباب التي أدت إلى هذا التحالف ، وأنه لم يعد فى حاجة إلى أية معونة أو مساندة من فريدريك [١] . وهكذا تورط الكامل بهذا التصرف الذى كان مثار سخط المسلمين لتفريطه فى الأرض الاسلامية [٢] . فكان ذلك من الأسباب التى ثبطت من عزيمة الكامل فى ارسال خلف للمسعود فى اليمن ، اكتفاء بنور الدين الذى اطمأن إليه ، وثبته نائبا له على اليمن ضمانا لاستقرار جزء من دولته .

استغل نور الدين عمر بن علي بن رسول ظروف الضعف التى كان يمر بها الأيوبيون ، وما حظى به من ثقة الملك الكامل وضمانه لجانبه ، فشرع فى تحقيق مطامعه فى الاستقلال بملك اليمن . وكان حكيما فلم يتعجل التنفيذ ، بل أخذ يعمل على تحقيق هدفه مرحليا ، وبدأ بإعادة تنظيم البلاد مستهدفا عزل من كان يخشاهم من ولاة المدن والحصون [٣] ، وتولية من يثق في ولائهم من خاصته وأتباعه [٤] ، وقد طبق هذه السياسة بادىء ذى بدء فى تهامة ، فلما

---

(١) المقريزى : السلوك جـ١ ص ٢٢١ - ٢٢٣، سعيد عبد الفتاح عاشور: الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام ص ١٠٦ وما بعدها ،

Wiet : L'Egypte Arabe, pp. 350 - 356.

(٢) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٢٣١ ، جمال الدين الشيال: تاريخ مصر الإسلامية جـ ٢ ص ١١٦.

(٣) الخزرجي: العسجد ص ٢٢٦ ، الفاسي: العقد الثمين جـ ٣ ص ٣٩٤ .

(٤) ابن تغرى بردى : المنهل الصافى جـ ١ ص ٢٣٠ ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ ٢ ص ١٧٥ ، يحيي بن الحسين : أنباء الزمن ص ٧١ .

سيطر عليها وأقر قواعد الأمور فيها [١] ، عزم على تأكيد سيطرته على بقية البلاد ،فتوجه إلى حصن تعز في شوال سنة ٦٢٦ هـ[٢]/ سبتمبر سنة ١٢٢٩م، وأحكم عليه الحصار ، وشدد الخناق على حاميته حتى أنهك قواهم ، ثم أسند مهمة حصاره إلى فرقة من جيشه ، ومضى هو إلى عدن واستولى عليها ، وترك فيها نائبا من ثقاته [٣].

وواصل نور الدين حملاته من أجل استكمال السيطرة على البلدان اليمنية ، فزحف سنة ٦٢٧ هـ / ١٢٣٠ م إلى منطقة الجبال[٤] وتمكن من الاستيلاء على حصني التعكر [٥] وخدد [٦] ، ثم تقدم إلى صنعاء ، فلما بلغ ذلك نجم الدين

---

(١) الخزرجي : العسجد ص ٢٢٦ ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ ٢ ص ١٧٦ ، يحيى بن الحسين ، أنباء الزمن ص ٧١ .

(٢) ابن حاتم : السمط ورقة ٤٢ ب ، ابن عبد المجيد : بهجة الزمن لوحة ٥١ « أ » .

(٣) ابن حاتم : السمط ٤٢ ب ، ادريس عماد الدين نزهة الأفكار ص٥٣ .

(٤) الخزرجي : العسجد ص ٢٢٦ ، العقود جـ ١ ص ٤٦ ، الفاسي : العقد الثمين جـ ٣ ص ٣٩٤ ، ادريس عماد الدين : نزهة الأفكار ص ٥٣ ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ ٢ ص١٧٦ .

(٥) التعكر ، قلعة حصينة في مخلاف جعفر مطلة على مدينة ذي جبلة (ابن المجاور : صفة بلاد اليمن جـ ٢ ص ١١٦) وكانت مقر ذخائر بني الصليحي . (الخزرجي : العسجد ص ٨٦) قال عنها ياقوت بأنه لا يوجد في في اليمن أحصن منها (معجم البلدان جـ ٢ ص ٣٩٤) وتقع تقريبا على خط عرض ٥٣َ ر١٣° شمالا وخط طول ١٠َ ٤٤° شرقا (EL-Khazreijyy: The Pearl – Strings, vol. III, 3, p. 44, Note, 258).

(٦) خدد ، حصن في مخلاف جعفر باليمن (ياقوت: معجم جـ ٣ ص ٤٠٤) بالقرب من قلعة التعكر.(El-Khazrejiyy' op. cit; p. 44, Note, 259).

أحمد بن أبي ذكرى نائب الأيوبيين فيها ، لجأ إلى حصن براش [١] وتحصن فيه [٢] ، فساعد ذلك نور الدين على دخول صنعاء والاستيلاء عليها بدون مقاومة في ذى القعدة سنة ٦٢٧ هـ [٣]/ سبتمبر سنة ١٢٣٠ ، وولى عليها ابن أخيه أسد الدين محمد بن بدر الدين حسن الرسولي وعاد نور الدين إلى حصن تعز لإحكام الحصار عليه حتى استولي عليه صلحاً سنة ٦٢٨ هـ / ١٢٣١م [٤].

ولم تهدأ نفس نور الدين ، إذ كان يسعى إلى استنزال ابن أبي ذكرى الذى تحصن في براش ، وكان يمثل أعظم الأخطار التي يمكن أن تهدده ، ففيه يتمثل الولاء لبني أيوب وتتشكل القوة الباقية لهم في اليمن ، وإليه قد يلجأ حكام المدن والحصون الذين تحاهم نور الدين — وهؤلاء كانوا نواب

---

(١) براش ، حصن على جبل نقم إلى الشرق من صنعاء (نشوان بن سعيد الحميرى: منتخبات من أخبار اليمن جـ١ ص ١٤٩) وعلى مسافة خمسة أميال منها
(EL-Khazrejiyy : op. cit. p. 44. Note, 260.)

(٢) ابن الديبع : قرة العيون ص ٦٦ ب ، يحيى بن الحسين: أنباء الزمن ص ٧١ .

(٣) ابن حاتم : السمط ص ٤٣ « أ » .

(٤) ابن حاتم السمط ص ٤٢ ب ، الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٤٧ ، العسجد ٢٢٧ ، زبارة : أئمة اليمن جـ ١ ص ١٤٩ .

الأيوبيين ومواليهم — عندما يساورهم الشك فى صدق ولاء نور الدين ، ويتأكد لهم حقيقة مطامعه فى الإستقلال لنفسه . ولهذا لم يكد ينتهى من الاستيلاء على حصنى حب وبيت عز [1] ويولى عليها من يمثله من أتباعه حتى سارع سنة ٦٢٨هـ/١٢٣١ م إلى صنعاء ، فوصلها فى رمضان ، وضرب الحصار على حصن براش ، ولم يجد ابن أبى ذكرى مفراً من طلب الأمان ، فأمنه نور الدين وتسلم الحصن منه صلحاً[2]، وأكرمه نور الدين ولم يتعرض له بسوء ، بل زاد فى تقديره وزوجه من ابنته ، وولاه على مدينة المهجم[3] . أما صنعاء فقد جعلها إقطاعاً لابن أخيه أسد الدين محمد بن بدر الدين حسن بن على بن رسول مدى حياته .

٤ — تحالف الزيدية مع نور الدين ودخولهم فى طاعته :—

استطاع نور الدين أن يستحوذ على معظم بلاد اليمن وحصونها ، وسيطر على مقاليد الأمور فيها ، وولى فيها نوابا ممن يثق فيهم من الموالين له . وكان عليه بعد ذلك أن يتفرغ للقوى الزيدية فى شمال اليمن ، والعمل على السيطرة

---

(١) ابن حاتم : السمط ٤٣ « أ » ابن عبد المجيد : بهجة الزمن لوحة ٥١ « أ » ، الخزرجى : العسجد ص ٢٢٧ ، العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٤٦ ، ابن الديبع : قرة العيون ٦٦ ب ، زبارة : أئمة اليمن جـ ١ ص ١٤٩ (بيت عز ، حصن فى إقليم المناخى) Kay : Yaman, p. 2:6. (بالقرب من كوكبان) يحيى بن الحسين . غاية الأمانى جـ١ ص ٧٠٥ ، ٧٣٩ .

(٢) يحيى بن الحسين : أنباء الزمن ص ٧١ .

(٣) ابن حاتم : السمط ص ٤٣ « أ » .

عليها، حتى إذا ما خلع طاعة الأيوبيين واستولى على ملك البلاد ضمن وحدة اليمن تحت لوائه . وكان نور الدين رجلا ذا دهاء لا يمل الحرب [١] ، فلما عزم على التوجه شمالا لتحقيق هدفه ، تدخل بنو حاتم [٢] ، واستغلوا وجود نور الدين فى صنعاء سنة ٦٢٨هـ / ١٢٣١م ، وسعوا فى الصلح بينه وبين الأشراف بنى حمزة الزيدية [٣] . وتكللت جهودهم بعقد لقاء بين نور الدين والأشراف الزيدية تم فى زمرمر [٤] . وكان على رأس الوفد الزيدى الشريف عماد الدين يحيى بن حمزة ، والأمير شمس الدين أحمد بن عبد الله بن حمزة [٥].

---

(١) الخزرجى : العسجد ص ٢٢٦ .

(٢) كان بنو حاتم في بداية أمرهم نوابا للصليحيين على صنعاء، ثم استقلوا بها سنة ٥٣٣ هـ / ١١٣٨ م فى عهد الملكة الصليحية أروى بنت أحمد ، وتوالوا على حكمها إلى أن استولى عليها الأيوبيون سنة ٥٦٩ هـ/١١٧٤ ، ثم استردوها بعد عودة تورانشاه إلى مصر سنة ٥٧١ هـ / ١١٧٦ م . ثم عادت صنعاء إلى السيطرة الأيوبية سنة ٥٨٥ هـ / ١١٩٠م فى عهد طغتكين بن أيوب، وعوضهم عنها بصرف جامكية شهرية (انظر ، دولة بنى أيوب فى اليمن ص ٣٩ - ٤١ - ٦٦ - ٧٠ ، ٩٩ - ١٠٢ - ، ١٠٧ - ١١٥ ، ١٤٥ - ١٤٧ .

(٣) يحيى بن الحسين : أنباء الزمن ص ٧١ .

(٤) ادريس عماد الدين : نزهة الأفكار ص ٥٣ (ذمرمر ، من الحصون الهامة فى منطقة صنعاء (مراصد الاطلاع ج ١ ص ٥٨٧) ويقع على مسافة نصف يوم إلى الشمال منها على خط عرض ٢٧ ر ٥° شمالا وخط طول ٣٥ر٤٤° شرقا تقريبا .(EL-Khazrejiyy : op. cit. p. 38, Note, 215)

(٥) الخزرجى: العسجد ص ٢٢٧، ابن الديبع : قرة العيون ص٦٦ب .

ومما يذكر أنه لما بدأت الحادثات بين الطرفين ركز بنو حمزة على تشجيع نور الدين على الاستقلال بحكم اليمن ، ونصحوه بخلع طاعة بنى أيوب، وإعلان قيام دولته . وهكذا تكللت مساعى بنى حاتم بالنجاح ، وتم الصلح بين الطرفين[1] ، وتحالفا على المعاضدة [2] . وتعهد بنو حمزة بمعاونته إذا ما قام الأيوبيون بمحاولات حربية لاسترداد السيطرة على اليمن [3] . وضمانا لسريان الاتفاق ، واحترام نصوصه اتفق الطرفان على تبادل الرهائن بشرط أن تختار من بين الشخصيات الهامة . فرهن بنو حمزة الشريف صارم الدين داود بن عبد الله بن حمزة، وقدم نور الدين لهم ولده المظفر يوسف. وارتضى الطرفان أن يتولى بنو حاتم مهمة الاحتفاظ بالرهينتين فى حصن ذمرمر [4] وما أن تم التوصل إلى هذا الاتفاق حتى خلع نور الدين على بنى حمزة الخلع العظيمة ، ووصلهم بمال كثير ، وأقطعهم ما كان بأيديهم من البلاد والحصون [5] ، باعتبارهم نوابا له عليها . أما بنو حاتم ـ الذين كان لهم الفضل فى التوصل إلى

---

(١) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن لوحة ١٥ « أ » ، العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٤٧ - ٤٨ .

(٢) ابن حاتم : السمط ٤٣ « أ » .

(٣) الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٤٧ .

(٤) ادريس عماد الدين : نزهة الأفكار ص ٥٤ .

(٥) ابن حاتم : السمط ٤٣ « أ » ، الخزرجى : العسجد ص ٢٢٧ ، العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٤٧ ، ابن الديبع : قرة العيون ٦٦ ب، يحيى بن الحسين : أنباء الزمن ص ٧١ ، زبارة : أئمة اليمن جـ ١ ص ١٤١ .

هذا الصلح - فقد منحهم نور الدين « فوق ما كان لهم »[1] .

ثالثا - قيام دولة بني رسول في اليمن على يد نور الدين :

١ - إعلان سقوط الدولة الأيوبية في اليمن :

بتمام الصلح مع بني حمزة أصبحت سيطرة نور الدين على البلاد كاملة تقريبا ، وأصبح في إمكانه استكمال تحقيق أهدافه بخلع طاعة بني أيوب وإعلان سلطنته على البلاد . ومن الجدير بالذكر ، الإشارة إلى أن نور الدين كان على يقين من أن رحيل المسعود إلى دمشق كان نهائياً ، إذ كان قد أفضى إليه بعدم الرغبة في البقاء باليمن وأنه يؤثر الشام عليها ، وهو نفس ما حدث لتوران شاة عندما غادر اليمن لهدف مماثل ولم يعد . ولهذا كانت نيابة نور الدين من شأنها تهيئة الجو الملائم للعمل في هدوء - وبعيد عن أي شك - على الاستقلال بالبلاد عندما تسنح له الظروف بذلك . وإذا كان اعتقال إخوته واحتجازهم بعدها في مصر ، كان بهدف ضمان استمرار ولاء نور الدين للدولة الأيوبية وبقاء اليمن في طاعة سلاطين بني أيوب ، باعتبار أن المعتقلين كانوا بمثابة رهائن ، وأن نور الدين لن يقدم على الخروج عن الطاعة خوفا على إخوته ، إلا أن ذلك الضمان كان في نفس الوقت من أكبر العوامل التي سهلت على نور الدين مهمته . فبالإضافة إلى أنه أدى إلى اطمئنان الأيوبيين له ، فإنه - من ناحية أخرى - أتاح له التخلص من منافسة إخوته ومطامعهم ، ولهذا فلم يهتم بما قد يصيبهم من سوء نتيجة استقلاله ، إذ أنهم لو ظلوا في اليمن لنازعوه الملك ، لأنهم يكبرونه سنا ، ولن يتركوه يتملك البلاد دونهم .

---

(١) ادريس عماد الدين : نزهة الأفكار ص ٥٤ .

وقد أثبتت الأحداث التالية صحة ما أشرنا إليه ، إذا أنه لما تم الافراج عنهم فى عهد خلفه المظفر يوسف بن نور الدين عمـــر ، لم يمهلهم ابن أخيهم وعجل باعتقالهم حتى لا ينازعونه الملك .

وصفوة القول أن خطة نور الدين من أجل الاستقـلال بملك اليمن ، كانت تقضي بالعمل تدريجيا ، وعلى مراحل من أجل تحقيق أهدافه ، بدأها بالتخلص من نواب الأيوبيين وإحـلال أتباعه مكانهم ، وأتبعهـا باستكمال سيطرته على البلاد بالقضاء على المعارضة الداخلية المتمثلة وقتئـذ فى القوى الزيدية ، والعمل على تأمين حكمه وضمان استقرار الأمـور له . وكان من الممكن أن يتأخر إعلان استقلاله بالحكم ، إذا ماقاومته القوى الزيدية وصمدت له ، ولكن التوصل إلى اتفاق بغير حرب مع بنى حمزة ، وفر عليه الكثير من المصاعب التى كان من الممكن أن تقابله لو أنهم حاربوه ولم يدخلوا باختيارهم فى طاعته .

وهكذا تمهدت الأمور لنـور الدين باستقرار الأحـــوال فى اليمن ، وسيطرته على ناصية الأمور فيها . ومن ناحية أخرى ، أسهمت الظروف التى كانت تمر بها الدولة الأيوبية فى تحقيق أهدافه ، ولا نغفل بعد اليمن وصعوبة موالاتها بالحملات من مصر فى ظل تلك الظروف ، أضف إلى ذلك طبيعة البلاد الجبلية الصعبة . كل هذا كان كافيا لإقدام نور الدين على تنفيذ مطامعه ، ففى أواخر سنة ٦٢٨ هـ / ١٢٣١ م خلـع طاعة بنى أيوب وأعلن استقـلاله بملك اليمن (١). بعد عامين من العمل المخطط المتواصل ، واتخذ من مدينة تعز عاصمة

---

(١) النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٧ ص ٤٢ ـ ابن تغـرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٧٣ .

لدولته. وبقيام دولة بنى رسول سقطت دولة الأيوبيين فى اليمن ، بعد حكم دام مايقرب من ستين عاما (٥٦٩ - ٦٢٨ هـ / ١١٧٤ - ١٢٣١ م ، حكم منها نور الدين سنتين منفردا باعتباره نائبا لهم من ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م إلى أن أعلن استقلاله عام ٦٢٨ هـ / ١٢٣١ م .

٢ - استكمال مظاهر الاستقلال وتأمين الدولة الناشئة :

تمكن نور الدين من الاستقلال بملك اليمن ، وتلقب بالملك المنصور [١] ، ثم بدأ فى العمل على استكمال مظاهر هذا الاستقلال ، ففى سنة ٦٣٠ هـ امر بضرب السكة باسمه ، كما أمر بأن يدعى له على المنابر فى سائر أنحاء اليمن [٢]. وفى سنة ٦٣١ هـ / ١٢٣٤ م أرسل هدية للخليفة المستنصر بن الظاهر العباسي ببغداد [٣] ، وطلب منه تقليدا وتشريفا بالسلطنة والنيابة عنه [٤] ، طبقا لما جرت به العادة بالنسبة للملوك والسلاطين التابعين لدار الخلافة [٥] .

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٤١ ، الكبسي : اللطائف السنية ص ٣٩ ب ، العرشى: بلوغ المرام ص ٤٤ ، زبارة: أئمة اليمن جـ ١ ص ١٤٩ .

(٢) ابن الديبع : بغية المستفيد ١١ ، أ ، الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٥١ ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ ٢ ص ١٧٦ ، العقيلي : المخلاف السليمانى جـ ١ ص ٢١٤ .

(٣) الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٥٤ ، العسجد ص ٢٢٩ .

(٤) الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٥٥ ، الفاسي : العقد الثمين جـ ٣ ص ٣٩٤ - ٣٩٥ ، ابن الديبع : قرة العيون ٦٦ ب ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ ٢ ص ١٧٦ .

(٥) يحيى بن الحسين : أنباء الزمن ص ٧١ EL Kkazrejiyy : op cit.: p. 30, N. 166.

وبوصول التقليد والتشريف سنة ٦٣٢ هـ / ١٢٣٥ م استتم نور الدين كافة مظاهر الشرعية لملكه واستقلاله بحكم اليمن .

والواقع أن الأمور لم تنته عند هذا الحد . فقد كانت هناك مخاطر خارجية وداخلية متنوعة ماتزال ماثلة أمام نور الدين .

فبالنسبة للمخاطر الخارجية ، فإن استقلال نور الدين بملك اليمن ، وفصلها عن الدولة الأيوبية ، من شأنه أن يعرضه لانتقام السلطان الملك الكامل محمد الأيوبي . وهذا ماحدث فعلا ، فقد أصبح نور الدين - من وجهة النظر الأيوبية - مغتصبا لجزء من هذه الدولة ، الأمر الذى اضطر معه السلطان الملك الكامل إلى تجهيز حملة فى عام ٦٢٩ هـ / ١٢٣٢ م لاستعادة السيطرة على بلاد اليمن . وكان نور الدين يتوقع ذلك ، ولهذا لم ينتظر حتى تداهمه قوات الأيوبيين ، وسارع فى تجهيز حملة للحجاز - التى كانت ماتزال تابعة للأيوبيين ، ولهم فيها حامية عسكرية ، كما أنها تمثل المعبر البرى الوحيد للحملات الأيوبية المتجهة إلى اليمن - واستطاعت قوات نور الدين دخول مكة والسيطرة عليها ، وانسحبت الحامية والقوة الأيوبية منها إلى ينبع للاحتماء بها [1] .

وباستيلاء نور الدين على مكة ، أصبح مشاركا للأيوبيين فى بلاد الحجاز [2] . وتحولت الحجاز على هذا النحو إلى خط دفاع أمامى لليمن ،

---

(١) الفاسى : العقد الثمين جـ ٢ ص ٧٤١ ، المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٢٤٤ .

(٢) باخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ ٢ ص ١٧٨ .

فانتقل بذلك مسرح المعارك اليمنية الأيوبية إليها . وتوالت الحمـــلات بين الجانبين (١) ، كل يعمل على تثبيت سيطرته على بلاد الحجاز .

أما بالنسبة للمخاطر الداخلية ، فقد كان نور الدين حريصا على عدم إتاحة الفرصة لظهورها على مسرح الأحداث الداخلية ، مستهدفا من ذلك تدعيم دولته واستقرار الأحوال الداخلية فيها . وكان بعيد النظر ، خبيرا بالتيارات الداخلية فى دولته ، وكان يخشى أن تستنفد الحـــركات الداخلية المضادة كل جهوده ، مما يؤدى إلى نجاح القوات الأيوبية فى الوصول لليمن والقضاء عليه . وهذا يفسر مبـادرته لمهـاجمة القوات الأيوبيه فى مكة ، والعمل على السيطرة على الحجاز تأمينا لليمن من المخاطر الخارجية .

ومن ناحية أخرى ، فإن انشغال نور الدين بالصراع ضد الأيوبيين خارج حـدود اليمن ، واستمرار حمـلاته على الحجاز ، من شأنه إغـــراء القوى الداخلية المعادية المتمثلة فى القبائل اليمنية الطامعة دائما فى التحـرر من سيطرة الدولة للتمرد ، كما أنه من المحتمل أن يتمرد أيضا الساخطـون من الجند أو رؤسائهم الموالين للأيوبيين ، وغيرهم من الطـامعين من أمراء البيت الرسولى للاستيلاء على مقاليد الحكم ، وهؤلاء جميعا كانوا يجدون فى القوى الزيدية خير ملجأ ومعين .

وكانت تلك القوى المعادية كثيرا ماتنشط كلما وجـدت الظروف مهيـأة

---

(١) الفاسى : العقد الثمين جـ٣ ص ٣٩٥ ، ابن تغرى بردى : حـــوادث الدهور ص ٣٧٥ ، العرشى : بـلوغ المرام ص ٤٤ ، De Gaury, (G.) : Rulers of Mecca, P. 88. (ولمزيد من التفصيلات ، انظر الفصل الرابع) .

لذلك ، سواء عند ضعف القوى الحـــاكمة ، أو انشغالها فى صراعات داخلية أو خارجية . وهى سمة تميزت بها بلاد اليمن دون كثير من مناطق العالم الاسلامى عبر تاريخها الطويل . وكانت طبيعية البلاد الجبلية الوعرة من أهم العوامل التى ساعدت على تفتت البلاد إلى أشلاء متناحرة فى كثير من العصور . ولهذا رأى نور الدين ألا تشغله حروبه ضد الأيوبيين فى الحجاز عن تلك القوى المتربصة للانقضاض على حكمه . ولــكى لايتيح الفرصة لتكتلهم ضده ، لجأ إلى القيام بحملات دورية ، حتى لاتتعرض سلامة دولته للخطر ، فبعد حملة الحجاز سنة ٦٢٩ هـ/١٢٣٢ م توجه إلى صنعاء واستولى على حصن بكر[١] وكوكبان[٢] وبراش[٣] . وفى سنة ٦٣٠ هـ/١٢٣٣ م تسلم بلاد عــلوان الجحدرى فى شرق اليمن[٤] .

---

(١) بكر ، حصن من بلاد كوكبان إلى الشمال الغربى من صنعاء . (أئمة اليمن جـ ١ ص ١٤٢) .

(٢) كوكبان ، جبل على مسافة يوم إلى الشمال الغربى من صنعاء (الواسعى : البدر المزيل للحزن ص ٢٥) يقع فى أعلاه حصن كوكبان، وهو حصن منيع .

(٣) الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٤٩ ، العقد الفاخر الحسن جـ٢ ص ٦٦ أ .

(٤) الخزرجى : العقد الفاخر جـ ٢ ص ٦٦ ب ، المسجد ص ٢٢٨ - ٢٢٩ ، ابن الديبع : قرة العيون ٦٦ ب (أما علوان فهو ابن عبدالله بن سعيد الجحدرى المذحجى ، كان قد تغلب على حصون حجر ونواحيها فى شرق اليمن وحصون العروسين ووعل ونعمان وغيرها إلى الشرق من مدينة الجنـد (الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ١٣٨ ، وانظر أيضا تعليقـات : Redhouse فى
(The Pearl — Strings, Vol. III, 3, pp. 98—99, Notcs, 599 - 608 —

٣ ـ الزيدية ونقض الصلح مع نور الدين :

سادت العلاقات الطيبة بين الزيدية ونور الدين بعد توصلهما إلى الصلح سنة ٦٢٨ هـ/ ١٢٣١ م ، وكان واضحا أن تأييدهم له وتحريضه على الاستقلال، كان يهدف أن تسوء العلاقات بينه وبين الأيوبيين ، فيستغل بنو حمزة الزيديين فرصة الصراع المنتظر للانقضاض على دولة نور الدين. ففي سنة ٦٣٤ هـ/ ١٢٣٧ م استولوا على المناطق التي كان نور الدين قد أقرهم عليها ، وعملوا على التوسع ، معرضين بذلك وحدة الدولة واستقرارها للخطر . وقد بدأ الزيدية نقض الصلح عندما أرسل الشريف الزيدي يحيى بن حمزة بعض أتباعه للاستيلاء على كوكبان [١] ، ولكن حاميتها تصدت لهم وردتهم على أعقابهم ، وقضت على معاونيهم [٢] . فلما علم نور الدين بذلك غضب ، وجهز حملة تأديبية إلى منطقة البون [٣] ـ شمال صنعاء ـ لمطاردة بني حمزة ، تمكنت من استرداد جميع

= يرجع سبب محاربة نور الدين له ، أنه نمى إلى علمه أن علوان قد أرسل إلى الملك الكامل يطلب مساعدته في قتال نور الدين وإعادة اليمن للسيطرة الأيوبية (الخزرجي : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ١٣٩) .

(١) الخزرجي : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٥٨ . المسجد ص ٢٣٠ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٦٧ « أ » .

(٢) ابن حاتم : السمط ٤٤ « أ » ، الخزرجي: العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٥٨ ، المسجد ص ٢٣٠ ، ابن الديبع : قرة العيون ٦٧ « أ » .

(٣) البون ، أرض لهمدان باليمن (نشوان بن سعيد الحميري : منتخبات في أخبار اليمن ص ٦) على مسيرة يوم إلى الشمال من صنعاء (الواسعي : البدر المزيل للحزن ص ٥) على خط عرض ٤٠َ ر١٥° شمالا ، وخط طول ١٣َ ر٤٤° شرقا (EL — khazretijyy : op.cit., P. 50، Note, 293).

البلاد التى كان نور الدين قد أقرهم عليها فى شمال اليمن [١]، مقابلا لهم على نقض الصلح [٢] .

ولم تقف مطامع الأشراف الزيدية عند هذا الحد ، بل امتدت إلى مناطق أخرى ، إذ استولوا على جبل منابر ـ وكان من المواقع الهامة المطلة والمتحكمة فى مدينتى المهجم والمحالب ـ وقاموا بتحصينه [٣] ، وإعداده ليكون منطلقا للاستيلاء على غيره من المدن والحصون وبما زاد من خطورة الموقف أن الحامية الموجودة مع نجم الدين بن أبى ذكرى ـ نائب نور الدين فى مدينة المهجم ـ لم تكن كافية للتصدى لأى هجوم قد يشنه الأشراف بنو حمزة . ولذلك أرسل ابن أبى ذكرى لنور الدين يخبره بحقيقة الموقف ، وحاول نور الدين التوصل إلى حل سلمى معهم ، وأرسل إلى الشريف يحيى بن حمزة يطلب منه تسليم حصن منابر مقابل تعويضه بحصن آخر وعشرة آلاف دينار [٤] ، ولكنه رفض واعتبر أنه بسيطرته على هذا الحصن قد أصبح شريكا لنور الدين فى منطقة تهامة . وهكذا لم يجد نور الدين بدا من الحرب، فزحف من زبيد إلى المهجم [٥]

---

(١) ابن حاتم : السمط ٤٤ « أ » .

(٢) الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٦٠ .

(٣) الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٥٨ ، قرة العيون ٦٧ « أ » .

(٤) ابن حاتم : السمط ٤٤ «أ» ، الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ١ ص٥٩، المسجد ص ٢٢٠ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٦٧ «أ» .

(٥) ابن حاتم : نفس المصدر ص ٤٥ «أ» .

فى ستين ألف مقاتل [١] ، ومما يدل على حصانةهذا الحصن ومناعته أنه لم يكتف بتلك القوة الكبيرة ، بل لجأ إلى سلاح المال لشراء ولاء القبائل، وخاصة تلك التى اعتمد يحيى بن حمزة عليها ، وأنفق فى ذلك أموالا كثيرة [٢]، لهذا لم يكد يصل حتى استقبلته القبائل وانضوت تحت لوائه ، كما تخلت جموع الموالين ليحيى بن حمزة عنه ، مما يسر لنور الدين مهمة استرداد جبل مناير من غير قتال [٣] . وتسلم عدداً آخر من المدن والحصون مثل حجة والمخلافة وما إليها [٤] . فلما عاد نور الدين إلى زبيد جاءه مندوبو الأشراف معتذرين عما حدث ، مقرين له بالطاعة [٥] ، مسلمين له بما استرده منهم من البلاد ، وتم الصلح على ذلك [٦] .

وهكذا يتضح أن محاولة الزيدية الاستيلاء على كوكبان ، ثم تحصينهم

---

(١) ابن الديبع : قرة العيون ص ٦٧ «أ» .

(٢) ابن حاتم : نفس المصدر والصفحة ، الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ١ ص ٥٩ — ٦٠ ، العسجد ص ٢٣١ .

(٣) ابن حاتم : نفس المصدر والصفحة .

(٤) الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ١ص ٥٨ و ٦٠ ؛ العسجدص ٢٣٠ — ٢٣١ ، العقد الفاخر جـ٢ ص ٦٦ ، ابن الديبع : قرة العيون ٦٧ «أ» ، بامخرمة تاريخ ثغر عدن جـ ٢ ص ١٧٦ .

(٥) الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٦١ ، ابن الديبع : قرة العيون ٦٨ «أ» .

(٦) ابن الديبع : قرة العيون ٦٨ «أ» .

لجبل منابر ، كان يهدف السيطرة والتوسع ، وأنهم لم يكونوا جادين عندما دخلوا فى طاعـــة نور الدين . وكان اختيارهم لهذين الموقعين تجسيدا لتلك المطامع ، فحصن كوكبان يسيطر على جزء كبير من منطقة الجبال الشمالية بل ويهدد صنعاء نفسها ، وجبل منابر يتحكم فى قسم كبير وهـام من منطقة وسط تهامة ، مما يهدد بضياع المنطقة الساحلية الواقعة شمالها .

٤ ـ تثبيت سيطرة نور الدين على اليمن :

وفى إطار العمل على تدعيم واستقرار الأحوال الداخلية فى اليمن ، قام نور الدين بإنفاذ الحملات إلى العديد من المناطق ، ففى سنة ٦٣٦هـ/ ١٢٣٩ م سير حملة إلى بلاد الشحر بساحل حضرموت فاستولت عليها[١] . وفى العام التالى أرسل حملة أخرى إلى حضرموت ، ولكنها عادت دون تحقق أن هدفها ، وبعد أن أوقعت القبائل بها الهزيمة وقتلت قائدها وعددا من أفرادهـا[٢] . وفى نفس العام استولى نور الدين على حصن الكميم[٣] . واســـترد فى سنة ٦٣٨ هـ/ ١٢٣١ م حصن حلب ـ بالقرب من ثلا إلى الشمال من كوكبان[٤] ـ

---

(١) ابن حاتم : السمط ص ٤٦ « أ » .

(٢) ابن حاتم : نفس المصدر والصفحة .

(٣) الخزرجى : العقود اللؤلؤية حـ ١ ص ٦٤ ، العسجد ص ٢٢٣ ، العقد الفاخر الحسن حـ ٢ ورقة ٦٦ ب ، ابن الديبع : قـــرة العيون ورقة ٦٨ ب (الكميم ، حصن من بلاد الحدا) زبارة أئمة اليمن حـ ١ ص ١٦١ (إلى الجنوب من صنعاء وعلى الطريق الموصل بينها وبين مدينة ذمار) EL - Khazrejiyy: The Pearl - Strings, Vol. III, p. 53, Note,. 315.

(٤) زبارة : أئمة اليمن حـ ١ ص ١٦٢ .

من الشريف محمد بن يحيى بن حمزة [١] .

وواصل نور الدين تسيير حملاته السنويه ، فأغار على حصن السوا [٢] ويمين [٣] ومنيف [٤] . وكان قد غضب على عمار بن السباني واليه عليهما ، فقتله سنة ٦٣٩ هـ/ ١٢٤٢ م واستولى على حصونه [٥] وفي العام التالي استولى على حصن عتمة [٦] ، ثم تابع حملاته فتسلم في سنة ٦٤١ هـ/ ١٢٤٤ م حصن حفاش [٧] . وفي سنة ٦٤٢ هـ / ١٢٤٥ م استولى على حصن

---

(١) ابن حاتم : السمط ورقة ٤٦ « أ » .

(٢) السوا ، حصن على جبل صبر من أعمال تعز (Kay ; yaman, p. 245) .

(٣) يمين ، حصن من حصون المعافر (الحجرية) إلى الشمال الغربي من عدن (بهجة الزمن ص ٤٥ « أ » ، الخزرجي : العسجد ١٧٤) .

(٤) الخزرجي : العقود اللؤلؤية حـ ١ ص ٦٧ (منيف حصن من حصون مخلاف المعافر على جبل صبر)

EL – Khazrejiyy : op. cit. p. 78, Note 459 .

(٥) الخزرجي : العسجد ص ٢٣٤ ، العقد الفاخر الحسن جـ٢ ص ٦٦ ب.

(٦) ابن حاتم : السمط ورقة ٤٦ ب . (عتمة ، حصن من الحصون المعدودة في اليمن ، ويضم أعمالا كثيرة ، ويعرف ببلد السلاطين ، وهم قوم من خولان ، قال عنهم الخزرجي ، بأنهم أهل رئاسة متأثلة ومكارم مشهورة (العقد الفاخر الحسن حـ ٢ ص ٢٩ « أ ») .

(٧) الخزرجي : العسجد ص ٢٣٦ ، العقود اللؤلؤية حـ ١ ص ٧١ ، العقد الفاخر الحسن حـ ٢ ص ٦٧ « أ » ، ابن الديبع : قرة العيون ٦٨ ب . (وحفاش من المعاقل المشهورة على جبل باسمه قريب من ناحية الخلافة (الجندي : السلوك ص ٣٧١) .

سماوة[1] وبلاد خولان[2]، كما زحف إلى بلاد علوان الجحدرى الواقعة فى شرق اليمن ـ فى نفس العام ـ وطرده منها ، وكان الشريف الزيدى تاج الدين محمد بن يحيى بن حمزة قد جاءه فى كثير من أتباعه لامداده ومعاونته ضد علوان ، فأعاد نور الدين إليهم حصون حجة وزادهم عليها مناطق أخرى مكافأة لهم على معاونتهم له [3] .

وفى سنة ٦٤٥ هـ / ١٢٤٨ م استولى نور الدين على جبل العوادر [4] ، ثم توجه إلى تهامة للقضاء على حركة التمرد التى قام بها المعازبة [5] . وهكذا سيطر نور الدين على جميـــع مناطق اليمن باستثناء عدد قليل من البلدان والحصون [6] .

---

(١) سماوة ، قلعة حصينة على جبل وصاب بالقرب من زبيد
EL - Khazrejiyy : op. cit., p. 59, Note, 344 .

(٢) ابن حاتم : السمط ٤٦ ب ، الخزرجى : العسجد ٢٣٦ ، ابن الديبع : قرة العيون ٦٨ ب ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى حـ ١ ص ٤٢٦ .

(٣) ابن حاتم : السمـــط ٤٥ « أ » .

(٤) ابن حاتم : نفس المصدر ص ٤٧ « أ » ، الخزرجى : العقـــود حـ ١ ص ٧٤ ، العسجد ٢٣٧ ، العقد الفاخر حـ ٢ ص ٦٧ « أ » ، ابن الديبع : قرة العيون ٦٩ « أ » ، (العوادر ، قبيلة تقيم على جبل سورق إلى الشرق من الجند)
EL- Khazrejiyy ; op. cit, p 61, Note 352 .

(٥) ابن حاتم : نفس المصدر والصفحة (والمازبة ، قوم يسكنون المنطقة الواقعة بين مدينة القرشية وزبيد (الخزرجى : العسجد ٤٤٩) .

(٦) الخزرجى : العقود حـ ١ ص ٧٣ ، العسجد ٢٣٧ ؛ العقد الفاخر الحسن حـ ٢ ص ٦٧ « أ » .

٥ - استغلال الشريف الزيدي أحمد بن الحسين الخلاف القائم بين بني رسول للدعوة للإمامة :

كان السلطان الرسولي نور الدين قد ولى ابن أخيه الأمير أسد الدين محمد ابن بدر الدين الحسن بن علي بن رسول على صنعاء ، وذلك بعد أن استولى عليها في أواخر سنة ٦٢٧ هـ / ١٢٣٠ م من الأمير نجم الدين أحمد بن أبي ذكرى نائب المسعود [١] ، وظل أسد الدين ينوب عن عمه في ولاية صنعاء، منذ أعلن استقلاله باليمن عن الأيوبيين [٢] إلى أن تخلص من أكثر الأخطار الخارجية ، وأقر قواعد ملكه داخليا ، وعندئذ عزم على عزل ابن أخيه عن صنعاء [٣] ، وذكر ابن حاتم أن ذلك كان بإيعاز من زوجته –أم قطب الدين– التي أرادت أن يكون ابنها الفائز قطب الدين نائبا لأبيه على صنعاء بدلا من أسد الدين محمد بن الحسن [٤] ، وقيل إنما يرجع السبب في رغبة نور الدين في عزله إلى ما بلغه من أمور خوفته منه [٥] ، وأنه لهذا قرر عزله ، وتولية ابنه المظفر يوسف بدله [٦].

---

(١) الخزرجي : العقد الفاخر حـ ٢ ص ٦٧ « أ » ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن حـ ٩ ص ١٧٨ .

(٢) ادريس عماد الدين : نزهة الأفكار ص ٥٤ .

(٣) ابن حاتم : السمط ٤٧ «أ» .

(٤) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن لوحة ٥١ ب ، الخزرجي : العقود اللؤلؤية

(٥) ابن حاتم السمط ٤٧ أ.

حـ ١ ص ٧٤ ، العسجد ص ٢٣٧ ، ابن الديبع : قرة العيون ٦٩ « أ » .

(٦) ابن عبد المجيد : نفس المصدر لوحة ٤٢ « أ » ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن حـ ٢ ص ١٧٨ .

والقول بأن نور الدين كان يعمل على تولية ابنه المظفر، يحتاج إلى أسانيد تدعمه ، ذلك أن أم قطب الدين ـ واسمها بنت جوزة إبنة الأمير سيف الدين سنقـــر الأتابك ، وزوجة المسعود يوسف بن الكامل ـ كان نور الدين قد تزوجها [١] بعد استيلائه على اليمن ٦٢٨ هـ / [٢] ١٢٣١ م ، وشغف بهـــا وأنجب منها ولداه قطب الدين الفائز والمفضل ، وكانت تبذل قصـــارى جهدها لاستمالة نور الدين لولديها ، دون ابنه المظفـر الذى كانت تعمل على على إبعاده مع أنه أكبر أبنائه ، فكانت النتيجة أن تولى المظفر يوسف نائبا لأبيه على مدينة المهجم . وغضب المظفر لهذه المؤامرة التى دبرتها زوجة أبيه ، وعزم على التوجه إلى بغداد ليشكو إلى الخليفة المستعصم العباسى من أبيه الذى أقصاه وحلف العسكر للمفضل الذى يصغره فى السن [٣] .

ومهما يكن من شىء فإن نور الدين استدعى ابن أخيه أسد الدين عندما عزم على عزله ، وطلبه فى أواخر ٦٤٥ هـ/١٢٤٨ م بحجـة أنه يريد أن يزوجه من ابنته . فلما وصله عرض عليه أن يعوضه عن صنعاء بلحج وأبين وحضرموت والشحر ، ولكنه رفض ، فعرض عليه راتبا سنويا قدره خمسين ألف دينار ، فرفض أيضا وقفل عائدا إلى صنعاء [٤] . وقيل أنه لم يقابل عمه ،

---

(١) الخزرجى : العقد الفاخر حـ ٢ ص ٦٦ « أ » .

(٢) الخزرجى : العقود اللؤلؤية حـ ١ ص ٤٧ ، العسجد ٢٢٧ ، ابن الديبع قرة العيون ٦٥ .

(٣) الخزرجى : العقود اللؤلؤية حـ ١ ص ٨٨ ـ ٨٩ ، العسجد ص ٢٤٦ ، ابن الديبع : قرة العيون ٧١ ب .

(٤) ابن حاتم : السمط ٤٧ « أ » .

لأنه ماأن وصل حتى علم بما اعتزم عمه القيام به من عزله عن صنعاء ، فتخوف وفر هاربا فى طريقه إلى صنعاء [١] بغير مقابلة عمه أو استئذانه . فأرسل نور الدين من يسبقه ويعترض عليه طريقه إلى صنعاء ، ولكنه عدل عن الطريق المعتاد وسار فى طريق قفر [٢] ، ودخل صنعاء فى أول عام ٦٤٦هـ / [٣] ١٢٤٨م وهو غاضب من عمه ناقم عليه .

وفى سنة ٦٤٦ هـ / ١٢٤٩ قام الشريف الزيدى أحمد بن الحسين القاسمى إماما للزيدية باليمن [٤] ، ولما كان أسد الدين مغاضبا لعمه ويخشى انتقامه ، لهذا فقد أرسل إلى الامام يعرض الانضمام إليه والتحالف معه ضد عمه [٥] .

---

(١) الخزرجى : العقد الفاخر حـ ٢ لوحة ٩٥ « أ » .

(٢) ابن حاتم : نفس المصدر والصفحة ، ابن عبد المجيد : بهجه الزمن لوحة ٥١ ب — ٥٢ « أ » ، الخزرجى : العسجد ص ٢٣٧ ، العقود اللؤلؤية حـ ١ ص ٧٤ — ٧٥ ، ابن الديبع : قرة العيون ٦٩ « أ » .

(٣) الخزرجى : العقد الفاخر حـ ٢ لوحة ٩٥ « أ » .

(٤) هو الامام أحمد بن الحسين بن أحمد بن القاسم بن عبد الله بن القاسم ابن أحمد بن أبى البركات بن اسماعيل بن أحمد بن القاسم بن محمد بن القاسم ابن ترجمان الدين طباطبا بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن على ابن أبى طالب ، (الخزرجى : طراز الزمن جـ ٢ ص ٩٠ - ٩١ ، زبارة : أئمة اليمن جـ ١ ص ١٥٢) وتمت إمامته بحصن ثلا فى منتصف صفر سنه ٦٤٦ (ابن حاتم : السمط ٤٧ « أ » ، الخزرجى : العقد الفاخر جـ ٢ ص ٦٧ « أ » العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٧٥ .

(٥) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن لوحة ٥٢ ب ، الخزرجى : العقد الفاخر جـ ٢ لوحة ٦٧ « أ » ، العقود جـ ١ ص ٧٦ .

وهكذا أسهم أسد الدين بعمله هذا في فتح باب الصراع مع الزيدية من جديد، بعد هدوء استغرق ثماني عشرة عاما منذ استقلال نور الدين بحكم اليمن — باستثناء ماقام به بنو حمزة سنة ٦٣٤ هـ / ١٢٣٧ م — فلما علم نور الدين بهذه التطورات الخطيرة، من قيام إمام وانضمام أسد الدين إليه، تجهز في عسكر كثيف وتوجه لمحاربتها (١). فلما وصل إلى ذمار — الواقعة إلى الجنوب من صنعاء — في ربيع الأول ٦٤٦ هـ/١٢٤٩ م؛ أمر باستدعاء أسد الدين محمد بن بدر الدين الحسن بن علي بن رسول من صنعاء، وأرسل له ذمة وأمانا مع أخيه فخر الدين أبي بكر بن الحسن الذي استطاع إقناعه بالتوجه معه إلى عمه وتجديد العهد له، والاعتذار له عما بدر منه، وفعلا عفا نور الدين عنه وأكرمه وأقره على صنعاء (٢)، وتوجه الجميع إليها فوصلوها في الحادي عشر من ربيع الآخر سنة ٦٤٦ هـ / ١٢٤٩ م (٣).

أما الإمام أحمد بن الحسين فقد كان يتابع — في حصن ثلا (٤) — تجهيز

---

(١) الخزرجي: العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٧٦.

(٢) ادريس عماد الدين: نزهة الأفكار لوحة ٥٤.

(٣) ابن حاتم: السمط ٤٧ ب (وذكر الخزرجي أن دخول نور الدين إلى صنعاء كان في الحادي والعشرين من الشهر، انظر العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٧٦، العقد الفاخر جـ ٢ ص ٦٧ «أ»).

(٤) ثلا، حصن منيع إلى الشمال من كوكبان (الواسعي: البدر المزيل للحزن ص ٢٤) وهو على بعد ثلاث فراسخ من صنعاء (ابن المجاور: صفة بلاد اليمن جـ ٢ ص ١٩٣).

الحملات للاغارة على المناطق الموالية للسلطان نور الدين [١] . ولهذا لم يكد نور الدين يستقر فى صنعاء حتى عقد العزم على السير بقواته لمحاربة الامام والقضاء على دعوته قبلما استفحالها [٢] ، فخرج من صنعاء فى الثانى من جمادى الأولى سنة ٥٤٦ هـ/ ١١٤٩م [٣]، وحط بقواته قرب سفح ثلا ، ودار قتال عنيف بين الجانبين ، شمل المنطقة ، وقتل من أتباع الامام سبعون رجلا [٤] .

وتابع نور الدين حملاته على المناطق الموالية للامام ، وانتقم منهم ، وأخرب وأتلف كثيرا من حصونهم ومزارعهم [٥] . وظل مقيما فى صنعاء مايقرب من عام كامل يجهز الحملات للاغارة على الإمام وأعوانه من الزيدية والقبائل الموالية له ، فتارة يقود الحملات بنفسه ، وأخرى ينيب ابن أخيه أسد الدين أو غيره من كبار أمراء الأجناد [٦] . وعلى الرغم من العنف والقسوة التى اصطنعتها قوات نور الدين مع الزيدية ، إلا أن القبائل الموالية

---

(١) زبارة : أئمة اليمن جـ ١ ص ١٥٤ .

(٢) زبارة : أئمة اليمن جـ ١ ص ١٥٣ .

(٣) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن لوحة ٥٢ «أ» .

(٤) الخزرجى : العسجد ص ٢٣٨ ، العقد الفاخر جـ ٢ ص ٦٧ «أ» (أما ما أورده الخزرجى فى العقود اللؤلؤية جـ١ ص ٧٦ من أن عدد القتلى كان تسعون رجلا ، فيبدو أن ذلك تصحيف من الناسخ فى الأصل المخطوط الذى اعتمده الناشر لطبع الكتاب) .

(٥) الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ١ ص ٧٧ ، ٨٠ ، العسجد ص ٢٣٨ – ٢٣٩ ، ابن الديبع : قرة العيون ٦٩ .

(٦) ابن حاتم : السمط ص ٤٨ «أ» .

للامام لم تذعن بالطاعة للسلطان ، واستمرت مقاومتها العنيدة فى مساندة الامام ودعوته (١) . وأمام هذا الصمود الذى استغرق وقتا طويلا ، رأى نور الدين أن يعود إلى تعز لترتيب أمور دولته على أمل فى جولة أخرى وغادر صنعاء فى الثالث من ربيع الأول ٦٤٧ هـ / ١٢٥٠ م (٢) . وتوجه معه ابن أخيه أسد الدين فى وداعه إلى ذمار (٣) .

ومما يذكر أن الزيدية استغلت خروج أسد الدين من صنعاء وتغيبه فى وداع السلطان ، وحاولت قواتهم الاستيلاء على صنعاء ، ولكن حاميتها صدتهم وردتهم عنها (٤) . كما قامت القبائل الموالية للامام بقطع طريق العودة على أسد الدين ، ولكنه استطاع الوصول إلى صنعاء قهرا (٥) . واستمر ضغط الإمام وقواته على أسد الدين ، ولكن انقسام الزيدية بعد ذلك ووقوع الحرب بين الإمام وبنى حمزة خفف كثيرا من الخطر الذى تعرضت له صنعاء (٦) .

---

(١) زبارة : أئمة اليمن جـ١ ص ١٥٥ .

(٢) ابن حاتم : السمط ٤٨ب ، الخزرجى : العقد الفاخر جـ٢ ص ٩٧ «أ» .

(٣) الخزرجى : العقد الفاخر الحسن جـ٢ ص٩٥ «أ» .

(٤) ابن حاتم : السمط الغالى الثمن ورقة ٤٨ ب ، الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ١ ص ١ ، المسجد ص٢٤٠ ، ابن الديبع : قرة العيون ص٧٠ «أ» .

(٥) ابن حاتم : نفس المصدر والصفحة ، الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ١ ص ٨١ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٧٠ «أ» .

(٦) الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ١ ص ٨١ ، العسجد ص ٢٤١ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٧٠ «أ» .

أما نور الدين فإنه ما كاد يواصل تقدمه جنوبي صنعاء حتى إعترضته قبائل تلك المنطقة مع عدد كبير من قوات الامام تقدر بعشرة آلاف رجل [١] ومائة وخمسين فارساً [٢] . فتصدى لهم نور الدين بعسكره وهزمهم في ربيع الآخر سنة ٦٤٧ هـ / يوليو ـ أغسطس ١٢٤٩ م، وقتل منهم أكثر من ثلاثمائة رجل [٣] ، ثم واصل طريقه إلى تعز . [٤]

٦ ـ مقتل السلطان نور الدين :

ظل نور الدين مقيما في تعز إلى حلول عيد الفطر [٥] ، ثم تقدم بعده إلى مدينة المهجم ، وفي هذه الأثناء بلغه عودة علوان الجحدري للعصيان مرة أخرى ، فعزم على السير لمحاربته والقضاء على حركته ، فغادر مدينة المهجم في شهر ذي القعدة ٦٤٧ هـ[٦] / فبراير سنة ١٢٥٠م ، فلما وصل إلى مدينة الجند وثب عليه مماليكه ،وقتلوه في قصر الجند[٧] في ليلة السبت التاسع من ذي القعدة سنة ٦٤٧ هـ/١٥ فبراير سنة ١٢٥٠م [٨].

---

(١) ابن حاتم : السمط ورقة ٤٨ ب .

(٢) الخزرجي : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٨١ .

(٣) ابن حاتم : نفس المصدر والصفحة .

(٤) ابن حاتم : نفس المصدر والصفحة .

(٥) ابن حاتم : السمط ٤٨ ب .

(٦) ابن حاتم : نفس المصدر ٤٩ ، أ ، .

(٧) زبارة : أئمة اليمن ص ١٥٨ .

(٨) ابن حاتم : السمط ورقه ٤٩ ، أ ، ، الخزرجي : العقود اللؤلؤية

وقيل أن مقتله تم بمؤامرة دبرها له أسد الدين ابن أخيه [١] الذى كان مهدداً بالعزل عن صنعاء ، وكان يتوقع أن يقصيه عمه عنها فى يوم من الأيام، ولهذا اتفق مع أخيه فخر الدين أبى بكر بن الحسن بن على بن رسول ، ودبر الخطة معه ، واتفقا مع مماليك نور الدين على قتل ولى نعمتهم . وبذلا لهم الوعود البراقة والأموال الجزيلة [٢] ، حتى قيل أنهم كانوا قد عزموا على تنفيذ مؤامراتهم فى صنعاء ، ولكنهم أرجأوا التنفيذ [٣] حتى تم لهم ذلك فى مدينة الجند .

وهكذا مات نور الدين مقتولا بيد مماليكه بعد ملك دام أكثر من ثمانية عشر سنة ــ خلاف فترة نيابته عن المسعود ــ قضاها فى كفاح متواصل من من أجل تدعيم استقلاله وترسيخ قواعد دولته وإقرار الأمن فى ربوعها ، وتأمينها باستيلائه على الحجاز .

= جـ ١ ص ٨٢ ، المسجد ص ٢٤١ ، العقد الفاخر الحسن جـ ٢ ص ٦٧ « أ »، الفاسى : العقد الثمين جـ ٣ ص ٣٩٨ ، ابن تغرى بردى : حوادث الدهور ص ٣٧٥، المنهل الصافى جـ ١ ص ٢٣٠ النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٧٣ ، ابن الديبع : قرة العيون ٧٠ « أ » .

(١) الخزرجى: المسجد ص ٢٤١ ، العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٨٢ ، ابن الديبع : قرة العيون ٧٠ « أ » .

(٢) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ٥٢ « أ » باخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ٢ ص ٢٧٨.

(٣) ابن عبد المجيد : نفس المصدر ٥٢ ب .

الفصل الثانى

دولة بنى رسول بعد نور الدين

اولا ـ عصر المظفر يوسف :

١ ـ الوضع المتفجر بعد وفاة نور الدين وموقف المظفر يوسف من الطامعين فى السلطنة من بنى رسول :ـ

أحدث مصرع نورالدين عمر بن على بن رسول هزّة عنيفة فى بلاد اليمن ، وعرّض دولة بنى رسول الناشئة للانهيار ، فلم تكن الظروف مهيأة لإقامة خلف له ، لعدم وجود أحد من أبنائه معه فى مدينة الجند عند مقتله حتى يمكن مبايعته بالسلطنة ، فإبنه الأكبر المظفر يوسف كان نائباً له فى مدينة المهجم وكان موجوداً فيها [١] آنذاك . أما ابنه المفضل قطب الدين ، فكان أبوه قد ولاه على مدينة المحالب [٢] ، ولكنه آثر أن ينيب عنه فيها أحد أتباعه ، وظل مقيما فى تعز مع والدته وإخوته [٣] .

---

(١) ابن حاتم : السمط ص ٤٩ « أ » ، ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٣ « أ » ، الخزرجي : العقد الفاخر الحسن جـ ٢ ص ١٤٦ (ب) .

(٢) المحالب ، مدينة فى تهامة بالقرب من المهجم ، وتقع على خط عرض ٢٠َ ر١٥° شمالا ، وخط طول ر٤٣° شرقا تقريبا . (El-Khazrejiyy : The Pearl-Strings, Vol. III, 3, p. 50, Note, 294).

(٣) ابن حاتم : السمط ص ٤٩ « أ » .

وكان الموقف بعد مقتل نور الدين في الحق خطيراً ويهدد بالانقسام والتفتت ، فالمظفر يوسف كان يعتبر نفسه صاحب الحق الشرعي في السلطنة بعد أبيه باعتباره أكبر أبنائه. أما فخر الدين أبو بكر بن الحسن بن على بن رسول ابن شقيق نور الدين، فكان واليا على زمع[1] ، وطمع في الاستيلاء على السلطنة ، في حين استقل أخوه أسد الدين محمد القرصة واستقل بولاية صنعاء وأخذ يعمل على مساندة أخيه[2] . أما المفضل قطب الدين بن نور الدين ، فقد كان يستند في حقه في السلطنة على ما قام به أبوه من تحليف العسكر له في حياته[3] . وبالإضافة إلى هذه المطامع كان الزيدية يتطلعون إلى تمكين نفوذهم في البلاد ، فقد تمكن الإمام الزيدى أحمد بن الحسين من السيطرة على المناطق الواقعة شمالي صنعاء مستهدفاً التوسع على حساب بنى رسول المتنافسين على السلطنة[4] . مما كان يهدد بزوال دولة بنى رسول .

وكان الموقف يحتم على المظفر يوسف ــ صاحب الحق الشرعي في السلطنة ــ أن يتصدى لكل هذه المخاطر والعمل على التخلص من منافسيه وتثبيت أركان عرشه . وتدل الأحداث على أن خطته كانت تهدف إلى تحقيق السيطرة على

---

(١) زمع ، وادى يقع إلى الشمال من وادى زبيد EL - Khazrejiyy : op. cit. p. 23, Note, 117).

(٢) ابن حاتم : السمط ص ٤٩ « أ ».

(٣) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص٥٣ « أ » ، الخزرجي : العقد الفاخر الحسن جـ ٢ ص ١٤٦ (ب).

(٤) الخزرجي : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٨٩ ، العسجد المسبوك ص ٢٤٦ ، العقد الفاخر جـ ٢ ص ١٤٦ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٧٢ « أ ».

أكبر مساحة ممكنة من البلاد ، مع عدم الدخول ـ بقدر الإمكان ـ في حرب مع أكثر من قوة في وقت واحد ، سعيا إلى التخلص من منافسيه كل على حدة . وهكذا شرع في تنفيذ هذا المخطط وغادر المهجم بعد أيام من مقتل أبيه متوجها إلى زبيد [١] ، لمواجهة خصومه الواحد تلو الآخر .

أ ـ صراع المظفر ضد أبناء عمه :

كان قتلة نور الدين قد انحازوا ـ مع بقية مماليكه ـ إلى فخر الدين أبي بكر بن الحسن بن علي بن رسول [٢] ، وبايعوه بالسلطنة ولقبوه بالملك المعظم [٣] ، وعندئذ أسرع في جموعه للاستيلاء على زبيد ، ولكنه ما أن بدأ الحصار حتى قوبل بمقاومة شديدة من أهلها ، الذين ـ رغم اختلاف نواياهم ـ أجمعوا على عدم تمكينه من مدينتهم . إذ كان بعضهم يقاومون الحصار وفاء بالقسم الذي ارتبطوا به مع نور الدين لابنه المفضل [٤] ، في حين صمد الآخرون ومنهم الدار الشمسي ـ شقيقة المظفر التي كانت موجودة وقتئذ بزبيد ـ [٥] من أجل حماية المدينة حتى يصلهم المظفر يوسف . ومن الجدير

---

(١) ابن حاتم : السمط ص ٥١ (ب) ، الخزرجي : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٩٠ .

(٢) الخزرجي : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٨٨ ، العسجد ص ٢٤٥ ، العقد الفاخر جـ ٢ ص ١٠٦ (ب)، ابن الديبع : قرة العيون ص ٧١ (ب).

(٣) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٣ « أ » . الخزرجي : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٨٨ ، العسجد ص ٢٤٥ .

(٤) ابن حاتم: السمط ص ٥٢ « أ ».

(٥) ابن حاتم : السمط ص ٤٩ «ب» .

بالذكر أن الدار الشمسي قد لعبت دوراً كبيراً فى تنظيم المقاومة والدفاع عن المدينة ، كما بذلت الأموال الكثيرة [١] كسبا لولاء سكان المدينة لأخيها المظفر يوسف[٢] ، وأرسلت إليه تستحثه على الإسراع لتسلم المدينة قبل سقوطها [٣].

أما المظفر ، فقد بلغته تلك الرسالة بعد خروجه من مدينة المهجم . وكان قد كتب إلى رؤساء القبائل ومشايخ البلاد ولكل من استشعر منه ميلا إليه ، وطلب منهم الاستعداد لملاقاته والسير معه ، وأنفق فيهم الأموال الكثيرة ، ونجح فى إغراء أعداد كبيرة من الجند ورجال القبائل بالانضمام إليه [٤] .

وأعلن والي حرض - فى شمال تهامة - الطاعة له ، وتبعه عدد آخر من ولاة منطقته ، وتوجه المظفر فى هذه الجموع إلى زبيد [٥] ، التى كانت قد تمكنت من الصمود رغم كثرة المحاصرين لها . وهكذا باءت محاولات فخر الدين فى الاستيلاء عليها بالفشل [٦] ، ولم يلبث أن فك الحصار عنها عندما

---

(١) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٣ « أ » ، الجندى : السلوك ص ٢٣٢ ، الخزرجى : العقد الفاخر جـ ٢ ص ١٦٨ « أ » ، الأهدل : تحفة الزمن ص ١٤٥ ب .

(٢) ابن حاتم : السمط ص ٥٢ « أ » .

(٣) الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٨٨ ، العسجد ص ٢٤٥ ، العقد الفاخر جـ ٢ ص ١٤٦ ب ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٧١ ب .

(٤) ابن عبد المجيد : بهجه الزمن ص ٥٣ « أ » ، الخزرجى : العسجد ص ٢٤٦ - ٢٤٧ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٧٢ .

(٥) ابن حاتم : السمط ص ٥٤ ب .

(٦) الأهدل : تحفة الزمن ص ١٤٦ ب .

اقتربت قوات المظفر منها (١)، وغادرها بعسكره فى طريقه إلى صنعاء للانضمام إلى أخيه أسد الدين محمد والعمل سويا للسيطرة على البلاد .

وبانسحاب فخر الدين أمكن للمظفر يوسف أن يدخل زبيد فى موكب عظيم من غير حرب (٢) ، وذلك فى غرة ذى القعدة ٦٤٧ هـ/ (٣) فبراير ١٢٥٠م، وقيل فى العاشر منه (٤) ، فاستقبل استقبالا حافلا ومدحه الشعراء ، وأقسم أهل المدينة وعسكرها بالولاء والطاعة له (٥) . ثم أنعم المظفر على رؤساء القبائل الذين ساندوه ، وأجزل العطاء لهم ولمن معهم ، وسمح لهم بالعودة بعد أن استقرت له الأمور فى المدينة (٦) وبعد أن تخلص من مخاطر فخر الدين باعتقاله، فقد كان المظفر قد أعد العدة لاعتراض طريقه إلى صنعاء ، وفى نفس الوقت قام بعض من معه من المماليك بمراسلة المظفر للدخول فى طاعته ، فأمنهم المظفر واشترط عليهم القبض على فخر الدين أولا (٧) ، فاعتقلوه وقيدوه وسلموه إليه

---

(١) الخزرجى : العقود اللؤلؤية حـ ١ ص ٩٠ ، العسجد ص ٢٤٧ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٧٢ « أ » .

(٢) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن ص ٥٣ ب .

(٣) ابن حاتم : السمط ص ٥٣ ب ، الخزرجى : العقد الفاخر حـ ٢ ص ١٤٦ ب ، ابن الديبع: قرة العيون ص ٧٢ .

(٤) الخزرجى : العقود اللؤلؤية حـ ١ ص ٩٢ ، العسجد ص ٢٤٨ .

(٥) ابن حاتم : السمط ص ٥٣ ب .

(٦) ابن حاتم : السمط ص ٥٣ ب .

(٧) ابن حاتم :السمط ص ٥٣ « أ » ، الخزرجى : العقد الفاخر حـ ٢ ص ١٤٦ ب .

فى مستهل ذى الحجة سنة ٦٤٧ هـ / مارس ١٢٥٠ م فتحفظ عليه [١] .

وباستيلاء المظفر على زبيد أصبح مسيطرا على تهامة بأسرها [٢] ، ولم يشأ فى هذه المرحلة الاصطدام بأى من القوى الأخرى المنافسة ، وفضل العمل على السيطرة على أكبر قدر ممكن من المناطق التى لم يصل إليها نفوذ منافسيه، حتى إذا ما تحقق له ذلك ، سهل عليه بسط سلطانه على بقية المناطق المحدودة الأخرى . وقد ساعده على ذلك وصول كثير من المكاتبات من مختلف المناطق بطلب الدخول سلميا فى طاعته ، ومن هذه المكاتبات رسالة من والى عدن يطلب اليه فيها سرعة الوصول لتسلم المدينة قبل أن يسبقه إليها أخوه المفضل [٣] . ولهذا توجه المظفر إلى عدن فاستقبله واليها وأهلها استقبالا حافلا ، ودخلها فى موكب عظيم فى صفر ٦٤٨ هـ / مايو سنة ١٢٥٠ م [٤] . وتابع المظفر تقدمه فاستولى فى نفس الشهر على المناطق والحصون المحيطة بمدن مثل لحج وأبين [٥] وحصون يمين ومنيف والسوا بالإضافة إلى حصون المعافر جميعها بغير قتال [٦] .

ب ـ صراع المظفر ضد أخيه المفضل قطب الدين :

كان السلطان نور الدين عمر قد قام فى أواخر عهده ـــ وبتأثير زوجته

---

(١) ابن حاتم : السمط ٥٢ ب .

(٢) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص٥٢ ب ، الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٩٤ ، المسجد ص ٢٥٠ .

(٣) ابن حاتم : السمط ص ٥٥ ب .

(٤) ابن حاتم : السمط ص ٥٦ « أ » .

(٥) ابن حاتم السمط ص ٥٦ « أ » ، ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٤ أ .

(٦) الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٩٤ ، المسجد ص ٢٥٠ .

بنت جوزة – بتحليف العسكر لابنها المفضل قطب الدين (١)، واقصاء المظفر عن ولاية العهد بتوليته على مدينة المهجم. وهكذا يصبح عرش السلطنة حقا للمفضل بعد أبيه، وخاصة وأن أباه لم يعهد بولاية العهد لغيره، فكان لذلك أسوأ الأثر فى نفس المظفر الذى كان يرى أن السلطنة حق طبيعى له بعد أبيه باعتباره أكبر أبنائه. ولهذا فكر فى التوجه إلى بغداد لعرض مظلمته على الخليفة العباسى كى يتدخل لانصافه، ولكنه عدل عن عزمه لوفاة أبيه المفاجئة (٢)، وفضل البقاء للنضال حتى لايتيح الفرصة بسفره لأخيه أو غيره من الطامعين للاستيلاء على السلطنة دونه.

أما المفضل، فكان موجودا فى تعز عندما بلغه نبأ مقتل أبيه، فبادر بالتحصن فى قلعة المدينة بأهله وأتباعه (٣). وكانت مجموعة من المماليك قد وافته بتعز عقب مقتل أبيه، والتمسوا منه أن يؤمنهم على أنفسهم وأن

---

(١) كان نور الدين قد تزوج بعد استقلاله بملك اليمن بأرملة المسعود يوسف آخر الأيوبيين فى اليمن والمعروفة ببنت جوزة ابنة سيف الدين سنقر الاتابك المعروف، فأنجبت له ولديها المفضل قطب الدين والفائز أحمد. وكانت تعمل على تقريبهما دون غيرهما، وتمكنت من التأثير عليه وأقنعته بتحليف العسكر لابنها المفضل حتى تضمن استمرار ملك اليمن فى نسلها. (ابن عبد المجيد: بهجة الزمن ص ٥٣ «أ»، الجندى: السلوك ص ٢٤٣، الخزرجى: العقد الفاخر حـ ٢ ص ١٤٦ ب، الأهدل: تحفة الزمن ص ١٥٣ «أ».

(٢) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن ص ٥٣ «أ»، الخزرجى: العقود اللؤلؤية حـ ١ ص ٨٨ – ٨٩، العسجد ص ٢٤٦، ابن الديبع: قرة العيون ص ٧١ ب.

(٣) ابن حاتم: السمط ص ٥٠ «أ».

يدخلوا في طاعته . والظاهر أن المفضل لم يطمئن إليهم ، ولهذا رفض مطلبهم ، فتوجهوا إلى زبيد وانضموا إلى فخر الدين الذى كان يحاصرها (١) . فلما استولى المظفر على زبيد واعتقل فخر الدين ، انزعج المفضل وأتباعه فترك حامية فى تعز لحمايتها (٢) ولجأ إلى حصن الدملوة لمناعته (٣) ، وأقام فيه يرقب الموقف إلى أن تواتيه الفرصة للسيطرة على البلاد . إلا أن المظفر كان يسلك معه ما يعرف اليوم (بالحرب النفسية) ، فكان يتعمد إبلاغه أولا بأول بكل ما يستولى عليه من مدن وحصون (٤) مستهدفا تحطيم معنوياته وتدمير آماله فى اعتلاء عرش السلطنة .

ولم يكد يتحقق للمظفر السيطرة على تلك المناطق ، وترجح كفته حتى تحول للقضاء على منافسة أخيه المفضل ، وتقدم إلى مخلاف المعافر شمالا ، وبدأ بالاستيلاء على مدينة جبا (٥) ، فكانت أول بلدة يخطب له فيها من جبال اليمن (٦) . ومن هناك واصل زحفه إلى تعز (٧) . وكان المفضل قد أعد حملة

---

(١) ابن حاتم : السمط ص ٥٥ «أ» .

(٢) ابن حاتم : السمط ص ٥١ «أ» .

(٣) الجندى : السلوك ص ٢٤٣ ، الأهدل : تحفة الزمن ص ١٥٣ «أ» .

(٤) ابن حاتم : السمط ص ٥٦ ب .

(٥) جبا ، مدينة من مخلاف المعافر - بين لحج والدملوة - وتقع على خط عرض ١٣ َ ١٣ ° شمالا ، وخط طول ٤٠ َ ٤٤ ° شرقا تقريبا
El-Khazrejiyy op. cit., p. 78, Note 261

(٦) الجندى : السلوك ص ١٩١ ، الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٩٤ ، العسجد ص ٢٥٠ .

(٧) ابن حاتم : السمط ص ٥٦ ب ، الجندى ، : السلوك ص ٣٠٢ ، الخزرجى : العقد الفاخر جـ٢ ص ٣١ «أ» ، الأهدل : تحفة الزمن ص ١٩٠ «أ» .

لاعتراض طريقه اليها ، ولكن المظفر تمكن من إغراء أتباع أخيه ، ونجح فى ضم مجموعة كبيرة منهم اليه ، وتفرق الباقون . وهكذا تمكن المظفر من الوصول إلى تعز وقام بمحاصرتها فى ربيع الأول ٦٤٨ هـ/[١] يونيه ١٢٥٠م. وانتهى الأمر بالاستيلاء عليها بخديعة فى جمادى الأولى (أغسطس) من نفس العام ، بعد أن أمن واليها علم الدين سنجر الشعبي ومن معه[٢] . واتخذ المظفر من تعز مقرا بدلا من زبيد [٣] ، ليتمكن منها من استكمال السيطرة على مايجاورها من المدن والحصون ، واستطاع فى شهر رجب سنة ٦٤٨ / أكتوبر ١٢٥٠ م الاستيلاء على حصنى حب [٤] وخدد بغير قتال [٥] .

وعلى الرغم من مناعة وقوة تحصينات حصن الدملوة الذى تحصن فيه المفضل بآله وأتباعه ، فقد حاصره المظفر فى سنة ٦٤٩ هـ / ١٢٥١ م . ولما كان من الصعب الاستيلاء عليه عنوة فقد بعث رسالة إلى أهل الحصن رغبهم

---

(١) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص٥٤ «أ» ، الخزرجى : العقود اللؤلؤية حـ ١ ص ٩٤ ، العسجد ص ٢٥٠ .

(٢) ابن حاتم : السمط ص ٥٧ «أ» ، ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٤ «أ» ، الخزرجى : العقود اللؤلؤية ص ٩٥ ، العسجد ص ٢٥١ .

(٣) ابن حاتم : السمط ص ٥٧ ب .

(٤) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٤ «أ» ، الخزرجى : العقود اللؤلؤية حـ ١ ص٩٥ ، العسجد ص٢٥١ ، ابن الديبع : قرة العيون ص٧٣ «أ» .

(٥) ابن حاتم : السمط ص ٥٧ ب .

فيها بالدخول في طاعته ، وتوعدهم إذا ما استمروا في ولائهم للمفضل [١]
وأثبت هذا الأسلوب القائم على الترغيب والترهيب فعاليته ، إذ استجاب له
البعض وبعثوا اليه برسائلهم يؤكدون فيها ولاءهم وطاعتهم له [٢] . واضطر
المفضل بسبب ماعاناه من شدة الحصار ، وميل الكثيرين ممن معه إلي المظفر ،
أن أخذ بمشورة والدته في فتح باب المفاوضة مع أخيه ، وتولت عنه والدته
مهمة المفاوضة مع المظفر . وضمانا لعدم المساس بها ، أرسل المظفر بعض
الرهائن للاحتفاظ بهم في الحصن لحين عودتها . وكان من الطبيعي أن يوافق
المظفر على الصلح [٣] ، ويستجيب لطلب زوج أبيه بجعل أبين إقطاعا
للمفضل ، وموزع [٤] وحيس إقطاعين لأخيه الفائز أحمد [٥] . ويمكننا اعتبار
هذا الاتفاق بمثابة هدنة بين الطرفين . وأيا ماكان الأمر ، فقد أقسم المظفر
على عدم التعرض لأخويه بسوء ، وكدليل على حسن نيته أرسل ابنه وابنته
ورفقتها الطواشي يافوت رهائن بحصن الدملوة [٦] ، وعندئذ نزل المفضل

---

(١) ابن حاتم : السمط ص ٦٠ ب .

(٢) ابن حاتم : السمط ص ٦١ «أ» .

(٣) الخزرجي : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ١٠٠ ، العسجد ص ٢٥٥ ،
ابن الديبع : قرة العيون ص ٧٢ ب .

(٤) موزع ، مدينة في تهامة على بعد ١٤ أو ١٥ ميلا من البحر إلى الشرق
من ميناء المخا ، وتقع على خط عرض ٢٠ ر ١٣° شمالا وخط طول ٣٢ ر ٤٣° شرقا
El-Khazrejiyy : op. cit. p. 174. Note 952.

(٥) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٤ «أ» .

(٦) الخزرجي : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ١٠١ ، العسجد ٢٥٦ .

والفائز من الحصن فاستقبلها المظفر وأكرمها وأقطعها ماتم الاتفاق عليه (١) ، وتوجه المفضل إلى أبين ولكنه لم يستطع البقاء فيها وقرر العودة إلى حصنه (٢) .

وكان المظفر يستهدف من إرسال الرهائن، أن يتمكنوا من تنفيذ ماخططه لهم بالاستيلاء على الحصن سلميا عن طريق استمالة المرتبين فيه (٣) . فلما تم لهم ذلك ، استغلوا فرصة نزول أم المفضل وولديها من الحصن (٤) ، وأوقدوا النار فى قمته ، وهى إشارة اتفق معهم على القيام بها عند نجاح مهمتهم فى السيطرة عليه (٥) . أما المفضل فإنه عندما أيقن بضياع الحصن ، توجه إلى المظفر وطلب منه السماح له بالعودة إليه (٦) ، ولكنه لم يستجب لرجائه ، واستولى عليه فى ذى القعدة سنة ٦٥٠ هـ / (٧) يناير سنة ١٢٥٣ م . وفرض

(١) ابن حاتم : السمط ص ٦١ «أ» .

(٢) ابن حاتم : السمط ٦١ ب .

(٣) الجندى : السلوك ص ٢٤٣ ، الأهدل : تحفة الزمن ص ١٥٣ «أ» .

(٤) ابن حاتم : السمط ص ٦١ ب .

(٥) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص٥٤ ب ، الخزرجى: العقود اللؤلؤية حـ ١ ص ١٠١ ، العسجد ص ٢٥٧ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٧٤ «أ» .

(٦) ابن حاتم : السمط ص ٦٢ «أ» ، الجندى : السلوك ص ٢٤٣ ، الأهدل : تحفة الزمن ص ١٥٣ «أ» .

(٧) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٤ «أ» ، الخزرجى : العقود اللؤلؤية حـ ١ ص ١٠٢ ، العسجد ص ٢٥٧ .

على المفضل وأخيه ووالدتها الاقامة فى ذى هـريم [١] ، ثم أسكنهم مدينة حيس [٢] .

٢ — موقف المظفر من الزيدية :—

أ - تدخل الزيدية فى الصراع القائم بين بنى رسول :—

أثبت المظفر مقدرة فائقة فى الاستيلاء على عرش السلطنة ، فعلى الرغم من تعدد التيارات المعارضة له ، فإنه أتقن التخطيط وأحسن التنفيذ وأحكمه ، ووفق فى التخلص من جبهتين من جبهات المعارضة الأربعة ، وبقيت أمامه جبهتان يمثل إحداها ابن عمه أسد الدين محمد بن الحسن بن على بن رسول ، ويمثل الأخرى القوى الزيدية بزعامة الامام أحمد بن الحسين .

أما أسد الدين محمد فكان دائم الخروج عن طاعة عمه السلطان نور الدين [٣] ، وقد اتهم بتدبير قتله بالاشتراك مع أخيه فخر الدين طمعا فى الاستيلاء على البلاد [٤] ، كما استقل بولاية صنعاء ، بينما استهدف أخوه فخر الدين الاستيلاء على زبيد واتخاذها قاعدة لاستكمال السيطرة على بقية البلاد . إلا أن إخفاقه فى ذلك وما أعقبه من اعتقاله أضعف مركز أسد الدين فى صنعاء ، لاسيما بعد أن تمكن المظفر من إحكام سيطرته على كثير من المناطق . وهكذا أصبح

(١) ذو هريم ، أحد أحياء تعز (ابن حاتم : السمط ص ٦٢ «١» .)

(٢) الجندى : السلوك ص ٢٤٣ ، الاهدل : تحفة الزمن ص ١٥٣ «أ» .

(٣) انظر ماسبق ص ١٠٩ وما بعدها .

(٤) الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ١ ص ٨٢ ، العسجد ص ٢٤١ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٧٠ «أ» .

أسد الدين فى موقف لايحسد عليه، إذ كان المظفر يتهدده من الجنوب والقوى الزيدية من الشمال .

ومن الجدير بالملاحظة أن القوى الزيدية كانت قد أبدت تأييدها للدولة الرسولية بادىء ذى بدء ، وكان لتعاونهم مع مؤسسها أعظم الأثر فى إقدامه على الاستقلال بملك اليمن وسلخها عن الدولة الأيوبية . وظلوا على ولائهم لنور الدين متمسكين بعهدهم له . ولم تلبث الأوضاع أن تغيرت فى أواخر عهده ، بعد أن أجمع الزيدية على امامة أحمد بن الحسين وانضمت إليه القبائل وقوى أمره وأضحى يشكل خطرا على دولة بنى رسول . وقد اغتنم الامام فرصة الخلاف القائم بين السلطان نور الدين وابن أخيه أسد الدين واليه على صنعاء ، فشن عددا من الهجمات وهدد صنعاء نفسها عدة مرات، واستولى على عدد من المواقع التابعة لنور الدين شمالها ، وأخفقت محاولات نور الدين فى القضاء عليه أو التخلص من اخطاره [1] .

وعلى الرغم من الأخطار الكبيرة التى كانت تتهدد دولة بنى رسول فى عهد المظفر يوسف من جانب الزيدية فى الشمال ، إلا أنه لم يكن فى استطاعته تجاهل خطر ابن عمه أسد الدين ، ولهذا رأى المظفر ان يواجه الخطرين معا ، سيما وأن الامام الزيدى كان يهدد أسد الدين فى نفس الوقت . وكان الامام احمد بن الحسين قد ازداد أمله فى الاستيلاء على اليمن بعد مقتل نور الدين ، وأعد للأمر عدته ، فلما تجمع لديه الكثير من القبائل زحف بهم إلى صنعاء ، وأرغم

---

(١) الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ١ ص ٧٥ وما بعدها ؛ المسجد ص ٢٣٧ وما بعدها ؛ ابن الديبع : قرة العيون ص ٦٩ ، وما بعدها .

واليها أسد الدين على مغادرتها في جمادى الأول ٦٤٨هـ/ [١] أغسطس ١٢٥٠م، والالتجاء إلى حصن براش القريب منها للاحتماء به[٢] ، فاستولى الامام عليها بغير حرب [٣]. وتابع حملاته جنوبا واستولى على مدينة ذمار وما جاورها[٤]، ثم عاد لمحاصرة أسد الدين في حصن براش ، واستمر محاصرا له مايقرب من عام [٥].

وقـــد هيأ الصراع بين أسد الدين والإمام المظفر المجال لتوسيع رقعة نفوذه، كما أتاح له الفرصة لاقرار الأمور في المناطق الخاضعة له. ومن الواضح أنـه على الرغم من ضخامة حشود الامام العسكرية ، إلا أنه لم يغامر بالتقدم جنوب ذمار حتى لايترك لأسد الدين الفرصة لاستعادة صنعاء أو قطع طريق العودة عليه إليها .

وكنتيجة لاستمرار الحصار على أسد الدين في حصن براش ، فقـد استقر رأيه على الدخول في مفاوضات للصلح مع الامام ، ليتخلص من هذا الحصار ويتفرغ لمواجهة السلطان المظفر، ولهذا قام بمراسلة شمس الدين احمد ابن الامام عبدالله بن حمزة ليقوم بدور الوسيط في الصلح بينه وبين الامام[٦]،

(١) الخزرجي : العقود اللؤلؤية جـ١ ص ٩٥ ، العسجد ص ٢٥١ .

(٢) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٤ «أ» .

(٣) ابن حاتم : السمط ص ٤٩ب، الخزرجي: العقود اللؤلؤية جـ١ ص ٩٥.

(٤) الخزرجي : العسجد ص ٢٥١ .

(٥) ابن حاتم : السمط ص ٥٧ ب ، الخزرجي : العقود اللؤلؤية جـ١ ص ٩٦ ، العسجد ص ٢٥١ .

(٦) الخزرجي : العسجد ص ٢٥٢ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٧٣ «أ»

ولكن شمس الدين كان يحقد على الامام أحمد بن الحسين ، لأنه كان يطمع فى أن تؤول الامامة إليه أو إلى أحد إخوته ، ولكنه اضطر وآله من بنى حمزة إلى إعلان الولاء للامام لاجماع الزيدية على مبايعته ، وإن كان يعمل – فى حقيقة الأمر – على إضعافه والتخلص منه . وقد وجد شمس الدين أن التوصل إلى الصلح بين أسد الدين والامام من شأنه أن يقوى الامام ضد المظفر ، ولذلك قام الشريف الزيدى شمس الدين باقناع أسد الدين بالعودة الى طاعة ابن عمه السلطان المظفر [١] ، وذلك بعد أن يتخلص من الحصار بخديعة الامام بصلح وقتى . ونجحت خطة الشريف وتم عقد الصلح . ومبالغة فى كسب ثقة الامام ودرءا لما قد يتسرب إلى نفسه من عوامل الريبة والشك ، طلب أسد الدين من الامام – تنفيذا لمشورة الشريف شمس الدين – أن يزوده بجيش لمحاربة المظفر [٢] ، وإحكاما للخطة أغار فى طريقه على بعض الحصون الموالية للسلطان [٣] .

ولم يكد المظفر يعلم بأمر حملة أسد الدين حتى خرج إليه فى جموع لمقاتلة ، ولكن بنى حمزة وبنى حاتم بادروا بالوساطة بينهما ، ونجحت مساعيهم فى التوفيق بينهما واقناع السلطان المظفر بالعفو عنه [٤] بهدف التضامن ضد الامام . فلما

---

(١) ابن حاتم : السمط ص ٥٧ ب ، الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ١ ص ٩٦ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٧٣ «أ» .

(٢) ابن حاتم : السمط ص ٥٧ ب ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٧٣ «أ» .

(٣) الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ١ ص ٩٦ ، العسجد ص ٢٥٢ .

(٤) الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ١ ص ٩٦ ، العسجد ص ٢٥٢ .

تم الصلح استقبل السلطان ابن عمه استقبالاحسنا واحتفى به وأكرمه ، وخرج له من الإنعام العظيم ما هاله واستغرق أمله ، وكثر تعجبه منه حتى قال : ليت شعري ، هل أبقى مولانا السلطان فى خزائنه شيئا ؟ » (١).

وكان المظفر سياسيا بارعا ، فعلى الرغم من تشككه فى نوايا أسد الدين ، فإنه حرص على استخدامه لمصلحته ، وشغله فى دوامة الصراع ضد الامام ، ليتفرغ لأحكام سيطرته على البلاد من جهة ، ويقصيه عن دائرة التنازع معه من جهة ثانية . ولهذا جهزه فى حملة لاسترداد صنعاء ، وفشلت قوات الامام فى اعتراض تقدمه إليها واضطر الامام إلى الإنسحاب منها فدخلها أسد الدين واستعاد سيطرته عليها (٢). وتعضيداً له توجه المظفر فى اثره إلى صنعاء فوصلها فى ذى الحجة سنة ٦٤٨هـ/(٣) فبراير - مارس سنة ١٢٥١م ، ثم غادرها فى المحرم سنة ٦٤٩هـ/ مارس ١٢٥١م فى طريق عودته إلى تعز ، حيث تمكن أثناءها من الاستيلاء على حصن التعكر (٤). فى حين واصل أسد الدين حملاته ضد الامام .

وكان فى الامكان أن يستمر ولاء أسد الدين للمظفر لولا ما استجد من أحداث أدت الى عودته إلى العصيان ولما يمض شهر واحد منذ دخل فى طاعته .

---

(١) ابن حاتم : السمط ص ٥٨ «أ» .

(٢) ابن حاتم : السمط ص ٥٨ «أ» ، الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٩٧ ، العسجد ص ٢٥٣ .

(٣) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٤ «أ» .

(٤) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٤ «أ» ، الخزرجى العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٩٧ ، العسجد ص ٢٥٣ .

وتفصيل القضية أن إخوة نور الدين الثلاثة الذين كان المقيد يوسف ـ آخر الأيوبيين في اليمن ـ قد اعتقلهم وأرسلهم إلى مصر ، بقى منهم اثنان على قيد الحياة وهما بدر الدين الحسن بن علي بن رسول ـ والد أسد الدين ـ وأخوه فخر الدين أبو بكر ، ويبدو أنه قد تم الافراج عنهما ، أو أنهما تمكنا من الافلات من معتقلهما بعد سقوط الدولة الأيوبية في مصر ، وتوجها صحبة ركب الحاج المصري إلى مكة ، ومنها رحلا إلى اليمن فوصلاها فى آخر المحرم سنة ٦٤٩هـ/(١) ابريل ١٢٥١م.

واتفق وصولهما فى فترة حرجة بالنسبة للمظفر الذى كان لا يزال يعمل على تثبيت أركان دولته ، وكان مجرد وجودهما فى هذه الفترة الحاسمة يعنى فتح باب جديد للصراعات التى كان المظفر فى غنى عنها . فلم يكن من السهل أن يسلما بزعامته ، إذ يحدوهما الأمل فى أن تؤول السلطنة إلى أحدهما ، وهكذا كان المظفر على يقين من أنهما لن يمكناه من تصريف الأمور منفرداء إن لم ينازعه كل منهما السلطنة ، فقد كان لكل منهما دوره الهام فى تاريخ اليمن قبل أن تنمو بعد شخصية أخيهما الأصغر نور الدين ـ والد المظفر ـ الذى قد يعزى إليه التحريض على اعتقالهما ، حتى لا ينازعاه السلطة . كل ذلك كان يشكل تهديداً خطيرا لعرش المظفر الذى صرف قسما كبيرا من طاقته فى سبيل اقراره .

ويذكر العينى ، أن أبناء رسول أطلقوا من معتقلهم فى مصر ، وأرسلوا

---

(١) بن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥ أ ، الخزرجى : العقود جـ ١ ص ٩٧ ، العسجد ص ٢٥٣ .

إلى اليمن لعزل سلطانها الرسولى ، والقيام بحكم البلاد نوابا لسلطان مصر[١]. وليس هناك ما يؤيد ذلك لأن وصول عمي المظفر كان من غير قوات لمساندتهما فى القيام بهذا العمل . كما أن وصولهما اقترن بفترة حاسمة فى تاريخ مصر تقع ما بين سقوط الدولة الأيوبية وقيام دولة المماليك ، وليس من شك فى أن اليمن لم تكن واردة فى حساب المماليك الذين شغلتهم الأخطار الخارجية وقتئذ عن مجرد التفكير فى شئون اليمن . ثم أن العينى صاحب هذه الرواية قد انفرد بذكرها ، ولم يشر إلى المصدر الذى استقاها منه ، مما يجعل روايته موضع شك .

وأيا ما كان الأمر ، فقد كتم المظفر ما بنفسه من مشاعر الضيق والحنق على عميه ، وأمر نوابه بحسن تلقيهما عند مشارف اليمن [٢] ، والسير فى خدمتهما . أما هو فتوجه إلى مدينة حيس لاستقبالهما [٣]. وما أن وصل ركبهما، حتى عجل بالقبض عليهما وأرسلهما معتقلين إلى تعز [٤] حيث كان فخر الدين أبو بكر بن الحسن بن على بن رسول حبيسا هناك [٥].

أثار هذا الإجراء الوقائى ثائرة أسد الدين على المظفر ، ولهذا عـزم على

---

(١) عقد الجمان مجلد ٥٣ لوحة ٣٢٩ .

(٢) الخزرجى : العقـود جـ ١ ص ٩٧ ، العسجد ص ٢٥٣ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٧٣ ب .

(٣) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٤ أ ، زبارة : أئمة اليمن ص ١٦٢ .

(٤) ابن حاتم : السمط ص ٥٩ ب ، الخزرجى : العقود جـ ١ ص ٩٨ .

(٥) الخزرجى : العسجد ص ٢٥٤ .

تجهيز حملة لتخليص أبيه وعمه فخر الدين ، ولكن المظفر كان قد اتخذ من وسائل الحيطة ما أرغم أسد الدين على العودة إلى صنعاء [١]. وعندئذ لم يبق أمامه بعد خروجه عن طاعة المظفر سوى العمل على مصالحة الإمام أحمد بن الحسين ، ونجح في التوصل إلى ذلك في سنة ٦٥٠هـ [٢] / ١٢٥٢م ، وكان من شروط هذا الصلح استيلاء الإمام على حصن براش مقابل مائة ألف دينار [٣]، وعلى هذا النحو نشطت قوات الامام وأسد الدين في الإغارة على المدن والمعاقل التابعة للمظفر [٤]، ولكن هذا النشاط لم يجد نفعا أمام استبسال قوات المظفر في القتال وصمودها الرائع [٥].

ورأى المظفر أن يهادن الامام الزيدى مؤقتا حتى يتهيأ له المجال للتخلص من أسد الدين ، واستجاب الإمام للصلح على أن تكون له البلاد العليا [٦]

---

(١) ابن حاتم : السمط ص ٥٩ ب .

(٢) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٤ «أ» ، الخزرجى : العقود جـ ١ ص ١٠٠ ، العسجد ص ٢٠٦ .

(٣) ابن حاتم : السمط ص ٦٢ « أ » . (وذكر ابن عبد المجيد ومن نقل عنه أنه اشتراه بمائتى ألف درهم) بهجة الزمن ص ٥٤ « أ » ، الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ١٠٠ ، العسجد ص ٢٥٦ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٧٤ « أ » .

(٤) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٤ « أ » .

(٥) ابن حاتم : السمط ص ٦٢ ب .

(٦) ابن حاتم : السمط ص ٥٩ ب . Kay : Yaman, p. 230.

ـ إلى الشمال من صنعاء ـ فكان لذلك أثره في التضييق على أسد الدين . وفي نفس الوقت كانت العلاقات قد تدهورت بين أسد الدين والإمام ، لعدم وفاء الإمام بمعظم القيمه التى اشترى بها حصن براش [١] . وهكذا لم يعد أسد الدين يأمن على نفسه من المظفر ومن الإمام معا ، ولذلك انسحب إلى منطقة شرق اليمن [٢] ، وبدأ أتباعه يتخلون عنه نتيجة اجتذاب المظفر لهـــم واغرائهم بالأموال . فلما تفرقت جموعه وألفى نفسه وحيدا لاقوة له ، لجأ إلى علوان الجحدرى . ولما كان علوان هذا يرتبط مع المظفر بروابط ودية ، فقد سعى إلى التوسط بين أسد الدين والمظفر ؛ ونجح في مسعاه وعفا المظفر عنه وأمنه [٣] . ثم جهزه مرة أخرى إلى صنعاء ـ وكان الإمام قد انتزعها منـه ـ فدخلها أسد الدين بدون مقاومة . وفى نفس الوقت خرج المظفر إلى صنعاء فى شهر رجب سنة ٦٥١ هـ / [٤] سبتمبر ١٢٥٣ م . ومن هناك شن عدة حملات ضد الإمـام وأتباعه ، ثم عاد بعدها إلى تعز [٥] حيث استولى فى طريقه على حصـــن

---

(١) ابن حاتم : السمط ص ٦٢ ب ، الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ١٠٤ ، العسجد ص ٢٥٧ .

(٢) ابن حاتم : السمط ص ٦٥ ب ، الخزرجى : العسجد ص ٢٥٨ ، العقد الفاخر حـ ٢ ص ٣١ أ ، زبارة : أئمة اليمن جـ ١ ص ١٦٣ .

(٣) ابن حاتم : السمط ص ٦٠ أ ، الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ١٠٤ ، العسجد ص ٢٥٨ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٧٤ ب .

(٤) الخزرجى : العقود اللؤلؤية حـ ١ ص ١٠٦ ، العسجد ص ٢٥٩ .

(٥) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٤ ب .

ذروان [١] من حصون منطقة ذمار [٢]

ب ـ مصرع الامام الزيدى واثره فى تطور الاحداث :

لم يلبث الخـلاف أن دب بين الإمام الزيدى أحمد بن الحسين والأشراف من بنى حمزة ، واشتد النزاع بينهما إلى حد أن بنى حمزة لجأوا إلى السلطان المظفر واستنصروه على الإمام . وعلى هذا النحو رجحت كفة المظفر بانضمام أشراف بنى حمزة إليه واستنصارهم به . ولم يتردد المظفر فى اغتنام هذه الفرصة لمد يد المعاونة لهم والعمل على سحق قوى الإمام ، فأمدهم بأسـد الدين من صنعاء [٣] فى شهر ذى الحجـة سنة ٦٥١ هـ [٤]/ يناير سنة ١٢٥٤ م ، وزحفوا جميعا إلى صعدة لمحاربة الإمام ، وأحكموا الحصار عليها حتى سقطت فى أيديهم بعد شهر [٥] . ورتب أسد الدين فيها حامية وعاد إلى صنعاء [٦] فى

---

(١) ابن حاتم : السمط ص ٦٣ « أ » ، الخزرجى : العقود اللؤلؤية حـ ١ ص ١٠٦ ، ١٠٣ ، المسجد ص ٢٥٩ ، زبارة : أئمة اليمن جـ ١ ص ١٦٣

(٢) الخزرجى : العقد الفاخر حـ ٢ ص ٩ « أ » .

(٣) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن ص ٥٤ ب ، زبارة أئمة اليمن حـ١ ص١٦٤
Kay : op. cit. p. 231.

(٤) ابن حاتم : السمط ص ٦٣ « أ » ، الخزرجى : العقود اللؤلؤية حـ١ ص ١٠٦ ، المسجد ص ٢٦٠ .

(٥) ابن حاتم : السمط ص ٦٣ ب ، الخزرجى : العقود اللؤلؤية حـ ١ ص ١١١ .

(٦) الخزرجى : العقود اللؤلؤية حـ ١ ص ١١٢ ، المسجد ص ٢٦٠ .

الثانى عشر من ربيع الأول سنة ٦٥٢ هـ[١] / ٢ مايو سنة ١٢٥٤م . وهكذا، تمكن المظفر بمساعدة القوى المناهضة للامام من بسط نفوذه على قسم كبير من المناطق الشمالية التى كانت تابعة له ، وشجعه ذلك على متابعة الحملات لتقويض أركان الإمامة .

وفى نطاق هذا الهدف أرسل المظفر إلى أسد الدين خزانة مالية فى شعبان سنة ٦٥٢ هـ / سبتمبر ١٢٥٤ م للانفاق منها على حملة ثانية كان قد أمره بالقيام بها بالاشتراك مع بنى حمزة ضد الإمام ، وتخريب عدد من المواقع الموالية له[٢] وعلى الرغم من استعداد الإمام للتصدى لهذه الحملة إلا أن قواته لم تستطع الصمود ، ومنيت بهزيمة نكراء فى رمضان سنة ٦٥٢ هـ / اكتوبر سنة ١٢٥٤ م [٣] . وقتل عدد كبير من أتباعه على رأسهم الفقيه الزيدى الشهير حميد بن أحمد [٤] . أما الإمام فقد نجا بصعوبة بالغـــة ولجأ إلى أحد

---

(١) الخزرجى: العقود اللؤلؤية حـ١ ص ١١٤، العسجد ص ٢٦٢-٢٦٣.

(٢) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٥ « أ » .

(٣) الجندى : السلوك ص ٣٦٣ ، الأهدل : تحفة الزمن ص ٢٣٠ ب .

(٤) كان حميد بن أحمد المحلى من كبـار علماء الزيدية وفضلائها ، وله تصانيفه الجامعة والرسائل المفردة إلى الملوك والعلماء ما ليس لغيره (بهجة الزمن ص٥٥ « أ » ، العقود اللؤلؤية حـ١ ص ١١٥ ، العسجد ص ٢٦٣، قرة العيون ص ٧٥ ب ، أئمة اليمن حـ ١ ص ١٦٦) ومن كتبه الشهيرة كتاب « الحدائق الوردية فى مناقب الأئمة الزيدية » فى جزئين ، ضمنه أخبار ومناقب الإمام على ابن أبى طالب وذريته وتراجم أئمة الزيدية منذ قيام إمامتهم إلى الإمام عبد الله ابن حمزة المتوفى سنة ٦١٤ هـ / ١٢١٧م . وقد لقب حميد « بالشهيد» بعد مقتله فى تلك الموقعة .

الحصون (١) .

تقدم بنو حمزة ـ بعد مؤازرتهم لأسد الدين ـ إلى زبيد، فاستقبلهم المظفر وأكرم وفادتهم (٢) وأنعم عليهم بالهدايا والكسوات والخلع والخيول ، وبلغ مقدار ما أنفقه فيهم مائتى ألف دينار (٣) ، فكان ذلك دافعاً على الاستمرار فى موالاته ، ومشجعاً لهم على التعاون معه ضد الإمام (٤) . كما كان لسياسة المظفر القائمة على الترغيب والترهيب أثرها فى اجتذاب مزيد من العناصر الزيدية وحملها على الخروج عن طاعة الإمام ، فقد اجتمع كثير من علماء الزيدية وطعنوا فى أحقيته فى الإمامة ، وعابوا عليه وأنكروا كثيرا من تصرفاته (٥) ، وأفتوا ببطلان إمامته (٦) .

---

(١) ابن حاتم : السمط ٦٤ «أ» ، الخزرجى : العسجد ص ٢٦٣ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٧٥ ب .

(٢) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٥ «أ» ، الخزرجى : العقود اللؤلؤية حـ ١ ، ص ١١٥ ـ ١١٦ ، زبارة : أئمة اليمن حـ ١ ص ١٦٧ .

(٣) ابن حاتم : السمط ص ٦٥ ب .

(٤) ابن حاتم : السمط ص ٦٤ ب ، الخزرجى : العقود اللؤلؤية حـ ١ ص ١١٨ ، العسجد ص ٢٦٦ .

(٥) الجندى : السلوك ص ٣٦٤ ، الأهدل : تحفة الزمن ص ٢٣١ «أ» ، Kay : Yaman, p. 321 .

(٦) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٥ «أ» ، الخزرجى : العقود اللؤلؤية حـ ١ ص ١٢٢ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٧٩ أ ، أئمة اليمن حـ ١ ص ١٧٢ .

قام الإمام بمحاولة لحسم النزاع القائم بينه وبين علمـــاء الزيدية ، وأرسل إليهم أحد كبار أتباعه ـ هو الشريف الزيدى الحسن بن وهاس ـ للاستماع لهم ومحاججتهم والعمل على إقناعهم بالعودة إلى طاعة الإمام ، إلا أنهم تمكنوا من استمالته إليهم [1] . وأرسلوا يتحدون الإمام ليناظرهم ويدافع عن نفسه ولكنه رفض ، فأفتوا بخلعه لعـــدم صلاحيته للامامة لأمور تحققوها عنه ، وكتبوا بذلك إلى جموع الزيدية فى كافة أنحاء اليمن [2] . وبايعوا الحسن بن وهاس إماما للزيدية من بعده فى رمضان سنة ٦٥٥ هـ / [3] سبتمبر ١٢٥٧م فكان لهذه التطورات أعظم الأثر فى الإطاحة بمركز الإمام وزعزعة ثقة من تبقى من أتبـاعه . وهكذا أصبح فى اليمن إمامين فى وقت واحد [4] ـ وهو ما يعرف بتعارض الأئمة ـ واقتضى الأمر انفراد أحدهما بالإمامة سلما أو حـــربا .

انتهز بنو حـمـزة فرصة الانشقاق الثانى فى صفوف الزيدية ، وعملوا على

---

(١) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٥ ب ، الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ١٢٣ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٧٦ «أ» ، زبارة أئمة اليمن جـ ١ ص ١٧٢ .

(٢) ابن حاتم : السمط ص ٦٦ ب (وقيل أن امامته كانت فى صفر ٦٥٦ هـ/ فبراير سنة ١٢٥٨ م بعد مقتل الإمام أحمد بن الحسين بثلاثة أيام) زبارة : أئمة اليمن جـ ١ ص ١٧٦ .

(٣) ابن حاتم : السمط ص ٦٦ ب .

(٤) ابن حاتم السمط ص ٦٦ ب .

تنسيق الجهود معهم لمحاربة الإمام (١). وأمدهم السلطان المظفر بمـــائة ألف درهم (٢) ، وتم اللقاء بينهم وبين الإمام في وادى شوابة (٣) فتمكنت جموعهم من هزيمة الإمام والاحاطة به وقتله (٤) في صفر ٦٥٦ هـ / (٥) فبراير ١٢٥٨م، والتمثيل به والطواف برأسه (٦) . فلما وصل خبر مصرعه إلى المظفر سعد به كثيرا (٧) ، إذ تخلص من منافس خطير كان بإمكانه الإطاحة بدولته .

---

(١) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص٥٥ ب ، زبارة : أئمة اليمن ص ١٧٢ .

(٢) ابن عبـد المجيد : نفس المصـدر والصفحة ، الخزرجى : نفس المصدر والصفحة .

(٣) شوابة ، من بلاد الجوف شرق اليمن (الجرافى : المقتطف ص ١٢٢). وقد وردت في العقود اللؤلؤية باسم « سواد » (جـ١ ص ١٢٤) أما الترجمة الانجليزية للعقود، فقد أوردها Sir James Redhouse باسم «سوانه» (انظر، The pearl – Strings, vol. III, 1, p 149, vol. III, 3, p. 91, (Note , 550) وصححتها « شـوابة » (الخزرجى : العسجد ص ٢٦٧ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٧٦ ب ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٤٤٤ ، Kay : Yaman, p. 321 .

(٤) الجندى : السلوك ص ٢٦٤ ، الأهدل : تحفـــة الزمن ص ٢٣١ ب ، الجرافى : المقتطف ص ١٢٢ .

(٥) ابن حاتم : السمط ص٦٦ ب ، ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن ص٥٥ ب ، الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ١٢٥ ، العسجد ص ٢٦٨ .

(٦) ابن حاتم : السمط ص ٦٧ «أ» ، زبارة : أئمة اليمن جـ ١ ص ١٧٣ ، Kay : op – cit. p. 231 .

(٧) ابن حاتم : السمط ص ٦٧ ب ، ٦٨ «أ» ، الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ١٢٥ ، العسجد ص ٢٦٩ .

أدرك أسد الدين محمد أن تخلص المظفر من الإمام أحمد بن الحسين ، ومصالحته للقوى الزيدية من شأنه أن يضعه فى مأزق حرج وخطير ، فإنه كثيرا ما كان يستنصر بالزيدية فى الأوقات التى تسوء فيها علاقاته مع السلطان ثم أن المظفر كان قد خصص له قدرا سنويا من المال يصل إلى ستين ألف دينار للانفاق منها على حملاته ضد الزيدية . فلما تخلص المظفر من الإمام واصطنع الزيدية ، أقدم على تخفيض المخصصات المذكورة إلى عشرين ألف دينار ، فكان ذلك من عوامل سخطه على المظفر ، ولهذا لم يتردد فى شق عصا الطاعة من جديد . وبدأ فى تثبيت سلطانه على منطقة صنعاء وأعمالها وتولية المخلصين له من أتباعه على المناطق الخاضعة لسيطرته ، كما بادر بالإغارة على الحصون المجاورة له والتابعة للسلطان [١] .

أما المظفر فقد عمد إلى سياسة المناصحة ، وأرسل إلى أسد الدين يعاتبه على هذا المسلك ويرغبه فى مواصلة بذل الطاعة له . فلما أخفقت هذه الجهود خرج المظفر على رأس حملة كبيرة سنة ٦٥٧ هـ / ١٢٥٩ م مستهدفا القضاء على حركة أسد الدين [٢] . ومما يذكر أنه قام قبل الشروع فى تنفيذ خطته بالكتابة إلى زعماء الزيدية لتأكيد الصلح معهم وضمان عدم تدخلهم فى الصراع المقبل بينه وبين أسد الدين ، مما فوت على الأخير فرصة الاستعانة بهم ، ونجحت حملة المظفر على نحو تجاوز كل تقدير فى الحسبان ، ودخلت قواته صنعاء فى

---

(١) ابن حاتم : السمط ص ٦٨ ب :

(٢) ابن حاتم : نفس المصدر ص ٦٩ «أ» .

أول المحرم سنة ٦٥٨ هـ [١] / ١٨ ديسمبر سنة ١٢٥٩ م .

والظاهر أن المظفر قد تمكن من تسوية الأمور بينه وبين أسد الدين في أعقاب ذلك ، فقد ذكر المؤرخ المعاصر بدر الدين محمد بن حاتم أن أسد الدين لم يلبث أن طلب من المظفر تجهيزة في حملة للاستيلاء على حضرموت [٢] . ومن المعتقد أن أسد الدين إنما لجأ إلى ذلك خديعة للسلطان حتى يتهيأ له المجال للاعداد لجولة أخرى ضده ، ويستدل على ذلك من أنه عندما استجاب السلطان لطلبه بادر بالزحف إلى منطقة الجوف - إلى الشمال الشرقي من اليمن - بحجة دخول حضرموت من شمالها . ولكنه ما كاد يصل إلى الجوف حتى بدأ في تحريك بعض القبائل وتحريضها على الانضمام إليه ونبذ الطاعة للمظفر ، ولكن هذه القبائل لم تستجب له وتآمرت على قتله [٣] ؛ فلم يجد مفراً سوى الانضمام إلى بني حمزة الزيدية مستغلا في ذلك خلافهم أنذاك مع الحسن بن وهاس الإمام الجديد الذى كان قد أعد العدة لمحاربتهم ، وأسفرت الموقعة عن هزيمة الإمام ووقوعه أسيراً في يد أسد الدين [٤] .

---

(١) ابن حاتم: نفس المصدر والصفحة ، الخزرجي : العقـــود اللؤلؤية جـ ١ ص ١٣٠ .

(٢) ابن حاتم : نفس المصدر والصفحة .

(٣) ابن حاتم : السمط ص ٦٩ ب .

(٤) ظل الامام الحسن بن وهاس عند بني حمزة أسيراً مدة عشر سنوات (ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٦ « أ » ، الخزرجي : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ١٣٠ ، العسجد ص ٢٧٢ ، الجرافي : المقتطف ص ١٢٢) وخلع نفسه من الإمامه سنة ٦٦٨ هـ (زبارة : أئمة اليمن جـ ١ ص ١١٦).

أما السلطان المظفر فقد اعتبر قبول بنى حمزة لأسد الدين تحديا له ونقضه للصلح معه ، ولهذا قرر قتالهم ، فخرج على رأس حملة لمحاربتهم ، ولكن الشريف داود بن عبد الله ـ كبير آل حمزة ـ أسرع لقاء السلطان والاعتذار له ، وتعهد بعدم السماح لأسد الدين بالمقام بينهم ، فقبل السلطان اعتذاره وتعهده [١] ، وتوجه إلى صنعاء لإقرار الأمور فيها ، فوصلها في ربيع الأول سنة ٦٥٨ هـ / فبراير سنة ١٢٦٠ م ، وولى عليها شمس الدين على بن يحيى [٢] ورتب معه حامية [٣] ، وقفل عائداً إلي تعز [٤] .

وعلي الرغم من تحرج موقف أسد الدين ـ بعد تخلى بنى حمزة عنه ، وأصبح مطارداً من السلطان لتكرار خروجه عن طاعته ، ومن بنى وهاس لاقدامه على أسر الإمام الحسن بن وهاس ـ إلا أنه استغل فرصة رحيل المظفر من صنعاء وقام بمهاجمتها محاولا الاستيلاء عليها[٥] ، ولكن حاميتها تصدت له وطاردته[٦] .
وفى نفس الوقت أعد السلطان حملة بقيادة الأمير علم الدين سنجر الشعبى

---

(١) ابن حاتم : السمط ص ٦٩ ب .

(٢) الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ١٣١ ، العسجد ص ٢٧٢ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٧٧ « أ » .

(٣) ابن حاتم : السمط ص ٦٩ ب .

(٤) إبن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٦ ب .

(٥) ابن عبد المجيد . بهجة الزمن ص ٥٦ ب ، الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ١٣١

(٦) ابن حاتم : السمط ص ٧٠ أ .

لمطاردته (١) ، فالتجأ أسد الدين الى بنى حاتم فى حصن ذمرمر ، ولكنهم لم يسمحوا له - رغم محاولاته المتكررة - بدخول الحصن ، تأكيدا لطاعتهم للسلطان (٢) ، فانفض أتباعه من حوله وتدهورت أحواله (٣) ، « حتى باع ثيابه » (٤) .

ولما ساءت حالة أسد الدين إلى هذا الحد ، طلب من بنى حاتم التوسط بينه وبين السلطان ، كما أنه لم يتردد من جانبه فى الكتابة للسلطان والتماس العفو والأمان (٥) ، فتظاهر السلطان المظفر فى بادىء الأمر بعدم الاستجابة (٦) ، فى الوقت الذى كان يتوق فيه للتخلص منه ، ولذلك لم يلبث أن وافق على عودته . فلما وصله بصحبة شمس الدين على بن يحيى وإلى صنعاء قبض عليهما فى شوال ٦٥٨ هـ (٧) / سبتمبر سنة ١٢٦٠ م ، وأمر باعتقالهما فى سجن تعز ،

---

(١) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٦ ب ، الخزرجى : العسجد ص ٢٧٢ ، زبارة : أئمة اليمن جـ ١ ص ١٧٩ .

(٢) ابن حاتم السمط ص ٧٠ « أ » .

(٣) الجندى : السلوك ص ١٧٧ ، الخزرجى : العقد الفاخر جـ ٢ ص ٥٧ « أ » .

(٤) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٦ ب ، زبارة : أئمة اليمن جـ ١ ص ١٧٩ .

(٥) الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ١٢١ العسجد ص ٢٧٢ .

(٦) ابن حاتم : السمط ص ٧٥ « أ » .

(٧) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٦ ب . (كان شمس الدين على

وبهذا أصبح أسد الدين سجيناً مع أخيه وأبيه وعمه (١) . وهكذا تخلص السلطان المظفر نهائيا من أعظم المشاكل التي واجهته ، وتتمثل في منافسة أفراد أسرته له ، وهي منافسة استمرت قرابة ثلاثة عشر عاما حمل أسد الدين لواءها منذ أواخر ٦٤٥هـ / ١٢٤٨م إلى أن تم القبض عليه وسجنه في سنة ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م .

ج ـ استمرار الخلافات بين الزيدية :

استقرت الأحوال الداخلية في اليمن بعد استشهاد الإمام أحمد بن الحسين سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م ، ووقوع خلفه الحسن بن وهاس سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م في قبضة بني حمزة ، ودخول الزيدية في طاعة المظفر بزعامة بني حمزة ، كما كان للقضاء على المنافسات الأسرية في بيت بني رسول أثره في تدعيم الاستقرار الداخلي في البلاد . وكان المظفر قد ولى الطواشي نظام الدين مختص على صنعاء (٢) خلفاً لواليها المعتقل شمس الدين علي بن يحيى ، ثم أسند ولايتها لعلم الدين سنجر الشعبي في رمضان سنة ٦٥٩هـ (٣) / أغسطس ١٢٦١م . واطمأن

= ابن يحيى ميالا لأسد الدين، وكان من أكبر مشجعيه على العصيان) الخزرجي: العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ١٣٢ ، العسجد ص ٢٧٢ ، ابن الديبع : قرة العيون ٧٧ « أ » (وكان المظفر يتظاهر بعدم معرفة شيء عن تصرفاته) الجندي: السلوك ص ١٧٧ ، الخزرجي : العقد الفاخر جـ ٢ ص ٥٧ ب .

(١) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٦ ب .

(٢) الخزرجي : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ١٣٢ ، العسجد ص ٢٧٥ .

(٣) الخزرجي : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ١٣٣ زبارة : أئمة اليمن جـ ١ ص ١٨٠ .

المظفر لذلك الهدوء الظاهري ، فعزم على أداء فريضة الحج[١] ، واستصحب معه بعض كبار بني حمزة[٢] .

إلا أن هذا الهدوء النسبي كان قصير الأمد ، ففي أثناء تواجد المظفر في الحجاز سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦١ م كانت دعـــوة الشريف الزيدي يحيى بن محمد السراجي – في ناحيه حضور[٣] – للامامة[٤] ، فبايعه أهلها ، وكتب بدعوته إلى سائر مناطق الزيدية ، فاستجاب البعض لدعوته وأنكرها الآخرون[٥] ، لارتباطهم ببيعة الإمام الأسير الحسن بن وهاس . فكان الاختلاف على إمامة يحيى السراجي أثره في تسهيل مهمة علم الدين سنجر الشعبي – والى صنعاء – لحشد قواته لمحاربته والعمل على القضاء على دعوته ، وقد تمكن من إحراز بعض الانتصارات عليه في عدة مواقع[٦] ، وأرغمه على

---

(١) ابن حاتم : السمط ص ٧٠ ب ، المقريزي : الذهب المسبوك ص٨٤.

(٢) الخزرجي : العقود اللؤلؤية حـ ١ ص ١٣٤ ، العسجد ص ٢٧٥ .

(٣) حضور ، ناحية من نواحي كوكبان ، إلى الشمال من صنعاء (أئمة اليمن ص ١٥٥) .

(٤) ابن حاتم : السمط ص ٧١ ب ، الخزرجي : العقود اللؤلؤية حـ ١ ص ١٣٦ ، العسجد ص ، ٢٧ ، العقد الفاخر حـ ٢ ص ١٤٣ ب . (أما الإمام فهو يحيى بن محمد بن أحمد بن عبد الله بن الحسن سراج الدين بن محمد بن عبد الله ابن الحسين بن علي بن محمد بن جعفر بن عبد الرحمن بن القاسم بن الحسن بن زيد ابن الحسن بن علي بن أبي طالب ، المعروف بالسراجي نسبة لجده سراج الدين) . زبارة : أئمة اليمن جـ ١ ص ١٨٠ .

(٥) ابن حاتم : السمط ص ٧١ ب .

(٦) الخزرجي : العقد الفاخر حـ ٢ ص ١٤٣ ب .

الفرار[١] ، ولكنه وقع في يد والى صنعاء فأمر بكحله وسجنه[٢] في أواخر سنة ٦٦٠ هـ[٣] / ١٢٦٢ م . ففقد بكحله شرطا هاما من شروط الإمامة . ومن الجدير بالذكر أن المظفر استاء كثيرا لقيام علم الدين بكحل الإمام ، وكان يفضل الاكتفاء بسجنه[٤] .

ولم يكن بنو حمزة مجمعين على بذل الطاعة والولاء للسلطان ، فبينما واصل الشريف عز الدين محمد بن الإمام عبد الله بن حمزة إعلان ولائه للمظفر ، كان أخوه صارم الدين داود يحمل لواء المعارضة له ، ويكتل الجهود ضده ، ويشجع الخارجين عليه ويقدم لهم العون ليتمكنوا من الصمود ، وقد بلغ به العداء للسلطان إلى حد أنه أقام الشريف الزيدي حسن بن محمد القطابري إماما ولكنه لم يوفق فيما ذهب إليه ، لمعارضة الزيدية لذلك[٥].

وفي نفس الوقت كان السلطان المظفر يسعى من جهته لاستقطاب المعادين لصارم الدين داود ، وجهز سنجر الشعبي واليه على صنعاء في عدة حملات ضده

---

(١) ابن حاتم : السمط ص ٧١ ب .

(٢) الجندى : السلوك ص ٣٦١ ، الأهدل : تحفة الزمن ص ٢٢٩ ، أ ، الخزرجى : العقد الفاخر حـ٢ ص ١٠٣ ب ، زبارة : أئمة اليمن حـ ١ ص ١٨١ .

(٣) ابن حاتم : السمط ص ٧١ ب ، ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٧٧ ، أ ، الخزرجى : العقود اللؤلؤية حـ ١ ص ١٣٧ ، العسجد ص ٢٧٦ ، الجرافى : المقتطف ص ١٢٣ .

(٤) ابن حاتم : السمط ص ٧١ ب .

(٥) الخزرجى : العقود اللؤلؤية حـ ١ ص ١٤٥ ، العسجد ص ٢٧٧ .

تقيا بين عامى ٦٦١ و ٦٦٤ هـ ، [١] وتمكن سنجر بفضل هذه الحملات من السيطرة على كثير من المناطق الخاضعة للزيدية فى شمال جبال اليمن وشرقها[٢]، ومع ذلك فقد واصل صارم الدين داود تشجيع القلاقل ضد السلطان ، مثيرا بذلك الفتن والاضطرابات ، وتمكن من إشعال نار الفتنة فى منطقتى حجة والخلافة ، واستطاع الثائرون - بفضل مساعدات الزيدية - الصمود فى وجه قوات السلطان التى لم تتمكن من استعادة السيطرة على حجة إلا بصعوبة كبيرة فى رمضان سنة ٦٦٥هـ/مايو - يونية سنة ١٢٦٧م أما الخلافة وحصونها، فقد قضى السلطان على حركة العصيان فيها فى ذى الحجة من نفس العام[٣].

وتابع المظفر حملاته ضد الزيدية بلا هوادة لتمكين سيطرته التامة على البلاد . وحتى لا يترك لهم مجالا ينظمون فيه صفوفهم ، فاستولت قواته سنة ٦٦٦ هـ على صعدة وأخربتها وأتلفت ماحولها من المزارع [٤] . وواصل شن هجماته فى العام التالى على بلاد وحصون الزيدية حتى أرهقهم ، فطلبت جموع الزيدية من الشريف الحمزى صارم الدين داود أن يفرج عن الإمام الحسن بن وهاس لتتوحد القوى الزيدية تحت لوائه ، فاستطاعت بذلك إحراز

(١) ابن حاتم : السمط ص ٧٢ ب .

(٢) ابن حاتم : السمط ص ٧٣ ب ، الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ١٤١ ، العسجد ص ٢٧٧ .

(٣) ابن حاتم : السمط ص ٧٤ «أ» ، الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ١٥٧ - ١٥٨ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٧٨ «أ» ؛

(٤) ابن حاتم : السمط ص ٧٦ «أ» ، الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ١٦٨ - ١٦٩ ، العسجد ص ٢٧٩-٢٨٠ ، زبارة : أئمة اليمن جـ ١ ص ١٨٨ .

انتصار حاسم على قوات المظفر وردهم على أعقابهم (١) ولكن الانقسام لم يلبث أن دب في صفوف الزيدية من جديد بسبب إصرار الامام على السير إلى صنعاء للاستيلاء عليها ، ومعارضة بنى حمزة له وعدم تصويبهم لرأيه في تلك الفترة . وقد أدى إصرار كل جانب على موقفه إلى تفرق الجموع (٢) . وانتهز السلطان فرصة هذا الانقسام وسير حملة بقيادة سنجر الشعبي والى صنعاء إلى صعدة فتمكن من استعادتها في صفر سنة ٦٦٨ (٣) / اكتوبر سنة ١٢٦١ م واضطر بنو حمزة إلى معاودة بذل الطاعة للسلطان وتم عقد الصلح معهم في شعبان من تلك السنة (٤) .

استغل بنو حمزة فرصة الصلح لتنظيم صفوفهم وتقوية أنفسهم (٥) ، خاصة وأن الامام الحسن بن وهاس كان قد خلع نفسه من الامامة سنة ٦٦٨ هـ (٦) / ١٢٦٩ م . وإذا كان عام ٦٦٩ هـ قد مر في هدوء ، فإن المظفر لم يلبث أن عاود توجيه حملاته سنة ٦٧٠ هـ إلى مناطق نفوذ الزيدية شمال جبال ...

---

(١) الخزرجي : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ١٧٠ – ١٧١ ، العسجد ص ٢٨٠ – ٢٨٢ .

(٢) ابن حاتم : السمط ص ٧٩ «أ» .

(٣) ابن حاتم : السمط ص ٧٩ ب ، ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٧ .

(٤) ابن حاتم : السمط ص ٨٠ «أ» ، الخزرجي : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ١٧٤ ، العسجد ص ٢٨١ .

(٥) ابن حاتم : السمط ص ٨٠ ب .

(٦) زبارة : أئمة اليمن جـ ١ ص ١٧٦ .

اليمن (١) ، في وقت حرج كان هؤلاء فيه بغير إمام يجتمعون حوله ، وللمناقشات ومحاولاتهم لاقناع الحسن بن وهاس بالعودة إلى الإمامة ، اتفق رأى بعضهم على إقامة الشريف الزيدى ابراهيم بن تاج الدين (٢) إماما لهم ، ولكنه لم يقبل إلا على أساس إجماع الزيدية على مبايعته ، فتم له ذلك في ذى الحجة سنة ٦٧٠هـ(٣)/ يوليه سنة ١٢٧٢ م . وعلى الرغم من تحفظ البعض وإرجائهم المبايعة إلى مابعد مناظرة العلماء له والتأكد من مدى صلاحيته للامامة ، إلا أنهم أكرهوا على مبايعته (٤) . وعندئذ نشطت حركة الزيدية بقيادة الإمام إبراهيم بن تاج الدين ولم يكتف بالصمود في وجه قوات المظفر بل طاردتهم جموعه وأجلتهم عن كثير من المواقع وهددت صنعاء نفسها ، مما اضطر السلطان المظفر للتوجه على رأس حملة كبيرة لاستعادة المناطق المحيطة بصنعاء (٥) ، وإعادة الأمن والهدوء للمنطقة . وقد نجح المظفر بالفعل فيما ذهب إليه ، فما كادت تصل طلائعه إلى

---

(١) الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ١٧٩ — ١٨٠ ، العسجد ص ٢٨١ .

(٢) هو ، ابراهيم بن تاج الدين احمد بن بدر الدين محمد بن احمد بن يحيى ابن الناصر بن الحسن بن عبد الله بن محمد بن القاسم بن احمد الناصر بن الامام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين (زبارة : أئمة اليمن جـ ١ ص ١٩٠) .

(٣) ابن حاتم : السمط ص ٨٢ «أ» ، ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٧٠ ب ، الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ١٨٠ ، العسجد ص ٢٨٢ .

(٤) ابن حاتم : السمط ص ٨١ ب — ٨٢ «أ» .

(٥) ابن حاتم : السمط ص ٨٣ (أ — ب) .

هذه المواقع حتى انسحبت القوات الزيدية شمالا . فلما وصل المظفر إلى ذمار جنوبي صنعاء في شهر شعبان سنه ٦٧١ هـ (١) / فبراير ١٢٧٣ م ، قام بتجهيز علم الدين سنجر - والى صنعاء - فتولى قيادة عدة حملات متوالية على مناطق نفوذ الزيدية أسفرت عن قتل وأسر عدد كبير منهم ، واستولى علم الدين على كثير من الغنائم (٢) . وهكذا « تقـــوى علم الدين وتضعضع الأشراف تضعضعا كليا » (٣) . وتبودلت الحمـلات سنة ٦٧٢ هـ / ١٢٧٣ - ١٢٧٤ م حتى انعقد الصلح بين الجانبين (٤) .

وعاد الهدوء يرفرف من جديد على البـــلاد ، ولكن القوى الزيدية كانت تنتهز الفرص المواتية للعودة إلى العصيان ، فقد حدث أن خرجت حامية ذمار عن الطـاعة لخلاف نشب بينها وبين والى صنعاء ، وتمكن بعض أفرادها من الاستيلاء على صنعاء في ربيع الآخـــر سنة ٦٧٤ هـ / (٥) سبتمبر ١٢٧٥ م ، واستعانوا بالامام ، فجاءهم في عدد كبير من أتباعه في شهر جمادى الأولى (٦) .

---

(١) ابن حاتم : السمط ص٨٣ب ، يحيى بن الحسين : غاية الأماني ص٤٥٧ .

(٢) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٨ «أ» ، الخزرجي : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ١٨٣ - ١٨٤ ، المسجد ص ٢٨٢ - ٢٨٣ .

(٣) ابن حاتم : السمط ص ٨٢ «أ» .

(٤) ابن حاتم : السمط ص ٩٠ ب ، الخزرجي : العقود اللؤلؤية جـ١ ص ١٨٥ - ١٨٧ ، المسجد ص ٢٨٣ - ٢٨٤ ، زبارة : أئمة اليمن جـ ١ ص ١٩١ .

(٥) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٨ «أ» .

(٦) الخزرجي : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ١٩٠ ، المسجد ص ٢٨٤ - ٢٨٥ .

وهكذا تهيأت الفرصة الامام من جديد وطمع فى السيطرة الكاملة على اليمن، والقضاء على بنى رسول (١) . ولكن لم يلبث أن جاءته الأنباء بتحرك المظفر - فى جموع جيشه - وأنه فى طريقه للاستيلاء على ذمار (٢) ، فكان لذلك أثره فى اضطراب المنضمين من أتباع المظفر إلى الامام ، وأسرعوا بالعودة إلى صنعاء لمراقبة تطورات الأحداث (٣) . فى حين تعرضت القوات الزيدية لنقمة المظفر وأصبحت لقمة سائغة لقواته التى حطت عليها كالبواشق وفتكت بها فتكا ذريعا فى جمادى الأولى سنه ٦٧٤ هـ / نوفمبر ١٢٧٥ م ووقع الامام فى أسر المظفر (٤) . وعندئذ تفرق الزيدية ومن والاهم فى الأودية ، واستولى السلطان على كثير من الغنائم (٥) ، وعاد المظفر إلى تعز ومعه الإمام أسيراً(٦) ولم يزل معززا مكرما فى سجنه حتى توفى فى صفر سنة ٦٨٣ هـ / (٧) ابريل ١٢٨٤ م .

وحاول الزيدية بعد هزيمتهم النكراء إقناع الحسن بن وهاس بالعودة

---

(١) ابن حاتم : السمط ص ٩٦ «أ» .

(٢) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٨ ب .

(٣) ابن حاتم : السمط ص ٩٧ «أ» .

(٤) : ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٩ «أ» ، زبارة : أئمة اليمن جـ ١ ص ١٩٣ .

(٥) ابن حاتم : السمط ص ٩٧ «أ» - ٩٨ «أ» .

(٦) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٩ «أ» .

(٧) زبارة : أئمة اليمن جـ ١ ص ١٩٣ ، ٢٠١ .

للإمامة فلم يوافقهم[1] ، فلجأوا إلى الشريف الزيدى المطهر بن يحيى فقام بها تحت ضغط الشريف الحمزى صارم الدين داود [2] ، وبايعته جموع الزيدية [3] . وكان المظفر حكيما ، فعرف كيف يزيد من حدة الخلاف فى صفوف الزيدية ، بتقريب جانب أو معاونة آخر على الاستمرار فى معارضة الامام ، كما عرف كيف يستغل تلك الانقسامات لمصلحته ، وعمل على تقريب الشريف صارم الدين داود ـ الذى سبق أن ضغط على المطهر بن يحيى ليقبل الامامة ـ وعقد معه صلحا سنة ٦٧٤ هـ / ١٢٧٥ م [4] بعد وقت قصير من مبايعة الامام الجديد .

وكانت قوات السلطان قد قامت بمحاصرة بعض حصون الزيدية ، ودار القتال بينهم وبين قوات الامام ، ولكنه لم يسفر عن نتيجة حاسمة ، وتبع ذلك انفضاض أتباع الامام من حوله [5] مما اضطره إلى ترك مساعدة المحصورين

---

(١) الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ١٩٧ ، العسجد ص ٢٨٩ .

(٢) ابن حاتم : السمط ص ٩٨ ب (الامام المطهر هو ابن يحيى بن المرتضى بن المطهر بن القاسم بن المطهر بن محمد بن المطهر بن على بن أحمد الناصر ابن الامام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين) زبارة : أئمة اليمن جـ ١ ص ١٩٥ .

(٣) الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ١٩٨ ، العسجد ص ٢٨٩ .

(٤) الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ١٩٨ ، العسجد ص ٢٨٩ .
(وكانت مده الصلح ثلاث سنوات) ابن حاتم : السمط ص ٩٨ ب .

(٥) ابن حاتم : السمط ص ٩٩ «أ» ؛ الخزرجى: العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٢٠٠ ، العسجد ص ٢٩٠ .

والانسحاب بمن بقي معــــه من أتباعه (١) : فتمكن بذلك قوات السلطان من السيطرة على هذه الحصون فى رمضــان سنة ٦٧٠ هـ / (٢) ديسمبر ١٢٧٢ م .

إستقرت الأحوال بعد ذلك مايقرب من عامين ، تخللها بعض المنازعات بين القوى الزيدية نفسها ، وكان كلما استقوى جانب لجأ الآخر إلى طلب معونة السلطان المظفر ، فكان أحيانا يسعى للتوفيق بين الطرفين ، أو يكتفى بتقديم المساعدات المادية لمن لجأ إليه (٣) . وهكذا أضعفت القــــوى الزيدية نفسها بهذه المنــازعات ، ولم تعد تشكل خطرا على بنى رسول ، الأمر الذى ساعد المظفر على توجيه حملاته إلى ظفـــــار – فى عمــــان – والاستيلاء عليها سنة ٦٧٨هـ / (٤) ١٢٧٩م ، فارتفع بذلك شأن السلطان وتمكن من السيطرة على عدد من حصون الزيدية (٥) .

---

(١) لعجز الإمام عن مساعدة المحصورين سعى فى المفاوضة وطلب مبلغ مائة ألف دينـــــار ثمنا للانسحاب وترك مساعدة الموجودين فى الحصون ، وانتهى الأمر بتسليمه ألفى دينار (ابن حاتم : السمط ص ٩٩ ب) .

(٢) ابن حاتم : السمط ص ٩٩ ب .

(٣) ابن حاتم : السمط ص ٩٩ ب .

(٤) انظر تفصيل ذلك فى الفصل الرابع من الباب الثانى الخاص بالعلاقات الخارجية .

(٥) ابن حاتم : السمط ص ١٠٥ «أ» – ١٠٦ ب ، الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٢١٨ ومابعدها ، العسجد ص ٢٩٨ ومابعدها ، زبارة : أئمة اليمن ص ١٩٩ – ٢٠٠ .

استغل الشريف صارم الدين داود حادثة مقتل علم الدين سنجر الشعبي والي صنعاء سنة ٦٨٢ هـ / [1] ١٢٨٣ م وأسرع بجموعه إلى صنعـاء متوها بسهولة الاستيلاء عليها مادامت بغير وال ، ولكن المـــؤرخ بدرالدين محمد بن حاتم تولى مهمة الذب عن المدينة والدفاع عنها وأعد هجوما مضـــادا مفاجئا على قوات صـارم الدين قرب مدينة حوث شمال صنعاء وأوقع الهزيمة بقواته وشتت جموعه [2] .

ونتيجة للمخاطر التي تعرضت لها صنعاء بعد مقتل واليها، أناب المظفر واليا آخر هو فخر الدين بن فيروز وأمده بعز الدين بلبان الدويدار لمعاونته في قيادة الحملات والعمل على إصلاح الأحوال هناك . ثم أقطع صنعاء لابنه الملك الواثق [3] نورالدين إبراهيم فوصلها في ربيع الأول سنة ٦٨٣هـ/[4] مايو

---

(١) كان علم الدين سنجر قد عقد اجتماعا بقصر الإمارة في صنعاء ، ضم المؤرخ بدر الدين بن حاتم ، وأخاه علي وعمر بن سعيد قاضي صنعاء وغيرهم فتهدم القصر عليهم ومات الجميع ماعدا بدر الدين والقاضي (ابن حاتم : السمط ص ١٠٦ ب - ١٠٧ « أ » ، الجندي : السلوك ص ٦ ٢ ، ٤٦٢ ، الخزرجي : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٢٢٨ ، العسجد ص ٢٩٩ - ٣٠٠ ، ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٩ ب ، النويري : نهاية الأرب جـ ٣١ ص ٤٥ ، يحيى بن الحسين : غاية الاماني ص ٤٥٨ ، زبارة : أئمة اليمن ص ١٨١ ، محمد عبد العال أحمد : الفتح الأيوبي لليمن ص ١٣٩) .

(٢) ابن حاتم : السمط ص ١٠٧ « أ » ، الجندي : السلوك ص ٤٧٢ .

(٣) ابن حاتم : السمط ص ١٠٧ ب ، الجنـدي : السلوك ص ٤٧٢ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٧٩ ب .

(٤) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٦١ « أ » ، الخزرجي اللؤلؤية جـ ١ ص ٢٣٥ ، العسجد ص ٣٠٠ .

١٢٨٤م « فكانت أيامه أياما حسنة خصبة رغدة ، وعـــدل فيها وأحسن وأجمل ولم يقصر »(١).

وعلى الرغم من أن بنى حمزة كانوا أصحاب الفضل فى إمامة المطهر بن يحيى ، وأنه قبلها تحت ضغط الشريف صارم الدين داود إلا أنهم اختلفوا معه منذ توليه الإمامة ، ولهذا قام الشريف صارم الدين بعقـد صلح منفرد مع السلطان ، فأدى ذلك بطبيعة الحال إلى تحمل الامام عبء الكفاح ضد السلطان. فلما زادت ضغوط قوات السلطان على الزيدية سنة ٦٨٣ هـ / ١٢٨٤ م ، وفقد صارم الدين كل أمـــل فى قيام أى تعاون بينه وبين الامام المطهر ، وفشلت جهوده لإعادة الحسن بن وهاس للامامة ، لجأ إلى إقامة ابن أخيه يوسف بن ابراهيم إماما للزيدية « وكان قد قرأ شيئا من العلم ولم يكن يكمل للامامة ولا لغيرها »(٢) ، واتخذ من حصن ثلا ـ الواقع شمالى صنعاء بالقرب من كوكبان ـ مقرا له ، فجهز جيشا ليتمكن مـن فك الحصار عـن المناطق التى تحاصرها قوات السلطان . واشتبكت قواته مع مجموعة مـن جند المظفر كان يقودها المؤرخ بدر الدين محمد بن حاتم ، وتمكنت تلك القوات من تصيد بشر ابن حاتم ـ شقيق بدر الدين ـ وقتله فى كمين نصبوه له(٣) . وطمع الامام يوسف بن ابراهيم فى تحقيق النصر على قـــوات السلطان المرابطة شمالى

---

(١) ابن حاتم : السمط ص ١٠٧ ب .

(٢) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٦١ « أ » ، الخزرجي : العسجد ص ٢٠١ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٧٩ ب .

(٣) ابن حاتم : السمط ص ١٠٧ « أ » .

صنعاء (١) ، فلما أخفقت جهوده وخشي أن يتسرب اليأس إلى أتباعه ، عمد إلى الاغارة علـى بعض المناطق المتطرفة ـ لضعف حاميتها ـ واستولى على بعضها وقتل من وجده فيها (٢)

وتجدر الاشارة إلى أن تنصيب بنى حمزة ليوسف بن ابراهيم إماما أدى زيادة التوتر بين الزيدية وانقسامهم إلى معسكرين متعاديين ، أحدهما بزعامة الإمام يوسف وعمـه الشريف صارم الدين ، والثانى بزعامة الامام مطهر بن يحيى . وأدى الصراع القائم بين الجانبين إلى استنصار الشريف جمال على بن عبد الله ـ نيابة عن الامام مطهر ـ بالملك الواثق بن المظفر فى صنعاء (٣) ، وتمكن بفضل مساعدة الواثق من التغلب على قوات الامام يوسف بن إبراهيم مما أتاح الفرصة من جديد للسلطان لمواصلة شن هجماته على بنى حمزة إلى أن استنفذ طاقاتهم (٤) . ولجأ زعيمهم صارم الدين داود إلي مكاتبة السلطان فى ٦٨٤هـ / ١٢٨٥ م لطلب الصلح ، وقد انتهى الأمر بعقد صلح بينهما (٥) . غير أنه لم يلبث أن ارتبط بعلاقات طيبة مع الامام المطهر بن يحيى (٦) ، واتفق معه

---

(١) ابن حاتم : السمط ص ١٠٧ .

(٢) ابن حاتم : السمط ص ١٠٨ «أ» .

(٣) ابن حاتم : السمط ص ١٠٨ «أ» .

(٤) زبارة : أئمة اليمن ص ٢٠٠ ـ ٢٠١ .

(٥) ابن حاتم : السمط ص ١٠٩ «أ» ، الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٢٢٩ ، العسجد ص ٣٠٢ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٨٠ «أ» .

(٦) الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ١٤٦ ، العسجد ص ٣٠٣ .

على مواجهة قوات السلطان ناكثا بعهوده له ، الأمر الذى دعا المظفر إلى تسيير قوة عسكرية هدفها تعزيز قوة والده الواثق فى صنعاء الذى أخفق فى التصدى للقوات الزيدية . ولما وصلت الامدادات التى أرسلها السلطان إلى صنعاء ، انضم الملك الواثق إليها . ومع ذلك فلم تستطع تلك القوات إيقاف التيار الزيدى الجارف الذى استعاد قوته سيما بعد استرداد مدينة صعدة [١] ، فكان ذلك نذيرا باضطراب أحوال المناطق الواقعة شمال صنعاء [٢] .

اضطر المظفر أمام قوة الزيدية إلى إستدعاء لابنه الواثق لفشله فى مقاومة هذا الخطر ، وأقطع ابنه الملك الأشرف صنعاء مكانه [٣] . على أن الأشرف ما كاد يصل صنعاء فى جمادى الآخرة سنة ٦٨٦ هـ / يوليه ١٢٨٧ م حتى تقاطرت عليه جميع القبائل معلنة عن رغبتها فى الدخول فى طاعته ، فضمهم الأشرف إلى قوته ، وقاد حملة ضخمة لمحاربة الأشراف الزيدية ، فكان لموقف القبائل أثره فى انضمام عدد من زعماء الزيدية إلى الملك الأشرف الذى واصل تقدمه ، ووطيء البلاد وطأة شديدة ، [٤] فهال ذلك الشريف صارم الدين

---

(١) زبارة : أئمة اليمن ص ٢٠١ .

(٢) ابن حاتم : السمط ص ١٠٩ ب ، الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٢٠٦ ، العسجد ص ٣٠٣ .

(٣) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٦٢ ا ، الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٢٤٧ ، ابن الديبع ص ٨٠ (أ) .

(٤) الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٢٤٧ ، العسجد ص ٣٠٣ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٨٠ ب .

داود وأضطر إلى الانسحاب بعسكره ، في حين سارعت القبائل المؤيدة له إلى الدخول في طاعة الملك الأشرف رغبة أو رهبة . وواصلت جيوش الأشرف تقدمها ، ولم تتردد في تخريب ما كانت تقابله من عمران في المناطق التي ظل أهلها على ولائهم للزيدية ، وتوالت انتصارات الأشرف على الزيدية وحاصرهم في عدد من المواقع ، ومرة أخرى يعود الشريف صارم الدين إلى طلب الصلح ، ولم يتردد الملك الأشرف في اجابته إليه ، بعد أن حققت حملاته أهدافها . ولم يمض وقت طويل على توقيع هذا الصلح في جمادى الأولى ٦٨٧ هـ [١] / يونية ١٢٨٨ م ، حتى أردف بصلح ثان عقد بعد شهر بين الإمام المطهر بن يحيى والملك الأشرف بن المظفر [٢] .

وما أن استقرت الأوضاع حتى استبدل السلطان المظفر ابنه الملك الأشرف بابنه الملك المؤيد الذي وصل إلى صنعاء في ذي القعدة سنة ٦٨٧ هـ [٣] / ديسمبر ١٢٨٨ م . والظاهر أن الزيدية لم يقبلوا بالأمر الواقع ، فقام فريق منهم ببعض الحوادث ، وتبادل كل من الجانبين توجيه تهمة نقض الصلح إلى الآخر [٤] ، وتبع ذلك قيام الجيوش السلطانية بمعاودة الحملات التخريبية على المناطق الموالية للزيدية [٥] ، وازدادت أحوال البلاد سوءا ، واشرأب أهل

---

(١) الخزرجي : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٢٤٨ ، العسجد ص ٣٠٤ .

(٢) ابن حاتم : السمط ص ١١١ « أ » .

(٣) ابن حاتم : السمط ص ١١١ ب ، الخزرجي : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٢٤٨ ، العسجد ص ٣٠٤ .

(٤) ابن حاتم السمط ١١١ ب ، الخزرجي : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٢٤٩ ، زبارة : أئمة اليمن جـ ١ ص ٢٠٢ .

(٥) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٦٢ ب .

النفاق والفساد ، « ووقع الاختلال في البلاد من نقيل صيد [١] إلى صعدة ، ورفع كل مفسد رأسه » [٢] . ولهذا بادر المظفر بتجهيز ولده الملك الأشرف في حملة لاقرار الأوضاع من جديد ، وكالمعتاد لم يكد يصل إلى صنعاء في ذى القعدة سنة ٦٩٣ هـ [٣] / سبتمبر ١٢٩٤ م ، حتى أطاعه كل عصى ودان له كل أبى « ولم يبق مؤالف ولا مخالف إلا وتاق إلى خدمته [٤] » ، « ولم يتمالك عرب البلاد أن مثلت إلى خدمته من شامخات الأطوار ومطمسات الوهاد [٥] » . فكان لذلك أثره في تهيئة المناخ المناسب للاستقرار والتمهيد لصلح جديد بين الأشراف الزيدية كافة وبين الملك الأشرف نيابة عن أبيه [٦] وتم ذلك في أول المحرم ٦٩٤ هـ / [٧] ٢١ نوفمبر ١٢٩٤ . وهكذا خيم الهدوء

---

(١) النقيل ، هو الممر الجبلى ، ويقع نقيل صيد جنوبى ذمار (الويسى اليمن الكبرى ص ١٧٩) ويعرف حاليا بنقيل سمارة وهو على خط عرض ٧َ،ر١٤° شمالا ، وخط طول ٢٣َ ر٤٤° .

(EL – Khazrejiyy : op - cit. vol. III, 3, p. 142, Note, 978)

(٢) ابن حاتم : السمط ص ١١٢ ب .

(٣) الخزرجى : العقود اللؤلؤية حـ ١ ص ٢٧١ ، العسجد ص ٣٠٨ .

(٤) ابن حاتم : السمط ص ١١٢ ب .

(٥) ابن حاتم : السمط ص ١١٣ « أ » .

(٦) ابن حاتم : السمط ١١٣ ب ، الخزرجى : العقود حـ ١ ص ٢٧٣ ، العسجد ص ٣١٠ – ٣١١ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٨١ ب ، زبارة : أئمة اليمن حـ ١ ص ٢٠٥ .

(٧) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٦٤ « أ » .

من جديد وشمل أرجاء البلاد إلى وفاة السلطان المظفر يوسف فى رمضان سنة ٦٩٤ هـ (١) / يولية ١٢٩٥ م بعد أن ملك أكثر من ست وأربعين عاما (٢).

ثانيا — الصراع على السلطنة بين أبناء المظفر وأحفاده :

أ ـ عهد الأشرف عمر بن المظفر :

كان السلطان المظفر قد أناب عنه فى قيادة الحملات كل من أبنائه الأشرف عمر والواثق ابراهيم والمؤيد داود ، فأثبت الأشرف كفاءة نادرة وقدرة فائقة . فلما طعن المظفر فى السن وبلغ الخامسة والسبعين من عمره ، خشي حدوث الخلاف بين أبنائه على عرش السلطنة من بعده فاستقر رأيه على اختيار خلف له . وكان معجبا بشخصية ولده الأشرف ، لما أبداه من براعة فى القيادة وحنكة فى إدارة المعارك ، ولهذا خصه بخلافته على السلطنة ، وقلده أمورها (٣) قبل وفاته بمدة أشهر ، وحلف له العسكر (٤) ، وأصدر له تقليدا بالسلطنة . قال ابن حاتم : «فعقد له على الملك ونظم له متفرقه فى السلك ، وقال : هذا ولى عهدى وصاحب أمرى فى جندى ، ووارثه بعدى . وجمع اسمه معه فى الخطبة والسكة ، ولم ينص على المساهمة والشركة . وكان التقليد الكريم...

---

(١) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٦٤ ب ، ابن الفرات : تاريخه حـ١٦ ص ٥٧ «أ» . (وذكر ابن تغرى بردى والعينى وفاته فى شهر رجب سنة ٦٩٤ (النجوم الزاهرة حـ ٨ ص ٧١ ، عقد الجمان مجلد ٥٦ لوحة ١١٣) .

(٢) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٦٤ ب ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهره جـ ٨ ص ٧٣ حوادث الدهور ص ٣٧٥ .

(٣) ابن حاتم : السمط ص ١١٤ «أ» .

(٤) الجندى : السلوك ص ٤٥٥ .

في أول جمادى الأولى سنة ٦٩٤هـ[١] (١٩ مارس سنة ١٢٩٥ م)، ويستطرد ابن حاتم قائلا : « ثم انضافت الأوامر والنواهي، والحل والعقد والبسط والقبض في البر والبحر والأقاليم والسواحل والأمصار والحصون والثغر، وتدبير الحروب وتجهيز العساكر إلى مولانا السلطان الأعظم الملك الأشرف ... ولم يكن إلى مولانا السلطان الملك المظفر ... غير جلائل الأمور ومهامها ... واستمر الأمر لمولانا السلطان الملك الأشرف... وبعث والأمر إلى سائر البلاد وشاع ملكه في حاضر وباد، واشرأبت قلوب الأولياء بولايته حبا، وملئت قلوب الأعداء تخوفا ورعبا، وفرض العدل وسنه، ودانت له القبائل، وانقادت لأوامره واستكانت »[٢] .

وفي نفس الوقت الذي أصدر فيه المظفر تقليده للأشرف، أسند ولاية حضرموت والشحر إلي ولده الثاني المؤيد داود[٣]، وكان قد استولى عليها في سنة ٦٧٨ هـ/١٢٧٩م . وكان المظفر يعتقد أنه قد ضمن بهذا التصرف نوعا من الوفاق بين أبنائه بعد وفاته . غير أن ذلك لم يتحقق، فبعد وفاته أعد المؤيد عدته وجمع حشوده لانتزاع السلطنة من أخيه الأشرف عمر[٤]. وانضم إلى

---

(١) ابن حاتم : السمط ص ١١٤ أ - ب .

(٢) ابن حاتم : السمط ص ١١٤ ب .

(٣) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٦٤ ب، الخزرجي : العقود جـ ١ ص ٢٧٥، العسجد ص ٣١٢، ابن الديبع : قرة العيون ص ٨١ ب .

(٤) ابن الفرات : تاريخه جـ ١٦ لوحة ٥٣، الخزرجي : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٢٨٤، العسجد ص ٣١٧، ابن الديبع : قرة العيون ص ٨٠ أ، بامخرمه : تاريخ ثغر عدن جـ ٢ ص ٧٣ .

المؤيد أخوه الملك المنصور أيوب والقاضي موفق الدين علي بن محمد اليحيوي. ومع ذلك فقد أرسل الأول إليه يحذره من التقدم[١] ، وأبلغه الثاني بأن الأشرف قد دس له من يتولى مهمة اغتياله[٢] ولكن المؤيد لم يلتفت لهذه التحذيرات والنصائح ، وواصل تقدمه إلى أبين واستولى عليها . كما استولى على حصن السمدان[٣] لتنازل أخوه الناصر أيوب له عنه.[٤] ثم سار إلى عدن واستولى عليها[٥]، وتقدم إلى لحج[٦].

أما الأشرف فقد ساءه خروج أخيه عليه ، وقر عزمه على محاربته ، فسير

---

(١) الخزرجي : العقود جـ ١ ص ٢٨٤ – ٢٨٥ ، ابن الديبع : قرة العيون ، ص ٨٣ .

(٢) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص٦٤ ب ، الخزرجي: العسجد ص٣١٧ .

(٣) السمدان ، من الحصون التي يضرب بحصانتها المثل (الخزرجي : العسجد ص ٣٢٩) وليس بعد حصني التعكر وحب سواه (ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٤٥ أ) ويقع بمخلاف جعفر (الويسي اليمن الكبرى ص٢٦٠) بين لحج والدملوة .
(EL - Khazrajiyy : op. cit. vol III, 3, p. 140, Note, 117.).

(٤) الخزرجي : العقود جـ ١ ص ٢٨٤ – ٥ ، ٢ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٨٣ أ .

(٥) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٦٥ أ ، ابن الفرات: تاريخه جـ ٩ ق ١ ص ٥٣ ب ، الخزرجي : العسجد ص ٣١٧ – ٣١٨ .

(٦) الجندي : السلوك ص٢٢٢ ، الخزرجي: العقد الفاخر جـ٢ ص١٦٨ ، الأهدل : تحفة الزمن ص ١٤٥ ب .

حملة بقيادة ابنه الملك الناصر [١] أتبعها بحشود أخرى يتلو بعضها بعضا [٢] إلى أن اشتبكت قواته مع قوات أخيه فى معركة عنيفة بجرت بقرية الدعيس [٣] فى المحرم سنة ٦٩٥هـ/[٤] نوفمبر ١٢٩٥م ، انتهت بهزيمة المؤيد ، [٥] مما اضطره إلى طلب الأمان فأمنه ابن أخيه الملك الناصر بن الأشرف ، ولكنه اعتقله مع ولديه المظفر والظافر وعاد بهم مقيدين إلى أبيه الملك الأشرف ، الذى كان قد توجه إلى مدينة الجوة [٦] لمتابعة أخبار المعركة ومواصلة الامدادات لها . وعلى الرغم من المتاعب التى أثارها المؤيد ، إلى أن الأشرف تأثر لاعتقال أخيه وولديه «وبكى بكاء شديدا وأمر باكرامهم» [٧] .

وعلى الرغم من انفراد الأشرف بالسلطنة بعد اعتقال أخيه المؤيد ، فإن

---

(١) ابن عبد المجيد . بهجة الزمن ص ٦٦ أ.

(٢) الخزرجى : العقود جـ ١ ص ٢٨٦ ، المسجد ص ٣١٨ ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ ٢ ص٧٢ .

(٣) الدعيس ، موضع بناحية عدن وأبين (بامخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ٢ ص ٧٣) .

(٤) الجندى : السلوك ص ٢٥٤ ، ٤٥٥ .

(٥) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٦٦ أ ، الأهدل : تحفة الزمن ص ١٥٨ ب ، زبارة : أئمة اليمن جـ ١ ص ٢٠٧ .

(٦) الجوة ، مدينة بسفح حصن الدملوة ، وهى على مرحلة من مدينة الجند (الجندى : السلوك : ص ٨٠ ، ٤١٩).

(٧) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٦٦ أ ، الخزرجى : العقود جـ١ ص ٢٨٩ .

العمر لم يمتد به طويلا ولم يلبث أن توفى بعد عام واحد فقط من هزيمة أخيه وخلاصه من خطره ، وكانت وفاته في المحرم سنة ٦٩٦هـ[1]/نوفمبر ١٢٩٦م. ولم تدم مدة حكمه أكثر من سنتين شغل في أولاهما بمحاربة أخيه المؤيد داود.

٢ - سلطنة المؤيد داود ، وتطور الأحداث الداخلية فى عهده :

كانت وفاة الأشرف عمر مفاجئة ، ولم يكن معه وقت وفاته أحد من أبنائه ، فابنه الملك الناصر جلال الدين محمد كان نائبا له فى مدينة القحمة ، فى حين كان ولده العادل صلاح الدين فى صنعاء (٢). ولعب القدر دوره فى اعتلاء المؤيد داود عرش السلطنه بعد أخيه الأشرف (٣) ، فلقد أجمع من كان حاضرا من كبار رجال الأشرف وخاصته على إقامة المؤيد سلطانا على اليمن ، مستهدفين بذلك إزالة مابينه وبينهم من عداء يرجع إلى تأييدهم للأشرف فى حربه ضده ، وظنا منهم أنهم بمبايعتهم له سوف يحظون بثقته ويحتفظون بمكانتهم عنده . ولهذا توجهوا إلى المؤيد وأخرجوه من معتقله (٤) ، وأبلغوه .

(١) الجندى : السلوك ص ٤٥٥ ، الخزرجى : العقود جـ ١ ص ٢٩٧ ، العسجد ص ٣٢٠ .

(٢) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص٦٦ أ ، الخزرجى : العسجد ص ٣٢٠ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٨٤ أ.

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم جـ ٨ ص ١٠٩ ، جـ ٩ ص ٢٥٣ ، المنهل جـ ٣ ص ١٧٠ ، حوادث الدهور ص ٣٧٥ .

(٤) ابن الفرات : تاريخه جـ ١ ص ٨٢ .

بوفاة أخيه فأبدى حزنه عليه (١)، ثم بايعوه بالسلطنة . وكان أول من بايعه الصاحب حسام الدين حسان بن أسعد بن محمد موسى العمراني وزير أخيه الأشرف، « فاجتمع به وحلف له الأيمان المغلظة واستحلف له الجند (٢) والأمراء وأعيان الدولة (٣) ، ورغب الناس إلى ملكه رغبة ما عليها من مزيد » (٤).

ولما اعتلى المؤيد العرش واستقامت الأمور له ، أرسل كتبه إلى جميع أنحاء اليمن (٥). وجاء ولدى أخيه ـ الناصر جلال الدين محمد بن الأشرف وأخوه العادل ـ طائعين ، وبايعاه بالسلطنة فأمنهما وأكرمهما (٦) ، وعمل على إزالة الخلافات التي كانت بينه وبينهما ، وصاهرهما فزوج ابنيه الظافر عيسى والمظفر ضرغام الدين حسن بينتى أخيه الأشرف (٧) . ولكنه عمل على التخلص من رجال دولة أخيه ، وقرب أتباعه وثقاته وأسند إليهم المناصب الكبيرة ، ولهذا أقال حسان العمراني وزير أخيه رغم أنه كان صاحب الفضل فى اعتلائه عرش السلطنة ، وجعل فى الوزارة مكانه القاضي الصاحب موفق الدين على بن محمد

---

(١) ابن عبد المجيد : نفسه ص ٦٦ ب ، زبارة : أئمة اليمن جـ١ ص ٢٠٨.

(٢) الجندى : السلوك ص ٣٦٤ .

(٣) الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ١ ص ٢٩٩ ، العسجد ص ٣٢٢ .

(٤) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٧٠ أ .

(٥) الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ١ ص ٢٩٩ ، العسجد ص ٣٢٢.

(٦) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٧١ ب ، الخزرجى : العقود جـ١ ص ٣٠١ ، العسجد ص ٣٢٤.

(٧) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٦٨ أ.

ابن عمر اليحيوى (١) فى جمادى الأولى سنة ٦٩٦هـ/ فبراير ١٢٩٧م ، وفوض إليه قضاء الأقضية كما قرب أخاه رضى الدين أبا بكر بن محمد بن عمر (٢) . ولم يترك المؤيد أمر المفسدين من المماليك فقبض عليهم وأودعهم سجن حصن الدملوة (٣). ثم أقطع صنعاء لابنه المظفر ضرغام الدين ، أما الظافر عيسى فأقطعه القحرية والحازتين (٤).

وكان الزيدية أثناء ذلك يترقبون ـ منذ وفاة المظفر ـ الصراع الدائر بين السلطان الأشرف وأخيه المؤيد ، وتمكنوا خلال ذلك من الاستيلاء على بعض الحصون . فلما مات الأشرف عمر وخلفه المؤيد وتمكن من السيطرة على مقاليد الأمور وانصاعت القبائل له ، رغب زعماء الزيدية فى مصالحته ، اكتسابا لوقت يتمكنون فيه من إعادة تنظيم صفوفهم إلى أن تحين لهم فرصة مواتية ينقضون فيها على بنى رسول ، ولذلك فما أن جاءتهم كتبه حتى سارعوا بإرسال التهنئة بالسلطنة وإعلان ولائهم له وعقد الصلح معه (٥).

---

(١) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٧٠ أ ؛ ابن الديبع : قرة العيون ص ٣٠٣ .

(٢) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٦٩ أ ، الخزرجى : العقود جـ ١ ص ٣٠٣ ، العسجد ص ٣٢٥ .

(٣) الخزرجى : العقود جـ١ ص ٣٠٤ ، العسجد ص ٣٢٦ .

(٤) القحرية والحازتين من وادى زبيد (بامخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ ٢ ص ٧٤ :

(٥) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٦٧ أ ، الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ١ ص ٣٠٤ ، العسجد ص ٣٢٦ ابن الديبع : قرة العيون ص ٨٥ب .

١ ـ صراعه مع أخيه المسعود :ـ

كان المسعود بن المظفر يتولى الأعمال السرددية ـ بوادى سردد شمالى زبيد ـ منذ عهد أخيه السلطان الأشرف عمر [١] ، فلما تولى المؤيد العرش حقد عليه المسعود وطمع فى انتزاع ملكه ، ولكنه عمل فى نفس الوقت على خديعة المؤيد وإيهامه بولائه وإخلاصه له ، وأرسل إليه ابنه أسد الدين محمد فأكرمه المؤيد وثبت أباه على إقطاعه [٢]. وانتهز المسعود هذه الفرصة وبادر بإعلان العصيان فى أواخر سنة ٦٩٦هـ/١٢٩٧م مدفوعا بمطامعه الشخصية فى عرش البلاد من جهة ، وبتشجيع من التف حوله من خصوم المؤيد ممن أضيروا بسلطنته من جهة أخرى [٣]. وزحف المسعود بحشوده إلى حرض الواقعة فى شمال تهامة ، فانضم واليها إليه ، وأصبح من كبار أعوانه ومشيريه ، ونشط فى حشد الرجال وانضم إليه عدد آخر [٤].

عمل السلطان المؤيد على حسم مادة الخلاف سلميا إبقاءً على صلة الإخاء ، وأرسل إلى أخيه المسعود يدعوه إلى طاعته ، وأصدر له أمانا ، وثبته على إقطاعه ووعده خيرا ، ولكن المسعود لم يستجب لندائه . وعندئذ أعد جيشا عهد بقيادته إلى أخيه المنصور أيوب وسير برفقته ولده الملك الظافر عيسى

---

(١) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٧٠ أ.

(٢) الخزرجى : العقود اللؤلؤية جا ص ٣٠٥ ، العسجد ص ٣٢٧ .

(٣) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٧٢ أ.

(٤) ابن عبد المجيد : نفس المصدر ص ٧٢ ب ، الخزرجى : العسجد ص ٣٢٧ .

ابن المؤيد ، وزود الحملة بثلاثة من الفيلة[١] كان لاشتراكها فى الحملة أكبر الأثر فى إضعاف عزيمة المسعود الذى أدرك أن أنصاره إنما «يجمعهم صوت وتفرقهم عصا»[٢]. وأيقن أنه لا يمكنه التصدى للحملة ، ولهـذا أعلن الدخول فى طاعة أخيه ، ولم يدخل فى حرب معه ، ولكن المؤيد أمر باعتقاله هو وولده أسد الاسلام فى حصن تعز وذلك فى المحرم سنة ٦٩٧هـ/ سبتمبر ١٢٩٧م. نظلا فى الحبس قرابة عام ، أفرج عنهما بعده وأسكنهما فى مدينة حيس[٣] وقرر لهما جامكية وكذلك لحاشيتهما[٤].

وبتخلص المؤيد من منافسة أخيه المسعود ، تفرغ لإقرار الأوضاع فى البلاد . وكانت الحملات الدورية التقليدية هى السياسة التى لجأ إليها ، كضرورة تحتمها طبيعة بلاد اليمن من أجل استمرار السيطرة المركزية . وبدأ بتجهيز ابنه المظفر ضرغام الدين إلى صنعاء ، فاستولى على حصن براش ـ إلى الشرق من صنعاء ـ وبعض حصون يزيم[٥] جنوبى ذمار ، كما أرسل حملة ثانية فى

---

(١) الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٢٠٥ ، العسجد المسبوك ص ٣٢٧ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٨٥ ب .

(٢) ابن عبد المجيد : نفس المصدر ص ٧٢ ب .

(٣) الخزرجى : العسجد ص ٣٢٧ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٨٥ ب ، زبارة : أئمة اليمن جـ ١ ص ٢٠٨ .

(٤) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٧٣ « أ » ، الخزرجى : العقود جـ ١ ص ٣٠٩ .

(٥) ابن عبد المجيد : نفس المصدر ص ٧٣ ب .

شعبان سنة ٦٩٧ هـ / مايو ١٢٩٨ م إلى مأرب لتمكين سلطانه عليها والقيام ببعض الإصلاحات فيها ،(١) وثالثة إلى منطقة حجة حققت هي الأخرى أهدافها(٢) . وهكذا أثبت المؤيد كفاءة في مواجهة المواقف الحرجة ، وقدرة على الضرب على أيدى العصاة والمتمردين .

ب ـ مواجهته لحركات الزيدية وقبائل الجحافل والعجالم :

كان الزيديون قد تظاهروا بالطاعة للمؤيد ، وأكدوا ذلك بعقد صلح معه . وعلى الرغم من وفاة الإمام مطهر بن يحيى عقيب ذلك فى رمضان ٦٩٧ هـ(٣) / يونيه ١٢٩٨م ، إلا أن ذلك لم يمنع تكتل القوى الزيدية لإظهار الخلاف على السلطان . ولكن المؤيد لم يتردد فى مهاجمتهم ، وأسرع إلى صنعاء فوصلها فى ذى القعدة(٤) ثم غادرها فى ذى الحجة إلى منطقة الظاهر شمالها(٥) . وتفاديا للمخاطر توجه وفد من زعماء الزيدية لتجديد الطاعة له ، وأبدوا استعدادهم للتعاون معه ضد من استمر على الخلاف من الزيدية ، فزودهم ببعض جنده واستولوا على مدينة صعدة(٦) . وفى نفس الوقت كان المؤيد يواصل

---

(١) الخزرجى : العقود جـ ١ ص ٣١٠ .

(٢) ابن عبد المجيد : نفس المصدر والصفحة ، الخزرجى : العسجد ص ٢٢٨ .

(٣) الخزرجى: العقود حـ١ ص٣١٠ ، زبارة : أئمة اليمن حـ١ ص ٢٠٨ .

(٤) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٧٣ ب ، الخزرجى : العسجد ص ٢٢٨ .

(٥) ابن عبد المجيد : نفس المصدر والصفحة .

(٦) الخزرجى : العقود حـ ١ ص ٣١١ ، العسجد ص ٢٢٨ .

أعماله الحربية شمالى صنعاء ، فأغار فى المحرم سنة ٦٩٨ هـ / أكتوبر ١٢٩٨ م على بعض المدن والحصون وخرب بعضها بالمجانيق وأقام الحصار على البعض الآخر ، واستمر ذلك إلى أن تم التوصل إلى هدنة مدتها سبعة أشهر [١]

ويمدنا ابن أيبك منفرداً بسبب هام لخروج الزيدية عن طاعة السلطان الرسولى ، وإن كان لم يوضح المصدر الذى استقاه منه ، فيذكر أن السلطان كان يرسل إلى الزيدية عشرين ألف دينار سنويا ، نظير التزامهم له بالطاعة وإقرار الأمن فى مناطقهم وحماية المسافرين والتجار العابرين فى حدودهم ، وعدم التعرض لأحد بسوء . ولكن الزيدية خالفوه لعدم كفاية هذا المبلغ . وطالبوه بزيادة المقرر السنوى إلى مائة ألف دينار ، وقالوا : « فإنا نحن عمارة البلد ، وبنا الصلاح والفساد » ، فلما لم يستجب لهم خرجوا عن طاعته ، واضطر إلى زيادة المبلغ إلى ثلاثين ألف دينار بعد تمام الصلح معهم [٢] .

أما المصادر اليمنية فتؤكد أن المؤيد غمر الزيدية بعد عودتهم إلى الطاعة بالأموال الطائلة والخلع والكسوات . وأنه لما عاد إلى صنعاء فى ربيع الأول سنة ٦٩٨ هـ / ديسمبر ١٢٩٨ م توافد عليه جموع الأشراف الزيدية ومشائخ القبائل مجددين الطاعة له ، فاستصحبهم معه إلى تعز [٣] ومنها إلى زبيد فدخلها فى جمادى الآخرة سنة ٦٩٨ هـ [٤] /مارس ١٢٩٩ م . وكان الشريف الزيدى

---

(١) ابن عبد المجيد : نفس المصدر ص ٧٤ ب ، الخزرجى : العقود جـ ١ ص ٣١٥ ، العسجد ص ٣١٩ .

(٢) ابن أيبك : كنز الدرر جـ ٩ ص ٦٧ – ٦٩ .

(٣) الخزرجى : العقود جـ ١ ص ٣١٥ ، العسجد ص ٣٣١ .

(٤) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٧٥ ب – ٧٦ « أ » .

على بن عبد الله الحزى - والد المؤرخ اليمنى عماد الدين إدريس - ممن دخل فى طاعة المؤيد ، وحظى بمكانة كبيرة عنده ، وأغدق عليه بسخاء حتى قيل أن جملة ما حصل عليه من أموال - منذ وصوله مع السلطان إلى زبيد حتى عودته منها فى شوال سنة ٦٩٨ هـ / يوليه ١٢٩٩ - تجاوز السبعين ألف دينار[١] «حاشا الكساوى والخيول وغيرها»[٢] ولكنه لم يلبث أن توفى بعد عودته[٣]، وكان من كبار الأشراف وأعيان رؤسائهم . فلما توفى أجمع أهل بيته على تقديم ابنه عماد الدين إدريس مكانه[٤] ، فاستمر على سياسة أبيه فى موالاة السلطان المؤيد . وتأكيداً لذلك بادر بتلبية طلب السلطان عندما استدعاه إليه فكان وصوله فى ذى القعدة سنة ٦٩٩ هـ / يوليه ١٣١١ م ، وتلقاه المؤيد بالإجلال والإكرام ، وأصدر أوامره إلى أتابك عسكره بألا « يستفتح الميدان إلا الأمير المذكور (عماد الدين إدريس) مقدما على أعيان الأمراء ووجوه الدولة ، فكان كما رسم»[٥] . وترتب على بقاء عماد الدين إدريس فى فى خدمة السلطان المؤيد ، تسليم ما كان لديه من الحصون[٦]، وارتفاع مكانته

---

(١) كل دينار أربعة دراهم ، وكل درهم عشرة قراريط . (ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٧٦ « أ » .

(٢) الخزرجى : العقود جـ ١ ص ٣١٨ ، العسجد ص ٣٣٢ .

(٣) الجندى : السلوك ص ٢٥٤ ، الأهدل : تحفة الزمن ص ١٥٨ ب (وكانت وفاته فى جمادى الآخرة سنة ٦٩٩) العقود جـ ١ ص ٣٢٤ ، العسجد ص ٣٣٤ .

(٤) زبارة : أئمة اليمن جـ ١ ص ٢٠٩ - ٢١٠ .

(٥) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٧٧ ب .

(٦) زبارة . أئمة اليمن ص ٢١٠ .

عند السلطان ، فمنحه سبعة آلاف دينار، وأغدق عليه الهدايا والتحف والملابس والمماليك والخيول وغيرها، وأقطعه مدينة القحمة[1] فى المحرم سنة ٧٠٠ هـ[2]/ سبتمبر ١٣٠٠ م .

وباستقرار الأحوال فى البلاد، أقطع السلطان صنعاء لابنه المظفر ضرغام الدين فلما وصلها فى شعبان سنة ٦٩٩ هـ[3] / ابريل ١٣٠٠ م احتفل أهلها بمقدمه ، وزينوا المدينة ابتهاجا به ، ومن جهة أخرى ـ وفى إطار هذا الهدوء ـ أخذت المواكب السلطانية تجوب أنحاء البلاد ، وفى سنة ٧٠٠ هـ / ١٣٠٠ م تحرك الركب السلطانى إلى زبيد فدخلها فى صفر ، ثم غادرها فى الشهر التالى إلى المهجم ـ من أعمال وادى سردد ـ[4] فدخلها فى احتفال بهيج[5] ، وأقام فيها إلى جمادى الأولى ، ثم عاد إلى زبيد[6] حيث واصل زياراته للمناطق المجاورة ، ثم توجه بعدها إلى تعز فوصلها فى رمضان . وفى هذه الأثناء أقطع ولده الملك الظافر عيسى صنعاء بدلا من أخيه المظفر ضرغام الدين[7] ، فأغار

---

(١) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٧٨ « أ » ، الجندى : السلوك ص ٢٥٤ ، الأهدل : تحفة الزمن ص ١٥٨ ب .

(٢) الخزرجى : العقود حـ ١ ص ٣٢٦ ، العسجد ص ٢٣٥ .

(٣) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٧٨ « أ » ، زبارة : أئمة اليمن ص ٢١٠ .

(٤) الخزرجى : العقود حـ ١ ص ٣٢٧ ، العسجد ص ٣٣٩ .

(٥) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٧٨ ب .

(٦) ابن عبد المجيد : نفس المصدر ص ٧٩ أ .

(٧) الخزرجى : العقود حـ ١ ص ٣٢٨ .

في طريقه إليها على بعض القبائل لأمور بدرت منهم ، واستولى على كثير من خيلهم [١] . كما قام السلطان المؤيد بإرسال حملة إلى بلاد المعازبة لخروجهم عن الطاعة وإخلالهم بالأمن ، واصطنع معهم العنف حتى أذعنوا للطاعة وقدموا الرهائن تأكيداً لولائهم [٢].

وكان المؤيد دائم الحركة لا يكل ولا يمل ولا يدع مشكلة دون أن يتولى في الحال حلها ، منعا من تعقد الأمور . فقد كان المؤيد في مدينة الجند عندما بلغه حدوث تغير من الزيدية ، فلجأ في البداية إلى مكاتبتهم لتهدئة النفوس والعمل على إزالة أسباب الخلاف ، فلما أخفقت هذه المحاولة السلمية أمر عماد الدين إدريس بالتجهيز لمحاربتهم ، وعندئذ أسرعوا لإرضائه وقدموا رهائنهم إليه [٣] . ولكن ما أن خمدت هذه الحركة حتى وردت الأنباء بمخالفة الأشراف السليمانيين ـ بمنطقة المخلاف السليماني شمالي تهامة ـ وإقدامهم على قتل نائب مدينة الراحة قرب حرض ، فوجه السلطان إليهم حملة بقيادة عماد الدين إدريس انضم إليه فيها نائب حرض ، ونجحت هذه الحملة في استرداد مدينة الراحة قهرا في شعبان سنة ٧٠١ هـ [٤]/ابريل ١٣٠٢ م ، وقتل

---

(١) ابن عبد المجيد : نفس المصدر ص ٧٩ أ ، الخزرجي: العسجد ص ٣٣٧ .

(٢) ابن عبد المجيد : نفس المصدر والصفحة ، الخزرجي : العقود حـ ١ ص ٣٢٨ ، العسجد ص ٣٣٧ .

(٣) ابن عبد المجيد : نفس المصدر ص ٧٩ ب .

(٤) الخزرجي : العقود حـ ١ ص ٣٣٠ .

في هذه المعركة عدد كبير من الساجانيين ومن عاونهم (١) ، وطاردت القوات السلطانية من فر منهم حتى أجبرتهم على الطاعة ورد ما استولوا عليه (٢) .

ومع بداية القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) بايعت جموع الزيدية الشريف محمد بن الامام السابق المطهر بن يحيى إماما للزيدية ولقبوه بالمهدى (٣) . فكان ذلك نذيرا بعصيان زيدى جديد ، ولذلك بادر المؤيد بالخروج فورا على رأس حملة إلى صنعاء ، ومنها واصل تقدمه شمالا الى بلاد الظاهر (٤) ، وطاف بمنطقة الجبال الشمالية ، وحاصر عددا من الحصون وضربها بالمجانيق . فلما استولى عليها (٥) ، أمر باصلاح ماتخرب منها ، وولى عليها الولاة وترك معهم فيها الحاميات المناسبة ، وعاد إلى صنعاء فى أوائل سنة ٧٠٢ هـ (٦) / ١٣٠٢ م . وكنتيجة لتحرك الزيدية من جديد واستبدادهم بما تحت أيديهم (٧) ، لم يتردد المؤيد فى حسم الفتنة ، وجرد عدة

---

(١) الخزرجى : العسجد ص ٣٣٧ .

(٢) ابن عبد المجيد : نفس المصدر ص ٨ أ .

(٣) زبارة : أئمة اليمن حـ ١ ص ٢١٢ .

(٤) ابن عبد المجيد : نفس المصدر ص ٨٠ ب ، الخزرجى : العقود حـ ١ ص ٣٣١ ، العسجد ص ٣٣٩ .

(٥) ابن عبد المجيد : نفس المصدر ص ٨١ب ، الجندى : السلوك ص ٤٥٦ .

(٦) ابن عبد المجيد : نفس المصدر ص ٨٣ أ ـ ب .

(٧) الخزرجى : العقود جـ ١ ص ٣٢٧-٣٢٩ ، العسجد ص ٣٤٢-٣٤٣ (ويذكر ابن عبد المجيد أن ماحدث تم بتشجيع بعض أتباع السلطان ومنهم بدر الدين محمد بن حاتم) بهجة الزمن ص ٨٣ ب .

حملات [١] تمكن بفضلها من استرجاع نفوذه على منطقة الجبال الشمالية إلى صعدة [٢] .

ومن الملاحظ أنه على الرغم من تجدد الخلاف من الزيدية ، ومناوشتهم للمؤيد بين حين وآخر [٣] ، إلا أن حركاتهم لم تكن جماعية منظمة ، مثلما كانت في عهد أبيه وجده ، ويرجع السبب في ذلك إلى تمكن السلطان المؤيد من استمالة عدد من الأشراف الزيدية ، مثل عماد الدين إدريس بن علي وأبيه من قبله . كما كان لإغداقه الأموال عليهم ، وتقربهم واستجابتهم له ، أثر كبير في ترحيب السلطان بهم وبالتالي دخولهم في خدمته ، ولم يتردد السلطان المؤيد في إسناد قيادة بعض الحملات إلى بعضهم . وهكذا انقسمت القوى الزيدية ، فريق منهم مؤيد للسلطان ، استخدمهم في القضاء على ما عداهم من المتمردين عليه ، أضف إلى ذلك أنهم ظلوا بغير إمام يجمع صفوفهم منذ وفاة الامام المطهر ابن يحيى سنة ٦٩٧ [٤] إلى ٧٠١ هـ / ١٢٩٧ - ١٣٠٢ م عندما أقيم الامام

---

(١) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٨٤ ب ، زبارة : اتحاف المهتدين ص ٦٣ .

(٢) الخزرجي : العقود حـ ١ ص ٢٣٩ ، العسجد ص ٣٤٧ ، زبارة : أئمة اليمن حـ ١ ص ٢١٢ .

(٣) ابن عبد المجيد : نفس المصدر ص ٨٢ - ٨٤ ، ٩٢ب ، ٩٧ ، ١٠٠أ ، ١٠٣ ب - ١٠٤ أ ، الخزرجي : العقود حـ ١ ص ٣٥١ - ٣٠٢ ، ٢٥٩ ، ٢٦٢ ، ٢٦٧ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ . العسجد ص ٣٤٦ - ٣٤٧ ، ٣٤٩ ، ٣٥١ - ٣٥٣ ، ٣٥٥ .

(٤) ابن عبد المجيد : نفس المصدر ص ٧٣ أ .

محمد بن المطهر [١] . ومن الجدير بالذكر أن انقسام الزيدية استمر واضحا طوال عهد المؤيد ، ولم ينجح الامام أو غيره من كبار رجالات الزيدية فى التوفيق بينهم أو توحيد كلمتهم ، مما أدى إلى ضعف مقدرتهم على المعارضة ، وساعد بالتالى على نجاح المؤيد فى القضاء على حركاتهم المفككة ، وتبديد أحلامهم فى الاستحواذ على المنطقة الواقعة شمالى صنعاء ، والتى كانوا يتخذونها قاعدة لهم للقضاء على دولة بنى رسول ، وفرض السيطرة الزيدية على بلاد اليمن بأكملها .

وفى الوقت الذى خفت فيه حدة حركات الزيدية المعادية للمؤيد قامت قبائل الجحافل والعجالم [٢] بإثارة الشغب فى منطقة لحج ، فقام الأمير سيف الدين طغريل نائب المؤيد فى لحج بالاغارة عليهم فى جمادى الأخرى سنة ٧٠١ هـ [٣] / فبراير ١٣٠٢ م ، وتمكن بعد قتل أكثر من سبعين من رجالهم ، من إعادتهم إلى الطاعة [٤] . ولكن هذه القبائل كانت تتربص للعودة إلى العصيان ، وما أن قام السلطان سنة ٧٠٢ هـ بسحب سيف الدين طغريل من لحج لإسناد ولاية صنعاء إليه [٥] ، وتولية الشريف عماد الدين إدريس مكانه ، حتى وجدت

---

(١) الخزرجى : العقود حـ ١ ص ٣٣١ ، العسجد ص ٣٢٩ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٨٦ ب ، زبارة : أئمة اليمن حـ ١ ص ٢١٢ ، اتحاف المهتدين ص ٦٤ .

(٢) الجحافل والعجالم ، قبائل متجاورة تقطن المنطقة الواقعة إلى الشمال ، والشمال الشرقى من لحج .

(El-Khazrejiyy op. cit. pp. 101, 154, Note, 653, 9&4)

(٣) الخزرجى : العقود جـ ١ ص ٣٣٠ ، العسجد ص ٣٣٨ .

(٤) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٨٠ أ .

(٥) الخزرجى : العقود جـ ١ ص ٣٣٨ – ٣٣٩ .

القبائل المذكورة الفرصة للثورة ، فأغار الوالى الجديد عليهم [١] ، وقام بمطاردتهم ، حوانتهى الأمر بمعركة عنيفة بين الجانبين سنة ٧٠٣ هـ / ١٣٠٣م كادت الهزيمة تلحق فى نهايتها بعماد الدين إدريس لإصابته فى المعركة ، ولكنه استطاع رغم جراحه مواصلة القتال وإحراز النصر [٢] وقتل الكثيرين منهم ومتابعة فلولهم .

ومما يذكر فى هذا المجـــال أن هذه القبائل كانت تحصل على جامكية من المؤيد ، ومن المرجح أنه قد قررهـــا لهم منذ توليه السلطنة ، مكافأة على مناصرتهم له أثناء صراعة ضد أخيه الأشرف [٣] . فلما خرجوا عن الطاعة سنة ٧٠٢هـ / ١٣٠٢ م قطـــع الجامكية عنهم [٤] ، ثم أعادهـــا إليهم سنة ٧٠٥ هـ / ١٣٠٥ م بعد أن عادوا إلى السكينة وأقروا بالطاعة له [٥] . ولكن على الرغم من إغرائهم بإعادة الجامكيه إليهم ، إلا أنهم لم يلبثوا أن عادوا إلى العصيان مرة ثالثة فى شوال سنة ٧٠٦ هـ / ابريل ١٣٠٧ م ، وعاثوا فسادا فى المنطقة ، فتصدت لهم قوات السلطـان وهزمتهم وقضت على حركتهم وقتلت منهم نحو أربعين من رؤسائهم [٦] .

---

(١) الخزرجى : العسجد ص ٣٤٢ – ٣٤٣ .

(٢) الخزرجى : العقود جـ ١ ص ٣٥٠ – ٣٥١ .

(٣) ابن عبد المجيد : بهجه الزمن ص ٩٢ أ .

(٤) الخزرجى : العسجد ص ٣٥٢ .

(٥) الخزرجى : العقود جـ ١ ص ٣٦٧ .

(٦) ابن عبد المجيد : نفس المصدر ص ٩٨ ب ، الخزرجى : العقود جـ ١ ص ٣٧٢ ، العسجد ص ٣٥٥ .

ج ـ تحالف الزيدية والأكراد ضد السلطان، وموقفه منهم :-

الأكراد، هم البقية الباقية من عسكر الأيوبيين في اليمن، وكانوا قد تجمعوا بعائلاتهم في مدينة ذمار منذ بداية دولة بني رسول، وظلوا موالين لهذه الدولة ويشاركون في الحملات التي كان بنو رسول يعدونها ضد أعدائهم في الداخل. وترجع أسباب ثورتهم إلى مابلغهم من اعتزام سيف الدين طغريل والي صنعاء القبض عليهم، فتوجهوا إلى صنعاء سنة ٧٠٩ هـ/١٣٠٩م، وقاموا بمحاصرة واليها في قصر الإمارة، وطالبوه بالخروج إليهم لمواجهته بما هو منسوب إليه، فاضطر نتيجة استمرارهم في حصاره إلى الخروج إليهم فقتلوه [١] في جماعة من أتباعه [٢] في ربيع الآخر سنة ٧٠٩ هـ / ١٣٠٩ م [٣]. فلما علم المؤيد جرد إليهم حملة للقضاء على ثورتهم، ولكنهم التجأوا إلى حصن هران ـ من حصون منطقة ذمار ـ فتبعتهم قوات المؤيد حتى مزقته صفوفهم [٤]، واستمرت تطارد فلولهم بهدف استئصال شأفتهم. [٥]

وكان من الطبيعي أن يسعى الأكراد إلى محالفة الزيدية ـ أعداء بني رسول التقليديين ـ ليكونوا يدا واحدة على السلطان الرسولي، فقام زعماؤهم بمكاتبة الامام الزيدي محمد بن مطهر الذي لم يتردد في اغتنام الفرصة،

---

(١) الجندي : السلوك ص ٤٥٦ .

(٢) الخزرجي : العقود ج ١ ص ٣٨٦، العسجد ص ٣٦٢ .

(٣) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ١٠٤ أ .

(٤) الخزرجي : العسجد ص ٣٦٢، زبارة : أئمة اليمن ص ٢١٤ .

(٥) ابن عبد المجيد : نفس المصدر ص ١٠٤ ب .

فاستقدمهم ورحب بهم وضمهم إلى قواته ، وقويت بهم شوكته (١) ، وعاد الأمل يراوده في الاستيلاء على صنعاء ، ولكن حامية المدينة استطاعت الصمود حتى وصل السلطان المؤيد إليها بنفسه (٢) ، للقضاء على الأكراد والوقوف أمام مطامع الامام الذى كان قد تمكن من السيطرة على مدينة صعدة ، وأعاد الاضطرابات بذلك إلى منطقة الجبال الشمالية (٣) .

ولم تكن كل القوى الزيدية تقر تصرفات الإمام ، إذ لم يكد المؤيد يصل إلى صنعاء فى شهر شوال سنة ٧٠٩ هـ/مارس ١٣١٠ م ، حتى جاءه عدد من كبار الزيدية مجددين له الطاعة والولاء . وقام المؤيد بتجهيز حملة بقيادة ولده المظفر ضرغام الدين لمحاربة الامام ومن لاذ به من الأكراد ، فتمكن من الاستيلاء على بعض الحصون وأحرز انتصارا على الامام وأرغمه على الفرار عن معه(٤) والتحصن ببعض جبال المنطقة ، «وصاروا فى أشر حال خوفا من العسكر السلطانى (٥)» وتوالت الحملات على الحصون التابعة للامام ولم تترك حتى أذعنت بالطاعة للسلطان وقدمت الرهائن(٦) . أما الأكراد فقد اضطروا

---

(١) ابن عبد المجيد : نفس المصدر ص ١٠٤ ب ، الخزرجي : العقود ص ٣٨٧ ، العسجد ص ٣٠٣ .

(٢) ابن عبد المجيد : نفس المصدر ص ١٠٥ أ .

(٣) ابن الديبع : قرة العيون ص ٨٧ ب ، زبارة : أئمة اليمن ص ٢١٥ .

(٤) الخزرجى : العقود ج ١ ص ٣٨٨ ، العسجد ص ٣٦٣ .

(٥) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ١٠٥ ب .

(٦) ابن عبد المجيد نفس المصدر ص ١٠٦ أ ، الخزرجى : العقود ج ١ ص ٣٩٣ ، العسجد ص ٣٦٤ .

بعد أن ساءت أحوالهم إلى مكاتبة السلطان وطلب عفوه عنهم ، فاستجاب لهم وعادوا إلى الطاعة (١) في جمادى الآخرة سنة ٧١٠ ﻫ / أكتوبر ١٣١٠ م ، وقدموا له رهائن منهم (٢) .

أما الامام فقد ظل الأمل يراوده في الاستيلاء على الحصون الواقعة إلى الشمال من صنعاء ، ولم يكن من اليسير عليه تحقيق هذا الأمل دون مساعدة الأكراد له ، فظل يغريهم منذ عام ٧١١ ﻫ بالعودة للانضمام إليه والخروج عن طاعة المؤيد (٣) ، إلا أن السلطان بادر بإرسال حملة بقيادة إدريس عماد الدين لإحباط هذا الحلف ، ولكن الإمام تمكن من هزيمة إدريس وأسره في شعبان ٧١١ ﻫ (٤) / ديسمبر ١٣١١ م .

لم يبق ادريس في الأسر طويلا ، إذ تمكن بعد أيام من الخلاص (٥) ، وأعقب ذلك توصل طرفي النزاع إلى هدنة مدتها عام (٦) ، ولم تكد تنتهي المدة حتى بعث الامام رسله إلى السلطان ، وتم التوصل إلى صلح مدته عشر

---

(١) ابن الديبع : قرة العيون ص ٨٨ أ ، زبارة : أئمة اليمن ص ٢١٦ .

(٢) الخزرجي : العسجد ص ٣٦٥ .

(٣) ابن عبد المجيد : نفس المصدر ص ١٠٦ ب .

(٤) الخزرجي : العقود جـ١ ص ٢٩٧ ، زبارة : أئمة اليمن ص ٢١٦ .

(٥) الخزرجي : العسجد ص ٣١٦ .

(٦) ابن عبد المجيد : نفس المصدر ص ١٠٧ ب ، الخزرجي : العسجد ص ٢٦٢ .

سنوات [١] أخرى تبدأ من جمادى الآخرة ٧١٢ هـ [٢] أكتوبر ١٣١٢ م . فكان ذلك دافعا للأكراد على ترك خدمة الامام ، وعندئذ اتجهت نية السلطان المؤيد إلى القضاء عليهم ، والتخلص من خطرهم . ولكنه لم يلبث أن صفح عنهم نتيجة توسط بعض المقربين إليه [٣] ، غير أنهم أثاروا فتنة أخرى في ربيع الأول سنة ٧١٣ هـ/يوليه ١٣١٣م عندما أقدموا على قتل عدد من المماليك، ولكنهم ما أن علموا بقيام السلطان بإعداد حملة للقضاء عليهم ، حتى بادروا بإرسال بعض زعمائهم للاعتذار للسلطان عما بدر منهم ، فصفح السلطان عنهم بشرط ألا يعودوا إلى العصيان أو أثارة الشغب مرة أخري [٤] .

د - حركة الناصر بن الأشرف :

كان السلطان المؤيد قد عمل - منذ خلف أخاه الأشرف في عرش السلطنة - على تسوية الخلافات مع أبناء أخيه،وقربهم منه وأدناهم إليه وأكرم وفادتهم، وظل أبناء الأشرف مطيعين لعمهم المؤيد ، غير أنه حدث سنة ٧١٦هـ/١٣١٦م أن مرض السلطان المؤيد مرضا شديدا أشرف به على الموت ، فخشي الناصر جلال الدين محمد بن الأشرف أن يستولي أحد أبناء السلطان على السلطنة بعد وفاته ، ولهذا بادر - بتحريض من قاضي القضاء جمال الدين محمد بن أبي بكر

---

(١) ابن عبد المجيد : نفس المصدر ص ١٠٨ أ ، زبارة : أئمة اليمن ص ٢١٦ - ٢١٧ .

(٢) الخزرجي : العقود جـ ١ ص ٤٠١ .

(٣) ابن عبدالمجيد : نفس المصدروالصفحة، الخزرجي: العسجد ص ٢٦٨

(٤) زبارة : أئمة اليمن جـ ١ ص ٢١٧ .

البجيوى ـ بالكتابة إلى عـدد من المناطق يدعوهم إلى الانضمام إليه وتأييده في الاستيلاء على السلطنة، ولجأ إلى جبل سورق[١] قرب مدينة الجند وتحصن فيه. فلما علم السلطان المؤيد بهذه الثورة تجهز ـ رغم مرضه ـ وأسرع بالخروج على رأس حملة للقضاء على حركة الناصر، وظل محاصراً له حتى اضطره إلى طلب الأمان فأمنه السلطان وعفا عنه[٢]. أما قاضى القضاة فقد عزله السلطان[٣] واعتقله في حصن تعز عقابا له على تحريضه للناصر[٤].

وأيا ما كان شأن تلك الحركات العدائية التى واجهت السلطان المؤيد أثناء فترة حكمه، فإنه استطاع إحكام السيطرة على البـلاد، ولم يتوان فى القضاء على كل بادرة للخروج عن طاعته، وكانت قواته دائمـة الحركة، مما أدى إلى حصر حركات التمرد وسهولة مهمة القضاء عليها.

ويمكن القول بأنه على الرغم من الحركات الداخلية التى حدثت فى عهده،

---

(١) جبل سوزق، جبل خصين مطل على مدينة المهجم (ابن عبد المجيد: بهجة الزمن ص ١١٤ أ، الخزرجى: العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٣٧٨) وهو إلى الشرق منهـا، ويقع على خط عرض ٣٠ ر١٣° شمالا، وخط طول بين ٣٠ ر٤٠°، ٤٠ ر٤٣° شرقا (EL-Khazrejiyy : op. cit., p. 170, Note 1173).

(٢) الخزرجى: المسجد ص ٣٧٨.

(٣) الجندى: السلوك ص ٢٧١، الأهدل: تحفـــة الزمن ص ١٦٦ أ، الخزرجى: العقد الفاخر جـ ٢ ص ١٦٠ ب، العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٤١٨.

(٤) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن ص ١١٤ أ.

فقد نعمت البلاد خلال فترة حكمه - التي استمرت حوالي ست وعشرين عاما - بالهدوء والاستقرار النسبي الذي لم يتوفر بهـــذه الدرجة لأسلافه من قبله . وكانت وفاته يوم الثلاثاء مستهل ذى الحجة سنة ٧٢١ هـ[١] / ٢٢ ديسمبر سنة ١٣٢١ م .

ثالثا - سلطنة المجاهد واضطراب اليمن في عهده :-

لما توفى السلطان المؤيد أجمع أمراء الدولة وأعيانها وعسكرها على سلطنة ولده المجاهد علي[٢]، وكان يبلغ من العمر وقتئذ خمسة عشر عاما[٣]. وكانت أحوال بلاد اليمن قد اضطربت بعد وفاة المؤيد[٤]، وتنافس أمراء بنى رسول كل يريد الاستيلاء على عرش السلطنة ، فساءت بذلك أحوال المجاهد وتقلص ملكه ، كما تمرد الجند واستشرى عصيان القبائل، وزادت مطامع الزيدية ،فكان

---

(١) الجندى : السلوك ص ٤٥٦ ، ابن عبد المجيد: بهجة الزمن ص ١١٦ أ، ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات ج ١ ص ٢١٤ ، السبكى : طبقات الشافعية ج ٦ ص ١٠٣ ، الخزرجي : العقود اللؤلؤية ج١ ص ٤٤٠ ، العسجد ص ٣٨٠، المقريزى : السلوك ج ٢ ص ٢٣٤ ، العينى : عقد الجمان ، مجلد ٦١ ص ٣٥٢، ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ٣ ص ١٧٠ ، حوادث الدهور ص ٣٧٥ .

(٢) العينى : عقد الجمان مجلد ٦١ ص ٣٥٢، الجندى : السلوك ص ٤٥٧ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٨٨ ب، زبارة : أئمة اليمن ص ٢٢.

(٣) بامخرمة : تاريخ ثغر عدن ج ٢ ص ١٣٩ .

(٤) ابن شاكر الكتبي . فوات الوفيات ج ١ ص ٢١٥ ، ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة ج ٩ ص ٢٥٤ ، المنهل الصافى ج ٣ ص ١٧٠ ، حوادث الدهور ص ٣٧٥ .

ذلك سبباً لاستمرار الفوضى فى البلاد رغم المحاولات التى بذلها المجاهد وخلفاؤه إلى نهاية الدولة (١) .

وترجع أسباب تلك الاضطرابات إلى سوء سياسة السلطان المجاهد ، فقد قام بإقصاء أعوان أبيه وتقريب خاصته ، وبدأ بعزل نائب السلطنة وأتابك العسكر جمال الدين محمد بن يوسف بن يعقوب ، وفوضهما إلى شجاع الدين عمر بن يوسف بن منصور (٢) ، وعامل أمراء الأجناد معاملة سيئة نفرتهم منه وغيرتهم عليه . ولم ينته الأمر عند هذا الحد ، وإنما سجلوا عليه عدة مواقف جعلتهم يخشون على أنفسهم منه ، فقد قام فى صفر سنة ٧٢٢ هـ (٣) / فبراير ١٣٢٢ م باعتقال ابن عمه الملك الناصر جلال الدين محمد بن الأشرف (٤) وكان ذلك بإيعاز من نائب سلطنته شجاع الدين عمر بن يوسف (٥) ، اشائعة تتعلق باعتزامه الخلاف عليه سيما وقد سبق أن عصى المؤيد سنة ٧١٦ هـ / ١٣١٦ م . كما كان لتصرف المجاهد بمنع وصول جثمان أبيه إليه فى حصن تعز (٦) أثره .

---

(١) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر جـ ٤ ص ٩٤ — ٩٥ .

(٢) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ١١٦ ب ، الخزرجى العقود جـ ٢ ص ١ ، العسجد ص ٢٨٥ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٨٩ أ ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ ٢ ص ١٢٩ .

(٣) الجندى : السلوك ص ٤٥٧ .

(٤) الخزرجى : العقود جـ ٢ ص ١ ، ابن الديبع . قرة العيون ص ٨٩ أ .

(٥) الخزرجى : العسجد ص ٣٨٧ .

(٦) بامخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ ص ١٢٩ .

في إثارة مشاعر السخط عليه . ومن الأمور التي أغضبت الجند، أن العادة السلطانية جرت على أن يقوم السلطان - عند كل زيارة لحصن الدملوة - بالإنعام على كافة العسكر والمرتبين فيه، ولكن المجاهد أبطل هذه العادة، وأمسك يده ولم ينعم على أحد منهم عند زيارته لهذا الحصن(١). وفيما يلي عرض لأهم أحداث عصره .

١ - الصراع على العرش بين المجاهد وبين الظاهر ونتائجه :-

كان المجاهد تنقصه الحنكة السياسية والقدرة على إدارة شئون البلاد، وكان يفتقر إلى الخبرة، مما جعله أسير حاشيته ومنفذا لما يشيرون به عليه . فكان لكل ذلك أثره السيء على نفوس العسكر وأمرائهم الذين أيقنوا أنه لن يستقيم لهم أمر معه، ولهذا قرروا الخلاف عليه والخروج عن طاعته(٢). وبدأت ثورتهم بقتل نائب السلطنة ومن كان معه كقاضي القضاة وغيرهما من كبار أعوان المجاهد(٣). واتبعوا ذلك بالقبض على المجاهد نفسه(٤) في الثامن من جمادى الآخرة سنة ٧٢٢هـ(٥) / ٢٤ يونيـــة ١٣٢٢م وعزلوه عن السلطنة وأقاموا عمه المنصور أيوب بن المظفر سلطانا على اليمن(٦)، وسلموا

---

(١) الخزرجي : العسجد ص ٢٨٧ .

(٢) الخزرجي : العسجد ص ٢٨٧ .

(٣) الخزرجي : نفس المصدر والصفحة .

(٤) الخزرجي : العقود جـ٢ ص٣ - ٤ ، ابن الديبع : قرة العيون ص٨٩/أ .

(٥) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ١١٠ أ ، ابن شاكر : فوات الوفيات جـ ١ ص ٢١٥ ، المقريزي : السلوك جـ ٢ ص ٢٣٨ .

(٦) الجندي : السلوك ص ٤٤٧ ، العيني : عقد الجمان مجلد ٦١ ص٣٥٢ .

إليه المجاهد فسجنه في حصن تعز (١) . وحلفت العساكر للمنصور أيوب ، فأنفق فيهم الأموال الكثيرة وأغدقها عليهم وعلى غيرهم من العامة ، حتى بلغ مقدار ما أنفقه خلال فترة سلطنته القصيرة سبعمائة ألف دينار غير التشاريف والإنعامات الكثيرة (٢) من الملابس والخيول وغيرها ،(٣) فحظى بحب الجميع وتأييدهم . كذلك كاتبه الأشراف الزيدية وهنأوه بالسلطنة وبذلوا له الطاعة (٤). وكان من أولى أعماله إطلاق سراح ابن أخيه الناصر جلال الدين محمد بن الأشرف ، وكان المجاهد قد سجنه في عدن (٥) ، فأقطعه المنصور مدينة القحمة (٦) .

وعلى الرغم من أن المنصور أيوب اختص أعوانه بالمناصب والإقطاعات ، وكسب قلوب الجند بالهبات والعطايا ، فإنه لم يحترز أتباع المجاهد ، بل أبقاهم

---

(١) الجندى : نفس المصدر والصفحة ، الخزرجي : العسجد ص ٢٨١ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٨٩ أ .

(٢) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ١١٧ أ ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن ج ٢ ص ١٤٠ .

(٣) الخزرجي : العقود ج ٢ ص ٤ – ٥ العسجد ص ٢٨٨ .

(٤) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ١١٧ أ .

(٥) الخزرجي : العقود ج ٢ ص ٣ ، العسجد ص ٢٨٧ ، زبارة : أئمة اليمن ج ١ ص ٢٢٢ .

(٦) الخزرجي : العقود ص ج٢ص٤ ، العسجد ص٢٨٨، ابن الديبع : قرة العيون ص ٨٩ أ – ب .

فى خ‍دمته ، فكانت سرايام تسرى فى الجند[١]، مما أتاح الفرصة لبعض غلمان المجاهد لتنفيذ خطة والدته بتسلق حصن تعز ليلا وذلك بالتآمر مــع عبيد الشرابخاناه والطشتخاناه ، الذين أدلوا إليهم الحبال، بحيث تمكن أربعون منهم من تسلق الحصن ليلة السادس من رمضان سنة ٧٢٢هـ[٢]/١٨سبتمبر١٣٢٢م، وفاجأوا المنصور أيوب على حين غرة واعتقلوه وأطلقوا سراح السلطان المجاهد[٣] . وفشلت جميع المحاولات التى بذلت لنصرة المنصور أيوب[٤] . وتعهد المجاهد بتأمين مماليك أبيه وكتب لهم العهود والذمم بحضور القاضى والشهود وأعيان الدولة[٥] .

وإذا كان المجاهد قد نجح فى استرجاع السلطنة ، إلا أن الأمور لم تصف له ، وواجهته عقبات كثيرة منها ، أن الظاهر أسد الدين عبد الله بن المنصور أيوب كان قد استقر فى حصن الدملوة[٦] وتحصن فيه منذ أيام أبيه المنصور

(١) ابن عبد المجيد : نفس المصدر ص ١١٧ ب .

(٢) ابن عبد المجيد : نفس المصدر والصفحة،الخزرجى : العقود جـ ٢ ص ٤ ـ ٥ ، العسجد ص ٣٨٨ .

(٣) الجندى : السلوك ص ٤٥٧ العينى : عقد الجمان مجلد ٢٢ ص ٢٩٢ ، زبارة : أئمة اليمن جـ ١ ص٢٢٣ .

Playfair : A Hi tory of Arabia Felix. Bombay 1859, p. 90.

(٤) الخزرجى : العقود جـ ٢ ص ٥ ـ ٦ ، العسجد ص ٣٨٩ .

(٥) ابن‌عبد المجيد : نفس المصدرص ١١٨ أ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٨٩ ب .

(٦) الخزرجى: العقود جـ ٢ ص٤ ، العسجد ص٣٨٨ ابن الديبع : نفس المصدر والصفحة :

أيوب، فلما استرد المجاهد عرشه واعتقل عمه المنصور أيوب، طلب منه مكاتبة ابنه الظاهر عبد الله لتسليم حصن الدملوة، ولكن الظاهر امتنع[١] رغم تهديد المجاهد بقتل أبيه[٢].

وهكذا بدأ دور جديد من أدوار الصراع الرهيب بين السلطان المجاهد وبين ابن عمه الظاهر وشرع المجاهد فى تجهيز حملة بهدف الاستيلاء على حصن الدملوة والقضاء على عصيان الظاهر، ولكن هذه الحملة أرغمت على الانسحاب لمناعة الحصن وصعوبة السيطرة عليه. ومن ناحية أخرى كان للصراع على السلطنة أثره فى اضطراب أحوال كثير من المناطق. ويصف ابن عبد المجيد الأحوال بمخلاف جعفر وما قام به رؤساء القبائل وأتباعهم من أعمال بقوله: «وملكوا أملاك الملوك، ونهبوا (مدينة) جبلة وأخذوا جميع مابها حتى حصر الجامع، واستفضوا الأبكار عند المنبر»[٣].

واتسعت دائرة الخلاف، وحدثت أمور لم يسبق حدوثها من قبل، ففى سنة ٧٢٣ هـ/ ١٣٢٣م انضم كثير من الجند إلى الظاهر بن المنصور أيوب، فأغدق عليهم الاموال وأكرمهم، وأعدهم لمقاتلة سلطانهم المجاهد بن المؤيد[٤] وتمكن الظاهر بمساعدة هذه القوات من الاستيلاء على مدينة الجند فى ربيع

---

(١) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن ص ١١٨ أ، الخزرجى: العقود جـ ٢ ص ٦، العسجدص ٣٩٠، ابن الديبع: ص ٩٠.

(٢) العينى: عقد الجمان مجلد ٦٢ ص ٣٩٢.

(٣) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن ص ١١٨ ب.

(٤) ابن عبد المجيد: نفس المصدر والصفحة.

الأول سنة ٧٢٢ هـ [١] / مارس ١٣٢٣ م. ثم وجههم الظاهر إلى تعز عاصمة دولة بنى رسول ومقر حكم السلطان المجاهد ، وفشلت محاولة المجاهد فى التصدى لهذه الحملة . ويذكر المؤرخ اليمنى تاج الدين عبد الباقى بن عبد المجيد ، أنه لم يكد الجيشان يشتبكان حتى نكس أتباع المجاهد رماحهم « ونادوا ياظاهرية » وانتظم العسكر بكماله ظاهريا » [٢] . ودخلت هذه القوات إلى مدينة تعـــز دخولا معظما ، وحاصرت السلطان المجاهد فى قلعتها ، وأصبحت نهاية المجاهـد متوقفة على سقوط القلعة . ولكن المجاهد استطاع بوسائله الخاصة أن يضمن ولاء بعض المحاصرين للقلعة ، والاتفاق معهم على تسهيل قيام حاميـة القلعة بمفاجأة القوات المحاصرة ، ونجحت الخطة واستطاعت الحـامية أسر عـدد من أمراء المماليك [٣] ، مما أدى إلى اضطراب القــوات المحاصرة ، وانفكاك الحصار وعـودة القوات إلى الظاهر [٤] . فتخلص المجـاهد وعاصمته تعـز من خطر محقـــق .

وعلى الرغم من إخفاق الظاهر فى الاستيلاء على قلعة تعز ، وفشل قـواته

---

(١) الجندى : السلوك ص ٤٥٨ .

(٢) ابن عبد المجيد : نفس المصدر ص١١٩ أ .

(٣) ابن عبد المجيد : نفس المصدر والصفحة ، الجندى: السلوك ص٢٤٢، الأهدل : تحفة الزمن ص ١٥٢ ب .

(٤) ابن عبد المجيد : نفس المصدر ص١١٩ب ، الجندى : السلوك ص٤٥٨ الخزرجى : العقود جـ ٢ ص ١٢، العسجد ص ٢٩٣ .

فى الاحتفاظ بالمدينة ، إلا أنه لم يتردد بعد عودة قـواته إليه فى إعادة تنظيمها حيث تمكنت من الاستيلاء على مدينة زبيد وذلك فى أول رجب سنة ٧٢٣ هـ[١] / ٦ يوليه ١٣٢٣ م ، واستباحت بيوت أعوان المجاهد ، وسلبت ما فيها من أموال الناس[٢] وأصبحت الخطبة فى تهامة للظاهر ، وضربت السكة باسمه[٣] .

أما المجاهد ، فقد واصل محاولاته المستميتة للصمود أمام هـذا الطوفان الجارف ، فأرسل حملة فى شهـــر رجب سنة ٧٢٣ هـ[٤] / يولية ١٣٢٣ م لاسترداد مدينة زبيد[٥] ، ولكن قوات الظاهر المسيطرة عليها تصدت لهـا وتمكنت من هزيمتها ، ووقع قائدها أسيرا ، بين قتل عدد كبير من أفرادها[٦] . ونشط الموالون للظاهر ، فتمكن والى لحج من الاستيلاء على مدينة عدن[٧] . وأخرجها عن سيطرة المجاهد وذلك فى شعبان ٧٢٣ هـ[٨] / أغسطس ١٣٢٣ م . وهكذا فشلت محاولات المجاهد ، وتحرج موقفه « واستقرت المملكة كلها

---

(١) ابن عبد المجيد : نفس المصدر ص ١٢٠ أ .

(٢) العينى : عقد الجمان مجلد ٦٢ ص ٣٩٣ .

(٣) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ١٢٠ أ .

(٤) الخزرجى : العقود حـ ٢ ص ١٣ ، العسجد ص ٣٩٦ .

(٥) ابن عبد المجيد : نفس المصدر والصفحة ، العينى : عقد الجمان ، مجلد ٦٢ ص ٣٩٣ ، Playfair : A History of Arabia Felix, p. 91 .

(٦) الجندى : السلوك ص ٤٦٠ ، العينى : عقد الجمان ، نفس المصدر والصفحة

(٧) العينى : نفس المصدر ص ٣٩٤ ، بامخرمة : تاريخ ثغر عـــدن حـ ٢ ص ١٤٠ .

(٨) الجندى : السلوك ص ٤٦٠ ، ٤٧٠ ، ٤٧٣ ، الخزرجى : العقـود حـ ٢ ص ١٣ ، العسجد ص ٣٩٦ .

ظاهرية ...ولم يبق مع السلطان الملك المجاهد غير حصن تعز » (١).

وعزم الظاهر على استكمال السيطرة على البلاد ، والاجهاز على المجاهد والاستيلاء على عرش السلطنة والاستحواذ عليها لنفسه ، ولذلك أرسل فى شهر ربيع الأول ٧٢٤ هـ / مارس ١٣٢٤ م حملة إلى تعز لمحاصرة حصن المدينة وقطع المياه عنه ، وتم حصار الحصن وضربه بالمنجنيقات ، حتى بلغت كمية الأحجار التى ألقيت عليه أربعة آلاف حجر » وخربت تعز خرابا لا يتدارك وخلت أكثر بيوتها » (٢) ولم يجد المجاهد سبيلا إلى الخلاص. فالجأ الاستنجاد بكافة القوى ، واستخدام المال لاستمالة القوى الداخلية . فاستجاب له الزيدية وأكراد ذمار وأشراف المخلاف السليمانى ـ شمالى تهامة ـ بالاضافة إلى بعض القبائل ، وتوافدت عليه نجداتهم . وعندما حاول الظاهر عرقلة هذه النجدات اضطر إلى مصادمتها فى معركة عنيفة فى وادى جاحف ـ بالقرب من مدينة الكدراء ـ أسفرت عن هزيمته (٣) وركنت قواته إلى الفرار فى العشرين من ذى الحجة سنة ٧٢٤ هـ (٤) / ٨ ديسمبر ١٣٢٤ م ولاذت بمدينة زبيد. وهكذا كانت هزيمة الظاهر فى وادى جاحف بداية لاستعادة المجاهد لقوته (٥)

---

(١) ابن عبد المجيد : نفس المصدر ص ١٢ ب .

(٢) ابن عبد المجيد : ص ١٢١ ، الجندى : السلوك ص ٢٧٦ .

(٣) الخزرجى : العقود حـ ٢ ص ٢٢ ، زبارة : أئمة اليمن ص ٢٢٤.

(٤) ابن الديبع : قرة العيون ص ٩١ أ .

(٥) ابن شاكر : فوات الوفيات حـ ١ ص ٢١٥ .

Playfair : op. - cit. p. 91 .

ورجحان كفته ، خاصة بعد نشوب الخلاف بين قوات الظاهر فى زبيد وتبرم أهل المدينة منهم وإرغامهم على الخروج منها فى ربيع الأول سنة ٧٢٥ هـ [١]/ فبراير ١٣٢٥ م.

وكان من الطبيعى أن تستغل جماعة من المنتفعين الانتهازيين فرصة هـذا الصراع المرير ، الدائر بين المجـاهد وابن عمه الظاهر عبد الله على السلطنة ، فيخادعون الجـانبين ويستولون على جاميكة من كل منهما [٢] ولهذا كان من مصلحتهم استمرار هذا النزاع ليتحقق لهم من ورائه مكاسب عديدة ، ولكن ما أن بحج المجاهد فى استعادة نفوذه ، حتى بدأت القوى المؤيدة للظاهر تسعى إلى تحقيق مكاسب شخصية ، مستغلة الصراع القائم لمصلحتها ، ومن أمثلة ذلك أن والى لحج ـ وهو ابن الدويدار ـ قد توجه بما تجمع لديه من قوات الظاهر التى أرغمت على التخلى عن مدينة زبيد ، إلى مدينة عدن ممنيا نفسه بالاستيلاء عليها . فلما وصلها تظاهر له واليها بالطاعة ، وأقنعه بعدم دخول المدينة بكل جيشه حتى لا تتعرض للنهب ، والاكتفاء باستصحاب عدد من خاصته ، ولكنه ما كاد يدخل المدينة حتى غدر به والى عدن وقتله فى ربيع الأول سنة ٧٢٥ هـ/ فبراير ١٣٢٥ م ، مما أدى إلى تشتت القوات التى كانت تنتظره خارج المدينه [٣].

---

(١) الخزرجى : العقود حـ ٢ ص ٢٦ ـ ٢٧ ، العسجد ص ٤٠١ ـ ٤٠٢ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٩١ ب .

(٢) الجندى : السلوك ص ٤٧١ ، الخزرجى : العقود حـ ٢ ص ١٣ ـ ١٤ ، العسجد ص ٣٩٦ .

(٣) الخزرجى : العقـــود حـ ٢ ص ٢٥ ـ ٢٦ ، العسجد ص ٤٠١ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٩١ أ ، زبارة : أئمة اليمن حـ ١ ص ٢٢٥ .

وهكذا خضعت كل من عدن وزبيد للمجاهد بغير كبير عناء، وخطب له فيها، وأبطلت الخطبة للملك الظاهر من منابر تهامة [1] . وأخذت الجموع فى التوجه إلى طاعة السلطان المجاهد مما شجعه على زيارة المناطق التى أعلنت خضوعها له، بقصد تفقد أحوالها والعمل على إصلاح أوضاعها . واقرار الأمور فيها [2] وكان مجرد طواف السلطان المجاهد سببا فى تفكك القوى المعادية له [3] ، ولم يبق أمام البقية الباقية من اتباع الظاهر من أمل سوى اللجوء إلى الناصر ابن الأشرف والزامه بالقيام بالملك [4] ، ولكن هذه المحاولة فشلت نتيجة لتمكن المجاهد من اعتقال الناصر وسجنه، نظل حبيسا إلى أن مات فى شهر رجب سنة ٧٢٥ هـ [5] / يونية ١٣٢٥ م .

كان السلطان المجاهد قد أرسل إلى السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون ـ عندما تحرج موقفه وعجز عن مقاومة منافسه الظاهر ـ لانجاده بقوة عسكرية للقضاء على منافسة ابن عمه له، واقرار الأوضاع الداخلية فى اليمن، مقابل الولاء لمصر وذكر اسم السلطان الناصر فى الخطبة على منابر اليمن . وتكررت

---

(١) الخزرجى : العقود حـ ١ ص ٢٨ ، العسجد ص ٤٠٣ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٩١ ب .

(٢) الخزرجى : العقود حـ ٢ ص ٢٩ ــ ٣٠ ، العسجد ص ٤٠٤ ــ ٤٠٥ .

(٣) الخزرجى : العقود حـ ٢ ص ٣٠ ، العسجد ص ٤٠٥ .

(٤) الخزرجى : العقـــود حـ ٢ ص ٢٨ ، العسجد ص ٤٠٤ ابن الديبع : نفس المصدر ص ٩٢ أ ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن حـ ٢ ص ١٤٢ .

(٥) الخزرجى : العقود حـ ٢ ص ٣١ ، العسجد ص ٤٠٥ .

مطالبة المجاهد للنجدة إلى أن استجاب له السلطان المملوكي وأرسل الحملة المطلوبة (١) . ولكنها وصلت بعد النجاح النسبي الذى أحرزه المجاهد ضد خصمه الظاهر . وكان لكبر حجم الحملة وعظم ما زودت به من آلات أعظم الأثر فى تخوف السلطان المجاهد من إقدامها على السيطرة على اليمن ، وقد انعكس هذا التخوف على موقف المجاهد من الحملة من حيث إساءته معاملة قادتها وتعمده منع إمداد الحملة باحتياجاتها الغذائية الضرورية ، ووضعه للعراقيل أمامها وعدم الإفادة منها ، فى القضاء على الاضطرابات الداخلية ، مما خلق جوا من التوتر وعدم الثقة دعا قادة الحملة إلى الاستجابة لطلب المجاهد بالعودة إلى مصر بحجة أنه لم يعد فى حاجة إلى مساعدة تلك القوات الكبيرة ، فغادرت الحملة البلاد فى شعبان ٧٢٥ هـ (٢) / يولية ١٣٢٥ م .

ما أن اطمأن المجاهد إلى خروج القوات المصرية ، حتى بدأ جولة تفقدية لبعض المناطق ، وكأن الأمور قد استقامت له نهائيا ، فزار مدينة الجند ثم توجه إلى لحج ومنها قصد عدن (٣) ، ولكنه لم يستطع دخولها لمقاومة حاميتها

(١) عن تفصيلات هذه الحملة ، انظر الفصل الرابع ، وأبو الفدا : المختصر حـ ٤ ص ٩٧ ، النويرى : نهاية الأرب حـ ١ ق ١ ص ٥٨ - ٦٠ ، المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٢٦٥ - ٢٦٨ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة حـ ٩ ص ٨٤ ، العينى : عقد الجمان مجلد ٢٠ ق ٦ ص ٤٢ ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ ٢ ص ١٤٢ وما بعدها ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٩٢ - ٩٣ أ .

(٢) الخزرجى : العقود جـ ٢ ص ٣٣ ، العسجد ص ٤٠٨ - ٤٠٩ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٩٢ ب - ٩٣ أ .

(٣) الخزرجى : العقود جـ ٢ ص ٣٤ ، العسجد ص ٤٠٩ - ٤١٠ ، العقد الفاخر الحسن حـ ٢ ص ٣٠١ أ ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن حـ ٢ ص ١٤٣ .

له وخروجها عن طاعته وموالاتها للظاهر ، فاضطر إلى أن يعرج على زبيد[1]، فوصلها فى رمضان سنة ٧٢٥ هـ / أغسطس ١٣٢٥ م . وفى نفس الوقت توجه الظاهر إلى عدن ودخلها[2] . ثم شغل المجاهد بتنظيم شئون المناطق الموالية له استعدادا لجولة أخرى ضد الظاهر ، فولى عليها المقربين له من ثقاته[3] . فلما تم له ذلك خرج على رأس حملة إلى عدن ، واشتبك مع قوات الظاهر فى عدة مواقع ، فى شهر صفر ٧٢٦ هـ / يناير ١٣٢٦ م ، فخالفه النصر فى بعضها ، ولكنه اضطر إلى الانسحاب عندما بلغه أن الامام الزيدى محمد بن مطهر فى طريقه لمناصرة الملك الظاهر[4] . وظل السلطان المجاهد يتحين الفرصة للتخلص من خطر الظاهر ، مع تجنب الصراع مع الامام الزيدى ، ثم واتته الفرصة التى كان يترقبها ، عندما غادر الامام عدن فى طريقه إلى بلاده ، فأسرع السلطان المجاهد لمحاربة الظاهر الذى لجأ إلى حصن السمدان[5] .

وبالتجاء الظاهر إلى حصن السمدان ركز السلطان المجاهد جهوده للاستيلاء

---

(١) زبارة : أئمة اليمن ص ٢٢٦ .

(٢) الخزرجى : العسجد ص ٤١٠ – ٤١١ ، زبارة : أئمة اليمن حـ ١ ص ٢٢٦ .

(٣) الخزرجى : العقود حـ ٢ ص ٣٦ ، العسجد ص ٤١١ .

(٤) الخزرجى : العقود حـ ٢ ص ٤٠–٤١ ، العسجد ص ٤١٢ ، ابن الديبع نفس المصدر ٩٣ أ ، زبارة : أئمة اليمن حـ ١ ص ٢٢٦ .

(٥) الخزرجى : العسجد ص ٤١٣ ، العقد الفاخر جـ ٢ ص ٣٩ أ ، بامخرمة تاريخ ثغر عدن حـ ٢ ص ١٤٤ .

من حصن الدملوة وذلك بهدف قطع خط الرجعة على الظاهر ، وفى نفس الوقت عمل المجاهد على استمالة حامية الحصن ، ونجح فى ذلك ، وتمكن من الاستيلاء عليه فى صفر سنة ٧٢٨ هـ / ديسمبر ١٣٢٧ م مقابل مبلغ ستة آلاف دينار (١). وكانت والدة الظاهر وأخته فى الحصن فنقلها المجاهد إلى مقر الامارة فى حصن تعز وتحفظ عليها ، وفت وقوعها - فى يد المجاهد - فى عضد الظاهر ، ونقد القدرة على التصرف السليم ، فعندما أبدت بعض القبائل استعدادها للاستيلاء على حصن الدملوة وإعادته للظاهر ، رفض مدهم بالمال أو الرجال وجنح إلى المسالمة (٢).

وكان المجاهد قد سير قوة فى رمضان سنة ٧٢٧ هـ / يولية ١٣٢٧ م لمحاصرة عدن ، وتمكنت هذه القوة من الاستيلاء عليها فى صفر سنة ٧٢٨ (٣) / ديسمبر ١٣٢٧ م . وهو نفس الشهر الذى استولى فيه على حصن الدملوة . وصفوة القول أن المجاهد تمكن من التخلص من منافسات أمراء البيت الرسولى بعد أن عقد الصلح مع الظاهر فى المحرم سنة ٧٣٠ هـ (٤) / أكتوبر ١٣٢٩ م .

---

(١) الخزرجى : العقود جـ٢ ص٤٧ ، العسجد ص٤١٤-٤١٥ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٩٣ ب ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ ٢ ص ١٤٥ .

(٢) الخزرجى : العقود جـ ٢ ص ٥٢ ، العسجد ص ٤٢ .

(٣) الخزرجى : العقود جـ ٢ ص ٤٤ و ٤٨ ، العسجد ص ٤١٥ - ٤١٦ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٩٤ أ .

(٤) الخزرجى : العقود جـ ٢ ص ٥٥ ، العسجد ص ٤٢٣ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٩٥ أ .

وإذا كان الظاهر قد استمر مقيما فى حصن السمدان كالمحصور (١) ، فإن انفضاض أتباعه من حوله (٢) جعله يستغيث بقاضي القضاة جمال الدين محمد ابن مؤمن ليتوسط له فى طلب الأمان من السلطان المجاهد ، واستجاب المجاهد له وعفى عنه وعن أهله وحاشيته عفوا شاملا ، فنزل الظاهر بناء على ذلك من حصن السمدان فى شهر المحرم سنة ٧٣٤ هـ/سبتمبر ١٣٣٣م برفقة قاضى القضاة ابن مؤمن ، ولكنه ما كاد يمثل أمام المجاهد حتى أمر باعتقاله وسجنه فى حصن تعز حيث توفى فى ربيع الآخر ٧٣٤ هـ (٣) / ديسمبر ١٣٣٣ م . وقيل أنه مات مخنوقا بتدبير المجاهد (٤) .

٢ ـ أساليب المجاهد الانتقامية مع خصومه ونتائجها :

والحقيقة أن الظروف السيئة التى مر بها السلطان المجاهد كان لها أعظم الأثر فى غرس بذور الشك فى نفسه ، واستغل المقربون إليه ذلك للايقاع بالكثيرين ، فكان سريع الاستجابه للوشايات ، يأخذ بالظنة ولا ينتظر حتى يتوصل إلى الحقيقة (٧) . وكان بحكم التجارب المريرة التى تعرض لها دنيفا

---

(١) الخزرجى : العسجد ص ٤٢٨ .

(٢) ابن الديبع : قرة العيون ص ٩٥ب ، زبارة: أئمة اليمن ج ص٢٤٤ .

( ) الخزرجى : العقود جـ ٢ ص ٩١ ، العسجد ص ٤٢٨ ـ ٤٢٩ ، العقد الفاخر جـ ٢ ص ٣٩ ب ، بامخرمة : جـ ٢ ص ١٤٦ ـ ١٤٧ .

(٤) المقريزى ، السلوك جـ ٢ ص ٣٧٦ ، ابن تغرى بردى : النجوم جـ ٩ ص ٣٠٢ ، المنهل الصافى جـ ٣ ص ٤٢٠ .

(٥) الخزرجى : العقود جـ ٢ ص ٢٦ و ٤٢ و ٥٥ و ٥٦ و ٥٧ و ٥٨ و ٦٢ و ٦٤ ، العسجد ص ٤١١ و ٤ ٢ و ٤٢٣ و ٤٢٥ و ٤٢٦ و ٤٢٩ و ٤٣٢ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٩٥ ب و ٩٦ أ .

فى انتقامه خاصة مع هؤلاء الذين ناصروا خصومه ، ولهذا كان إذا ظفر بهم تفنن فى التنكيل بهم كحلا وقتلا وشنقا وتغريقا ، مع حرق دورهم وتخريب قراهم واقتلاع زروعهم (١) ، ونادرا ما كان يعفو عن بعضهم أو يؤمنهم ولكن إلى حين (٢) . واستخدم تلك الأساليب الانتقامية مع كل من وقع فى يده من أتباع الظاهر (٣) ، وكذلك كانت معاملته لقبائل المعازبة الذين انتهزوا فرصة الصراع على السلطنة وخرجوا عن طاعته وتكرر تمردهم ولم يكتف بتخريب مساكنهم وإحراقها وقتل الكثيرين منهم (٤) واستباحة ديارهم ، بل بالغ فى إذلالهم بأن ولى عليهم امرأة منهم يقال لها إبنة عاطف (٥) فكان لذلك الأثر فى استنزالهم .

---

(١) الخزرجى : العقود حـ ٢ ص ٣٦ و ٤٢ و ٤٨ و ٥٠ و ٥٥ و ٦٩ ، المسجد ص ٤١٠ - ٤١١ و ٤١٣ و ٤٢٠ و ٤٢٤ و٤٢٦ و٤٣٤ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٩٢ ب و ٩٤ أ و ٩٥ أ و ٩٦ ب ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن ص١٤٥ .

(٢) الخزرجى : العقود حـ ٢ ص ٥٠ و ٥٩ ، العسجد ص ٤١٩ و ٤٢٨ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٩٤ أ ، ٩٥ ب .

(٣) الخزرجى : العقود حـ ٢ ص ٤٨ ، العسجد ص ٣١٦ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٩٤ أ .

(٤) الخزرجى : العقود حـ ٢ ص ٣٥ ، العسجد ص ٤١٠-٤١١ ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن حـ ٢ ص ١٤٣ .

(٥) الخزرجى : العقد الفاخر الحسن حـ ٢ ص ٣٩ أ و ٤٠ ب ، زبارة : أئمة اليمن حـ ١ ص ٢٤٥ .

وكيفما كان الأمر فإن حملات المجاهد لاستكمال استرجاع بقية اليمن لم تتوقف بعد أن تخلص من خصمه الظاهر واستذل العصاه والمتمردين، ونجح في السيطرة على كثير من البلاد وأذعنت له القبائل وعاد المخالفون فيها إلى الطاعة طوعا أو كرها [1] تجنبا لانتقامه .

وبعودة الاستقرار النسبي إلى بلاد اليمن عزم السلطان المجاهد على أداء فريضة الحج ، وكانت العلاقات بينه وبين أشراف مكة حسنة[2] ، بدليل أن الشريف ثقبة ابن أمير مكة رميثة بن أبي نمى قدم إليه باليمن ليكون في معيته إلى مكة [3] وخرج المجاهد من تعز في شوال سنة ٧٤٢ هـ / مارس ١٣٤٢ ومعه عدد كبير من قواته[4] ومر في طريقه على كثير من المناطق اليمنية لتفقد أحوالها . واستقبله رميثة وأكابر أهل مكة عند مشارف الحجاز ، فأحسن المجاهد لقاءهم وأكرمهم وأجزل لهم العطاء[5] وكان وصوله إلى مكة في الثاني

---

(١) الخزرجي : العقود حـ ٢ ص ٦٠ و ٦٥ و ٦٧ و ٨١ ، العسجد ص ٤٢٨ و ٤٣٢ و ٤٤٢ والعقد الفاخر جـ ٢ ص ٣٩ ب ، ٤٠ ب ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٩٥ ب ، ٩٦ ب، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن حـ ٢ ص ١٤٦ ، ١٤٧ ، زبارة : أئمة اليمن حـ ١ ص ٢٤٦ .

(٢) الخزرجي : العقد الفاخر حـ ٢ ص ٤٠ ب ، بامخرمة : نفس المصدر والجزء ص ١٤٧ .

(٣) الخزرجي : العسجد ص ٤٣٤ .

(٤) الخزرجي : العقد الفاخر حـ ٢ ص ٤٠ ب ، العقود حـ ٢ ص ٦٩ — ٧٠ .

(٥) بامخرمة : نفس المصدر والصفحة .

من ذي الحجة (١) ، وخلع على أميرى الركب المصرى والشامى وأكرمهم (٢) .
ثم غادر مكة عائداً إلى اليمن بعد أن أدى فريضة الحج فى الثامن عشر من ذى الحجة سنة ٧٤٢ (٣) / ٢٥ مايو سنة ١٣٤٢ م ، فاستقبل فى طريق عودته استقبالا حافلا فى جميع المواضع اليمنية التى مر بها ، وكان وصوله إلى زبيد فى الثالث من صفر سنة ٧٤٣ هـ (٤) / ٨ يولية ١٣٤٢ م ، ومنها توجه إلى تعز ، وأنعم على كافة عسكره « بشيء كثير من الذهب والفضة وأعطاهم من الكساوى والخلع على قدر مراتبهم » (٥) .

أما عن الأمثلة الدالة على أساليبه الانتقامية مع خصومه: ما كان من نزاعه مع ابنه المؤيد ، فكان المجاهد قد أقطعه مدينة الجثة. (٦) ولكن المؤيد كان يطمع فى عرش السلطنة لنفسه ، فلم يلبث أن شق عصا الطاعة على أبيه احتجاجا عليه لتقديم أخيه الأصغر المظفر بن المجاهد عليه (٧) ولهذا استولى على مدينة المهجم

---

(١) الخزرجى : العقود حـ ٢ ص ٧٠ – ٧١ ، العسجد ص ٤٣٥ .

(٢) الخزرجى : العسجد ص ٤٣٦ .

(٣) الخزرجى : العقود حـ ٢ ص ٧١ – ٧٢ .

(٤) الخزرجى : العسجد ص ٤٣٧ – ٤٣٨ ، العقد الفاخر حـ ٢ ص ٤٠ ب .

(٥) الخزرجى : العقود حـ ٢ ص ٧٣ – ٧٤ العسجد ص ٤٣٩ .

(٦) الجثة ، مدينة معروفة بين الكدراء والمهجم (العقد الفاخر حـ ٢ ص ١٥٠ ، أ) وتقع على خط عرض ٢ر١٥° شمالا ، وخط طول ٢٣ر٤٣° شرقا على وجه التقريب . (EL-Khazrejiy . op. cit, vol. III, 3, Note 1129).

(٧) الخزرجى العقود حـ ٢ ص ٧٧ ، العسجد ص ٤٤٠ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٩٦ ب .

فى رمضان سنة ٧٤٤هـ/ يناير ١٣٤٤م . فلما علم المجاهد أرسل حملة بقيادة موفق الدين عبد الله بن على اليحيوى وزيره وقاضى قضاته ، ثم أردفه بحملة أخرى [١] ، وسعى قائدا الحملتين على أخذ المؤيد بالابن وعدم الاشتراك فى حرب معه ، وراسلاه وأقنعاه بالعودة إلى طاعة أبيه مع ضمان تأمينه [٢] ، وتوجها به فى آخر المحرم سنة ٧٤٥هـ/ يونية ١٣٤٤م إلى تعز ، ولكن أباه عاتبه وضربه ضربا مبرحا وحبسه ، فلم يلبث إلا قليلا ومات فى سجنه [٣].

وبالرغم من الأساليب الانتقامية التى كان يلجأ إليها السلطان المجاهد ، فإن ذلك لم يمنع بعض العناصر من التماس الأسباب للنزوع – بين حين وأخر – للعصيان وإثارة القلاقل ضده . ففى ربيع الآخر سنة ٧٤٧هـ/ يوليه ١٣٤٦م ثار بعض المماليك بسبب تأخر نفقاتهم ، واتفقوا على القبض على المجاهد [٤] منتهزين فرصة وجوده فى مصيفه على البحر بالقرب من زبيد فى قليل من عسكره . ولضمان نجاح حركتهم عملوا على ضم أحد أفراد أسرة بنى رسول إليهم ، فاتصلوا بابن أخيه ، وهو الفائز أبى بكر بن حسن بن داود ، الذى

---

(١) الخزرجى: العقود جـ٢ ص٧٦ ، العسجد: ص ٤٤٠ ، العقد الفاخر جـ٢ ص ٤٠ ب ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٩٦ ب ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ ٢ ص ١٤٧ .

(٢) الخزرجى العسجد ص ٤٤٠ .

(٣) الخزرجى : العقود جـ٢ ص٧٦ ، العسجد ص ٤٤٠ ، العقد الفاخر جـ٢ ص٤٠أ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٩٦ ب ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ٢ ص ٢٤٧ ، زبارة : أئمة اليمن جـ١ ص ٢٤٦ .

(٤) ابن الديبع : قرة العيون ص ٩٦ ب .

امتنع عن الاشتراك معهم خوفاً من انتقام عمه ، وما زالوا به حتى أقنعوه بإخفاء خبر انضمامه إليهم إلى ما بعد نجاح مهمتهم في القبض على السلطان (١). وكانت خطتهم تقضى بالتوجه إليه في آخر النهار والتظاهر بأنهم إنما قدموا للمطالبة بالجامكية ، وكان من الممكن أن تنجح المؤامرة لولم يتوفر عنصر الخيانة ، فلقد أسرع من أبلغ السلطان بالمؤامرة ، فبادر السلطان المجاهد إلى اتخاذ الحيطة وغادر المصيف ، وفوت عليهم الفرصة ثم لم يلبث أن أمر بالقبض على الفائز ، فظل سجيناً في حصن تعز إلي أن مات (٢). أما بقية أطراف المؤامرة من المماليك فقد انتقم منهم بطريقته المعتادة بالقتل والشنق والتغريق (٣).

٣ ـ نهاية المجاهد :ـ

عزم المجاهد على أداء فريضة الحج للمرة الثانية ٧٥١هـ/ ١٣٥١م فغادر مدينة تعز في شوال ، واستصحب معه والدته وابنه العادل . وكانت الأحوال في مكة قد تغيرت بعد وفاة الشريف رميثة بن أبي نمى إذ تمكن ابنه الشريف عجلان من الاستيلاء على مكة ، وحال وبين أخيه ثقبة بن رميثة ـ الموالي للسلطان المجاهد ـ فلما توجه المجاهد للحج صحبة الشريف ثقبة (٤) ، أشيع أن المجاهد سوف يقوم ـ بعد عودة ركب الحاج المصري ـ بالقبض على الشريف عجلان ، وسيولي أخاه ثقبة مكانه . وتطورت الأحداث وقام المصريون ـ بإيعاز من

---

(١) الخزرجي : العقود جـ٢ ص ٧٩ .

(٢) الخزرجي : العسجد ص ٤٤١ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٩٦ .

(٣) الخزرجي : العقود جـ٢ ص ٨٠ ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ٢ ص ١٤٧ .

(٤) زبارة : أئمة اليمن جـ١ ص ٢٤٩ .

الشريف عجلان ــ بالقبض على المجاهد وتوجهوا به إلى مصر [١]، وعادت أم المجاهد الى اليمن، وقامت بتدبير أمر المملكة [٢] وسعت في نفس الوقت في خلاص ولدها. ويذكر المقريزى أن أم المجاهد أقامت إبنه الصالح على البلاد، ولكنها لم تلبث أن نحته واعتقلته [٣].

وكان من الطبيعى أن يحدث خبر القبض على المجاهد دويا كبيرا في اليمن، ويؤدى إلى نشوب بعض الاضطرابات، فقد سارع بعض كبار رجال دولته الى تعز للتباحث في الموقف حتى إذا ما استقر الرأى على إقامة سلطـــان جديد عمل كل منهم على أن يكون صاحب الفضل في اختياره ليكون الأقرب إليه وصاحب بابه[٤]، وأدى ذلك إلى قيـــام تنافس بين كل من الوزير موفق الدين عبد الله بن على اليحيوى والطواشى أمين الدين أهيف والطواشى جمال الدين بارع، ولكن الطواشى أهيف تمكن من القبض على منافسيه وأمر بشنقهما[٥]، واستطاعت والدة المجاهد السيطرة على البلاد وقضت على عصيان القبائل التى خرجت عن الطاعة[٦]، واحتفظت بعرش ابنها حتى عاد إلى البلاد

---

(١) أنظر ذلك مفصلا في الفصل الرابع.

(٢) الخزرجى: العقود ج٢ ص٨٥ و٨٨، ١٨٨، العسجد ص٤٤٥ و٤٤٧، ابن الديبع: قرة العيون ص٩٧ أ، بامخرمة: تاريخ ثغر عدن ج٢ ص١٤٨.

(٣) المقريزى: السلوك ج٢ ص ٨٥٩.

(٤) الخزرجى: العقود ج٢ ص ٨٦، العسجد ص٤٤٥.

(٥) الخزرجى: العقود ج ٢ ص٨٧، العسجد ص٤٤٦-٤٤٧، ابن الديبع: قرة العيون ص ٩٧ ب.

(٦) الخزرجى: العقود ص٢ ص٨٩، العسجد ص٤٤٨ و ٤٤٩.

في ذى الحجة سنة ٧٥٢هـ[1]/يناير ١٣٥٢م. أما المجاهد فإنه ما أن استقر حتى بدأ في شن الهجمات على القبائل التى تجرأت على الخروج عن الطاعة أثناء غيابه في مصر[2]، على أن شوكة هذه القبائل كانت قد اشتدت في كثير من مناطق اليمن وخاصة تهامة، مما استلزم تركيز الضغط عليها إلا أن معظم هذه الحملات أخفقت في القضاء على عصيانهم[3]، فتمادوا في فتنتهم وتجرأوا على المناطق المجاورة، حتى «استولى الخراب على التهائم كلها ولم يبق إلا زبيد وحرض»[4]، «ولم يك فيما بينهما قرية مسكونة إلا قرى المفسدين»[5].

وكانت قبائل المعازبة والقرشيين من أشد القبائل ضراوة وتخريبا، واستمرت ثوراتهم عشر سنوات إلى أن دب الخلاف بين هاتين القبيلتين ووقعت الحرب بينهما. ونتيجة لتفوق المعازبة آثر القرشيون العودة إلى طاعة السلطان المجاهد الذى أمدهم ببعض عسكره، فمكنهم بذلك من إيقاع الهزيمة بالمعازبة والانتقام منهم بإحراق بعض قراهم[6]. وتبودلت الحملات بين الفريقين

---

(١) الخزرجى : العقود جـ ٢ ص٩٠، العسجد ص٤٥٠، بامخرمة: تاريخ ثغر عدن جـ ٢ ص١٤٨.

(٢) الخزرجى : العقود جـ ٢ ص ٩٢ و ٩٤ العسجد ص٤٥٠ و ٤٥.

(٣) الخزرجى : العقود جـ ٢ ص٩٢- ٩٣ و٩٥ و٩٧ و٩٩-١٠٦، العسجد ص ٤٥١ و٤٥٣ و ٤٥٥ و٤٥٥ و٤٥٦، ٤٦٣ - ٤٦٤، ٤٧١، ابن الديبع : قرة العيون ص ٩٨ أ.

(٤) الخزرجى : العقود جـ ٢ ص ١١٤.

(٥) الخزرجى : العسجد ص٦٣.

(٦) الخزرجى : العقود جـ ٢ ص١١٦، العسجد ص ٤٦٤.

فكانت الغلبة للقرشيين[١] ، فاضطر المعازبة إلى الدخول ـ بدورهم ـ فى طاعة السلطان فعفا عنهم [٢].

وتستمر الحركات المعادية ضد المجاهد حتى نهاية عهده، فقدطمع نورالدين محمد بن ميكائيل واليه على حرض فى الاستيلاء على المنطقة الشمالية من تهامه[٣] فأعلن العصيان فى سنة ٧٦١هـ [٤]/١٣٦٠ م ، وخرج عن طاعة السلطان [٥]، واستعان بالقوى الزيدية ، وانضمت إليه كثير من القبائل [٦] ، واستفحل خطره واستبد بالأمر فى المنطقة [٧] . وأعلن نفسه سلطانا فى صفـــر سنة ٧٦٢ هـ / ديسمبر ١٣٦١ م وانتسب الى الرســـول وادعى أنه حسينى فاطمى [٨]، وضرب السكة باسمه [٩] وخطب له فى البـــلاد التابعة له ، واستطاع الاحتفاظ بالسلطنة فى منطقته سنتين[١٠] .

---

(١) الخزرجي : العقود حـ ٢ ص١١٧ و ١٢٠ ، العسجد ص٤٦٥و٤٦٧ .

(٢) الخزرجي : العقود حـ ٢ ص ١٢٢ ، العسجد ص٤٦٨ .

(٣) الخزرجي : العقود حـ٢ ص ١١٠-١١١ ، العسجد ص٤٦١ -٤٦٢ .

(٤) بامخرمة : تاريخ ثغر عدن حـ ٢ ص١٤٩ .

(٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة حـ ١ ص١٤٥ .

(٦) الخزرجي : العقود حـ ٢ ص ١١٤ ، العسجد ص٤٦٣ - ٤٦٤ ، العقد الفاخر حـ ٢ ض ٤٠ أ ، بامخرمة حـ ٢ ص١٤٩ .

(٧) زبارة : أئمة اليمن حـ ١ص ٢٥٠ .

(٨) الخزرجي : العقود حـ ٢ ص ١٢٠ ، العسجد ص٤٦٦ .

(٩) بامخرمة : تاريخ ثغر عدن حـ ٢ ص ٩ ١ .

(١٠) الخزرجي : العقود حـ ٢ ص ١٢٠ ، العسجد ص٤٦٦ .

ولم يقتصر الأمر على ذلك ، وإنما ازداد الوضع خطورة بخروج الصالح والعادل عن طاعة والدهما المجاهد [١] ، وأتبعهما ابنه الثالث المظفر سنة ٧٦٤ هـ الذى استغلت بعض القبائل فرصة ثورته على أبيه ، وتجمعت حوله ، فطمع فى الاستيلاء على عدن [٢] ، وفشلت جهود السلطان فى القضاء على حركة المظفر [٣] ، ولم يعمر المجاهد بعد ذلك طويلا إذ توفى فى عدن فى جمادى الأولى سنة ٧٦٤ هـ [٤] / مارس ١٣٦٣ م .

وبعاء اليمن بعد المجاهد حتى نهاية دولة بنى رسول :—

١ — المشكلات التى واجهت الأفضل عباس بن المجاهد ، وموقفه منها .

كانت الظروف مهيأة لسلطنة الأفضل ، فقد كان ثلاثة من إخوته ، وهم الصالح والعادل والمظفر قد خرجوا عن طاعة أبيهم ، الذى شغل فى أواخر أيامه بمحاربتهم ، وكان الأفضل فى صحبته أثناء مطاردته لهم . فلما توفى استقر رأى كبار دولته على اقامة ابنه الأفضل سلطانا على اليمن [٥] ، فقاموا

---

(١) الخزرجى : العقود حـ ٢ ص ١١٩ ، العسجد ص ٤٦٦ ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن حـ ٢ ص ١٤٩ ، زبارة . أئمة اليمن حـ ١ ص ٢٥٤ .

(٢) بامخرمة : نفس المصدر والصفحة .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم حـ ١١ ص ٩١ و ١٤٥ ، حوادث الدهور ص ٣٧٥ ، زبارة : أئمة اليمن حـ ١ ص ٢٥٥ .

(٤) الخزرجى : العقود حـ ٢ ص ١٢٤ و ١٢٧ ، العسجد ص ٤٦٨ و ٤٧١ .

(٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة حـ ١١ ص ٩١ ، المنهل الصافى حـ ٣ ص ٥٠٣ ، حوادث الدهور ص ٢٧ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٩٩ أ ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن حـ ٢ ص ١٤٩ — ١٥٠ .

بمبايعته يوم وفاة أبيه (١) .

لم يكن الأفضل أكبر أبناء أبيه ، ولكن ملازمته له فى الوقت الذى خرج فيه إخوته عليه ، وتواجده معه عند وفاته ، كان من أهم العوامل التى ساعدته على أن يخلف أباه على العرش . ويبرر الخزرجى ذلك بقوله « لم يكن فى أولاد المجاهد — حاضرهم وغائبهم — من هو أرشد منه ولا أعقل ، ولا أولى ولا أكمل للأمر منه ، وإن كان فيهم من هو أكبر منه سنا :

فما الحداثة من حلم بمانعة .·. قد يوجد الحلم فى الشباب والشيب»(٢)

وكيفما كان الأمر ، فقد تولى الأفضل عباس السلطنة فى الوقت الذى لم يكن الاستقرار قد عرف طريقه للبلاد لفترة طويلة من الزمن . وكان على السلطان الأفضل أن يواجه عددا من المشكلات ، فهناك إخوته الثلاثة الذين تمردوا على أبيهم ، وهذا يعنى فتح باب جديد للمنافسة على عرش السلطنة ، بالاضافة إلى مطامع ابن ميكائيل الذى كان قد أعلن نفسه سلطانا على منطقة شمال تهامة فى أواخر عهد المجاهد ، هذا إلى جانب عصيان الكثير من القبائل ، والقوى الزيدية التى أفادت من حالة الفوضى وعدم الاستقرار ووسعت نطاق نفوذها حتى شمل جميع منطقة الجبال من صنعاء وما يليها شمالا . وقد وصف الخزرجى الأحوال الداخلية بقوله : « وكانت الأطراف مضطربة ، وقد انفتح فى كل ناحية منها باب فساد » (٣) ، وكانت قبائل المعازبة والقرشيين والأشاعر فى تهامة قد خرجوا عن طاعة الدولة ، وعاثوا فى الأرض فسادا

---

(١) ابن الديبع : قرة العيون ص ٩٨ ب

(٢) الخزرجى : العقود حـ ٢ ص ١٢٧ ، العسجد ص ٤٧١ .

(٣) الخزرجى . العقود حـ ٢ ص ١٢٧ — ١٢٨ ، العسجد ص ٤٧٢ .

وتابعوا الاغارة على مدن تهامة وقراها ونهبوها وخربوهـا وأحرقوا كثيرا منها ، حتى هجرها أهلها ، وأصبحت خرابا بغير سكان [١] ؛ ولم يأت عام ٧٥٨ هـ / ١٣٥٧ م حتى كان السلطان قد فقد سيطرته تماما عن وادى رمع [٢] ووادى سهام [٣] ومعظم وادى زبيد [٤] وعم الخراب معظم تهـامة [٥] وفشلت المحاولات التى سبق أن بذلها المجاهد للقضاء على ثورات العربان [٦] - ولم يعد عامرا غير مدينتى زبيد وحرض [٧] ولم يكن فيما بينهما قرية مسكونة غير قرى المفسدين [٨] ·

أما ابن ميكائيل ، فقد انتهز فرصة وفاة السلطان المجـاهد ، وبادر بتجهيز الحملات للسيطرة على مدينة زبيد [٩] . وقامت قواته بمحاصرتها فى رجب سنة

---

(١) الخزرجى : العقود حـ ٢ ص ٤ ١ - ١٠٥ ·

(٢) الخزرجى : العقود حـ ٢ ص ١٠٦ ، المسجد ص ٤٥٨ - ٤٥٩ ·

(٣) يقع وادى سهام إلى الشمال من وادى زبيد ووادى رمع ·

El Khazrejiyy · op. cit p. 43, nate, 253.

(٤) الخزرجى : العقود حـ ٢ ص ١٠٧ ، المسجد ص ٤٥٩ ·

(٥) الخزرجى : العقود جـ ٢ ص ١١٢ ، المسجد ص ٤٦٢ ·

(٦) الخزرجى : العقود حـ ٢ ص ١١٠ ، المسجد ص ٤٦٢ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٩٨ «أ» ·

(٧) الخزرجى : العقود حـ ٢ ص ١١٤ ·

(٨) الخزرجى : المسجد ص ٤٦٣ ·

(٩) الخزرجى : العقود حـ ٢ ص ١٢٨ ، المسجد ص ٤٧٢ ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن حـ ٢ ص ١٠٥ ·

٧٦٤ هـ / ابريل ١٣٦٣ م ، ولكن أهلها استماتوا فى الدفاع عنها ، وصمدوا أمام هجماته ، ففشلت بذلك محاولاته فى تحقيق سيطرته على زبيد ، كذلك يرجع الفضل فى صمود أهل زبيد إلى السياسة الحكيمة التى انتهجها أبو بكر ابن على بن مبارك والى المدينة الملقب بالناصح ، وكان هذا الرجل حقيقا بهذا اللقب ، إذ تمكن من اغراء أتباع ابن ميكائيل بالمال والهبات بهدف تشتيت قواته ، فلم تلبث أعداد كبيرة منهم أن انضمت إليه ، وتوافدت عليه ، فأحسن استقبالهم وكافأهم [1] ، وأزعج ذلك قائدهم فانسحب بمن تبقى معه من قواته خشية أن يتخلى عنه الباقون أو يقع فى كمين نصبه له والى زبيد [2] سيما وقد سير السلطان الأفضل الامدادات لتصل تباعا إلى المحصورين [3] .

لم يكتف الأفضل بإحباط محاولات ابن ميكائيل بل عمل على التخلص نهائيا من خطره ، ففى سنة ٧٦٥ هـ سير قوة من أجناده تمكنت من إيقاع الهزيمة بابن ميكائيل [4] وأطاحت بكل قوته [5] ، بحيث لم يقم له بعدها قائمة ، ولم يجد بدا من اللجوء إلى الامام على بن محمد [6] ، وأخفقت جهوده فى استعادة قوته

---

(١) الخزرجى : العقود حـ ٢ ص ١٢١ ، العسجد ص ٤٧٢ .

(٢) الخزرجى : العقود حـ ٢ ص ١٢٩ .

(٣) الخزرجى : العقود حـ ٢ ص ١٢٨ ، العسجد ص ٤٧٢ .

(٤) الخزرجى : العقود حـ ٢ ص ١٣٠ ، العسجد ص ٤٧٣ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٩٨ ب .

(٥) ابن تغرى بردى : المنهل الصافى حـ ٣ ص ٥٠٤ .

(٦) ابن الديبع : قرة العيون ص ٩٨ ب ، زبارة : أئمة اليمن حـ ١ ص ٢٥٦ .

وسلطانه [١] ، وظل طريدا شريدا حتى توفى فى ٧٧٩ هـ[٢]/١٢٧٧ . وهكذا وفق الأفضل فى التخلص من خطر ابن ميكائيل ، وتمكن من وضع يده على جميع ما كان بحوزته من البلاد [٣] .

واصل الأفضل نشاطه للقضاء على ثورات القبائل فى تهامة، وبدأ بالقرشيين. فاستطاعت قواته إيقاع الهزيمة بهم فى ذى القعدة ٧٦٥ هـ / ابريل ١٣٧٤ م ، وأسفرت المعركة عن مقتل عدد كبير من مشاهير فرسان القرشيين ، وانتهاب بلادهم ، مما اضطرهم إلى الإذعان للطاعة وطلب الأمان ، فاستجاب الأفضل لهم ، وقدموا إليه الرهائن ضمانا لعدم عودتهم للعصيان [٤]. ثم تحول الأفضل بحملاته إلى قبائل المعازبة ، فسير أولى حملاته إليهم فى شعبان ٧٦٦ هـ / ابريل ١٣٦٥ م ، وتتابعت بعد ذلك قواته ، وتمكن من سحق قوتهم ، وانتقم منهم انتقاما شديدا [٥] وأجبرهم على الطاعة .

أما إخوة الأفضل المنافسين له ، ـ وكان الظفر من أنشطهم ـ فقد عمل الأفضل على شل حركته بحملاته المتتابعة، ولكن محاولاته باءت بالفشل [٦].

(١) الخزرجى : العقود جـ ٢ ص ١٣٤ ، العسجد ص ٤٧٦ .

(٢) الخزرجى : العقود جـ ٢ ص ١٦٦ ، العسجد ص ٥٠١ .

(٣) الخزرجى : العقود جـ ٢ ص ١٣ ، العسجد ص ٤٧٤ .

(٤) الخزرجى : العسجد ص ٤٧٥ – ٤٧٦ و ٤٧٨ .

(٥) الخزرجى : العقود جـ ٢ ص ١٣٠ و ١٣١ و ١٣٢ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ١٠ أ ـ ب .

(٦) الخزرجى : العقود جـ ٢ ص ١٢١ و ١٢٥ ، العسجد ص ٤٧٣ .

وعلى الرغم من اخفاقه فى التخلص من مشكلة إخوته إلا أنه قد نجح ـ خلال سنوات ثلاث ـ فى تحقيق السيطرة على كثير من المناطق التى عجز أبوه من قبله فى بسط سلطانه عليها ، « واستوسقت البلاد كلها فى أسرع مدة ، وعمرت القرى والمدائن ، واتصل الناس بعضهم ببعض » (١) . وتوافدت الوفود على الأفضل معلنة ولاءها له ، واستقرت قواعد ملكه (٢) .

غير أن أعظم المشكلات التى واجهت الأفضل كانت تتمثل فى قادة الزيدية الذين استغلوا فرصة الاضطرابات الداخلية التي واجهت سلاطين بنى رسول فى اليمن منذ أيام المجاهد ، وعملوا على تثبيت سيطرتهم على المنطقة الجبلية الواقعة شمالى صنعاء ، والاستيلاء على صنعاء نفسها فى شهر شعبان سنة ٧٢٣ هـ (٣)/أغسطس ١٣٢٣ م ، وعلى عدد آخر من البلاد والحصون ، وكان لهذا التوسع أعظم الأثر فى تقلص نفوذ دولة بنى رسول . وعلى الرغم من عدم قيام المجاهد بأى عمل حربى ضد القوى الزيدية لانشغاله بالقضاء على منافسيه ، إلا أن الزيدية كانت تعمل على إثارة عوامل الاضطراب الدائم فى دولة بنى رسول ، وكان الامام لايتوقف عن دعم خصوم السلطان (٤) وذلك ضمانا لاستمرار سيطرته ونفوذه على ما بيده من البلاد ، وتمكينا له على زيادة التوسع على حساب تلك الدولة المنهكة . غير أنه لم يكد الامام على بن محمد يتبين

---

(١) الخزرجى : العقود حـ ٢ ص١٣٢ ، العسجد ص ٤٧٤ .

(٢) الخزرجى : العقود حـ ٢ ص١٣٤ ـ ١٣٥ ، العسجد ص ٤٧٧ .

(٣) زبارة : أئمة اليمن حـ ١ ص٢٢٤ .

(٤) الخزرجى : العقود حـ ٢ ص٤٠ ـ ٤١ ، العسجد ص ٤١٢ ، ابن الديبع : قرة العيون ص٩٣ «أ» ، زبارة : أئمة اليمن حـ ١ ص٢٢٦ .

تخلص الأفضل من بعض خصومه حتى سعى إلى شغله بمشكلات جـديدة ، فعمل على امداد المظفر بن المجاهد ـ المنافس الأول للسلطان ـ بعدد كبير من أتباعه سنة ٧٦٦ هـ / ١٣٦٤ ـ ١٣٦٥ م لمساعدته فى الاستيلاء على مدينة حرض ، ولكن هذه الحملة لم تنجح فى تحقيق أغراضها بسبب صمود حامية المدينة فى وجهها (١) ، فاضطر المظفر إلى إعادة تنظيم قواته وزحف فى جمادى الأولى سنة ٧٦٨ هـ / يناير ١٣٦٧ م إلى الشحر ، ولكنه أخفق للمرة الثانية فى الاستيلاء عليها (٢) .

وعلى الرغم من فشل المظفر ـ حليف القوى الزيدية ـ إلا أن هذه القوى لم تفقد الأمل فى خلق متاعب جديدة للسلطان الأفضل ، فاستغلت الخلاف الناشب سنة ٧٧١ هـ/ ١٣٦٠م . بين واليه على حرض وبين الأشراف السليمانيين فى تلك المنطقة . وبحجة مساندة أشراف حرض أرسل الامام جيشا استولى به على تلك المدينة (٣) ، وتابعت القوات الزيدية زحفها جنوبا فاستولت على مدينة المهجم والكداره والقحمه وغيرها (٤) ، ثم تقدمت إلى زبيد وحاصرتها فى جمادى الأولى ٧٧١ هـ / ديسمبر ١٣٦٩ م . وكان للانتصارات التى أحرزها الامام أثرها فى إشاعة الفوضى والاضطراب فى زبيد ، واستغل بعض المفسدين من أهل زبيد هذه الظروف المضطربة وأعملوا السلب والنهب فى المدينة (٥) .

(١) الخزرجى : العقود حـ٢ ص ١٣٤ و ١٣٥ .

(٢) الخزرجى : العسجد ص ٤٧٦ و ٤٧٧ .

(٣) ابن الديبع : قرة العيون ص١٠٠ ب ، زبارة : أئمة اليمن ص٢٥٧ .

(٤) الخزرجى : العقود حـ٢ ص١٤٠ و ١٤١ .

(٥) الخزرجى : العسجد ص٤٨٠ ـ ٤٨١ .

واتصلوا بالقوات الزيدية المحاصرة لزبيد واتفقوا معها على موعد معين يفتحون لها فيه أبواب مدينتهم (١) ، وحاول هؤلاء المفسدين إقناع أعيان المدينة من فقهاء وتجار وغيرهم ، ولكن هؤلاء الأعيان تمكنوا من إقناعهم بالتمسك بولائهم للدولة ، وقرروا الدفاع عن زبيد ، وعدم تمكين القوى الزيدية منها (٢) . وهكذا صمدت المدينة ولم يتمكن الامام من التغلب عليها (٣) .

وفي نفس الوقت سير السلطان الأفضل قوة بقيادة الطواشي أمين الدين أهيف تمكنت من التخلص من المفسدين الذين حاولوا تسليم مدينة زبيد ، وتتبع فلولهم قتلا وتشريدا (٤) ، كما تصدى الطواشي للقرشيين الذى عاودوا العصيان وأرادوا الاستيلاء على زبيد وقضى على محاولتهم وهزمهم هزيمة نكراء في رمضان سنة ٧٧١هـ (٥) / ابريل ١٣٧٠ م . وواصل أمين الدين أهيف تقدمه ، ونجح في تخليص مدينة المهجم من السيطرة الزيدية (٦) ،

---

(١) الخزرجي : العقود ص١٤٢ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ١٠١ «أ» .

(٢) الخزرجي : العقود حـ ٢ ص١٤٣ ، العسجد ص ٤٨٣ و ٤٨٤ .

(٣) الخزرجي : العقـــود حـ ٢ ص١٤٤ – ١٤٥ ، العسجد ص ٤٨٥ ، ابن الديبع : نفسه ص ١٠١ ب ، زبارة : نفسه ص ٢٥٧.

( ) الخزرجي : العقود حـ ٢ ص١٤٥ .

(٥) الخزرجي: العقود حـ٢ ص١٤٦ ، العسجد ص٤٨٦ .

(٦) الخزرجي : العقود حـ ٢ ص ١٤ ، العسجد ص ٤٨٧ ، ابن الديبع : قرة العيون ص١٠٢ «أ» .

وتركزت جهوده فى شمال تهامة إلى أن تمكن من إقرار الأمور فيها (١) .

وفى سنة ٧٧٢ هـ / ١٣٧١ م توفى الامام الزيدى المهدى على بن محمد ، فاتفقت الزيدية على إقامة إبنه الناصر صلاح الدين محمد ، وتمت بيعته فى صفر سنة ٧٧٣ هـ (٢) / أغسطس ١٣٧١ م ، فواصل انتهاج سياسة أبيه فى مناوأة السلطان والاغارة على المناطق الموالية له . ففى سنة ٧٧٦ هـ / ١٣٧٤ م سير حملة كان هدفها الاستيلاء على مدينة الجند ، كما أرسل سنة ٧٧٧ هـ / ١٣٧٥ م حملة أخرى للاستيلاء على زبيد وغيرها ، ولكن حملاته فشلت فى تحقيق الهدف الذى أرسلت من أجله (٣) .

وكيفما كان الأمر ، فإن الأفضل لم يتقاعس عن مواجهة هذه المواقف الحرجة أو يتردد فى إعداد الحملات للقضاء على الفتن والثورات . ومن الملاحظ أن السلطان الأفضل كان يكتفى بتجهيز الحملات ويعهد بقيادتها إلى كبار رجال دولته ، وأنه قلما قاد حملة بنفسه ، ولعل ذلك كان من أسباب عدم فاعلية تلك الحملات .

واستمرت الأوضاع على هذا النحو من الاضطراب حتى وفاة السلطان الأفضل بمدينة زبيد فى شعبان ٧٧٨ هـ (٤) / ديسمبر ١٣٧٦ م ، ودفنه فى تعز (٥).

---

(١) الخزرجى : العقود ص ١٥ و ١٥٤ و ١٥٦ ، العسجد ص ٤٨٩ و ٤٩٢ و ٤٩٤ ، ابن الديبع : نفسة ص ١٠٢ ب ، ١٠٣ أ .

(٢) زبارة : أئمة اليمن حـ ١ ص ٢٦٠ ، اتحاف المهتدين ص ٦٧ .

(٣) زبارة : أئمة اليمن حـ ١ ص ٢٦٤ .

(٤) الخزرجى : العقود حـ ٢ ص ١٥٧ ، العسجد ص ٤٩٥ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة حـ ١١ ص ١٤٥ ، حوادث الدهور ص ٣٧٦ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ١٠٣ ب ، زبارة : أئمة اليمن حـ ١ ص ٢٦٥ .

(٥) زبارة : أئمة اليمن حـ ١ ص ٢٦٥ .

٣ - جهود الأشرف الثاني إسماعيل بن الأفضل عباس في إقرار الأوضاع :

بعد وفاة الأفضل عباس بايع رجال الدولة وعلماؤها ابنه الأشرف الثاني سلطانا على البلاد في شهر شعبان سنة ٧٧٨ هـ [١] / ديسمبر ١٣٧٦ م ، وأقسم الجميع على الولاء له [٢] . وحظيت سلطنته بتأييد كثير من العناصر . ويعبر الخزرجي عن ذلك بقوله : « وكانت الكتب من كل بلد تصل إليه ، والعرب من كل ناحية تفد عليه ، وهو يجيب عن كل كتاب بما يقتضي ، ويقابل كل واصل إليه بما يحب ويرتضي ، حتى استوسقت البلاد دانيها وقاصيها ، وأذعنت البرية طائعها وعاصيها » [٣] .

رأى الأشرف أن قبائل المعازبة يشكلون حركة ثورية واسعة النطاق ، وأن الزيدية مازالوا يقفون بالمرصاد لكل سلطان من بني رسول . وينتظرون الفرص المواتية للوثوب عليه والتحالف مع خصومه ، ولذلك قرر أن يبدأ بالمعازبة ، واعد الحملات التأديبية للقضاء على تمردهم . ففي سنة ٧٨٠ هـ / ١٣٧٨ م أرسل حملة كبيرة بقيادة وزيره القاضي تقي الدين عمر بن أبي القاسم ابن معيبد إلى بلاد المعازبة ، وقاتلهم وضيق الخناق عليهم وشتتهم [٤] . وفي

---

(١) بامخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ ٢ ص ٢٠ .

(٢) الخزرجي : العقود جـ ٢ ص ١٥٧ ، العسجد ص ٤٩٥ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ١٠٣ ب .

(٣) الخزرجي : العقود جـ ٢ ص ١٦٤ ، العسجد ص ٤٩٩ .

(٤) الخزرجي : العقود جـ ٢ ص ١٦٦ - ١٦٧ .

العام التالي شنت القوات السلطانية عليهم الهجمات وحاصرتهم ، حتى « لم يكن لهم مهرب إلا البحر فدخلوه فغرق منهم طائفة وسلم الباقون ، واستخدم أناس منهم وأسر آخرون (١) » . وعلى الرغم من هذا الأسلوب التأديبي العنيف الذى استخدمه الأشرف مع المعازبة ، إلا أن هؤلاء استطاعوا التجمع مرة أخرى ، وأغاروا على مدينة القحمة ، واستدرجوا والى المدينة الأمير سيف الدين بشتك إلى كمين نصبه بعضهم له ، وقتلوه مع عـــدد من أتباعه فى شوال سنة ٧٨١ هـ (٢) / يناير ١٣٨٠ م . ولم يجد السلطان أمام اشتداد وطأة المعازبة ، واستمرار خروجهم عن الطاعة ، من التوجه بنفسه على رأس حملة إليهم فى شوال ٧٨٢ هـ / يناير ١٣٨١ م ، ولكنهم ما أن علموا بأخبار هذه الحملة حتى بادروا بالتعلق برؤوس الجبال ، فنهب الجند بلادهم وأحرقوها (٣) ، وظلت القوات السلطانية تترصدهم ، وتتابعت الاغارات عليهم كلما بدرت منهم بادرة عصيان ، للبطش بالعاصين والمارقين منهم ومن غيرهم من القبائل وإرغامهم على الطاعة وتسليم الرهائن (٤) . ومع ذلك فلم تنجح سياسة العنف فى استئزال

(١) الخزرجى : العقـــود حـ ٢ ص ١٦٨ ، العسجد ص ٢ ٥ ؛ زبارة : أئمة اليمن حـ ١ ص ٢٦٩ .

(٢) الخزرجى : العقود حـ ٢ ص ١٦٩ ، العسجد ص٥٠٣ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ١٠٤ ب .

(٣) الخزرجى : العقود حـ ٢ ص ١٧١ ، العسجد ص ٥٠٤ .

(٤) الخزرجـى : العقود حـ٢ ص١٧٦و١٧٧و١٧٨ و ١٠٩و١٨١ و١٨٥ و١٨٦ و١٩٤ و ٢٠١ و ٢٠٦ و ٢١٥ و ٢١٩ ، ٢٤١ ـ ٢٥١ و٢٥٦و٢٦١ـ ٢٦٧ و ٢٦٨ ـ ٢٦٩ ، العسجد ص ٥٠٩ و٥١٣ـ٥١٤ و ٥١٩ و٥٢٤و٥٢١ ـ ٥٥٥ و ٥٥٤ .

هذه القبائل، إذ أنها لاتلبث أن تعود إلى التمرد كلما أتيحت لها الفرصة لذلك .

أما بالنسبة للزيدية ، فمن الواضح أن سلاطين بنى رسول قد تحاشوا — منذ عهد المجاهد — الدخول بقدر الإمكان فى صراع ضدهم ، فى الوقت الذى لم يكن الامام الزيدى يفوت فيه أى فرصة تسنح له للتوسع على حساب الدولة الرسولية إلى حد تجاوزت فيه هـــذه التوسعات صنعاء جنوبا . وفيما يتعلق بموقف القوى الزيدية من سلطنة الأشرف الثانى ، فقد اتسم منذ البداية بالمراقبة والترصد المقرون بالحذر حتى تنجلى الأمور ، واستغلال كل فرصة مواتية للتحرك ضد السلطان وتأييد خصومه ، ودعمهم بالمال والسلاح والتواطوء معهم ما أمكنهم ذلك . وعلى هذا النحو نشهد الامام الزيدى ينتهز فرصة غضب الأشرف الثانى على وزيره وجيه الدين عبد الرحمن بن محمد النظارى، واقصائه له من الوزارة بعد فترة قصيرة من اسنادها إليه سنة ٧٨٤ هـ/١٣٨٢م، حتى قام الامام بمراسلته واستدعائه ، وأحسن استقباله وأكرمه (١) . وكان من الطبيعى أن تتوتر العلاقات بين الزيدية والسلطان بسبب ذلك ، وتتأزم الأمور عندما يقدم السلطان على قتل رسوله إلى الامام فى ذى القعدة سنة ٧٨٦ هـ / ديسمبر ١٣٨٤ م بتهمة إفشاء أسرار كان السلطان قد استأمنه عليها (٢) . واتخذ الامام هذا الحدث ذريعة للتحرك، وزحف فى حشود كثيفة قاصداً تعز ، وذلك فى شعبان سنة ٧٨٧ هـ / سبتمبر ١٣٨٥ م ، فأسرع السلطان إلى مغادرة زبيد إلى تعز لانقاذها . فلما علم الامام بذلك توقف بمدينة ذى جبلة من مخلاف

---

(١) العقود حـ ٢ ص ١٧٣ ، العسجد ص ٥٠٦ .

(٢) الخزرجى : العقود حـ ٢ ص ١٨٠ ، العسجد ص ٥١٠ ، ابن الديبع = قرة العيون ص ١٠٥ ب .

جعفر واكتفى بنهبها وعاد إلى قواعده دون أن يحقق هدفه (١) . ثم أخذ فى إعادة تنظيم أتباعه ، واختبــار ولائهم له وافصاء المتذبذبين منهم والمتقلبين، والانتقام من الخارجين عليه منهم (٢) . وبهذه التنظيمات الجديدة تمكن من السيطرة على كثير من المدن والقرى والحصون القريبة من صنعاء (٣).

وفى سنة ٧٨٩ هـ / ١٣٨٧ م خرج الامام فى جيش كبير إلى عـدن ، ولم يصادف فى طريقة إليها أى أثر لمقاومة . ودارت بينه وبين أهل عدن وحاميتها معارك طاحنة فى ذى القعدة ٧٨٩ هـ/ نوفمبر ١٣٨٧ م لقى فيهامنهم مقاومة عنيفة ، اضطرته إلى رفع الحصار والعودة ، خاصـــه بعد ما أصيب عسكره بوباء مات بسببه الكثيرون منهم (٤) .

ولا يتوقف الامام عن توجيه الحملات وشن الهجمات على المناطق التابعـة للسلطان فى الفترة من سنة ٧٨٩ إلى ٧٩٣ هـ / ١٣٨٧ — ١٣٩١م ، ففى العام التالي توجه على رأس جيش الى مدينة حرض فى شمال تهامة . ولكن السلطان أسرع بارسال حملة مضادة (٥)، لم يكد الامام يعلم بها حتى انسحب بقواته (٦)

(١) الخزرجى : العقود حـ ٢ ص ١٨٣ ، العسجد ص ٥١٢ .

(٢) الخزرجى : العقود حـ ٢ ص ١٩٢ و ١٩٣ ، العسجد ص ٥١٨ ، ابن الديبع : قرة العيون ص١٠٦ (أ) .

(٣) زبارة : أئمة اليمن حـ ١ ص ٢٧٣ .

(٤) الخزرجى : العقود حـ ٢ ص ١٩٣ — ١٩٤ ، العسجد ص ٥١٩ .

(٥) الخزرجى : العقود حـ ٢ ص ١٠٤ .

(٦) الخزرجى : العقود حـ ٢ ص ١٩٥ ، العسجد ص ٥١٩ .

وتحول إلى مدينة المحالب ، ولكن واليها تصدى له وأرغمه على الانسحاب(١).
وظل الامام ينتهز الفرص لمهاجمة السلطان ، وقد واتته الفرصة عندما قام السلطان باستدعاء نوابه فى شمال تهامة ، وخروج هؤلاء إليه بمعظم قواتهم فى ربيع الأول سنة ٧٩١ هـ / مارس ١٣٨٩ م ، وأرسل بعض قواته تعاونها بعض القبائل المتمردة ، للاغارة على منطقة شمال تهامة ، وتخريب مدنها . وعلى أثر ذلك خرج الامام بنفسه على رأس قوة من أتباعه ، وهاجم حرض والمهجم والمحالب وتمكن من السيطرة عليها ، ويبدو أنه استخدم العنف فى هجماته ، فأثار بذلك الذعر فى قلوب سكان المنطقة (٢) . وأمام هذا الخطر أعد السلطان حملة كبيرة وجهها إلى الزيدية ، وأردفها بامدادات متواصلة ، وتمكن السلطان بذلك التحرك السريع من تخليص تهامة (٣) من السيطرة الزيدية.
ويذكر الخزرجى أن الامام قام بإرسال ثلاثة من اتباعه إلى السلطان فقابلهم السلطان بالقبول وأنعم عليهم ، (٤) ولم يوضح الخزرجى الغرض من هذه السفارة ، ولكن يبدو أن سعى الامام لتحسين علاقاته مع السلطان كان يهدف أن يؤدى إلى وقف الحملات المتتابعة التى دأب السلطان على توجيهها ضد الزيدية ، وهكذا نجح فى إيهام السلطان بولاء زائف ليطمئن هذا من ناحيته ، وعندئذ يمكنه أن يضرب ضربته فى غفلة من السلطان . وهذا يفسر خروج الامام على رأس حملة الى زبيد وقيامه بمحاصرتها فى جمادى الآخرة ٧٩١ هـ /

---

(١) الخزرجى : العقود حـ ٢ ص ١٩٧ ، العسجد ص ٥٢٠ .
(٢) الخزرجى : العقود حـ ٢ ص ٢٠١ ، زبارة : أئمة اليمن حـ ١ ص ٢٧٤ .
(٣) الخزرجى : العقود حـ ٢ ص ٢٠٢ ، العسجد ص ٥٢٣ .
( ) الخزرجى : العقود حـ ٢ ص ٢٠٥ .

يونيه ١٣٨٩ م ، وعمل خلال الحصار على الاتصال بكثير من أجناد المدينة لضمان موالاتهم له ، ولولا صمود أهل زبيد واستماتتهم فى الدفاع عن مدينتهم؛ لسقطت المدينة - فى يسر وسهولة - فى أيدى الزيدية ، ولكن الامـام اضطر إلى رفع الحصار والانسحاب [١] ، خاصة وقد بلغته أنباء عن وصول حملة مضادة ، يمكنها التعاون مع حامية المدينة فى تطويق قواته ، ولهذا بادر الامام إلى فك الحصار وعاد أدراجه خوفا من الهزيمة [٢] .

وللحد من خطورة الامام خرج السلطان الأشرف إلى ذى جبلة ، ومنها خف فى حشوده فى شهر رمضان سنة ٧٩١ هـ/ أغسطس ١٣٨٩م لمطاردة الامام وقواته ، ولولا وصول مدد إليه فى الوقت المناسب لمنى بهزيمة نكراء بسبب موالاة بعض القبائل التى اعتمد عليها من أهل المنطقة للامام ، ومع ذلك فقد اضطر الامام الى الانسحاب إلى ذمار لاعادة تنظيم قواته. وفى شوال ٧٩١هـ/ سبتمبر ١٣٨٩ م جرد الامام حملة على تهامة ، توجهت فى البداية إلى حرض ومنها إلى المحالب [٣] ، ولكن والى المحالب ما كاد يعلم بخبر هذه الحملة حتى أعد العدة لمواجهتها ، ولم ينتظر حتى يحيط أتباع الامام بالمدينة، بل بادر بالتجهز

---

(١) الخزرجى : العقود جـ ٢ ص ٢٠٦ - ٢٠٧ ، العسجد ص ٥٢٤ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ١٠٦ أ .

(٢) الخزرجى : العقود جـ٢ ص٢٠٧ ، ابن الديبع: قرة العيون ص١٠٦ ، زبارة : أئمة اليمن جـ ١ ص ٢٧٤ .

(٣) الخزرجى : العقود جـ ٢ ص ٢١٠ ، العسجد ص٥٢٦ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ١٠٦ ب .

والخروج لملاقاتهم ، وكمنت قواته لهـــم فى الطريق ، وفاجأوهم وألحقوا الهزيمة بهم ، وقتلوا منهم عددا كبيرا على رأسهم قائد الحملة (١) . ولم تفت هذه الهزيمة فى عضد الامام ، ذلك أنه خرج فى ربيع الأول سنة ٧٩٢هـ / فبراير ١٣٩٠م على رأس حملة للاغارة على بعض الحصون التابعة للسلطان فى منطقة الشوافى ، ولكنه قوبل بمقاومة عنيفة أجبرته على العودة (٢).

وفى شهر صفر ٧٩٣ هـ / يناير ١٣٩١ م زحف الامام بقواته إلى منطقة جبل بعدان (٣) من بلاد الشوافى ولكن قبائل المنطقـــة استدرجته إلى كمين نصبوه له ولقواته ، وتمكنوا من التغلب عليه وقتل الكثير من أتباعه فانسحب بفلوله الى ذمار (٤) . غير أنه لم يلبث أن أعاد تنظيم قواته وأغار على بلاد بنى شاور بالقرب من ذمار فى شهر رجب سنة ٧٩٣ هـ / يونيه ١٢٩١ م ، وأعمل فيها النهب والقتل والتخريب (٥) . وكان فى الامكان أن يستمر الامام فى سياسته العدائية نحو السلطان لولا أن الموت لم يمهله طويلا ، فقد توفى بصنعاء فى ذى القعدة سنة ٧٩٣ هـ / أكتوبر ١٣٩١ م ، فقد حدث له أثناء عودته من هذه الحملة أن هاجت بغلته والقته عنها ، فتعلقت قدمه بركابها فازدادت نفورا

---

(١) الخزرجى : العقود حـ ٢ ص ٢١١ ، العسجد ص ٥٢٧ ، زبارة : أئمة اليمن حـ ١ ص ٢٧٤ .

(٢) الخزرجى : العقود حـ ٢ ص ٢٠٤ - ٢١٥ ، العسجد ص ٥٢٩ .

(٣) الخزرجى : العسجد ص ٥٣٢ .

(٤) الخزرجى : العقود حـ ٢ ص ٢١٩ ، العسجد ص ٥٣٢ .

(٥) العقود حـ ٢ ص ٢٢١ ، العسجد ص ٥٣٣ .

وسحبته معها فى مكان وعر ، ولم يتمكن رجاله من تخليصه منها الا بعقرها، فأقام متألما حتى توفى متأثرا بهذه الاصابة (١) .

وكان لوفاة الامام الناصر صلاح الدين أثره فى إضعاف القوى الزيدية . وحدوث انقسام خطير فى صفوفهم . فقد رأى البعض مبايعة إبنه علـى بالامامة فى حين رأى غيرهم إمامة أحمـد بن يحى المرتضى ، وبايع كل من الفريقين بالامامه من كان يميل إليه ، ومن ثم بدأ صراع مرير بين الامامين من أجل الانفراد بالامامة (٢) . واستمر الصراع بينهما إلى أن وقـع الامام المهدى أحمد بن يحي المرتضى أسيرا فى يد الامام المنصور على بن صلاح الدين سنة ٧٩٤ هـ (٣) / ١٣٩٢ م . ولم يمض وقت طويل حتى قام إمام آخر هـو الهادى على بن المؤيد بن جبريل سنة ٧٩٦ هـ (٤) / ١٣٩٤ م ، وازداد الطين بلة أن تمكن الإمام الأسير من الفرار سنة ٨٠١ هـ (٥) / ١٣٩٩م ، وانضم إلى الإمام الجديد الهادى ضد الإمام المنصور (٦) ، واشتد الصراع على هذا النحو بين الفريقين .

---

(١) الخزرجى : العقـود جـ ٢ ص ٢٢٢ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ١٠٧ أ ، زبارة : أئمة اليمن جـ ١ ص ٢٧٧ - ٢٧٨ .

(٢) زبارة : أئمة اليمن جـ ١ ص ٢٨١ .

(٣) زبارة : نفس المرجع الجزء ص ٢٨ .

(٤) زبارة : نفس المرجع والجزء ص ٢٨٥ .

(٥) زبارة : نفس المرجع والجزء ص ٢٨٩ .

(٦) زبارة : نفس المرجع والجزء ص ٢٩٠ .

وفى خضم هذا الصراع الزيدى استطاع عـــدد من القبائل التخلص من التبعية للقوى الزيدية (١) . وبدأت هذه القبائل تتقرب إلى السلطان الأشرف وتوافد مشايخهم وعدد من أشراف الزيدية على السلطان ، ففى المحـــرم سنة ٧٩٤ هـ / ديسمبر ١٣٩١ م توجه الشريف المهـــدى بن عز الدين الحمزى والشريف شمس الدين سليمان بن يحيى إلى السلطان ، كما قدم إليه الشيخ شمس الدين على بن الرياحي الشرجى فى شهر ربيع الأول سنة ٧٩٤ هـ / فبراير ١٣٩٢م على رأس وفد من أهله، فأكرمهم السلطان وخلع عليهـم(٢) . وفى شهر جمادى الأولى وصل شيخ الجحادر — من قبائل مذحج — فى جمع من أتباعه ، كما وصل أيضـا الشريف الزيدى أبو الفضائل المدوى ، «وتواترت القبائل من كل ناحية » (٣) . وفى شهر ربيع الأول سنة ٧٩٥ هـ / يناير ١٣٩٣م جاءه أشراف جهران (٤) ، كما قدم الشريف صلاح بن على بن مطهر الحسنى إلى السلطان فى رجب ٧٩٧ هـ / ابريل ١٣٩٥ م، وتنازل للسلطان عن حصن ذروان ، فأنعم عليه وكساه ومنحه أربعين ألف درهم (٥) . وفى رمضـان ٧٩٧ هـ / يونية ١٣٩٥ م وصل الشريف عماد الدين يحيى بن أحمد الحمزى (٦) ،

---

(١) زبارة: أئمة اليمن جـ ١ ص ٢٨٣ .

(٢) الخزرجى : العقود جـ ٢ ص ٢٢٧ ، العسجد ص ٥٣٥ ، ٥٣٦ .

(٣) الخزرجى : العقود جـ ٢ ص ٢٣٠ ، العسجد ص ٥٣٧ .

(٤) الخزرجى : العقود جـ ٢ ص ٢٤٢ ، العسجد ص ٥٤٤ .

(٥) الخزرجى : العقـود جـ ٢ ص ٢٧٣ ، العسجد ص ٥٥٥ ، ابن الديبع: قرة العيون ص ١٠٧ أ ـ ب ، زبارة : أئمة اليمن جـ ١ ص ٢٨٧ .

(٦) العقود جـ ٢ ص ٢٧٤ – ٢٧٥ ، العسجد ص ٥٥٦ .

فأحسن السلطان استقبال الجميع وخلع عليهم الخلع السنية .

وهكذا وبدون كبير عناء تهيأت أحوال اليمن للاستقرار ، وأصبح السلطان الملك الأشرف صاحب الكلمة النافذة فى البلاد ، وتحسنت العلاقات بينه وبين الإمام المنصور على بن صلاح الذى أرسل فى جمادى الآخرة ٧٩٩ هـ/ مارس ١٣٩٧ م للسلطان هدية نفيسة (١) . واستمرت حالة الهدوء تسود البلاد حتى نهاية حكم الأشرف الذى توفى فى تعز ليلة الثامن عشر من ربيع الأول سنة ٨٠٢ هـ (٢) / اكتوبر سنة ١٤٠٠ م ؛ بعد حكم دام قرابة ربع قرن (٣) .

---

(١) الخزرجى : العقود جـ ٢ ص ٢٨٩ ، العسجد ص ٥٦٤ ، زبارة : أئمة اليمن جـ ١ ص ٢٨٧ .

(٢) الخزرجى : العقود جـ ٢ ص ٢١٦ ، العسجد ص ٥٨٠ ، ابن تغرى بردى : المنهل الصافى جـ ١ ص ٥٢٢ - ٥٢٣ ، جـ ٢ ص ٥٠٤ ، النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٢٥ ، حوادث الدهور ص ٢٧٦ ، زبارة : أئمة اليمن ص ٢٩٢ .
(لقد أنهى الخزرجى كتابيه « العقود اللؤلؤية » « العسجد المسبوك » بتاريخ السلطان الأشرف الثانى إلى سنة ٨٠٣ هـ / ١٤٠٠ م ، ولم يذكر من تاريخ اليمن شيئا بعد هذا التاريخ بالرغم من وفاته بعد ذلك بتسع سنوات أى سنة ٨١٢ هـ . ويجدر بالذكر أن ناسخ كتاب العسجد المسبوك ـ نسخة مكتبة البلدية بالاسكندرية ـ قد أضاف بقية تاريخ بنى رسول إلى نهاية دولتهم وذلك نقلا عن ابن الديبع ، وبمقارنة هذه الإضافة بما كتبه ابن الديبع اتضح أنها منقولة عن كتاب « بغية المستفيد فى أخبار مدينة زبيد ») .

(٣) العينى : عقد الجمان مجلد ٦٦ ص ١٦٧ .

٣ ـ عهد السلاطين الضعاف ونهاية الدولة :

أ ـ عهد الناصر أحمد بن الأشرف اسماعيل :

كان السلطان الأشرف قد عقد ـ قبل وفاته بأيام ـ البيعة بالسلطنة لابنه الناصر أحمد ، وعمل الناصر منذ توليه عرش السلطنة على القضاء على حركات العصيان التي شملت معظم بلاد اليمن ، وإقرار الأوضاع فيها ؛ فبدأ بالاستيلاء على بعض الحصون التي خرج ولاتها عن طاعته ، كما وجه حملاته إلى بلاد المعازبة فسارع هؤلاء بطلب الأمان فأمنهم (١) ، ولكنهم تظاهروا بالطاعة اكتسابا للوقت إذ لم يلبثوا أن عادوا إلى العصيان ، فعادت قوات السلطان إليهم وقتلت وشردت عددا كبيرا منهم . وكان انتقام الناصر شديدا بحيث قضى على مقاومتهم ، فركنوا إلى الهدوء (٢) .

ونشط الناصر بعد ذلك في توجيه الحملات ضد العصاة والمتمردين ، فاستولى في شوال سنة ٨٠٣ هـ/ مايو ١٤٠١ م على حصن المهور ـ أحد حصون وادي سهام ـ فساعده ذلك على إحكام السيطرة على منطقة سهام. كما استولى في أول عام ٨٠٤ هـ (٣) / أغسطس ١٤٠١ م على حصن ريمة (٤).

---

(١) ابن الديبع : قرة العيون ص ١١٠ أ، بغية المستفيد ص ٧٥ .

(٢) الخزرجي : العسجد ص ٥٨٣ ، قرة العيون ص ١١٠ أ، بغية المستفيد ص ٧٦ .

(٣) الخزرجي : العسجد ص ٥٨٣ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ١١٠ أ، بغية المستفيد ص ٧٦ ، يحيى بن الحسين : غاية الأماني ص ٥٥٩ .

(٤) ريمة ، حصن يقع إلى الشمال من وصاب ، إلى الجنوب من جبال برع (الويسي : اليمن الكبرى ص ١٧٠).

وفى ٨٠٧ هـ / ١٤٠٤ م وجه حملة إلى بلاد المقاصرة (١) وقتل منهم جمعا كبيراً، ونهب بلادهم وخربها، ثم استولى على مدينة دثينة (٢) قهراسنة ٨٠٨هـ/(٣) ١٤٠٥م.

وفى سنة ٨٠٩ هـ / ١٤٠٦ م قاد إحدى الحملات ضد والى جازان — فى شمال تهامة — الذى شق عصا الطاعة، فلما وصل إلى المدينة ألفاها خالية قد تركها واليها وأهلها خوفا من تنكيله بهم. فأقام عدة أيام بها، جاءه فى أثنائها رسول واليها يطلب الأمان فأمنه (٤). فلما وصل إليه أرسله إلى زبيد (٥)، وولى واليا آخر على المدينة، فلما عاد السلطان إلى زبيد تشفع بعض علماء زبيد وصلحاؤها لديه، فاستجاب لهم وأعاد صاحب جازان إلى ولايته بعد أن خلع عليه وأعطاه عشرين ألف دينار وخمسين عبدا بالإضافة إلى الهدايا والتحف(٦).

وكان السلطان الناصر قد توجه من جازان إلى مدينة حلى، وكان واليها...

---

(١) المقاصرة، قبائل تقيم إلى الشمال من وادى سهام.

(EL – Khazrejiyy : op. cit. vol. III, 3.p. 190, Note, 1355).

(٢) دثينة، بلدة من بلاد الجحافل (الجندى : السلوك ص ٤٤٤، الخزرجى : العقود حـ ١ ص ١٥٨) وتقع إلى الشمال من لحج

EL – Khazrejiyy : op. cit, vol. III, 3, p. 104, Note, 653, 654.

(٣) ابن الديبع : قرة العيون ص ١١٠ أ، بغية المستفيد ص ٧٦، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٥٦٢.

(٤) يحيى بن الحسين : نفس المرجع والصفحة.

(٥) ابن الديبع : قرة العيون ص ١١٠ أ – ب، بغية المستفيد ص ٧٦.

(٦) الخزرجى : المسجد ص ٥٨٤، ابن الديبع : قرة العيون ص ١١٠ ب، بغية المستفيد ص ٧٧.

موسى بن أحمد بن عيسى الحرّامى قد انفرد بولايتها بعد مقتل أخيـــه (١) ، فأسرع لمقابلة السلطان قبل اقتراب ركبه من مدينة حلى حاملاله الهدايا والتحف الثمينة (٢) ، مجددا له الولاء والطاعة . ولمـا كان لزاما على مدينته أن تتحمل تميير معسكر السلطان وجيشه أثناء إقامتهم فيهـا ، ولضعف إمكاناته تقدم مستعطفا السلطان ، وقال له : « إن هذه البلد ضعيفة لاتطيق وطأة مـــولانا السلطان » فاستجاب له السلطان بعد أن الزمه بتقديم عـــدد من الخيول كل عـام (٣) .

ويذكر ابن حجر(٤) أنه قامت حروب بين موسى والي حلى وقبـائل كنانة (٥) ، فانتهز شريف مكة هــذه الفرصة واستولى على حلى ، ولجأ واليها إلى السلطان الناصر أحمد، فأرسل هذا إلى الشريف حسن بن عجلان أمير مكة يطلب منه ترك حلى وعدم التعرض لواليها ، فاستجاب لطلبه(٦) .

وهكذا تمكن السلطان الناصر أحمد من أن يسيطر على الموقف فى اليمن ،

---

(١) ابن حجر : أنباء الغمر ـ مخطوط ـ حـ ١ ص٧٥٥ ، العينى : عقـــد الجمان مجلد ٦٦ ص ١٦٦ .

(٢) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٥٦٣ .

(٣) الخزرجى : العسجد ص ٥٨٤ ، ابن الديبع : بغية المستفيد ص٧٦-٧٧.

(٤) أنباء الغمر جـ ١ ص ٧٥٥ .

(٥) هم ، بنو كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس ، وديارهم باليمن وبجهات مكة (القلقشندى : قلائد الجمان ص ١٢٤).

(٦) ابن حجر : أنباء الغمر حـ ١ ص ٧٥٥ .

وسكنت الاضطرابات فيها لفترة تزيد على خمس سنوات (١) لم تحدث بعدها إلا حوادث قليلة متفرقة . حتى كانت سنة ٨١٨هـ / ١٤١٥م عندما خالف أهل وصاب فقام السلطان بإخماد ثورتهم واستولى على حصونهم(٢) .

وفى سنة ٨٢٠ هـ / ١٤١٧م أغار الإمام على بن صلاح الدين على بنى طاهر نواب السلطان فى رداع (٣) ، فأسرع السلطان لنجدتهم ، وتمكن من التغلب على الإمام ، وقتل عددا كبيرا من أتباعه ، وتتبع فلوله إلى وادى خبان (٤) . وواصل السلطان الناصر حملاته التأديبية إلى بلاد العجالم شمالى لحج ، ومنها إلى أبين ودثينة ثم عدن ، وقفل عائدا بعدها إلى تعز فزبيد (٥) .

وفى عهد الناصر قامت عدة محاولات ضده من أجل السيطرة على الحكم . وأولى هـذه المحاولات، تلك التى قام بها ضده أخوه حسين بن الأشرف ، إذ استطاع الاستيلاء على مدينة زبيد سنة ٨٢٢هـ/١٤١٩ م ، وأعلن نفسه سلطانا على البلاد(٦) ، وتلقب بالظافر . ولكن السلطان الناصر تمكن من اقتحام زبيد

---

(١) يحيى بن الحسين : غاية الأماني ص ٥٦٣ .

(٢) يحيى بن الحسين : غاية الأماني ص ٥٦٤ .

(٣) رداع ، مخلاف باليمن من بلد بنى عبس

(EL - Khazrejiyy : op . cit. p. 83, Note, 50) إلى الجنوب الشرقى من ذمار .

(٤) وادى خبان ، إلى الشمال من جبل بعدان .

(٥) الخزرجي : العسجد ص ٥٨٥ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ١١٠ ب - ١١١ أ ، بغية المستفيد ص ٧٧ - ٧٨ .

(٦) العينى : عقد الجمان مجلد ٢٠ ق ٨ ص ٤٨٨ .

والدخول إليها قهرا وقبض على أخيه حسين وسجنه فى حصن تعز ، ولكن حسينا لم يلبث إلا قليلا حتى استولى على حصن تعز، فأقام السلطان الناصر عليه الحصار حتى تمكن من القبض عليه مرة أخرى ، وعهد لأخيه الظاهر بكحله، فقام بسمل عينيه . وقد استنكر ابن الديبع هذا التصرف باعتباره وصمة عار يندى لها الجبين فى تاريخ أسرة بنى رسول، وندم الناصر على ذلك ولام أخاه لتسرعه فى تنفيذ أمره الذى أصدره له ساعة غضب (١) .

ومن المحاولات التى وقعت فى عهد الناصر لاقصائه عن السلطنة ، حركة محمد بن أبى القاسم نجاح الأشعرى، الذى سخر أمواله الكثيرة لانتزاع العرش السلطانى من صاحبه الشرعى. فتوجه إلى مدينة زبيد وتمكن من الاستيلاء عليها فى ربيع الأول ٨٠٦ هـ (٢) / ١٤٠٣م ، ولكنه لم يحتفظ بالمدينة غير يوم واحد ، إذ لم يأت صباح اليوم التالى حتى كان قد تم القضاء عليه وقتله . فصارت حركته مثلا بين العامة فيقولون : « ملك نجاح ساعة وراح » (٣).

استمر حكم السلطان الناصر أحمد أربعة وعشرين عاما وثلاثة أشهر ، تمكن بفضل حملاته من الحفاظ على عرشه وإقرار الأحوال فى البلاد (٤). وقد وصفه

---

(١) الخزرجى : العسجد ص ٥٨٥ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ١١١ أ، بغية المستفيد ص ٧٨ ، بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٠٤ .

(٢) ابن الديبع : قرة العيون ص ١١١ ب .

(٣) الخزرجى : العسجد ص ٥٨٦ ، ابن الديبع : بغية المستفيد ص ٧٩ .

(٤) الخزرجى: العسجد ص ٥٨٧ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ١١١ب ـ ١١٢ أ ، بغية المستفيد ص ٨٠ .

ابن تغرى بردى ، بأنه كان من شرار بنى رسول ، وأن البلاد قد خرب معظمها في عهده لظلمه وعسفه وعدم سياسته وتدبيره [١] . وكانت وفاته في جمادى الأولى سنة ٨٠٧هـ / [٢] ابريل ١٤٢٤ م .

ب — عهد المنصور عبد الله بن الناصر احمد واخوه الاشرف الثالث اسماعيل : —

تولى المنصور عبد الله السلطنة بعد وفاة أبيه [٣] ومع أنه كان صغير السن ، إلا أنه استطاع فرض هيبته وتثبيت سلطانه على البلاد ، ويذكر ابن الديبع أنه « كان ذا رأى وتدبير لسياسة المملكة على صغر سنه » [٤] . ولكنه لم يعمر طويلا ، إذ كانت وفاته في ربيع الآخر ٨٣٠ هـ [٥] / فبراير ١٤٢٧م . بعد حكم لم يدم أكثر من ثلاث سنوات .

خلف الأشرف الثالث إسماعيل أخاه المنصور عبد الله على عرش بنى رسول ، وكان هو أيضا صغيراً عندما تولى السلطنة ، ولهذا فقد قام بتدبير أمر المملكة

---

(١) ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ، المجلد الأول جـ ١ ص ١٣٣ .

(٢) ابن تغرى بردى : نفس المصدر والجزء والصفحة ، حوادث الدهور ص ٢٠٧ ، الدليل الشافى ص ٨ ب ، الخزرجى العسجد ص ٥٨ ؛ ابن الديبع : قرة العيون ص ١١٢ أ ، بغية المستفيد ص ٨٠ .

(٣) ابن تغرى بردى : المنهل الصافى جـ ١ ص ١٢٣ ، جـ ٣ ص ٥١٤ ، الدليل الشافى ص ٨ ب .

(٤) ابن الديبع : قرة العيون ص ١١٢ أ .

(٥) الخزرجى : العسجد ص ٨٢ ، ابن الديبع : بغية المستفيد ص ٨٠ .

له جماعة من أعيان دولته (١) . ولكن الخلاف لم يلبث أن دب بين القائمين بأمر الدولة ، وواجهت دولة بنى رسول مشاكل عويصة ساعدت على اضمحلال الدولة وعجلت بانهيارها السريع . فقد ترتب على خروج كثير من القبائل عن الطاعة ، وقيامهم بأعمال السلب والنهب ، أن انتشرت الفوضى في البلاد ، في نفس الوقت الذى ازدادت فيه المحن والقحط والجدب (٢) ، فتجرأ الناس على سلطانهم ، وانتهى الأمر بقيام جماعة من المماليك والعبيد بالقبض على السلطان وخلعه عن العرش (٣) ، وانتهبوا قصره فى جمادى الآخرة سنة ٨٣١ هـ /مارس ١٤٢٨ م ، بعد عام وشهرين من ولايته (٤) .

ج - عهد الظاهر يحيى بن الاشرف اسماعيل بن العباس :

بعد خلع الأشرف ، استقر رأى الثوار على إقامة عمه الظاهر يحيى، وكان الظاهر سجينا منذ أيام أخيه الناصر أحمد ، فأخرجه الثوار من سجنه وبايعوه سلطانا على البلاد، فأمر بالتحفظ على ابن أخيه المخلوع فى حصن الدملوة ، فأقام فيه سجينا حتى وفاته (٥) .

وكان الظاهر يستشعر بالأخطار التى تحيط به ، خاصة من قبل العناصر

( ) الخزرجى : العسجد ص ٥٨٨ ، ابن الديبع : بغية المستفيد ص ٨٠ .

(٢) ابن الديبع : قرة العيون ص ١١٢ ب .

(٣) ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ص٣ ض ٥١٤ ، حوادث الدهور ص ٣٧٦ .

(٤) الخزرجى : العسجد ص ٥٨٨ ، ابن الديبع : بغية المستفيد ص ٨٠ .

(٥) الخزرجى : العسجد ص٥٨٨، ابن الديبع : قرة العيون ص١١٢ب ، بامخرمة : قلادة النحر ج٣ ص ١١٠٤ .

التي عزلت سلفه ، ولكنه لم يتسرع في التخلص منهم ، وتريث حتى واتته الفرصة ، وعندئذ لم يتردد في التنكيل بهم ، وتتبعهم قتلا وتشريدا [١] . كما عمل على التخلص من كبار رجال سلفه ، وعلى رأسهم الوزير القاضي شرف الدين إسماعيل بن عبد الله العلوى وأسرته ، فصادرهم واستولى على أموالهم وشردهم [٢] .

وفى سنة ٨٠٤ هـ/١٤٣٠ ــ ٣١ م خرج عدد من العبيد بمدينة المحالب عن طاعة السلطان وتوجهوا إلى بلاد الواعظات بالقرب من المحالب، واتخذوها قاعدة لشن الهجمات على مدن تهامة وقراها ، فأسرع السلطان الظاهر إلى مدينة المهجم ليكون قريبا من مسرح المعارك ، ويعمل من هناك على إقرار الأوضاع ، ولكن حملاته لم تقض على هؤلاء المتمردين . ولحسن حظ السلطان اضطر العبيد إلى الاشتباك مع قبائل المعلقة ، وقد ساعدت هذه الاشتباكات على التخلص من العبيد ، بعد أن قتل فيها أعدادا كبيرة منهم [٣] ، وخربت مدينة المحالب واشعلت فيها النيران [٤] .

ولم تستقر الأحوال فى منطقة تهامة ، فقد شملت الثورات معظمها .

---

(١) الخزرجى : العسجد ص ٥٨٨ ، ابن الديبع : بغية المستفيد ص ٨١ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٥٦٧ ــ ٥٦٨ .

(٢) الخزرجى : العسجد ص ٥٨٨ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ١١٣ أ ، بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٠٥ .

(٣) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٥٦٨ ــ ٥٦٩ .

(٤) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٠٤ أ .

وتغلبت القبائل على ناحية حرض ، وقام أهل سهام بالخروج عن الطاعة ، وأخربوا وأحرقوا مدن الكدراء والقحمة ونشال في منطقة سهام (١) . كما عاد القرشيون إلى العصيان ، وكثرت الفتن والاضطرابات (٢) . وتعذر على السلطان الظاهر القضاء على هذه الفتن إلى أن وافته المنية في شهر رجب سنة ٨٤٢ هـ (٣) / يناير ١٤٣٩ م .

د ـ عهد الأشرف الرابع اسماعيل بن الظاهر يحيى :

تولى الأشرف السلطنة بعد وفاة أبيه بإجماع كبار رجال الدولة وأهل الحل والعقد (٤) . وانتهج الأشرف سياسة تقوم على الحزم والتشدد مع القبائل الثائرة (٥) وتوالت حملاته التي باشرها بنفسه للقضاء على عصيان هذه القبائل ، إلى حد أنه لقب « بالمجنون » لاقدامه وشدة بأسه وجرأته (٦) . ويذكر

---

(١) يحي بن الحسين : غاية الأماني ص ٥٦٩ .

(٢) الخزرجي : العسجد ص ٥٩٢ ، ابن الديبع : بغية المستفيد ص ٨٥ .

(٣) الخزرجي : العسجد ص ٥٩٢ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ١١٥ ب ، بغية المستفيد ص ٨٥ ، بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٠٦ ، ابن تغرى بردى : المنهل الصافي جـ ٣ ص ٥١٩ ، حوادث الدهور ص ٣٧٦ .

(٤) الخزرجي : العسجد ص ٥٩٢ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٨٥ ، بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٠٩ .

(٥) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي جـ ٣ ص ٥١٩ ، حوادث الدهور ص ٣٧٦ .

(٦) الخزرجي : العسجد ص ٥٩٣ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ١١٦ أ ، بغية المستفيد ص ٨٦ ، بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٠٩ .

يحيى بن الحسين أنه « كان شابا تغلب عليه رأى الجهل والسفه ، فسفك الدماء ، وأثار الفتن العظمى » (١) .

ورغم اصطناعه العنف مع الثوار ، فإن هجمات القرشيين والمعـــازبة تزايدت ، ودارت بينه وبينهم مواقع عديدة سنة ٨٤٣ هـ / ١٤٣٩ م ، تبادل فيها معهم النصر والهزيمة ، ولكن معظمها انتهى بهزيمـة قواته ، وسقوط الكثير من أجناده بين قتلى وأسرى (٢) ، الأمر الذى نستدل منه على مدى ما وصلت إليه دولة بنى رسول من ضعف ، وعدم قدرة الحكومة المركزية على مواجهة ثورات القبائل التى كانت تستهدف القضاء عليها . وبلغ من قوة القبائل أنها استطاعت التغلب على السلطان وجيشه فى معركة عنيفة دارت بينها فى ذى القعدة سنـة ٨٤٣ هـ / ابريل ١٤٤٠ م ، ولم يصمد فيها عسكره إلا قليلا ، وفر السلطان بنفسه بأعجوبة (٣) فى عدد يسير من خاصته (٤) .

وبسبب تحرج موقف السلطان الأشرف أمام الهـزائم المتكررة التى منى بها ، واستفحال خطر القبائل تظاهر بالرغبة فى إزالة أسباب ثورتهم ، ودعاهم

---

(١) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٥٨٧ .

(٢) الخزرجى : العسجد ص ٥٩٣ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ١١٦ أ ـ ب ، بغية المستفيد ص ٨٦ ـ ٨٧ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٥٧٨ ـ ٥٧٩ ، باخرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١١٠٨ .

(٣) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٥٧٩ .

(٤) الخزرجى : العسجد ص ٥٩٣ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ١١٦ ب ، بغية المستفيد ص ٨٧ .

إلى وليمة أقامها فى قرية بيت الفقية شمال زبيد فى جمادى الأولى سنة ٨٤٥ هـ / سبتمبر ١٤٤١ م بقصد التفاهم معهم ، حضرها جماعة من مشاهير المعازبة ومشائخهم ، فلما جلسوا إلى السماط أمر بضرب أعناقهم ، فقتل منهم أربعين رجلا ، وتمكن الباقون من الفرار (١) .

ولم تضع هذه الجريمة الشنعاء حداً لثورات القبائل التى استمرت بغير هوادة دون أن يتمكن من إخمادها أو التخفيف من حدتها (٢) إلى أن توفى فى شوال سنة ٨٤٥ هـ (٣) / فبراير ١٤٤٢ م .

هـ ــ سلطنة المظفر الثانى :

كان المظفر يوسف الثانى بن عمر بن إسماعيل بن العباس الرسولى ، قد لاذ بمنطقة وصاب خوفاً من ابن عمه الأشرف الرابع ، فلما توفى أجمع أهل الحل والعقد على إقامة المظفر الثانى سلطانا على اليمن خلفا للأشرف ، لما كان يتحلى به من العدل وحسن السيرة (٤) . ولكن الدولة كانت قد قطعت شوطا

---

(١) الخزرجى : العسجد ص ٥٩٤ ، ابن الديبع : بغية المستفيد ص ٨٧ ، بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٠٩ ، ص ١١٠٣ .

(٢) ابن الديبع : قرة العيون ص ١١٦ ب ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٥٧٩ .

(٣) الخزرجى : العسجد ص ٥٩٤ ، ابن الديبع : قرة العيون ١١٦ ب ، بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١١٠ .

(٤) الخزرجى : العسجد ص ٥٩٤ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ١١٧ أ ، بغية المستفيد ص ٨٨ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٥٧٩ .

كبيرا نحو الانهيار ، ولهذا فقد شملت عهده الفوضى والاضطراب [١] منذ اليوم الذى تولى فيه السلطنة . فلم يكد يعتلى العرش حتى خرج عليه جماعة من جنده بزعامة قائدهم يشبك الخاصكى، وأقاموا أحد أبناء رسول وهو محمد بن اسماعيل ابن عثمان بن الأفضل عباس سلطانا على البلاد فى المحرم ٨٤٦ هـ/ مايو ١٤٤٢ م ولقبوه بالمفضل ، وجعلوا من زبيد مقرا له ، فعمل المفضل هذا على اجتذاب القبائل الثائرة — وخاصة المعازبة والقرشيين — إلى جانبه ، فاستدعاهم إلى زبيد وأنفق فيهم الكثير من الأموال ، ووزع عليهم الخيل والسلاح ، فازدادوا بذلك قوة على قوة [٢] . ولكن السلطان المظفر الثانى أرسل حملة بقيادة بعض كبار قادته تمكنت من اقتحام مدينة زبيد والقبض على المفضل فى الثامن من ربيع الآخر سنة ٨٤٦ هـ [٣] / ١٦ أغسطس ١٠٤٢ م وارساله معتقـــلا إلى تعز [٤] ، أما أهل زبيد فقد أرسل المظفر إليهم منشورا بالأمان قرىء فى جامعها [٥] . وعمل على الانتقام من المماليك المخالفين الذين أقاموا الأفضل سلطانا ، فتمكنت قواته من التغلب عليهم وقتل قائدهم يشبك الخاصكى [٦] .

---

(١) ابن تغرى بردى : حوادث الدهور ص ٢٧٦ .

(٢) ابن الديبع : بغيـة المستفيد ص ٨٨ ، بامخرمة : قـلادة النحر جـ ٣ ص ١١١٣ .

(٣) بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١١٠ و ١١١٣ .

(٤) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٥٨٠ .

(٥) الخزرجى : العسجد ص ٥٩٥ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ١١٧ ب ، بغية المستفيد ص ٨٩ .

(٦) الخزرجى العسجد ص ٥٩٥ ، ابن الديبع : بغية المستفيد ص ٨٨ ، بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١١٣ .

وعاقب السلطان من استمر على عصيانه منهم بقطع جامكيته ،فأدى ذلك إلى قيامهم بنهب غلال الأراضي المحيطة بزبيد(١) ، واشعالهم نار الفتنة ، وجدوا في البحث عمن يتعاون معهم من بني رسول ، حتى عثروا على أحدهم في مدينة حيس وهو الناصر أحمد بن الظاهر بن يوسف بن عبد الله بن المجاهد ، فولوه سلطانا بزبيد في جمادى الآخرة سنة ٨٤٦ هـ / اكتوبر ١٤٤٢ م بحجة أن المظفر لم يعد قادرا على القيام بأعباء الحكم وأنه لا يصلح للسلطنة (٢) .

وزادت سطوة المماليك مرة أخرى ، إذ تجمعوا في شهر رجب ٨٤٦ حول قصر زبيد واتفقوا على نهب المدينة ، فانتشروا ينهبون ويقتلون ويثيرون الرعب والفزع في المدينة دون أن يتجرأ أحد على التصدي لهم (٣) . ومن ناحية أخرى استغل جماعة من أهل زبيد خروج الناصر أحمد بن الظاهر إلى وادي زبيد في شعبان سنة ٨٤٦ هـ (٤)/ديسمبر ١٤٤٢م ، وأقدموا على إغلاق أبواب المدينة فيما عدا باب واحد لم يتمكنوا من إغلاقه بسبب قيام أصحاب الناصر بحراسته . وكان هؤلاء القوم يهدفون من وراء إغلاقهم أبواب المدينة أن يمنعوا الناصر من العودة إلى زبيد تخلصا من الأخطار التي قد تلحقهم

---

(١) بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١١٣ ، يحيى بن الحسين : غاية الأماني ص ٥٨٠ .

(٢) الخزرجي : العسجد ص ٥٩٦ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ١٩٧ ب ، بغية المستفيد ص ٨٩ ، بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١١٠ و ١١١٣ .

(٣) الخزرجي : العسجد ص ٥١٦ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ١٠٧ ب ، بغية المستفيد ص ٨٩ ، بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١١٣ .

(٤) بامخرمة : قلادة النحر جـ٣ ص ١١١٠ .

بسببه . ولكنهم لم يلبثوا أن اضطروا إلى الفرار عندما اكتشفت محاولتهم .
أما الناصر فقد أسرع بالعودة ، وانتهبت المدينة بأمره نهبا شنيعا وقتل من
أهلها أعداد كبيرة ، حتى « أصبحت زبيد حصيدا كأن لم تغن بالأمس [1] ،
وتفرق أهلها » [2] .

ولم تمدنا المصادر بما قام به السلطان المظفر الثانى ضد تلك الحركات التى
قام بها المماليك المتمردون الذين استبدوا واستفحل خطرهم وعاثوا فى البلاد
الفساد . ويبدو أنهم لم يحققوا أهدافهم من إقامة الناصر أحمد بن الظاهر ،
ولهذا عزلوه فى ربيع الأول سنة ٨٤٧هـ/ يولية ١٤٤٣م ، وأخرجوه من
زبيد [3] .

و ـ المسعود صلاح الدين أبو القاسم بن الأشرف وسقوط دولة بنى رسول:

لم يخلع المماليك السلطان الناصر أحمد بهدف عزمهم على العودة لطاعة
السلطان المظفر الثانى وإنما ليقيموا سلطانا آخر ينافسون به المظفر ، فأقاموا
المسعود صلاح الدين أبو القاسم بن الأشرف سلطانا فى زبيد فى ربيع الأول
٨٤٧ هـ/ يولية ١٤٤٣م . وكان المسعود ـ وقت اختياره ـ صغيرا لم يبلغ
الثالثة عشر من عمره ، لهذا كان الواجهة التى عمل المماليك من ورائها ضد

---

(١) باخرمة : نفس المصدر والجزء ص ١١١٠ و١١١٤ .

(٢) الخزرجى : العسجد ص ٥٩٦ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٤١٨ ،
يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٥٨٠ .

(٣) الخزرجى : العسجد ص ٥٩٦ ، ابن الديبع : بغية المستفيد ص ٩٠ ،
باخرمة : قلادة النحر جـ٣ ص ١١١٠ .

المظفر ، وبدأوا نشاطهم ـ تحت رايته ـ بالتوجه إلى عدن واستولوا عليها فى ذى القعدة سنة ٨٤٧هـ [١] /فبراير ١٤٤٤م . ثم توجهوا إلى لحج وكان فيها بنو طاهر ، الذين كانوا بدورهم يطمعون فى الاستبداد بملك اليمن . وكان يهمهم زيادة ضعف بنى رسول ، ليسهل عليهم القضاء على دولتهم . ولهذا لم يقاوم بنوطاهر المسعود وقواته وتركوا لهم لحج فدخلها المسعود وأتباعه سنة ٨٤٨هـ [٢] / ١٤٤٤م .

ولم يلبث المسعود أن زحف بقواته إلى تعز سنة ٨٥٠هـ/١٤٤٦م ودخلها ، وكان المظفر متحصنا بقلعتها فأحكم المسعود الحصار عليه حتى يئس من النجاة ، فاستنجد بنوابه بنى طاهر ، فجاءه الشيخ عامر بن طاهر على رأس حملة تمكنت من إجبار المسعود على فك الحصار ومغادرة تعز ، وذلك فى رمضان سنة ٨٥٢هـ [٣] /أكتوبر ١٤٤٨م والتوجه إلى عدن [٤] . أما المظفر فقد أعد حملة قادها وبصحبته بنى طاهر إلى لحج ، ودارت بينهم وبين المسعود وقواته معركة فى ذى القعدة ٨٥٢هـ/يناير ١٤٤٩م ، قتل فيها عدد من أتباع المسعود [٥] . ولكن يبدو أن المسعود استطاع بعد ذلك إرغام المظفر على

---

(١) ابن الديبع : قرة العيون ص ١١٨أ ، بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١١٤ .

(٢) الخزرجى : العسجد ص ٥٩٧ ، ابن الديبع : بغية المستفيد ص ٩٠ .

(٣) بامخرمة : قلادة النحر جـ٣ ص ١١١٤ .

(٤) الخزرجى : العسجد ص ٥٩٧ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ١١٨أ ، بغية المستفيد ص ٩١ .

(٥) بامخرمة : قلادة النحر جـ٣ ص ١١١٥ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٥٨٣ .

التخلي عن السلطنة ، ذلك أن المصادر تذكر أن المسعود تسلم حصن تعز في سنة ٨٥٤هـ [1] / ١٤٥٠م . ولم يرد ذكر للمظفر في المصادر بعد ذلك إلى نهاية الدولة .

ويبدو أن المماليك الساخطين لم يرق لهم انفراد المسعود بالسلطنة ، لذلك أقاموا سلطانا آخر هو المؤيد حسين بن الملك الظاهر بن الأشرف ، وذلك في شعبان سنة ٨٥٥ هـ [2] . فلما علم المسعود بتولية المؤيد توجه على رأس حملة إلى زبيد في رمضان ٨٥٥ هـ / اكتوبر ١٤٥١ م ، وأقام الحصار عليها ، ولكنه اضطر ـ عندما أحس بالخيانة في صفوف قواته ـ إلى العودة إلى تعز [3] ومنها إلى عدن [4] . أما بنو طاهر فقد نشطوا لتنفيذ أطماعهم في الاستيلاء على السلطنة ، وتقدموا في المحرم سنة ٨٥٨ هـ / يناير ١٤٥٤ م إلى عدن ، حيث دارت بينهم وبين المسعود عدة معارك خارج المدينة أسفرت عن انتصار بني طاهر في بعضها وهزيمتهم في البعض الآخر ، وانتهى الأمر بتدهور أحوال المسعود ، ولم يعد مسموع الكلمة ، وأصبح صورة ، له الخطبة

---

(١) الخزرجي : العسجد ص ٥٩٨ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ١١٨ب ، بغية المستفيد ص ٩٢ .

(٢) الخزرجي : العسجد ص ٥٩٨ ، ابن الديبع : بغية المستفيد ص ٩٢ ، باخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١١٥ .

(٣) يحي بن الحسين : غاية الأماني ص ٥٨٤ .

(٤) الخزرجي : العسجد ص ٥٩٨ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ١١٨ب ، ١١٩أ ، بغية المستفيد ص ٩٢ ، باخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١١٢ ، ١١١٥ .

السكة لا غير،[١] فى عدن ، مما اضطره إلى التخلى عن السلطنة فى السادس من جمادى الآخرة سنة ٨٥٨ هـ[٢] /٣ يونية ١٤٥٤م.

أما السلطان المؤيد حسين فإنه ما أن علم بتنازل المسعود وخروجه من عدن ، حتى طمع فى الاستيلاء عليها ، ونجح فى ذلك ودخلها فى الرابع والعشرين من جمادى الآخرة ٨٥٨ هـ[٣] / ٢١ يونية ١٤٥٤ م فتوجه بنو طاهر إلى عدن فى جيش كبير وتمكنوا من الاستيلاء عليها فى الثالث والعشرين من رجب وأمنوا المؤيد وحددوا إقامته ، ثم سمحوا له بالتوجه إلى زبيد ومنها إلى مكة (٤) .

وهكذا قويت شوكة بنى طاهر واستولوا على البلاد ، واستحوذوا على مقاليد الأمور وأقاموا دولتهم على أنقاض دولة بنى رسول التى عمرت ما يقرب من مائتين وثلاثين عاما .

---

(١) باخرمة : نفس المصدر والجزء ص ١١١٥ .

(٢) الخزرجى : العسجد ص ٥٩٨ ، ابن الديبع : قرة العيون ص١١٨ب، ١١٩أ ، بغية المستفيد ص ٩٢ ، باخرمة : قلادة النحر جـ٣ ص ١١١٥ .

(٣) باخرمة : نفس المصدر والجزء ص ١١١٥ — ١١١٦ .

(٤) باخرمة : نفس المصدر والجزء ص١١١٢ .

الفصل الثالث

دولة بني طاهر

أولا :- الأوضاع السياسية عند قيام دولة بنى طاهر :-

١ - نسب بنى طاهر :-

تعتبر دولة بنى طاهر - فى حقيقتها - امتدادا لدولة بنى رسول ، ذلك أن الطاهريين استغلوا كونهم نوابا للرسوليين ، وانتهزوا حالة الضعف والانقسام التى مرت بها الدولة الرسولية فى منتصف القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) ونجحوا فى تأسيس دولتهم سنة ٨٥٨ هـ / ١٤٥٤ م .

وينتسب بنو طاهر إلى الفرع الأموى من قريش [١] ، ويقال أنهم من نسل الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز [٢] . وقد نسبهم ابن تغرى بردى إلى قبائل القرشية فى اليمن [٣] . ويعتبر موضوع النسب بصفة عامة من أهم

---

(١) با مخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٢١ ، ١١٢٧ ، الشبلى اليمنى : السنا الباهر بتكميل النور السافر فى أخبار القرن العاشر - مخطوط رقم ٢٠٣٣ تاريخ تيمور بدار الكتب المصرية - ص ١٩٩ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٥٨٦ ، العرشي : بلوغ المرام ص ٤٦ .

(٢) با مخرمة : نفس المصدر والصفحات ، الشبلى اليمنى : نفس المصدر والصفحة .

(٣) ابن تغرى بردى : حوادث الدهور ص ٣٧٣ و٣٧٦ .

ما ركز على إثباته بعض حكام اليمن، بهدف إضفاء الصفة الشرعية على حكمهم. وممن اهتم بذلك المعــز إسماعيل بن طغتكين - أحد سلاطين الأيوبيين في اليمن [١] - وتبعه في ذلك بنو رسول [٢] ، وهو أمر لم يثبت صحته .

أما عن نسب بنى طاهر إلى الأمويين ، وإلحاقهم بأعقاب عمر بن عبد العزيز، فأمر لم تثبته المصـــادر العربية ، بل يثير لدينا الشك والارتياب ؛ لعاملين ، الأول : ان العباسيين عملوا على استئصال الأمويين ، وبصفة خاصة في البلاد التى خضعت لسيطرتهم ، وكانت بلاد اليمن في جملة منـاطق نفوذهم ، وكان يتولاها نواب من قبلهم حرصوا - كغيرهم من نواب العباسيين في الولايات الأخرى - على التخلص من بقـايا البيت الأموى .

أما العامل الثانى : فإن المصادر التى أوردت النسب الطاهرى لم تلق أى ضوء على كيفية وصولهم إلى اليمن ، وتاريخ هذا الحدث ، أو ذكر شىء من أخبـارهم قبل القرن التـاسع الهجرى .

أما رواية ابن تغرى بردى في نسبة بنى طاهر إلى قبائل القرشية ، فغير قائمة على أى أساس لعـــدة أسباب منها ، أن بنى طاهر كانوا يسكنون مدينتى المقرانة وجبن بمخلاف رداع - الواقع إلى الجنوب الشرقى من ذمار - في حين أن قبائل القرشية كانت قد استقرت بأسفل وادى رمع [٣] بمنطقة تهـامة إلى الشمال من زبيد ، وإليهم تنسب قرية القرشية في تلك المنطقة [٤] . وهكذا

---

(١) انظر ، محمد عبد العال أحمد : دولة بنى أيوب في اليمن، الفصل الخامس.

(٢) انظر ما سبق ص ٢٩ وما بعدها .

(٣) الشرجى : طبقات الخواص - طبع مصر سنة ١٣٢١هـ - ص ٩٧٨.

(٤) الخزرجى : العقد الفاخر الحسن ج ٢ ص ١٥٠ أ .

يتضح اختلاف مضـــارب كل منها فى الوقت الذى استقرت فيه القبائل فى مناطق محددة . يضاف إلى ذلك أن قبائل القرشية كانت من أكثر قبائل اليمن اضطرابا أيام بنى رسول ، ومن المستبعد أن يطمئن بنو رسول إلى الطاهريين أو يعتمدون عليهم إذا ما كانوا فعلا من قبـــائل القرشية . ثم أن ثورات القرشيين استمرت فى عهد بنى طـاهر ، وبذل سلاطين تلك الدولة جهوداً كبيرة لإخمادها ، فلو أن بنى طاهر كانوا ينتسبون حقيقة إلى القرشية لما أقدم هؤلاء على الثورة عليهم .

وهكذا يتضح أن انتساب بنى طـاهر إلى بنى أمية أو إلى قبـائل القرشية اليمنية لايقوم على أساس . وأيا ما كان الأمر ، فإن بنى طاهر يمنيون ، اشتغلوا بزراعة الفوة (١) واهتموا بالتجارة واحترفوها (٢) .

٢ ـ ظهور بنى طاهر ودورهم فى الصراعات بين سلاطين بنى رسول :ـــ

لم يرد ذكر بنى طـاهر فى المصـــادر العربية إلا ابتداء من القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) ، أى عند بدء دخولهم فى خدمة بنى رسول . وبالتدريج أصابوا بعض الشهرة إلى أن أصبحوا أمنـاء لسلاطين بنى رسول على التجـارة ووكلاء عنهم فى عدن (٣) ، ونوابا لهم فى مخلاف رداع وهى

(١) الفوة نوع من النبات يستخدم فى الصباغة (ابن تغرى بردى : حوادث الدهور ص ٣٧٠) .

(٢) بامخرمة : قلادة النحر جـ٣ ص ١١١١ ، تاريخ ثغر عدن جـ١ ص ١٢ .

(٣) الخزرجى : العسجد ص ٥٨٥ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ١١٠ ب بغية المستفيد ص ٧٧ . بامخرمة : قلادة النحر جـ٣ ص ١١٥٨ ، الجرافى : المقتطف ص ٨٢ ، الواسعى : تاريخ اليمن ص ١٨٨ .

منطقة هامة ، إذ كانت تعتبر خط دفاع أمامى ضد التوسع الزيدى جنوبى ذمار، فلقد تعرضت تلك المنطقه سنة ٨٠٣ هـ / ١٤٠٠ م لاغارات الامام الزيدى على ابن صلاح الدين ، وذلك منذ بداية سلطنة الناصر أحمد بن اسماعيل بن العباس الرسولى . ونظراً لضعف دولة بنى رسول ، لم يتمكن نائبهم الشيخ على بن طـاهر من الصمود فى وجه الامام ، ووافق على التنازل له كرها عن إحدى القلاع الهامه فى منطقة رداع ، ولكن ما أن قفل الامام عائداً إلى ذمار ، حتى نكث بنو طاهر عهدهم معه ، فعاد الامام إليهم واتبع معهم سياسة تقوم على العنف ، فأخذ يخرب بلادهم ويدمر عمرانهم ، ولم ينصرف عنها إلا بعد أن وفد بنو طاهر عليه واعتذروا له عما بدر منهم [١] .

وكان الشيخ معوضة [٢] بن تاج الدين – جد بنى طاهر – معاصرا للسلطان الناصر أحمد الرسولى،وتشير المصـــادر إلى اتصال بنى طـاهر بسلاطين بنى رسول وتعاونهم معهم وارتباطهم بهم ، ففى سنة ٨١٧ هـ / ١٤١٤ م وفد الشيخ طاهر بن معوضة على السلطان الناصر أحمد الرسولى ، فأكرمه [٣] وأنعـــم

---

(١) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٥٥٨ – ٥٥٩ .

(٢) هو معوضة بن تاج الدين بن محمد بن سعيد بن عامر ، ويرفع بعض المؤرخين نسبه إلى وهب بن منبه بن حرب القرشى الأموى . (الكبسى : اللطائف السنية ص ٢٢٨ ، الحراقى : المقتطف ص ٨٢) . وكانت وفاته فى جمادى الأولى سنة ٨١٢هـ / أكتوبر ١٤٠٩م (الخزرجى: العسجد ص ٥٨٤، ابن الديبع : قرة العيون ص ١١٠ ب ، بغية المستفيد ص ٧٧ ، بامخرمة : قلادة النحر جـ٣ ص ١١٥٧) .

(٣) يحيى بن الحسين : غايه الأمانى ص ٥٦٣ .

عليه وعلى من جاء بصحبته . والظاهر أن السلطان استوثق من ولاء طاهر وبنيه له، فاعتمد عليهم فى إقرار الأوضاع بمدينة المقرانة وما إليها من مخلاف رداع ، وأسند إليهم مهمة التصدى للقوى الزيدية التى تطمع فى التوسع جنوبى ذمار . فلما أغار الامام الزيدى على بن صلاح الدين مرة أخرى على مدينة المقرانة سنة ٨٢٠ هـ/١٤١٧م خشى بنو طاهر الهزيمة وسارعوا إلى الاستنجاد بالسلطان الناصر أحمد ، وتمكنوا ـ بمعاونته ـ من التصدى للامام وإيقاع الهزيمة بقواته [١] ، ومطاردة فلوله إلى وادى خبان الواقع إلى الشمال الشرقى من مدينة إب [٢] .

ويستمر ولاء بنى طاهر لبنى رسول ، ويستمر أيضا توافدهم على تعز عاصمة الرسوليين ، ففى سنة ٨٣٥ هـ/ ١٤٣١ – ٣٢ م مثل الشيخ على بن طاهر بين يدى السلطان الظاهر يحيى بن الأشرف إسماعيل الرسولى ، فحظى عنده بمثل ما كان يحظى به أبوه من الاكرام والإنعام . وتوطدت الصلات بينهما بزواج هذا السلطان من إبنة الشيخ طاهر بن معوضة [٣] ، ومن ثم أخذ نفوذ بنى طاهر فى الازدياد وبرز دورهم ، وأسهموا بنصيب كبير فى الأحداث التى وقعت فى أواخر حكم الرسوليين .

ففى سنة ٨٤٥ هـ/ ١٤٤٢ م تولى المظفر يوسف بن المنصور عمر بن الأشرف

---

(١) الكبسى : اللطائف السنية ص ٢٥٩ .

(٢) الخزرجى : العسجد ص ٥٨٥ ؛ ابن الديبع : قرة العيون ص ١١٠ ب بغية المستفيد ص ٧٧ ، بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٥٨ .

(٣) الخزرجى : العسجد ص ٥٨٩ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ١١٣ ب بغية المستفيد ص ٨٠ .

الرسولي السلطنة ، ولكن لم يلبث بعض من بايعه من المماليك أن خرجوا عن طاعته وتآمروا عليه ، وأقاموا في المحرم سنة ٨٤٦ هـ / مايو ١٤٤٢ م سلطانا آخر في زبيد لمنافسته ، هو المفضل بن أسد الدين محمد بن إسماعيل بن عثمان ابن الأفضل الرسولي [١] ، وعندئذ أصدر السلطان المظفر أوامره إلى الشيخ علي ابن طاهر بالتصدى لهـذه الحركة ، فتوجه على رأس قوة كثيفة إلى زبيد ، وأرغم الثوار على العـودة إلى الطـاعه بل واضطرهم إلى اعتقال سلطانهم المفضل بن أسد الدين وتسليمه إلى السلطان المظفر [٢] تجنبا لما قد يصيبهم من عقاب السلطان الشرعي .

وما كاد المماليك المتمردين يستعيدون ثقة المظفـر بهم ، حتى قاموا بتدبير مؤامرة جـديدة ، ولم يمض وقت طويل حتى عادوا إلى العصيان وأقاموا في جمادى الآخرة سنة ٨٤٦ هـ / [٣] أكتوبر ١٤٤٢ م سلطانا آخر هو أحمد بن الظاهر بن يوسف بن عبد الله الرسولي ، ولقبوه بالناصر . ويبدو أنهم تعجلوا في تنصـيبه سـلطانا ، ذلك أنهم خلعـوه في ربيع الأول سنة ٨٤٧ هـ / يوليـه ١٤٤٣ م ، وأقاموا مـكانه في نفس الشهر المسعود صـلاح الدين بن الأشرف بن الناصر الرسـولي ، فبدأ بالاستيلاء على عدن في ذي القعـدة سنة

(١) الخزرجي : العسجد ص ٥٩٥ ، ابن الديبع : بغية المستفيد ص ٨٨ ، الكبسي : اللطائف ص ٢١١ .

(٢) ابن الديبع : قرة العيون ص ١١٧ ، بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١١٠ و ١١١٣ .

(٣) الخـزرجي : العسجد ص ٥٩٦ ، ابن الديبع : قره العيـون ص ١١٧ ب ، بغية المستفيد ص ٨٩ .

٨٤٧ هـ / فبراير ١٤٤٤ م . واضطر السلطان المظفر إلى الاستعانة ببنى طاهر لوضع حد لهذه الحركة ، وأرسلهم فى جموع أتباعهم المرابطة فى لحج ومراقبة تطورات الأحداث عن كثب ، غير أن بنى طاهر وإن كانوا يظهرون الولاء للسلطان المظفر ، إلا أنهم كانوا يخططون بدورهم للاستيلاء على ملك بنى رسول مستغلين الظروف الصعبة التي كانت تلك الدولة تمر بها آنذاك ، من الانقسام والتفتت وعدم ولاء الجند ، مما أدى إلى ضعف هؤلاء السلاطين وانكماش ظلهم من مناطق كثيرة ، وقيام الطامعين والمتنافسين على عرش السلطنة [١] .

أما المسعود فقد رأى فى وجود قوات المظفر بقيادة بنى طاهر فى لحج، خطرا يهدده فى عدن ولهذا قرر مواجهتهم بنفسه ، فخرج على رأس حملة فى ٨٤٨ هـ / ١٤٤٤ م ، وتمكن من انتزاع لحج منهم [٢]. وهكذا بدأت كفة المسعود ترجح ، وطمع فى التخلص من السلطان المظفر ، فزحف إلى تعز فى سنة ٨٥٠ هـ / ١٤٤٦ م وحاصره فى قلعتها ، فلما طال عليه الحصار أستنجد ببنى طاهر ، فقدموا لنجدته [٣] وأرغموا المسعود على فك الحصار عنه فى سنة ٨٥٢ هـ / ١٤٤٨ م وتعقبوا فلوله وطاردوه إلى عدن [٤] ، ودارت بين الجانبين فى ظاهر تلك المدينة عدة معارك لم تسفر عن نتيجة حاسمة . فلما فشل

---

(١) با مخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١١٤ ، الكبسى : اللطائف السنية ص ٢١٢ .

(٢) با مخرمة : نفس المصدر والصفحة .

(٣) با مخرمة . نفس المصدر والصفحة ، الكبسى : نفس المرجع والصفحة

(٤) با مخرمة : نفس المصدر والجزء ص ١١١٥ .

بنو طاهر عائدين إلى قاعدتهم حاول المسعود من جديد الاستيلاء على تعز ، ونجحت محاولته أخيرا ، وتمكن من الاستيلاء على المدينة وقلعتها في سنة ٨٥٤هـ/ ١٤٥٠ م بعد أن فر للظفر منها (١) .

وهكذا أثبت المسعود قدرته في السيطرة الجزئية على بعض المناطق ، وركز قواه على التخلص من السلطان المظفر ، تمهيدا للانفراد بملك بنى رسول ، متناسيا بذلك أن المماليك الذين أقاموه كانوا يستهدفون من وراء توليته مجرد استمرار التنافس بين بني رسول على عرش السلطنة، وعدم إتاحة الفرصة لانفراد أحدهم بالملك ، وهو أمر استغله بنو طاهر لتحقيق مخططهم في الاستيلاء على البلاد وإقامة دولة باسمهم .

٣ ـ سقوط دولة بني رسول :

أصبح مماليك بنى رسول يشكلون أكثر العناصر خطورة على الدولة ، فقد قويت شوكتهم وأصبحوا يتحكمون في عزل السلاطين وتنصيبهم، وكان لا يهمهم سوى استمرار سيطرتهم والقضاء على الجهود الرامية لإقرار الأوضاع في اليمن . فلما أحسوا بمقدرة المسعود واحتمال نجاحه في السيطرة الكاملة على البلاد ، أقاموا في شعبان سنة ٨٥٥هـ/ سبتمبر ١٤٥١م سلطانا ثالثا هو المؤيد حسين بن الظاهر الرسولي . فأدى ذلك إلى زيادة التنافس بين السلاطين الثلاثة على العرش ، فبادر المسعود للتخلص من هذا المنافس الجديد قبل أن يستفحل أمره ، ولكنه اضطر إلى العودة إلى عدن عندما أحس بعدم ولاء عسكره له (٢) ، فلما أعاد تنظيم قواته تحول مرة أخرى إلى مواجهة

---

(١) با مخرمة : نفس المصدر والصفحة، الكبسي : نفس المرجع والصفحة.

(٢) با مخرمة : : نفس المصدر والصفحة .

معسكر المظفر ممثلا فى بنى طاهر (١) .

وكان بنو طاهر قد تجهزوا بدورهم للاستيلاء على عدن ، فتصدى المسعود لهم وبادرهم بالقتال فى لحج فى أوائل سنة ٨٥٨هـ/١٤٥٤م ، ولكن المعركة لم تسفر عن أى نتيجة حاسمة ، واضطر المسعود للعودة إلى عدن بسبب الاضطرابات التى نشبت بين فرعى قبيلة يافع من آل أحمد وآل كلد المقيمين فيها ، فقد اختل ميزان الأمن بسبب ذلك ، وتعرضت بيوت التجار والأغراب فى عدن للسلب والنهب ، وكان آل كلد يؤلفون السواد الأعظم من سكان المدينة ويسيطرون عليها من الداخل ، فلما أحس آل أحمد بسطوة آل كلد وازدياد خطرهم ، لجأوا بحكم سيطرتهم على حصون المدينة وأسوارها إلى الانتقام من بنى كلد ، وذلك بأن استغلوا فرصة قيام بنى طاهر بحصار عدن ، واتصلوا بهم وتحالفوا معهم وتعهدوا لهم بتذليل مهمة الاستيلاء عليها ، واشترطوا عليهم مقابل ذلك ضمان الاحتفاظ بمكانتهم والعمل على تخليصهم من أعدائهم آل كلد وإخراجهم من عدن . فلما استولى بنو طاهر ـ بمعاونة آل أحمد ـ على عدن فى رجب ٨٥٨هـ (٢) /يولية ١٤٥٤م قام الطاهريون بتأمين أهلها ، وأمهلوا آل كلد ثلاثة أيام ليغادروا المدينة ،

---

(١) الخزرجى : العسجد ص ٥٩٧ ـ ٥٩٨ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ١١٨ ب ـ ١١٩ أ ، بغية المستفيد ص ٩١ ـ ٩٢ .

(٢) ابن الديبع : قرة العيون ص ١١٩ ، بغية المستفيد ص ٩٣ ، بامخرمة قلادة النحر جـ٢ ص ١١٢١ ، الشبلى اليمنى : السنا الباهر ص ١٩٩ ، الكبسى : اللطائف السنية ص ٢٢١ .

وأباحوا دم من يبقى منهم بعد انقضائها ، فتفرق آل كاد وتوجه معظمهم إلى الشحر ولجأ الباقون إلى زيلع وبربرة وغيرها (١) .

وكان المسعود قد وفق فى الخروج من عدن قبل أن يحتلها بنو طاهر ، وانتهى به الأمر إلى خلع نفسه من السلطنة (٢) . وكان السلطان المؤيد حسين بن الظاهر يحيى قد تمكن من دخول عدن أثناء محاصرة بنى طاهر لها ، وبعد خروج المسعود منها ، وظل مقيما بها حتى استولى بنو طاهر عليها ، فأحسنوا إليه ورتبوا له راتبا ، وحددوا إقامته ، ثم سمحوا له بمغادرة عدن بعد أن اشتروا منه ما معه من خيل وسلاح ومتاع (٣) . فلما خرج المؤيد قصد زبيد ، وأصبح وليس له من أمر السلطنة إلا إسمها ، فى حين إستبد المماليك بأمر السلطنة .

وكان لسيطرة هؤلاء المماليك على زبيد أكبر الأثر فى الإضرار بأهلها واستئثارتهم عليهم ، وحتى يمكن التخلص من خطرهم قام بعض أعيان المدينة

---

(١) بامخرمة : قلادة النحر جـ٣ ص ١١١٦ .

(٢) لما خرج المسعود من عدن استجار بأحد الصالحين وأقام عنده ، ثم جاءه بعض المماليك وطلبوا منه التوجه معهم إلى زبيد ، فلما استوثق منهم دخل المدينة معهم فى رمضان ٨٥٨هـ ، ولكنه لم يبق بها طويلا ، فقد غادرها فى آخر شوال ، وخلع نفسه ثم رحل إلى مكة .(ابن الديبع : قرة العيون ص ١١٩ ب ، بغية المستفيد ص ٩٣ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٥٨٥ ، والكبسى : اللطائف السنية ص ٢٢١) .

(٣) ابن الديبع : قرة العيون ص ١١٩ أ ، بغية المستفيد ص ٩٣ ، بامخرمة: قلادة النحر جـ٣ ص ١١١٦ ، الكبسي : اللطائف السنية ص ٢٢١ .

بمكاتبة المجاهد على بن طاهر فى عدن وإعلان تأييدهم وولائهم له ، وقد كان ذلك مبررا اصطنعه ابن طاهر للتحايل على الاستيلاء على زبيد بغير حرب ، واتفق مع الأمير الدين زين جياش بن سليمان السنبلى على الخروج من عدن على هيئة المطرود منها ، حتى يسهل عليه الدخول الى زبيد دون إثارة شكوك المماليك فيه ، باعتباره من أعداء بنى طاهر ومطاريدهم فتوجه الأمير جياش أولا إلى مدينة موزع [1] ، وشرع فى مكاتبة مماليك زبيد ، وعرض خدماته عليهم للتعاون ضد الطاهريين ، فاستقر رأى غالبيتهم على السماح له بدخول زبيد ، وتظاهر جياش لهم بالولاء وحسن المشورة حتى أمنوا له ، ووثقوا فيه ، ولكنه كان يضمر فى قرارة نفسه تمزيق شملهم والوقيعة بينهم ، ونجح فى استمالة عدد منهم إلى بنى طاهر [2] ، وعندئذ أرسـل إلى المجاهد على ابن طاهر يستحثه على الحضور فلم يتردد فى ذلك ، وإنما عمل على مخادعة مماليك زبيد ، وتوجه فى شوال سنة ٨٥٩هـ/سبتمبر ١٤٥٥م إلى تعز ، وهناك أدركه حشد كبير من القرشيين للانضمام إليه والدخول فى خدمته ، فأكرمهم ووعد بمكافأتهم وواصل تقدمه بهم إلى زبيد . فلما علم مماليكها بمقدمه سقط فى أيديهم وفر عدد كبير منهم من المدينة [3] . وكان الأمير جياش قد أعلن

---

(١) تقع بلدة موزع على مسافة ١٥ ميلا تقريبا إلى الشرق من ميناء المخا .
(EL-Khazrejiyy : The Pearl Strings, vol. III, 3, p, 147, Note, 952.)

(٢) يحيى بن الحسين غاية الأمانى ص ٥٨٦ .

(٣) ابن الديبع : قرة العيون ص ١١٩ ، بغيـة المستفيد ص ٩٤ ــ ٩٥ ، الكبسى : اللطائف ص ٢٢٢ .

أن المدينة قد آلت للملك المجاهد الظاهرى ، فكان لتصرفه هذا أكبر الأثر في إثارة ما تبقى من المماليك وزعمائهم الذين توجهوا إليه واستنكروا عليه ذلك ، ولكنه تشدد معهم ، وقام أعوانه بقتل أحد زعمائهم وإلقاء رأسه إلى المماليك المتجمهرين حول الدار ، واعتقل عددا آخر منهم ، فتفرق الباقون وآثروا النجاة بأنفسهم خارج المدينة (١) ، وتم ذلك يوم الجمعة ثانى أيام عيد الأضحى الموافق ١١ ذى الحجة سنة ٨٥٩هـ / ٢٣ نوفمبر ١٤٥٥م ، فأصبحت الخطبة على منابر زبيد في ذلك اليوم للسلطان الظافر عامر الثانى بن طاهر (٢) في حين كانت خطبة العيد في اليوم السابق للسلطان المؤيد (٣) . واستمرت الخطبة للظافر عامر الثانى رغم كونه أصغر من أخيه المجاهد على (٤) ، « وانقادت له العربان وذلت له الأقران ، ودانت له العباد وأمنت به البلاد ، وانقمع به المفسدون » (٥) .

وهكذا استطاع بنو طاهر إقامة دولتهم على أنقاض دولة بنى رسول ، وكان لحالة الضعف والتفسخ التى كانت تمر بها دولة بنى رسول أثرها فى

---

(١) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٥٨٧ .

(٢) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢٠ ب ، بغية المستفيد ص ٩٥ – ٩٦ ، بامخرمة: قلادة النحر جـ ٣ ص ١١١٧ ، وص ١١١٩ ، الكبسى : اللطائف ص ٥٨٨ .

(٣) تمكن المؤيد من مغادرة اليمن إلى مكة ومنها توجه إلى مصر حيث أكرمه السلطان إينال ورتب له مرتبا يقوم بكفايته فى مكة ، فرحل إليها وأقام بها بقية عمره . (بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١١٢) .

(٤) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٥٨٨ .

(٥) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ٩٦ ، بامخرمة: نفس المصدر ص١١١٧ .

سقوط تلك الدولة التى استمر حكمها مائتين وثلاثين عاما، تضافرت قرب نهايتها الأسباب، التى عجلت بانهيارها، فمن صراع حول عرش السلطنة وتمرد القبائل على الدولة، وخروج مماليك بنى رسول عن الطاعة، وتحكمهم فى إقامة السلاطين وعزلهم، وتشجيعهم التنافس على العرش. هذا بالاضافة إلى القوى الزيدية المتربصة للانقضاض على الحكم القائم، وقد أتاح لها هذا الاضطراب فرصة النجاح فى السيطرة على المنطقة الممتدة من ذمار وصنعاء جنوبا إلى صعدة ومايليها من جبال اليمن شمالا. وكان فى الامكان أن تقوم الامامة الزيدية ببسط نفوذها على بلاد اليمن وإقامة حكم زيدى كامل فيها، لولا تفرق كلمتهم ونشوب الصراع بين زعمائهم حول الوصول للامامة والانفراد بها.

وهكذا فقد استنفذ اشتغال بنى رسول فى القضاء على حركات التمرد والعصيان، ومواجهة المناوئين لسلطانهم من بنى قرابتهم كل طاقاتهم المادية والمعنوية، والتهم كثيراً من الأموال للانفاق على تلك الحروب الداخلية، وكانت الموارد الضخمة للدولة، وخاصة مايتعلق بعائد ميناء عدن من الرسوم الجمركية تسمح بالانفاق على تلك الحملات المتواليـة، إلا أن ازدهار جدة نتيجة وصول السفن التجارية إليها رأسا، لم يلبث أن أضعف من شأن ميناء عدن لتحول السفن عن الرسو فيها، وأطاح بالمورد الرئيسي لدخـل بنى رسول، فكان ضياعه سببا فى زيادة ضعفهم وعجـزهم عن الانفاق على الجند الذين فقدوا الولاء للدولة. واستغل بنو طاهر هذا العجز أحسن استغلال، وتمكنوا فى نهاية الأمر من الاستقلال بملك اليمن.

ثانيا : قيام الدولة الطاهرية :

أ ـ سلطنة الظافر عامر الاول واخيه المجاهد على بن طاهر :

يرجع الفضل فى قيام دولة بنى طاهر إلى الجهود الكبيرة التى بذلها

الأخوان الظافر عامر الأول والمجاهد على بن طاهر ؛ فقد قاما بقيادة أتباعهما وتوليا عملية الاستيلاء على ملك بنى رسول ، وأسسا دولتهما على أنقاضها ، وقاما بأمر السلطنة شريكين فى الحكم . إلا أن الظافر عامر استأثر بالخطبة والسكة دون أخيه رغم كونه الأصغر ، ويبدو أن ذلك قد تم برضاء أخيه الأكبر المجاهد على . وقد ظل الأمر على ذلك إلى سنة ٨٦٤هـ (١)/١٤٥٩ - ١٤٦٠م عندما أعلنت الخطبة للمجاهد على وضربت السكة باسمه (٢) فى جميع أنحاء الدولة برضاء أخيه الأصغر الظافر عامر أيضا (٣) .

ومن الملاحظ أن المصادر لم توضح أسباب اشتراك الأخوين فى السلطنة ، وانفراد الظافر عامر بأمر الخطبة والسكة فى بداية الدولة ، أو سبب تحولهما للمجاهد منذ عام ٨٦٤هـ . وأغلب الظن أن الهدف من اشتراكهما فى السلطنة يرجع إلى حرص بنى طاهر على تجنب وقوع صراعات حول عرش السلطنة بين الأخوين ، إذ أن هذا التنافس كان من أهم الأسباب فى انهيار دولة أسلافهم . ونعتقد أن إعلان الخطبة والسكة للظافر عامر رغم كونه الأصغر قد ترجع إلى الدور الكبير الذى قام به فى تأسيس دولة بنى طاهر ، أو لأنه كان صاحب فكرة الاستيلاء على ملك بنى رسول . وأيا ما كان الأمر فإن اشتراكهما فى الحكم كان ضرورة حتمتها الظروف لتجنب المنافسات على عرش السلطنة وضمان تدعيم أركان الدولة الناشئة . ومن الأدلة التى تثبت حرصهما

---

(١) بامخرمة : قلادة النحر جـ٣ ص ١١٢١ .

(٢) الكبسى : اللطائف السنية ص٢٢٣ .

(٣) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢٢ أ ، بغية المستفيد ص ١٠٠ .

على ذلك، الخلاف الذي وقع بين الأخوين الشريكين في سنة ٨٦٨هـ/١٤٦٣م بسبب اضطهاد الظافر عامر للشريف علي بن سفيان والي زبيد، وعزله وتولية أخيه عبد الملك بن طاهر مكانه، دون التحقق من صحة مانسبه أهل زبيد إليه(١). أو في قول آخر بسبب قيام المجاهد علي بعزل أخيه عبد الملك عن ولاية زبيد وإعادة الشريف علي بن سفيان إليها، ولجوء عبد الملك إلى أخيه الظافر عامر شاكيا من أخيه المجاهد، فأثار ذلك غضب المجاهد واستيائه فأبدى زهده في السلطنة رغم أنه صاحب الخطبة والسكة، واعتزم ترك البلاد(٢). وتوجه إلى الساحل ليستقبل مركبا إلى بلاد الحجاز، ولم يعدل عن رأيه إلا بعد أن ألح عليه أعيان مدينة زبيد وفقهاؤها بالبقاء، كما سارع أخوه الظافر عامر بالتوجه إليه وطيب خاطره واسترضاه، حتى عدل عن قراره، وهكذا يتضح مدى حرص المجاهد علي على تفادي المنافسات والصراعات، فرغم كونه الأكبر سنا وصاحب الخطبة والسكة، إلا أنه آثر مغادرة البلاد وعدم الدخول في صراعات أسرية حرصا على وحدة كيان الدولة وضمان استمرار تماسكها.

٣ - الأحوال الداخلية عند قيام دولة بني طاهر:

ورث بنو طاهر بلادا تسودها الفوضى والاضطرابات وتمزقها الفتن الداخلية والانقسامات الدائمة فالامامة الزيدية، تمكنت من استغلال ظروف الضعف

---

(١) ابن الديبع: قرة العيون ص ١٢٣ أ، بغية المستفيد ص ١٠٣ - ١٠٤، بامخرمة: قلادة النحر جـ ٢ ص ١١٢٨.

(٢) يحيى بن الحسين: غاية الأماني ص ٥٩٦.

الحروب ضد الصليحيين والمنازعات بين أفراد الأسرة الحاكمة ، ثم توالى على حكمها ملوك ضعاف ، لايملكون من رسوم الملك سوى ذكـر أسمائهم فى الخطبة بعد الخليفة العباسي، ونقش السكة ، والركوب بالمظـلة فى المناسبات. أما الأمر والنهي والتدبيرفقد استأثر به عبيدهم الذين قاموا بأمرالوزارة لهم(١) إلى أن سقطت دولتهم سنة ٥٥٤ هـ/ ١١٥٩ م .

أما المرحلة الثالثة ، فتبدأ بظهور على بن مهدى وتأسيس دولته(٢) على

= بدار الكتب المصرية رقم ١٢٤٧ تاريخ ص٥٢، الشرفى ، احمد بن محمد بن صلاح : اللآلى المضية فى أخبار أئمة الزيدية — مخطوط بمكتبة الجامع الكبير بصنعاء رقم ١٠٨ – جـ٢ ورقة رقم ١٣١ العرشي : بلوغ المرام ص ٢٩ ، الواسعى : تاريخ اليمن ص١٦٦ ، حسين الهمدانى وحسن سليمان محمـود : الصليحيون ص ٢٣٩ .

(١) محمد عبد العال أحمد : دولة بنى أيوب فى اليمن ص ٢٦ ومابعدها .

(٢) انظر، عمارة : تاريخ اليمن ص ٩٢، ابن سمرة : طبقات فقهـاء اليمن ص ١٨٧ ، ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ورقـة ٤٢ب ، ابن الوردى ، عمر بن المظفر : تاريخ ابن الوردى ـ القاهرة ١٢٨٥ هـ ـ جـ ٢ ص٦١ ، ابن رسول : الملك الأفضل عباس : نزهة العيون فى تاريخ طوائف القرون ، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٣٥١ تاريخ ، الخزرجى : العسجدص١٥٦، العقد الفاخر الحسن جـ ٢ لوحة ٥٥ب ، القلقشندى : صبح الأعشى جـ٥ ص٢٩، ادريس عماد الدين . نزهة الأفكار وروضة الأخبار فى ذكر من قام باليمـن الميمون من الملوك الكبار والدعاة الأخيار ، مخطوط بمكتبة أحد علماء حراز باليمن ص ٦ ، ابن الديبع، أبو عبدالله عبد الرحمن بن على : بغية المستفيد فى أخبار مدينة زبيد مخطوط مصور رقم ١١م تاريخ بدار الكتب المصرية ، =

وأيا ما كان الأمر ، فقد عمل سلاطين بني طاهر على توطيد أركان دولتهم ، وبذلوا العديد من المحاولات للسيطرة على البلاد والقضاء على حركات التمرد الداخلية فيها ، فبدأوا بالاستيلاء على عدن وتعز وزبيد وما بينها من المناطق كما سبق ذكره . ثم استولوا فى ذى القعدة ٨٥٨ هـ على حصن التعكر [١] ، وأعلنت بعض القبائل ولاءها لهم ، وممن وفد على بنى طاهر بعد استيلائهم على عدن الشيخ يحيى بن عمر الثابتى صاحب مدينة الحـــديدة ، فبعد أن تأكدوا من ولائه وأقسم لهم على الطاعة [٢] ، كلفه السلطان المجـاهد على بالتوجه إلى منطقة بيت الفقيه شمالى زبيـد وزوده بالأموال الطائلة ليسخرها فى استمالة قبائل المنطقة ، ويضمن بذلك ولاءهم لبنى طاهر [٣] .

وحرص بنو طاهر على تجنب الوقوع فى منافسات على العرش بين أمراء البيت الطاهرى ، ولذلك نلاحظ أن السلطان الطاهرى كان يستصحب معه أمراء أسرته فى معظم حملاته أو فى جولاته التي كان يتفقد فيها المناطق التى كان يتوجه لزيارتها [٤] .

كما لم يتوان بنو طـاهر فى الضرب بشدة على أيدى العابثين ، ففى المحرم

---

(١) بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١١٦ .

(٢) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ٩٤ .

(٣) ابن الديبع : نفس المصدر ص ٩٤ – ٩٥ .

(٤) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢١ أ ، ١٢٤ ب ، بغية المستفيـد ص ٩٧ ، ١٠٩ ، ١١٣ ، بامخرمة : قـلادة النحر جـ ٣ ص ١١٢٨ ، ١١٣٠ ، ١١٣٣ ، ١١٤٠ ، ١١٦٧ ، ١١٧٠ ، ١١٧١ ، ١١٩٣ ، ١١٩٦ .

سنة ٨٦١هـ / ديسمبر ١٤٥٦م استولى أحمد الثوار وبدعى ابن لبين على حصن تعز، فأرسل السلطان المجاهد على حملة إلى تعز تمكنت من استعادتها، ووقع ابن لبين أسيرا وقتل خمسين من أتباعه (١)، كذلك اهتم بنو طاهر بتأمين الطرق والقضاء على المفسدين وتبديد شملهم والتخلص من أخطارهم (٢).

٣ - موقف صاحب الشحر من قيام دولة بني طاهر :

خضعت بلاد الشحر لليمن منذ استيلاء السلطان المظفر يوسف ثاني سلاطين بني رسول عليها (٣)، فلما ضعفت دولتهم خرجت تلك البلاد عن حكمهم، واستقرت السلطة فيها لقبيلة كندة (٤). وبسقوط دولة بني رسول وقيام الدولة الطاهرية، قام الطاهريون بطرد آل كلد اليافعيين من عدن، فرحل معظمهم إلى الشحر وأغروا صاحبها أبا دجانة محمد بن سعيد بن فارس الكندى بالاستيلاء على عدن، وأرشدوه على مواضع يعرفونها يسهل على قواته اقتحام المدينة منها. فتجهز أبو دجانة في تسعة مراكب (٥) وأبحر

---

(١) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢١ أ، بغية المستفيد ص ٩٨، بامخرمة : قلادة النحر جـ٣ ص ١١٢٥.

(٢) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢٢ أ، بغية المستفيد ص ١٠١، بامخرمة: قلادة النحر جـ٣ ص ١١٢٧.

(٣) انظر تفصيلات استيلاء المظفر على الشحر في الفصل الرابع،

(٤) صلاح البكرى : تاريخ حضرموت السياسى - القاهرة ١٩٥٦ - جـ١ ص ٩٠.

(٥) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ٩٨، بامخرمة : قلادة النحر جـ٣ص ١١٢٥.

بها من بلده في شهر ربيع الآخر سنة ٨٦١ هـ / مارس ١٤٥٦ م . وعلى الرغم من تكتمه الشديد على تحركاته بهدف مفاجأة المدينة والاستيلاء عليها دون مقاومة ، فقد تسرب خبر الحملة وتسلل لفيف من الموالين لبني طاهر والمعادين لأبي دجانة في قارب من ميناء الشحر خفية في الليل ، وتمكنوا من الوصول إلى عدن قبل وصول الحملة ، وأبلغوا الأمر إلى واليها الشريف علي بن سفيان الذي لم يكن متوفرا لديه وقتئذ العدد الكافي من الجند لمواجهة الموقف ، ولهذا بادر بالكتابة إلى الظافر عامر والمجاهد علي يستحثهما لانقـــاذ المدينة (١) . ومبالغة منه في الحيطة أسرع بالتأهب لمقابلة الحملة إلى حين وصول الامدادات. فلما وصل أبو دجانة أمام عدن تعرضت سفنه لعاصفة عاتية تسببت في تحطيم اثنتين منهـا (٢) .

أما السلطان الظافر عامر بن طاهر فقد أسرع في جموع جيشه إلى عدن ، فاطمأن بوصوله أهلها ، وفي نفس الوقت تسرب اليأس إلى نفس أبي دجانة واستقر عزمه على القفول بسفنه ، ولكن لسوء حظه فقد عبثت الرياح بسفينته وجرفتها إلى الشاطيء ، فتلقفتهـا قوات بني طاهر وأسرت أبا دجـانة وابن

---

(١) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢١ ب ، بامخرمة . قلادة النحر ج ٣ ص ١١٢٥ ، صلاح البكري : تاريخ حضرموت السياسي جـ ١ ص ٩٣ ، سعيد عوض باوزير : صفحات من التاريخ الحضرمي ـ القاهرة ١٣٧٨ هـ ص ١١٥ ـ ١١٦ .

(٢) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ٩٨ ، بامخرمة : قلادة النحـر جـ ٣ ص ١١٢٥ ، يحيي بن الحسين : غاية الأماني ص ٥٨٨ .

أخية ومن كان بسفينته من أتباعه (١) وكان من بين الأسرى أحد زعماء يافع من آل كلد ويدعى مبارك شايق اليافعي ، فقتله أعداؤه آل أحمد بعد أن اتهموه بتحريض أبي دجانة على غزو عدن (٢) .

وكان أبو دجانة قد أناب عنه أمه (بنت مفاشر) ، وكانت امرأة كاملة ذات حزم وعزم ، فقامت بأمر البلاد أثناء غيابه خير قيام ، ويروى أنها أبدت اعتراضها على الحملة ، ولكنه لم يأخذ برأيها . فلما وقع في الأسر حزنت عليه كثيراً ، وحرمت أمرها وتوجهت بنفسها إلى عدن سعيا في أمر إطلاقه مقابل التنازل عن الشحر لبني طاهر ، وكان ذلك من حسن طالعهم ، فقد جاء أبو دجانة للاستيلاء على عدن ، ففقد بلاده وعرشه وحياته ، ذلك أن السلطان الظافر عامر وافق على العرض الذي تقدمت به أم أبي دجانة ، وأمر بإطلاق إبنها من السجن ، ولكنه استبقاهما في عدن حتى تم تسليم الشحر لنائب بني طاهر ، ثم أذن لهما بالعودة ، وقيل أن أبا دجانة لم يخرج من عدن إلا مسموما (٣) .

ودخلت الشحر على هذا النحو في فلك الدولة الطاهرية ، وأسند بنو

---

(١) الكبسي : اللطائف السنية ص ٢٢٣ ، محمد بن هاشم العلوي : تاريخ الدولة الكثيرية - القاهرة ١٩٤٨ - ص ٢٩ ، حمزة علي ابراهيم لقمان : تاريخ عدن وجنوب الجزيرة العربية - القاهرة ١٩٦٠ - ص ١١١ .

(٢) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢١ ب ، بغية المستفيد ص ٩٨ ، بامخرمة قلادة النحر حـ ٣ ص ١١٢٥ .

(٣) بامخرمة : قلادة النحر حـ ٣ ص ١١٢٥ .

طاهر ولايتها إلى الأمير جياش بن السنبلى سنة ٨٦٣ هـ [١]/ ١٤٥٩ م الذى دخلها نيابة عن بنى طاهر فى ذى القعدة من تلك السنة [٢] ، واستمرت تحت حكم بنى طاهر حتى سنة ٨٦٦ هـ عندما تمكن أحد إخـــوة أبى دجانة من الاستيلاء على الشحر وطرد نائب بنى طاهر منها [٣] ، ولم يلبث أن تحكم فى طرق القوافل ، وأخـذ يعترض المراكب المتجهة إلى عدن [٤] . وأثارت تلك التصرفات ثائرة السلطان الظافر عامر فتجهز بنفسه فى حملة كبيرة لتأديبه ، ومما يذكر أن أجر الجمال التى استخدمت لحمل أثقالها يقـدر باثنى عشر ألف دينار ؛ وقد سلكت الحملة الطريق البرى الساحلى فى صفر ٨٦٦ هـ / نوفمـبر ١٤٦١ م ، ولما اقتربت من الشحر فر صاحبهـــا ، وتمكن السلطان من استرجاعها [٥] . ولما دخلتها قواته استباحت المدينة ونهبتها ، ولم تكف عنهـا إلا بعد أن أمر السلطان بذلك . أما الأسرى ، فقد أرسلهم السلطان فى السفن إلى عدن ، فلما أقر الأوضاع فيها أناب بها أحد أتباعه ، وعضده ببـدر بن عبد الله الكثيرى صاحب ظفار وحضرموت [٦] . وكان آل كثير ــ وهم

---

(١) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٥٨٩ .

(٢) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٠٠ .

(٣) بامخرمة : نفس المصدر والجزء ص ١١١٨ .

(٤) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٥٩١ .

(٥) بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١١٩ ، الكبسى : اللطـائف السنية ص ٢٢٣ .

(٦) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢٢ أ ، بغيـــة المستفيد ص ١٠٢ ، بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١٠٢٧ .

من همدان – ينقمون على أسرة أبي دجانة الكندي منذ انتزاعهم الشحر منهم سنة ٨٣٨ هـ [١] / ١٤٣٤ – ١٤٣٥ م.

٤ – مقتل السلطان الظافر عامر وانفراد أخيه المجاهد علي بالسلطنة :

أبدى بنو طاهر نشاطا حربيا ملحوظا لمد نفوذهم على صنعاء وما يليها شمالا ، بهدف القضاء على سيطرة الإمامة الزيدية عليها [٢] . ولم يتردد السلطان الظافر عامر في اغتنام الفرص المواتية لتحقيق هذا الهدف ، ففي ذي القعدة ٨٧٠ هـ / يونية ١٤٦٦ م خرج من عدن على أثر دعوة تلقاها من صنعاء يعرض فيها أصحابها استعدادهم لمساعدته في الاستيلاء عليها ، وعلى الرغم من تحذير أخيه المجاهد علي له من هذه المغامرة وتخويفه من الوقوع في مكيدة ربما يكون أهل صنعاء قد دبروها للايقاع به ، إلا أنه لم يأخذ بتحذيره. فلما وصل إلى صنعاء حملت القوات الزيدية عليه قبل أن يستعد للقتال ، فانهزم عسكره ، وثبت هو في قلة من خلصائه حتى سقط صريعا في السابع من ذي القعدة سنة ٨٧٠ هـ/ [٣] ٢١ يونية ١٤٦٦ م . ودوى خبر مصرعه في الآفاق ، وكان له أعمق الأثر في اضطراب البلاد وفي تحرك مطامع القبائل المتمردة ، سيما

---

(١) صلاح البكري : تاريخ حضرموت السياسي جـ ١ ص ٩٠ ، محمد بن هاشم العلوي : تاريخ الدولة الكثيرية ص ٢٩ .

(٢) انظر تفصيلات الصراع بين بني طاهر والامامة الزيدية في نهاية هذا الفصل ص ٣١٣ وما بعدها .

(٣) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢٤ أ ، بغية المستفيد ص ١٠٧ ، بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٢٩ .

للقبائل الضاربة بمنطقة تهامة ، وزاد ذلك من ثقل التبعات الملقاة على عاتق الى زبيد الذى بذل جهودا هائلة لإقرار الأوضاع فى البلاد .

كان السلطان المجاهد على إبان تلك الأحداث مشغولا بحصار حصن حب بمخلاف بعدان ، وقد أحكم حصاره على الحصن إلى حد أنه قطع الميرة والأقوات عن أهله حتى أشرفوا على الهلاك جوعا (١) ، فاضطروا إلى تسليمه إليه فى رجب ٨٧٠ هـ / فبراير ١٤٦٦ م . وما أن تحقق للمجاهد ذلك حتى قفل عائداً إلى عدن (٢) فلما بلغه فيها خبر مقتل أخيه غادر عدن إلى منطقة وداع ثم رحل منها الى ذى جبلة ومنها إلى زبيد ، وذلك بعد نجاح واليها فى تهدئة الأوضاع فى تهامة وتخفيف حدة التوتر فى المنطقة (٣) .

وفى عهد المجاهد اضطربت قبائل تهامة فاضطر إلى تجريد الحملات لاخماد حركاتهم التى استمرت تحتدم طوال عصر الطاهريين . وقد واصل السلطان المجاهد حملاته ضد تلك القبائل ، كما قام بجولات تفقد فيها بلاده إلى أن توفى فى العاشر من ربيع الآخر سنة ٨٨٣ هـ (٤) / ١١ يوليه ١٤٧٨ م ، بعد حكم دام

---

(١) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢٤ أ .

(٢) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٠٧ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٠٠ .

(٣) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢٤ ب ، بغية المستفيد ص ١٠٨ ، بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٢٩ .

(٤) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢٨ أ ، بغية المستفيد ص ١٢٤ ، بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٤١ الشبلى اليمنى : السنا الباهر ص ٢٠٠ ، ٢٠٢ .

ربع قرن ، قضى نصفه الأول شريكا لأخيه الظافر عامر ، وانفرد في النصف الثاني بعرش السلطنة وقد تجنب ـ طوال عهده ـ الاصطدام بالقوى الزيدية وقنع بإقرار الأوضاع في البلاد وإخماد حركات القبائل المتمردة .

ثالثا ـ الدولة الطاهرية بعد المجاهد :

ا ـ سلطنة المنصور عبد الوهاب بن داود بن طاهر :

خص المجاهد علي بن طاهر ابن أخيه عبد الوهاب بن داود برعايته لما توسم فيه من كفاية ومقدرة ، فأدناه إليه ورفع منزلته ، واختاره وليا لعهده قبل وفاته بست سنوات ، ففي المحرم ٨٧٧ هـ / يونية ١٤٧٢ م مرض المجاهد على مرضا شديدا أشرف منه على الموت ، فاستدعى ابن أخيه عبد الوهاب بن داود وعهد إليه بأمر البلاد من بعده ، ولكن المجاهد لم يلبث أن تماثل للشفاء [١] وامتد به الأجل ست سنوات أخرى . فلما توفي في ربيع الآخر ٨٨٣ هـ / يولية ١٤٧٨ م أجمع بنو طاهر على تولية عبد الوهاب بن داود ـ تنفيذا لعهد المجاهد له ـ ولقبوه بالمنصور . وكان سلاطين بني طاهر يحرصون على تأكيد سيطرتهم على عدن خشية أن تخرج عن طاعتهم فيفقدون بذلك موردا رئيسيا من موارد دولتهم طالما حرصوا على بقائه وتنميته ، ولهذا السبب بادر المنصور عبد الوهاب على أثر مبايعته بالتوجه إلى عدن [٢] ، فوصلها بعد ثلاثة أيام من وفاة عمه [٣] . ولما كان دخول عدن لا يتم إلا

---

(١) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢٦ أ ، ١٢٨ ب ، بغية المستفيد ص ١١٥ ، بامخرمة : قلادة النحر ج ٢ ١١٣١ و ١١٣٧ .

(٢) بامخرمة قلادة النحر ج ٢ ص ١١٣٤ .

(٣) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢٨ ب ، بغية المستفيد ص ١٢٧ .

بتصريح خاص من السلطان بسبب حرص بنى طاهر الشديد وخوفهم من الانقسامات والصراعات على العرش بين أفراد أسرتهم ، وفى نفس الوقت لم يكن والى عدن قد علم بوفاة المجاهد واستخلاف المنصور عبد الوهاب ، ولهذا عمد السلطان الجديد إلى تجنب هذا الموقف ، وأبرز إذنا بدخولها كان قد وقعه السلطان المجاهد له قبل وفاته بقليل ، للسماح له بدخول عدن لاستقبال السفن الواردة ، وتجهيز البضائع الصادرة [1] . فلما استقر بالمدينة اجتمع بواليها وكبار رجالها وأهل الحل والعقد فيها وأخبرهم بوفاة عمه واعتلائه عرش السلطنة فبايعوه ، ولم يلبث أن غادرها بعد أن دبر أمورها وقرر قواعدها وسار بالناس سيرة جميلة وفرق فى العسكر أموالا جزيلة وكساوى جليلة ، [2] .

٣ ـ التنافس على عرش السلطنة :

حرص بنو طاهر منذ قيام دولتهم على عدم الدخول فى منافسات على الملك ، ولذلك اشترك الأخوان الظافر عامر والمجاهد على فى عرش السلطنة ولهذا السبب أيضا كان الدخول إلى أية مدينة محظورا بغير إذن موقع من السلطان ، كما كان السلطان يستصحب معه رجالات الأسرة إذا توجه على رأس حملة ، أو خرج لتفقد أحوال بلاده ، حتى لا يتهيأ لأحد منهم انتزاع الملك منه أثناء غيابه . وقد نجحت هذه السياسة فى فترات اشتراك الظافر عامر والمجاهد على فى الحكم .

---

(١) بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٤١ .

(٢) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٠٨ ب ، بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٤٢ .

فلما توفى الظافر عامر الأول ، واستقل أخوه الأكبر المجاهد على بالملك واصل تنفيذ هذه السياسة . ويبدو أن السلطان المجاهد لم يخلف عقبا ، ولذلك عهد بالملك من بعده إلى عبد الوهاب بن داود ابن أخيه ، مما أثار سخط بعض أبناء السلطان الظافر عامر بن طاهر الذين كانوا يرون أنهم أحق بالسلطنة منه ، باعتبار أن أباهم كان شريكا للمجاهد فى الملك . وهم على هذا النحو أصحاب الحق الشرعى فى وراثة الملك عن أبيهم سيما أن المجاهد لم يكن له عقب .

ومع أن أبناء الظافر عامر قد امتثلوا لعهد عمهم ، وبايعوا المنصور عبد الوهاب بن داود بالسلطنة ، إلا أن ذلك لم يتم عن اقتناع ، فقد عز عليهم أن تخرج السلطنة منهم فقرروا النكث ، واستغلوا فرصة توجه المنصور عبد الوهاب إلى عدن لإقرار الأوضاع فيها ، والعمل على تأكيد سيطرته على البلاد ، حتى شق يوسف بن الظافر عامر عصا الطاعة ، وأعلن الخروج على السلطان الجنيد [1] ، ولم يلبث أن استقل بحكم مدينة زبيد واتخذها قاعدة له طمعا فى استكمال السيطرة على بقية البلاد والاستيلاء على عرش السلطنة ، ثم أقدم على إبطال الخطبة فى زبيد للسلطان المنصور عبد الوهاب ، وجعلها لبنى طاهر عامة [2] ، واستعد لمواجهة السلطان ، فرتب المقاتلة على سور المدينة وأرغم أهلها على حمل السلاح والدفاع عنها ، وهددهم بالانتقام إذا حاولوا الانتقاض عليه والخروج عن طاعته . فلما علم السلطان المنصور

---

(١) بامخرمة : قلادة النحر جـ٣ ص ١١٣١ .

(٢) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٢٧ .

عبدالوهاب بذلك أسرع بالتوجه إلى زبيد، فوصلها فى جمادى الأولى سنة ٨٨٣ هـ/ أغسطس ١٤٧٨ م ، وبدأ بالسعى لاقناع يوسف بن عامر بالعدول عن الخلاف ، والعودة إلى طاعته ، ولكن ذلك لم يزده إلا تمسكا بالخلاف (١) .

ثم أنه أقدم على الاستعانة بمماليك زبيد لمواجهة الموقف ، فأمر بخروجهم للدفاع عن المدينة من الخارج إذا ما اقتربت قوات السلطان من السور ولكن المماليك أسرعوا بمجرد خروجهم بالتوجه إلى معسكر السلطان ، وأعلنوا انضمامهم إليه ، فلما رأى يوسف ذلك خرج فى أثرهم من المدينة لإعادتهم (٢) ولكن أهل زبيد أغلقوا باب المدينة ، وصاح صائحهم بالطاعة للملك المنصور عبد الوهاب ، ولم يمكنوا يوسف بن عامر من العودة إليها . وكان يوسف قد شحن حصن قوارير بالقرب من زبيد بالطعام والسلاح ، فأراد التوجه إليه والتحصن فيه ، ولكنه لم يتمكن من الوصول إليه لشدة الظلام ، وخشى أن يقع أسيراً ويتعرض لانتقام السلطان ، فنصحه بعض أتباعه بالتوجه إلى السلطان والاعتذار له والدخول فى طاعته ، فسار بمن معه تجاه معسكر السلطان ، فلما اقترب اضطرب المعسكر ظنا منهم أنه إنما جاء لحرب . ولكن لم تكن قلوبهم إلا بعد ما أعلن أنه إنما قدم طائعا للسلطان ، وأظهر ندمه عما بدر منه (٣) .

أما السلطان المنصور عبد الوهاب ، فقد استقبل ابن عمه يوسف بن عامر

---

(١) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢٩ أ ، بغية المستفيد ص ١٢٧ ، بامخرمة قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٤٢ .

(٢) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢٩ أ ، ، بغية المستفيد ص ١٢٨ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦١٠ .

(٣) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢٩ ب ، بغية المستفيد ص ١٢٨ ، بامخرمة : قلادة النحر جـ٣ ص ١١٤٢ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦١٠ .

استقبالا حسنا ، ولم يزد عن مجرد معاتبته برفق ، وتكفل له الاطمئنان وأنزله بمخيم أخيه أحمد بن عامر الذى ظل على ولائه للسلطان . فلما كان صباح اليوم التالى ، الثانى عشر من جمادى الأولى ٨٨٣هـ/ ١١ أغسطس ١٤٧٨م دخل الجميع مدينة زبيد [١] ، وهناك أقبلت وفود القبائل معربة عن ولائها للسلطان ، فأجزل لها العطاء [٢] . وأقام فترة فى زبيد لإقرار الأوضاع فيها .

لم يطمئن يوسف بن عامر ، وتوجس خيفة من انتقام السلطان ، ولهذا طلب السماح له بالخروج من زبيد ومغادرة اليمن ، ولم يوافق السلطان إلا بعد إلحاح من أحمد ابن عامر - أخى يوسف - الذى كانت له عند السلطان منزلة رفيعة ، وخرج يوسف من زبيد فى الثالث عشر من جمادى الأولى ٨٨٣هـ/ ١٢ أغسطس ١٤٧٨ م وركب إحدى السفن إلى الحجاز ، فأقام مكرما لدى الشريف محمد ابن بركات أمير مكة [٣] . وحاول يوسف أثناء مقامه فى مكة الحصول على مساعدة شريفها للاستيلاء على اليمن ، ولكن الشريف لم يوافقه على ذلك [٤] .

---

(١) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢٩ ب ، بامخرمة : قلادة النحر حـ ٣ ص ١١٣٤ .

(٢) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٢٨ ، بامخرمة : قلادة النحر حـ ٣ ص ١١٤٢ .

(٣) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢٩ ب ، بغية المستفيد ص ١٣٠ ، بامخرمة : قلادة النحر حـ ٣ ص ١١٤٢ .

(٤) الكبسى : اللطائف السنية ص ٢٢٦ .

ولعل هذا الموقف من أمير مكة أيأسه من نصرته، فقد ظل يوسف بن عامر يراوده الأمل للوصول إلى العرش، ولهذا السبب قرر العودة إلى اليمن، وتم ذلك في سنة ٨٨٤ هـ / ١٤٧٩ م . ولخوفه من السلطان المنصور عبد الوهاب اتصل ببني حفيص[١] الزيديين[٢] الثائرين على بنى طاهر واستجار بهم ، فأكرمه زعيمهم الشيخ أحمد بن أبي الغيث وزوجه بإبنته ، فلما علم السلطان بذلك توجه على رأس حملة إلى بلاد بنى حفيص شمالى زبيد ، واستصحب معه أحمد بن عامر ـ أخا يوسف بن عامر ـ ولم يلجأ السلطان إلى القتال إلا بعد أن أخفق فى تسوية الخلاف . ودارت المعركة فى ذى القعدة سنة ٨٨٤ هـ[٣] / يناير ١٤٨٠ م ، فتمكن بنو حفيص من قتل أحمد بن عامر . فلما علم أخوه يوسف بمقتله انضم إلى المعسكر السلطانى طلبا لثأر أخيه من بنى حفيص ، وانتهت المعركة بهزيمة بنى حفيص ومقتل عدد كبير منهم ، وعاد يوسف بن عامر مع السلطان المنصور عبد الوهاب إلى زبيد ومنها إلى تعز[٤] . والظاهر أن يوسف ظل يسعى إلى السيطرة على العرش ، إذ صدر الأمر بإعتقاله فى سنة ٨٨٥ هـ / ١٤٨٠ م بحجة عدم ولائه ، وظل سجينا بسجن مدينة رداع[٥]

---

(١) عن ثورات بنى حفيص الزيديين انظر فيما يلى ص ٣٠٠ .

(٢) الزيديون قبائل ـ خلاف أتباع المذهب الزيدى ـ ويقطنون المنطقة الواقعة شمالي زبيد في مدينة الزيدية المسماه باسمهم، وما حولها .

(٣) بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٢٤ .

(٤) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٣٠ ـ ١٣١ ، بامخرمة : نفس المصدر ص ١١٦٢ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦١١ .

(٥) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٣١ ، بامخرمة : نفس المصدر ص ١١٦٣ .

حتى توفى فى سنة ٩٠٨ هـ (١) / ١٥٠٢ م .

ولكن وفاته لم تضع حداً لمحاولات أبناء الظافر عامر بن طاهر للاستيلاء على العرش ، فنى جمادى الأولى سنة ٨٩١هـ / مايو ١٤٨٦م قام إبراهيم بن عامر بمحاولة أخرى ، ولـكنها باءت بالفشل وانتهى أمره بالقبض عليه وإيداعه سجن رداع قبل أن يستفحل أمره (٢) .

وهكذا كرس المنصور عبد الوهاب جهوده للقضاء على منافسات خصومه التى بدأت فى عهده ودافع عن عرشه ، وجهز الكثير من الحملات للقضاء على الحركات الداخلية المعادية . ولم تفتر عزيمته حتى توفى بمدينة جبن من بلاد رداع ليلة السابع من جمادى الأولى سنة ٨٩٤ هـ (٣) الموافق ٨ إبريل ١٤٨٩م .

٣ — عهد الظافر عامر الثانى :

كان المنصور عبد الوهاب بن داود بن طاهر قد عهد بالملك من بعده لابنه صلاح الدين عامر . فلما توفى المنصور بويع ابنه عامر سلطانا على البلاد ، ولقب بالسلطان الظافر . فلما تمت بيعته بدأ فى ترتيب أمور دولته ، وأخذ يطوف فى أنحاء بلاده ليتفقد أحوالها ويقر الأوضاع فيها (٤) .

---

(١) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٣٠ أ .

(٢) ابن الديبع : بغية ص ١٤٢ ، بامخرمة : نفس المصدر ص ١١٦٦ .

(٣) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٣٢ أ ، بامخرمة : نفس المصدر ص ١٣٧ و ١١٦٨ ، الشبلى : السنا الباهر ص ٢٠٠ .

(٤) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٣٣ ب — ١٣٤ أ ، بغية المستفيد ص ١٤٩ ، بامخرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١١٦٨ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦١٥ — ٦١٦ .

وكان أبناء الظافر عامر الأول يطمعون في الاستيـــلاء على السلطنة منذ انتقالها من المجاهد علي إلى ابن أخيه عبد الوهاب بن داود . وكان لاستمرار السلطنة في أعقاب عبد الوهاب بن داود ممثلة في الظافر عامر الثاني أعظم الأثر في قيام كل من عمر ومحمد وعبد الله أبنـــاء الظافر عامر الأول بالثورة على السلطان الجديد ، وقامت جموع أتباعهم وغيرهم من الناقمين بنهب مدينة جبن من بلاد رداع ، واستولوا على حصنهـا . ولم يتردد الظـافر عامر الثـاني في التحرك ، فخرج في جمـادى الأولى سنة ٨٩٤ هـ / ابريل ١٤٨٩ م على رأس حملة ضخمة للقضاء على ثورتهم [١] . فلما علم عبد الله بن عامر بقرب وصوله ، خرج من مدينة جبن في مجموعة من أتباعه ، وقام السلطان بحصار حصن جبن ما يقرب من شهرين ، إلى أن تم التوصل إلى عقد صلح مع عمر ومحمد ابني عامر على أن يقطعهما السلطان إقطاعات حددها بالإضافة إلى جامكية سنوية قدرت بأربعين ألف دينار [٢] .

قام السلطان برفع الحصار عن مدينة جبن بعد عقد الصلح وتسوية الخلافات مع أبناء الظافر عامر الأول ، ولكنه ما أن رحل عنها لتفقد بعض المناطق حتى بلغه قيام أبناء عامر بن طاهر بنقض الصلح ، وخروج محمد بن عامر على رأس حملة للاستيلاء على تعز ، فلقي مقاومة عنيفة من أهلها ، وباءت حملته بالفشل [٣] .

---

(١) بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٦٩ .

(٢) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٥٠ ، بامخـرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٦٨ ، يحيى بن الحسين : غاية الأماني ص ٦١٦ .

(٣) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٣٤ ب ، بغية المستفيد ص ١٥١ ، يحيى بن الحسين : غاية الأماني ص ٦١٦ .

كما أسرع السلطان لمواجهته ، ووقعت بينه وبين السلطان معركة ضارية فى رمضان سنه ٨٩٤ هـ / أغسطس ١٤٨٩ م ، أسفرت عن هزيمة ابن عامر ومقتل خمسمائة وأربعين رجلا من أتباعه ، وغنم السلطان كثيرا من الأموال والعتاد[1].

لم يهنأ السلطان بانتصاره ، إذ سرعان ما انضم عبد الباقى بن محمد بن طاهر إلى الثوار ، وخرج على رأس حملة ثانية إلى عدن فى رمضان سنة ٨٩٤ هـ / أغسطس ١٤٨٩ م ، ومعه مجموعة من السلالم الخشبيه ليستخدمها رجاله فى اقتحام أسوارها [2] . ولكنه لم يستطع الاقتراب بقواته من الأسوار لشدة مقاومة القائمين بالحراسة عليها . وفى نفس الوقت استشعر محمد بن عبد الملك بن داود والى عدن وابن عم السلطان بالخطر لعدم توفر العدد الكافى من الجند للدفاع عن المدينة ، ولهذا انتهز فرصة وجود السفن التجارية بميناء عدن ، وكانت تضم حراسا مسلحين ، فاستعان بهم ورتبهم للدفاع عن المدينة [3] ، وقد قبل أصحاب السفن قيام رجالهم بهذه المهمة خوفا من أن تتعرض بضائعهم للنهب فى حالة سقوط المدينه فى أيدى المهاجمين . فلما أحس والى عدن بنجاحه فى الدفاع عن المدينة ، أعد العدة وخرج من عدن لمحاربة عبد الباقى وأتباعه وتمكن من إيقاع الهزيمة به وأسر عدد كبير من أتباعه ، سجن بعضهم وقام بكحل الباقين [4] ، أما عبد الباقى بن محمد بن طاهر فقد أفلح فى النجاة

---

(١) بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٦٩ .

(٢) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٠٢ .

(٣) بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٦٠ .

(٤) بامخرمة : نفس المصدر والصفحة .

بنفسه (١) .

أما زبيد فقد كان يتولاها الأمير محمد بن عيسى البعدانى ، وكان معظم عساكره بزبيد خليط من أجناد ينتمون إلى المدن التي استولى عليها عبد الله ابن عامر ، ولذلك فقد كانوا يميلون إلى عبد الله بن عامر تجنبـــا لانتقامه من ذويهم إذا ماساعدوا أعداءه ضده ، ونجح هؤلاء الجند فى ضم أحمد بن محمد المعروف بالمقرطس شيخ دار الضرب بزبيد إليهم ، وكان الوالى البعدانى متزوجا

---

(١) ابن الديبع : قرة العيـــون ص ١٢٥ أ ، بغية المستفيد ص ١٥٢ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦١٧ . (لم يأمن عبد الباقى على نفسه بعد الهزيمة ، ففر إلى ساحل إفريقية الشرقى فى شعبان سنة ٨٩٧ هـ/يونية ١٤٩٢م، فلما علم السلطان الظافر الثانى أرسل إلى المجاهد بن سعد الدين أحد أمراء ممالك الطراز الإسلامى يطلب منه التحفظ عليه وإعادته ، فقام هـذا بالقبض عليه . وحدث أثناء وجوده هناك أن أغار صاحب الحبشة على ابن سعد الدين فاشترك عبد الباقى فى الجهـــاد وقام بدور كبير فى مساندة قوات المسلمين . فأكرمه ابن سعد الدين ولم يتعرض له بسوء ، وسمح له بالعـودة إلى اليمن ، فلجأ إلى قبائل يافع واستقر عندهم) باخرمة : قلادة النحر جـ٣ ض ١١٧٢ ، (وظل مقيما هناك حتى تم اعتقـاله وسجنه فى جمادى الآخـر سنة ٩٠٣ هـ/ يناير ١٤٩٨ م) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٤٢ أ ، الفضل المزيد على بغية المستفيد ـ مخطوط مصور بدار الكتب رقم ٩٠٨٧ تاريخ ـ ص ٣٣ أ ، باخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٨٧ . (فظل سجينا إلى أن عفـا السلطان عنه سنة ٩٢١هـ/ ١٥١٥ م وأخرجه مع ابراهيم ومحمد ابنى عامر) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٥٥ أ . (عندما اضطربت أحوال البلاد داخليـا وتعرضت للغزوات الجراكسة من ناحية أخرى) .

من أخت المقرطس الذى كان بحكم المصاهرة مقربا من هذا الوالي يدخل عليه وقتما شاء بغير استئذان ، فاستغل المقرطس هذه الصلة وتآمر على قتله (١) تمهيدا للاستيلاء على زبيد لعبد الله بن عامر . فى الثانى عشر من رمضان سنة ٨٠٤ هـ / ٩ أغسطس ١٤٨٩ م دخل المقرطس وبصحبته رجلين من أتباعه على الوالى الذى لم يكن عنده وقتئذ إلا خادمه الذى اعتاد ملازمته ، فلما هم المقرطس بالانقضاض عليه أشار البعدانى إلى خادمه فضرب المقرطس بالسيف ضربة قطع بها عضده ، ونجا الوالي وتمكن من قتل المقرطس وزميليه والقبض على شركائهم (٢) . وعلى إثر ذلك أرسل الوالى إلى السلطان يبلغه بخبر المؤامرة ويطلب إليه إمداده بقوة عسكرية عوضا عن الحامية التى لم يعد يأمن جانبها . وتأمينا للموقف استعان بأهل وصاب فأمدوه بخمسمائة رجل إلى أن وصلته الامدادات من السلطان ، فأنعم على أهـــل وصاب وكافأهم وأعادهم مكرمين إلى بلدهم (٣) .

لم تتوقف المنازعات فى سنة ٨٩٥هـ / ٤٩٠ م ، وخاصة بعد أن تمكن أبناء عامر بن طاهر من السيطرة على بعض الحصون والمناطق (٤) ، ودارت بينهم وبين السلطان الظافر الثانى عدة معارك انتصر السلطان فى معظمها (٥) . وكان

---

(١) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٣٥ أ .

(٢) ابن الديبع : بغية المستفيد ص١٥٣ ، بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص١٢٨ أ ، و ١١٦٩ — ١١٧٠ .

(٣) ابن الديبع : نفس المصدر ص١٥٤ ، بامخرمة . قلادة النحر جـ٣ ص ١١٧٠ .

(٤) بامخرمة : نفس المصدر والصفحة .

(٥) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٥٦ ، بامخرمة : نفس المصدر ص ١١٧٠ — ١١٧١ .

عبد الله بن عامر أكثر إخوته نشاطا فقد نجح في الاستيلاء على حصن جبن، ولكن السلطان بادر بمحاصرته في ربيع الأول سنة ٨٩٥ هـ / يناير ١٤٩٠ م، ونشبت بينهما عدة معارك قتل فيها عدد كبير من المتمردين، غير أن عبد الله ابن عامر تمكن من الفرار بأهله وأمواله إلى رباط قريب من مدينة جبن، ينشد فيه المنعة والأمان، ويتخذه مركزا يبث منه الغارات على أطراف معسكر السلطان أثناء قيامه بحصار مدينة جبن (١)، فلما تعددت إغاراته لم يجد السلطان بداً من الاغارة على الرباط وانتهاك حرمته، فاختار من كل قبيلة من القبائل الموالية له جماعة وأمرهم بقتل كل من يجدوه بالرباط دون الاقدام على نهبه. وعلى هذا النحو تمكن من إيقاع الهزيمة بعبد الله بن عامر الذى تمكن من النجاة مرة أخرى. وغنم عسكر السلطاني كثيرا من الغنائم، ولكن السلطان أمرهم برد ما استولوا عليه، ما عدا ما يتعلق بالثوار من بني طاهر (٢).

وواصل السلطان حصاره لحصن جبن إلى أن تسلمه في جمادى الأولى سنة ٨٩٥هـ / مارس ١٤٩٠ م بعد أن أصدر أمانا لجميع المحصورين فيه (٣)، وبر السلطان بوعده معهم فيما عدا والدة يوسف بن عامر، فقد تحفظ عليها

---

(١) باخرمة: نفس المصدر ص ١١٧١.

(٢) ابن الديبع: نفس المصدر ص ١٥٦ - ١٥٧، باخرمة نفس المصدر والصفحة.

(٣) ابن الديبع: قرة العيون ص ١٣٩ أ، يحيى بن الحسين: غاية الأماني ص ٦٠٢.

باعتبارها المحرضة على إشعال نار هذه الفتنة (١) .

وعلى الرغم من نجاح السلطان فى إحباط الثورة ، إلا أنه واصل مطاردة زعمائها خوفا من تجدد ثورتهم وتمكن فى نهاية الأمر من القبض عليهم . ففى شوال سنة ٨٩٦ هـ / أغسطس ١٤٩١م حاصر محمد بن عامر ، وتمكن فى أول ذى الحجة من اعتقاله وإيداعه سجن رداع واستولى على ما كان بيده من الحصون (٢) .

أما عبد الله بن عامر فكان قد أرسل عبداً له إلى تعز فى مهمة فاكتشف أمره ، ولما قبض عليه فى شوال سنة ٩٠٥ هـ / مايو ١٥٠٠ م دل على مخبأ سيده فسهل بذلك عملية اعتقاله . وقيل أنه كان مختبئا بإحدى قرى وادى مكسب — بالقرب من مدينة يفرس من أعمال الحجرية — فتعرف عليه حداد وأبلغ عنه شيخ الناحية الذى تمكن من إعتقاله ، وتوجه به إلى تعز بناء على أمر السلطان ، ولما تأكد السلطان من القبض عليه أرسل له قميصا وعمامة ورداء أماناً له ، واستقبله لدى وصوله إلى تعز إستقبالا حسنا ، ولكنه لم يلبث أن اعتقله وقيده (٣) وأودعه سجن رداع (٤) فظل سجينا فيه حتى توفى

---

(١) ابن الديبع . قرة العيون ص ١٣٦ أ ، بغية المستفيد ص ١٠٧ ، بامخرمة : قلادة النحر جـ٣ ص ١١٧١ .

(٢) بامخرمة : نفس المصدر ص ١١٧٢ ، يحيى بن الحسين . غاية الأمانى ص ٦١٩ .

(٣) ابن الديبع . الفضل المزيد على بغيه المستفيد ص ٣٥ أ .

(٤) ابن الديبع . قرة العيون ص ١٤٢ ب ، الفضل المزيد ص ٣٥ ب ، بامخرمة . نفس المصدر ص ١١٨٨ .

فى شوال سنة ٩٠٧ هـ / (١) إبريل ٢ ١٥ م . وباعتقـــاله انتظم ولاء أبناء الأسرة للسلطان الظافر عامر الثانى (٢) . ولهذا تفرغ للقضـاء على حركة القبائل الخارجة عن الطـاعة ، وتمكنت قواته من فرض السيطرة على البلاد وتوالت وفود القبائل عليه للاعراب له عن الطـــاعة والولاء ، فأجزل لهم السلطان العطاء (٣) .

وهكذا صرف السلطان الظافر عامر الثانى جهوده للتخلص من المنافسين له من أسرته ، كما بذل جهدا كبيرا للقضاء على ثورات القبـائل ، ولم يشغله ذلك على العمل لبسط نفوذه على المناطق التى كان أئمة الزيدية يسيطرون عليهـا ، حتى تحقق له الاستيلاء على صنعاء وعلى كثير من المدن والحصـون الواقعة إلى الشمال منها . ويمكننا القول بأن دولة بنى طاهر بلغت فى عهـده أقصى اتساع لها .

وكان لظهور الخطر البرتغالى فى المحيط الهندى والبحر الأحمر فى عهد السلطان الظافر عامر الثانى ، كما كان لموقفه المعـادى من الحملات التى أرسلها السلطان الغورى لمحاربة البرتغاليين أثره فى تحول القوات المملوكية عن مهمتها الأساسية، إلى القيام بغزو اليمن والتوغل إلى صنعاء ، ومقتل السلطـان الظافر عامر

---

(١) ابن الديبع: قرة العيون ص ١٤٦ أ، الفضل المزيد ص ٣٧ ب ، بامخرمة: نفس المصدر ص ١٨٠ أو ١١٩٠ .

(٢) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٤٤ أ .

(٣) ابن الديبع : الفضل المزيد ص ٣٧ أ .

الثانى في إحدى معاركه ضد المماليك عند صنعاء فى الثالث والعشرين من ربيع الآخر سنة ٩٢٣ / [1] ١٥ مايو ١٥١٧ م .

٤ ـ الموقف بعد مقتل السلطان الظافر عامر الثانى ـ

تدهورت الأحوال فى البلاد وازدادت سوءا بعد مقتل السلطان الظافر عامر بن عبد الوهاب فقد نشط أئمة الزيدية لاستكمال السيطرة على بلاد اليمن. كما اضطرت القوات الجركسية إلى الاستقرار فى اليمن بعد أن أعلن فالدها الولاء للفاتح العثمانى السلطان سليم ، الذى أجهز على دولة الجراكسة ، واستولى على الشام ومصر ، ودخلت الحجاز فى طاعته .

أما فيما يتعلق ببنى طاهر ، فيجدر القول بأن دولتهم سقطت بمقتل السلطان الظافر عامر بن عبد الوهاب فى سنة ٩٢٣هـ/١٥١٧م ، على الرغم من احتفاظ بعض أمراء الأسرة ببعض المناطق وأهمها عدن . ومن العجب أن يستمر التنافس والصراع بين بقايا بنى طاهر رغم كل تلك المخاطر التى كانت تستوجب تكتل جهودهم ووحدة صفوفهم لإحيـــاء دولتهم . وعلى الرغم من وفاة السلطان الظافر فى ربيع الآخر سنة ٩٢٣هـ ، فقد استمرت الخطبة فى عدن باسمه إلى الجمعة الأولى من عام ٩٢٤ هـ . وكان أحمد ابن السلطان القتيل هو القائم بالأمر والنهى فى مدينة المقرانة ببلاد رداع . كما كان مرجان بن عبد الله الظافرى يقوم بتنفيذ أوامره ، ولكنه لم يبدأ فى إعلان الخطبة له فى عدن إلا إبتداء

---

(١) العيدروسى : النور السافر ص١١٨ ، الشبلى اليمنى : السنا الباهر ص ١١٩ و ٢٠٤ ، الكبسى : اللطائف السنية ص٢٣٩ . (لمزيد من التفصيلات انظر ، الفصل الخامس) .

من الجمعة الثانية من سنة ٩٢٤هـ/يناير ١٥١٨م، ولم يقدر لهذه الخطبة أن تستمر له أكثر من جمعتين لوفاته (١)

وهكذا أصابت الكوارث دولة بني طاهر وعصفت بهم النوائب والنكبات ولكن من بقى منهم لم يعتبر بكل هذا، ولم يسع إلى تضافر الجهود لاستعادة أركان تلك الدولة المنهارة، وإنما انساقوا وراء أطماع الملك، تجرفهم تيار التنافس. فلما توفي أحمد بن الظافر عامر الثاني في أوائل سنة ٩٢٤هـ، اتفق أهل الحل والعقد في مدينة المقرانة على مبايعة عامر بن عبد الملك بن داود وخطب له في عدن بأمر واليها مرجان الظافري، كما خطب له أيضا في البلاد التي ظلت تحت سيطرة بني طاهر كالمقرانة ورداع وإب وذي جبلة (٢). ولكن لم يمض وقت طويل حتى خرج أحمد بن محمد بن عامر بن طاهر عن طاعته واستقل بحكم مدينة رداع، فسير إليه عامر بن عبد الملك قوة أوقعت به الهزيمة، فتحصن بقلعة المدينة، وقام جند عامر بنهب المدينة وتخريب مزروعاتها، فاضطر أحمد بن محمد بن عامر إلى طلب الدخول في طاعة عامر بن عبد الملك وعقد صلح معه، وأقام في المقرانة إلى أن توفي عامر بن عبد الملك مسموما في آخر رمضان ٩٢٥هـ(٣)/سبتمبر ١٥١٩م.

وعلى الرغم من اتفاق أهل الحل والعقد في مدينة المقرانة على تولية أحمد ابن محمد بن عامر بن طاهر السلطنة من بعده، إلا أنه لم يحظ بتأييد الأمير

---

(١) بامخرمة: قلادة النحر جـ٣ ص ١٢٠٧.

(٢) بامخرمة: قلادة النحر جـ٣ ص ١٢٠٧.

(٣) بامخرمة: نفس المصدر ص ١٢٠٨.

مرجان الظافرى والى عدن الذى : « لم تطلب نفسه بمبايعته » ، ولكنه « لم يمكنه فى الظاهر إلا موافقة الجماعة»(١). وكان مرجان يخشى أن ينتزع بنو طاهر عدن منه ، ولهذا حرص على عدم تمكينهم منها ، وتحايل على إختلاق المشاكل وشغلهم بحلها وتوريطهم فى حروب تصرفهم عن قصد عدن ، فأرسل مرجان إلى أحمد بن محمد بن عامر يغريه بمحاربة القوات المملوكية الموجودة فى مدينة تعز . ولإخفاء نواياه قام بإمداده ببعض القوات تعزيزا له ، فلما التحمت قوات أحمد بن محمد بن عامر فى معركة مع المماليك حول تعز ، وكاد أن يحرز النصر عليهم ، انسحبت الفرقة التى أرسلها مرجان من ميدان المعركة وخذلت أحمد بن محمد بن عامر وتركته فى قلة من أتباعه ، مما أدى إلى هزيمته ، ولم يتمكن من الفرار إلا بعد عناء (٢) . ولم يكتف مرجان الظافرى بذلك ، وإنما أخذ يبث الأموال بين القبائل التى كانت تؤيد أحمد بن محمد بن عامر حتى تخلت عنه (٣) .

واستمر مرجان الظافرى يعمل على تقويض البقية الباقية من بنى طاهر كما سعى إلى إشعال التنافس بينهم من جديد ، فأظهر ميله إلى أحدهم وهو عبد الملك بن محمد بن عبد الملك ، واجتمع به خارج عدن سنة ٩٢٦هـ/ ١٥٢٠م وبايعه ، ووعده بالسماح له بدخول عدن بعد القيام بمحاربة أحمد بن محمد ابن عامر والتخلص منه (٤) . وهكذا يتضح لنا أن السيطرة على عدن كانت

(١) بامخرمة : نفس المصدر والصفحة .

(٢) بامخرمة: نفس المصدر والصفحة.

(٣) بامخرمة: نفس المصدر السابق ص ١٢٠٩ .

(٤) بامخرمة : نفس المصدر ص ١٢١٠ .

فى حد ذاتها الفيصل لإثبات المقدرة على استحقاق السلطنة ، بحيث أصبحت القبائل لا تنقاد لأحد من بنى طاهر إلا إذا كان مسيطرا على تلك المدينة متصرفا فى أمورها ، يدخلها متى شاء دون أن يعترضه واليها . ومن الجدير بالذكر أن الرسوم المتحصلة على التجارة فى عدن لم تعد تكفى لمجرد مواجهة الاعباء الخاصة بها والدفاع عنها فبعد أن كان السلطان يعتمد على جزء من مواردها ، لجأ الوالى مرجان الظافرى إلى الاستيلاء على مغل لحج ليستعين به فى مواجهة متطلباته [1] ، واتسمت تصرفاته بالتحكم المطلق فى عدن وأصبح صاحب الأمر والنهى فيها ، ولهذا كان يخشى دخول أحد أفراد البيت الطاهرى إليها خوفا على مركزه . وقد حاول عبد الملك بن محمد بن عبد الملك دخول المدينة ، ولكن مرجان كان يسوف ويماطل ، ولم ييأس عبد الملك ، فما زال يكاتبه ليأذن له فى الدخول إليها والمقام فيها ولو لأيام يتمكن خلالها من التجهيز لمقاتلة غريمه أحمد بن محمد بن عامر ، وأخيرا سمح له مرجان بدخولها فى ربيع الأول سنة ٩٢٧ هـ/ فبراير ١٥٢١ م ، وتظاهر مرجان بالاحتفال بمقدمه ولكنه كان يترصده ويحصى عليه حركاته ، ويبث حوله العيون ، فكان لا يدخل إليه أحد من الناس إلا وعلم به مرجان [2] . وكان عبد الملك يعلم بهذا الحصار الذى فرضه عليه مرجان ، ورغم ذلك كان عبد الملك يمهد لضم العسكر إلى صفه ، وأسفرت جهوده عن استمالة قبائل يافع إلى طاعته . فلما فطن مرجان إلى ذلك أخذ يطالب عبد الملك بالخروج من عدن للتخلص من أحمد بن محمد ابن عامر ، ولكن عبد الملك كان يعتذر بقلة ما لديه من المال للنفقة ، واستكمال تجهيز العدد اللازم من الجند لمحاربة منافسه ، وكان عبد الملك يرمى من وراء

---

(١) بامخرمة : قلادة النحر جـ٣ ص ١٢١٠ .

(٢) بامخرمة : نفس المصدر والصفحة .

ذلك أن يمده مرجان بالعسكر الذى يستطيع استخدامه فى محاربة مرجان نفسه وانتزاع عدن منه .

وندم مرجان الظافرى على سماحه بدخول عبد الملك إلى عدن ،وأدرك أنه تورط فى هذا الأمر ، وأحس بنواياه العدوانية ، وعندئذ أخذ يدبر اغتيـاله أثناء قيامه بالصلاة بالمسجد ، ولكن عبد الملك اكتشف المؤامرة ولم يتوجـه للصلاة ، وأصبح محتما عليه مواجهة مرجان ومحاربته تمهيـداً للسيطرة على عـــدن [١].

وتتوقف المصادر عن متابعة الأحـداث الداخلية بعدن التى انحصر فيهـا بقايا بنى طاهر . وأيا ما كان الأمر فقد استطاع عبد الملك الاستيلاء على عدن بعد وفاة مرجان سنة ٩٢٧[٢] هـ / ١٥٢١ م ، ثم أعقبه عليها عامر بن داود آخر بنى طاهر فيها [٣] ، وهو الذى انتهز فرصـة مرور سليمان باشـا العثمانى سنة ٩٤٥ هـ / ١٥٣٨ م فى طريقه إلى الهند لمحاربة البرتغاليين وأعلن ترحيبـه به ، وفتح له أبواب عدن ، ولكن سليمان أمر بشنقه [٤] ، واستولى منه على عدن غدرا . وكان ذلك سببا فى نفور أهل الهند منه ، وامتناعهم عن معاونته ضـد القوى البرتغالية [٥] .

---

(١) بامخرمة: نفس المصدر ص ١٢١١ .

(٢) العيدروسى : النور السافر ص ١٣٢ .

(٣) العيدروسى : نفس المصدر ص ٢٠٢ .

(٤) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٨٤ .

(٥) النهروالى : البرق اليمانى فى الفتـــح العثمانى — الرياض ١٩٦٧ ص ٨٠ – ٨١ .

رابعا ـ الفتن والثورات الداخلية في عهد بني طاهر :

لم تقتصر المصاعب التي واجهت سلاطين بني طـاهر على الصراعات التي نشبت بينهم وبين الطامعين من أمراء أسرتهم في السلطنة ، وإنمـــا تعرض حكمهم لكثير من حركات العصيان واحتدمت الثورات في مناطق متعددة من بلاد اليمن ، ففي الجنوب ثارت قبائل يافع ، وفي تهامة رفعت قبـائل القرشية والمعازبة وبني حفيص لواء العصيان ، وتسببت في الاضطرابات التي شغلت الطاهريين لفترة طويلة من الزمن ، وفي منطقة الجبـــال تكررت ثورات الحبيشي ، كما اشتد الصراع بين بني طاهر والإمامة الزيدية .

ولما كانت معظم تلك الثورات قد استمرت طوال حكم هـذه الدولة ، لذلك كان من الأفضل إعداد دراسة موضوعية لها لبيان المراحل المتكامـلة لكل منهـا .

١ ـ موقف قبائل يافع من بني طاهر:

كانت غالبية قبيلتي آل أحمد وآل كلد اليافعيتين تنزل في عدن، وقد بلغ التنافس والتنازع فيما بينهما أقصاه في أواخر عهـد دولة بني رسول ، فأدى ذلك إلى انعدام الأمن وشيوع الفتنة والاضطراب في عدن ، وتعرض بيوت التجار والأغراب فيها للسلب والنهب ، ولم يسلم من ذلك إلا من دخل في حماية إحدى القبيلتين نظير ما تقرره عليه من مال . فكان شيخ القبيلة التي ينتصرون بهـا ، يبعث نفرا من أتباعه، يرابطون على سطح الدار ويرشقون بالحجارة من يحاول الاقتراب منها ، ويرغمونه على الفرار . وكان آل كلد يسيطرون على المدينة من داخلها وينتشرون في أحيائها، في حين كانت سيطرة آل أحمد على حصون المدينة وأسوارها . فلما تفوق آل كلد عليهم وغلبوهم على أمرهم ، استبغلوا

الحصار الذى فرضه الطاهريون على عدن سنة ٨٥٨ ه/ ١٤٥٤ م ، وعمدوا إلى الاتصال بهم، وعرضوا عليهم تقديم ضروب العون والمساعدة تسهيلا لمهمة الاستيلاء على عدن [١] ، لقاء التعهد برفع منزلتهم وطرد آل كلد من عدن بعد استيلاء بنى طاهر على المدينة .

وتنفيذا لهذا الاتفاق انطلق المجاهد على بن طاهر مع زعماء آل أحمد فأدخلوه عدن مع جمع من عسكره من سور الجبل ليلة الثالث والعشرين من رجب سنة ٨٥٨ ه / ١٩ يولية ١٤٥٤ م ، وما أن تم لبنى طاهر ذلك حتى دقوا الطبول ليلا ، ورددوا صيحتهم « بالنصر للمشايخ بنى طاهر » . فلما سمع آل كلد ذلك أيقنوا بالهلاك ،وتركوا بيوتهم وقضوا الليل خارجها حائرين، فلما أدركهم الصباح وفتحت أبواب عدن، دخل الظافر عامر بن طاهر مع باقى عسكره ، وأعلن الأمان لأهلها ، باستثناء آل كلد فقد أمهلهم ثلاثة أيام الرحيل من عدن ، تحل له بعدها دماءهم.« فتفرق آل كلد شذر مذر ، منهم من خرج إلى زيلع وإلى بربرة وإلى سائر بر العجم وخرج غالبهم إلى الشحر» [٢] ، عسى أن تواتيهم الفرصة لينتقموا لأنفسهم من بنى طاهر .

وفى الشحر التف من وصلها من آل كلد حول صاحبها أبا دجانة محمد بن سعيد بن فارس الكندى ودخلوا فى خدمته ، واكتسبوا ثقته ، ثم أخذوا يغرونه بغزو عدن ، ويذللون له مهمة الاستيلاء عليهـا ، مستغلين فى ذلك

---

(١) بامخرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١١١٥ .

(٢) بامخرمة : قلادة النحر حـ ٣ ص ١١١٦ .

درايتهم بعورات المدينة التى يمكن عن طريقها اقتحامها فى يسر وسهولة دون أن يصادفوا مقاومة من ناحية تلك المنافذ . وما زالوا به يهونون عليه أمر فتحها ويدفعونه إلى ذلك . فلما اقتنع برأيهم وعزم على توجيه حملته ، انضم آل كلد إليها ، غير أن أخبار تلك الحملة تسربت إلى عدن ، وانتهت بالفشل ووقوع أبو دجانة وعدد من أتباعه فى أسر السلطان الظافر عامر الأول [1]، من بينهم أحد زعماء آل كلد اليافعيين المحرضين لصاحب الشحر على غزو عدن ، فتسلمه أعداؤه آل أحمد وقتلوه [2] .

ومما لاشك فيه أن نجاح بنى طاهر فى طرد آل كلد اليافعيين من عدن وتشريدهم لهم من جهة ، ثم فشل محاولة هؤلاء باتفاق مع صاحب الشحر فى توجيه ضربة لبنى طاهر بالاستيلاء على عدن من جهة ثانية ، كان لذلك أعظم الأثر فى إضعاف آل كلد واستكانتهم لفترة طويلة ، إلى أن أتيحت لهم الفرصة للانتقام . فقد تولى الظافر عامر الثانى السلطنة بعد وفاة أبيه السلطان المنصور عبد الوهاب بن داود بن طاهر سنة ٨٩٤ هـ / ١٤٨٩ م ، فقوبلت سلطنته بمعارضة شديدة من أبناء الظافر عامر الأول بن طاهر . وكان لتلك المعارضة أثرها القوي فى إثارة القوى المعادية لبنى طاهر ، وكان من الطبيعى أن ينضم بنو يافع إلى المعارضين للسلطان الظافر عامر الثانى ، تأييداً لعبد الله بن عامر

---

(١) الكبسى : اللطائف السنية ص ٢٢٣ ، محمد بن هاشم العلوى : تاريخ الدولة الكثيرية ص ٢٩ ، حمزة على ابراهيم لقمان : تاريخ عدن وجنوب الجزيرة العربية ص ١١١ .

(٢) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢١ ب ، بغية المستفيد ص ٩٨ ، بامخرمة : نفس المصدر ص ١١٢ .

ابن طاهر . فكتب الظافر الثانى إلى واليه فى عدن يأمره بطرد من بقى فى عدن من يافع انتقاما منهم على نصرتهم لأعدائه ، فطرد والى عدن حوالى خمسمائة منهم [١] . وواصل السلطان سياسته الانتقامية منهم ، ولم يتردد فى مهاجمتهم وانتزاع ما بأيديهم من حصون . ثم دارت معركة كبيرة بين الجانبين فى ربيع الأول سنة ٨٩٨ هـ / يناير ١٤٩٣ م انتصرت فيها قوات السلطان وقتلت من يافع أكثر من مائة وأسرت مثل ذلك العدد واستولت على عدد من حصونهم [٢].

وترتب على تجدد عصيان يافع ، ومناهضتهم للسلطان ونصرتهم للطامعين فى السلطنة من آل طاهر [٣]، أن عاود الظافر عامر الثانى الاغارة عليهم . ودارت بينهم معركة كبيرة فى جمادى الآخرة سنة ٩٠٣ هـ / يناير ١٤٩٨ م انهزمت فيها يافع هزيمة نكراء [٤] واستولى السلطان الظافر عامر على بلادهم وحصونهم دون كبير عناء . ولم يكن منهم أمر متعب بعد ذلك مع كثرتهم واتساع بلادهم ودعاويهم العريضة . وكان استفتاح بلدهم من أسهل الفتوح فدخلوا عليه وأذم عليهم ، فتابوا من الخلاف توبة نصوحا ، وسار منهم جماعة تحت ركابه ، [٥] ، أما عبد الباقى بن محمد بن طاهر الذى كان لاجئا عندهم ، فقد

---

(١) بامخرمة : نفس المصدر ص ١١٦٨ .

(٢) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٣٨ ب ، بغية المستفيد ص ١٦٤ — ١٦٥ ، بامخرمة : نفس المصدر ص ١١٧٢ ، يحيى بن الحسين : غاية الامانى ص ٦٢٠ .

(٣) بامخرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١١٧٢ .

(٤) ابن الديبع : الفضل المزيد ص ٣٢ ب — ٣٣ أ .

(٥) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٤٢ أ ، بامخرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١١٨٧ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٢٤ .

أمكن اعتقاله وأمر السلطان بسجنه[1] فظل سجينا حتى عفا عنه سنة ٩٢١هـ/[2] ١٥١٥م .

٢ ـ ثورات قبائل القرشية :ـ

استقرت قبائل القرشية [3] فى منطقة تهامة شمالى مدينة زبيد ، وكان القرشيون وجيرانهم المعازبة من أكثر قبائل اليمن ميلا إلى الثورة وجنوحا إلى الاضطراب منذ أيام بنى رسول ، كما كانوا من العوامل الرئيسية فى سقوط دولة بنى رسول ، فلما استولى بنو طاهر على ملك اليمن ، عملوا على مهادنة تلك القبائل ، واجتهدوا فى استرضائها . ولهـــذا السبب لم يتردد القرشيون فى الدخول فى طاعة بنى طاهر والتعاون معهم فى بداية دولتهم ، وليس أدل على ذلك من انضمامهم إليهم واشتراكهم معهم فى حملتهم التى استهدفت الاستيلاء على مدينة زبيد من بقايا بنى رسول سنة ٨٥٩ هـ / ١٤٥٥م . وكان من الطبيعى أن يقتحم القرشيون معهم المدينة ويقوموا بأعمال السلب والنهب فيها ، وقد روى أن السلطان المجاهد على بن طاهر كان قد أذن لهم بنهب المدينة لقاء نصرتهم له ، غير أنهم ما كادوا يشرعون فى انتهابها حتى تجمع أهل زبيد وتصدوا

---

(١) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٤٢ أ ، الفضل المزيد ص ٣٣ أ ، بامخرمة : نفس المصدر والصفحة . (وكان عبد الباقى بن محمد طاهر قد فر إلى ساحل إفريقية الشرقى خوفا من السلطان ، فلما عاد إلى اليمن لجأ إلى يافع واستقر عندهم) انظر ما سبق ص ٢٧٦ هامش ١ .

(٢) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٥٥ أ .

(٣) إليهم تنسب قرية القرشية على بعد فرسخ من مدينة زبيد (ابن المجاور : صفة بلاد اليمن ج٢ ص ٢٢٨) .

لهم وتغلبوا عليهم ، وقتلوا عددا منهم ، وطاردوا الباقين وأرغموهم على الفرار من المدينة (١) . وأعقب تلك الهزيمة التى منى القرشيون بها ، وفاة شيخهم الصديق بن محمد غراب فى نهاية عام ٨٦٠ هـ / ١٤٥٦ م ، وتسببت وفاته فى إضعاف شوكتهم (٢) .

ولم يكن بنو طاهر غافلين عن حركات القرشيين وثوراتهم ، فأخذوا يحصون عليهم حركاتهم تمهيداً للقضاء عليهم . ويبدو أنه ظهر للسلطان المجاهد على منهم ما أغضبه ، لذلك قر عزمه على أن يمنع عنهم النفقة التى كان قد قررها لهم ، وأقدم فى سنة ٨٦٢هـ/١٤٥٨ م على اعتقال جماعة من زعمائهم ، فقيدهم وحبسهم فى مدينة المقرانة (٣) . والظاهر أن ذلك الإجراء لم يكن كافيا لإجبارهم على الطاعة ، أو أنه أثار ثائرتهم ، بدليل قيام السلطان المجاهد فى العام التالى بالقبض على جماعة أخرى منهم فى مدينة زبيد ، ومصادرتهم بعشرين ألف دينار (٤) .

وما زال بنو طاهر يتشددون مع القرشيين ويترصدون حركاتهم ...

---

(١) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢٠ ب ، بغية المستفيد ص ٩٦ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٥٨٧ .

(٢) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ٩٨ ، بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١١٨ .

(٣) ابن الديبع : قرة العيون ص١٢١ب ، بغية المستفيد ص٩٩ ، بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٢٦ .

(٤) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢٢ أ ، بغية المستفيد ص ١٠٠ ، يحيى ابن الحسين : غاية الأمانى ص ٥٨٩ .

وتمكنوا - لفترة طويلة - من كبح جماحهم ، حتى كانت سنة ٨٧٥هـ/ ١٤٧٠م عندما تحالفوا مع قبائل المعازبة وشقوا عصا الطاعة على السلطان المجاهد ، وشنوا الغارات على قرى وادى زبيد ، الأمر الذى أطمع غيرهم من القبائل فى التدبير للاستيلاء على مدينة زبيد . ولكن أهل المدينة استبسلوا فى الدفاع عنها حتى وافتهم إمدادات السلطان من عدن وقضت على حركات تلك القبائل[1] .

ومع ذلك فإن عزيمة القرشيين وروحهم القتالية لم تفتر ، وأخذوا يتحينون الفرص للثورة ، ولم تلبث محاولاتهم أن تجددت فى صفر سنة ٨٧٨ هـ / يوليو ١٤٧٣ م ، ولكن والى زبيد استطاع القضاء على تمردهم واعتقل عددا منهم أرسلهم إلى السلطان فى تعز[2] ، كما قام يوسف بن عامر ابن أخي السلطان المجاهد على بالقضاء على محاولة أخرى للتمرد حدثت فى ربيع الأول سنة ٨٨٢ هـ / يونية ١٤٧٧ م ، وأمر بقتل أحد زعمائهم لما نسب إليه من تحريض لهم على التمرد[3] . وهكذا ضعف أمرهم واستنفذت قواهم ووهنت عزائمهم ولم يعودوا يشكلون أى خطر على بنى طاهر .

٣ - ثورات قبائل المعازبة : -

المعازبة من قبائل تهامة ، وتقع منازلهم إلى الشمال من زبيد ، وكانوا مثل جيرانهم القرشيين مصدر متاعب كثيرة لحكام اليمن منذ أيام بنى رسول . فلما قامت دولة بنى طاهر حاول سلاطينهم اجتذاب المعازبة وكسب قلوبهم وحملهم

---

(١) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١١٤ .

(٢) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢٦ ب ، بغية المستفيد ص ١١٧ .

(٣) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢٧ ب ، بغية المستفيد ص ١٢٢ .

على الطاعة ، فأرسل إليهم السلطان المجاهد على يدعوهم إلى التعاون معه والكف عن أعمال السلب والنهب، فلما لم يستجيبوا له توجه فى شهر المحرم سنة ٨٦٠هـ/ ديسمبر ١٤٥٥ لمحاربتهم [١] . وكان قـــد أرسل فى الوقت ذاته الشيخ يحيى ابن عمر الثابتى صاحب الحديدة إلى ناحية مدينة بيت الفقيه بالقرب من موطن المعازبة، وأمده بكثير من الأموال لاستخدام عرب المنطقة وضمان ولائهم [٢]. فلما توجه السلطان المجاهد على لمحاربة المعازبة انضم إليه صاحب الحديدة بمن تجمع معه، كما شاركه القرشيون فى تلك الحمـــلة. وكانت قبائل المعازبة من القوة بحيث استطاعت الصمود وكادت تحقق النصر، ولولا ثبات السلطان فى ساحة المعركة إلى أن تحقق النصر له وأنزل بالمعازبة هزيمة نكراء [١] .

أسكتت هزيمة المعازبة هذه ثائرتهم لمدة عام ، ولكن جموعهم لم تلبث أن عاودت الإغارة على مدينة فشال [٤] الواقعة شمالى زبيد، واشتبكت مع حاميتها فى المحرم ٨٦١ هـ / ديسمبر ١٤٥٦م ، وقتلت عددا من أفرادها واستولت .

---

(١) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢٠ ب ، بغية المستفيد ص٩٧ .

(٢) ابن الديبع : بغيــة المستفيد ص ٩٤ ــ ٩٥ ، بامخرمه : قلادة النحر جـ٣ ص ١١١٦ .

(٣) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢٠ ب ، بغية المستفيد ص ٩٧ .

(٤) تقع فشال على وادى رمع بين زبيد وبيت الفقيــه، وهى على خط عرض ٢٥ ر١٤° شمالا ، وخط طول ٢٥ َر٤٣° شرقا . (EL- Khazrejiyy : op. cit Vol. 3, p. 73, Note, 424.)
وهى المدينة المعروفة الآن بالحسينية (زبارة : أئمة اليمن جـ١ ص ٢٥١).

على بعض الخيول [١]، فأسرع المجاهد على للانتقام ، ولما وقع القتال وكادت الهزيمة تلحق بالمعازبة ، بادروا إلى طلب الصلح والدخول فى طاعة السلطان وقدموا له ستين رأسا من الخيل [٢] .

وتظاهر المعازبة بالطاعة بحكم ضعفهم ، إلى أن استعادوا قوتهم ، ولكن والى زبيد لم يمهلهم ، وأغارت قواته على بلادهم فى جمادى الآخرى سنة ٨٦٣هـ/ مايو ١٤٥٩ م واستولت على مواشيهم [٣] . فاضطروا إلى التظاهر من جديد بالطاعة والولاء وقدموا للسلطان عددا من الخيول سنة ٨٦٥ هـ[٤] / ١٤٦١ م .

ومع ذلك لم تخمد ثورات المعازبة ، ولم تفتر حركاتهم ، ففى ذى القعدة سنة ٨٦٨ هـ / يوليه ١٤٦٤م عادوا مرة أخرى إلى السلب والنهب وأغاروا على قرية التحيتا [٥] ، وقتلوا عددا من أهلها [٦] . ولم يمكنوا بعض أتباع السلطان من مزاولة عملهم فى بلادهم ، وتصدوا لهم وقتلوا جماعة منهم فى ربيع

---

(١) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢١ أ ، بغية المستفيد ص ٩٨ .

(٢) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢١ ب ، بغية المستفيد ص ٩٩ ، يحيى ابن الحسين : غاية الأمانى ص ٥٨٨ .

(٣) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢٢ أ ، بغية المستفيد ص ١٠٠ .

(٤) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢٢ أ .

(٥) التحيتا إحدى قرى زبيد ، وتقع إلى الغرب منها على خط عرض ١٢َ ر ١٤ شمالا ، وخط طول ١٢ ر٤٣ شرقا .

(EL – Khazrejiyy : op. cit, p. 2 6, Note, 1585.) .

(٦) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٠٦ .

الأول سنة ٨٦٩هـ/ نوفمبر ١٩٦٤م . فبادر السلطان بغزو بلادهم والانتقام منهم وتمكن جيشه من قتل عدد كبير منهم ، كما وقع بعضهم فى الأسر (١) وتمكن والي زبيد من القبض على شيخهم محمد بن يوسف وعاد به مقيدا إلى زبيد فى جمادى الأولى سنة ٨٦٩هـ(٢)/يناير ١٠٦٥م ، غير أن بعض المقربين للسلطان تشفعوا فيه عند السلطان المجاهد على حتى أطلقه (٣) . وقد استهدف السلطان من وراء ذلك امتصاص نقمة المعازبة ، ووضع حد لثوراتهم، ولكن حسن النية التى أبداها السلطان نحوهم لم تغير من الأمر شيئا ، إذ لم يلبثوا أن أغاروا فى آخر ذى الحجة سنة ٨٦٩ هـ/ أغسطس ١٤٦٥م على قرية الشبارق الواقعة إلى الشرق من زبيد وأعملوا السلب والنهب فيها ، ولم تهدأ ثائرتهم حتى خرج والي زبيد على رأس حملة فى ربيع الأول سنة ٨٧٠ هـ/ أكتوبر ١٤٦٦م للقضاء على تجمعاتهم ، وأسفرت الحملة عن قتل عدد كبير منهم والاستيلاء على الكثير من أموالهم ومواشيهم (٤) .

كان لمقتل السلطان الظافر عامر الأول بن طاهر أثناء حصاره لصنعاء سنة ٨٧٠/ ١٤٦٦م أعظم الأثر فى ازدياد مطامع المعازبة وغيرهم من القبائل اليمنية ، وعلى الأخص قبائل تهامة ، مما ألقى عبئا كبيرا على عاتق والي زبيد الذى تصدى لمقاومة حركات المعازبه وغيرهم ، وصمد أمامهم إلى أن جاءه

---

(١) ابن الديبع: نفس المصدر والصفحة .

(٢) ابن الديبع: نفس المصدر والصفحة .

(٣) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢٣ ب .

(٤) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢٣ ب ، بغية المستفيد ص ١٠٧ ، بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٢٩ .

السلطان المجاهد على فى ربيع الأول ٨٧١هـ/أكتوبر ١٤٦٦م فى قوة من العسكر اشتبكت مع المعازبة بالقرب من مدينة بيت الفقيه شمالى زبيد وانتصر عليهم ، وتابع فلولهم قتلا وأسرا ، وغنم منهم الكثير ، واستمر يطاردهم حتى أذعنوا للطاعة وسلموا له اثنين وخمسين فرسا [١].

وأخذ السلطان المجاهد يترصد حركات المعازبة ويسعى لإخمادها أولا بأول ، فقام فى أوائل سنة ٨٧٢هـ/ ١٤٦٧م بشن الإغارات عليهم وقتل عدد منهم [٢]. وفى سنة ٨٧٥هـ/ ١٤٧٠م شدد السلطان هجماته على المعازبة ، وأغار عليهم ثلاث مرات وقضى على عدد كبير منهم ، ونهب بلادهم نهبا شنيعا [٣]، وسقط فى مقدمة القتلى شيخ المعازبة الشيخ عبد الله بن حسن العنبرى ، وترتب على مصرعه عودتهم إلى الطاعة وتسليم عدد من الخيول دليلا على الولاء والطاعة [٤]. ولكن هذه الطاعة كانت قصيرة الأمد، فلم يلبث المعازبة أن باغتوا بعض رجال السلطان الذين ظلوا فى بلادهم لمباشرة بعض الأعمال فيها ، وغدروا بهم فى سنة ٨٧٦هـ/١٤٧١م ، فأثار ذلك غضب السلطان الذى سير إليهم حملة تاديبية تمكنت من إيقاع الهزيمة بهم وقتل عدد كبير منهم ، فأضطروا للعودة

---

(١) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢٤ ب ، بغية المستفيد ص ١٠٨ ، بامخرمة : نفس المصدر ص ١١٢٩، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٠٣ .

(٢) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٠٩ .

(٣) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢٥ أ - ب، بغية المستفيد ص ١١٢، ١١٣، بامخرمة ، قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٣٠ - ١١٣١ .

(٤) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١١٣ .

إلى الطاعة (١) .

وفى شوال سنة ٨٧٩هـ/فبراير ١٤٧٥م قام والى زبيد بالاغارة على المعازبة ، وقتل أعدادا منهم ، كما قام بنهب بيوتهم واستولى على مواشيهم (٢) . وكان سلاطين بنى طاهر يعتمدون على والى زبيد لإقرار الأوضاع بمنطقة تهامة ، ومحاربة القبائل الثائرة بها . ففى سنة ٨٩٠هـ/١٤٨٩ م قاد والى زبيد حملة للقضاء على عصيان المعازبة (٣) ، ثم أتبعها السلطان بحملة أخرى فى شعبان ٨٩٥ هـ / يونيه ١٤٩٠ م أحكمت الحصار عليهم ، وأرغمتهم على بذل الطاعة وتسليم تسعين فرسا . ولكن لم تكد قوات السلطان تقفل عائدة حتى عاودوا عصيانهم ففاجأتهم تلك القوات مرة ثالثة ، وقتلت منهم أكثر من أربعين رجلا (٤) بالإضافة إلى ضحايا المعركتين السابقتين . لم تفت تلك الهزائم فى عضد المعازبة ، فعلى الرغم من ذلك كله تواصل تلك القبائل ثورتها وانشقاقها ، الأمر الذى دعا السلطان إلى الخروج بنفسه على رأس حملة سنة ٨٩٦هـ/١٤٩١م لاستئزالهم (٥) ،

---

(٤) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢٦ ، بغية المستفيد ص ١١٥ ، يحيى ابن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٠٥ .

(٥) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢٧ أ ، بغية المستفيد ص ١١٨ - ١١٩ ، بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٣٢ .

(٦) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢٥ أ ، بغية المستفيد ص ١٥٣ .

(٧) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٣٦ ب ، بغية المستفيد ص ١٥٨ ، بامخرمة : نفس المصدر ص ١١٧١ .

(٨) بامخرمة : نفس المصدر ص ١١٧٢ .

فنعس بلادهم وسحق قوتهم وأباد عددا كبيرا منهم وانتقم منهم شر انتقام [١]، ولم يكتف بذلك بل عهد إلى والى زبيد بمواصلة الغارات عليهم، فتوجه الوالى فى شعبان سنة ٨٩٦هـ / يونية ١٤٩١م لمحاربتهم ، فتصدت له قواتهم ، وكاد الوالى أن ينتصر عليهم وتمكن من قتل نحو ستين من رجالهم، إلا أنهم تمكنوا من إعادة تنظيم صفوفهم وحملوا عليه حملة قوية وتمكنوا من تطويقه وقتله [٢]. فلما علم السلطان الظافر عامر الثانى بذلك، خرج فى سنة ٨٩٧هـ / ٩٢ ١٤م على رأس حملة وأحكم عليهم الحصار وأرغمهم على الاذعان له بالطاعة ، فقدموا للسلطان أربعين فرسا إثباتا لولائهم له [٣] .

ولقد تميزت قبائل المعازبة بالعناد والتمرد المستمر ، فلم يتمكن بنو طاهر رغم حملاتهم المتعددة على مواقعهم من إخماد ثوراتهم . فلم يمض عامان على استنزال السلطان لهم حتى عاودوا العصيان ، واضطر السلطان الظافر عامر الثانى إلى القيام بحملة على بلادهم سنة ٨٩٩ هـ / ١٤٩٤ م ، فأباد منهم جمعا ، ونهب أموالهم ومواشيهم ، [٤] . وتكررت الاغارات عليهم خلال تلك السنة [٥] لعدم وفائهم بما التزموا به للسلطان .

---

(١) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦١٨ .

(٢) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٣٧ أ - ب ، بغية المستفيد ص ١٦٠ ، باخرمة : قلادة النحر جـ ٢ ص ١١٢٩ .

(٣) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٣٨ أ ، بغية المستفيد ص ١٦٣ ، يحيى ابن الحسين . غاية الأمانى ص ٦٦٩ .

(٤) باخرمة : نفس المصدر ص ١١٧٢ وراجع ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٦٨ يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦١٨ .

(٥) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٧٢ .

وفى شعبان ٩٠٣ هـ / مارس ١٤٩٨م تابع السلطان حملاته على بلاد المعازبة فتمكنت قواته من قتل وأسر عدد كبير منهم [١] . وأدت تلك الحملات إلى الحد من ثوراتهم وإنهاك قواهم . وبالتدريج خفت حدة تلك الثورات التى اعتادوا القيام بها ، ولم تعد تحدث إلا على فترات متباعدة . ففى شعبان ٩٠٨هـ / فبراير ١٥٠٣م عاد المعازبة إلى الخلاف وقاموا بأعمال السلب والنهب فى المناطق المجاورة لهم . ولكن سرعان ما هدأت حركتهم قبل وصول عسكر السلطان إليهم ، وقاموا برد ما استولوا عليه ، فعفا السلطان عنهم [٢] . ولكنهم شقوا عصا الطاعة من جديد بعد عام واحد ، وتعرضوا للقوافل المارة ببلادهم وقطعوا الطريق عليها ، فتوجه والى زبيد على رأس حملة لإقرار الأمن فى منطقتهم ، فلما علموا بالحملة تركوا قراهم ولاذوا بالأودية والشعاب ، فانتهبت القوات ديارهم ودوابهم وألقى القبض على بعضهم ، فأسرعوا إلى طلب الصلح وتقديم الرهائن [٣] . ومنذ ذلك الحين خمدت ثوراتهم ولم يصدر عنهم ما يعكر الصفو ، إذا ما استثنينا محاولتين قاموا بهما فى عامى ٩١٧ ، ٩١٩ هـ [٤] (١٥١١ و ١٥١٣ م) لم تسفر أى منها عن شىء .

٤ - ثورات بنى حفيص الزيديين:

ليس المقصود بالزيديين هنا اتباع المذهب الزيدى ، وانما نعنى بهم القبائل التى كانت تنزل فى تهامة تجاه جزيرة كمران ، حيث تقع مدينة الزيدية - المسماه

---

(١) ابن الديبع : الفضل المزيد على بغية المستفيد ص ٣٣ أ .

(٢) ابن الديبع : الفضل المزيد ص ٣٨ ب .

(٣) ابن الديبع : الفضل المزيد ص ٣٩ أ .

(٤) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٥٠ أ ، ١٥١ ب .

باسمهم ـ وما حولها . ويعتبر بنو حفيص من رؤسائهم ، وهم من أتبـــاع المذهب السنى ، ولا يمتون للمذهب الزيدى بصلة .

لم يكن لبنى حفيص الزيديين ذكر فيما أثير من شغب وتمرد أيام بنـــى رسول وماقبلهم . ويبدو أنهم ظلوا مسالمين طائعين لبنى طاهر الذين خلفـوا بنى رسول فى السلطنة . ففى سنة ٨٦٧ هـ / ١٤٦٣ م وفد جمـاعة منهم يتقدمهم بعض مشايخهم ، منهم أحمد بن أبى الغيث بن حفيص ومحمد بن القـاسم ، على بلاط السلطان الظاهرى المجاهد علي ، فأكرمهم السلطان وأنعم عليهم (١) .

واستمـــر بنو حفيص الزيديين على ولائهم لبنى طاهر فترة طويلة . ولم تمدنا المصادر بأسباب تحولهم إلى العصيان ، ونعتقد أن الدافع الأساسى الذى دعاهم إلى هذا التحول إنما يرجع إلى تأثرهم بحركات العصيـان والتمرد التى اشتهر بها جيرانهم القرشيون والمعازبة . ففى سنة ٨٧٤ هـ / ١٤٧٠ م توجه والى زبيد على رأس حملة لمحاربة بنى حفيص ، وهاجمهم فى الثامن عشر من رجب (٢١ يناير) وقتل زعيمهم أبا الغيب (٢) بن محمد بن حفيص فى جماعة من أهله وأتباعه يزيدون على الثلاثمائة (٣) واستولى على بعض قراهم وترك فيها حامية ترابط فيها (٤) . ولكن ماأن غادر والى زبيد بلادهم متوجها الى مقـره ،

---

(١) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢٢ أ ، بغية المستفيد ص ١٠٢ .

(٢) باخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٣٢ .

(٣) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢٥ أ ، بغية المستفيـد ص ١١٠ ، يحيى ابن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٠٤ .

(٤) باخرمه : قلادة النحر جـ ٢ ص ١١٣٠ .

حتى تمكن أحمد بن أبي الغيث من الاستنجاد ببعض القبائل المجاورة ، وبادر بمهاجمة الحامية في رمضان من نفس العام . وقام بقتل عدد كبير منهم ، وأرغم الباقون على الفرار ، واستعاد بنو حفيص الزيديين مافقدوه من بلادهم (١) . فلما علم السلطان بذلك أسرع في إرسال حملة في المحرم سنة ٨٧٥ هـ / يولية ١٤٧٠ م بقيادة ابن أخيه عبد الوهاب بن داود وبصحبته الشريف على بن سفيان والى زبيد للانتقام من بنى حفيص ، ودارت بين الطرفين معركة عنيفة لاقى فيها الشريف على بن سفيان مصرعه . وقاوم بنو حفيص ولكنهم انهزموا في النهاية وقتل منهم عدد كبير فأذعنوا للطاعة (٢) .

والظاهر أن السلطان المجاهد على بن طاهر رأى اصطناعهم ، فعندما توجه أحد رؤسائهم وهو عز الدين بن حفيص بعد المعركة إلى زبيد ومثل بين يدى السلطان ، أحسن استقباله وخلع عليه وعلى من جاء معه وأنعم عليهم . ومنحهم اثنى عشر ألف دينار لاستخدامها في استمالة القبائل المحيطة بهم للسلطان . غير أن بعض القبائل لم يكن من مصلحتها أن يسود الاستقرار المنطقة ، فاعترضوا طريق ابن حفيص عند عودته إلى بلاده في ربيع الأول سنة ٨٧٥ هـ / سبتمبر ١٤٧٠ م ، واستولوا على مامعه . فلما علم السلطان المجاهد بذلك توجه على رأس حملة للانتقام من تلك القبائل والقضاء على تمردهم (٣) .

---

(١) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١١١ ، بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١٢٠ .

(٢) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١١٢ ، بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٢٠ – ١١٢١ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٠٤ .

(٣) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١١٢ – ١١٣ ، قرة العيون ص ٢٥ : ب يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٠٤ .

وتتوتر العلاقات مرة أخرى ، ويتوجه السلطان المجاهد على على رأس حملة كبيرة إلى بلاد بنى حفيص ، فلما اقترب منها جاءه أحمد بن أبى الغيث ابن حفيص حاملا المصحف الشريف على رأسه ومتشفعا بالعلماء والصالحين لطلب الأمان ، فعفا السلطان عنه [١] ومما يذكر أن أخاه على بن أبى الغيث كان معتقلا فى زبيد منذ أوائل سنة ٨٧٦ هـ [٢] / ١٤٧١ م ، فلما صفح السلطان عن أحمد بن أبى الغيث استنابه عنه على بلاده وأشرك معه عز الدين ابن محمد بن أبى القاسم بن حفيص ، وترك معهما بعض جنده وعاد فى رجب سنة ٨٨٠ هـ / نوفمبر ١٤٧٥ م إلى زبيد [٣] . واستمر بنو حفيص على ولائهم لبنى طاهر ، فعندما أرسل السلطان المجاهد ابن أخيه يوسف بن عامر إليهم فى شعبان سنة ٨٨١ هـ / نوفمبر ١٤٧٦ م ، استقبلوه استقبالا حسنا وقدموا إليه المقررات السنوية التى اشترطها السلطان عليهم [٤] . كما جاءته وفود القبائل مجددة للطاعة فاستقبلهم وأجازهم بالجوائز السنية [٥] . وانتظم بنو حفيص فى الطاعة وأرسلوا ما عليهم من مقررات سنة ٨٨٢ هـ [٦] / ١٤٧٧ م .

---

(١) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١١٩ ، بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٣٢ .

(٢) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١١٥ ، قرة العيون ص ١٢٦ أ .

(٣) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٢٠ ، قرة العيون ص ١٢٧ .

(٤) ابن الديبع : قرة العيون ص ١١٧ أ .

(٥) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٢١ ، بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٤٠ .

(٦) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٢٣ ، قرة العيون ص ١٢٧ ب .

فلما تولى السلطان المنصور عبد الوهاب بن داود السلطنة ، وخرج ابن عمه يوسف بن عامر عن طاعته ، انتهى به الأمر إلى الالتجاء سنة ٨٨٤ هـ/ ١٤٧٩م إلى بنى حفيص للاحتماء بهم وتزوج بابنة زعيمهم أحمد بن أبى الغيث[1]، مما أساء العلاقات من جديد بينهم وبين السلطان الطاهرى المنصور عبد الوهاب ولهذا توجه على رأس حملة للقضاء على عصيان ابن أخيه والانتقام من بنى حفيص لمناصرتهم له . فلما وصل السلطان إلى مشارف بلادهم عمل فى البداية إلى السعى لعقد الصلح وتصفية الأمور سلميا ، ولكن بنى حفيص أبوا أن يسلموا غريمه يوسف بن عامر إليه ، فغضب السلطان واشتبك معهم فى قتال عنيف ، أبدى فيه بنو حفيص شجاعة وصمودا لا نظير لهما ، وتمكنوا من قتل أحمد بن عامر — أخى يوسف — وكادت المعركة تنتهى لصالحهم ، لولا انضمام يوسف بن عامر إلى القوات السلطانية ، وقيامه بدور كبير حتى أمكن التغلب على بنى حفيص فى ذى القعدة سنه ٨٨٤ هـ/يناير ١٤٨٠ م وقتل أكثر من أربعمائة منهم [2] ، وعاد يوسف بن عامر مع السلطان إلى زبيد ، ولكن السلطان لم يلبث أن أمر باعتقاله سنة ٨٨٥هـ [3] / ١٤٨١ م .

أما بنو حفيص فقد عاودت قوات السلطان الإغارة عليهم فى سنة ٨٨٥هـ

(١) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢٩ ب .

(٢) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٣٠ — ١٣١ ، بامخرمة : قلادة النحر جـ٢ ص١١٢٤ و ١١٦٣ .

(٣) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٣٠ — ١٣١، قرة العيون ص١٣٠أ، بامخرمة : المصدر ص١١٦٣ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦١١.

واشعلت النيران فى قراهم وقتلت عددا آخر منهم(١) . وفى العام الثانى وجه السلطان حملة كبيرة إليهم ، ولكنهم بادروا بالدخول فى الطاعه ، وعند عودة الحملة إلى زبيد توجه معها عدد من رؤساء بنى حفيص ومعهم أولاد زعيمهم أحمد بن أبى الغيث لتركهم رهائن لدى السلطان ضمانا لعدم العودة إلى العصيان (٢) . غير أن أحمد بن أبى الغيث خشى تجدد الخلاف من قبيلته مما يعرض أولاده للخطر ، لذلك ترك بلاده وفر بمن تبقى من أسرته وحاشيته ، واستقر بمدينة أبى عريش بمنطقة جازان شمالى تهامة ، فترة من الزمن ثم عاد متخفيا إلى مدينة الزيدية(٣) . فلما علم السلطان بذلك أرسل إليه قوة فى سنة ٨٨٧هـ/ ١٤٨٢م تمكنت - بعد عناء شديد - من اعتقاله وحمله إلى زبيد وأدخلوه على جمل ذليلا مقيدا حاسر الرأس فى مستهل ذى القعدة سنة ٨٨٧هـ (٤) / ديسمبر ١٤٨٣م .

ويبدو أن هذا التصرف الشائن أثار حفيظة قبيلته واعتبرته وصمة عار

---

(١) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٣٢ ، قرة العيون ص ١٣٠ أ .

(٢) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٢٤ ، قرة العيون ص ١٣٠ ب ، بامخرمة : نفس المصدر ص ١١٦ .

(٣) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٢٧ ، قرة العيون ١٣١أ ، بامخرمة : نفس المصدر ج٢ ص١١٢٥ ، ١١٦٥ .

(٤) ابن الديبع : بغية المستفيد ص١٢٧ ، بامخرمة: نفس المصدر ص١١٦٥ (ظل أحمد بن أبى الغيث سجينا فى حصن تعز حتى توفى فى ربيع الآخر سنة ٨٨٩هـ/ مايو ١٤٨٤م) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٣٩ ، بامخرمة : قلادة النحر ج٣ص ١١٢٥ و ١١٦٦ .

لطمت جبينها ، لذلك ثار بنو حفيص في صفر ٨٨٨هـ / مارس ١٤٨٣م على الحامية المرابطة في بلادهم ، وتمكنوا من قتل بعض أفرادها ، وأجبروا الباقين على الفرار . فكان لذلك رد فعل عنيف لدى السلطان المنصور عبد الوهاب ، فأمر والي زبيد بالتوجه على رأس حملة انتقامية ضد بني حفيص ، ولم يلبث أن توجه بنفسه على رأس حملة أخرى ، وأمر بنهب بلادهم وأحرق إحدى قراهم وانتقم منهم شر انتقام ، ورتب في بلادهم حامية كبيرة وعاد إلى زبيد[1] .

واستمر السلطان المنصور عبد الوهاب يواصل ضغوطه العسكرية ضد بني حفيص ، فأرسل حملة أخرى في شوال سنة ٨٩٠هـ/ أكتوبر ١٤٨٥م بقيادة ابنة عامر لمحاربة ، الفئة الباغية منهم ، فقام بمحاصرتهم وقطع موارد المياه عنهم حتى أذعنوا للطاعة[2] ، وسلموا مائة وثلاثين فرسا وأربعين جملا بالإضافة إلى أربعين ألف دينار[3] . وتعهد السلطان عوالاه بني حفيص وغيرهم من قبائل تهامة بالحملات ، ففي شعبان ٨٩١هـ/ أغسطس ١٤٨٦م أنفذ حملة كبيرة إليهم ، وقد بالغ قائدها قاسم بن وهبان في تحصيل المقررات المفروضة عليهم ، فتكاتفوا ضده وأوقعوه في كمين نصبوه له وقتلوه في جماعة من عسكره[4] . فلما علم السلطان ، سير إليهم قوة بقيادة عمر بن عبد العزيز للانتقام لمقتل ابن

---

(١) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٣٠ ، بامخرمة : قلادة النحر جـ٣ ص ١١٦٦ .

(٢) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٣١ ب .

(٣) ابن الديبع : بغية ص ١٤١ ، بامخرمة : نفس المصدر ص ١١٦٦ .

(٤) ابن الديبع : بغية ص ١٤٢ ، بامخرمة : نفس المصدر ص ١١٣٧ و ١١٦٦ ، يحيى بن الحسين : غاية الأماني ص ٦١٤ .

وهبان . فلما وصلت القوات إلي المنطقة جنحت تلك القبائل إلى المسالمة تجنبا للقتال ، وسلمت كل قبيلة ما عليها من مقررات، فأرسل بها عمر بن عبد العزيز إلي السلطان (١) . وبقى فى قلة من أتباعه فى بلاد بنى حفيص لإقرار الأوضاع فيها ، فانتهز هؤلاء فرصة إنشغاله وفاجأوه فى جمادى الأخرى سنه ٨٩٢هـ/ مايو ١٤٨٧م فخرج منهزما من بلادهم ، وأرسل يبلـــغ السلطان بتفاصيل الحادث ، فتجهز فى جيش كبير وعزم على الانتقام من بنى حفيص ، فلما وصل إلى بلادهم وجدهم قد غادروها خوفا من إنتقامه، فأمر بهدم دورهم وإحراقها إنتقاما منهم (٢) وعاد السلطان بعد ترك عمر بن عبد العزيز واليا على بلاد بنى حفيص وأمده بتعزيزات جديدة فى ذى القعدة سنة ٨٩٢هـ(٣) أكتوبر ١٤٨٧م . ورغم ذلك عاد بنو حفيص إلى العصيان مرة أخرى ، فتوجه السلطان إليهم فى العام التالى، فاضطروا إلى الطاعة وتسليم ما ألزمهم به من المال والخيل (٤) .

فلما توفى السلطان المنصور وخلفه ابنه الظـــافر عامر الثانى ، عاد بنو حفيص إلي التمرد ، فأرسل الظافر معظم عسكره بقيادة محمد بن عيسى البعدانى والي زبيد لمحاربتهم ، فأثخن فيهم وأرغمهم على الانصياع للطاعة هم وغيرهم من قبائل تهامة ، ويبدوا أن السلطان أراد معاملتهم باللين فأظهر رضـــاءه عنهم وأفرج عن رهائنهم ، أبناء أحمد بن أبي الغيث وأنعم عليهـم وكساهم ، ثم

---

(١) ابن الديبع : بغية ص١٤٣ ، قرة العيون ص١٣٢أ ، يحيي بن الحسين : غاية الأمانى ص٦١٤.

(٢) ابن الديبع : قرة العيون ص١٣٢ أ ، بغيـة ص ١٤٤ ، بامخرمة : نفس المصدر ص ١١٦٦ — ١١٦٧ .

(٣) بامخرمه : نفس المصدر ص ١١٦٧ .

(٤) ابن الديبع بغية : المستفيد ص ١٤٦ ، قرة العيون ص ١٣٢ ب .

ردهم إلى بلادهم ، بعد أن أقسموا له على الطاعة ، وقدموا رهائن آخرين تأكيدا لطاعتهم له ووفاء بما أقسموا عليه من عدم الخلاف[١]، وفي عام ٩٥ هـ/ ١٤٩٠م أرسلوا إليه ما كان مفروضا عليهم من مقررات [٢] . ويبدوا أيضا أن بني حفيص عاودوا الخلاف بعد عام واحد ، بدليل توجه السلطان الظافر عامر الثاني للاغارة على بلادهم في صفر سنة ٨٩٦هـ/ ديسمبر ١٤٩٠م ، فلما اقترب منها سارع جماعة من زعمائهم، لإستقباله ولكنه أمر باعتقالهم لاتهامات وجهت إليهم [٣].

وترتب على سياسة القمع والعنف التي اتبعها بنو طاهر مع بني حفيص أن فقدوا القدرة على الخلاف والعصيان وجنحوا إلى الطاعة ـ مرغمين ـ لبني طاهر ما يقرب من عشر سنوات ، إلى أن تجددت غارات الطاهريين عليهم، وعلى القبائل المجاورة لهم في جمادى الأولى ٩٠٥هـ / ديسمبر ١٤٩٩م ، وفتكوا بهم وقتلوا منهم عددا كبيرا ، حزوا رؤوس بعضهم ودخلوا بها إلى زبيد[٤]. فخيم الهدوء على أثر تلك الغارة من جديد على المنطقة . ولم تزودنا المصادر بأخبار عن حدوث تمرد منهم لفترة تزيد عن خمسة عشر عاما . ولكن الأمور تغيرت بعد ذلك، ففي سنة ٩٢١هـ/ ١٥١٥م كان الخطر البرتغالي قد بلغ مداه،

---

(١) ابن الديبع : بغية المستفيد ص١٤٧ ـ ١٤٨ ، قرة العيون ص١٣٣ أ، بامخرمة: قلادة النحر جـ٢ ص١١٦٨ .

(٢) ابن الديبع : قرة العيون ص١٣٦ ب .

(٣) ابن الديبع : بغية المستفيد ص١٦٥ ، قرة العيون ص١٣٧ أ ، بامخرمة نفس المصدر ص١١٠٢ .

(٤) ابن الديبع : الفضل المزيد ص٤٠ ب .

وتعقدت الأحوال فى اليمن نتيجة لموقف السلطان الظاهرى من الحملات المملوكية التى أرسلها السلطان الغورى لمقاومة البرتغاليين فى المياه الهندية، ومنع خطرهم عن البحر الأحمر، فاستغلت القبائل اليمنية المعادية للطاهريين إمتناع السلطان الظافر الثانى عن التعاون مع القوات المملوكية، وأغارت جموعهم التى بلغت أكثر من ستة آلاف رجل ومائة فارس على مدينة الضحى الواقعة جنوبى مدينة الزيدية، ولكن واليها استطاع — بما لديه من قوات قليلة — التصدى لهم وألحق الهزيمة بهم [1]، وفى نفس الوقت أسرع السلطان بإرسال حملة بقيادة ابنه عبد الوهاب لإمداد حامية الضحى، فلما وصلها أسرع مشايخ بنى حفيص إلى المثول بين يديه متعهدين بتأدية ما يقررة عليهم غير أنهم لم يثبتوا على الطاعة ونقضوا عهدهم فاستؤنفت الغارات عليهم واعتقل زعماءهم وأجبروا على على الطاعة [2]. ولكن ما أن بدأ الغزو المملوكى لليمن حتى أسرع بنو حفيص وغيرهم من قبائل تهامة إلى التعاون الكامل مع تلك القوات نكاية فى بنى طاهر [3]، فكان لتعاون تلك القبائل أثره فى إلحاق الهزائم المتكررة بالسلطان الطاهرى وقواته والقضاء على دولته [4]

---

(١) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٥٤ أ، الفضل المزيد ص ٥٣ب، بامخرمة : نفس المصدر ص ١١٩١، يحيى : غاية الأمانى ص٦٤٢ .

(٢) ابن الديبع : قرة العيون ص١٥٤ أ — ب، الفضل المزيد ص ٥٤ أ، بامخرمة: نفس المصدر ص١١٩٣.

(٣) ابن الديبع : قرة العيون ص١٥٦أ، بامخرمة نفس المصدر ص١١٩٨.

(٤) ابن الديبع : قرة العيون ص١٦٠أ، بامخرمة : نفس المصدر ص١٢٠٤، الشبلى اليمنى : السنا الباهر ص ٢٠٤ .

٥ ـ ثورات الحبيشي :ـ

والحبيشي ، هو عباس بن الجلال بن عبد الباقي ، وهو ممن رفع لواء التمرد والعصيان في منطقة الجبال على السلطان المجاهد علي بن طاهر ، وقام في ذي الحجة سنة ٨٦١ هـ / أكتوبر ١٤٥٧ م بالاستيلاء على المخلافة من بلاد ذي جبلة بمنطقة اليمن الأوسط . وكان لابد للسلطان الطاهري من مواجهة تلك الثورة ، فزحف بجموع كثيفة من قواته إلى مدينة ذي جبلة وأقام هناك إلى ربيع الأول ٨٦٢ هـ / يناير ١٠٥٨ م مراقبا الموقف ، إلى أن تهيأت له الفرصة للاغارة على الحبيشي والتغلب عليه وقتل عدد كبير من أتباعه (١) . وواصل السلطان حملاته على منطقة نفوذ الحبيشي وتمكن في ذي القعدة من نفس العام من الاستيلاء على عدد من الحصون التي كانت تحت سيطرته (٢) . وتوقفت حملات السلطان بضع سنوات ثم استؤنفت في جمادى الآخرى سنة ٨٦٦ هـ / مارس ١٤٦٢ م لاستعادة بعض الحصون التي كان الحبيشي قد سيطر عليها (٣) . وقد وفق المجاهد في إخماد حركته ، وأرغمه على طلب الدخول في الطاعة ، وقبل طلبه وتم التوصل إلى الصلح في أواخر ٨٦٨ أو أوائل ٨٦٩ هـ / ١٤٦٤ م وأنعم

---

(١) ابن الديبع : قرة العيون ص١٢١ ب ، بغية المستفيد ص٩٩ ، بامخرمة : قلادة النحر ج٣ ص ١١٢٦ .

(٢) ابن الديبع : بغية المستفيد ص٩٩ ، يحيى بن الحسين : غاية الأماني ص٥٨٩ ، الكبسي : اللطائف ص٢٢٣ .

(٣) ابن الديبع : بغية المستفيد ص١٠٣ ، قره العيون ص١٠٣ ب ، بامخرمة : نفس المصدر ص ١١٢٧ ، يحيى بن الحسين : غاية الأماني ص٥٩٥ .

عليه (١) .

وقد أثبتت الأحداث أن الدخول في الطـــاعة كانت وسيلة تلجأ إليها القبائل لتخفيف ما كان يصيبها من تنكيل السلطان بأفرادها ، فهي بمثابة هدنة مؤقتة تقبلها القبائل الثائرة إلى أن تستعيد قواها أو تتـاح لها الفرص للثورة من جديد . ويبدو أن عباس الحبيشي آثر الجنوح إلى الطاعة ، ولكن أخاه إدريس بن الجلال الحبيشي هو الذي بدأ بالعصيان في هذه المرة في سنة ٨٧٧هـ/ ١٤٧٢م ، فاضطر السلطان المجاهد إلى السير إليه في شعبان سنة ٨٧٧هـ / يناير ١٤٧٣م لمحاصرته في حصن خدد بمنطقة ذي جبلة . ولكن الحصار لم يؤد إلى نتائج حاسمة وعاد السلطان إلى زبيد (٢) . ولم يلبث أن عاد إلى المنطقة ذاتها من جديد بعد شهرين، ووقعت بينه وبين إدريس الحبيشي عدة وقائع كان النصر فيها للسلطان المجاهد علي ، الذي تمكن من الاستيلاء على عدة حصون(٣) . ولم يجد بنو الحبيشي بدا من العمل على التوصل إلى الصلح والعودة إلى الطاعة فتم لهم ذلك في ربيـــع الأول سنة ٨٧٩هـ/ يوليه ١٤٧٤م ، وتوجه الشيخ إدريس بن الجلال الحبيشي مع السلطان ودخل في ركابه إلى تعز (٤).

---

(١) ابن الديبع : بغيـــة المستفيد ص١٠٦ ، بامخرمة : قلادة النحر جـ٣ ص ١١٣٨ .

(٢) ابن الديبع : بغيه المستفيد ص ١١٦ ، بامخرمة : قلادة النحر جـ٣ ص ١١٣١ .

(٣) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١١٦ .

(٤) ابن الديبع : نفس المصدر ص١١٨ ، قرة العيون ص١٢٩ب، بامخرمة نفس المصدر ص١١٤٢ .

استقرت الأوضاع بين الجانبين عدة سنوات تجددت بعدها رغبة بني طاهر في استعادة الحصون التي كانت بحوزة الحبيشي ، وخاصة حصن خدد باعتباره من المعاقل المنيعة والهامة لتحكمه فيما حوله من المناطق ، ولهذا توجه السلطان على رأس حملة كبيرة ، وحاصر ذلك الحصن في ذي القعدة سنة ٨٨٢هـ/فبراير ١٤٧٨م - وكان ادريس الحبيشي قد لجأ إلى حصن الخضراء القريب من حصن خدد ، فبدأ السلطان بمحاصرته كذلك ، وأمر بضربه بالمنجنيق حتى خرب معظمه مما اضطره إلى طلب الأمان من السلطان وتسليم ما بحوزته من الحصون [١] .

ويبدو أن الحبيشي استطاع استغلال الصراع الذي دار بين السلطان المنصور عبد الوهاب ومنافسيه من بني طاهر ، وتمكن من استعادة بعض الحصون ومن بينها حصن خدد، فاضطر السلطان المنصور إلى إحكام الحصار على هذا الحصن واستعادته في ربيع الثاني سنة ٨٨٦هـ/ يونيه ١٤٨١م والاستيلاء على ما وجده فيه من عدد وذخائر [٢] .

ثم استقرت الأحوال بعد ذلك في تلك المنطقة ، وخشي أهلها انتقام بني طاهر إذا ما تجدد عصيانهم ، ولهذا أرسل أهل بعدان ـ في تلك المنطقة ـ إلى السلطان الظافر عامر الثاني بن عبد الوهاب عقب توليه عرش السلطنة سنة

---

(١) ابن الديبع : بغية المستفيد ص١٢٣ ، قرة العيون ص١٢٠ب، بامخرمة نفس المصدر ص١١٢٣ و ١١٤١ .

(٢) ابن الديبع : بغية المستفيد ص١٣٣ ، قرة العيون ص١٣٠ب، بامخرمة نفس المصدر ص ١١٦٤ .

٩٤ هـ/ ٩ ٤٠م يبلغونه بوقـــوع اضطراب في بلادهم ويطلبون منه سرعة الحضور لإقرار الأوضاع فيها [١] .

٦ - الصراع الزيدي الطاهري في عهد بني طاهر :

تعتبر الأمامة الزيدية من أقوى القوى المعارضة للسلطات الحاكمة في اليمن ، فالأئمة كانوا يهدفون دائما إلى السيطرة الكاملة على البلاد ، لذلك كان الصراع مستمرا بينهم وبين السلطات الحاكمة . غير أن الأمر كان يتوقف بصفة عامة على مدى قوة الدولة القائمة ، فكلما أثبتت مقدرتها على السيطرة والتحكم في البلاد ، كلما انكمشت القوى الزيدية والتزمت الهدوء ، في الوقت الذي كانت تعد نفسها لمعارك مقبلة ، فكانت تدخر قواها لفرصة مواتية تثبت فيها وتتوسع على حساب القوى الحاكمة المنهارة . خاصة في المنـاطق التي يشكل أتباعهم فيها أغلبية كبيرة كصنعاء وما يليها شمالا من جبال اليمن .

وكان الصراع والتنافس بين بني رسول على عرش السلطنة فرصة مناسبة استغلها الأئمـة للسيطرة على منطقة صعدة والاستقلال بحكمهـا ، والتوسع تدريجيا في المناطق التي تليها جنوبا ، بحيث تمكنوا من الاستيلاء على صنعاء، ومد نفوذهم جنوبها إلى ذمار وما حولها قرب نهاية عصر الدولة الرسولية .

والحقيقة أنه لولا الانقسامات والمنازعات بين قوى الزيدية حول الامامة وقيام أكثر من إمام في وقت واحد ، وتنافس الأئمة وقيام الحرب بينهم من أجل الانفراد بالإمامة ، لكان في استطاعتهم استكمال السيطرة على بلاد اليمن ووراثة ملك بني رسول .

---

(١) بامخرمة : نفس المصدر ص١١٦٩ .

ومع قيام دولة بنى طاهر شغلت القوى الزيدية بالصراعات والحروب فيما بينها (١)، واستغل بنو طاهر حالة التصدع فى الكيان الزيدى ، وعملوا على التقرب من الأطراف المتنازعة ـ كل على انفراد ـ واجتهدوا فى توسيع شقة الخلاف واستمرار القتال فيما بينها مما يؤدى فى النهـــاية إلى إضعافهم واستنزاف قوتهم (٢) . وفى نفس الوقت عمل بنو طاهر على تجنب الدخول فى صراع مباشر ضد الزيدية ، والتفرغ لتكريس الجهـــود لتوطيد دعائم دولتهم ، ولذلك نلاحظ أنه ما كاد الامام الناصر يغير سنة ٨٦٢هـ/١٤٥٨م على مخلاف رداع ـ إلى الجنوب الشرقى من ذمار ـ حتى عمل بنو طاهر على تلافى التصادم معه، وسعوا إلى مسالمته وتمكنوا بالفعل من التوصل إلى عقد صلح معه (٣) . إلا أن الإمام لم يلبث أن أغار مرة أخرى فى رجب أو شعبان سنة ٨٦٣هـ/ مايو أو يونية ١٤٥٩م ، الأمر الذى دعا بنو طاهر إلى التصدى له ، وتمكنت قواتهم بقيادة الأمير جياش بن سليمان السنبلى من إيقاع الهزيمة به وقتل جماعة من أتباعه وإجباره على العودة (٤) .

وفى رمضان سنه ٨٦٤هـ/يونيه ١٤٦٠م أغار الإمام مرة أخرى على رأس قوة كبيرة على بلاد رداع ، فتوجه السلطان الظافر عامر الأول بن طاهر لمقاتلته ، وبادره الحرب قبل أن يتهيأ للقتال ، وعلى الرغم من ذلك فقد تمكن

---

(١) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص٥٨٧ .

(٢) يحيى بن الحسين : نفس المرجع ص٥٨٨ .

(٣) ابن الديبع : قرة العيون ص١٢٠ ب ، بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٢٦ ، الكبسى : اللطائف السنية ص٢٢٣ .

(٤) يحيى بن الحسن : غاية الأمانى ص ٥٨٩ .

الإمام من الانتصار في الرابة، واستقرت المعركة عن مقتل محمد بن طاهر ـ أخي السلطان ـ في جماعه من أتباعه، كما قتل وأسر عدد من أتباع الإمام (١).

ونتيجة الإغارات المتعددة التي شنها الامام الناصر محمد على مناطق نفوذ الطاهريين طمعا في التوسع على حسابهم، توجه السلطان الظافر عامر بن طاهر على رأس حملة كبيرة سنة ٨٦٥هـ / ١٤٦١م إلى ذمار ـ وكانت وقتئذ تابعة للامام ـ فغادرها الإمام إلى صنعاء «ولم يلتفت إلى محاربة الظافر» (٢)، واضطر والى ذمار للخروج إلى معسكر السلطان وتقديم فروض الطاعة والولاء له وطلب الأمان لأهل المدينة خوفا من تعرضها للنهب والتخريب، فاستجاب له السلطان ودخل المدينة بصحبته بغير حرب في شهر رجب من ذلك العام، ولم يتعرض العسكر السلطاني لأهل ذمار بأي سوء. فلما أقر السلطان الأوضاع فيها أناب ابن أخيه على بن تاج الدين عنه وعاد إلى رداع، حيث وفدت عليه جموع القبائل مؤيدة طائعة (٣).

وفي سنة ٨٦٦هـ / ١٤٦١م خرج السلطان الظافر عامر الأول على رأس حملة إلى الشحر وترددت الشائعات آنذاك حول هلاكه ومن معه عطشا في الصحراء. فانتهز الإمام الناصر محمد تلك الفرصة وزحف بقواته إلى ذمار

---

(١) ابن الديبع: بغية المستفيد ص ١٠٠، بامخرمة: قلادة النحر جـ ٣ ص ١١١٨ و ١١٢٦، يحيى بن الحسين: غاية الأماني ص ٥٨٩، الكبسي: اللطائف السنية ص ٢٢٣.

(٢) يحيى بن الحسين: نفس المرجع ص ٥٩٠.

(٣) يحيى بن الحسين: نفس المرجع والصفحة.

واستولى عليها (١) . وقد صادف ذلك عودة السلطان من حملة الشحر ، فلما علم بسقوط ذمار أسرع بقواته إليها ، وقام في نفس الوقت بمكاتبة قادة الزيدية المناوئين للناصر محمد وحرضهم على محاربته ، مستهدفا شغل الإمام الناصر في جبهتين ، ونجحت خطة الظافر على نحو لم يكن في الحسبان ، فلم يكد يصل إلى ذمار حتى كان الإمام قد تركها لمصيرها ، وتوجه إلى حصن هران الواقع بالقرب من ذمار وتحصن فيه ، مما اضطر أهل ذمار إلى تسليم مدينتهم للظافر بالأمان ، فأمنهم (٢) ودخل مدينتهم في رجب سنة ٨٦٦ هـ (٣)/ ابريل ١٤٦٢م ثم لم يلبث أن خرج بعسكره لمحاصرة الإمام في حصن هران (٤)، فلما اشتد عليه الحصار جنح إلى الصلح وعرض تسليم الحصن ، مقابل اعتراف السلطان بسيطرته على المناطق الواقعة شمالي نقيل يسلح شمالي ذمار ، ولكن السلطان لم يوافق (٥) على ذلك الشرط واستمر محاصرا للامام . غير أن الإمام تمكن من التخلص من الحصار، إذ خرج سراً في بعض خاصته من الحصن وتوجه إلى صنعاء ، ولكنه لم يتمكن من الوصول إليها إذ اعترضته بعض القبائل وقامت بأسره (٦) وعرضت تسليمه إلى السلطان الظافر عامر الأول ، ثم تراجعت عن ذلك تحت تأثير أحد فقهاء الزيدية وتم تسليمه الى الإمام المطهر بن محمد بن

---

(١) يحيى بن الحسين: نفس المرجع ص ٥٩، الكبسي: اللطائف السنيه ص ٢٢٣

(٢) يحيى بن الحسين : غاية الأماني ص ٥٩٢ .

(٣) بامخرمة : قلادة النحر جـ ٢ ص ١١١٩ .

(٤) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢٢ أ - ب، بغية المستفيد ص ١٠١ - ١٠٣ ، بامخرمة : نفس المصدر ص ١١٢٧ .

(٥) يحيى بن الحسين : نفس المرجع ص ٥٩٢ .

(٦) الكبسى : اللطائف السنية ص ٢٢٣ .

سليمان (١) فظل سجينا عنده إلى أن توفى فى سنة ٨٦٨ هـ (٢)/ ١٤٦٣م.

وفى صنعاء انقسم الرأى العام الزيدى بين مؤيد للامام المطهر بن محمد ومعارض له، إلا أن محمد بن الامام الناصر الأسير تمكن - رغم تخوفه من الامام المطهر - من التحفظ على صنعاء، ورأى أنه قد أصبح بين شقى رحى، يحاصره من الجنوب السلطان الظافر، ومن الشمال الإمام المطهر، ولم يكن فى مقدوره مقاومة هاتين القوتين، فى الوقت الذى كان فى صنعاء عدد من المؤيدين لسيطرة المطهر على صنعاء. ولما كان محمد بن الإمام الناصر معاديا للامام المطهر فقد سعى إلى الانتقام منه وتخليص والده من أسره، ولذلك رأى أن يسلم مدينة صنعاء للسلطان الظافر حتى يتحقق له بذلك وقوع الصدام بين الإمام والسلطان، ويتمكن عن طريق ضرب فريق بفريق من أن يحقق نفعا لنفسه. وبالفعل قام بمراسلة السلطان الظافر وتم الاتفاق معه على تسليم المدينة مقابل خمسين ألف دينار (٣). ودخل السلطان بقواته صنعاء فى شوال سنة ٨٦٦ هـ/ يولية ١٤٦٢م وولى عليها ابن أخيه عبد الوهاب بن داود، وترك معه فيها حامية كبيرة (٤).

وبذلك توسع بنو طاهر، واشتد ملكهم، واستقروا فى هذا العام على

---

(١) ابن الديبع: قرة العيون ٢٢ أ، بغية المستفيد ص ١٠٣؛ بامخرمة: نفس المصدر والصفحة، يحيى بن الحسين: نفس المرجع والصفحة.

(٢) يحيى بن الحسين: نفس المرجع ص ٥٩٤ و ٥٩٥.

(٣) يحيى بن الحسين: غاية الأمانى ص ٥٩٤.

(٤) ابن الديبع: بغية المستفيد ص ١٠٣، قرة العيون ص ١٢ ب؛ بامخرمة: قلادة النحر جـ ٢ ص ٢٧ ١.

كثير من اليمن » (١) . وكان السلطان يتردد على صنعاء لتفقد أحوالها ، ففى شوال ٨٦٧ هـ / يولية ١٤٦٣ م توجه إليها ودخل فى احتفال كبير ، وأقام بها فترة، عمل خلالها على إقرار الأوضاع فى المنطقة (٢) ، ثم غادرها بعد أن أناب فيها الأمير محمد بن عيسى البعدانى (٣) .

بدأ محمد بن الناصر يستشعر مشاعر الضيق والسخط بعد أن أخفق فى خطته ، ولم يتحقق الصدام الذى كان يرجوه بين الامام المطهر والسلطان ، والظاهر أنه عبر عن تلك المشاعر بدليل أن السلطان الظافر عامر الأول بادر بالكتابة إلى واليه على صنعاء يأمره بتدبير الحيلة لإرسال محمد بن الناصر إليه حتى يضمن عدم قيامه بتدبير الاستيلاء على صنعاء . وفطن ابن الناصر إلى ما يدبره ضده ، فأرسل يستدعى أحد كبار أعوانه ويدعى محمد بن عيسى شارب الأسدى (٤)، واتفق وصول صاحبه هذا إلى صنعاء أثناء غياب واليها - فى معظم جيشه - لتفقد بعض المناطق التابعة له (٥). فلما وصل محمد بن عيسى شارب ليلا نادى أتباعه على الحراس ليفتحوا باب المدينة للأمير محمد بن عيسى ، فحسبوه والى صنعاء لتشابه الأسماء ،وبذلك تيسر له دخول المدينة على

---

(١) يحيى بن الحسين : نفس المرجع ص ٥٩٤ .

(٢) يحيى بن الحسين : نفس المرجع والصفحة .

(٣) يحيى بن الحسين: نفس المرجع ٥٩٥ .

(٤) يحيى بن الحسين : نفس المرجع ص٥٩٦ - ٥٩٧ ،الكبسى : اللطائف السنية ص ٢٢١ .

(٥) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢٣ ب ، الكبسى : اللطائف السنية ص ٢٢٤ .

أنه واليها فاستولى عليها فى المحرم ٨٦٩ هـ / سبتمبر ١٤٦٤ م. فلما علم الوالى الجتيقى بما حدث عاد إلى ذمار ومنها إلى المقرانة (١) .

أما السلطان الظافر عامر الأول فقد غضب غضبا شديدا لفقد صنعاء بهذه الصورة، وبادر على الفور بالتوجه على رأس جيش جرار لاستعادتها ،ولكن محمد بن الامام الناصر آثر أن يصالحه على مال التزم بتأديته إليه (٢) . وقيل بل اضطر السلطان إلى فك الحصار عن المدينة والعودة، لرغبة بعض قادته وجنده فى قضاء عيد الأضحى مع أهليهم (٣). وقد يكون لهذا القول نصيب من الصحة ، ذلك أنه لم يلبث أن عاد ثانية فى آخر المحرم سنة ٨٧٠ هـ/ سبتمبر ١٤٦٥ م لمحاصرة صنعاء ، وقامت قواته بعمليات تخريب واسعة النطاق حولها (٤) .

ومن الجدير بالذكر أن الصراع بين الزيدية على الإمامة كان قد بلغ ذروته ، فالإمام المطهر كان يسعى للقضاء على محمد بن الإمام الناصر ، وفى سبيل ذلك لم يتردد فى التعاون مع الظافر وأرسل ابنه من كوكبان فى مجموعة من الجند إليه لمعاونته فى الاستيلاء على صنعاء . وكان والى ثلا - بالقرب من كوكبان - يظهر ولاءه للامام المطهر فى حين كان يبطن غير ذلك ، فاستغل

---

(١) بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٢٨ - ١١٢٩ .

(٢) ابن الديبع : بغيـــة المستفيد ص ١٠٦ ، قرة العيون ص ١٢٣ ب ، بامخرمة : نفس المصدر ص ١١٢٩ .

(٣) يحيى بن الحسين : نفس المرجع ص ٥٩٨ .

(٤) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٠٧ ، قرة العيون ص ١٢٤ أ .

فرصة خروج ابن الإمام المطهر في غالبية العسكر من كوكبان وطمع في الاستيلاء عليها واعتقال الإمام ، ثم كتب إلى محمد بن الناصر في صنعاء يخبره بذلك ، فأمده بمجموعة من الجند ، وتمكن بفضلهم من دخول كوكبان ومحاصرة الإمام في داره . ودارت معركة عنيفة بين الجانبين انتهت بهزيمة صاحب ثلا وأسره ومصرع جميع أتباعه . وكان ذلك الوالي قد أرسل عقب دخوله كوكبان إلى محمد بن الناصر يبلغه باستيلائه عليها فدقت الطبول بالبشرى في صنعاء . وعندئذ خشى ابن المطهر على أبيه ، فأمده السلطان الظافر الأول بتجريدة من عسكره ، فلما وصلوا إلى ثلا شرعوا في تخريب جانب كبير منها ، ثم تحولوا إلى كوكبان ، ولكنهم عادوا إلى السلطان بعد أن اطمأنوا على سلامة الإمام المطهر ، أما السلطان فإنه لم يلبث أن فك الحصار عن صنعاء[1] مكتفيا بما قامت به قواته من تخريب ما حول المدينة من مناطق زراعية[2] .

توجه السلطان الظافر عامر الأول إلى عدن ، ولكنه ما كان يصل إليها حتى لحقته رسائل من صنعاء يطلب مرسلوها منه العودة إليها ووعدوه بنصرته ومساعدته في الاستيلاء عليها . فأسرع مهرولا إليها في حشد كبير ، فوصلها على حين غفلة من أهلها في ذى القعدة سنة ٨٧٠ هـ / يونية ١٤٦٦ م . ولكنه لم يكن مستعدا للقتال اعتمادا على ما وعده به أهل صنعاء . ولهذا لم يستعص على قوات محمد بن الناصر بقيادة محمد بن عيسى شارب التغلب عليه وهزيمته وسقوطه صريعا في جملة كبيرة من عسكره يوم الاثنين السابع من ذى القعدة .

---

(١) يحيى بن الحسين : غاية الأماني ص ٥٩٩ .

(٢) يحيى بن الحسين : نفس المرجع ص ٦٠٠ .

سنة ٨٧٠ هـ [١] / ٢١ يونيه ١٤٦٦ م . وغنم أهل صنعاء كميات هائلة من الغنائم ، حتى « استغنى المفلس » [٢] .

ومما يذكر أن السلطان المجاهد علي كان قد حذر أخاه المظفر من الاعتماد على مايصله من أهل صنعاء ، إذ قد يكون ذلك مكيدة منهم لإيقاعه فى كمين أعدوه له ، ولكن السلطان الظافر عامر الأول لم يعر نصيحة أخيه اهتماما ، فلما قتل وهزمت قواته ، اضطربت أحوال اليمن ، وبذل السلطان المجاهد علي جهودا مضنية من أجل إعادة الاستقرار إلى البلاد [٣] . وشغل بذلك ، وأعرض عن مواصلة الحرب ضد الزيدية [٤] ، مما أتاح الفرصة لمحمد بن الناصر أن يطمئن من ناحية بنى طاهر فترة طويلة من الزمن ، وأن يتمكن – من ناحية أخرى – من الصمود أمام الحملات التى كان الإمام المطهر يجهزها للاستيلاء على صنعاء [٥] . ولكن محاولات الإمام لم يكتب لها النجاح ، على الرغم من قيامه بالاستيلاء على مدينه ذمار [٦] ، التى استمر يسيطر عليها ، وكانت وفاته بها فى شهر صفر سنة ٨٧٩ هـ [٧] / يونية ١٤٧٤ م .

---

(١) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٠٧ ، قرة العيون ص ١٢٤ أ .

(٢) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٠١ .

(٣) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٠٨ ، قرة العيون ص ١٢٤ ب ، بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٢٩ .

(٤) الكبسى : اللطائف السنية ص ٢٢٥ .

(٥) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٠٢ .

(٦) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٠٣ .

(٧) يحيى بن الحسين : نفس المرجع ص ٦٠٦ .

لم ينته الصراع بين الزيدية بوفاة المطهر بن محمد بن سليمان ، فقد قام ابنه عبد الله محتسبا - والاحتساب عند الزيدية مرحلة سابقة للامامة ومؤهلة لها - وبدأت مرحلة جديدة من التنافس على الإمامة ، فقد قام الشريف الزيدى محمد بن يوسف بن صلاح الدين المرتضي بالدعوة لنفسه بالامامة . كما قام عز الدين ابن الحسن بن على بن المؤيد إماما ، ولكنه تخلى عنها ، ثم لم يلبث أن قام بتجديد دعوته مرة أخرى . وأجمعت الزيدية على مبايعته فيما عدا أهل صعدة الذين تمسكوا بإمامة محمد بن يوسف [١] ، أما صنعاء فكانت تحت سيطرة محمد بن الإمام الناصر . وعلى هذا النحو من التفكك والانقسام والتنافس وما اقترن به من صراع حربى ، أخذت الزيدية تنحدر نحو اضمحلال محتوم[٢] .

ويمكن القول بأن للفترة التى انفرد فيها السلطان المجاهد على بالسلطنة بعد مقتل أخيه الظافر عامر الأول اتسمت بزهد المجاهد فى مناجزة الزيدية ، وظل الأمر كذلك حتى أواخر عهد السلطان المنصور عبد الوهاب ، عندما استعاد مدينة ذمار في شهر رمضان سنة ٨٨٩ هـ / سبتمبر ١٤٨٤ م ، وأرغم صاحبها عبد الله بن الإمام المطهر على الفرار منها [٣] والاحتماء بصنعاء ، فأحسن محمد بن الناصر استقباله رغم ما بين أسرتيهما من عداء [٤] .

---

(١) يحيى بن الحسين : نفس المرجع ص ٦٠٦ — ٦٠٧ .

(٢) يحيى بن الحسين : نفس المرجع ص ٦٠٨ .

(٣) ابن الديبع : بغيه المستفيد ص ١٤٠ ، بامخرمة : نفس المصدر ص ١١٦٦ .

(٤) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦١٤ .

ويبدو أن أهل ذمار كانوا قد خرجوا عن طاعة السلطان المنصور عبد الوهاب، ومالوا إلى القوى الزيدية ، وسوروا مدينتهم ودعموا تحصيناتها[١]، والظاهر أن انشقاقهم حدث فى بداية سلطنة الظافر عامر الثانى ، بدليل أنه خرج فى قوة من عسكره إلى ذمار فى ذى القعدة سنة ٨٩٥هـ / سبتمبر ١٤٩٠م، وظل يحاصرها إلى أن تمكن من تدمير جانب من سورها ، ومن خلاله نجح فى اقتحام المدينة وفتحها عنوة فى السابع من ذى الحجة سنة ٨٩٥ هـ / ٢٢ أكتوبر ١٤٩٠ م ، ووافق على تأمين أهلها بشرط أن يستكملوا تخريب سور مدينتهم. ثم أناب السلطان أحد ثقاته فى ذمار وغادرها بعد أن أقر الأوضاع فيها [٢].

أما الزيدية، فقد استمر الانقسام والتصدع فى صفوفهم ، ففى رجب سنة ٩٠٠ هـ / ابريل ١٤٩٥ م توفى الإمام عز الدين بن الحسن بن على بن المؤيد ، فقام بأمر الإمامة من بعده ابنه الحسن . وفى شهر ذى القعدة من نفس العام كانت دعوة الشريف الزيدى محمد بن على الوشلى السراجى بالإمامة[٣] معارضا بذلك الإمام الحسن بن عز الدين والامام محمد بن يوسف ، وكان من الطبيعى أن تنشب الحرب بين تلك القوى حتى يتمكن أحدها من الانفراد بالامامة . ثم لم تلبث كفة الامام الوشلى أن أخذت فى الرجحان[٤] ، فبدأ فى التحرش

(١) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٣٦ ب - ١٣٧ أ ، يحيى بن الحسين : نفس المرجع ص ٦١٨ .

(٢) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٥٩ ، بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٧١ .

(٣) يحيى بن الحسين : نفس المرجع ص ٦٢١ - ٦٢٢ .

(٤) بامخرمة : نفس المصدر ص ١١٨٥ ، يحيى بن الحسين : نفس المرجع ص ٦٢٣ .

بني طاهر ، ففى سنة ٩٠٢ هـ / ١٤٩٦ م قام بتحريض أهل ذمار للخروج عن طاعة بنى طاهر [١] ، وواصل الإمام الوشلى نشاطه بالإغارة سنة ٩٠٤ هـ / ١٤٩٨ م على البلاد الخاضعة لسيطرة بنى طاهر ، ولكن القوات الطاهرية بقيادة على بن محمد البعدانى تمكنت من مفاجأة قواته والالتفاف حولها وتطويقها مما أحدث ارتباكا فى صفوفه ، وسهل للقوات السلطانية الانتصار عليه [٢] ، فلم ينج إلا بنفسه [٢] .

ثم سادت فترة من الهدوء أعقبها خروج السلطان الظافر الثانى بنفسه على رأس جيش ضخم إلى صنعاء ، وقيامه بمحاصرتها فى شعبان سنة ٩٠٧هـ/[٣] فبراير ١٥٠٢م وقذفها بالمنجنيق . فلما اشتد الحصار على صنعاء استنجد أهلها بالإمام الوشلى وبمحمد بن حسين الحمزى المعروف بالبهال [٤]، صاحب صعدة، فأسرعا فى جموع كبيرة لنجدتهم . فلما علم السلطان الظافر عامر الثانى بأمر تلك النجدة ، أرسل حملة بقيادة محمد بن على البعدانى لاعتراض طريق تلك

---

(٦) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٤١ أ ، الفضل المزيد ص ٢١ ب ، بامخرمة : نفس المصدر ص ١١٨٧ .

(٧) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٤٢ ب ، بامخرمة : نفس المصدر ص ١١٨٨ ، يحيى بن الحسين : نفس المرجع ص ٦٢٤ .

(٨) ابن الديبع : الفضل المزيد ص ٣٤ أ .

(٩) ابن الديبع: قرة العيون ص١٤٥ب-١٤٦أ ، الفضل المزيد ص٢٧ب بامخرمة : نفس المصدر ص ١١٩٠ .

(١) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٢٨ - ٦٢٩ ، الكبسى : اللطائف السنية ص ٢٢٩ .

الإمدادات والقضاء عليها أو ارغامها على العودة ، ولكن اليمداني لم يستطع الصمود أمام تلك الحشود الضخمة وإضطر إلى العودة منهزما إلى السلطان [١] فلما أحس السلطان الظافر الثاني بتحرج موقفه بوصول النجدات وصعوبة الانسحاب ، أبدى إستعداده للصلح ، إلا أن زعماء الزيدية اشترطوا شروطا لم يقبلها ، فقرر العودة وقام بإحراق أثقاله [٢] حتى لا تعوق انسحابه ، ولا يتركها ليستفيد منها أعداؤه . فلما بدأ بالانسحاب فى المحرم سنة ٩٠٨هـ/يولية ١٥٠٢م تصور زعماء الزيدية أن الفرصة قد سنحت لهم لإيقاع الهزيمة به ، وتتبعوا قواته ، ولكن السلطان تمكن من التغلب عليهم ، ووصل إلى ذمار دون أن يتهيأ لخصومه الإيقاع به [٣] .

أما محمد بن الناصر صاحب صنعاء ، فقد رحب بالامام الوشلى ومحمد بن حسين البهال عند دخولها المدينة ، ولم يتردد فى الاعتراف بإمامة الوشلى ، الذى ظل مع البهال فى صنعاء عدة أيام ثم عاد كل منهما بعدها إلى بلده [٤] . ولم يلبث محمد ابن الناصر أن توفى فى شعبان سنة ٩٠٨هـ / [٥] فبراير سنة ١٥٠٣م ، فقام

---

(١) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٤٥ ب ، ١٤٦ أ ، بامخرمة : قلادة النحر ج٣ ص ١١٩٠ ، الكبسي : اللطائف السنية ص ٢٣٠ .

(٢) يحيى بن الحسين : أنباء الزمن ص١١٢ أ ، غاية الأمانى ص٦٢٩ .

(٣) ابن الديبع : قرة العيون ص١٤٥ب -١٤٦ أ . الفضل المزيد ص٣٨ أ بامخرمة : قلادة النحر ج٣ ص ١١٩٠ .

(٤) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص٦٢٩ .

(٥) ابن الديبع : قرة العيون ص١٤٦ ا ب . الفضل المزيد ص ٣٨ ب ، بامخرمة نفس المصدر ص١١٨٢ و ١١٩١ .

أخوه أحمد بن الناصر بحكم صنعاء بعده (١).

وعلى الرغم من الصراع الدائر بين القوى الزيدية ، إلا أن تهديد السلطان الظاهرى بالاستيلاء على صنعاء وحد صفوفهم ، وتوافدت جموعهم لحمايتها ونصرة أهلها . ولما كانت صنعاء من أهم مدن اليمن ، وعن طريقها ينفتح الطريق أمام بنى طاهر لاستكمال السيطرة على الجزء الشمالى من اقليم الجبال ، فقد أعد السلطان الظافر عامر الثانى عدته لتجهيز حملة أخرى على صنعاء ، فلما توافدت جموع القبائل عليه توجه إليها فى ربيع الأول سنة ٩١٠ / أغسطس ١٥٠٤م وحاصرها وضربها بالمنجنيقات (٢) . وتكاتفت الزيدية للدفاع عن صنعاء وجاء الإمام الوشلى ومحمد بن حسين البهال صاحب صعدة فى جموع كثيفة لمحاربته . وكان السلطان الظافر قد وضع تلك النجدات فى الحسبان ، وقام بتقسيم جيشه إلى قسمين ، الأول ومهمته حصار صنعاء . والثانى — بقيادته — وهدفه مواجهة القوات الزيدية القادمة لنجدة صنعاء ، فدارت بين الجانبين معركة من أعنف المعارك التى وقعت فى عصر دولة بنى طاهر ، انتصر فيها السلطان الظافر الثانى انتصارا حاسما فى رمضان سنة ٩١٠هـ/فبراير ١٥٠٥م

---

(١) يحيى بن الحسين : نفس المرجع ص٦٢٩ ، الكبسى : اللطائف السنية ص٢٣٠ .

(٢) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٤٧ أ ، بامخرمة : قلادة النحر ج٣ ص ١١٩٢ . (ويقال أن قوات الظافر عامر الثانى قد زادت على مائة وسبعين ألف رجل من بينهم ثلاثة آلاف فارس) ابن الديبع : الفضل المزيد ص٤٠ ب ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص٦٣٣ ، الكبسى : اللطائف ص ٢٣٠ . (إلا أن هذا الرقم مبالغ فيه كثيرا إذا ماقورن بتعداد القوات التى استخدمها بنو طاهر فى حروبهم الداخلية الأخرى) .

وقتل فيها عدد كبير من قوات الإمام وصاحب صعدة ووقع الامام الوشلي أسيرا [1]، وغنم بنو طاهر كثيرا من الغنائم . أما محمد بن حسين البهال فقد تمكن من الأفلات والفرار بأعجوبة بعد أن تكبد خسائر جسيمة [2] .

وفيما يتعلق بالقوات التى كانت تحاصر صنعاء ، فقد واصلت مهمتها ، وانتهز أهل صنعاء فرصة المعركة الدائرة بين السلطان والإمام وأغاروا على القوات المرابطة حول المدينة بهدف فتح ثغرة تمكنهم من إمداد القوات المشتبكة مع السلطان ، أو إتاحة الفرصة لها لدخول المدينة للاحتماء والتحصن فيها . إلا أن القوات السلطانية المحاصرة لصنعاء تمكنت من التصدى لهم وأوقعت الهزيمة بهم ، ودوت هزيمة الإمام الزيدى ووقوعه فى الأسر دويا هائلا فى صنعاء ، وخاف أهلها من أن يتعرضوا للعنف إذا ماقام السلطان بفتح المدينة عنوة ، ولذلك طلبوا منه تأمينهم ، فلما وافق قاموا بفتح أبواب المدينة فدخلها بقواته

---

(١) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٤٧ ب ، الفضل المزيد ص ٤٠ ب ، بامخرمة : نفس المصدر ص ١١٩٢ ، العيدروسي : النور السافر ص ٥٣ ، يحيي ابن الحسين : نفس المرجع ص ٦٣٣ ، الكبسي : اللطائف السنية ص ٢٣٠ ؛ (وكانت وفاة الأمام الوشلي فى صنعاء فى ذى القعدة سنة ٩١٠ هـ / ابريل ١٥٠٥ م . ويقال أنه مات مسوما بسجنه فيها) ابراهيم بن القاسم بن المؤيد : طبقات الزيدية ـ مخطوط بمكتبه الامام يحيى بصنعاء ـ ص ٢٠٠ أ ، يحيى ابن الحسين : نفس المرجع ص ٦٣٤ .

(٢) كانت وفاة البهال فى بلدة صعده فى رجب ٩١١ هـ / أكتوبر ١٥٠٥ م (ابن الديبع : قرة العيون ص ١٤٩ ب ، الفضل المزيد ص ٤٦ أ ، بامخرمة : نفس المصدر ص ١١٨٥ ، ١١٩٠) .

واستولى عليها فى السابع من شوال سنة ٩١٠هـ [١] . كما تمكن من الاستيلاء على كثير من الحصون القريبة منها [٢] . فلما أقر الأمور فى مدينة صنعاء أناب فيها الفقيه محمد النظارى وأنعم على القبائل التى اشتركت معه فى القتال وسمح لأفرادها بالعودة [٣] . أما صاحب صنعاء الشريف أحمد بن الناصر فقد أرسله السلطان فى المحرم ٩١١هـ/ يونيه ١٥٠٥م إلى تعز فأقام فيها مجللا مكرما مع أهله وحشمه [٤] إلى أن توفى سنة ٩١٢هـ [٥] .

ولم يلبث أمر الزيدية أن ضعف بعد تلك الضربة التى وجهها إليهم السلطان الظافر عامر الثانى بن عبد الوهاب ، وكان لابد من شخصية قويه تجمع شمل القوى الزيدية من جديد ، خاصة بعد أسر الإمام الوشلى ووفاته ، وتتمثل تلك الشخصية فى الإمام يحيى شرف الدين [٥] الذى أقيمت له الدعوة بالإمامه

---

(١) ابن الديبع: قرة العيون ص٧: ١ب – ١١٨أ ، الفضل المزيد ص٤٠ب–٤١أ ، بامخرمة : قلادة النحر ٣ص١١٩٢ .

(٢) ابن الديبع : الفضل المزيد ص٤٠ب ، يحيى بن الحسين : نفس المرجع ص٤٤ب ، الكبسى : اللطائف السنية ص٢٣١ .

(٣) ابن الديبع : الفضل المزيد ص٤١أ .

(٤) بامخرمة : قلادة النحر ج٢ ص١١٩٢ .

(٥) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص٦٢٥ ، الكبسى : اللطائف السنية ص٢٣١ .

(٦) هو الإمام المتوكل على الله رب العالمين يحيى شرف الدين بن شمس الدين بن الامام المهدى لدين الله احمد بن يحيى المرتضى (غاية الأمانى) بن أحمد بن المرتضى بن مفضل بن منصور بن مفضل بن الحجاج بن على بن يحيى =

فى جمادى لآخرة سنة ٩١٢هـ/ أكتوبر ١٥٠٦م غير أنه لم يحظ بإجماع كامل من العناصر الزيدية(١) فى بداية الأمر، ذلك أنه لم يقم بدور فعال فى مقاومة القوات الطاهرية التى استطاعت السيطرة سنة ٩١٧هـ / ١٥١١م على حصون ثلا وحضور وكوكبان - إلى الشمال الغربى من صنعاء - كما استولت على بعض المناطق الأخرى التى كانت تحت السيطرة الزيدية (٢) . ولم تفلح المحاولات التى قام بها الزيدية ، ففى عام ٩١٩هـ / ١٥١٣م قضى والى صنعاء على مؤامرة قام بها بعض أهل صنعاء للفتك به وإنتزاع صنعاء (٣) منه .

وهكذا بلغت دولة بنى طاهر أقصى إتساع لها فى عهد السلطان الظافر عامر الثانى ، غير أنه يؤخذ عليه تقصيره فى مواجهة البرتغاليين الذين إزداد خطرهم فى المحيط الهندى والبحر الأحمر . ومن المعروف أنه شغل ببعض الجولات التفقدية فى أنحاء كثيرة من بلاده ، فقد زار فى سنة ٩٢٠هـ/١٥١٤م كل من مدينة إب وذى جبلة من اليمن الأوسط (٤) ، ثم توجه إلى صنعاء مما

= ابن القاسم بن يوسف بن احمد بن الإمام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين (الكبسى : اللطائف ص٢٢١ ، العصامى : سمط النجوم العوالى - مخطوط بدار الكتب رقم ٥٦٦٤ تاريخ - جـ٤ ص٤٣٠).

(١) يحيى بن الحسين : نفس المرجع ص٦٣٥ .

(٢) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٥ أ ، الفضل المزيد ص٤٨ب - ٤٩ أ، بامخرمة : نفس المصدر ص١١٩٢ ، يحيى بن الحسين : نفس المرجع ص٦٣٨، الكبسى : اللطائف السنية ص٢٢٣ .

(٣) ابن الديبع : الفضل المزيد ص٥٢ أ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص٦٤٠ .

(٤) بامخرمة : نفس المصدر ص١١٩٧ .

أطمـع أشراف صعدة بالفتك به ، فقد وفد عليه فى صنعاء بعض رؤسائهم وعرضوا عليه الحضور إلى صعدة ليتسلمها منهم ، ولكنه أرسل معهم نائبة عنه للقيام بتلك المهمة والإقامة فيها مع حامية أعدها معه ، وفي طريقهم إلى صعدة أوقعوهم فى كمين كانوا قد أعدوه للسلطان ولم يتخلصوا منه إلا بعد أن وصلتهم نجدة من السلطان، فعادوا إلى صنعاء [1] .

أما من الخطر البرتغالى فيبدوا أن السلطان الظافر عامر الثانى كان قد ترك فى بادىء الأمر مهمة التخلص منه للدولة المملوكية ، ولكنه غير موقفه تجاه المماليك ، ولم يكتف بعدم التعاون معهم أو الامتناع عن إمدادهم بالمؤن، وعدم السماح لهم باستخدام بعض الموانى بسواحل اليمن ، بل وقف منهم موقفا عدائيا ، مما أدى إلى تحول الحملة المملوكية الثانية عن هدفها فى محاربة البرتغاليين واستدراجها إلى غزو اليمن والقضاء على دولة بنى طاهر بقتل آخر سلاطينها الظافر عامر بن عبد الوهاب فى ربيع الآخر ٩٢٣هـ/ ابريل ١٥١٧م. وهذا ما سوف نتعرض له فى الفصل الأخير .

(١) ابن الديبع : قرة العيون ص١٥٣ أ - ب، الفضل المزيد ص٥٢ب ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص٦٤٠ .

الباب الثاني

العلاقات الخارجية

الفصل الرابع

العلاقات الخارجية في عصر بني رسول

أولا - فى عصر نور الدين عمر بن على بن رسول :-

ارتبطت بلاد اليمن - منذ بداية الاسلام - بالدولة الاسلامية ، كولاية من ولاياتها ، ولهذا كانت علاقاتها الخارجية ترتبط ارتباطا وثيقا وبصفة أساسية بعاصمة الخلافة . أما علاقاتها بالولايات الإسلامية أو الدول الأخرى ، فكانت تتم من خلال الخلافة القائمة . وكان ولاة اليمن يتم تعيينهم أيام الخلفاء الراشدين والأمويين وبنى العباس ، بمعرفة الخليفة . ومع ضعف الدولة العباسية تحولت تبعيتها تدريجيا إلى تبعية إسمية تتمثل فى الخطبة والسكة .

ومع بدء نشاط الشيعة وانتشار حركتهم ، كانت بلاد اليمن موئلا لتلك الحركة المناهضة للعباسيين ، فلما قامت الدولة الفاطمية فى افريقية ، وانتقل مقرها إلى مصر ، استطاع على بن محمد الصليحى إقامة الدولة الصليحية - الاسماعيلية - كدولة تدين بالولاء للخليفة الفاطمى بمصر ، فى حين ظلت الدويلات اليمنية السنية الأخرى ، كدولتى بنى زياد وبنى نجاح من بعدها ، تابعتين إسميا لخلافة بغداد .

وبقيام الدولة الأيوبية على أنقاض الدوله الفاطمية فى مصر ، أرسل صلاح الدين أخاه توران شاه إلي اليمن سنة ٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م على رأس حملة للاستيلاء عليها ، من أجل القضاء على بقايا النفوذ الشيعى وضم اليمن إلى ركب

التحرر العربي للجهاد ضد الصليبيين ، وتأمين حدود الدولة الأيوبية بالسيطرة على المنفذ الجنوبي للبحر الأحمر . وأصبحت بلاد اليمن الموحدة منذئذ تابعة للأيوبيين، وتدين بالولاء للخليفة العباسي من خلال تلك التبعية . ومع أن حكامها الأيوبيين تمتعوا بقدر كبير من حرية التصرف ، إلا أن بلاد اليمن ظلت تشكل جزءاً من الدولة الأيوبية حتى وفاة المسعود يوسف بن الكامل الأيوبي سنة ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م .

١ - موقف الأيوبيين من محاولات بني رسول السيطرة على الحجاز :-

وباستقلال نور الدين عمر بن علي بن رسول - نائب المسعود - بملك اليمن سنة ٦٢٨ هـ / ١٢٣١ م دخلت بلاد اليمن في طور جديد من العلاقات العدائية مع الأيوبيين في مصر ، وأصبحت تلك العلاقات المتدهورة تمثل السمة المميزة للعلاقات اليمنية الأيوبية منذ بداية استقلال نور الدين باليمن وانسلاخها عن الدولة الأيوبية .

ولما كانت بلاد الحجاز - التابعة وقتذاك للأيوبيين - هي المعبر البري بين مصر واليمن ، فقد أصبحت محور الصراع بين هاتين القوتين . ومن ثم تحول هدف الأيوبيين من محاولة استرداد بلاد اليمن إلى العمل على استمرار تبعية بلاد الحجاز لهم ، بعد أن نجح نور الدين في نقل مسرح المعارك إليها تأمينا لسلامة دولته .

وترجع صلة نور الدين عمر بن علي بن رسول ببلاد الحجاز إلى أيام المسعود يوسف الأيوبي ، الذي كان قد استولى على مكة في سنة ٦١٩هـ/١٢٢٢م

وأصبحت تابعة له [١] ، وأناب عنه فيها نور الدين عمر بن رسول [٢] وترك معه حامية من ثلاثمائة فارس [٣] . وقد حاول شريف مكة حسن بن قتادة استعادة نفوذه وسيطرته على مكة ، ولكن نور الدين باغته بالهجوم قبل أن يستكمل استعداداته . وهزمه وشتت جموعه وقتل من أتباعه عددا كبيرا ، وولى الشريف حسن الأدبار أمام نائب المسعود [٤] . وظل نور الدين ينوب عن المسعود في مكة حتى سنة ٦٢١ هـ / ١٢٢٤ م عندما استدعاه المسعود حينما اعتزم

---

(١) ابن الأثير . الكامل جـ ١٢ ص ١٨٩ – ١٩٠ ، سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ ٨ ص ٦٢٤ ، ابن أيبك : درر التيجان ص ٥٢٨ ، النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٧ ص ٣٢ ، أبو الفدا : المختصر جـ ٢ ص ١٣٨ ، ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٠ ، ابن الوردى : تاريخه جـ ٢ ص ١٤٤ ، الخزرجى : العسجد ص ٢١٦ ، العقد الفاخر جـ ٢ ص ٤٩ أ ، الفاسى : العقد الثمين جـ ٢ ص ٥٥١ ، جـ ٤ ص ٣٥٤ ، المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٢١٣ ، الذهب المسبوك ص ٧٧ – ٧٨ ، العينى : عقد الجمان جـ ٥٢ ص ٤٣٣ ، الشرفى : اللآلى المضية جـ ٢ ص ١٣٤ ب ، يحيى بن الحسين : أنباء الزمن ص ٧٠ ، الطبرى : الأرج المسكى فى التاريخ المكى ، مخطوط بدار الكتب ، ص ٤٧ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٧٢ ، زينى دحلان : خلاصه الكلام ص ٢٥ .

(٣) الفاسى : العقد الثمين جـ ٣ ص ٣٩٣ ، ابن تغرى بردى : المنهل الصافى جـ ١ ص ٢٢٩ ، حوادث الدهور ص ٣٧٤ ، العصامى : سمط النجوم العوالى ص ٤٧٨ .

(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٧٢ ، زينى دحلان : خلاصة الكلام ص ٢٥ .

على السفر إلى مصر لزيارة والده الملك الكامل محمد ، فأنابه مع إخوته على اليمن إلى أن يعود من مصر [١] . ولما استقر رأى المسعود على ترك اليمن سنة ٦٢٦ هـ/ ١٢٢٩ م ليتولى دمشق وأعمالها بعد وفاة عمه المعظم عيسى واستيلاء والده الملك الكامل محمد عليها [٢] ، ولي نور الدين عمر على حكم اليمن نيابة عنه [٣] . ولكن المسعود لم يكد يصل إلى مكة - فى طريقه إلى مصر - حتى وافته المنية .

أحسن نور الدين استغلال فرصة وفاة المسعود لمصلحته ، وعمـــل على اكتساب ثقة الملك الكامل ، ولهذا أسرع بتجهيز الأموال والهدايا والتحف وأرسلها إليه ، تعبيرا عن إخلاصه فى نيابته عنه فى حكم اليمن [٤] . ونجح

---

(١) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٠ ب ، الخزرجي : العسجد ص ٢١٦ ، العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٣٣ ، العقد الفاخر جـ ٢ ص ١٤٩ أ ، العقد الثمين جـ ٢ ص ٣٩٣ ، المقريزى : الذهب المسبوك ص ٧٨ ، ابن تغرى بردى : المنهل الصافى جـ ١ ص ٢٩ ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ ٢ ص ١٧٥ ، يحيى بن الحسين : أنباء الزمن ص ٧٠ .

(٢) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ ٨ ص ٦٥٨ ، الفاسى : العقد الثمين جـ ١ ص ١٧٩ ، ابن أيبك : كنز الدرر جـ ٧ ص ٣٠٠ ، الذهبي : سير أعلام النبلاء جـ ١٢ ص ٤٠٢ ، المقريزى : الذهب المسبوك ص ٨٠ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٢٧٢ ، الحنبلى : شفاء القلوب ص ٩٩ أ .

(٣) أبو الفدا : المختصر جـ ٢ ص ١٤٩ ، الخزرجى : العسجد ص ٢٢ ، العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٤٣ ، المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٢٣٧ .

(٤) الفاسي : العقد الثمين جـ ١ ص ١٧٩ ، ابن تغرى بردى : المنهل الصافى جـ ١ ص ٢٢٠ .

نور الدين في إقناع الملك الكامل بطاعته وولائه له ، فحظى بثقته وأبقاه نائبا له على بلاد اليمن [١] . وقد ساعد على ذلك أن الدولة الأيوبية كانت تجتاز فترة عصيبة من تاريخها ، فالصراع كان على أشده بين الملك الكامل وإخوته ، مما أدى إلى ضعف الدولة وزيادة المطامع الخارجية فيها [٢] .

وإذا كان نور الدين قد نجح في اكتساب ثقة الملك الكامل ، فإنه نجح أيضا في إخفاء مطامعه في الاستقلال باليمن[٣]، مما ساعده على العمل تدريجيا في تنفيذ تلك المطامع ، وبدأ خطته بالعمل على إحكام السيطرة على البلاد ، فقام بعزل من يخشاه من ولاة المسعود [٤] ، وولى على المدن والحصون من يثق فيهم من أتباعه [٥] . فلما تم له ما أراد ، جاءه الأشراف الزيدية ودخلوا في طاعته واغروه بخلع طاعة الأيوبيين والاستيلاء على اليمن ، وتحالفوا معه على تأييده ومساندته ضد الأيوبيين [٦] . وما أن استكمل تلك المرحلة الأولية حتى أقدم على إعلان استقلاله بملك اليمن أواخر عام ٦٢٨ هـ/ ١٢٣١ م [٧] .

---

(١) النويرى : نهاية الأرب جـ ١٧ ص ٤٢ .

(٢) المقريزى : السلوك جـ١ ص٢٥٥، العينى : عقد الجمان مجلد٣ ص١٧٩
Wiet : L' Egypte Arabe, pp . 354 – 359 .

(٣) ابن تغرى بردى : حوادث الدهور ص ٣٧٥ .

(٤) الخزرجى : العسجد ص ٢٢٦ ، الفاسى : العقد جـ ٣ ص ٣٩٤ .

(٥) ابن تغرى بردى : المنهل جـ ١ ص ٢٣٠ ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ ١ ص ١٧٥ ، يحيى بن الحسين : أنباء الزمن ص ٧١ .

(٦) الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٤٧ .

(٧) ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٣ ص١٤١ ، النويرى : نفس المصدر =

كان نور الدين يقدر عواقب ماأجترأ على القيام به ، والمخاطر التى قد تتهددة من قبل القوى الأيوبية فى مصر ، بعد أن أصبح فى نظـرهم مغتصبا لجزء من دولتهم . ولهذا بادر بالعمل على تأمين دولته وحمايتها من الحملات الأيوبية المنتظرة . ولما كانت بلاد الحجاز هى المعبر الوحيد للجيوش الأيوبية القادمة برا من مصر ، فقد تبين له أن استمرار تبعية الحجاز الأيوبيين يشكل خطرا دائما على دولته، لسهولة خطرا وصول الحملات والإمدادات الأيوبية عن طريقها إلى اليمن ، هـــذا إلى جانب وجود حامية أيوبية قوية مرابطة فيها (١) . ولذلك كان يتحتم على نور الدين — حماية لدولته — أن يعمل على إزالة الأخطار التى تهدده من ناحية الحجاز ، وذلك بالاستيـلاء على تلك البلاد ، أو على الأقل نقل مسرح المعارك إليها ، وتحويلها إلى خط دفاع أمامى لليمن . ولا شك أن استيلاء نور الدين على بلاد الحجاز وسيطرته عليها من شأنه أن يؤدى إلى امتداد نفوذه واتساع رقعة دولته ، وارتفاع مكانته فى العالم الإسلامى باعتباره حامى حمى الحرمين الشريفين .

وبدخول نور الدين فى صراع سافر ضد الأيوبيين ، يبدأ دور جديد من التنافس على الحجاز ، فعلى الرغم من أن الظروف الصعبة التى كانت تمر بها الدولة الأيوبية لم تكن تسمح بتوجيه الحملات لاسترداد اليمن ، إلا أن إقدام نور الدين على انتزاع الحجاز من السيطرة الأيوبية ، قد وضعه — فى اعتبـار الأيوبيين — فى مصاف القوى المعادية لهم كالصليبيين والخوارزمية . وهـذا

= والجزء ص ٤٢ ، العرشي : بلوغ المرام ص ٤٦ ، زبارة : أئمة اليمن جـ ١ ص ١٤٩ .

(١) الفاسي : العقد الثمين جـ ١ ص ١٧٩ .

يفسر الأسباب التى حملت الملك الكامل الأيوبى على التحرك لمواجهـة مطامع نور الدين عمر بن رسول ، فبدأ فى تجهيز الحملات لضمان استمرار تبعية الحجاز له ، ووضع حـــد لمطامع نور الدين واستعادة اليمن إلى الكيان الأيوبى .
وكانت أولى تلك الحملات التى أرسلهـا الملك الكامل ٦٢٩ هـ/ ١٢٣١م إلى الحجاز بقيادة شجاع الدين طغتكين لتدعيم الحامية الأيوبية فيها وتمكينهـا من الصمود أمام مطامع نور الدين (١) .

أما نور الدين فإنه لم ينتظر حتى تداهمه القوات الأيوبيـة ، ورأى أن الهجوم خير وسيلة للدفاع ، فبادر ـ بمجرد علمه بتجهيز الحمـلة الأيوبية ـ بإرسال أول حملة له بقيادة أحد كبار أتباعه ويدعى ابن عبدان وأرسل معه الشريف راجح بن قتادة (٢)ـ وكان من الموالين له من أشراف مكة ـ وأمدها بكثير من الأموال لإنفاقهـا على أهل مكة ضمانا لولائهم (٣) . ومن ناحية أخرى عقد طغتكين قائد الحملة الأيوبية اجتماعا بكبار رجالات مكة وأعيانها واستحلفهم على الوقوف بجانبه ومناصرته والإخلاص له ، وأنفق فيهم نفقة كبيرة . ولكن أهـــل مكة لم يلبثوا أن مالوا إلى اليمنيين بمجرد مراسلة الشريف راجح بن قتـــادة لهم وتذكيرهم بالمعاملة الحسنة التى عاملهم بهـا

(١) ابن حاتم : السمط ص ٤٣ أ .

(٢) الفاسى : العقد الثمين جـ١ ص١٧٩ ، جـ٤ ص٣٩٥ ، شفاء الغرام جـ٢ ص٢٠٠ ، بامخرمة : ثغر عدن جـ٢ ص١٧٦ .

(٣) ابن حاتم : نفس المصدر ص ٤٣ أ ، الخزرجى: العقود جـ١ ص٤٩ ، العسجد ص ٢٢٨ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٦٦ أ ، يحيى بن الحسين : أنباء الزمن ص ٧١ .

نور الدين أيام ولايته على مكة من قبل المسعود [1] . ولهذا لم يجد طغتكين بدا — أمام خذلان أهل مكة له — من الانسحاب بقواته [2] إلى نخلة ومنها إلى ينبع حيث يتهيأ له أن يتحصن مع حاميتها الأيوبية [3] . وكتب إلى الملك الكامل يبلغه بتطورات الموقف [4] . أما القوات اليمنية فقد استطاعت الاستيلاء — في يسر وسهولة — على مكة في ربيع الآخر سنة ٦٢٩هـ / يناير ١٢٣٢ م بغير حرب لخروج قوات الأيوبيين منها [5] .

ولم تكد الأنباء تصل إلى الملك الكامل باستيلاء قوات نور الدين بن رسول على مكة والتجاء القوات الأيوبية إلى ينبع حتى أسرع بتسيير حملة إلى الحجاز بقيادة فخر الدين بن شيخ الشيوخ [6] وزوده بتعليمات إلى

(١) الخزرجي : العقود جـ١ ص ٥٠ ، العسجد ص ٢٢٨ ، الفاسي : العقد الثمين جـ ١ ص ١٧٩ ، جـ٣ ص ٣٩٥ .

(٢) ابن أيبك : درر التيجان ص ٥٥٩ ، الأرج المسكي في التاريخ المكي ص ٤٧ .

(٣) الفاسي . العقد الثمين جـ٢ ص ٧٤٠ ، المقريزي : السلوك جـ١ ص ٢٤٤ ، العصامي : سمط النجوم العوالي ص٤٧٩ .

(٤) الخزرجي : العقود اللؤلؤية جـ١ ص ٥٠ ، العسجد ص ٢٢٨ ، المقريزي : السلوك جـ١ ص ٢٤٤ .

(٥) ابن حاتم : نفس المصدر ص ٤٣ ب ، الفاسي : العقد الثمين جـ ٢ ص ٧٤١ ، شفاء الغرام جـ ٢ ص ٢٠٠ ، المقريزي : السلوك جـ ١ ص ٢٤٤ .

(٦) ابن حاتم : نفس المصدر ص ٤٣ ب ، الخزرجي : العقود جـ١ ص ٥٠ ، العسجد ص ٢٢٨ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٦٦ ب ، ابن ظهيرة : الجامع اللطيف ص ٣١١ .

كل من الشريفين أبى سعد صاحب ينبع وشيحة أمير المدينة يأمرها بالتعاون مع الحملة (١) . وغادرت الحملة مصر « فى عسكر لا يقابل كثرة » (٢) إلى مكة، فوصلها فى رمضان سنة ٦٢٩ هـ (٣) / يونية ١٢٣٢ م . ورأى ابن عبدان مفاجأة القوات الأيوبية ، فخرج بقواته من مكة وبصحبته الشريف راجح ابن قتادة ، والتحمت قواته مع قوات الأيوبيين فى معركة انتهت بهزيمته ومقتله واستيلاء الأيوبيين منه على مكة (٤) ، وانتقام ابن شيخ الشيوخ ممن ساعد ابن عبدان من أهل مكة لخذلانهم شجاع الدين طغتكين وانضواء غالبيتهم لقوات صاحب اليمن (٥) .

لم يرض نور الدين بهزيمة قواته ، ولهذا عجل بإرسال جيش كثيف إمدادا للشريف راجح بن قتادة (٦) — الذى كان قد تجمعت لديه شتات

---

(١) الفاسى : العقد الثمين جـ١ ص ١٧٩ ، جـ٣ ص ٢٩٥ ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ٢ ص ١٧٦ .

(٢) ابن حاتم : نفس المصدر والصفحة .

(٣) ابن أيبك : درر التيجان ص ٥٦٠ ، كنز الدرر جـ٧ ص ٣٠٩ ، المقريزى : السلوك جـ١ ص ٢٤٤ .

(٤) الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ١ ص ٥٠ ، العسجد ص ٢٢٨ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٦٦ ب ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ٢ ص ١٧٦ ، الطبرى : الأرج المسكى فى التاريخ المكى ص ٤٧ .

(٥) ابن حاتم : السمط ص ٤٣ : الفاسى : شفاء الغرام جـ٢ ص ٢٠٠ .

(٦) الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ١ ص ٥٤ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٦٦ ب ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ٢ ص ١٧٦ ، يحيى بن الحسين : أنباء الزمن ص ٧١ .

ما تبقى من جيش ابن عبدان ـ وأمده نور الدين بخزانة عظيمة من المال للانفاق منها على العسكر [١] . وبفضل تلك الإمدادات وما احتشد لديه من فلول ابن عبدان زحف الشريف راجح إلى مكة فاستولى عليها [٢] بغير قتال في صفر سنة ٦٣٠ هـ [٣] / نوفمبر ١٢٣٢م ، بعد أن انسحبت عساكر الأيوبيين منها [٤] .

واستبد الغضب بالملك الكامل عندما بلغته أخبار تنكيل ابن شيخ الشيوخ بأهل مكة ، وبلغ من غضبه عليه أن استدعاه وعزله [٥] . ولما وصلته الأنباء باستيلاء قوات نور الدين على مكة ، جهز حملة من سبعمائة رجل بقيادة علاء الدين آق سنقر الزاهدى توجهت إلى ينبع في شوال ٦٣٠هـ[٦]/١٢٣٣م، ومن هناك تقدمت في طريقها إلى مكة ، وقبل أن تصلها كان الشريف

---

(١) الفاسي : العقد الثمين جـ٣ ص ٣٩٠، المقريزى : السلوك جـ١ ص ٢٤٩.

(٢) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ص ٤٢ ، الفاسي : العقد الثمين جـ ٢ ص ٧٤٠ ،

De Gaury : Rulers of Mecca, p. 88.

(٣) ابن أيبك : درر التيجان ص ٥٦٠ ، ابن ظهيرة : الجامع اللطيف ص ٣١١ .

(٤) الفاسي : العقد الثمين جـ ٢ ص ٧٤١ .

(٥) ابن حاتم : السمط ص ٤٣ ب ، الخزرجي : العقود اللؤلؤية جـ١، ص ٥٠ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٦٦ ب .

(٦) المقريزى : السلوك جـ١ ص ٢٤٤ ، العصامي : سمط النجوم العوالي ص ٤٨٠ .

راجح قد خرج عنها ، فدخلها الزاهدى بغير قتال [١] ، وأحسن إلى أهلها [٢] ، وحج بالناس [٣] ، ثم ترك فيها حامية أيوبية بقيادة قطب الدين ابن مجلى الذى حل محل ابن شيخ الشيوخ [٤] .

أما السلطان نور الدين ، فقد عمد إلى إعادة تزويد الشريف راجح ابن قتادة بالأموال ليستخدمها فى تجهيز ماليه من عسكر اليمن [٥] . وبفضل تلك الأموال أمكنه أن يزحف بقوة كثيفة إلى مكة فدخلها بعسكره [٦] فى الخامس من ذى القعدة سنة ٦٣١ هـ/٢ أغسطس ١٢٣٤ م ، بعد أن خرج منها ابن مجلى وحاميته . وهكذا تذبذب ميزان النصر والهزيمة بين صاحب اليمن الرسولى وصاحب مصر الأيوبى ، ولكن كفة اليمن لم تلبث أن رجحت . ومن الجدير بالذكر أنه لم يحج فى تلك السنة سوى ركب الحاج اليمنى [٧] .

---

(١) ابن ظهيرة : الجامع اللطيف ص ٢١١ .

(٢) ابن الدوطى : الحوادث الجامعة ص ٤٢ .

(٣) الفاسى : العقد الثمين ج٢ ص ٧٤٠ — ٧٤١ .

(٤) ابن أيبك : درر التيجان ص ٥٦٠ ، كنز الدرر ج٧ ص ٣١٣ ، المقريزى : السلوك ج١ ص ٢٤٥ ، العصامى : سمط النجوم العوالى ص ٤٨٠ .

(٥) ابن حاتم : السمط ص٤٣ ب ، المقريزى السلوك ج١ ص ٢٤٩ ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن ج٢ ص ١٧٦ .

(٦) الخزرجى : العقود ج١ ص ٥٤ ، العسجد ص ٢٢٩ ، الفاسى : العقد ج٢ ص ٣٩٢ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٦٦ ب .

(٧) ابن أيبك : كنز الدرر ج٧ ص ٣١٤ ، درر التيجان ص ٥٦١ .

٢ ـ علاقة نور الدين بن رسول بالخلافة العباسية :

لم يقنع نور الدين بالسيطرة على بلاد اليمن فحسب ، وإنما نازع الأيوبيين نفوذهم على الحجاز . ولهذا عمل على استكمال شرعية حكمه بالحصول على اعتراف الخليفة العباسي به ، فقام بتجهيز هدية عظيمة أرسلها في سنة ٦٣١هـ/١٢٣٤م إلى الخليفة العباسي المستنصر بن الظاهر، طالبا تشريفه بالنيابة والتقليد بالسلطنة (١)، فاستجاب الخليفة ووعد بإرسال المطلوب صحبة ركب الحاج العراقي في موسم الحج إلى عرفات (٢) . ولذلك توجه نور الدين في تلك السنة لأداء فريضة الحج واستقبال التشريف والتقليد (٣) . ولكن ركب الحاج العراقي لم يصل في ذلك العام ، لفوات الوقت في إصلاح الآبار على امتداد الطريق الموصل من بغداد إلى مكة ، بعد أن خربها عربان المنطقة ، فلما تم الفراغ من إصلاحها كان قد فاتهم وقت الحج (٤) ، مما اضطرهم للعودة إلى العراق . وترتب على ذلك بطبيعة الحال أن قفل نور الدين عائدا إلى اليمن .

---

(١) الخزرجي : العقود ص ٥٤ ، العسجد ص ٢٢٩ ، العقد الفاخر جـ ٢ ص٦٦ ب ، الفاسي : العقد الثمين جـ٣ ص ٢٩٥ ، ابن تغري بردي : حوادث الدهور ص ٢٧٥ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٦٦ب ، يحيي بن الحسين : أنباء الزمن ص ٧١ .

(٢) الخزرجي : العقود جـ١ ص ٥٤ ، العسجد ص ٢٢٩ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٦٦ ب .

(٣) ابن حاتم : السمط ص ٤٣ب، الخزرجي : العقد الفاخر جـ٢ص٦٦ب.

(٤) ابن حاتم : السمط، ص٤٣ب ، الخزرجي: العقود جـ١ ص٥٤، العسجد ص ٢٢٩ ، ابن الديبع : نفس المصدر ص ٦٦ ب .

وفي العام التالي صحب رسول من قبل الخليفة ركب الحاج العراقي ، حاملا رسالة (١) توجه بها بعد موسم الحج إلى اليمن لابلاغ صاحبها بأن التشريف والتقليد قد تم إرسالهما من البصرة عن طريق البحر (٢) . وما كاد التشريف والتقليد يصلان إلى اليمن برفقة رسول الخليفة حتى أقيمت مراسم التقليد (٣) . وهكذا استمد نور الدين صلاحياته من الخليفة العباسي مباشرة، مما أكسب حكمه الصفة الشرعية باعتباره تابعا للخلافة العباسية .

ومن الجدير بالذكر أنه لما توجه نور الدين إلى مكة سنة ٦٣١هـ/١٢٣٤م لاستقبال التشريف والتقليد المنتظر وصولهما من بغداد ، شك الشريف راجح ابن قتادة في الأمر وتجنب لقاءه ، كما أنه لم يؤد فريضة الحج في ذلك العام خوفا منه (٤) . فغضب نور الدين من هذا التصرف (٥) ، ولم يعد الشريف راجح إلى مكة إلا بعد مغادرة نور الدين لها (٦) . وترجع أسباب تخوف الشريف راجح إلى ما كان بينه وبين إخوته من خلاف ظن الشريف أن نور الدين هو الذي تسبب فيه وحرض عليه كمقدمة لخلع راجح عن نيابته

---

(١) ابن حاتم : نفس المصدر والصفحة .

(٢) الخزرجي : العسجد ص ٢٢٩ ، العقد الفاخر ج٢ ص ٦٦ ب ، بامخرمة: تاريخ ثغر عدن ج٢ ص ١٧٦ .

(٣) الخزرجي العقود اللؤلؤية ج١ ص ٥٤ ، الفاسي: العقد الثمين ج٣ ص ٣٩٥ .

(٤) ابن حاتم : السمط ص ٤٣ ب ، الخزرجي : العسجد ص ٢٢٩ .

(٥) الخزرجي: العقود اللؤلؤية ج١ ص ٥٤ ، الفاسي: العقد الثمين ج٣ ص ٣٩٥ .

(٦) الفاسي : نفس المصدر ج ٢ ص ٧٤١ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٦٦ ب .

له على مكة ، ولكن نور الدين أنكر ما نسبه الشريف راجح إليه [١] .

٣ ـ استمرار الصراع بين بني رسول والأيوبيين حول الحجاز ، وما أسفر عنه من نتائج :

رأينا كيف بدأ التنافس بين السلطان نور الدين والسلطان الكامل محمد حول السيطرة على الحجاز ، وكيف تبودلت الحملات بينهما واستمرت الى حد أنه كلما استولى أحدهما على مكة ، سارع الطرف الآخر بإرسال حملة لتدعيم قواته حتى تصبح قادرة على استردادها [٢] ، إلى أن استقر الأمر في مكة لصالح نور الدين في سنة ٦٣١ هـ . وقد أثار ذلك ثائرة الملك الكامل فسير في العام التالي حملة قوامها خمسمائة فارس [٣] بقيادة أحد مماليكه [٤] وهو أسد الدين جغريل [٥] وبصحبته أربعة من أمراء الأجناد أحدها يدعى وجه السبع والثاني البندقي والثالث ابن أبي زكريا والرابع ابن برطاس . ولما علم نور الدين بأمر تلك الحملة قبل وصولها ، بادر بإرسال مدد للشريف راجح

---

(١) الخزرجي : العقود جـ١ ص٥٥ ، العسجد ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠ ، ابن تغري بردي : المنهل الصافي جـ٤ ص ٢٩٦ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٦٧ أ .

(٢) الفاسي : العقد الثمين جـ ٣ ص ٣٩٥ ، ابن تغري بردي : حوادث الدهور ص ٢٧٥ ، العرشي : بلوغ المرام ص ٤٤ ،

De Gaury : Rulers of Mecca. p. 88 - 89 .

(٣) ابن الديبع : قرة العيون ص ٦٧ أ .

(٤) المقريزي : السلوك جـ ١ ص ٢٥٠ .

(٥) ابن حاتم : السمط ص ٤٣ ب ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ ٢ ص ١٧٦ .

بقيادة ابن النصيرى ، وأمره بالتصدى للحملة الأيوبية والصمود فى وجهها ، واجبارها على العودة دون تحقيق مساعيها فى الاستيلاء على مكة . وعلى الرغم من وصول المدد اليمنى قبل مجىء القوات الأيوبية ، إلا أن الشريف راجح لم يتمكن من التصدى لها بسبب عدم استكمال استعداداته [١]، واضطر إلى الخروج من مكة وافساح الطريق أمام القوات الأيوبية لتدخل مكة من غير قتال [٢] فى رمضان سنة ٦٣٢ هـ [٣] / مايو ١٢٣٥ م .

وبذلك تحرج موقف الشريف راجح وابن النصيرى ، إذ أصبحا يتحملان تبعة إخفاقهما فى التصدى للأيوبيين ، وعدم تنفيذ الخطة التى أمرها السلطان بتنفيذها ، ولهذا توجها الى اليمن لإطلاع السلطان على حقيقة الموقف [٤] . فقام باعداد حملة أخرى فى سنة ٦٣٣ هـ / ١٢٣٦ م بقيادة الشهاب بن عبدان – وهو ابن قائد الحملة اليمنية الأولى – وزوده بالمال الكافى [٥] ، للانفاق على الحملة . وانضم إليه الشريف راجح بن قتادة ، فلما اقتربت الحملة اليمنية من مكة فاجأها أسد الدين جفريل خارجها بالهجوم وتمكن من التغلب على عسكر اليمن وأسر الشهاب بن عبدان قائد تلك الحملة وأرسله معتقلا

---

(١) الفاسى : العقد الثمين جـ ١ ص ١٧٩ – ١٨٠ ، جـ ٢ ص ٣٩٥ – ٣٩٦ .

(٢) ابن حاتم : السمط ص ٤٤ أ ، ابن أيبك : درر التيجان ص ٥٦١ ، كنز الدرر جـ ٧ ص ٣٩٦ .

(٣) الفاسى : العقد الثمين جـ ٢ ص ٣٩٨ ، المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٢٥٠ .

(٤) الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٥٥ ، العسجد ص ٢٢٩ ، المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٢٥٠ .

(٥) ابن الديبع : قرة العيون ص ٦٧ أ .

إلى مصر (١) .

وكان من المتوقع بعد فشل حملة الشهاب بن عيدان أن يقوم السلطان نور الدين على النحو الذى اعتاده بتوجيه حملة أخرى للاستيلاء على مكة ، إلا أن الأمر اختلف هذه المرة عن المرات السابقة ، بسبب انشغاله وقتذاك بإقرار الأوضاع الداخلية باليمن ، نتيجة لخروج زعماء الزيدية عن طاعته واستقلالهم بالمناطق التى كان قد أقرهم عليها ، ولهذا لم يتمكن من إرسال حملة لانتزاع مكة من الايوبيين . وقد ساعد ذلك الموقف على استمرار سيطرة الوالى الأيوبى أسد الدين جغريل على مكة إلى سنة ٦٣٥هـ/ (٢) ١٢٣٨ م .

وما أن انتهى نور الدين من إقرار الأوضاع فى اليمن ، حتى شرع فى تجهيز حملة من ألف فارس (٣) قادها بنفسه إلى مكة (٤) ، فلما اقترب من

---

(١) ابن حاتم : السمط ص ٤٥ ب ، ابن أيبك : درر التيجان ص ٥٦٢ ، كنز الدرر حـ ٧ ص ٣١٨ ، الخزرجى : العقود اللؤلؤية حـ ١ ص ٥٥ ، العسجد ص ٢٢٩ ، الفاسى : العقد الثمين حـ ١ ص ١٨٠ ، حـ ٢ ص ٧٤١ - ٧٤٢ ، حـ ٢ ص ٣٩٦ ، المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٢٥٣ ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن حـ ٢ ص ١٧٦ .

(٢) الفاسى : شفاء الغرام حـ ٢ ص ٢٠٠ ، ابن ظهيرة : الجامع اللطيف ص ٣١١ .

(٣) ابن حاتم : السمط ص ٤٥ ب ، الخزرجى : العقود جـ ١ ص ٦١ ، العسجد ص ٢٣٢ ، الفاسى : العقد الثمين جـ ١ ص ١٨٠ ، جـ ٣ ص ٣٩٦ ، شفاء الغرام حـ ٢ ص ٢٠١ ، بامخرمة : نفس المصدر والصفحة ، العصامى : سمط النجوم العوالى ص ٤٨٠ ، العقيلى : المخلاف السليمانى حـ ١ ص ٢١٥ ، De Gaury : Rulers of Mecca, p. 88 .

(٤) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٢٥٥ .

مشارفها ، أسرع الشريف راجح بن قتادة لاستقباله والانضمام إليه والاشتراك في الجملة (١) . ورأى نور الدين أن من الخير له تمزيق صفوف أعدائه بشراء ولائهم ، ولهذا لجأ إلى استمالتهم بالمال ، وبتلك الوسيلة أصبح في إمكانه إحداث انقسام في صفوف الأيوبيين ، فقرر لكل من ينضم منهم إليه ألف دينار وفرس وكسوة ، فمال إليه بعضهم (٢) . فلما أحس أسد الدين جغريل بخطورة الموقف ، تخلص من أثقاله فأحرقها (٣) وغادر مكة بقواته (٤) ، فدخلها نور الدين بقواته معتمرا في رجب سنة ٦٣٥ هـ (٥) / فبراير ١٢٣٨م ، ورتب فيها حامية من مائة وخمسين فارسا (٦) تحت امرة اثنين من أتباعه ،

---

(١) الخزرجي : العقود جـ ١ ص ٦١ . العسجد ص ٢٣٢ ، الفاسي : العقد الثمين جـ ١ ص ١٨٠ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٦٨ أ .

(٢) ابن حاتم : السمط ص ٤٥ ب ، الخزرجي : العقود جـ ١ ص ٦١ ، العسجد ص ٢٣٢ ، بامخرمة : نفس المصدر والصفحة .

(٣) ابن حاتم السمط ص ٤٥ ب ، الخزرجي : العقود جـ ١ ص ٦١ ، العسجد ص ٢٣٢ ، الفاسي : العقد جـ ٣ ص ٣٩٦ .

(٤) العيني : عقد الجمان مجلد ٥٣ ص ٢٠٧ .

(٥) الخزرجي : العقود جـ ١ ص ٦٢ ، العسجد ص ٢٣٢ ، الفاسي : العقد جـ ٣ ص ٣٩٦ ، شفاء الغرام جـ ٢ ص ٢٠١ ، العصامي : سمط النجوم العوالي ص ٤٨٠ ، العقيلي : المخلاف السليماني جـ ١ ص ٢١٥ .

(٦) ابن ظهيرة : الجامع اللطيف ص ٣١١ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٦٨ أ ، بامخرمة : نفس المصدر والصفحة .

هما ابن الوليدى وابن التعزى ، وقفل عائدا إلى اليمن (١) .

أما القائد الأيوبى أسد الدين جغريل ، فقد انسحب إلى مدينة الرسول ، فلما وصلها علم بخبر وفاة الملك الكامل محمد الأيوبى ، فعاد بعسكره إلى مصر (٢) مما أدى إلى استمرار سيطرة نور الدين عمر بن رسول على مكة ، ولم تتعرض حاميته فيها لأيه مخاطر طيلة الفترة التى تلت وفاة الملك الكامل (سنة ٦٣٥ هـ / ١٢٣٨ م) حتى بداية سلطنة ابنه الصالح نجم الدين أيوب (سنة ٦٣٧ هـ / ١٢٤٠ م) ولكن الصالح بعد أن تغلب على المشاكل التى صادفته ، وتمكن من اعتلاء عرش السلطنة الأيوبية واقصاء أخيه العادل ، لم يتردد فى صرف جانب من اهتمامه لاسترداد السيطرة الأيوبية على بلاد الحجاز ، فأرسل فى سنة ٦٣٧ هـ / ١٢٤٠ م حملة من ألف فارس (٣) عهد بقيادتها إلى الشريف شيحة بن هاشم بن مهنا أمير المدينة الذى تمكن من انتزاع مكة من الحامية اليمنية بغير قتال (٤) .

---

(١) الخزرجى : العقود جـ ١ ص ٦٢ ، العسجد ص ٢٢٣ ، الفاسى : العقد جـ ٣ ص ٣٩٦ ، شفاء الغرام جـ ٢ ص ٢٠١ .

(٢) ابن حاتم : السمط ص ٤٥ ب ، الخزرجى : العقود جـ ١ ص ٦٢ ، العسجد ص ٢٢٣ . (كانت وفاة السلطان الملك الكامل فى ٢١ رجب ٦٣٥ هـ / ٩ مارس ١٢٣٨ م) ابن ايبك : كنز الدرر جـ ٧ ص ٣٣٠ .

(٣) ابن ظهيرة : الجامع اللطيف ص ٣١٢ ، ابن الديبع : قره العيون ص ٦٨ ب ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ ٢ ص ١٧٧ ، العصامى : سمط النجوم العوالى ص ٤٨٠ .

(٤) ابن حاتم : السمط ص ٤٦ أ ، الخزرجى : العقود جـ ١ ص ٦٤ ، العسجد ص ٢٢٣ ، الفاسى : العقد الثمين جـ ٢ ص ٧٤٢ ، جـ ٣ ص ٣٩٦ ، المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٢٦٥ .

وكان نور الدين يعلم مدى الضعف الذى وصلت إليه الدولة الأيوبية ، وقد قوى ذلك من عزمه على التمسك بالسيطرة على مكة والاحتفاظ بنفوذه فيها ، وفى سبيل تحقيق تلك الغاية قرر انفاذ حملة فى نفس العام عهد بقيادتها إلى كل من ابن النصيرى والشريف راجح بن قتادة ، فلما علم الشريف شيحة باقتراب الحملة اضطر إلى مغادرة مكة فدخلها الجيش اليمنى واستولى عليها (١).

لم يجد الصالح نجم الدين أيوب بدا من العمل على حسم الموقف برمته ، لهذا فكر فى توجيه حملة إلى بلاد اليمن للاستيلاء عليها ، ومن ثم تخلص بلاد الحجاز تلقائيا له. ويؤكد هذا ، نص أورده النويرى (٢) ، جاء فيه أن الصالح أصدر أوامره فى التاسع من ربيع الأول سنة ٦٤٨ هـ / ٢٨ سبتمبر ١٢٤٠ م بتجهيز زردخاناه وشوانى وحراريق إلى القلزم بقصد التوجه رأسا إلى بلاد اليمن والاستيلاء عليها (٣)، ولكن الظروف حالت دون الاستمرار فى التنفيذ ، فأوقف أمر الحملة إلى اليمن إكتفاء بالإمدادات التى أرسلها إلى الشريف شيحة والتى مكنته من استعادة مكة فى ذى القعدة سنة ٦٣٨ هـ / مايو ١٢٤١ م من الحامية اليمنية (٤) ، وتولى الشريف شيحة أمر الحج فى

---

(١) ابن حاتم : السمط ص ٤٦ أ ، الفاسى : العقد الثمين جـ ٢ ص ٧٤٢ ، جـ ٣ ص ٢٩٦ ، شفاء الغرام جـ ٢ ص ٢٠١ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٦٨ ب بامخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ ٢ ص ١٧٧ .

(٢) النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٧ ص ٧١ .

(٣) العينى : عقد الجمان جـ ٥٣ ص ٢٣٨ .

(٤) النويرى : نفس المصدر والصفحة ، وانظر ، الطبرى : الأرج المسكى فى التاريخ المكى ص ٤٧ .

ذلك العــام (١) .

وهكذا ظلت السيطرة على مكة يتناوبها بنو رسول مرة والأيوبيون مرة أخرى ، إلا أن الحملة التي قادها نور الدين بنفسه سنة ٦٣٩ هـ / ١٢٤٢ م تعد خاتمة الحملات المتبادلة بين الجانبين والتي استمرت أكثر من عشر سنوات لتحقيق السيطرة على الحجــاز . ويرجع سبب خروج نور الدين بنفسه على رأس تلك الحملة إلى أنه كان قد بعث الشريف راجح على رأس قوة من عسكره لاستعادة مكة، غير أن الأخبار وردت إلى الشريف راجح بأن الصالح أيوب أرسل مددا لتعضيد حاميته بمكة (٢) . وأدى ذلك إلى توقف الشريف راجح عن مواصلة السير بحملته ، وأرسل إلى السلطان نور الدين لابلاغه بجلية الأمر فرأى أن يتولى بنفسه قيادة الحملة المقبلة إلى مكة (٣) . فلما وصلت أنباء تلك الحملة الضخمة إلى مسامع الشريف شيحة خرج بالقوات الأيوبية من مكة (٤) فدخلهـا ابن رسول في جيشه الكبير في رمضان سنة ٣٩ هـ (٥) مارس ١٢٤٢ م

---

(١) ابن حاتم : السمط ص ٤٦ أ ، الخزرجي : العسجد ص ٢٢٤ ، العقود جـ ١ ص ٦٥ ، الفاسي : العقد الثمين جـ ٣ ص ٢٩٧ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٦٨ ب .

(٢) ابن حاتم : السمط ص ٤٦ أ ــ ب الخزرجي : العقود جـ١ ص ٦٨ ، العسجد ص ٢٣٥ ، الفاسي : العقد الثمين جـ٣ ص ٣٩٧ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٦٨ ب

(٣) ابن حاتم : السمط ص ٤٦ ب ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ٢ ص ١٧٧ .

(٤) الخزرجي : العسجد ص ٢٣٥ .

(٥) الفاسي : العقد الثمين جـ٢ ص ١٦١ و ٢٤٢ ، ابن ظهيرة : الجامع اللطيف ص ٣١٢ .

وما أن استولى نور الدين على مكة فى تلك المرة ، حتى عمل على تدعيم سيطرته على الحجاز ، فشرع فى منع وصول الامدادات الأيوبية إليهـــا ، وتمكين قبضته على البلاد . وكانت ينبع من المعاقل التى يحتفظ الأيوبيون فيها بحامية لهم ، ومن ثم كانت القوات الأيوبية التى ترغم على التخلى عن مكة تلوذ ـ فى كثير من الأحيان ـ بها إلى أن تصلهم الامدادات من مصر . ولهذا السبب قرر نور الدين الاستيلاء على ينبع ـ القاعدة الرئيسية للأيوبيين فى الحجاز ـ ليمنعهم مستقبلا من تهديد سلطانه فى الحجاز . ولهذا عمل على استمالة الشريف أبى سعد صاحب ينبع ، واشترى قلعة المدينة منه ثم أمر بتخريبها (١).

وهكذا استطاع نور الدين ـ بعد أن نجح فى الاستقلال بملك اليمن ـ أن

---

(١) عن مطامع الخوارزمية والصليبيين فى تلك الفترة ، انظر ، المقـريزى: السلوك جـ ١ ص ٢٢١ وما بعدها ، ابن تغرى بردى : النجـوم جـ ٦ ص ٢٢١ وما بعدها ، العينى : عقد الجمان مجلد ٥٣ ص ٣٢٠ وما بعدها ، جمـال الدين الشيال : تاريخ مصر الاسلامية جـ ٢ ص ١٢١ ، سعيـــد عاشور : الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام ص ١٢٣ ، الامبراطور فردريك الثـانى والشرق العربى ـ المجلة التـاريخية المصرية مجلد ١١ سنة ١٩٦٣ ـ ص ٢٠٦ ، السيد الباز العرينى : مصر فى عهد الأيوبيين ص ١٢٧ .

Weit : L' Egypte Arabe, pp. 352, 355, 360 , 372 - 378. Kantarowicy : Fredric the Second, pp. 185, 187, Stevenson: The Crusaders in the East, p. 314, Grousset: Histoire des Croisades, vol. III, p. 231. Runciman : A History of Crusades, vol. III, pp. 189,191 , 216, 226 - 227.

يشغل الأيوبيين عن الوصول إلى اليمن وذلك بالدخول فى منافسة معهم حول الحجاز . وكان للظروف القاسية التى كانت تمر بها الدولة الأيوبية أثرها فى تسهيل مهمة نور الدين، فالصراع بين أمراء البيت الأيوبى فى مصر والشام على السلطنة بلغ أشده ، واستنفذ جانبا ضخما من قوى الأيوبيين ، يضاف إلى ذلك انشغالهم بالخطر الذى يتهددهم من جانب الخوارزمية والصليبيين ، مما صرفهم عن التطلع إلى مشكلات تعد ثانوية بالقياس بتلك الأخطار . وترتب على ذلك كله توقف الحملات الأيوبية الموجهة إلى مكة ، الأمر الذى أتاح الفرصة لنور الدين لبسط نفوذه وسيطرته على بلاد الحجاز .

والواقع أن الصراع اليمنى الأيوبى حول الحجاز اتسم بصلابة عزم نورالدين بن رسول وإصراره على الاحتفاظ بتبعية مكة لسيطرته ، فكان كلما تمكنت القوات الأيوبية من استعادتها ، قام بتدعيم قواته إلى الحد الذى تصبح فيه قادرة على الاستيلاء عليها مرة أخرى . ولهذا تتابعت الحملات من الجانبين ودارت المعارك بين قوات صاحب اليمن من ناحية وقوات الملك الكامل ثم ابنه الصالح نجم الدين أيوب من ناحية أخرى ، وتنـــاوب كل من الفريقين السيطرة عليها . وكانت معظم المعارك ينقصها الحسم، فالإمدادات الأيوبية كانت تستغرق وقتا طويلا لتصل إلى الحجاز ، فى حين كان لقرب بلاد اليمن من الحجـــاز أعظم الأثر فى تسهيل مهمة الجانب اليمنى المنافس ، فكانت تزود قواتها بالإمدادات المتتابعة ، هذا إلى جانب الجهود التى كان الشريف راجح ابن قتادة يبذلها لاستخدام الكثير من أعراب الحجـاز ، مما ساعد على تحقيق التفوق العددى فى كثير من الأحيان . ومع ذلك فإن إعداد أى حملة مضادة كان يتم على أساس تقديرات القوة التى تركها الجانب الآخر لحماية مكة. ومن الملاحظ أنه لم يحدث قتال بين قوات الطرفين داخل مكة ، إذ كلما أحست

الحامية المرابطة فى مكة بقرب وصول حملة مضادة عمدت إلى الانسحاب من مكة والتخلى عنها فى معظم الأحوال ، فتدخلها قوات الطرف الآخر بغير حرب ، وربما اشتبكت معها فى قتال يتم عادة خارج مكة ، تعظيما من الجانبين المتحاربين لحرمتها .

٤ ـ أعمال نور الدين عمر بن على بن رسول فى مكة :ـ

كان نور الدين مصلحا من كبار المصلحين ، اهتم بأعمال البر والتعمير فى مكة منذ أن كان يتولاها نيابة عن المسعود بن الكامل ، ففى سنة ٦١٩ هـ / ١٢٢٢ م قام بعمارة المسجد الذى اعتمرت منه السيدة عائشة رضى الله عنها (١) وهو مسجد الهليلجة ـ نسبة إلى شجرة هناك ـ الذى بنى فى التنعيم (٢) ، كما عمر دار الخليفة أبى بكر فى زقاق الحجر (٣) . وفى سنة ٦٣١ هـ / ١٢٣٤ م ـ أثناء صراعه ضد الأيوبيين ـ أرسل إلى الشريف راجح بن قتادة بقناديل من الذهب والفضة ليعلقها بالكعبة بدلا من تلك التى استباحها بنو قتادة أثناء صراعهم ضد أخيهم الشريف راجح (٤) .

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم جـ ١ ص ٧٢ ، حوادث الدهور ص ٣٧٤ ، المنهل الصافى جـ ٤ ص ٢٦٧ .

(٢) النهروالى : الاعلام بأعلام بيت الله الحرام ص ٤٥٤ ، محمد حسين هيكل : فى منزل الوحى ص ٢٦٥ .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم جـ ٨ ص ٧٢ ، حوادث الدهور ص ٣٧٤ المنهل الصافى جـ ٤ ص ٢٦٧ .

(٤) ابن حاتم : السمط ص ٤٤ أ ، الخزرجى : العقود جـ ١ ص ٥٥ ، العسجد ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠ ، ابن تغرى بردى : المنهل الصافى جـ ٤ ص ٢٩٦ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٦٧ أ .

ولما استقرت مكة تحت سيطرته سنة ٦٣٩ هـ / ١٢٤٢ م قام بعدة إصلاحات فيها ، فأبطل المكوس والجبايات والمظالم (١) ، وكتب بذلك مربعة علقت على زمزم فى مقابلة الحجر الأسود (٢) ، كما أنشأ المدرسة المنصورية – نسبة إليه – بجوار مدرسة الزنجيلي فى الجانب الغربي من المسجد الحرام (٣) ، كما عمر رباطا بمكة (٤) .

وقبل عودة نور الدين إلى اليمن ، استناب على مكة مملوكه فخر الدين إياس الشلاح (٥) ، وجعل الشريف أبا سعد بن على بن قتـــادة بالوادى مساعد لعسكره ، وظل نواب نور الدين على مكة أكثر من سبع سنوات كانت كلهـــا – على حد قول مؤرخي اليمن – سنى خير على أهلها ، فبنوا الدور وعمروا القصور ، واقتنت نساؤهم الحلى مـــن الذهب والفضة . وكان نور الدين يبعث إليهم كل عام بالصدقات (٦) ، كما قام نوابه على راحة الحجيج وخاصة بالنسبة للشخصيات البارزة ، ففى سنة ٦٤١ هـ / ١٢٤٤ م ، توجهت

---

(١) الفاسي : العقد الثمين جـ ٣ ص ٢٩٧ ، شفاء الغرام جـ ٢ ص ٢٤٧ ، ابن تغرى بردى : حوادث الدهور ص ٣٧٥ .

(٢) ابن حاتم : السمط ص ٤٦ ب ، الخزرجي : العقود جـ ١ ص ٦٩ ، المسجد ص ٢٢٥ ، بامخرمة : ثغر عدن جـ ٢ ص ١٧٨ .

(٣) ابن تغرى بردى : المنهل جـ ٤ ص ٢٦٩ .

(٤) ابن حاتم : السمط ص ٤٦ ب ، الخزرجي : المسجد ص ٢٠٦ .

(٥) ابن حاتم : السمط ص ٤٦ ب ، الفاسي : شفاء الغرام جـ ٢ ص ٢٠١ .

(٦) ابن حاتم : نفس المصدر والصفحة ، الخزرجي : المسجد ص ٢٣٦ .

والدة الخليفة المستعصم بالله العباسى لأداء فريضة الحج ، فاستقبلها فخر الدين الشلاح نائب السلطان نور الدين وقام على خدمتها ، كما أرسل إليها السلطان هدية عظيمة (١) .

ومن أشهر الأحداث التى وقعت فى عهده ، تلك الريح العاصفة التى هبت على مكة فى سنة ٦٤٤ هـ / ١٢٤٦ م (٢) وأدت إلى نزع كسوة الكعبة وتمزيقها ، وأصبحت الكعبة بغير كسوة ، وزال عنها شعار السواد ، فكان ذلك فألا على زوال الدولة العباسية (٣) . فلما حاول نائب صاحب اليمن كسوتها ، منعه شيخ الحرم العفيف منصور بن منعة البغدادى ، ولم يسمح له بكسوتها ، بحجة أن ذلك لا يكون إلا من مال الخليفة ، وقام شيخ الحرم باقتراض مبلغ ثلاثمائة دينار اشترى بها ثيابا من القطن وصبغها باللون الأسود وركب عليها الطرازات القديمة وكسا بها الكعبة (٤) بعد أن كانت تكتسى

(١) ابن حاتم : نفس المصدر والصفحة ، الخزرجى : نفس المصدر والصفحة .

(٢) ذكر الفاسى هذه الحادثة سنة ٦٤٣ هـ فى حين أورد أنه وجدها بخط الميورقى سنة ٦٤٤ هـ (تحفة الكرام – مخطوط مصور بدار الكتب رقم ١٢٨١٣ ح – ص ٢٧ أ) وكذلك أوردها العينى فى حوادث سنة ٦٤٤ هـ مؤيدا بذلك الميورقى (عقد الجمان مجلد ٥٣ ص ٢٨٥) .

(٣) قال العينى بأن هذه الكسوة كانت قد عتقت ، لأنها لم تجدد منذ عام ٦٤٠ هـ لعدم وصول ركب الحاج العراقى من قبل الخليفة (عقد الجمان مجلد ٥٣ ص ٢٨٥) .

(٤) العينى : نفس المصدر والصفحة ، الرشيدى : حسن الصفا والابتهاج – مخطوط بدار الكتب رقم ٥٢٨٧ تاريخ ص ٤١ .

بالديباج الأسود (١) .

ولقد حافظ نور الدين بن رسول على تبعية مكة له ، واستمر يقيم عليها نوابه حتى وفاته (٢) في التاسع من ذى القعدة سنة ٦٤٧ هـ (٣) / ١٣ فبراير ١٢٥٠ م . وكان نور الدين قد استجاب فى أواخر عهده لأحد أتباعه وهو شمس الدين محمد بن المسيب ، وولاه على مكة فى سنة ٦٤٦هـ/١٢٤٩ م بدلا من فخر الدين إياس الشلاح، وكان ابن المسيب قد التزم له بأداء مبلغ عدد من المال ومائة من الخيل سنويا (٤)، بالإضافة إلي تكفله بالنفقة على ما معه من الجند (٥) . ولكنه لم يكد يصل إلى مكة حتى طمع فى الاستبداد بأمرها ، وأساء إلى سيده بما قام به من إعادة الجبايات والمكوس التى كان السلطان نور الدين قد أسقطها عن أهل مكة ، واقتلع النائب المربعة الخاصة بذلك ، والمثبته قبالة الحجر الأسود (٦) . ولم يتوقف عند هذا الحد وإنما استولى على ما كان .

(١) الفاسى : تحفة الكرام ص ٢٧ أ .

(٢) الفاسى : العقد الثمين جـ ٣ ص ١٩٧ ، ابن ظهيرة : الجامع اللطيف ص ٣١٢ ، با مخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ ٢ ص ١٧٨

(٣) ابن حاتم : السمط ص ٤٩ أ ، الخزرجى : العقود جـ ١ ص ٨٢ – ٨٣ ، العسجد ص ٢٤١ – ٢٤٢ ، الفاسي : العقد الثمين جـ ٣ ص ٣٩٨ ، ابن تغرى بردى : حوادث الدهور ص ٣٧٥ ، المنهل الصافى جـ ١ ص ٢٣٠ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٧٠ ب .

(٤) ابن حاتم : السمط ص ٤٧ ب .

(٥) الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٧٧ ، العسجد ص ٢٣٩ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٦٩ ب .

(٦) الفاسى : شفاء الغرام جـ ٢ ص ٢٠١ .

يرسله سلطانه من صدقات إلى فقراء مكة . وبنى لنفسه حصنا على جبل أبى قبيس واخرفى نخلة ، وجمع أموالا طائلة ، وامتنع عن الإنفاق على الجند ، فتفرقوا عنه ، وعاد معظمهم إلى اليمن . واستغل الشريف أبو سعد حسن بن على ابن قتادة فرصة ما قام به ابن المسيب واعتقله فى شهر ذى القعدة ٦٤٧ هـ (١) / فبراير ١٢٥٠ م ، واستولى على مالديه من أموال وغيرها . ولكى يظهر بمظهر الولاء والاخلاص لسلطان اليمن . استحضر شيخ الحرم وأعيان مكة والمجاورين وأشهدهم بأنه إنما قام بهذا العمل لتأكده من اعتزام ابن المسيب الخلاف والهرب بما تجمع لديه من الأموال إلى العراق ، وتعهد الشريف أبو سعد بالتحفظ على ماصادره منه حتى يأتيه أمر السلطان نور الدين فيقوم بتنفيذ مايأمره به . غير أن الأنباء لم تلبث أن وردت بمقتل نور الدين (٢) .

ثانيا : العلاقات اليمنية مع مصر والحجاز فى عهد المظفر يوسف :-

١ - استقلال بنى قتادة بحكم مكة :

ساءت الأحوال الداخلية فى اليمن بعد مقتل نور الدين عمر بن على بن رسول ، وشغل ابنه المظفر يوسف فى حروب داخلية ، بذل فيها قصارى جهده للظفر بالسلطنة ، والدفاع عن عرشه ضد الطامعين فيه ، فصرف قسما كبيرا من جهوده فى التخلص من منافسيه من بنى رسول ، والقضاء على

---

(١) الفاسى : نفس المصدر جـ ٢ ص ٢٣٧ ، الطبرى : الأرج المسكى فى التاريخ المكى ص ٤٨ .

(٢) ابن حاتم : السمط ص ٤٧ ب ، الخزرجى : العقود جـ ١ ص ٧٨ ، العسجد ص ٢٣٩ ، ابن تغرى بردى : المنهل الصافى جـ ٣ ص ٥٥ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٦١ ب .

المطامع الزيدية ، والعمل لتمكين سطوته على البلاد [١] .

وفى مصر ، فشلت المحاولات الأيوبية المتكررة للاحتفاظ ببلاد الحجاز ، نتيجة لانقسام البيت الأيوبى فى مصر والشام ، واشتداد النزاع فيما بينهم ، وتحالف أمراء الأيوبيين فى الشام ضد الملك الكامل الذى اضطر بدوره إلى التحالف مع الصليبيين . وقد أتاح ذلك الفرصة لتلك القوى المعادية للعمل على تحقيق مطامعها فى السيطرة على أجزاء من الدولة الأيوبية ، مما ترتب عليه تصدع بناء تلك الدولة ثم انهيارها وسقوطها فى النهاية فى سنة ٦٤٨ هـ [٢] / ١٢٥٠ م ، وقيام دولة المماليك البحرية على أنقاضها .

وقد اشتغل سلاطين دولة المماليك البحرية بالعمل على تثبيت سيطرتهم والدفاع عن دولتهم الناشئة ضد القوى المعادية فى الداخل والخارج ، كما كان لاستفحال الخطر المغولى فى أعقاب سقوط الخلافة العباسية فى بغداد فى صفر ٦٥٦ هـ / فبراير ١٢٥٨ ، ومصرع الخليفة المستعصم بالله ، وتهديد هولاكو لبلاد الشام ومصر ، أكبر الأثر فى تحرج موقف السلطان المملوكى ، إذ وقع عليه عبء مواجهة ذلك الخطر الداهم . وقدر للسلطان المظفر قطز بانتصاره

---

(١) انظر ماسبق ص١١٧وما بعدها .

(٢) النويرى : نهاية الأرب جـ٢٧ ص ٩٧ ، ابن أيبك : كنز الدرر جـ ٧ ص ٣٨٦ ، المقريزى : السلوك جـ١ ص ٢٧١ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ٦ ص ٢٩٧ ،

Wiet : L' Egypt Arabe , pp . 359 - 369 .

على قوى المغول فى عين جالوت فى سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م [١] أن يزيح هذا الخطر نهائيا عن الشام ومصر ، ويخلص البلاد من مصير تعس كان من الممكن أن يقترن بمصائر الدول الاسلامية الآسيوية التى اجتاحتها جحافل المغول .

وفيما يتعلق بمكة ، فمن المعروف أن إمرتها ظلت فى بنى هاشم إلى ولاية الشريف مكثر بن عيسى بن فليته الحسنى [٢] ، ثم انتقلت بعد وفاته فى سنة ٥٩٧ هـ إلى الشريف أبى عزيز قتادة بن إدريس بن مطاعن بن عبد الكريم الحسنى [٣] . وتتابع بنو قتادة على حكم مكة إلى أن استولى عليها المسعود ابن الكامل صاحب اليمن فى سنة ٦١٩ هـ / ١٢٢٢ م ، وعندئذ خرجت مكة عن حكم بنى قتادة ، وأصبحت تابعة للقوى المسيطرة عليها ـ مصر أو اليمن ـ

---

(١) ابن أيبك : كنز الدرر جـ ٨ ص ١٧ ، المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٤٠٢ و ٤٢٦ ، ابن تغرى بردى : النجوم جـ ٧ ص ٥٠ و ٧٦ و ٨١ ، العينى : عقد الجمان مجلد ٥٣ ص ٣١٤ .

(٢) الفاسى : العقد الثمين جـ ٤ ص ١٨٣ .

(٣) الفاسى : نفس المصدر جـ ٢ ص ٥٤٩ ، شفاء الغرام جـ ٢ ص ١٩٨ ـ ١٩٩ ، المقريزى : السلوك جـ ١ ص ١٦٢ حاشية ٢، القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٢٦٧ ـ ٢٧٥ ، Hogarth : History Arabia, p. 82,

Wensinck : Art. Mecca & Katada in ENC. of Islm.

(ويذكر الفاسى أن ولاية مكة آلت إلى قتادة سنة ٥٩٧ هـ على ماذكره الميورقى ، وفى سنة ٥٩٨ على ماذكره الذهبى فى العبر ، أو سنة ٥٩٩ حسب رواية ابن محفوظ) العقد الثمين جـ ٤ ص ١٨٣ ، شفاء الغرام جـ ٢ ص ١٩٩ .

وتولى إمرتها نواب من قبل القوى المسيطره إلى أن ستقرت تبعيتها لبنى رسول سنه ٦٣٩ هـ / ١٢٤٢ م ، وظل نواب نور الدين بن رسول يمثلونه فيها حتى وفاته فى سنه ٦٤٧ هـ / ١٢٥٠ م ، عندما أقدم الشريف أبو سعد حسن بن على بن قتادة على اعتقال ابن المسيب والاستئثار بإمرتها بعد أن بلغه نبأ مقتل صاحب اليمن نور الدين بن رسول . ومما لاشك فيه أن الظروف التى كانت تمر بها كل من اليمن ومصر كان لها أثرها العميق فى تشجيع بنى قتادة على الاستقلال بمكة وما يليها جنـــوبا ، فى حين سيطر الحسينيون أشرافه المدينة على الجزء الشمالى من الحجاز (١) .

وباستقلال الشريف أبو سعد حسن بن على بن قتادة بإمرة مكة ، بدأت المنافسات بين بنى قتادة على امارتها ، فتوجه الشريف جماز بن حسن بن قتادة إلى الملك الناصر يوسف بن العزيز محمد بن الظاهر غازى صاحب دمشق وحلب وطلب مساعدته ضد خصـومه ، فى مقـابل ذكر اسمه فى الخطبة ، وأمده الناصر يوسف بحملة تمكن بفضلها من الاستيلاء على مكة (٢) فى شوال سنة ٦٥١ هـ (٣) / نوفمبر ١٢٥٣ م ، وقتل واليها الشريف أبا سعد (٤) . وما أن تم

---

(١) Bu.khardt : Travels in Arabia , vol . II , p . 277 .

(٢) ابن تغرى بردى : المنهل الصافى جـ ٣ ص ٩ .

DeGaury ; op . cit . pp . 86 , 92

(٣) ابن حاتم : السمط ص ٦٣ أ ، الخزرجى : العقود جـ ١ ص ١٠٦ ، ابن تغرى بردى : المنهل الصافى جـ ٣ ص ٥٥ .

(٤) ذكر الفاسى أن مقتل أبى سعد حدث فى شعبان وقيل فى رمضـــان (شفاء الغرام جـ ٢ ص ٢٠١) .

له ذلك حتى نكث بعهده لصاحب حلب ، وخطب لصاحب اليمن المظفر يوسف [١] . ومع ذلك فلم يقدر له الاستمرار فى حكم مكة ، إذا استطاع الشريف راجح بن قتادة ـ حليف بنى رسول ـ انتزاع ولايتها منه [٢] فى ذى الحجة سنة ٦٥١ هـ[٣] / يناير ١٢٥٤ م . إلا أن ابنه غانم بن راجح لم يلبث أن خرج عليه وتمكن من الاستيلاء منه على مكة فى ربيع الأول [٤] ٦٥٢ هـ/ ابريل ١٢٥٤ م ، وذلك بتحريض من الشريفين إدريس بن قتادة وأبى نمى ابن أبى سعد بن على بن قتادة ، فلما نجح فى تنفيذ خطتهما وأزاح أباه عن الحكم ، تآمرا عليه وانتزعاها منه واشتركا معا فى حكمها [٥] .

وهكذا عمل أشراف مكة ـ وعلى الأخص بعد سقوط الخلافة فى بغداد ـ على تثبيت سيطرتهم والاستقلال بحكمها ، وقد بلغ من سطوتهم أنهم لم يذكروا اسم الخليفة العباسى على منابر مكة بعد إحياء الخلافة فى مصر على يد الظاهر بيبرس [٦] .

---

(١) ابن تغرى بردى : المنهل الصافى جـ ٣ ص ٩ ، زينى دحلان : خلاصة الكلام ص ٢٧ . De Gaury : Rulers of Mecca , p . 92 .

(٢) الفاسى : شفاء الغرام جـ ٢ ص ٢٠١ .

(٣) الفاسى : نفس المصدر والصفحة .

(٤) الخزرجى : العقود جـ ١ ص ١١٥ ، العسجد ص ٢٦٣ ، الفاسى : العقد الثمين جـ ٢ ص ٧٤٢ ؛ شفاء الغرام جـ ٢ ص ٢٠١ ، زينى دحلان : خلاصة الكلام ص ٢٧ .

(٥) ابن حاتم : السمط ص ٦٥ ب ، الفاسى : شفاء الغرام جـ ٢ ص ٢٠٢ ، الطبرى : الأرج المسكى ص ٤٨ .

(٦) Arnold : The Caliphate, pp. 100 – 101.

كان للصراع القائم بين أشراف مكة ، واضطراب الأحوال فيها ، أثره العميق في قيام المظفر يوسف ـ بعد أن تخلص من مشاكله الداخلية ـ بإرسال حملة من ثلاثمائة فارس بقيادة مبارز الدين بن برطاس إلى مكة في ذى القعدة سنة ٦٥٢ هـ/ديسمبر ١٢٥٤م لاقرار الأوضاع فيها وإعادتها إلى سيطرة بنى رسول . فلما علم الشريفان إدريس وأبو نمى بذلك استنجد بالشريف جماز ابن شيحة صاحب المدينة وخرجوا في خمسمائة فارس لمقاتلة ابن برطاس [1] ، ولكن المعركة التى دارت بين الطرفين خارج مكة انتهت لصالح ابن برطاس وهزيمة الاشراف ومقتل عدد كبير من أتباعهم ، واستولى ابن برطاس على مكة وحج في ذلك العام بالناس [2] .

فلما انتهى موسم الحج كان الأشراف قد تمكنوا من حشد جموع كثيفة زحفوا بها سنة ٦٥٣هـ/ ١٢٥٥م إلى مكة وحاصروا ابن برطاس فيها، وتمكنوا من دخولها من جهة الجبال المحيطة بها [3] . وكاد النصر يتحقق للمرة الثانية لابن برطاس لولا أن تفرقت قواته وانشغلت بالغنائم ، ممـا أتاح الفرصة لانتصار الأشراف ، ووقوع ابن برطاس أسيرا ، فافتدى نفسه بخمسة آلاف دينار وعاد إلى اليمن [4] .

ويغلب على الظن أن السلطان المظفر قد وفق بعد ذلك في إقامة تاعلات

---

(١) ابن حاتم : نفس المصدر والصفحة .

(٢) الخزرجى :العقود جـ ١ ص ١١٥ ،العسجد ص ٢٦٣ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٦٧ ب .

(٣) الخزرجى : العقود جا ص ٩٩ ـ ١٢٠ ، العسجد ص ٢٦٦ .

(٤) الخزرجى : العقود جـ ١ ص ١٢٠ ، العسجد ص٢٦٦ ، ابن الديبع : قرة العيون ص٦٧ب ، ابن تغرى بردى : المنهل الصافى جـ١ ص٩٣ـ ٩٤ ، De Gaury : op. cit., p. 92.

طيبة مع أشراف مكة ، ذلك أنه لما استولى التتار على بغداد سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٠م وقضوا على الخلافة العباسية فيها ، تولى المظفر يوسف سنة ٦٥٧ هـ / ١٢٥٩م أمر الحرم الشريف[١] وعمارته واقامة منائره وخدمته ، والانفاق على قومته [٢] .

وفى سنة ٦٥٩ هـ/١٢٦١م توجـــه السلطان المظفر يوسف لأداء فريضة الحج [٣] فى حشد كبير من أهل اليمن وأعيانهـا ، فلما اقترب من مكة فر الشريفان أدريس وأبو نمى خوفا منه ، فدخلهـا المظفر حـاسر الرأس معتمرا [٤] فى الرابع من ذى الحجة (٢٠ أكتوبر) ، ونزل فى المدرســة المنصورية التى أنشأها أبوه [٥] . واغتنم فرصة وجوده بمكة ليقوم ببعض أعمال البر والإحسان ، فتصدق بأموال طائلة [٦] ، وقد بلغ من كثرتها أن شملت جميع أهل مكـة والحجيج على اختلافهم ، كما أنعم على أهل الحرم والحاج المصرى بصفة خاصة [٧] ، وقام بغسل الكعبة بنفسه وطيبها و نثر عليها

---

(١) ابن حاتم : السمط ص ٦٨ ب .

(٢) الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ١٢٨ ؛ العسجد ص ٢٧١ .

(٣) الذهبى : تاريخ الاسلام جـ٢١ ص ١٥٥ .

(٤) الخزرجى : العقود جـ١ ص١٣٤ ، العسجد ص ٢٧٥ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٧٧ ب .

(٥) ابن حاتم : نفس المصدر ص٧٠ ب .

(٦) الفاسى : شفاء الغرام جـ٢ ص ٩ ٢ ،

Jomier : Le Mahmal et la Caravane, p. 50.

(٧) ابن حاتم : نفس المصدر ص ٧١ أ ، الخزرجى : العقود جـ١ ص١٣٤ ـ ١٣٥ ، العسجد ص٢٧٦ .

الذهب والفضة (١) . وكسا الكعبة ، فكان أول من كساها بعد سقوط الخلافة العباسية ببغداد (٢) ، وتكرر قيامه بكسوتها فى سنوات أخرى (٣) ، إذ أرسل فى سنة ٦٦١هـ/١٢٦٣م كسوة للكعبة وأخرى للضريح النبوى (٤) كما قام فى سنة ٦٦٦هـ/١٢٦٨م بتحلية باب الكعبة بالذهب والفضة على يد نجم الدين حسن بن التعزى (٥) ، ثم كسا الكعبة مرة ثالثة فى سنة ٦٧١هـ/١٢٧٣م على يد قاسم بن محفوظ (٦) .

٣ ــ تطور العلاقات اليمنية المصرية بين المظفر يوسف والظاهر بيبرس :

ارتفعت مكانة السلطنة المملوكة فى العالم الاسلامى بما حققته من انتصار ساحق على قوى التتار فى عين جالوت ، وبمناسبة ذلك الانتصار قام المظفر قطز بإرسال كتبه إلى سلاطين المسلمين يبشرهم فيها بانتصار المماليك الساحق

---

(١) الفاسي : نفس المصدر والجزء والصفحة ، المقريزى : الخطط حـ١ ص٢٠٢ ، الذهب المسبوك ص ٢٨٤ .

(٢) الفاسى : نفس المصدر والجزء والصفحة ، تحفة الكرام ص ٢٧ب ، المقريزى : الخطط نفس الجزء والصفحة ، الذهب المسبوك نفس الصفحة .

(٣) الفاسى : تحفة الكرام ، نفس الصفحة .

(٤) ابن حاتم : نفس المصدر ص ٧٢ أ ، الخزرجي : العقود اللؤلؤية حـ ١ ص ١٤١ ، العسجد ص٢٧٧ ، ابن الديبع : قرة العيون ص٧٧ب .

(٥) ابن حاتم نفس المصدر ص ٧٦ أ ، الخزرجى : العقود حـ١ ص ١٦٩ ، العسجد ص ٢٨٠ .

(٦) الخزرجى : العقود حـ١ ص١٧٤ ، العسجد ص ٢٨٣ .

على التتار ، وكان السلطان الرسولى من بين من أرسل لهم قطز بالبشارة [١].

فلما تولى بيبرس عرش السلطنة المملوكة سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠م كتب بذلك إلى الملوك وفى جملتهم المظفر يوسف صاحب اليمن [٢] . وكان الظاهر بيبرس يحظى باحترام سلطان اليمن وتعظيمه لما عرف عن دوره البطولى فى عين جالوت ، فكان ذلك من بين الأسباب التى جعلت السلطان الرسولى يسعى إلى توثيق علاقاته السياسية بمصر ، ويتجلى ذلك من أحد مواقفه ، فعندما حج فى سنة ٦٥٩هـ/ ١٢٦٠م حدث عندما حان وقت الوقوف بعرفات أن أمر بأن ترفع أعلامه مضمونه إلى أعلام مصر ، فلما اعترض بعض أتباعه وطلب من المظفر تقديم أعلامه رفض قائلا : « أترانى أؤخر أعلام ملك كسر التتار بالأمس » [٣] . فكان ذلك التصرف من المظفر فاتحة لصفحات جديدة من

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى حـ٧ ص ٣٦٠ — ٣٩٢ ، أحمد مختار العبادى : قيام دولة المماليك الأولى فى مصر والشام — بيروت ١٩٦٩ — ص ٢٦٩ — ٢٧١ . (ويذكر القلقشندى أن الملك المظفر قطز أرسل كتابا بالبشارة بهزيمة التتار إلى صاحب اليمن ، وهو « يومئذ المنصور » . غير أن السلطان المنصور وهو نور الدين عمر بن على بن رسول توفى سنة ٦٤٧ هـ/ ١٢٥٠م قبيل سقوط الدولة الأيوبية فى مصر بعدة أشهر ، ولم يعاصر المماليك ، ويرجع سبب وقوع القلقشندى فى هذا الخطأ إلى أخذه هذا الكتاب « من أفواه بعض الناس » . وقد يقصد بالمنصور السلطان المظفر يوسف إذ أن من ألقابه (أبو المنصور) .

(٢) العينى : عقد الجمان حـ٥٤ ص٤٥٨ .

(٣) ابن حاتم : السمط ص٧١ أ ، الخزرجى : العقود حـ١ ص ١٣٤ ، العسجد ص ٢٧٥ ، العبادى : نفس المرجع ص١٦٨ .

العلاقات الودية مع دولة المماليك فى مصر ، وبدأت منذئذ السفارات والهدايا تتردد بين البلدين ، ففى سنة ٦٤٠، هـ/١٢٦٦م وصلت رسل اليمن إلى مصر « بمراكب موسقة » [١] . كما وصلت هدية أخرى إلى مصر فى سنة ٦٦٦هـ / ١٢٦٨م تشتمل على تحف كثيرة [٢] من الخيل والفيلة والحمر الوحشية [٣] ، وغير ذلك مما جرت به العادة كالمسك والعنبر والفضيات وغيرها ، فقبلت الهدية ، وأعفى رسول صاحب اليمن من الرسوم المستحقة على ما كان معه من البهار [٤] .

ومما يروى بمناسبة تلك الهدية الأخيرة ، أن والدة السلطان المظفر أرسلت - مع هدية ابنها - كمية من البهار لانفاق قيمتها على المجاهدين ، وأمر بيبرس ببيعها . ويذكر ابن الفرات أن السلطان اشترى بجزء من قيمتها جملة من المنجنيقات عندما عزم على الغزو ، واستخدم المتبقى فى فدية بعض الأسرى [٥] . فلما تهيأ رسل المظفر للعودة ، جهز السلطان بيبرس معهم سنجقا وخامة وشعار السلطنة إلى المظفر الرسولى [٦] ، كما أرسل إليه - بناء

---

(١) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك حـ١١ ص ٩٦ أ ، وانظر ، المقريزى : السلوك حـ١ ص٥٤٣ .

(٢) عقد الجمان : مج ٥٤ ص ٥٤٥ ، محمد جمال الدين سرور : دولة بنى قلاوون فى مصر ص ١٢٩ .

(٣) المقريزى : السلوك حـ١ ص ٥٦٣ .

(٤) ابن الفرات : نفس المصدر حـ١٠ ص١٢ ب .

(٥) ابن الفرات : المصدر والجزء والصفحة .

(٦) المقريزى : السلوك حـ١ ص ٥٦٣ - ٦٥٤ ، العينى : نفس المصدر والمجلد والصفحة .

على طلبه ـ قميصه أمانا له ، بالإضافة إلى بعض آلة الحرب . وكتب إليه قائلا : « قد سيرنا لك آلة السلم والحرب مما لاصق جسدنا فى مواطن الجهاد». وأرسل إليه بعض الطيور الجارحة ، ورسم بأن يكاتب بالمقام العالى المولوى السلطانى ، وكاتبه السلطان ، بالمملوك » . وتوجه رسوله إلى اليمن بالمكاتبات والهدايا صحبة رسل اليمن العائدين سنة ٦٦٦هـ/ ١٢٦٨م (١) .

وبينما كانت الصلات الودية تزداد وثاقة يوما بعد يوم بين بنى رسول والمماليك ، كانت الصراعات تشتد والحروب تحتدم بين الأشراف من بنى قتادة منذ استعادة سيطرتهم على مكة سنة ٦٤٧هـ / ١٢٥٠م واستقلالهم بحكمها عن اليمن ومصر ، وترجع أسباب تلك الصراعات إلى مطامع زعماء بنى قتادة ورغبة كل منهم فى الانفراد بإمرتها (٢) ، مما أدى إلى عدم استتباب الأمن، وانتشار الفوضى فى ربوع الحجاز ، وتعرض أهل مكة والمجاورين للنهب والقتل ، ولم يسلم من ذلك الحجيج والتجار (٣) وخاصة فى مواسم الحج .

ومما كان يزيد الموقف اشتعالا ، استئثار الشريف الحاكم بالسلطة ، واستحواذه على الهبات والأموال وعائدات الضرائب ، وغير ذلك من

---

(١) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك حـ ١٢ ص ١٢ ب ، (ومما يذكر أن رسول بيبرس توفى فى اليمن بعد أن قام بتسليم المكاتبات والهدايا) ابن حاتم : السمط ص ٧٦ أ ، الخزرجى : العقود جـ ١ ص ١٦٩ ، العسجد ص ٢٨٠ .

(٢) De Gaury : Rulers of Mecca, pp. 93, 94, 100

(٣) De Gaury : op. cit., p. 99 .

الموارد التي كانت تحصل في موسم الحج أو على مدار السنة ، في حين كانت رغبة الأشراف من أهل بيته أن يلتزم بمشورتهم ، ولا يتصرف في أمر إلا بموافقتهم ، وأن يقتسم موارد البلاد معهم . ولهذا كان الخارجون على شريف مكة — من أسرته — يعمدون إلى الاستعانة بالقوى المحيطة ، سواء في مصر أو اليمن أو العراق (١) أو الحفصيين بتونس (٢) ، وطلب المعونة العسكرية منهم ليتمكنوا من الوصول إلى الحكم ، في مقابل التلويح بذكر اسم من يساعدهم في الخطبة على المنابر ، كوسيلة للاغراء (٣) مما أدى إلى تورط تلك الدول في دائرة الصراعات ، وبالتالي فساد علاقاتها فيما بينها (٤) .

والأمثلة على ذلك كثيرة نقتصر هنا على مايتعلق بالعلاقات اليمنية المصرية، التي لم تلبث أن تأزمت نتيجة للصراع بين أشراف مكة . فقد كان الشريفان

---

(١) الفاسي : شفاء الغرام جـ ٢ ص ٢٢٦ .

(٢) أحمد مختار العبادي : قيـــام دولة المماليك الأولى ص ١٩٣ — ١٩٥ ، دراسات في تاريخ المغرب ص ١٢٩ .

(٣) الفاسي : نفس المصدر والصفحة

De Gaury : op. cit., pp 94 - 95 .

(٤) لقد بلغ من شدة الصراعات واستمرارها بين أشراف مكة وما يتعرض له المسلمون من أضرار بسببها أن فكر أحد سلاطين المماليك في القضـــاء نهائيا على الأشراف واستئصال شأفتهم . ولكن العلماء تصدوا له وأقنعوه بالعدول عن ذلك لما للأشراف من شرف الانتساب إلى الرسول باعتبارهم من سلالته . (المقريزي : السلوك جـ ٢ ص ٣٢٩ ، De Gaury : op. cit., p. 100) .

إدريس بن قتادة وأبو نمى بن أبي سعد بن على بن قتادة شريكين فى حكم مكة منذ استوليا عليها سنة ٦٥٢ هـ / ١٢٥٤ م. وفى سنة ٦٦٧ هـ / ١٢٦٩ م تمكن أبو نمى من طرد شريكه وانفرد بحكم مكة (١)، وأرسل رسالة إلى الظاهر بيبرس يبرر فيها موقفه من ادريس، مدعيا أنه إنما لجأ إلى هذا التصرف عندما تأكد له ميل إدريس إلى سلطان اليمن، وأنها - أى الشريف إدريس والسلطان المظفر - «تحاملا على دولة السلطان الملك الظاهر» (٢).

وقد تكون رسالة أبى نمى سببا مباشرا توجه الظاهر بيبرس إلى الحجاز فى سنة ٦٦٧ هـ / ١٢٦٩ م. إذ لم يكن ذلك فى برنامجه على الاطلاق، بدليل أنه لم يصرح بذلك لدى خروجه من القاهرة فى طريقه إلى الكرك، وأغلب الظن أن تلك الرسالة وصلته بعد خروجه من القاهرة، إذ لم يلبث أن خرج من الكرك إلى الشوبك ومنها سلك طريقه عبر سيناء إلى الحجاز(٣). فلما وصل إلى مكة، كان الشريف أبو نمى قد صالح شريكه ادريس وأعاده معه إلى الامرة (٤). فلما وصل الظاهر بيبرس استقبلاه استقبالا حافلا.

---

(١) الفاسي : شفاء الغرام جـ ٢ ص ٢٠٢.

(٢) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك جـ ١٢ ص ٤٥ ب، العينى : عقد الجمان مج ٤ ص ٥٥٤.

(٣) أبو الفدا : المختصر جـ ٤ ص ٥، ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٧٥٤، ابن حبيب : درة الأسلاك في دولة الأتراك - مخطوط رقم ٦١٧٠ ح بدار الكتب - جـ ١ ص ١٢١، المقريزى : السلوك جـ ١ ض ٥٨١،

De Gaury : Rulers of Mecca, p. 93 .

(٤) الفاسى : نفس المصدر والجزء والصفحة.

وسجل بيبرس أثناء مقامه بالحجاز كثيرا من أعمال البر والخير ، وتصدق بكثير من الأموال وأنعم بالكساوى على أهل الحرمين (١) ، وخاصة أمراء الحجاز باستثناء أميرى المدينة لفرارهما عند وصوله إلى الحجاز وتجنبهما استقباله خوفا منه (٢) كما عمل على إزالة الخلافات القائمة بين شريفى مكة (٣) وكتب لكل منهما منشورا بالاشتراك فى الولاية (٤) ، وخصص لهما عشرين ألف درهم سنويا نظير العمل على تيسير الحج وعدم فرض أى مكس على الحجاج . وعدم التعرض للتجار ، وأن تكون الخطبة والسكة باسمه . وسلم الأوقاف الموقوفة على الحرم فى مصر والشام لنوابهما (٥) ، وعين معهما — وبناء على طلبهما — نائبا له فى مكة ، يكون الحل والعقد على يديه (٦) ، وقام بالاضافة

---

(١) المقريزى : السلوك نفس الجزء والصفحة .

(٢) الفاسى : نفس المصدر والجزء ص ٢٤٠ ، المقريزى : نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٣) De Gaury : op. cit. p. 93 .

(٤) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٥٨٢ .

(٥) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٥٧٩ ، سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ٢٣٠ ،

Jomier : Le Mahmal et la Caravan e Egyptienne, p. 210 .

(٦) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٥٨٢ . (يبدو أن شريفى مكة قصدا من وراء وجود نائب للسلطان معهما ، ضمان عدم تجدد النزاع بينهما وأن يأمنا — من جهة أخرى — بتواجده معهما ، مطامع منافسيهما ، واكتساب ثقة السلطان ورضائه عنهما من جهة ثالثة) .

إلى ذلك بكسوة الكعبة (١) . وهكذا استرجعت مصر سيادتها على الحجاز وأصبح تنصيب وعزل ولاتها من اختصاص السلطان المملوكي .

ولم يغفل بيبرس مانقل إليه من تدخل المظفر الرسولى فى شئون الحجاز ، فأرسل إليه كتابا ينكر عليه فيه مابلغه عنه من تصرفات ـ ومما ورد فى ذلك الكتاب قوله : « سطرتها من مكة المشرفة ، وقد أخذت طريقها فى سبع عشرة خطوة » (ويعنى بالخطوة المنزلة) وقال له : إن « الملك هو الذى يجاهد فى الله حق جهاده ، ويبذل من نفسه فى الذب عن حوزة الدين . فإن كنت ملكا فاخرج والتق بالتتار (٢) .

ومن الواضح أن خطاب بيبرس اتسم بالقوة والتجريح ، فقد أكد فيه دور مصر وسلاطينها فى الذب عن الاسلام والجهاد فى سبيل الله ، وتحمل عليه الدفاع عن أراضي الإسلام ضد غزوات الطامعين والأعداء . أو فيما يتعلق بما نسبه أبو نمي أبى المظفر يوسف ، فمن المعتقد أنه كان محض افترائه ، قصد به أبو نمي به إفساد ماطرأ على العلاقات اليمنية المصرية من تحسن ، وإدخال الطرفين في صراع يماثل ماحدث حول الحجاز في أواخر العصر الأيوبى ، ليتحقق لأشراف مكة الحصول على مكاسب من الجانبين إذا ماقامت الحرب بينهما . ويؤيد هذا الرأى ، ماسبق أن توضح من أمثلة

---

(١) المقريزى : الخطط حـ ١ ص ٢٥٧ ، السيد عبد العزيز سالم : تاريخ البحرية الاسلامية فى مصر والشام ـ بيروت ١٩٧٢ ـ القسم الأول ص ١٥٢ .

(٢) ابن الفرات : تاريخ الدولة والملوك حـ ٢ ص ٦٣ أ ، المقريزى : السلوك حـ ١ ص ٥٨١ ـ ٥٨٢ .

تعبر عن تعظيم السلطان المظفر للسلطان بيبرس ، عندما رفض تقديم الأعلام اليمنية على أعلامه فى عرفات عند قيامه بالحج سنة ٦٥٩ هـ/١٢٦١م(١) ، لا لشيء إلا تقديرا لجهاده فى سبيل الاسلام .

وتصمت المصادر عن الاشارة إلى رد الفعل الذى أحدثته رسالة بيبرس لدى المظفر ، ويغلب على الظن أنه لم يسكت على تلك الاتهامات وأنه كتب إلى بيبرس موضحا له الموقف ، بما يؤكد عدم صحة مانقله الشريف أبو نمى إليه ، أو أنه استطاع – بما عرف عنه من ذكاء وتبصر بالأمور – الحفاظ على العلاقات الودية مع بطل من أعظم أبطال الإسلام ، كما أنه ليس من مصلحته ولا من صالح بلاده أن يعرض بلاده لمخاطر الغزو الخارجى ، فى وقت كان الخطر الزيدى قد اشتد فى الداخل .

ويذكر الخزرجى (٢) أن المظفر أرسل إلى مصر خمسمائة فارس ، مشاركة من بلاده فى الجهاد ضد الصليبيين مع تحمل كافة نفقاتهم (٣) ، هذا بالاضافة إلى ما كان يرسله إلى سلطان مصر من صنوف الهدايا والتحف (٤) . غير أن الخزرجى لم يحدد تاريخ إرسال تلك القوة . وإذا سلمنا بصحة ذلك الخبر الذى انفرد به الخزرجى لعدم إشارة المصادر المصرية المعاصرة إليه – فمن المرجح أن ذلك تم ردا على كتاب بيبرس ، وإثباتا لحسن نوايا المظفر ، ثم حفاظا على العلاقات الودية بين القطرين الشقيقين ، هذا بالإضافة إلى الرغبة الصادقة فى

---

(١) انظر ماسبق ص ٣٦٧ .

(٢) الخزرجى : العقود حـ ١ ص ٢٧٩ ، العسجد ص ٣١٤ .

(٣) ابن الديبع : قرة العيون ص ٨٢ أ .

(٤) الخزرجى . العقود حـ ١ ص ٢٧٩ ، العسجد ص ٣٠٤ .

مشاركته أهل مصر فى الجهاد ضد البغاة والعداة من المغول والفرنج على السـواء .

ونستدل أيضا على عودة العلاقات الودية بين اليمن ومصـر من تلك السفارات والهدايا المتبادلة بين البلدين . فابن الفرات يذكر أن سفـارة يمنية وصلت إلى القـاهرة فى ذى الحجة من سنة ٦٦٩ هـ / يولية ١٢٧١ م محملة بالهدايا والتحف الثمينة وغيرها (١) ، وتكرر ذلك منه سنة ٦٧٤ هـ / ١٢٧٦ م وكان الظاهر بيبرس يرحب بتلك السفارات ، ويعمل من جـانبه على الرد عليها ، فيأمر بتجهيز الهدايا السنية وإرسالها صحبة رسـل اليمن لدى عودتهم الى بلادهم (٢).

ومن مظاهر تحسن العلاقات اليمنية المصرية تجاوز الصلات السياسية إلى تبادل الخبرات بين اليمن ومصر فى كافة المجالات المعروفة وقتئذ ، منها على سبيل المثال الاستجابة لما طلبه السلطـان المظفر الرسولى من السلطان الظاهر بيبرس بشأن إرسال طبيب إلى اليمن للاستعانة به فى انقضاء على وباء ظهر بمدينة ظفار من بلاد عمان (٣) .

---

(١) ابن الفرات : نفس المصدر والجزء ص ٨٣ أ ، المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٥٩٥، محمد جمـال الدين سرور : دولة بنى قلاوون ص ١٢٩ ، سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ٢٣٢ .

(٢) ابن الفرات : نفس المصدر حـ ١٣ ص ٣٠ أ ، المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٦٢١ .

(٣) الخزرجى : العقود اللؤلؤية حـ ١ ص ٢٧٧ - ٢٧٨ .

ومن الجـــدير بالذكر أن العلاقات الودية التى سادت بين اليمن ومصر تجاوزت حدود البلدين ، فقد استغل يكونو أملاك ملك الحبشة (١٢٧٠ - ١٢٨٥ م) الصداقة القائمـة بين المظفر الرسولى والسلطان بيبرس ، وأرسل رساله سنة ٦٦٢هـ/١٢٧٣م إلى السلطان المظفر بكتب موجهـة إلى السلطان المملوكى بيبرس ليتولى المظفر بدوره إرسالها إلى مصر تأييدا لطلبه لارسال مطران من مصر إلى الحبشة المرتبطة بالكنيسة المصرية . وكان أول ما فعله المظفر أنه حجز رسل ملك الحبشة لديه وكتب مع رسالة ملك الحبشة رسالة يخبر فيها الظاهر بيبرس بالأمر [1] . وقد تعهـد صاحب الحبشة فى رسالته لبيبرس بإرسال الهدايا وأنه سيلبى كل ما يطلبه السلطان الملك الظاهر بيبرس ويرسله إلى السلطان المظفر ليتولى بدوره إرساله إلى مصر ، ضمانا لعـــدم تعرض المطلوب للنهب مثلما حدث فى مرة سابقة [2] .

ويتضح مما سبق أن العلاقات اليمنية المصرية فى عهـد المظفر الرسولى والظاهر بيبرس كانت فى جملتهـا طيبة ، وقـد حرص المظفر على استمرار ارتباطه بتلك العلاقات الودية مع خلفاء بيبرس .

٣ - سياسة المماليك فى البحر الأحمر وأثر ذلك على العلاقات مع اليمن :

اهتم سلاطين المماليك بعد أن استقرت دعائم دولتهم بشئون البحر الأحمر ،

---

(١) ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور - القاهرة ١٩٦١ - ص٢٦٧ - ٢٦٨ ، ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك جـ١٣ ص ١٦ أ - ١٧ أ ، القلقشندى : صبح الأعشى جـ٨ ص ٤٠ - ٤٢ .

(٢) الذهبى : تاريخ الاسلام جـ٢٩ ص١٢٣ - ١٢٤ ، ابن أيبك : كنز الدرر جـ٨ ص ١٨٧ - ١٨٩ .

بهـــدف بسط نفوذهم السياسى والاقتصادى والدينى على الدول المطلة على سواحله ، وتأمين الملاحة فيه بقصد انعاش الحركة التجـارية ، وحماية المقدسات الاسلامية وتيسير الحج على المسلمين .

ومن المعروف أن البحر الأحمر كان يعـد منذ أقدم العصور الطريق البحرى الرئيسي الذى يربط الشرق تجـاريا بالغرب ، والشريان الحيوى الهام المتحكم فى التجارة العالمية عبر حقب التاريخ . وكان التنافس قائما منذ القدم بين هذا الطريق وطريق بحر عمان (الخليج الفارسى) على وجه الخصوص فتزداد اهمية أحدهما على حساب الآخر ، وفقـــا للظروف القائمة والقوى المتحكمة فى كل منها .

مع قيام الدولة العباسية ، كان طبيعيـا أن تزداد أهمية طريق الخليج باعتباره أقرب الطرق المائية المؤدية إلى ساحـل الابلة فرضة البصرة ، حيث تحمل السلع عبر المجارى المائية فى دجـلة والفرات إلى دار الخلافة والمراكز التجارية بالعراق ، ولكن هذا الطريق أخـذ يفقد أهميته تدريجيا منذ أن فقدت الخلافة العباسية هيبتها ، وسرى الضعف فى كيانها ، وبوجه خاص بعد أن افتقد عنصر الأمن بانتشار القرصنة فيه ، مما ساعـد على استعادة البحر الأحمر لمكانته الملاحية . ومن الجدير بالذكر أن استئناف النشاط البحرى فى البحر الأحمر ، وجه اهتمام المسئولين فى مصر إلى أهميـة تأمين الملاحة فيه ، حماية للتجارة وحفاظا على سلامة المسافرين فيه من الحجاج إلى بر الحجاز . وليس أدل على ذلك من اهتمام الفاطميين بتخصيص أسطول من خمس سفن المرابطة بميناء عيذاب لحماية مراكب الكارم من اغارات القراصنة [1] .

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٥٢٤ ، السيد عبد العزيز سالم : تاريخ البحرية الاسلامية ص ١٥٧ — ١٥٨ .

وبقيام الدولة الأيوبية ازداد الاهتمام بالبحر الأحمر كهدف أساسى من سياسة صلاح الدين . ومن أجل توحيد الجبهة الإسلامية، ولإحكام السيطرة على البحر الأحمر [١]، استولى صلاح الدين على اليمن سنة ٥٦٩هـ/١١٧٤م [٢]. كما فرض سيطرته على الحجاز ، واستولى على قلعة أيلة التى كان الصليبيون قد اتخذوا منها قاعدة لانتهاك حرمة المقدسات الاسلامية « فكادت القبلة يستولى على أصلها ، ومشاعر الله يسكنها غير أهلها » [٣] . فلما كانت المحاولة الصليبية التى قام أرناط بها بهدف الاعتداء على المقدسات الاسلامية سنة ٥٧٨هـ [٤]/ ١١٨٣م استطاع صلاح الدين اتخاذ الاجراءات التى أدت إلى إحباط تلك المحاولة الدنيئة . وواصل الأيوبيون جهودهم بعد صلاح الدين لإحكام السيطرة على البحر الأحمر ، فكانت قطع أسطولهم تمخر عباب هذا البحر إلى الحجاز واليمن وغيرهما [٥] .

ومع قيام دولة المماليك البحرية فى مصر ، شغل أول سلاطين تلك الدولة

---

(١) بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية جـ٢ ص٢٢٨ .

(٢) عن الفتح الأيوبى ، انظر ، محمد عبد العال : دولة بنى أيوب فى اليمن .

(٣) أبو شامة : الروضتين جـ١ ص ٢٤١ – ٢٤٣ ، ابن واصل : مفرج الكروب جـ٢ ص٤٨٦ – ٤٩٣ .

(٤) أبو شامة : جـ٢ ص٣٦ – ٣٧ ، الذهبى : دول الاسلام ص٦٦ ، الصفدى : الوافى بالوفيات جـ٥ ص٦٤٨ .

(٥) ابن حاتم : السمط ص٣ب ، الخزرجى : العسجد ، ص ١٨٨، ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٤٨ب ، النويرى : نهاية الأرب جـ٣١ ص ٤ ، المقريزى : السلوك جـ١ ص٧٤ – ٧٦ .

بالعمل على تثبيت أركانها ، والتخلص من الأخطار الخارجية التى كانت تتهددها ، لاسيما خطر التتار الذين اجتاحوا دار الاسلام وأسقطوا الخلافة العباسية ببغداد سنة ٦٥٦ هـ/١٢٥٨م، وهددت جحافلهم بلاد الشام ومصر[١].

ويمكننا القول بأن انتصار المماليك الحاسم على قوى التتار فى معركة عين جالوت سنة ٦٥٨ هـ[٢]/١٢٦٠م وتوقف المد المغولي وانحساره فى أعقاب ذلك الانتصار ، كان من أهم العوامل التى رفعت من قدر دولة المماليك البحرية فى العالم الاسلامى . ثم تبوأت تلك الدولة مكانتها المرموقة وتدعم مركزها، ولم تلبث أن تزعمت العالم الإسلامي منذ وفق السلطان الظاهر بيبرس فى إحياء الخلافة العباسية بالقاهرة . وقد أصدر الخليفة العباسى تقليـدا للظاهر بيبرس بالبلاد الاسلامية وما ينضاف إليها[٣] ، وهى : « الديار المصرية والبـلاد الشامية والديار بكرية والحجازية واليمنية والفراتية وما يتجدد من

---

(١) المقريزى : السلوك حـ١ ص٤٠٩ — ٤١ ، ابن تغرى بردى : النجوم حـ٧ ص٥٠ ، سعيد عاشور : مصر فى عصر المماليك البحرية ص٢٠ ، العصر المماليكى ص ٢٧ ، الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام ص٢١٨ .

Browne ; A litrary History of Persia, vol II, p. 4 33, D Ohsson: Histoire ds Mongols, vol. III, pp. 256-257, Streck (M.)ENC. of Islam, art. Baghdad, Barthold : ENC. of Islam, art. Ilnlagu

(٢) المقريزى : السلوك حـ١ ص٤٣٠ — ٤٣١ ، سعيد عاشور : مصر فى عصر دولة المماليك البحرية ص ٣٤ ، العصر المماليكى ص ٣٤ — ٣٥ ، الأيوبيون والمماليك ص٢٢٢ ، الحركة الصليبيه حـ٢ ص١١٢٧ .

(٣) المقريزى : السلوك حـ١ ص ٤٥٠ .

الفتوحات » (١) .

وعلى هذا النحو يمكننا القول بأن المماليك كانوا قد شغلوا عن الاهتمام بالبحر الأحمر ومشكلات مكة والمطامع اليمنية فى الحجاز ، لفترة ركزوا خلالها على الصراع مع بقايا البيت الأيوبى من جهة ، وبالجهاد المقدس ضد التتار والفرنج من جهة ثانية ، وشجع التقليد الخليفى للسلطان المملوكى القيام بواجبه فى السيطرة على الحجاز ، وحماية الحرمين الشريفين وتيسير الحج ، وهذا ما قام الظاهر بيبرس بتحقيقه عندما قام بأداء فريضة الحج سنة ٦٦٧ هـ/ ١٢٦٩م حيث تمكن من استعادة مكانة مصر فى تلك البلاد . كما كان عليه أن يبسط سيطرته على اليمن أو على الأقل يربطها برابطة الولاء لدولة المماليك فى مصر ، ويتمثل ذلك فى العلاقات الطيبة التى سادت بين مصر واليمن فى عهد كل من بيبرس والمظفر . وكان على الظاهر بيبرس لتحقيق تلك السياسة أن يسيطر على البحر الأحمر ، ويجعـــل منه بحيرة مملوكية ، وأن يعمل على تأمين موانيه وسواحله ، لتنشيط الحركة التجارية فيه ، وشرع فى تنفيذ تلك السياسة بإعادة طريق الحج البرى عبر سيناء (٢) ، وسلك بنفسه ذلك الطريق لأداء فريضة الحج سنة ٦٦٧ هـ/ ١٢٦٩ م ، ثم عمد إلى تأمينه من

---

(١) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص٤٥٤ .

(٢) كان هذا الطريق قد بطل استخدامه طوال فترة الحروب الصليبية ، واستعمل طريق عيذاب بدلا منه . (جاستون فييت : المواصلات فى مصر فى العصور الوسطى ص٤٨ — ٥٠ ، أحمد مختار العبادى : تاريخ البحرية فى مصر والشام ص٢٦٣ ،

Murray : Aidhab, J.R.S. Sept. 1926, p. 236.

طريق تعمير قلعة السويس (١) ، لتكون قاعدة حربية للدفاع عن حدود مصر الشرقية ، ومنطلقا للحملات إلى بلاد الحجـــاز إذا ما استدعت الأحوال ذلك .

ومن الجدير بالذكر أن إعادة استخدام طريق سيناء لم يتم على حساب ميناء عيذاب (٢) فقد وجه لكل منها نصيبه من الاهتمام ، وحرص على تأمين طريق عيذاب البرى المؤدى إلى مكة عبر البحر الأحمر ، من غارات البـدو والبجاة سكان المنطقة ، عن طريق حملاته المتواصلة عليهم ، إلى أن أعاد الأمن إلى السالكين عبره . وإلى جانب تأمين الطريقين البريين ، عمـل بيبرس على

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ٧ ص١٩٢ .

(٢) كان ميناء عيـذاب من أهم الموانى المصرية فى البحر الأحمـر ، وذلك بالرغم مما كان يعانيه المسافرون فيه من مخاطر ، إلا أنه كان أكثر أمنـا ، ويؤدى إلى ساحل الحجاز واليمن (كتاب الاستبصار ص٨٧ ، ابن جبير : الرحلة ـ تحقيق حسين نصار ـ ص٢٧ وما بعدهـا) وكانت عيذاب قد أصبحت ـ منـذ العصر الفاطمى ـ المركز الرئيسى لتجارة الهنـد واليمن والحبشة . (المقريزى : الخطط جـ١ ص٢٠٦ ، السيد عبد العزيز سالم .البحرية الاسلامية ص ١٥٦) وعلى الرغم من العودة إلى استخدام طريق سيناء ، فإن ميناء عيذاب لم يفقد أهميته إلا بعد انتعاش ميناء الطور بعد سنة ٧٨٠هـ/١٣٧٨م . (القلقشندى : صبح الأعشى جـ٣ ص ٢٤٣ و٤٦٤ و٤٦٨ – ٤٦٩ ، السيد عبد العزيز سالم : تاريخ البحرية الاسلامية فى مصر والشام ص ١٥٧)وانتهى أمر عيذاب تماما عندما قام السلطان برسباى بتخريبها سنة ٨٣٠هـ/١٤٢٦م . (Depping (G.B.) : Histoire du Commerce entre le levant et l' Europe, Paris, 1830, T.I, pp. 53 54).

تأمين الملاحة فى البحر الأحمر، فانتهز فرصة تعرض صاحبى سواكن ودهلك للتجار فى سنة ٦٦٢هـ/١٢٦٤م، واستنكر بادئ ذى بدء هذا العمل منها[١]، ثم لم يتردد بعد ذلك بهامين فى تسيير حملة إلى سواكن تمكنت من الاستيلاء عليها وإقرار الأمور فيها [٢]، ونستدل مما ذكره المقريزى على أن هذه المدينة ظلت خاضعة لمصر بدليل أنها واصلت دفع الزكاة فى سنة ٦٦٥هـ[٣]/ ١٢٦٧م. أما جزيرة دهلك، فقد عمل حكامها على التقرب إلى المماليك وتحسين علاقاتهم معهم تجنبا لمطامع بنى رسول فى اليمن [٤].

واستكمالا لإحكام السيطرة على البحر الأحمر أرسل الظاهر بيبرس أسطولا [٢] من خمس سفن إلى ميناء عيذاب لتأمين الملاحة فى هذا البحر [٦] على النحو الذى كان معمولا به أيام الفاطميين.

وهكذا أصبح البحر الأحمر بحيرة مصرية، وبفضل ذلك أمكن سياسيا

---

(١) المقريزى : السلوك جـ١ ص ٥٠٦.

(٢) Rene Bassct : Art. "Dahlak" in the ENCY. of Islam.

(٣) Iane-Poole ; The History of Egypt. p. 264.

(ومما يذكر أن المماليك اهتموا بدور صناعة السفن، وقام الظاهر بيبرس بعمارة دار الصناعة فى سنة ٦٧٠هـ/ ١٢٧٢ وتبعه الأشرف خليل الذى أنشأ أسطولا قويا سنة ٦٩٢هـ/ ١٢٩٣م، ثم الناصر محمد بن قلاوون الذى أنشأ أسطولا آخر سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٢م واستمر اهتمام المماليك بعد ذلك بأمر البحرية. (المقريزى : السلوك جـ١ ص٦٠١، الخطط جـ٢ ص١٩٤ – ١٩٥، العبادى : البحرية ص٢٢٠).

(٤) القلقشندى : صبح الأعشى جـ٣ ص٥٢٤.

مد النفوذ المصرى إلى الأراضى الواقعة على سيفه ، كما أمكن من الناحية الدينية ، السيطرة على الحجاز وحماية المقدسات الاسلامية وتسهيل تأدية فريضة الحج للمسلمين ، ومن الناحية الاقتصادية ، أدت سيطرة مصر على البحر الأحمر وتأمين الملاحة فيه إلى انتعاش التجارة الشرقية ، وجنت مصر من وراء ذلك مكاسب ضخمة .

٤ ـ دور اليمن فى ازدهار طريق البحر الاحمر :

كان لموقع اليمن الاستراتيجى فى الركن الجنوبي الغربى من جزيرة العرب وتحكمها فى المدخل الجنوبى للبحر الأحمر ، أعظم الأثر فى قيامها بدور رئيسي وبارز فى تجارة هذا البحر . وكانت عدن أهم ثغور اليمن وأعظم مركز تجارى فى المحيط الهندى ، فهى المرسى الرئيسي لبلاد اليمن [١] ، تتردد عليها مراكب الهند [٢] والسند والصين [٣] وكرمان وفارس وعمان [٤] .

وعلى الرغم من قدم عدن فى التاريخ العربى ، إلا أن أهميتها فى الإسلام

---

(١) ابن بطوطة : تحفة النظار ـ مصر ١٩٣٨ ـ حـ١ ص١٥٩ ،

Kammerer : La Mer Rouge, T.I, p. 66.

(٢) أبو الفدا : تقويم البلدان ، باريس ١٨٤٠ ، ص٧٨ .

(٣) ابن الوردى : خريدة العجائب وفريدة الغرائب ، القاهرة ١٣٠٩ ، ص ٥٦ .

(٤) الدمشقى : نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر ، ليبزج ١٩٢٣ ، ص ٢١٦ .

بدأت تتضح منذ قيام دولة بنى زياد[1] حيث أخذت فى الازدهار ، وأصبحت مقصد أهل اليمن ومنتجعاً لهم ، فأقبـــلوا على الاستقرار فيها وتعميرها ، وقصدتها مراكب الهند والصين [2] . وعلى الرغم من حصانتها الطبيعية ، فإن بنى زريع [3] حرصوا على تدعيمها بسور [4] وأصبحت لذلك من أمنع البلاد وأحصنها [5] ، ولم يكن لعدن مدخل إلا من جانب واحد[6] . فلما خضعت لدولة بنى أيوب ، قام عثمان الزنجيبلي نائبهم على عدن بإنشاء أسوار أخرى فى مواضع متعددة منها [7] . كما اهتم بميناء عدن وحرص على تدعيم وتنظيم

---

(١) حكمت دولة بنى زياد اليمن من سنة ٢٠٤ هـ إلى ٤٠٩ هـ / ٨١٩-١٠١٨م (انظر ، عمارة : تاريخ اليمن ص ٢ وما بعدها ، ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ١١ أ ومابعدها ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ ٢ ص ٢١٥ ، محمد عبد العال أحمد : دولة بنى أيوب فى اليمن ص ١٠ وما بعدها ،

Kay : Yaman, p. 255

(٢) بامخرمة : تاريخ ثغرعدن جـ ١ ص ٩ .

(٣) كانت دولة بنى زريع فى عدن (٤٦٧ - ٥٦٩ هـ / ١٠٧٥ - ١١٧ م). انظر ، محمد عبد العال أحمد : دولة بنى أيوب فى اليمن ص ٣٥ وما بعدها .

(٤) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن جـ ١ ص ١٢٩ ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ ١ ص ١٠ .

(٥) ابن الأثير : : الكامل جـ ١١ ص ١٧٨ .

(٦) ابن بطوطة : الرحلة جـ ١ ص ١٥٩ .

(٧) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن جـ ١ ص ١٢٨ ، بامخرمة : نفس المصدر والجزء ص ١٠ و ١٤ و ٤٧ - ٤٨ .

العمل فيه ، فانتعشت الحركة التجارية واستقر الأمن فى المدينة . وأدى ذلك إلى زيادة العمران المدنى وانتعاش الحركة التجارية في الأسواق وتدفق الراغبون فى سكناها من مختلف المناطق[١]، ويعبر ابن المجاور عن ذلك بقوله : وغالب سكان البلد عرب مجمعة من الاسكندرية ومصر والريف والعجم والفرس وحضارم ومقادشة وجبالية وأهل ذبحان وزيالع ... وحبوش . وقد التأم إليها من كل بقعة ، ومن كل أرض ، وتمولوا فصاروا أصحاب خير ونعم [٢] ... » ، بخلاف الوافدين الذين كانت إقامتهم قاصرة على فترة الموسم التجارى فيما بين أغسطس وابريل من العام التالى [٣] .

وكان النظام المتبع فى ثغر عدن لاستقبال المراكب ، أن يقوم موظف يطلق عليه « الناظور » برصد المراكب القادمة من أعلى الجبل [٤] . فإذا رست

---

(١) ابن المجاور : نفس المصدر والجزء ص ١٣٠ ، بامخرمة : نفس المصدر والجزء ص ١٠ و ١٤ — ١٥ ، ٤٩ .

(٢) ابن المجاور : نفس المصدر والجزء ص ١٣٤ ، بامخرمة : نفس المصدر والجزء ص ٥٤ .

(٣) Hunter : An Account of British Settlement of Aden. pp. 41 43.

(٤) كان الناظور يقوم برصد المراكب القادمة ، وقت الشروق والغروب حيث يساعد شعاع الشمس الممتد على سطح الماء على الرؤية ، فإذا مالاح له شيء على صفحة الماء قام بقياس ذلك ورصده بعود معه . فإذا كان طيرا تحرك عن موضعه ، أما إذا ظل ثابتا مستقيما تأكد له أنه مركب ، وعندئذ يصيح بأعلى صوته « هيريا » — وهى صيحة يقصد بها الإعلان عن وصول مركب ليتم الاستعداد لاستقبالها — فإذا صدقت رؤيته منح دينار =

المراكب في الميناء تقدم نائب السلطان إليها ، وقام أحد موظفي الديوان بتفتيش الرجال بدقة ، أما النساء فقد كانت تخصص لتفتيشهن امرأة (١) ، ثم يتم تفريغ حمولة السفن ونقلها إلى الفرضة (٢) . ويصف ابن المجاور ماكان يعانيه التجار عند وصولهم إلى عدن من متاعب، فيقول : « وخرج الإنسان من البحر كخروجه من القبر ، والفرضة كالمحشر ، فيه المناقشة والمحاسبة والوزن والعدد ، (٣) وكان بيع تلك البضائع يتم عن طريق دلال، مقابل

= من كل مركب ، وإذا كان غير ذلك عوقب بالضرب . فإذا اقتربت المراكب استقبلتها السنابك وصعد موظفوا الميناء إليها لمعرفة اسم الناخوذة والبلد القادم منه ، وحصروا أسماء التجار وبيان ماتحمله المركب من أصناف ، وتعود السنابك بالبيانات للوالي ، ومن ثم ينتشر المبشرون في المدينة لتبشير أهل من وصل . (انظر ، ابن المجاور : صفة بلاد اليمن ، جـ ١ ص ١٣٨ – ١٣٩ باخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ ١ ص ٥٦ – ٥٨) .

(١) كانت عملية التفتيش يتم في المراكب ، وكان المفتش يتولى تفتيش الرجال واحدا واحدا ويصل التفتيش إلى العمامة والشعر والكمين وحزة السراويل ، وتحت الاباط والضرب على الحجزة والاليتين . أما النساء فكانت تمتد يد العجوز في أعجازهن و ...... (ابن المجاور : صفة بلاد اليمن جـ ١ ص ١٣٩ ، باخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ ١ ص ٥٨) .

(٢) الفرضة ، هي المكان الذى كان يتم فيه فحص البضائع الواردة ، وتقدير العشور عليها (باخرمة : نفس المصدر والجزء ص ١١٤)

(٢) ابن المجاور : نفس المصدر ص ١٢٨ ، بامخرمة : نفس المصدر والجزء ص ٤٨ .

رسم دلالة نقدى وأحيانا عينى ، بواقع ١٪ من قيمتها يتحمله المشترى [١] .
فإذا ماتم البيع وعزم التجار على السفر كان لزاما عليهم الحصول على تصريح بالمغادرة من الوالى بعد التأكد من خلوهم من المديونية ، مع التزام ضامن بتحمل ماقد يظهر عليهم بعد ترك البلاد ، فإذا لم يتوفر الضامن نودى فى المدينة للاعلان عن سفر المعلن عن اسمه ، حتى يتقدم من له ديون عليه لاستخلاصها، ثم يسمح له بالسفر بعد سدادها أو لعدم وجود ديون عليه[٢].

وكان يتم تحصيل العشور بميناء عدن إلى جانب رسوم أخرى ، كرسم الفرضة والشوانى وغيرهما . وكانت الرسوم تختلف من سلعة لأخرى، كما كانت بعض السلع الضرورية تعفى من العشور [٣] .

وكان الاهتمام الشديد بتأمين التجارة والعمل على اجتذاب السفن إلى عدن ، دافعا على القيام بإرسال الشوانى لحراسة السفن التجارية فى المحيط الهندى وحمايتها وتأمينها من إغارات القراصنة . والأيوبيون فى اليمن هم أول من سن هذا التقليد ، إذ لم تكن الشوانى تستخدم قبلهم لهذا الغرض. فلما فتح توران شاه بن أيوب اليمن ، احتفظ بما كان معه من شوانى ، كما كان يتم

---

(١) بامخرمة : نفس المصدر والجزء ص ٦٧ ،
Huart (C) : Histoire des Arabes T: I, p 115 .

(٢) ابن المجاور : نفس المصدر والجزء ص ١٤٦ ، بامخرمة : نفس المصدر والجزء ص ٦٧ .

(٣) انظر ، ابن المجاور : نفس المصدر والجزء ص ١٤٠ وما بعدها ، بامخرمة : نفس المصدر والجزء ص ٥٨ - ٦٣ .

الاحتفاظ بعد ذلك بمعظم ما كان يصلهم منها صحبة الإمدادات الأيوبية لليمن (١)؛ وكان سيف الاسلام طغتكين بن أيوب أول من أمر بانفاذ الشوانى إلى المحيط لحماية التجار من القراصنة (٢) .

ويبدو أن تلك الشوانى توقفت بعد ذلك عن القيام بمهامها ، مما أدى إلى تعرض السفن التجارية للأخطار ، كما حدث سنة ٦٠١ هـ / ١٢٠٥ م عندما توقفت السفن عن الوصول إلى عدن ، الأمر الذى دعا الأتابك سنقر – نائب الأيوبيين فى اليمن – إلى القيام بتجهيز الشوانى مرة أخرى سنة ٦٠٢ هـ/ ١٢٠٦ م لتأمين السفن ، وقد بلغت تلك الشوانى فى جولاتها بالمحيط حتى بلدة قلهات حيث تمكنت من إعادة الأمن فى طريق السفن إلى عدن (٣) . ولم تكن السلطات الأيوبية فى اليمن تفرض رسوما إضافية على السفن التجارية أو التجار مقابل ما كانت تتكلفه من نفقات الحراسة ، باعتبار أن حراسة تلك السفن كان يدخل فى نطاق الواجبات الملقاة على حكومة اليمن . واستمر ذلك إلى أيام المسعود يوسف آخر الأيوبيين فى اليمن ، والذى قام سنة ٦١٣هـ/١٢١٦م بفرض رسم اضافى لتغطية ماتنفقه الدولة عليها بواقع ١٠٪ من قيمة العشور فكان مقدار المحصل من التجار نظير هذا الرسم يتراوح مابين الخمسين والستين

---

(١) ابن حاتم : السمط ص ٣ ب ، ٣٦ أ ، ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٤٨ أ – ب ، النويرى : نهاية الأرب جـ ٣١ ص ٤٠ ؛ الخزرجى : العسجد ص ١٨٩ ، المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٧٤ – ٧٦ ، ابن أيبك : درر التيجان حوادث سنة ٦١١ ، يحيى بن الحسين : أنباء الزمن ص ٥٤ ، ٦٨ .

(٢) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن جـ ١ ص ١٤١ ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ ١ ص ٦١ .

(٣) ابن حاتم : السمط ص ٢٨ ب .

ألف دينار سنويا . واستمرت تلك الرسوم تفرض على التجـار إلى أن بطل استعمال الشوانى فى سنة ٦٢٥ هـ / ١٢٢٨ م ، وبطل معهـا ماكان يفرض من رسوم بسببها (١) .

وكانت عـدة السفن التجارية التى تصل إلى ثغر عدن فى أواخر العهـد الأيوبى فى اليمن تتراوح مابين سبعين وثمانين مركبـا ، بلغ مقدار العشـور المحصلة عن بعضها ثمانين ألف دينار . وكانت تلك الأموال المحصلة ترسـل سنويا من عدن إلى السلطان فى تعز فى أربع خزائن تحتوى كل واحدة منها على مايقدر بمائة وخمسين ألف دينار أو يزيد (٢) . فى حين لم تتجاوز كل منها فى عهد الصليحيين المائة ألف دينار (٣) .

وإذا كان ثغـــر عدن قد اجتذب كثيرا من السفن التى تمخر المحيـط الهنـدى (٤) فقد بدأت أهميته تقل منذ بداية دولة بنى رسول ، نتيجة للسياسة

---

(١) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن حـ ١ ص ١٤٠ ـ ١٤٢ ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن حـ ١ ص ٦١ ـ ٦٢ .

(٢) ابن المجاور : نفس المصدر والجزء ص ١٤٤ و ١٤٥ ، بامخرمة : نفس المصدر والجزء ص ٦٥ .

(٣) عمارة : تاريخ اليمن ص ٤٩ ، ابن المجاور : صفة بلاد اليمن حـ ١ ص ١٢٤ ـ ٢٢٢ ، بامخرمة : نفس المصدر والجزء ص ٤١ ، العرشي بلوغ المرام ص ٢٧ ، الواسعى تاريخ اليمن ص ١٦٥ .

(٤) ابن المجاور : نفس المصدر والجزء ص ١٤٤ و ١٠٥ ، بامخـــرمة : نفس المصدر والجزء ص ٦٥ ،

Kammerer : La Mer Rouge, T. I. p. 66 .

التي انتهجها نور الدين عمر بن رسول ، الذى احتكر عملية شراء السلع التجارية بالأسعار والأوزان التي يحددها ، ثم يتولى نوابه بيعها بأثمان باهظه وأوزان تنقص عن تلك التي اشتراها بها ، محقق بذلك أرباحا طائلة ، فى حين تكبد التجار خسائر جسيمة[1] ، فكان ذلك دافعا للتجار على التحول عن عدن إلى طريق الخليج ، كما تأثرت التجارة من ناحية أخرى بظروف الصراع الذى نشب بين نور الدين والأيوبيين فى مصر ، مما كان له أعمق الأثر على حركة تجارة العبور فى البحر الأحمر .

فلما تولى المظفر يوسف السلطنة بعد أبيه فى اليمن ، اهتم منذ اللحظة الأولى بأمر عدن ، وقام بزيارتها فى صفر سنة ٦٤٨ هـ / مايو ١٢٥٠ م ، وذلك على الرغم من أنه لم يكن قد استكمل بعد السيطرة على بلاده ، ويغلب على الظن أنه رفع بعض المظالم عن التجار ، بدليل أنهم حملوا إليه الكثير من الهدايا والتحف والأموال . ومما يذكر أن متحصلات ثغر عدن التى تسلمها المظفر يوسف من واليها بلغت خمسمائة ألف دينار[2] .

وعلى هذا النحو بدأت عدن تزدهر من جديد فى عهد المظفر الرسولى[3] ، كما أثمرت جهوده التى بذلها من جانبه فى تدعيم الجهود التى قام بها السلطان الظاهر بيبرس لتأمين الملاحة فى البحر الأحمر ، مما عاد بالفائدة على دولتيهما ،

---

(١) ابن المجاور : نفس المصـــدر والجزء ص ١٤٧ - ١٤٨ ، بامخرمة : نفس المصدر والجزء ص ٦٨ .

(٢) ابن حاتم : السمط ص ٥٦ أ .

(٣) Lewis (Bernard) : Egypt and Syria, (The Cambridge History of Islam - Cambridge, 1970,) p. 225 .

وكان من الطبيعى - فى الوقت الذى كان المظفر يعمل فيه على تنمية ثغر عدن وازدهاره - أن يهتم بتأمين الملاحة ، وأن تتسم علاقاته بالدول البحرية والتجارية الآسيوية بالصداقة والود. ويشير ابن حاتم إلى قيام المظفر الرسولى بإرسال سفارة وهدايا جليلة إلى فارس سنة ٦٧٨ هـ / ١٢٧٩ م ، ولكن الرياح عصفت بالسفن وألقت بها إلى ساحل ظفار فاستولى سلطانها سالم بن ادريس الحبوضى عليها وعلى حمولتها من البضائع والهدايا ، ووقع السفير ومن كان يرافقه من التجار أسرى فأساء سالم معاملتهم [١] .

وقد حاول المظفر بادىء ذى بدء حل المشكلة سلميـا ، وكتب بذلك إلى سلطان ظفار ، ولكن المحاولة باءت بالفشل ، بل أن سلطان ظفار تمـادى فى عدائه وسير حملة بحرية للاغارة على عدن . ولهذا السبب اضطر المظفر - أمام تحديات سلطان ظفار - إلى اصطناع القوة للانتقام منه وضمان سلامة الملاحة، وعدم التعرض للسفن التجارية بسوء ، وأرسل حملتين ، اشتبكت أولاهما مع قوات ظفار ، أما الثانيه فقـد استولت على الشحر لخروج صاحبها عن طاعة المظفر ، وموالاته لسلطان ظفار [٢] .

غير أن الحملات البرية أثبتت عدم فاعليتها فى تحقيق نصر حاسم ، أو القضاء

---

(١) ابن حاتم : السمط ص ١٠٠ ، الخزرجى : العقـود جـ ١ ص ٢٠٨ ، العسجد ص ٢٩٠ ، ابن الديبع : قره العيون ص ٧٨ أ ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ ٢ ص ٨٤ .

(٢) ابن حاتم : السمط ص ١٠٠ ب ، الجندى : السلوك ص ٤٥٤ ، بامخرمة نفس المصدر والجزء ٨٤ ، زبارة : أئمة اليمن جـ ١ ص ١٩٩ .

على مطامع سلطان ظفار ، لبعد المسافة . لذلك اهتم المظفر بالحملات البحرية وأصدر أوامره إلى والى عدن لعمارة الشوانى والمراكب والطرائد الموجودة والعمل على إصلاحها (١) ، كما أنشـــأ عددا آخر (٢) ، ثم توجه السلطان بنفسه إلى عدن لتفقد الاستعدادات البحرية وتجهيز المراكب (٣) وأبحرت السفن من ثغر عدن فى نفس الوقت الذى خرجت فيه حملتان بريتان أخريان ، إحداهما تقدمت عبر الطريق الساحلى الموازى للحملة البحرية . أما الحملة البرية الثانية ، فقد توجهت عن طريق منطقة الجوف شمال شرق اليمن لتتجه من هناك جنوبا عبر حضرموت إلى ظفار . وقد أسفرت هذه الحملات عن هزيمة سلطان ظفار وقتله ، وأسر وقتل الكثير من أتباعه ، واستولى المظفر على ظفـار فى رجب ٦٧٨هـ/(٤) نوفمبر ١٢٧٩ م ، وأقطعها لابنه الواثق نور الدين ابراهيم(٥) كما ولى ابنه المؤيد داود على حضرموت والشحر (٦) .

---

(١) الخزرجى : العقود جـ ١ ص ا ٢٠٩ ، العسجد ص ٢٩٢ .

(٢) ابن حاتم : السمط ص ١٠١ أ ، النويرى: نهاية الأرب جـ ٣١ ص ٤١ .

(٣) ابن حاتم : السمط ص ١٠١ أ ، زبارة : أئمة اليمن جـ ١ ص ١٩٩ .

(٤) ابن حاتم : السمط ص ١٠١ أ ــ ١٠٤ ب ، الجندى : السلوك ص ٤٥٤ ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٩ ب ــ ٦٠ أ . الخزرجى : العقـود جـ ١ ص ٢١٠ ــ ٢١٢ ؛ العسجد ص ٢٩٢ ــ ٢٩٤ ، ابن الديبع : قرة العيـــون ص ٧٨ ب ــ ٧٩ أ .

(٥) الخزرجى : العقود جـ ١ ص ٢٦٨ ، العسجد ص ٣٠٥ ، زبارة : أئمة اليمن جـ ١ ص ٢٠٥ .

(٦) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٦٣ أ ــ ٦٤ ب، الخزرجى: العقود جـ ١ ص ٢٧٥ ، العسجد ص ٣١٢ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٨١ ب .

وأحدث استيلاء المظفر الرسولى على ظفار دويا هائلا ، عبر عنه الخزرجى بقوله : « ارتعدت الأنطار القصية هيبة للسلطان وامتلأت من خوفه قلوب ملوك فارس وأصحاب الهند والصين لما رأوا من علو همته وعظيم نقمته ، فأرسل صاحب عمان بهديته فرسين ورمحين إلى الأمير شمس الدين أزدمر [نائب السلطان الرسولى] وهو يومئذ فى ظفار ، ووصلت هدايا صاحب الصين ، ووصل [رسول] صاحب البحرين إلى زبيد »[1] .

ولا نشك فى أن هذا الانتصار كان من العوامل الهامة لاستقرار الأمن فى المحيط الهندى ، ودافعا على زيادة الإقبال على عدن ، بعد أن أصبح سلطان اليمن مسيطرا على الساحل الجنوبى للجزيرة العربية إلى عمان ، مما هدد الطريق التجارى عبر بحر عمان (الخليج الفارسى) وقلل من أهميته ، وزاد بالتالى من أهمية البحر الأحمر ، وأدى إلى زيادة النشاط الملاحى فيه .

٥ ـ العلاقات اليمنية المصرية بعد احياء الخلافة العباسية فى مصر :ـ

عمل بنو رسول على الارتباط بالخلافة العباسية فى بغداد ، والحصول على تقليد من الخليفة بالاعتراف بملكهم ، وذلك كاجراء حتمى لشرعية حكمهم ، وهو أمر اعتاده سلاطين الولايات والمناطق الأخرى ، وحرصوا عليه باعتبارهم نوابا عن الخليفة العباسى فى الحكم .

ولهذا حرص نور الدين عمر مؤسس دولة بنى رسول على الحصول على تقليد من

---

(١) الخزرجى : العقود جـ ١ ص ٢١٣ ، وقارن ، العسجد ص ٢٩٥ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٧٩ أ .

الخليفة فى بغداد ، وعلى هذا الأساس ارتبطت دولته بالولاء للخلافة العباسية[١]. كما عمل على اكتساب رضاء الخليفة عليه فأرسل إليه الهدايا ، ولم يترك مناسبة إلا وعمل على إظهار ولائه للخليفة اكتسابا لتأييده مثلما حدث عندما انتهز فرصة قيام والدة الخليفة بأداء فريضة الحج سنة ٦٤١ هـ / ١٢٤٤ م وأرسل إليها الهدايا الجليلة ، ولم يدخر نائبه فى مكة جهـــدا فى القيام على خدمتها وراحتها [٢] . وبلغ من مكانة الخليفة العباسى وقدره عند بنى رسول ، أنه لما قام نور الدين فى أواخر عهده بتحليف العسكر لابنه المفضل ، غضب المظفر يوسف الابن الأكبر ، وعزم على التوجه إلى الخليفة العبـاسي ليشكو إليه تفضيل أبيه نور الدين لأخيه الأصغر عليه ، وليتمكن من الحصول على حقه الشرعي فى السلطنة عن طريق الخليفة نفسه . ولكن مقتل نور الدين المفاجىء حال دون توجه المظفر إلى بغداد بعد أن أصبح محتما عليه أن يكافح فى سبيل الاستيلاء على هذا الحق بالقوة [٣] ، ومع ذلك فما أن استطاع المظفر التخلص من منافسيه وخفت حدة التوتر فى اليمن ، حتى بادر بالعمل للحصول على تقليد منه وتشريف بالنيابة عن الخليفة ، وأرسل لهذا الغرض سفارة إلى بغداد سنة ٦٤٩ هـ / ١٢٥١ م ، ولم يتردد الخليفة العباسى فى إجابته إلى طلبه [٤] ، وأمر بكتابة منشور بذلك أرسله إليه مع خلعة وأربعين ألف دينار[٥] ، فلما وصل

---

(١) انظر ماسبق ص ٣٤٤ .

(٢) ابن حاتم . السمط ص ٤٦ ، الخزرجى : العسجد ص ٢٣٦ .

(٣) انظر ما سبق ص ١٢٣ .

(٤) زبارة : أئمة اليمن ج ١ ص ١٦٣ .

(٥) ابن الديبع : قرة العيون ص ٧٣ ب .

رسول الخليفة إلى المظفر ألبسه الخلعة وقرأ عليه منشور الخليفة . وعاد الرسول إلى بغداد مزودا بالهدايا والتحف التى أعدها المظفر للخليفة [١] .

ومن الجدير بالتذكر أن الخليفة المستعصم العباسي كتب إلى المظفر يأمره بالقضاء على الإمام الزيدى أحمد بن الحسين [٢] ، والظاهر أن المظفر استغل ذلك ليثبت ولاءه للخليفة ويظهر كفايته فى القضاء على القوى المعادية للعباسيين ، وتمثلها فى اليمن قوى الزيدية ، ولهذا تضمن كتابه الذى أرسله إلى الخليفة تفاصيل تتعلق بما بذله من جهود للقضاء على قوة الامامة الزيدية[٣] .

وبسقوط الخليفة فى بغداد ، وقيام الظاهر بيبرس بإحيائها فى القاهرة ، أصبح السلطان بيبرس – بموجب تقليد الخليفة له – صاحب الحق الشرعى فى حكم البلاد التى نص عليها التقليد ومن بينها اليمن [٤] . وهذا يعنى أن بلاد اليمن قد تحولت من الاستقلال إلى التبعية المباشرة لسلطان مصر المملوكي ، وهو أمر لن يقبل به سلاطين بنى رسول ، بعد أن قاموا بجهود كبيرة فى سبيل الاستيلاء على اليمن والاستقلال بحكمها ، بل وامتد نفوذهم إلى الحجاز ، وتدعم ملكهم بتقليد من الخليفة العباسى المستنصر ثم المستعصم من بعده ، واكتسبوا بذلك الصفة الشرعية من خلافة بغداد . ولهذا فإن إغفال خليفة

---

(١) الخزرجى : العقود جـ ١ ص ٩٩ – ١٠٠ ، المسجد ص ٢٥٥ .

(٢) الخزرجى : العقود ص ٩٩ ، العسجد ص ٢٥٥ .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية جـ ٣ ص ١٨١ ، زبارة أئمة اليمن ص ١٦٣ .

(٤) انظر ماسبق ص ٢٧٩ .

القاهرة لحقهم ، وإضافه اليمن إلى ملحقات السلطنة المملوكية ، لم يقابل بالرضاء من السلطان المظفر الرسولى .

وعلى الرغم من ذلك الموقف ، فقد تحسنت العلاقات اليمنية المصرية ، ويرجع ذلك إلى ما أصبح يتمتع به السلطان المملوكى من قوة مكنته ، ليس فقط من الصمود أمام جحافل المغول ، وإنما تحقيق الانتصارات الساحقة عليها وعلى غيرها من القوى المعادية كالصليبيين ، مما أكسب سلطان مصر تقدير واحترام السلطان الرسولى المظفر الذى بلغ من احترامه وتقديره له أن رفض مشورة بعض خواصه بتقديم الأعلام اليمنية على أعلام السلطان بيبرس ؛ وقال كلمته المشهورة « أترانى أؤخر أعلام ملك كسر التتار بالأمس ، وأقدم أعلامى لحضورى » [1] .

وهكذا ، وتفاديا للمخاطر التى قد تتهدده من قبل دولة المماليك ، عمل السلطان المظفر يوسف على تحسين العلاقات مع السلطان بيبرس اكتسابا لتأييده ، وقد تجاوزت العلاقات حد تبادل السفارات والهدايا ، إلى قيام الظاهر بيبرس سنة ٦٦٦ هـ / ١٢٦٨ م بإرسال أمان إلى المظفر ضمانا لعدم تعرض المماليك لبلاده ، كما أرسل إليه سنجقا وخلعة وشعار السلطنة [2] . « ورسم

---

(١) الخزرجى : العقود جـ ١ ص ١٣٤ ، أحمد مختار العبادى : قيام دولة المماليك ص ١٦٨ .

(٢) ابن شاهين الظاهرى : زبدة كشف الممالك ص ٨٩ ، أحمد مختار العبادى : نفس المرجع ص ١٩٠ .

أن يكاتب بالمقام العالي المولوى السلطاني » . (١) وذلك على الرغم من أن سلاطين المماليك كانوا ينكرون على ماعداهم التلقب بالسلطنة (٢) .

وكان المظفر حريصا على إظهار ولائه للسلطان المملوكي درءا للمخاطر التي قد تهدد عرشه وبلاده من ناحيته ، ولهذا استمرت علاقات الود بينه وبين السلطان سيف الدين قلاوون ، وعمل المظفر على تدعيمها ، ولم يتردد في مهاداته ومهادنته ، ففي سنة ٦٨٠ هـ / ١٢٨١ م وصلت سفارة السلطان المظفر إلى مصر بهدية نفيسة ، فقبلها قلاوون ، كما استجاب لطلب المظفر في أمان (٣) ، أمر قلاوون بكتابته على قميصه ووقعه هو وابنه الملك الصالح ، ومما ورد فيه : « إنا داعون له ولأولاده ، مسالمون من سالمهم ، معا دون من عاداهم ، ناصرون من نصرهم ، خاذلون من خذلهم . لانرضى له ولأولاده إلا مارضيناه لأنفسنا ، وإنا لانقبل في حقه سعاية ساع ولا قول واش ولا تناله منا مضرة مدى الدهر وأعمارنا ، مادام ملازما لشروط مودتنا » (٤) .

وعلى الرغم من تمسك سلاطين بني رسول بالدعاء لخليفة بغداد ، وعدم

---

(١) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك جـ ١٢ ص ١٢ ب ، العيني : عقد الجمان مجـ ٤٥ ص ٥٤٥ .

(٢) انظر ماسبق ص ٣٦٦ وما بعدها .

(٣) المقريزي : السلوك جـ ١ ص ٧٠٣ ، القلقشندي : صبح الأعشى جـ ٥ ص ٣١ ، النويري : نهاية الأرب جـ ٢٩ ص ٢٧٩ أ .

(٤) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة جـ ٩ ص ١٢٣ أ ـ ب ، محمد جمال الدين سرور : دولة بني قلاوون ص ١٢٠ ، سعيد عاشور : العصر المماليكي ص ٢٣٣ .

ذكر خليفة القاهرة عند الدعاء على منابر اليمن (١) ، فلم يكن سلاطين المماليك على استعداد لخوض معارك لهذا السبب ، طالما تمسك بنو رسول بتقديم ماالتزموا به من أموال وهدايا سنوية ، تتأكد بها المودة بين الجانبين (٢) ، وهكذا فلم يكن ليثار موضوع الخطبة إلا عندما تتأزم العلاقات نتيجة امتناع سلاطين اليمن عن إرسال ما اعتادوه من هدايا وأموال (٣) .

وأيا ما كان الأمر فقد استمرت رسل المظفر يوسف فى الترددعلى السلطان المنصور قلاوون بالهدايا والتحف ، ففى سنة ٦٨٤ هـ / ١٢٨٥ م أرسل المظفر إلى قلاوون هدايا نفيسه متنوعة من تحف الهند والسند واليمن (٤) ، تشتمل على الخيول العربيه الأصيلة ، وفيل وكركدن وعدد من البغاوات ، وعلى ثلاث قطع كبيرة من العود الذى بلغ من ثقل القطعة الواحدة منها أن كان يحملها رجلان ، بالإضافه إلى الكثير من الرماح والسيوف وأصناف البهار والأقمشة وغيرها من التحف . فقبل قلاوون الهدية وأنعم على الرسل (٥) .

---

(١) انظر ، الخزرجى . العقود اللؤلوية جـ ١ ص ٦٩ ، العامرى : غربال الزمان ، حوادث سنة ٦٥٦ هـ ، أحمد مختار العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ص ١٣٢ ، Arnold : The Caliphate, p. 87 .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ٢١ ، جـ ٧ ص ٣٤٠ .

(٣) النويرى : نهاية الأرب جـ ٨ ص ١٥٢ - ١٥٨ ، القلقشندى : جـ ٦ ص ٤٢١ - ٤٢٦ ؛ جـ ٧ ص ٣٤٨ - ٣٥١ ، ص ٣٦٣ - ٣٦٥ .

(٤) ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور ص ١١٧ .

(٥) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك جـ ١٥ ص ٢٢ أ ، النويرى : نفس المصدر جـ ٢٩ ص ٢٨٥ ب .

بالخام وأرسل معهم فى مقابل ذلك هداياه إلى السلطان المظفر [١] .

ومن الجدير بالذكر أن المظفر لم يترك فرص الانتصارات المملوكية على المغول والصليبيين وغيرهم تمر دون أن يبعث بتهانيه إلى السلطان المملوكى [٢]، كما حرص السلطان المملوكى بدوره على الكتابة إلى صاحب اليمن مبشرا بانتصاراته وفتوحاته [٣] أو رادا على تهانى سلطان اليمن [٤] .

غير أن العلاقات الودية التى سادت بين مصر واليمن لم تلبث أن انتابها الفتور بعد وفاة المنصور قلاوون ، إذ توقف المظفر عن مهاداة صاحب مصر ، الأمر الذى أثار غضب الأشرف خليل بن قلاوون عليه ، فأرسل إليه سنة ٦٩٣ هـ / ١٢٩٣ م كتابا شديد اللهجة صحبة أحد تجار الكارم عنفه فيه وهدده ، وعرض له باشتغاله باللهو والطرب ، وختمه بقوله ، : « لأخرجن اليمن عن عينك وأقتل من مال إليك أو والاك » وعنون الرسالة بعبارة : « يصل إلى الخارجى باليمن » . كما أمر التاجر أن يحذره باستعداده لتجهيز حملة إذا لم يأته من السلطان المظفر كتاب يعتذر له فيه ، ويعود إلى إرسال ما اعتاده من الهدايا مرة أخرى . إلا أن المظفر لم يقبل تلك الرسالة منذ طالع عنوانها ، وردها إلى

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٧٢٩ .

(٢) ابن عبد الظاهر : نفس المصدر ص ١٤٤ .

(٣) ابن عبد الظاهر : نفس المصدر ص ١٨٦ — ١٨٩ ، الفيومى: نثر الجمان فى تراجم الأعيان — مخطوط بدار الكتب رقم ١٧٤٦ تاريخ — جـ٢ ص ٣٢٢ ، القلقشندى : جـ ٧ ص ٢٥٣ — ٢٥٧ ، ٢٦٠ — ٢٦٢ ، ص ٢٦٦ — ٢٧٠ .

(٤) القلقشندى : جـ ٧ ص ٢٤٤ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٣١٣ .

التاجر بحجة أنها ليست موجهة إليه ، وطلب منه فى تهكم البحث عن الخارجى المقصود لتوصيلها إليه أو القيام بردها إلى مرسلها فى حالة عدم الاهتداء إليه. فقام التاجر بمشافهة السلطان بفحوى الرسالة . فرد عليه المظفر بقوله : « هذا كلام قز غلب عليه الجهــــل »[1] . ولم يلبث المظفر أن توفى سنة ٦٩٤ هـ / ١٢٩٥ م ، ولم يعمر ابنه الأشرف وخليفته فى السلطنة طـويلا إذ توفى سنة ٦٩٦ هـ / ١٢٩٦ م .

ثالثا : العلاقات اليمنية المصرية بين سلاطين بنى رسول – بعد المظفر – وبين سلاطين دولتى المماليك البحرية والجراكسة :—

١ – فى عهد المؤيد داود الرسولى :—

تدهورت العلاقات اليمنية المصرية بعد وفاة المنصور قلاوون ، إلى حد أن السلطـان الأشرف خليــــل بادر بالرحيـل الى قوص فى أوائل سـنة ٦٩٢ هـ / ١٢٩٢ م ، قبل إرسال خطـاب التهديد إلى المظفر الرسـولى ، وأمر بتجهيز حملة لغزو اليمن[2] . والظاهر أن العلاقات لم يطرأ عليها أى تحسن فى عهد الأشرف بن المظفر ، ذلك أن السلطـان المملوكى المنصور حسـام الدين لاجين أمر هو الآخر بتجهيز حمـلة فى سنة ٦٩٧ هـ / ١٢٩٨ م لفتح اليمن ، ولـكن قدر لها ألا تتم[3] كسابقتها لعـدم امتداد سلطنة كل من الأشرف

---

(١) العينى : عقد الجمان جـ ٥٦ ص ٨١ .

(٢) ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور ص ٢٧٢ ، المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٧٨٣ .

(٣) ابن أيبك : كنز الدرر جـ ٨ ص ٢٩٦ .

خليـــل ولاجين ، والحقيقة فإن إحساس سلطان اليمن بضعف السلطنة المملوكية بعد قلاوون ، واشتغال المماليك بالتنافس على السلطنة ، كان دافعا للسلطان الرسولي على التوقف عن ارسال هداياه إلى هؤلاء السلاطين الضعاف.

وعلى الرغم من احتمال استمرار العـــلاقات العدائية بين اليمن ومصر إلى بداية سلطنة المؤيد داود الرسولى ، فإن هذه العلاقات كانت تبدو وكأنها آخذت في التحسن منذ سلطنة الناصر محمد بن قلاوون الثـانية ، سيما بعد أن أثبت مقدرته بالانتصار على التتار فى موقعة مرج الصفر سنة ٧٠٢ هـ/١٣٠٣م فلما وصل رسل الناصر محمد بالبشرى إلى اليمن ، استقبلهم السلطان المؤيد الرسولى وأعيان دولته استقبالا حافلا ، ودقت الطبول تعبيراً عن الفرحة والسرور بهذا النصر ، وتبارى الشعراء فى التغنى به وبالغ السلطان فى إكرام السفراء والإنعام عليهم ، وأرسل معهم كتابا يهنىء فيه السلطان المملوكى (١).

ونستدل من الأحداث أن بنى رسول كانوا يعملون على إظهـار ولائهم للسلطان المـــلوكى ويخطبون وده طالما كان قويا ، ولكن علاقاتهم بمصر لاتلبث أن يسودها الفتور فى عهود السلاطين الضعاف ، فطوال عصر المظفر يوسف فى اليمن إلى نهاية حكم المنصور قلاوون فى مصر ، سادت العـلاقات الودية بين البلدين ، ولكنها لم تلبث أن تأزمت بعـد وفاة قلاوون لضعف مركز سلاطين المماليك إلى نهاية القرن الثامن الهجرى ، ونشوب الصراع حول السلطنة ، التى أصبحت مطمعا لكثير من أمراء المماليك منذ أيام سلطنة

---

(١) الخزرجى : العقود جـ ١ ص ٣٤٨ - ٣٤٩ ، العسجد ص ٣٤٧ -٣٤٨ ؛ ابن الديبع : قرة العيون ص ٦٨٦ ب - ٦٨٧ أ .

الناصر محمد الأولى، ولهذا استخف المؤيد الرسولى به وقطع عنه الهدايا التى اعتاد سلاطين بنى رسول إرسالها بصفة دورية إلى مصر ، ولم يكتف بذلك بل أساء إلى التجار المصريين الذين اتفق وجودهم بعدن ، وترتب على ذلك أن توجهت رسل الناصر بن قلاوون بكتب التهديد والوعيد إلى السلطان المؤيد الرسولى [١] ، كما قام الخليفة المستكفى العباسى (٧٠١ - ٧٤٠ هـ / ١٣٠٢ - ١٣٣٩ م) بإرسال خطاب له يستنكر عليه فيه تصرفاته ، ويلومه عليها ، ويأمره بإرسال الهدايا المقررة [٢] .

وتشير المصادر اليمنية إلى أن المؤيد أعد سفارة إلى مصر فى سنة ٧٠٤ ، ولكنه أجل إرسالها عندما بلغته أخبار بسيطرة المماليك على سلطانهم وعبثهم به [٣] . غير أنه لم يلبث أن أرسل الهدايا فى نفس العام . وبلغ من كثرة ما اشتملت عليه من أصناف أن نقلها استوعب مركبين ، كما أن مثل تلك الهدية كان يتم إرسالها كل عامين أو ثلاثة [٤] ، وأن ذلك كان له أعمق الأثر فى نفس السلطان المملوكى الذى تشير المصادر اليمنية إلى اغتباطه البالغ وتكريمه لرسل صاحب اليمن [٥] .

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٧ ص ٣٤٨ - ٣٤٩ .

(٢) النويرى : نهاية الأرب حـ ٨ ص ١٥٢ - ١٥٨ ، المقريزى : السلوك حـ ٢ ص ٧ ، القلقشندى : صبح الأعشى : حـ ٦ ص ٤٢١ - ٤٢٦ .

(٣) الخزرجى : العقود حـ ١ ص ٣٦٠ - ٣٦١ .

(٤) الخزرجى : العسجد ص ٣٤٩ - ٣٥٠ .

(٥) الخزرجى : العقود حـ ١ ص ٣٦٧ ، العسجد ص ٣٥٢ .

ولكن يبدو أن المصادر اليمنية قد بالغت كثيرا فى تقييم تلك الهدايا . فالمصادر المصرية تشير إلى أن الهدية التى وصلت إلى مصر سنة ٧٠٥ هـ / ١٣٠٥ م ، كانت دون المعتاد ، وأنها لم تحظ بقبول السلطان الناصر [١]، وأثارت غضبه فأعاد رسل اليمن بغير جواب [٢] . ولم يلبث أن أرسل رسله إلى المؤيد بالتهديد بغزو بلاده ، إذا لم يقم بإرسال الهدية المقررة كالمعتاد [٣] . ولكن المؤيد الرسولى لم يعبأ بذلك « ولا أجاب عن الكتاب بشىء » [٤] . ولم يكتف بذلك بل بالغ فى تحديه للسلطان الناصر محمد [٥] ، فقام بتحريض شريف مكة على العصيان ، وعمل على كسب وده عن طريق إرسال الأموال إليه ليقدم اسمه فى الخطبة قبل سلطان مصر [٦] ، كما قام بمنع الكارم [٧] .

وأمام موقف المؤيد وتحديه ، أمر السلطان الناصر سنة ٧٠٧ هـ / ١٣٠٧م

---

(١) النويرى : نهاية الأرب حـ ٣٠ ص ١١٥ ، الفيومى : نثر الجمان حـ ٣ ص ٨٠ ، المقريزى : السلوك حـ ٢ ص ٢٠ – ٢١ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة حـ ٨ ص ٢١٧ .

(٢) النويرى : نفس المصدر والجزء والصفحة ، الفيومى : نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٣) ابن تغرى بردى : نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٤) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٢١ .

(٥) ابن تغرى بردى : نفس المصدر والجزء ص ٢٢٦ .

(٦) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٣٢ – ٣٣ .

(٧) الخزرجى : العقود حـ ١ ص ٣٧٤ ، العسجد ص ٣٠٦ .

بتجهيز حملة لغـــزو بلاد اليمن ، وبدأت الاستعدادات لتلك الحملة بإنشاء المراكب تجهيزها ، ولكن العلماء والقضاة وذوى المصلحـة من التجار عن أقنعوا السلطان بضرورة الكتابة للمؤيد أولا (١) ، وتأجيل الحملة انتصاراً لما تأتى به الرسل من أخبار (٢) . وهكذا فلم يكتب لتلك الحملة أن تخرج من مصر (٣) وخاصة نتيجة لاضطراب الأحوال الداخلية فى البلاد (٤) وتنازل الناصر محمد عن السلطنة للمرة الثانية لصالح بيبرس الجاشنكير في شوال سنة ٧٠٨هـ (٥)/مارس ١٣٠٩م . ويذكر العينى أن الناصر محمد بن قلاوون أرسل رسولا آخر إلى اليمن سنة ٧٠٩هـ/١٣١٠م وذلك فى بداية سلطنته الثالثة ، فى محاولة لعودة العلاقات مع اليمن إلى سابق عهدها ، ولكن الرسول توفى عقب

---

(١) القلقشندى : نفس المصدر حـ ٦ ص ٤٢٢ – ٤٣٦ .

(٢) النويرى : نفس المصدر والجزء ص ١٧٠ ، النيـــوى : نفس المصدر والجزء ص ٨١ ب – ٨٢ أ ، المقـــريزى : نفس المصدر والجزء ص ٣٧ – ٣٨ .

(٣) أبو الفـــدا : المختصر حـ ٤ ص ٥٤ ، ابن الوردى : تاريخ ابن الوردى حـ ٢ ص ٢٥٥ – ٢٥٦ ، الخزرجى : العقود اللؤلؤية حـ ١ ص ٣٧٣ العسجد ص ٣٥٦ ، ابن تغرى بردى : النجوم حـ ٨ ص ٢٦٦ ، ابن الديبع : قرة ص ٨٧ أ .

(٤) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة حـ ٩ ص ١٢٣ ، محمد جمـال الدين سرور : دولة بنى قلاوون ص ١٣٣ ، سـعيد عاشور : العصـر المماليكى ص ١٣٣ .

(٥) المقريزى : السلوك حـ ٠ ص ٤٤ وما بعدها .

وصوله إلى قوص ، في طريق عودته إلى القاهرة (١) .

وهكذا كان للصراع بين أمراء المماليك وتحكمهم فى الناصر محمـــد ، واعتزاله السلطنة مرتين ، أثره فى تشجيع المؤيد الرسولي عـلى انتهاج تلك السياسة ، والدليل على ذلك أنه ما أن عاد الناصر محمـد إلى العرش للمرة الثالثة (٢) ، وتمكن من إقرار الأوضاع ، حتى توافدت رسل صاحب اليمن سنة ٧١١هـ/١٣١١م إلى القاهرة بالهدايا والتقادم، فقبلها الناصر وأكرم الرسل وأنعم عليهم بالخلع المناسبة (٣) ، ووزع تلك الهدية على الأمراء « الأكابر والأصاغر » (٤) ، وتوالت الهدايا اليمنية على الناصر محمد فى سنة ٧١٢هـ (٥) ، كما وصلت هدية أخرى سنة ٧١٥هـ (٦)/١٣١٥م، وجهز الناصر بدوره الرسل بما جرت به العادة من الهدايا (٧) . وفى سنـة ٧١٦هـ/١٣١٦م وصلت هدية أخرى عن طريق عيذاب ولكن عربان المنطقـة قطعوا الطريق على الرسل وانتهبوا ما معهم (٨) ، الأمر الذى دعا الناصر إلى تجهيز حمـــلة لتأديب عرب

---

(١) العينى : عقد الجمان جـ ٥٨ ص ٢٠٢ .

(٢) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٧٢ .

(٣) النويرى : نهاية الأرب حـ ٣٠ ص ٢٥٦

(٤) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ١٠٧ و ١١١ .

(٥) ابن دقماق : الجوهر الثمين فى سير الملوك والسلاطين ـ مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٤٩٢ تاريخ تيمور ـ ص ١١٥ .

(٦) العينى :عقد الجمان جـ ٦٠ ص ٥٦

(٧) النويرى : نفس المصدر والجزء ص ٣١٤ .

(٨) الفيومى : نثر الجمان ج ٣ ص ١١٤ ب .

عيذاب والانتقام منهم ، والعمل على استرداد ما استولوا عليه (١) . ويشير العينى(٢) إلى خبر وصول سفارة أخرى سنة ٧١٨هـ/١٣١٨م، ولكن السلطان المملوكي أمر بردها فغرقت المركب التى استقلها السفير اليمنى ، ولكنه تمكن من النجاة لاستخدامه قاربا كان على سطح المركب (٣) . ولم يزودنا العينى بتفسير للأسباب التى دعت الناصر إلى رد المركب بالهدية ، وقد يكون ذلك لعدم عودة الاستقرار فى منطقة عيذاب .

أما آخر تلك الهدايا التى بعث المؤيد الرسولى بها إلى مصر فكانت سنة ٧٢٠هـ(٤)/١٣٢٠م ، ولم يعمر المؤيد بعدها طويلا إذ توفى سنة ٧٢١هـ/١٣٢١م . وبوفاته انتهت مرحلة تذبذبت فيها العلاقات اليمنية المصرية ما بين العداء وما صحبه من تهديد صاحب مصر واستعداده لغزو اليمن، إلى تحسن نسبى فى تلك العلاقات ، اقتصر فى معظمه على إرسال الهدايا إلى مصر بصفة غير منتظمة .

٢ ـ فى عهد المجاهد الرسولى :

اتسمت سلطنة المجاهد على بن المؤيد داود على اليمن منذ بدايتها بكثرة

---

(١) النويرى : نفس المصدر والجزء ص ٣٢٧ – ٣٢٨ ، المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ١٤٥ و ١٦٢ .

(٢) العينى : نفس المصدر والمجلد ص ١٤٧ .

(٣) العينى : نفس المصدر والمجلد ص ١٤٧ .

(٤) الفيومى : نفس المصدر والجزء ص ١٢٥ أ ، المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٢٠٧ .

الاضطرابات الداخلية (١) ، ولذلك تعتبر فترة حكمه من أسوأ الفترات التى مرت بها بلاد اليمن ، فقد نازعه عمه المنصور أيوب بن الأشرف السلطنة واعتقله واستولى عليها منه ، ولكن المجاهد لم يلبث أن تمكن من استعادة ملكه وقام بدوره باعتقال عمه . ولكن الظاهر عبد الله ابن عمه المنصور أيوب عمد إلى التحصن فى حصن الدملوة المنيع وواصل ما عجز عنه أبوه المنصور ، واستطاع السيطرة على معظم البلاد حتى لم يبق للمجاهد سوى حصن تعز الذى أصبح محصورا فيه (٢) . فلما عجز المجاهد عن استعادة السيطرة على البلاد ، ولم يجد أمامه من مخلصه لجأ إلى مراسلة السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، ووفدت رسله إلى البلاط المملوكى فى سنة ٧٢٤ ﻫ / ١٣٢٤ م ليستنهم بصاحب مصر (٣) ، ويطلب معونته العسكرية لتثبيت سلطنته

(١) انظر ، الجندى : السلوك ص ٤٥٧ وما بعدها ؛ النويرى : نهاية الأرب حـ ٣١ ص ١٧٧ وما بعدها ، أبو الفدا : المختصر حـ ٤ ص ٩٤ وما بعدها ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ١١٦ وما بعدها ، ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات حـ ١ ص ٢١٥ ، السبكى : طبقات الشافعية حـ ٦ ص ١٠٣ ، الخزرجى : العقود حـ ٢ ص ٢ وما بعدها ، العسجد ص ٢٨٧ وما بعدها ، العقد الفاخر حـ ٢ ص ٣٩ وما بعدها ، المقريزى السلوك حـ ٢ ص ٢٣٤ و ٢٣٨ ، العينى : عقد الجمان جـ ٦١ ص ٣٥٣ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم حـ ٩ ص ٢٥٤ ، المنهل حـ ٣ ص ١٧٠ ، حوادث الدهور ص ٣٧٥ . الأهدل : تحفة الزمن ص ١٥٢ ب وما بعدها ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٨٩ وما بعدها ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن حـ ٢ ص ١٣٩ وما بعدها ؛ زبارة : أئمة اليمن حـ ١ ص ٢٢٢ ، .

Playfair : A History of Arabia Felix or Yemen , pp . 90 – 91 .

(٢) أنظر ماسبق ص ٨٩ وما بعدها .

(٣) المقريزى : السلوك حـ ٢ ص ٢٥٤ .

وإقرار الأوضــاع الداخلية فى بلاده (١) . واشترط على نفسه نظير ذلك شروطا منها ، أن يذكر اسم السلطان الناصر فى الخطبة على منابر اليمن (٢) . ولكن السلطان الناصر اعتذر لرسول المجاهد عن عدم إمكان تلبية طلبه (٣) ؛ بسبب تفرق عساكر مصر فى الشام والنوبة ، ولكنه وعد بتقديم المساعدة عندما تسنح الظروف بذلك (٤) ، والظـاهر أنه لم يستجب لطلبه لبعد بلاد اليمن ، وكثرة النفقات التى تستلزمها الحملة إليها . أو أنه رأى أن استمرار تلك الأوضاع المضطربة فى اليمن من شأنها إضعاف دولة بنى رسول داخليا ، وفى ذلك ضمان لكف سلاطينها عن التدخل فى شئون الحجـاز ، وما يتبع ذلك من التوقف عن تأليب أشراف مكة على السلطنة المملوكية ، بالإضافة إلى ضمان عدم زيادة نفـوذ اليمن التجارى . وربما أحجم عن الدخول فى تلك المغـامرة لعدم تأكده من جدية الطلب أو عدم الحاجة إلى تلك المعاونة العسكرية .

ومهما يكن من أمر فقد عاود المجاهد الاستنجاد بمصر سنة ٧٢٥ هـ / (٥)

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم جـ ١١ ص ٩٤ ، المنهل جـ ٤ ص ١٠١ ، القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ٣٢ .

(٢) العينى : عقد الجمان جـ ٢٣ ص ٤٣٠ .

(٣) المقريزى : نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٤) العينى : نفس المصدر والمجلد ص ٤٣١ .

(٥) الفيومى : نثر الجمان جـ ٣ ص ١٨٤ ب ، الخزرجى : العقد الفاخر حـ ٢ ص ٣٩ أ ، المقريزى نفس المصدر والجزء ص ٢٥٩ — ٢٦٠ ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن حـ ٢ ص ١٤٢ .

١٢٢٥ م ، وعمل هذه المرة على إغراء السلطان المملوكى وترغيبه بكثرة أموال اليمن (١) ، وأمام هذا الإلحاح وما صحبه من شروط والتزامات قطعها المجاهد الرسولى على نفسه ، استجاب الناصر محمـــد رغبة فى كسب ولاء السلطان الرسولى لسلاطين مصر ، وتبين له أن الحملة بتجهيزاتها ستكون ـ بعد وصولها لليمن وإقرار الأوضاع فيها ـ دليلا على قوة مصر وعظم إمكاناتها ، وقدرتها على ضرب أى محاولة يقوم بها سلطان اليمن للخروج عن الطاعة والولاء لمصر ولهذا أصدر السلطان الناصر أوامره بإعداد الحملة (٢) بقيادة الأمير بيبرس الحاجب . وكانت الحملة تتكون من ألف فارس (٣) وألف راحلة (٤) ، هذا إلى جانب مازودهم السلطان به من الأموال والأزواد والعتاد وغير ذلك مما يستلزم حمله على اثنين وعشرين ألف جمل (٥) . وغادر بيبرس ورفاقه من كبار الأمراء والعشروات والمقدمين وأعيان الحلقة والمماليك السلطانية (٦) القاهرة

(١) النويرى : نهاية الأرب جـ ٣١ ص ١٨٧ ، ابن خلدون : العـــبر جـ ٥ ص ٤٢١ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٩ ص ٧٨ .

(٢) الفيومى : نثر الجمان جـ ٣ ص ١٨٤ ب ، ابن دقماق : الجوهر الثمين ص ١١٧ ، المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٢٦٠ .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم جـ ٩ ص ٧٨ . (وذكر الفيومى ، أن عدتهم ألف وخمسة وسبعون فارسا) نثر الجمان جـ ٣ ص ١٨٥ ب . (أما الخزرجى فقد ذكر أنهم كانوا ألفين بالإضافة إلى ماذكره صاحب النجوم من الفرسان) انظر العسجد ص ٤٠٧ .

(٤) الخزرجى : العقود جـ ٢ ص ٣٢ .

(٥) الخزرجى : العسجد ص ٤٠٧ .

(٦) ابن أيبك : كنز الدرر جـ ٩ ص ٣٥٠ ، المقريزى : السلوك ج ٢ ص ٢٦٠ - ٢٦١ .

في ربيع الآخر سنة ٧٢٥ هـ / مارس ١٣٢٥ م ومعه عدة تشاريف للملك اليمن وأمراء الحجاز وغيرهم من مشايخ العربان [١] بالإضافة إلى ماحمله من الرسائل لأمراء الحجاز لتسهيل مهمته والقيام بخدمة الحملة، فلما وصل إلى مكه دخلها معتمرا في جمادى الأولى [٢] (ابريل)، وأقام بمكة حتى وصلته مراكب الغلال من مصر إلى جدة [٣]، وأرسل كتب الأمان إلى العربان وأهل مدينة حلي بني يعقوب، وأشراف المخلاف السليماني، موضحا فيها التزامه بما أوصاه السلطان به من حسن معاملتهم وعدم التعرض لهم ولأموالهم [٤]. ولم يبق بيبرس في مكة طويلا إذ غادرها بعد عشرة أيام من وصوله إليها [٥] في طريقه إلى اليمن فوصل إلى مدينة حلي [٦] ومنها سار إلى حرض. وكان بيبرس قد بعث بكتاب إلى المجاهد عن طريق البحر [٧] حمله إليه رسوله

(١) ابن تغرى بردى : النجوم حـ ٩ ص ٧٩، المنهل حـ ٤ ص ١٠١.

(٢) الفيومي : نثر الجمان حـ ٣ ص ١٨٦ أ.

(٣) المقريزي : السلوك ج ٢ ص ٢٦٥.

(٤) الفيومي : نثر الجمان حـ ٣ ص ١٨٦ أ.

(٥) المقريزي : السلوك حـ ٢ ص ٢٦٥.

(٦) الفيومي : نثر الجمان حـ ٣ ص ١٨٦ أ ـ ب (لما وصلت الحملة الى حلي دهش أهلها عندما شاهدوا العساكر وقد طلبت ولبست السلاح ـ وهم الأهالي بالفرار ولم يطمئنوا حتى أكدوا الأمان لهم، وأن العسكر لن يقربوا شيئا من بضائعهم إلا بثمنه. ومما يذكر أنهم حملوا الى بيبرس مائة رأس من الغنم وخمسمائة إردب من الذرة على سبيل الهدية فردها إليهم ولم يقبلها منهم) المقريزي : السلوك حـ ٢ ص ٢٦٥، ابن تغرى بردى : النجوم حـ ٩ ص ٨٤، ٨٥.

(٧) الفيومي : نثر الجمان حـ ٣ ص ١٨٦ أ.

كافور الشبلى الذى عاد من مصر صحبة الحملة (١) . وكانت الأخبار قد وردت إلى بيبرس بخوف أهل زبيد من التعرض لبطش عسكر مصر وأنهم لذلك عادوا إلى طاعة المجاهد ، كما بلغه أن المجاهد موجود فيها (٢) . أما السلطان المجاهد ، فقد استشعر بنذر الخطر عندما بلغه عظم القوة المملوكية القادمة وضخامتها ، وقد ظهر ذلك جليا فى رده على الرسالة التى بعثها إلى بيبرس .

ولكن بيبرس أعاد الكتابة إليه يطمئن قلبه (٣) . وتم وصول الحملة إلى زبيد فى رجب ٧٢٥ (٤) هـ / يونيه ١٢٧٥ م ، فخرج السلطان المجاهد فى أعيان دولته وعسكره لاستقبالها (٥) ، فترجل له أمراء الحملة وساروا فى

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٢٦٥ — ٢٦٦ .

(٢) الفيومى : نثر الجمان جـ٣ ص١٨٦ ب، ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة. جـ ٩ ص٨٥ .

(٣) الفيومى : نثر الجمان جـ ٣ ص ١٨٦ ب . النويرى : نهاية الأرب جـ ٣١ ص ١٨٧ .

(٤) الخزرجى : العقود جـ ٢ ص ٣٢ ، العسجد ص ٤٠٧ .

(٥) الفيومى : نفس المصدر والجزء ص ١٨٧أ (يتفق كل من المقريزى وابن تغرى بردى على أنه لما وصل المجاهد بجنده لاستقبال الحملة ، سخر العسكر المصرى من عسكره لكونهم عراة ، سلاحهم الجريد والخشب ، وسيوفهم على أذرعهم مشدودة ، ويقاد للأمير منهم فرس واحد . وقد بلغ من سوء حالة السلطان أن شوهد وعلى رأسه عصابة ملونة فوق العمامة ، وقد رعب المجاهد عندما شاهد العسكر المصرى بآلة الحرب ، حتى أنه هم أن يترجل لأمراء الحملة فمنعه قائدها ، وترجل له ومن معه من الأمراء المصريين. واصطف العسكر الواصل صفين وسار الأمراء فى خدمة السلطان وأكرموه وأركبوه فى الوسط) . السلوك جـ ٢ =

خدمته إلى خيمة فخمة نصبوها له ، وألبسوه خلعة فاخرة([1]) وكلفتاه ([2]) زركش وحياصة ذهب ([3]) أرسلها السلطان الناصر محمد بن قلاوون إليه ، بالإضافة إلى عمامة بعذبتين ([4]) .

= ص ٢٦٦ ، النجوم حـ ٩ ص ٨٥ (وليس من شك فى أن سوء أحوال العسكر اليمنى إنما يرجع إلى حالة الفوضي والاضطراب التى انتشرت فى بلاد اليمن وقتئذ).

(١) الخزرجى : العقود حـ ٢ ص ٣٢ ، العسجد ص ٤٠٧ ، ابن تغرى بردى : المنهل حـ ٤ ص ١٠٢ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٩٢ .

(٢) الكلفتاه أو الكلفتة أو الكلفة أو الكلوته ، نوع من غطاء الرأس ، استحدثه الأيوبيون بمصر وكانت من الجوخ الأصفر ، وتلبس بغير عمامة . فلما كان عصر السلطان قلاوون أضاف لبس الشاش عليها ، وفى عهد الأشرف خليل بن قلاوون استحدث الكلوته الزركش أو المزركشة (السلوك حـ ١ ص ٤٩٢ ، ص ٨٣٠ هامش رقم ١ فى كل ، القلقشندى : صبح الأعشى حـ ٤ ص ٣٩ — ٤٠) . Dozy : Suppl . , T . 2 , P. 453

(٣) المقريزى : السلوك حـ ٢ ص ٢٦٦ ، ابن تغرى بردى : النجوم حـ ٩ ص ٨٥ . (والحياصة ، هى المنطقة أو الحزام ، تشد فوق الأقبية ، وكانت معظمها من الفضه المطلية بالذهب فى هـذا العصر وربما جعلت من الذهب الخالص ، وقد ترصع باليشم ، ولا ترصع بالجواهر إلا فى خلع السلطان لأكابر أمراء المئين (القلقشندى : صبح الأعشى حـ ٤ ص ٤٠) .
Dozy : op . cit . p . 618

(٤) الخزرجى : العقود حـ ٢ ص ٣٢ ، العسجد ص ٤٠٧ ، ابن تغرى بردى : المنهل حـ ٤ ص ١٠٢ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٩٢ ب . =

وبينما يؤكد كل من المقريزى وابن تغرى بردى دخول المجاهد بالحملة إلى زبيد وسط مظاهر الفرحة بوصولها [١]، يذكر المؤرخ اليمنى الخزرجى أن الحملة عسكرت تجاه باب الشبارق خارج المدينة من الشرقية. وتميل إلى ترجيح رواية الخزرجى، ذلك أن القول ببقاء القوات المملوكية خارج مدنية زبيد، يتفق مع موقف المجاهد وتصرفاته التى كان يحكمها تخوفه المفاجىء من وجود تلك القوات الكبيرة فى بلاده، وخشيته من الأهداف البعيدة التى قد تستهدفها الحملة، كالاستيلاء على البلاد، والإطاحة بعرشه، ويؤيد ذلك الخطاب الذى أرسله المجاهد لبيبرس واعترف له فيه بأنه « سقط فى يده وندم على طلب العسكر وخاف على نفسه» [٢]. ويضاف إلى ذلك أن المجاهد لم يكد يستقبل الحملة حتى سارع بالتوجه إلى تعز تاركا الحملة فى معسكرها، معتذرا عن عدم إمكان استصحاب الحملة معه، بأن الطريق لا يسعهم إذا ما توجهوا معه دفعة واحدة [٣]. هذا إلى جانب كثير من المواقف الأخرى التى قصد بها المجاهد وضع العراقيل أمام الحملة لإرغامها على العودة، فهو لم يقم - بعد استقبال الحملة - ببحث الخطوات التى ينبغى اتخاذها لتؤدى مهمتها التى قدمت - بناء على طلبه -

---

= (والعذبة، هى طرف الشال الذى يحيط بغطاء الرأس وتتدلى منه (الفيروزأبادى: القاموس المحيط).

(١) المقريزى : السلوك حـ ٢ ص ٢٦٦ ، ابن تغرى بردى : النجوم حـ ٩ ص ٨٥.

(٢) الفيومى : نثر الجمان حـ ٣ ص ١٨٦ ب -- ١٨٧ أ.

(٣) الخزرجى : العقود حـ ٢ ص ٣٣ ، العسجد ص ٤٠٨ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢ ب.

من أجلها، كما أنه لم يوفر لعسكرها ما يلزم من الإقامات رغم احتجاج بيبرس، وذلك بحجة خراب البلاد[١] . وفى نفس الوقت منع أهل زبيد العسكر من دخول المدينة أو امدادهم بالأقوات والعلوفات اللازمة [٢] ، ثم أن نائب تعز قام بحجز الرسل الذين بعثهم بيبرس – بناء على موافقة المجاهد – إلى الظاهر عبد الله المنافس للسلطان [٣] . وبالإضافة إلى ما سبق ، أنه لما توجهت القوات بعد ذلك إلى تعز ، لم يسمح المجاهد لهم بدخول المدينة [٤] .

وقد كان لموقف المجاهد أثره فى اعتزام قائد الحملة على سرعة انجاز مهمته ، وبادر بإرسال الرسل إلى الظاهر عبد الله المتحصن بقلعة الدملوة ، يحملون إليه كتاب السلطان الناصر محمد بن قلاوون الذى يحذره فيه من عواقب خروجه عن الطاعة ، ويأمره بالامتثال له [٥] . وصحبهم الشريف عطيفة أمير مكة عينا للمجاهد يبلغه بحقيقة الموقف ، وما إذا كان الهدف من ذلك الاتفاق مع الظاهر عبد الله ضد المجاهد . ومع أن هذا الإتصال تم بعلم المجاهد بدليل أنه أرسل هو الآخر كتابا مع الرسل إلى الظاهر يحثه فيه على الطاعة [٦] ،

---

(١) المقريزي : السلوك جـ ٢ ص ٢٦٦ .

(٢) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٢٦٦ – ٢٦٧ .

(٣) الفيومى : نثر الجمان ص ١٨٧ أ .

(٤) المقريزى : السلوك جـ٢ ص ٢٦٧ ، ابن تغرى بردى : النجوم جـ٩ ص ٨٦ .

(٥) الخزرجى : العسجد ص ٤٠٨ ، الفيومى : نفس المصدر والجزء ص ١٨٧ ب .

(٦) المقريزى : نفس المصدر والجزء والصفحة ، ابن تغرى بردى : نفس المصدر والجزء والصفحة .

إلا أن ما أشيع عن قيام الظاهر بإقناع الرسل بأحقيته في السلطنة وطلب مساعدتهم ، وأنه أمدهم بكثير من الأموال وأغراهم بالقبض على المجاهد(١)، زاد من تخوف المجاهد ، وجعله يتمادى في وضع العقبات أمام الحملة، ويسعى لإخراجهم من اليمن . فبموافقته وتدبيره وتواطئه ، أقدم أهل جبل صبر - المطل على تعز - على قطع المياه عن الحملة ، وأغاروا على معسكرهم ونهبوا ما وصلت إليه أيديهم . فلما قام العسكر المملوكي بمطاردتهم ، حاول المجاهد منعهم فلم يستجيبوا له ، ولكنهم اضطروا للعودة إلى معسكرهم بعد أن بلغهم ما يدبره المجاهد لإحراق المعسكر ونهبه (٢) .

كان ذلك موقف المجاهد من الحملة التي أعدت بناء على طلبه ، ونتيجة إلحاحه ، لمعاونته وتثبيت ملكه ، وهو موقف ساقه إليه سوء تقديره ، وخوفه من استيلاء الحملة على بلاده ، وقد يكون هذا الموقف المتحرج جاء نتيجة تدبير خصوم المجاهد الذين يظهرون له إخلاصهم ، في الوقت الذي يعملون فيه على التخلص منه بزجه في صراع مباشر مع قادة الحملة والسلطان المملوكي ، ذلك أن تخوف المجاهد لم يكن له ما يبرره ، فقد كان عليه أن يقوم أولا بالوفاء بما التزم به وقرره على نفسه من النفقة على الحملة وتوفير القوت الضروري لأفرادها ، والعلوفات اللازمة للدواب (٣)، فلما أخل بذلك واشتكى

---

(١) الخزرجي : العقود جـ ٢ ص ٣٢ ، العسجد ص ٤٠٨ ، ابن تغري بردي : المنهل جـ : ص ١٠٢ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٩٢ب .

(٢) المقريزي : نفس المصدر والجزء والصفحة ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة جـ ٩ ص ٨٦ .

(٣) الفيومي : نثر الجمان جـ ٣ ص ١٨٧ ب ، أبو الفدا : المختصر جـ ٤ ص ٩٧ .

قائد الحملة من قلة المؤن اعتذر المجاهد له ووعد بتدبيرها [١] . ثم عاود قائد الحملة مطالبة المجاهد بتدبير الأقوات بعد أن تعرض جنده للجوع والدواب للموت، فلما اعتذر كالعادة طلب إليه أن يأمر الناس بأن تبيع للجند مايحتاجون إليه، ولكن المجاهد قال: «ماعندى إلا ماتأخذونه بسيوفكم»[٢]. وإذا ما سلمنا بأن المجاهد قد سلك هذا المسلك تجاه الحملة ، ليدفعها إلى الجلاء عن بلاده ، حفاظا على استقلالها ، فإن هذا التحدى السافر لم يكن له ما يبرره ، ذلك أن قائد الحملة لم يكن مزودا بتعليمات من سلطانه بالقبض على المجاهد أو نهب بلاده أو العمل للاستيلاء عليها [٣] . إلا أن قائد الحملة اضطر إلى توفير الاحتياجات الضرورية لعسكره ولو استلزم ذلك استخدام القوة ، بعد أن تعرض الجند للجوع ، والخيل للهلاك . فلما توجه بعض العسكر لشراء احتياجاتهم ، وامتنع الناس عن البيع لهم واعتدوا عليهم ، عمد الجند إلى عقر المزروعات الممتدة حول تعز . ومع ذلك ، فقد كانوا يجنحون إلى السلم ، فكلما وجدوا من يبيعهم الطعام اشتروه منه مقابل دفع الثمن[٤] . وبهذه السياسة أحبط قادة الحملة المملوكية خطة المجاهد فى حملهم على العودة قبل أن ينفذوا مهمتهم . ولم يجد المجاهد أمامه سوى إيجاد ذريعة يتعلل بها لاجلاء العسكر

---

(١) المقريزى : نفس المصدر والجزء والصفحة ، ابن تغرى بردى : نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٢) الفيومى : نثر الجمان ج ٣ ص ١٨٧ ب .

(٣) الفيومى : نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٤) الخزرجى : العقود ج ٣ ص ٣٣ ، العسجد ص ٤٠٨ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٢٩٢ .

المملوكي . أو تدبير مكيدة يتخلص بها من الحملة بأكملها ، فطلب تقسيم العسكر إلى مجموعات وتوزيعهم على المناطق المختلفة في عدن ولحج وأبين وصبيا ومخلاف جعفر ومواضع أخرى متفرقة(1)، وكان طبيعيا ألا يقبل قائد الحملة هذا الطلب لما يتوفر فيه من سوء النية، هذا إلى جانب أن توزيع فرق الحملة على هذا النحو يمزق قوتها ويفتت وحدتها ويعرض العسكر إلى أشلاء يمكن إبادتها بسهولة . فلما أعلن رفضه كتب المجاهد إليه يطلب مغادرة البلاد لانتهاء مهمتهم ، وأنه لم تعد هناك حاجة لبقائهم(2)، وقال : وإن كان السلطان [الناصر] قد رسم لكم بالإقامة فالأمر إليه، وإن كان إنما أرسلكم لنصرتي فارجعوا إلى أبواب السلطان (3) . وامتنع تماما عن الوفاء للحملة بما كان قد التزم به في كتابه للسلطان الناصر محمد بن قلاوون، وقت أن طلب مساعدته ، واعتذر بأن جميع أموال بلاده محفوظة في حصن الدملوة الذي يسيطر عليه منافسه الظاهر بن ... الله ، فأشهد بيبرس قضاة تعز على هذا الموقف ، وبأن المجاهد طلب إليه العودة بالحملة إلى مصر (4) .

وفي شعبان سنة ٧٢٥ هـ / يوليه ١٣٢٥ غادرت القوات المملوكية تعز (5)

---

(1) اليومي : نفس المصدر والجزء ص ١٨٨ أ .

(2) الخزرجي : العقود جـ ٢ ص ٣٣ ، العسجد ص ٤٠٩ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٩٣ أ .

(3) اليومي: نفس المصدر والجزء ص ١٨٨ ب .

(4) اليومي : نفس المصدر والجزء والصفحة ، المقريزي : السلوك جـ ٢ ص ٢٦٨ ، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ ٩ ص ٨٧ .

(5) الخزرجي : العقود جـ ٢ ص ٣٤، العسجد ص ٤٠٩ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٩٠ أ .

فى طريقهـا للعودة ، فكان وصول القوات إلى القاهرة فى ذى القعدة من نفس العام (١) ، فاستقبلهم السلطان الناصر فى القلعة وخلع عليهم. ولكنه لم يلبث أن غضب على بيبرس وسجنه لاتهـامه ـ بغير دليل ـ بالاستيلاء على أموال من صاحب اليمن وغيره ، ولتقاعسه ـ أمام تصرفات المجاهد ـ فى الاستيلاء على اليمن (٢) .

أما السلطان المجاهد الرسولى ، فيبدو أنه خشى انتقام السلطان المملوكى ، فعمد الى إزالة ما ترسب فى نفس السلطان من عوامل الاستيـاء من تصرفاته نحو عسكره ، فأعد ـ فى نفس العام ـ هدية نفيسة بعث بها فى ذى القعدة إلى مصر (٣) . ووصلت إلى البـلاط المملوكى فى ربيع الأول سنة ٧٢٦ هـ / فبراير ١٣٢٦ م ، فأنعم السلطان على الرسول كسابق عادته (٤) ، وكانت عودة تلك السفارة إلى اليمن فى ذى القعدة ٧٢٦هـ / سبتمبر ١٣٢٦ م ، أى بعد مضى عام كامل ، بهدية من ثلاثين مملوكا (٥) . ومن العجب أن المصادر المصرية لم تشر

---

(١) النويرى : نهاية الأرب جـ ٢١ ص ١٨٥ ، ابن أيبك : كنز الدرر جـ ٩ ص ٣٥٠ ، المقريزى : نفس المصـدر والجزء والصفحة ، ابن تغـرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٩ ص ٨٧ ، أبو الفدا : المختصر جـ ٤ ص ٩٧ وما بعدها .

(٢) المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٢٦٨ و ٢٦٧ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٩ ص ٨٧ ، جـ ١٠ ص ١٠١ .

(٣) الخزرجى : العقود جـ ٢ ص ٣٦ ، العقد الفـاخر جـ ٢ ص ٣٩ أ ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ ٢ ص ١٤٣ .

(٤) الفيومى : نثر الجمان جـ ٣ ص ٢٠٦ أ

(٥) الخزرجى : العقـود جـ ٢ ص ٣٦ ، العقـد الفاخر جـ ٢ ص ٣٩ أ ، بامخرمة : نفس المصدر والجزء ص ١٤٤ .

إلى رد الفعل لدى الناصر محمد بن قلاوون من مسلك المجاهد الرسولى إزاء الحملة . ولا نشك فى أن الناصر استاء من موقف المجاهد، ولكنه لم يكشف عن استيائه ، واكتفى بمعاقبة قائد حملته لتقاعسه عن واجبه فى احتلال اليمن ردا على تحديات السلطان الرسولى ، وتأديبا له على موقفه السيء من الحملة التى كانت تستهدف مساعدته .

وتتوقف المصادر عن إمدادنا بالمعلومات عن العلاقات اليمنية المصرية إلى سنة ٧٣٠ هـ / ١٣٣٠م، ففى شوال من تلك السنة (يوليه) وصلت هدية المجاهد الرسولى إلى مصر ، ومن بينها فيلين، ولكن السلطان الناصر لم يحسن استقبال الرسل ، وعنفهم وأمر بسجنهم لتعرض سلطانهم لسفارة هندية [١] كانت فى طريقها إلى مصر واستيلائه على الهدية ، وإقدامه على قتل الرسول الهندى [٢] ، مما أدى إلى وصول سفارة هندية أخرى عن طريق بغداد سنة ٧٣١ هـ [٣] / ١٣٣١ م .

---

(١) يذكر أن هدية صاحب الهند كانت « هدية عظيمة لم يرسل مثلها للملك قبله ، وأنها لما وصلت الى ثغر عدن قتل الرسول الواصل بها باتفاق من الملك المجاهد (وتم الاستيلاء) على تلك الهدية بكمالها وأن الذى أهداه المجاهد ... هو شيء يسير من جملتها » (نثر الجمان جـ ٣ ص ٢٥٥ ب ، ٢٦٢ ب .)

(٢) أبو الفدا : المختصر جـ ٤ ص ١٠١ ، السلوك جـ ٢ ص ٣٢٢ ، الشوكانى : البدر الطالع جـ ٢ ص ١٨٠ . (كان ملك الهند المقصود هو غياث الدين أولوغ خان محمد بن جنان بن طغلق (٧٢٥ – ٧٥٢ هـ) السلوك جـ ٢ ص ٣٢٢ حاشية ١ .

(٣) المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٣٣٣ zettrcsteen (K.W.) =

ومن الجدير بالذكر أن الإمام الزيدي انتهز فرصة تدهور العلاقات بين السلطان المجاهد الرسولي والسلطان المملوكي الناصر محمد ، وأرسل سنة ٧٣٢هـ/ ١٣٣٢ م رسولا إلي مصر[1] ، ويشكو من المجاهد ، ويعدد مثالبه ، ويطالب إمداده بقوة عسكرية للقضاء على بني رسول ، وفي مقابل ذلك وعد بتقديم بعض مايتم الاستيلاء عليه إلى السلطان المملوكي ، ولكن الناصر أجاب بقوله: أنه «لارغبة لنا في السلب وأن النصرة تكون لله خالصة»[2].

وتوضح الرسالة التي بعثها السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون مدى تدهور العلاقات المصرية اليمنية وقتئذ ، إذ أرسل الى المجـــاهد يتهكم عليه ويستهزىء به ، ويهدده بإرسال الجيوش إلي بلاد اليمن « لتقويم أودهـــا ، وتمكين شدها ، وإقامة أمر الملك فيها ، وحسم مادة الفساد من نواحيهـــا ، وتطمين البلاد ، وإنامة الرعايا من الأمن في أوطاد مهاد ؛ ... فإن اليمن وغيره في يمينه ، وهي محسوبة من اعداد ممالكنا المحروسة ، ... ولابد من النظر في أمرها ، وإعمال الفكر في ازاحه ضرها ، وتجريد العساكر المنصورة ، ...فإن المملكة المذكورة توالت عليها المدد، ومضى عليها الأبد ، وهمة من فيها إلى اللهو مصروفة ، وعلى اللذات موقوفة ، وأحكام الجهاد عندهم مرفوضة ، حتى كأن الجهاد ... على غير وجب ، وكأن ماأعد الله من الأجر عليه إنما

= Beitrage zur Geschichte der Mamluken Sultane (Leiden, 1919), p.183, Lane - Poole : A History of Egypt in the Middle Ages, p 310.

(١) القلقشندي : صبح الأعشى جـ ٥ ص ٥٢ .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى جـ ٧ ص ٣٢٧ وما بعدها .

أريد به الذين يكنزون الذهب .. وتفرقت الأموال وما جند الله فيما احتووا عليه من ذلك سهم ولا نصيب ، . . . وأهم الأمور عندنا أمر الغزاة ... وهذه المملكة اليمنية قد اجتمع فيها من الأموال ما يربى عن الحصر والحد ، ويزيد عن الاحصاء والعد ، لا ينفق منها شيء في الجهاد ، ولا يعد منها مصروف إلا بما لا تحمد عاقبته في المعاد ، قد صد عنها جند الله الذين ينفقونها سرا وجهرا ويستنزلون بها أرواح أعداء الله على حكم سيوفهم قسرا وقهرا ، وأبيحت لمن تأبى الجهاد جانبا ، ورضي باللهو صاحبا ، واقتنى السلاح لغير يوم البأس ، واعتني بارتباط الجياد بطرا ورياء الناس .... (١).

وظل التوتر يسود العلاقات بين مصر واليمن ، ولم يطرأ أي تحسن على تلك العلاقات ، لاطمئنان المجاهد بعد أن قضي على منافسه ابن عمه الظاهر عبدالله(٢)، واستقر له الأمر في اليمن دون منافس وتصوره أنه ليس في مقدور مصر المملوكية غزو اليمن ، لانشغال سلطانها بالحروب ضد التتار الذين عرف عددهم وجلدهم ، والفرنج الذين طال وكثر في عداوة الإسلام أبدهم ومددهم ، والأرمن الذين هم أكثر الطائفتين ــ في الظاهر وفاقا ــ وأشد الفئتين في الباطن نفراً ونفاقا (٣) . وإذا اطمأن المجاهد إلى ذلك توقف عن إرسال الهدايا التي أعتاد سلاطين بني رسول ارسالها إلى مصر ، وعمل في نفس الوقت

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى جـ ٧ ص ٣٤٤ وما بعدها .

(٢) الفيومي : نثر الجمان جـ ٣ ص ٢٨٥ ب ، المقريزي : السلوك جـ ١ ص ٣٠٦ .

Pluyfair : A History of Arabia, p. 9. .

(٣) القلقشندي : نفس المصدر والجزء ص ٣٥١ .

على توثيق العلاقات مع أشراف مكة ، وأغدق الأموال عليهم إلى حد أن اسمه أصبح يذكر فى الخطبة بمكة بعد السلطان النـاصر محمد بن قلاوون [(١)] بدلا من السلطان أبى سعيد ملك العراق [(٢)] . وعلى هذا النحو سادت العلاقات الودية بين المجاهد وبين الشريف رميثة أمير مكة الذى لم يتردد فى أن يعهد إلى ابنه الشريف ثقبة بأن يكون فى صحبته عندما عزم على أداء فريضة الحج فى سنة ٧٤٢ هـ [(٣)] / ١٣٤٢ م ، كما خرج الشريف رميثة وأكابر أهل مـــكة لاستقبال المجاهد عند مشارف مكة ، فخلع السلطان الرسولى عليهم وأجزل لهم العطاء [(٤)] . ومن الجدير بالذكر أنه عمر مدرسة بمكة فى الجـانب الجنوبى من الحرم [(٥)] وخلع على أمـيرى الركب المصرى والشامى ، وأبدى رغبته فى أن يكسو الكعبة ، ولكن أشراف مكة لم يمكنوه من ذلك ، خـوفا من انتقام السلطان المملوكي . وسخر أشراف مكة أنفسهم لخدمة المجــاهد ولم يدخروا وسعا لتوفير حمايته خشية أن يتعرض له المصريون بسوء [(٦)] .

وفى سنة ٧٥١ هـ / ١٣٥١ م توجه المجاهد الرسولى للحجاز لتأدية فريضة

---

(١) ابن بطوطة : الرحلة حـ ١ ص ١٠٠ .

(٢) ابن بطوطة : الرحلة حـ ١ ص ١٥٢ ، العينى : عقد الجمان جـ ٦٣ ص ٢١٠ .

(٣) الخزرجى : العسجد ص ٤٣٤ .

(٤) الخزرجى : العقود حـ ١ ص ٧٠ ، العسجد ص ٤٣٥ .

(٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة حـ ١١ ص ٩١ ، المنهـــل حـ ٤ ص ١٠٤ .

(٦) الفاسي : شفاء الغرام حـ ٢ ص ٢٤٧ .

الحج للمرة الثانية [١] ، وبرفقته الشريف ثقبة بن رميثة [٢] - وكان لاجئاً عند المجاهد لانفراد أخيه عجلان بإمرة مكة - فلما اقترب موكب المجاهد من مكة أشيع أنه ينوى الاستيلاء على مكة ، والقبض على الشريف عجـــلان وتنصيب أخيه ثقبة مكانه ، والقيام بكسوة الكعبة بعد انتهـاء موسم الحج وعودة ركب الحاج المصرى [٣] ، فأسرع الشريف عجلان وأبلغ أمير الحج بالأمر [٤] . ولهذا السبب لم يسمح المصريون للمجـاهد أو سلاح داريته بالسير بسلاحهم فى مكة ، ولم يمكنوه من حمل الغاشية [٥] . واتفق الشريف عجلان مع أمير الحاج المصرى على رصد تحركات المجاهد تمهيداً لاعتقـاله ، ثم سنحت الفرصة للقوات المملوكية فى منى فتمكنوا من هزيمة العسكر اليمنى [٦]

---

(١) المقريزى : الذهب المسبوك ص ١١٤ ، ١١٦ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٩٧ أ .

(٢) الخزرجى : العقد الفاخر حـ ٢ ص ٤٠ ب ، بامخرمة : ثغر عـدن حـ ٢ ص ١٤٧ ، زبارة أئمة اليمن حـ ١ ص ٢٤٩ .

(٣) الخزرجى : العقود حـ ٢ ص ٨٣ - ٨٤ ، العسجد ص ٤٤٤ ، ابن تغرى بردى : المنهل حـ ٤ ص ١٠٤ ، القلقشندى : صبح الاعشى حـ ٥ ص ٣٢ .

(٤) ابن تغرى بردى : النجوم حـ ١٠ ص ٢٢٦ .

(٥) المقريزى : السلوك حـ ٢ ص ٨٣١ .

(٦) الفاسى : شفاء الغرام حـ ٢ ص ٢٤٧ ، ابن تغرى بردى : النجوم حـ ١٠ ص ٢٢٦ — ٢٢٧ ،

De, Gaury : Rulers of Mecca,, p. 101 .

ولم يجد المجاهد بداً من طلب الأمان والاستسلام (١) حقناً للدماء ومراعاة لحرمة المكان والزمان (٢) واشترط عليهم عدم التعرض لأحد من الناس بسوء، وسلم نفسه إليهم فأكرموه وسار معهم وسط مظاهر التبجيل والتعظيم، راكبا بغلة إلى محطتهم، وهم مترجلين بين يديه حتى أنزلوه في خيمة أقيمت خصيصا له، وسمح له باصطحاب وزيره الأمير فخر الدين زياد بن أحمد الكاملي (٣)، وتحفظوا على المجاهد وتوجهوا به معتقلا إلى مصر (٤)، فوصلها في العشرين من المحرم سنة ٧٥٢ هـ / ١٨ مارس ١٣٥١ م، وسلطانها يومئذ الناصر حسن ابن محمد بن قلاوون (٧٤٨-٧٥٢ هـ / ١٣٤٧-١٣٥١). فلما مثل المجاهد بين يديه قبل الأرض ثلاث مرات، وكان الأمراء قد قيدوه عندما همـوا بالدخول به على السلطان، فأمر بفك قيده وأكرمه (٥) وأحسن إليه وأجرى

---

(١) المقريزي: السلوك جـ ٢ ص ٨٣٢، ابن تغري بردي. النجوم جـ ١٠ ص ٢٢٧.

(٢) الفاسي: شفاء الغرام جـ ٢ ص ٢٤٧.

(٣) الخزرجي. العقود جـ ٢ ص ٨٥، المسجد ص ٤٤٣، ابن الديبع: قرة العيون ص ٩٧ أ ر.

(٤) الخزرجي: العقد الفاخر جـ ٢ ص ٤٠ أ، ابن تغري بردي: المنهل جـ ٤ ص ١٠٢، العيني: عقد الجمان مجـ ٦٣ ص ٩٠، بامخرمة: ثغر عدن جـ ٢ ص ١٤٨،

De Gaury : op cit. p. 101 .

(٥) الخزرجي: العقد الفاخر جـ ٢ ص ٤٠ أ، الفاسي: نفس المصـدر والجزء ص ٢٤٨، بامخرمة: نفس المصدر والصفحة.

له الرواتب السنية ، وأنزله بالأشرفية بالقلعة (١) وخصص له من يتولى خدمته (٢) . وقد استجاب الناصر حسن لشفاعة بعض كبار أمراء المماليك ووافق على الإفراج عن المجاهد مقابل ٠٠ ألف دينار ، يتولى دفعها فديه له أو ربما كان هذا المبلغ لتغطية نفقات الحملة التي سبق أن جردها الناصر محمد بن قلاوون بناء على طلبه ولمساعدته فى القضاء على منافسه ، أو تعويضا عن الهدايا التي كان قد توقف عن إرسالها إلى مصر ، أو التى كان قد بعث بها صاحب اليمن وسطا عليها أتباعه وكان فى إمكان السلطان المجاهد اقتراض هذا المبلغ من تجار الكارم (٣) ، على أن يتم تسديدها لهم بعد عودته . ولكن الأمراء توسطوا لدى السلطان حتى أعفاه من المال ، وأذن له بالعودة إلى بلاده عن طريق الحجاز (٤) بعد أن التزم بإرسال المقررات السنوية التى التزم

---

(١) الأشرفية ، هى الإيوان المعروف بدار العدل بقلعة الجبل ، أنشأها المنصور قلاوون ، وجددها ابنه الأشرف خليل ، وعرفت باسمه . ثم أعاد الناصر محمد بناءها ، وزاد فيها قبة جليلة وأعمدة عظيمة ورخمها ونصب فيها سرير الملك ، وصنعه من العاج والأبنوس ، ورفع سمك الإيوان وجعل أمامه رحبة فسيحة مستطيلة ، وجعل بالإيوان بابا سريا من داخل القصر (انظر المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢٠٦ ، وجـ ٣ ص ٣٤٠ ، وما بعدها ، السلوك جـ ٢ ص ٨٩، حاشية ٥ ، ابن تغرى بردى : النجوم جـ ٩ ص ٢٦ حاشية رقم ٢ ، عبد الرحمن زكى : قلعة صلاح الدين وما حولها من الآثار – القاهرة ١٩٧١ – ص ٥٤ – ٥٥ .

(٢) المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٨٣٦ – ٨٣٧ .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم جـ ١٠ ص ٢٢٩ .

(٤) الفاسى : شفاء الغرام جـ ٢ ص ٢٠٨ ، المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٨٣٧ – ٨٣٨ .

ينبع رسول بإرسالها إلى مصر (١) ، تعبيرا عن ولائه وطاعته . وأكرم السلطان حسن وفادته ، وخلع عليه وأجزل له العطاء ، كما أمده أمراء المماليك بكثير من الأموال ، واقترض من تجار الكارم (٢) واشترى عددا من المماليك وكثيرا من الخيل والجمال (٣) .

فلما تجهز المجاهد للسفر عهد السلطان حسن للأمير قشتمر شاد الدواوين بمصاحبته فى سفره ، ومراقبة تصرفاته والإبلاغ عن المريب منها (٤) . وخرج المجاهد من القاهرة فى صفر ٧٥٢ هـ / ابريل ١٣٥١ م ، فلما وصل الدهناء من وادى ينبع ، وظن أنه أصبح بعيدا عن دائرة نفوذ السلطان المملوكى ، تطاول عليه ، واتسمت تصرفاته بالإساءة إليه (٥) . فصدرت الأوامر بالتوجه به إلى الشام واعتقاله بحصن الكرك (٦) ، فظل مقيما فيه إلى أن شفع له نائب

---

(١) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٨٣٩ ، ابن تغرى بردى : نفس المصدر والجزء ص ٢٢٩ - ٢٣٠ .

(٢) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٨٣٨ .

(٣) ابن تغرى بردى : نفس المصدر والجزء ص ٢٢٩ .

(٤) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٨٣٩ .

(٥) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٨٤٠ ، ابن تغرى بردى : النجوم جـ ١٠ ص ٢٦٤ .

(٦) الخزرجى : العقد الفاخر جـ ٢ ص ٤٠ أ ، القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ٣٧٢ ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ ٢ ص ١٤٨ .

De Gaury : Rulers of Mecca, p. 101 .

القلعة (١) لدى السلطان الصالح بن محمد بن قلاوون ، الذى كان قد اعتلى دست السلطنة فى جمادى الآخرة سنة ٧٥٢هـ(٢) / أغسطس ١٣٥١ م . فغادر المجاهد حصن الكرك وزار القدس والخليل (٣) فى طريقه إلى القاهرة فوصلها فى شعبان من نفس السنة فخلع السلطان الصالح عليه ، كما أرسل له الأمراء بتقادم كثيرة ، وتوجه إلى بلاده عن طريق عيذاب (٤) ، فوصل إلى اليمن فى ذى الحجة سنة ٧٥٢ هـ / يناير ١٣٥٢ م حيث استقبل استقبالا عظيما ، وأقيمت بمناسبة عودته الاحتفالات والزينات (٥) .

وبمجرد وصول المجاهد بادر بالكتابة إلى السلطان المملوكى يبلغه بتجهيز التقدمات لإرسالها ، وأنه قام بسداد ما كان قد اقترضه من التجار ، وقدم عددا من التسهيلات للمراكب التجارية (٦) غير أنه منعها من الإرساء فى جدة انتقاما من أمراء مكة (٧) . أما الهدية التى أشار إليها فى كتابه ، فقد أرسلها صحبة

(١) ابن تغرى بردى : المنهل جـ ٤ ص ١٠٣ .

(٢) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٨٤٣ .

(٣) الفاسى : شفاء الغرام جـ ٢ ص ٢٤٨ ،
De Gaury : op. cit. P. 101 .

(٤) الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ٢ ص ٤٠ أ ، ابن تغرى بردى : النجوم جـ ١٠ ص ٤٦٤ ، المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٨٥٢ ،
De Gaury : op. cit. p. 101 .

(٥) الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ٢ ص ٨٩ - ٩٠ ، العسجد ص ٤٤٩ - ٤٥٠ ، العقد الفاخر جـ ٢ ص ٤٠ أ ، ابن تغرى بردى : المنهل جـ ٤ ص ١٠٣ ، بامخرمه : تاريخ ثغر عدن جـ ٢ ص ١٤٨ .

(٦) المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٨٠٧ ، ابن تغرى بردى : النجوم جـ ٥ ص ٢٦٥ .

(٧) المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٨٦٧ و ٨٨٨ . الفاسى : شفاء الغرام جـ ٢ ص ٢٤٨ ، الطبرى : الأرج المسكى ص ٤٩ .

ابنه الناصر أحمد (١) ، فلما وصلت الهدية إلى عيذاب أرسل متـولي قوص لإبلاغ السلطان ، واتخذت الاجراءات لاستقبال السفارة (٢) ، وبلغ مقدار ماصرف على الوافدين منذ وصولهم إلى عيذاب حتى دخولهم القاهرة في الحادى والعشرين من ربيع الآخر سنة ٧٥٤ هـ / ٢٦ مايو ١٣٥٣ م مايقرب من مائتى ألف درهم (٣) ، حاشا الخلع وخمسمائة درهم يوميا ، عدا الضيافات التى أقامها أمراء المماليك لهم (٤) . غير أن الهدية لم تحظ بالقبول عند استعراضها ، إذ كانت هدية المؤيد داود للناصر محمد بن قلاوون تضم حوالى ألفى شاش (٥) . وعاد

---

(١) أرسل المجاهد صحبة ابنه الناصر كل من القاضى فتح الدين عمر بن محمد ابن الخطباء والأمير شمس الدين على بن حاتم والطواشى نظام الدين خضر الذى توفى في عيذاب ، فأرسل المجاهد بدله الطواشي صفى الدين الرضوانى ، ولكنه لم يدركهم إلا بعد دخولهم مصر . (الخزرجى : العقود جـ ٢ ص ٩٣ ، العسجد ص ٤٥١ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٩٨ أ) .

(٢) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٨٨٦ .

(٣) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٨٩٣ ،

(٤) المقريزى : نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٥) عرضت الهدية فى بداية الأمر على الأمير طاز بالميدان ، ثم مثل الرسل بهديتهم بين يدى السلطان وكانت تضم ستين رأســـا من الرقيق ـ كانوا فى الأصل ثلاثمائة ، مات الباقون فى أثناء الطريق ـ ومائتى شـاش ، وأربعمائة قطعة صينى ، ومائة وخمسين نافجة مسك (وعاء من الجلد) وقرن زباد (مكحلة بها الزباد وهو نوع من الطيب لمداواة الزكام) وعدة تفاصيل ، وخمسـين قنطارا من الفلفل ، وغير ذلك من الأصناف كالزنجبيل والعنبر والأفاوية ، بالإضافة إلى فيل واحد . كما أرسل هدايا أخرى لبعض كبار أمراء المماليك (المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٨٩٢ ـ ٨٩٣) .

الناصر بن المجاهد بعد أربعة أشهر إلى بلاده (١) .

وفي سنة ٧٥٥ هـ / ١٣٥٤ م أرسل المجاهد هدية أخرى إلى مصر صحبة الطواشي صفي الدين جوهر الرضواني ، ولكن تلك الهدية لم يقدر لها الوصول لغرق السفينة بفعل الشعاب المرجانية في البحر الأحمر (٢) . ويستدل مما ذكره الخزرجي أن سفارة أخرى أرسلها المجاهد في عام ٧٦٣ هـ / ١٣٦١ م أو العام السابق عليه ، ذلك أن الرسل عادوا إلى اليمن في ربيع الآخر ٧٦٣ هـ / فبراير ١٣٦٢ م ، وبصحبتهم بعض أمراء المماليك ، فأحسن المجاهد مقابلتهم (٣) . وهذا يدل على عودة العلاقات الطيبة بين اليمن ومصر ، ويغلب على الظن أن المجاهد حرص — إلى نهاية عهده — على مداراة مصر (٤) .

واستمرت العلاقات الودية سائدة بين اليمن ومصر في عهد الأفضل عباس .

(١) ذكر المقريزي أن الناصر أحمد أخذ معه عند عودته «كثيرا من الصناع والخيالين (المتخصصين في لعبة خيال الظل) والمشعبذين (أي أصحاب المقدرة على إظهار الأشياء على غير أشكالها) والمساخر وأرباب الملاهي » وشدة شديدة قامت عليه بأموال جزيلة . وأنعم عليه السلطان والأمراء بغير نوع من الهدايا والتحف السنية ، وألبسوه الخلع الجليلة ، وبالغوا في إكرامه . وجهز له ما يحتاج إليه من المراكب ، وكتب إلى ولاة الأعمال بإكرامه ، فسار في البحر » (المقريزي : السلوك حـ ٢ ص ٩١٦ — ٩١٧) .

(٢) الخزرجي : العقود حـ ٢ ص ١٠١ ، العسجد ص ٤٥٦ .

(٣) الخزرجي : العقود حـ ٢ ص ١٢١ ، العسجد ص ٤٠٧ .

(٤) القلقشندي : صبح الأعشى حـ ٥ ص ٣٢ .

الرسولى ، وكان على عرش مصر آنذاك السلطان الملك الأشرف شعبـــان ، فأرسل السلطان الرسولى إليه سفارة فى سنه ٧٦٧ هـ (١) / ١٢٦٦ م ، وصلت إلى مصر مزودة بالهدايا والتحف ، فاستقبلها السلطان الأشرف وأنعم على الرسل (٢) وأعادهم إلى بلادهـــم حاملين الهدايا إلى سلطانهم (٣) وأشار المقريزى إلى هدية يمنية أخرى توجه أحد الأمراء لاستقبالها سنة ٧٧١ هـ (٤) / ١٣٧٠ م كما وصلت هدية أخرى سنة ٧٧٥ هـ (٥) / ١٣٧٤ م وبقى أعضاء تلك السفـارة إلى سنة ٧٧٧ هـ / ١٣٧٦ م وعادوا إلى اليمن محملـــين بالهدايا والتحف(٦).

٣ ـ العلاقات اليمنية المصرية بين بنى رسول وسلاطين المماليك الجراكسة :

عاصر السلطان اليمنى الأشرف الثانى اسماعيل بن الأفضل الرسولى قيـام دولة المماليك الجراكسة فى مصر . وجاء قيـــام تلك الدولة فى وقت كانت العلاقات اليمنية المصرية فيه يسودها الوئام والود . وكانت مصر فى تلك الظروف تحرص على تنمية العلاقات الطيبة من أجل تسهيل تجارة العبور فى البحر

---

(١) الخزرجى : العقود حـ ٢ ص ١٣٤ ، العسجد ص ٤٧٦ .

(٢) المقريزى : السلوك حـ ٣ ص ١٢٧ .

(٣) الخزرجى : العقود حـ ٢ ص ١٣٥ ، العسجد ص ٤٧٧ .

(٤) المقريزى نفس المصدر والجزء ص ١٨٧ .

(٥) الخزرجى : العقود حـ ٢ ص ١٥٢ ، العسجد ص ٤٩١ ، المقريزى نفس المصدر والجزء ص ٢٢٢ .

(٦) الخزرجى : العقود حـ ٢ ص ١٥٤ ، العسجد ص ٤٩١ .

الأحمر (١) . وقد عمل السلطان الأشرف الثاني على توطيد أواصر الصداقة والمودة مع السلطان المملوكي الظاهر برقوق ، وتبادل معه الرسل والهدايا تعبيرا عن الصلات الحسنة التي ترتبط بهما الدولتان (٢) . فبعث السلطان

(1) Pilote (E.):L' Egypte au Commencement du Quinzieme Siecle, p. 42 .

(٢) أرسل السلطان برقوق إلى السلطان الأشرف الثاني الرسولي هدية في سنة ٧٨٧ هـ / ١٣٨٥ م . (الخزرجي : العقود جـ ٢ ص ١٨٢ ، العسجد ص ٥١١ .) وأتبعها في العام التالي بهدية أخرى برفقة عدد من صناع الحرير السكندريين للعمل في اليمن . (الخزرجي: العقود جـ٢ ص ١٨٦ ، العسجد ص ٢٥١) وثالثة في العام التالي (الخزرجي : العقود جـ ٢ ص ١٩٣، العسجد ص ٥٢٨) ورابعة سنة ٧٩٠ هـ /١٣٨٨ م «فيها من أصناف المأكول والمشروب والملبوس والمشموم ، ومن التحف شيء كثير . ومن الخيل والبغال وكلاب الصيد وسباع الطير ما يستحسن ويستطرف شيء كثير» (الخزرجي : العقود جـ ٢ ص ١٩٨ ، العسجد ٥٢١) . وفي سنة ٨٠٠ هـ / ١٣٩٩ م وصلت هديتان من مصر إلى اليمن كانت الأولى في صفر ، استقبلها السلطان الأشرف الثاني بنفسه في مدينة زبيد ، فكان يوم وصولها يوما مشهودا . وتضمنت الهدية ثلاثين مملوكا واثنى عشر رأسا من الخيل « بسروج مغرقة وآلة حسنة » وعدة جوار من الروميات والأرمينيات ، وطبيب ماهر من يهود مصر . ومن الملبوس والمشموم والمطعوم شيء كثير لا يدخل تحت الحصر الخزرجي : العقود جـ٢ ص ٢٩٤ - ٢٩٥ ، العسجد ص ٥٦٦) أما الهدية الثانية فكانت في ذي الحجة سنة ٨٠٠ /أغسطس ١٣٩٨ م(الخزرجي :العقود جـ ٢ ص٥٦٩)، وفي سنة ٨٠١ هـ وصلت هدية أخرى: الخزرجي العقود جـ٢ص ٣٠٢ ، العسجد ص ٥٧٠) ، أما آخر تلك الهدايا فوصلت إلى اليمن سنة ٨٠٣ هـ (الخزرجي : العقود جـ ٢ ص ٣٠٧ ، العسجد ص ٥٧٤) وكان السلطان برقوق قد أرسلها قبل وفاته في شوال سنة ٨٠١ هـ / يونية سنة ١٣٩٩ .

الأشرف بالنفيس من الهدايا إلى السلطان الظاهر برقوق (١). وتشير المصادر إلى حرص السلطان برقوق على تأكيد الروابط الودية مع السلطان الرسولى، فكانت هداياه تصل سنويا إلى اليمن منذ عام ٧٨٧ هـ (٢)/ ١٣٨٥ م حتى هدية سنة ٨٠٢ هـ (٣) ١٤٠٠ م، التى أرسلها السلطان برقوق قبل وفاته سنة ٨٠١ هـ ومما يذكر أن هدايا الظاهر برقوق وردت إلى اليمن سنة ٨٠٠ هـ/ ١٣٩٩ م مرتين (٤). وكان السلطان الأشرف يوالي بدوره مهاداة السلطان المملوكي ويتبادل معه الهدايا (٥) وقد بلغ من مكانة السلطان برقوق لدى

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٨ ص ٧٢ – ٧٦ .

(٢) انظر الصفحة السابقة، هامش٢ .

(٣) الخزرجى : العقود جـ ٢ ص ٣٠٧ ، العسجد ص ٥٧٤ .

(٤) الخزرجى : العقود جـ ٢ ص ٢٩٤ – ٢٩٥ ، ٢٩٩ ، العسجد ص ٥٦٦ ، ٥٦٩ .

(٥) أرسل السلطان الأشرف هدية جليلة إلى الظاهر برقوق فى ٧٩٨ هـ/١٣٩٦م (الخزرجى : العقود جـ ٢ ص ٢٨٣ ، العسجد ص ٥٦٢) وكان وصولها الى مصر سنة ٧٩٩ هـ صحبة التاجر الكارمي برهان الدين المحلى الذى تردد بالهدايا بين الجانبين عدة مرات ، واشتملت الهدية على عدد من العبيد والطواشية والجوارى ، وسيف محلى بالذهب ومرصع بالعقيق ، وحياصة (حزام) بعواميد عقيق مكللة بفصوص كبيرة من اللؤلؤ ، ووجه فرس من العقيق ، ومرآة هندية محلاة بالفضة ومرصعة بالعقيق ، وعشرة براشم (براقع) للخيل ، وعدد من الرماح ، وشطرنج من العقيق الأبيض والأحمر ، ومراوح مصفحة بالذهب ، ومن المسك ألف مثقال ، ومثله من العنبر الخام ، وسبعين أوقية زباد ، وغير ذلك من العود والصندل ، وبرانى من الشقد (نوع من الرياحين) ، =

السلطان الرسولى أنه لما وصل الخبر لليمن بوفاته فى المحرم سنة ٨٠٢ هـ / سبتمبر ١٣٩٩ م (كانت وفاة الظاهر برقوق فى شوال سنة ٨٠١ هـ / يونية ١٣٩٩ م) أقيمت صلاة الغائب على روحه بجامع زبيد يوم الجمعة الثالث من المحرم سنة ٨٠٢ هـ، وأمر السلطان الأشرف بقراءة القرآن على روحه لمدة سبعة أيام فى كل من زبيد وتعز وعدن [1].

وتستمر العلاقات الحسنة بين اليمن ومصر بعد برقوق، ويتبادل سلطان كل منهما الهدايا مع الآخر . ففى سنة ٨١٩ هـ / ١٤١٦ م أرسل السلطان الناصر أحمد بن الأشرف الرسولى هدية تحتوى على الكثير من الشاشات الأرز والملابس الحريرية، وغير ذلك من الحرير والصينى والعود واللبان والصندل وسروج الخيل من العقيق بأطراف ذهبية، وقطاط الزباد فلما عرضت تلك الهدية على السلطان المؤيد شيخ وقرىء له كتاب صاحب اليمن أنعم على الرسل كجارى العادة[2]، وأعاد الرسل مكرمين إلى اليمن، حاملين معهم هديته إلى سلطانهم [3]. وتكررت الهدايا بين الجانبين فى عامى ٨٢٠هـ [4]/ ١٤١٧ م، و٨٢٢ هـ [5] / ١٤١٩ م .

= ومن الحرير الخام والبهار والأنطاع والصينى وتحف الجن الشىء الكثير . (ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك جـ ١٨ ص ٩٧ أ ـ ب ، المقريزى : السلوك جـ ٣ ص ٨٧٤ ـ ٨٧٥ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١٢ ص ٦٦-٦٧).

(١) الخزرجى : العقود جـ ٢ ص ٣٠٦ ، العسجد ص ٥٧٢ .

(٢) المقريزى : نفس المصدر جـ ٤ ص ٣٤٥ .

(٣) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٣٦٧ .

(٤) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٣٩٥ .

(٥) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٤٧٩ .

رابعا ـ العلاقات اليمنية مع الدول التجارية الآسيوية وساحل افريقية الشرقى ، واثرها فى انتعاش تجارة عدن والبحر الأحمر :ـ

كان للجهود التى بذلها سلاطين المماليك فى مصر ، وخاصة الظاهر بيبرس ، لتأمين الملاحة فى البحر الأحمر ، وما قام به السلطان المظفر يوسف الرسولى سلطان اليمن للقضاء على القرصنة فى المحيط الهندى ، وتأمين وصول السفن التجارية إلى عدن ، أعظم الأثر فى ازدهار حركة التجارة العالميـة فى عدن والبحر الأحمر .

وقد واصل سلاطين بنى رسول اهتمامهم بتنشيط حركة التجارة،وعملوا على توطيد العلاقات مع الدول ذات المصالح التجارية فى آسيا وإفريقية . وإحساسا بأهمية بلاد اليمن ، وموقعها الهام على طريق التجارة العالميـة ، وضمانا لسلامة التجار ، لجأت الدول التجارية إلى الارتباط بعلاقات الود مع البلاط الرسولى ، وتوافدت رسلهم بالهدايا النفسية إلى اليمن ، حتى أصبحت عـدن قبلة الوافدين وملتقى السفارات [١] ، من الصين والهند وسيلان وقاليقوط [٢] وفارس وعمان والبحرين والحبشه ودول الطراز الاسلامى [٣]

---

(١) Lewis (Bernard) : Egypt and Syria (The Cambridge History of Islam, 1970). Vol I, p 223.

(٢) قاليقوط ، ميناء ومـركز تجارى هام لتجارة التوابل والأحجار الكريمة وغيرها ، وتقع على ساحل ملابار على الشاطىء الغربى للهند ، وسلطانها يعرف بالسامرى ، ويقصدها كثير من الجاليات من مصريين ويمنيين وأحباش وأتراك وفرس وبحرانيين وصينيين وغيرهم (ابن بطوطه : تحفة النظار جـ ٢ ص ١١٥ ـ ١١٦)

(٣) انظر ما يلى ص ٤٣٨ وما بعدها.

بساحل إفريقية الشرقى وغيرها .

١ ـ مع الدول الأسيوية :ـ

آ ـ مع الصين :ـ

وفى سنة ٦٧٨ هـ / ١٢٧٩ م وفدت رسل الصين بالهدايا إلى السلطان المظفر يوسف الرسولى[١] . وتوطدت العلاقات بين البلدين حتى أن السلطان المظفر عندما علم بامتناع ملك الصين عن السماح بختان أبناء المسلمين فى بلاده أرسل إليه هدية وكتب إليه يسأله السماح لهم وعدم الاعتراض على عملية الختان، فاستجاب له[٢] . وعلى الرغم من أن المصادر لم تزودنا بمعلومات كافية عن أخبار العلاقات مع الصين ، إلا أن استمرار حركة التجارة ينهض ـ فى حد ذاته ـ دليلا على استمرار تلك العلاقات الطيبة . ففى سنة ٨٢٣ هـ / ١٠٢٠ م وصل رسول الصين إلى السلطان الناصر أحمد الرسولى وقدم إليه كميات من الهدايا والتحف بلغت من الكثرة أنها وصلت على ثلاث مراكب كبيرة ، وقد قدرت قيمتها بعشرين لكا[٣] من الذهب ، أى ما يوازى مليونى دينار. فاستقبل السلطان الناصر السفير ورحب به وبالغ فى إكرامه ، وأرسل صحبته كتابا وهدية جليلة لملك الصين، ويذكر مؤرخو اليمن أنه لما دخل رسول ملك الصين على السلطان الرسولى لمقابلته « لم يقبل الأرض بين يديه ، بل قال له ،

---

(١) الخزرجى : العقود جـ ١ ص ٢١٣ ، العسجد ص ١٩٥ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٧٩ أ . (ويشير الدكتور أحمد دراج إلى أن السنة التى وفدت فيها السفارة لم تعرف على وجه التحديد) ايضاحات جديدة ص ١٩٢ .

(٢) الخزرجى . العقود جـ ١ ص ٢٧٩ ، العسجد ص ٣١٤ .

(٣) اللك ـ كما هو وارد فى المعجم الوسيط ـ يساوى مائة ألف دينار .

سيدك صاحب الصين يسلم ويوصيك بالعدل فى الرعيـه » فقال له السلطان : « مرحبا بك ونعم المجىء جئت [1] .

ويبدو أن تلك السفارة الصينية كانت تستهدف أن يعدل سلطان اليمن من سياسته تجاه التجار فيحسن إليهم ويخفف من حملته عليهم ، إذ أنه كان قــد أجحف بالتجار وجار عليهم وتعسف معهم [2] ، الأمر الذى دعا الكثير من منهم إلى مقاطعة عدن [3] .

ب ـ مع الهند : ـ

أما الهند ، فقد توافدت رسلها بالهدايا الجليلة فى سنوات متفرقة ، ففى سنة ٦٤٧ هـ / ١٢٤٩ م جاء رسول صاحب الهند إلى السلطان نور الدين عمر ابن رسول ، قبل وفاته بعدة أيام وتنبأ بدنو أجله [4] ، كما وصلت رسل الهند مرة أخرى فى سنة ٦٧٨ هـ/١٢٧٩ م بعد أن فتح السلطان المظفر الرسولى بلاد ظفار [5] ، وتكرر مجىء هؤلاء الرسل فى عهد المؤيد فى سنوات ٧٩٨ هـ [6] ،

---

(١) الخزرجى : العسجد ص ٥٨٥ ــ ٥٨٦ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ١١١ أ ، بغية المستفيد ص ٧٨ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٥٦٥.

(٢) بامخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ١ ص ١٢ ، أحمد دراج : ايضاحات جديدة عن التحول فى تجارة البحر الأحمـر منذ مطلع القرن التاسع الهجرى ـ محاضرات الجمعية التاريخية ١٩٦٨ ـ ص ١٩٣ .

(٣) يحيى ابن الحسين : غاية الامانى ص ٥٦٥ .

(٤) الخزرجى : العقود جـ١ ص ٨٣ ، العسجد ص ٢٤١ .

(٥) الخزرجى : العقود جـ١ ص ٢١٣ ، العسجد ص ٢٩٥ .

(٦) الخزرجى . العقود جـ٢ ص ٢٨٥ ، العسجد ص ٥٦٢ .

ـ ٨٠٠ هـ [١]، ٨٠٢ هـ [٢]. (١٣٩٦، ١٣٩٨، ١٤٠٠ م).تعبيرا عن العلاقات الودية التى كانت تربط الهند باليمن . غير أن الأمور لم تلبث أن تدهورت فى عهد المجاهد نتيجة اعتراضه لاحدى السفارات الهندية المتجهة إلى مصر ، واستيلائه على الهدايا وإقدامه على قتل الرسل [٣] .

وفى عهد الأفضل بن المجاهد وصل رسل صاحب كنباية والسند فى سنة ٧٦٨هـ / ١٣٦٧ م محملين بالتحف والهدايا التى اشتملت شتل شجر الفل الاحمر والأصفر والأزرق [٤] .

كذلك عمل صاحب سيلان على تدعيم علاقاته مع اليمن فأرسل فى سنة ٨٠٠ هـ / ١٣٩٨ م هدية إلى السلطان الأشرف بن الأفضل، وتضمن كتابه ـ وهو عبارة عن ورقة من الذهب الخالص ـ بيانات الهدية التى كان من جملتها الفيلة والتحف وشتل الأشجار ، فأنعم الأشرف على الرسول السيلانى بخمسة من جياد الخيل ، وكسوة فاخرة [٥] .

ج ـ مع قاليقوط : ـ

أما قاليقوط فقد أرسل صاحبها سنة ٧٧٠ هـ / ١٣٦٩ م إلى السلطان

---

(١) الخزرجى : العقود جـ٢ ص ٢٩٧ ، العسجد ص ٥٦٨ .

(٢) الخزرجى . العقود جـ ٢ ص ٣١٠ ، العسجد ص ٥٧٦ .

(٣) انظر ما يلى ص ٤٤٦ وما بعدها .

(٤) الخزرجى : العقود جـ ٢ ص ١٣٥ ، العسجد ص ٤٧٧ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ١٠٠ ب .

(٥) الخزرجى : العقود جـ ٢ ص ٢٩٧ ، العسجد ص ٥٦٨ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ١٠٨ ب .

الأفضل بن المجاهد هدية تحتوى على الكثير من غرائب الأشجار والطيور [١] كما أرسل تجار قاليقوط هدايا وكتابا إلى السلطان الأشرف بن الأفضل الرسولي سنة ٧٩٥ هـ / ١٣٩٣ م يعلنون ولاءهم له ويستأذنونه فى السماح لهم بالخطبة له على منابر بلادهم . وكانت الخطبة لديهم قبل ذلك لصاحبي دلهي وهرمز معا . فوافق الأشرف على مطلبهم ، وأنعم على الرسل وأكرمهم [٢].

كما توافدت سفارات أخرى من كل من فارس [٣] وعمان والبحرين وغيرها من دول آسيا [٤] .

٢ ـ مع سواحل العدوة الافريقية :ـ

ارتبطت بلاد اليمن مع الحبشة وساحل إفريقية الشرقى بعلاقات سياسية وحضارية موغلة فى القدم لا مجال هنا للتعرض لجذورها ، ولا يهمناهنا سوى ما يتعلق بالفترة التاريخية الواقعة فى نطاق هذه الدراسة . فقد اتخذ العرب من الساحل الشرقى لافريقيـة مجالا للهجرة والتجارة ، واستقرت أعداد هائلة منهم ، وتكاثرت فى المنطقة الساحلية ، وبمرور الزمن انتظمت تلك الجماعات

---

(١) الخزرجى : العقود جـ ٢ ص ١٣٩ ، العسجد ص ٤٨٠ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ١٠٠ب .

(٢) الخزرجى : العقود جـ ٢ ص ٢٤٤ ـ ٢٤٧ ، العسجد ص ٥٤٥ .

(٣) ابن حاتم : السمط ص ١٠٠ أ ـ ب ، الخزرجى : العقود جـ ١ ص ٢٠٧ ـ ٢٠٨ ، العسجد ص ٢٩٠ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٧٨ أ .

(٤) الخزرجى : العقود : جـ ١ ص ٢١٣ ، العسجد ص ٢٩٥ ، ابن الديبع قرة العيون ص ٧٩ ا .

فى إمارات عرفت باسم « الطراز الاسلامى » وهى تسمية أطلقت عليها بحكم امتدادها على الشريط الساحلى، فكانت بمثابة الطراز [١] الفاصل بين البحر الأحمر والمناطق الداخلية .

ويضم إقليم الطراز سبع ممالك على رأس كل منها ملك ، ولكل منها جيوشها الخاصة بها [٢] وهذه الممالك هى : -

١ - أوفات أو جبرت ، ومن مدنها زيلع [٣]

٢ - دوارو ، وتقع الى الجنوب من أوفات [٤]

٣ - أرابينى ، وتقع الى الشمال الشرقى من بحيرة صانا [٥]

٤ - شرحا ، وتقع إلى الغرب من أوفات [٦] .

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ٣٢٤ .

(٢) ابن فضل الله العمرى : مسالك الأبصار - مخطوط بدار الكتب رقم ٨ معارف عامة م - جـ ٥ ص ١٠٣ أ .

(٣) ابن فضل الله العمرى : مسالك الأبصار جـ ٥ ص ١٠١ أ ، القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ٣٢٥ .

(٤) ابن فضل الله العمرى: مسالك الابصار جـ ٥ ص ١٠٢ أ ، القلقشندى صبح الأعشى جـ ٥ ص ٣٢٧ .

(٥) ابن فضل الله العمرى: نفس المصدر والجزء ص ١٠٢ ب ، القلقشندى: نفس المصدر والجزء ص ٣٢٧ .

(٦) ابن فضل الله العمرى : مسالك الابصار جـ ٥ ص ١٠٢ ب .

٥ ـ هدية ، وتقع جنوبي أوفات ، وملكها أقــوى ملوك الدويلات الإسلامية السبعة [١] .

٦ ـ بالى ، وهى لاتقل قوة عن أوفات [٢] .

٧ ـ دارة ، وتقع إلى الجنوب الغربى من بحيرة صانا ، وهى أضعف ممالك الطراز [٣] .

وكان ملوك دويلات الطراز السبعة ، يدينون بالولاء والطاعة لملك الحبشة ويحملون إليه مقررات سنوية محـددة [٤] . وكان من جملة اختصاصه إقامة الملوك وتنصيبهم ، فإذا اتفق أن مات أحد ملوك الطراز أو غيرهم ، لايجوز أن يخلفه أحد من أهله بغير موافقة الحطى واختياره لأنهم كانو كالنواب له[٥] وأمرهم راجع إليه [٦] . وكان ملوك الحبشة يضطهدون شعوب الممالك الإسلامية الخاضعة لهم ، ويحاربونهم كلما وجدوا إلى ذلك سبيلا . وقد نشط

---

(١) ابن فضل الله العمرى : نفس المصدر والجزء والصفحة ؛ القلقشندى: صبح الأعشى جـ ٥ ص ٣٢٧ .

(٢) ابن فضل الله العمرى : نفس المصدر والجزء ص ١٠٣ أ .

(٣) ابن فضل الله العمرى : نفس المصدر والجزء والصفحة ؛ القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ٣٢٩ .

(٤) ابن فضل الله العمرى : نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٥) ابن فضل الله العمرى : نفس المصدر والجزء ص ١٠٣ أ .

(٦) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ٣٣٢ .

المسلمون فى الحبشة ابتداء من القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) عندما استشعروا ضعف ملك الحبشة وازدياد قوتهم [١] .

وكانت الحبشة ـ فى الفترة التى نحن بصدد دراستها ـ قد اتجهت بثقلها إلى مصر لارتباطها كنسيا ببطاركة الاسكندرية ، وذلك أن بطريق القبط بمصر كان يتولى مسئولية تعيين مطران الحبشة من بين طائفة الأقباط اليعاقبة . وكان لهذا المطران حق الإشراف على الشئون الدينية فى الحبشة، كما أنه لم تكن تصح ولاية ملك الحبشة الا بتنصيب المطران له [٢] .

وعلى الرغم من الصلات الحبشية المصرية المباشرة ، إلا أن نجاشى الحبشة كان يضطر فى بعض الأحيان إلى التودد إلى سلطان اليمن ومهاداته كلما تأزمت الأمور بينه وبين سلطان مصر ، وليتوسط السلطان الرسولى له لدى السلطان المملوكى ، ففى سنة ٦٧٢ هـ / ١٢٧٣ م وفد سفراء الحبشة على البلاط اليمنى برسالة من ملك الحبشة يكونو أملاك يطلب إلى السلطان المظفر الرسولى التوسط له عند السلطان الظاهر بيبرس لارسال مطران من مصر . وفى سنة ٧٧٠ هـ / ١٣٦٨ م أرسل النجاشي سيف أرعد بالهدايا والتحف إلى السلطان الأفضل بن المجاهد الرسولى [٣] ، ولم توضح المصادر الهدف من إرسال هذه السفارة . علما بأن العلاقات الحبشية المصرية كانت متوتره آنذاك ، كما كان ملك الحبشة قد اشتدت وطأته على مسلمى الطراز الإسلامى فى ذلك الوقت .

---

(١) Budge : A History of Ethiopia, Nubia and Abyssinia (London, 1928) vol. I, p. 288 .

(٢) المقريزى : الالمام ص ٤ ، القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ٣٠٨ .

(٣) الخزرجى : العقود جـ ٢ ص ١٣٩ .

وعلى هذا الأساس يمكن أن نستنتج أن هذه السفارة كانت تستهدف . أولا : ضمان عدم تدخل اليمن فى الصراع الدائر مع مسلمى الطراز ، وثانيا : ضمان استمرار التبادل التجارى المباشر مع اليمن .

غير أن ماتعرض له المسلمون بممالك الطراز من قتل وتشريد وتخريب ديار نتيجة لاشتداد أعمال العنف والحملات التى شنها عليهم ملك الحبشة (١) ، أدى إلى فرار الكثيرين منهم إلى اليمن احتماء بها أوطلبا لنجدات سلاطين بنى رسول - ففى سنة ٨١١ هـ / ١٤٠٨ م توجه ابنا سعدالدين أبى البركات محمد بن صبر الدين - من ملوك دويلات الطـــــراز الإسلامى - إلى اليمن للاستنجاد بالسلطان الرسولى الناصر أحمد ، فأكرمها ووعدها بمد يدالعون لها (٢) . ولكن الظروف التى كانت تمر بها اليمن لم تمكن الناصر من بذل العون العسكرى لهما . ويذكر المقريزى أنه أعطاها ستة خيول عادا بها إلى بلدها (٣) ، وقاما بإعادة تنظيم صفوف أتباعها لمحاربة ملك الحبشة . وفى سنة ٨٢٥ هـ / ١٤٢٢ م عادا مرة أخرى مهزومين إلى الناصر أحمد فأكرمها (٤) ، وأمدها بمائتى فرس بفرسانهم ، وما يلزمهم من آلات الحرب ، وتابعهم بالإمدادت حتى قويت شوكتهم (٥) .

---

(١) Budge : A History oi Ethiopia, vol. p. I, p. 285

(٢) الخزرجى : العسجد ص ٥٨٤ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ١١٠ ، بغية المستفيد ص ٧٧ .

(٣) المقريزى : الألمام ص ٢٣ .

(٤) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٥٦٥ - ٥٦٦ .

(٥) الخزرجى : العسجد ص ٥٨٦ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ١١١ أ - ب ، بغية المستفيد ص ٧٩ ، زبارة : أئمة اليمن جـ ١ ص ٣٠١ .

ونستدل مما سبق أن اليمن عملت على مـــد يد المساعدة لمسلمى الطراز الاسلامى ، مما كان له أثره فى تأمين التجارة مع ساحل افريقية الشرقى ، حيث كانت ترد إلى موانيها متاجر الهند وغيرها ، أو تصدر منها منتجات المنطقة[1]. والحقيقة أن دول الطراز كانت تسيطر بفضل موانيها زيلع وتاجورة ومصوع وغيرها فى البحر الأحمر على حركة التجارة فى شرق إفريقية ، وتحكمت فى الطرق المؤدية إلى الداخل[2] بحيث كانت لا تصل التجارة إلى الحبشة أو تخرج منها إلى الساحل إلا عن طريقهم .

٣ ـ مظاهر اهتمام سلاطين بنى رسول بثغر عدن والتجارة البحرية مع الهند :ـ

وإذا كان سلاطين بنى رسول قد حرصوا على توطيد العلاقات مع العديد من الدول على النحو الذى أوضحناه ، فإنهم قد عملوا من ناحية أخرى على تشجيع التجار للوصول إلى عدن . فقام المظفر الرسولي بإرسال الشوانى فى المحيط الهندى للقضاء على القراصنة وتأمين الملاحة فى طريق السفن المتجهة إلى عدن . ونهج خلفاؤه نهجه فى الاهتمام بأمر هذا الثغر ، نزاره المؤيد داود الرسولى سنة ٦٩٨ هـ / ١٢٩٩ م ، واستقبله التجار فى عدن استقبالا حافلا ، وتباروا فى تقديم الهدايا والتحف له ، ولكنه شكرهم وأعاد إليهم ماقدموه ،

---

(١) Trimingham : Islam in Ethiopia (London, 1952) p. 32

(٢) سعيد عاشور : بعض أضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة فى العصور الوسطى ـ المجلة التاريخية جـ ١٤ سنة ١٩٦٨ ـ ص ٥ .

James : Routenis of Abyssia, pp. 2 - 10.

وخلع عليهم ، وأجرى على نواخيذ الهند على جاري عادتهم وأمر بإكرام النواخيذ والتجار المترددين إلى الثغر »[١] .

ومع بداية عهد المجاهد بن المؤيد الرسولي مرت بلاد اليمن بحالة من الفوضى والاضطراب لم تشهد لها مثيلا من قبل[٢] ، فكان لتلك الحقبة أثرها الكبير على عدن وتجارتها ، فقد استبد النواب بالمدينة أثناء الصراع الدائر بين المجاهد وابن عمه الظاهر عبد الله ، وحوصرت عدن من كل من الجانبين المتنافسين عدة مرات[٣] باعتبارها مصدر الدخل الكبير الذي يمكن الاعتماد عليه لتغذية الصراع ماديا . وظل الأمر كذلك حتى استقر الأمر أخيرا فيها للمجاهد الرسولي[٤] . ولهذا كان اهتمام المجاهد كبيرا بثغر عدن ، فتردد عليه لإقرار الأوضاع فيه[٥] . وبلغ من اهتمامه به وكثرة تردده عليه أن توفي في عدن

---

(١) الخزرجي : العقود جـ١ ص ٣١٩-٣٢١ ، العسجد ص ٣٣٢ - ٣٣٤ ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ٢ ص ٧٦ ، أحمد دراج : إيضاحات جديدة ص ١٩١ .

(٢) انظر ماسبق ص ١٨٥ وما بعدها .

(٣) الخزرجي: العقود جـ٢ ص ١٣ و ١٩ و ٢٣ و ٢٥ و ٣٤-٣٥ و ٤٠- ٤٣ و ٤٤ و ٤٧ و ٤٩ ، العسجد ص ٣٩٦ ، ص ٣٩٨ و ٤٠١ و ٤١٠ و ٤١١- ٤١٣ و ٤١٥ - ٤١٧ ، العقد الفاخر جـ٢ ص ٣٨ ب ، ٣٩ أ-ب ، ابن الديبع: قرة العيون ص ٩٣ أ- ، ٩٤ أ-ب ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ٢ ص ١٣٩ - ١٤٠ و ١٤٣ و ١٤٥ و ١٤٦ .

(٤) الخزرجي : العقود جـ٢ ص ٥٢ ، العسجد ص ٤٢١ - ٤٢٢ .

(٥) الخزرجي : العقود جـ٢ ص ٧٨ و ٨١ ، العسجد ص ٤٢٠ : ٤٢٢ ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ٢ ص ١٤٧ .

أثناء إحدى زياراته لها سنة ٧٦٤ هـ[1] / ١٠٦٣ م .

ولم يفتر عـزم الأفضل بن المجـاهد من بعده في الاهتمام بتنشيط حركة التجارة في عدن ففي سنة ٧٧٦ هـ / ١٣٧٤ م توجه إلى عدن ، وتفقد أحـوال التجار فيها ، ونشر العدل ، وأنعم على النواخيذ ، وأبطل كثيرا مما أحـدثه العمال ، وصار التجار تذكره بالجميل ونائله الجـــزيل إلى كل ناحية في البر والبحر ،[2] .

وحذا السلطان الأشرف بن الأفضل الرسولي حذو أبيه وجده ، فتوجـه إلى عدن سنة ٧٨١ هـ / ١٣٧٩ م ، ، وأبطل من المكوس المحدثة شيئا كثيرا ،[3] . كما زارها مرة أخرى في سنة ٧٩٣ هـ[4] / ١٣٩١ م .

وهكذا استطاع سلاطين بني رسول المحافظة على مكانة عـدن التجارية ، فقدموا الـكثير من التسهيلات للتجار ، وعملوا على تخليصهم من المظـالم التي أنزلها بهم نوابهم في عدن . كما كان لعلاقاتهم بالدول التجارية أثرها في استمرار الحركة التجارية في عدن والبحر الأحمر .

---

(١) الخزرجي : العقود حـ ٢ ص ١٢٣ ، العسجد ص ٤٦٨ ، العقد الفاخر حـ ٢ ص ٤٠ ب ، بامخرمة : ثغر عدن ص ١٤٩ .

(٢) الخزرجي : العقود حـ ٢ ص ١٤٤ ، العسجد ص ٤٩٢ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ١٠٣ ب .

(٣) الخزرجي : العقود حـ ٢ ص ١٧٠ ، العسجد ص ٥٠٣ ، بامخـرمة : تاريخ ثغر عدن حـ ٢ ص ٢١ ، أحمد دراج : إيضاحات جديدة ص ١٩٢ .

(٤) الخزرجي : العقود حـ ٢ ص ٢٢١ ، العسجد ص ٥٣٣ .

خامسا : تجارة العبور وموقف مصر واليمن منها :

١ - جهود مصر في المحافظة على تجارة البحر الأحمر :

كان لتدهور العلاقات بين مصر واليمن ، وخاصة منذ أيام المؤيد الرسولى وما تبع ذلك من الإجحاف بمصالح التجار في ميناء عدن أثره في استثارة السلطان المملوكى . وقد تجاوز الموقف مجرد استنكار تلك الأعمال ، وأرسال الاحتجاجات شديدة اللهجة . إلى التلويح باستخدام القوة وإعداد الحملات العسكرية لوضع الأمور في نصابها ، والعمل على تأمين التجارة ، وإلزام السلطان الرسولى بالانتظام في إرسال المقررات التي التزم بها أسلافه لسلطان مصر (١) . غير أن بنى رسول ازدادوا تسلطا على التجـــار ، واعترضوا السفارات المارة بعدن في طريقها إلى مصر ، مما أغضب حكومات دول تلك السفارات ، فاضطرت إلى إرسال رسلها عن طريق الخليج الفارسي تجنبا للمرور بعدن .

ففي سنة ٦٨٢هـ/١٢٨٣م أرسل حاكم سيلان سفراءه إلى مصر عن طريق الخليج ، وأوضح في كتابه رفضه التعـــامل مع سلطان اليمن ، وأوضح للسلطان قلاوون المنتجات التي تشتهر بها بلاده من محاصيل وصناعات وتحف وغيرها ، وعرض عليه الارتباط المباشر مع مصر تجاريا (٢) ، واستعـداده

---

(١) انظر ماسبق ص ٤٠٠ وما بعدها .

(٢) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة جـ ٩ ص ١٤٢ ب - ١٤٣ أ ،
Heyd (W.) : Histoire du commerce du levant au Moyen age, T. I, pp. 424 - 4 6; Lane - Pool : A History of Egypt. p. 481 .

لإرسال عشرين مركبا سنويا ، ولكنه ضمانا لسلامة تلك الشحنات طلب أن يرسل السلطان رسولا إليه [١] ، وأن يبعث بآخر إلى عدن ، خوفا من أن يتعرض اليمنيون فيها لتلك السفن [٢] .

وإذا كانت المصادر لم تشر إلى موقف السلطان المملوكي من ذلك العرض ، إلا أنه يمكن القول أن السلطان قلاوون أصدر عدة أوامر تستهدف تأمين التجارة وحسن معاملة التجار ، مع منح تسهيلات كبيرة لترغيب التجار للوصول إلى الموانى المملوكية ، وبدأ باصدار تعلياته إلى نظار الثغور يأمرهم بعدم الإجحاف بالتجار وحسن معاملتهم والعمل على تسهيل الأمور لهم [٣] . ثم أتبع ذلك بمنشور أمان أصـــدره عام ٦٨٧هـ / ١٢٨٨ م وسيره مع التجار لينشروه فى كافة البلاد التى يصلون إليها [٤] . ويهدف هذا المنشور إلى ترغيب تجار الصين والهند والسند واليمن والعراق والعجم والروم وغيرهم للتوجه ببضائعهم إلى الديار المصرية والشاميه ، مؤكدا لهم استعداده لتأمينهم على أموالهم وأنفسهم ، ضامنا لهم حسن المعاملة والعدل ورعاية مصالحهم [٥] .

---

(١) المقريزى : السلوك حـ ١ ص ٧١٣ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى حـ ٨ ص ٧٧ – ٧٨ ، محمد جمال الدين سرور : دولة بنى قلاوون ص ٣٣٨ – ٣٣٩ .

(٣) القلقشندى : نفس المصدر حـ ١١ ص ٤٢٠ – ٤٢١ .

(٤) المقريزى : السلوك حـ ١ ص ٧٤٢ .

(٥) القلقشندى : نفس المصدر حـ ١٣ ص ٣٤٠ – ٣٤٢ ، سعيد عاشـــور مصر فى عصر المماليك البحرية ص ٢١٠ .

Lewis (Bernard) . Egypt and Syria, p. 223 .

ووعدهم بتقديم كافة التسهيلات ، مع إتاحة الفرصة لمن يرغب فى الإقامة منهم ، فى تحقيق الراحة ورغد العيش ، وطلب منهم الاستكثار من جلب المماليك الصغار (١) .

ويبدو أن هذه التجارة — تجارة المماليك — قد تأثرت بسيطرة المغول على الطريقين الآسيويين ، طريق الخليج والطريق البرى عبر آسيا ، مما جعل السلطان المملوكى يركز الاهتمام على جلب المماليك باعتبار ذلك مطلبا أساسياً وملحا تفرضه حاجة السلطنة المملوكية لزيادة عدد الجيش وتقويته بالعناصر الجديدة ، توطيدا لدعائم السلطنة وضمانا لاستمرار احتفاظها بقوتها .

لم تهتم المصادر ببيان رد الفعل الذى أحدثه هذا المنشور ، كما أنه ليس لدينا احصائيات عن الرسوم المتحصلة من التجارة قبل إصدار المنشور أو بعده حتى يمكن أن نتبين منها مدى نجاح تلك السياسة . غير أنه من المرجح أن النجاح كان ضئيلا وغير ملموس لاعتبارات أخرى معاصرة يمكن إجمالها فى النقاط الثلاثة الرئيسية الآتية :

أولاها ، تتعلق بالجهود التى بذلها المغول لانعاش الطريقين التجاريين الآسيويين .

وثانيها ، تختص بتعاون الفرنج مع المغول لاتفاق مصالحهما فى القضاء على تجارة البحر الأحمر .

وثالثها ، ترتبط بسياسة المماليك تجاه التجار ، وخاصة الفرنج ، وإرهاقهم بالرسوم الجمركية .

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٣٤٠ — ٣٤٢ .

فابتداء من أواخر القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) بدأ النشاط يدب فى الطريق البرى الآسيوى ، وازدهرت الحركة التجارية فيه نتيجة لقيام أباطرة المغول بتأمينه ، بحيث أصبح السالك فى هذا الطريق مطمئنا على نفسه وماله . كما قام المغول بمنح تسهيلات كبيرة للتجار ، وأقيمت لهم الفنادق على الطريق للراحة ، وخففت عنهم أعباء الرسوم الجمركية ، وسمح للتجار ـ ومنهم الفرنج ـ بالتنقل داخل الامبراطورية ، وفى الموانى إلى هرمز وقاليقوط وكولم وموانى الصين نفسها . وهو أمر لم يكن سلاطين مصر يسمحون به لغير المسلمين ، أما تجار الفرنج فكان المماليك يحددون تحركاتهم فى إطار محدود لدواعى الأمن ، ومنعا من تحقيق الاتصال التجارى المباشر بينهم وبين أسواق التجارة الشرقية . زد على ذلك أنه لم يكن لهم وللمسيحيين عامة حق الإبحار فى النيل أو البحر الأحمر (١). تأمينا للمقدسات الاسلامية فى الحجاز كما اقتصر السماح للسفن العربية ـ كسفن مصر واليمن والأقاليم الاسلامية على الساحل الشرقى لإفريقية ـ بالملاحة فى البحر الأحمر (٢).

فلما تمكن المغول من تأمين الطرق المارة بالمناطق التى يسيطرون عليها ، عملوا على تنشيط حركة التجارة فيها ، كما عمل إيلخانات فارس على استعادة مكانة طريق الخليج الذى كانت حركة الملاحة فيه قد تأثرت بسبب ازدياد

---

(١) Thenaud (J) : Le voyage d' Outre Mer de Jean thenaud, p. 4 .

(٢) Neibuhr: Voyage en Arabie et en d' autres pays, T. I, pp, 208 - 212 .

خطر القراصنة (١) . فبعد أن تمكن الإيلخانات من تطهير الخليج من القرصنة وتأمين الملاحة فيه ، اتبعــوا سياسة جمركية مغرية (٢) ، وأعفوا بعض الأصناف من تلك الرسوم (٣) .

وقد وجد الصليبيون ـ فى التعامل التجارى مع المغول عبر الطريقين المشار إليها ـ فرصة لفرض الحصار الاقتصادى على مصر تنفيذا للقرارات البابويه (٤) التى تجددت بعـد سقوط عكا فى أيدى المماليك سنة ٦٩٠ هـ / ١٢٩١م (٥) ، وعجز القوى الصليبية عن استعادتها . ومن ثم تحـولوا إلى التعاون مع القوى المغولية للقضاء على تجارة البحر الأحمر (٦) . وهكذا تطورت الحروب الصليبية إلى حرب اقتصادية بمقاطعة الموانى المملوكية ، وتعاون الفرنج ـ وخاصة الجنويين ـ مع الخان أرغون لتحويل التجارة إلى الخليج الفارسى ، وذلك بإرسال بعض السفن فى سنة ٦٨٨ هـ / ١٢٨٩م عبر

---

(١) أحمد دراج : ايضاحات جديدة عن التحول فى تجارة البحر الأحمر ص ١٨٧ ـ ١٨٨ ،

Wilson : The Persian Gulf , pp. 82 - 87 .

(٢) Heyd : Histore, de Commerece T. 2, p. 118 .

(٣) Heyd : op cit., p. 132 .

(٤) Thenaud : Le voyage; p. 4 .

(٥) أبو الفدا : المختصر جـ ٤ ص ٢٥ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٥ وما بعدها ، محمد جمال الدين سرور : دولة بنى قلاوون ص ٢٤٢ ، سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ٧٤ ، الأيوبيون والمماليك ص ٢٦٣ ، حصر فى عصر دولة المماليك البحرية ص ٢١٣ .

(٦) Heyd : op. cit. T. 2, p. 35 .

الخليج الفارسي ـ بالاشتراك مع الجنويين ـ إلى المحيط الهندى لفرض الحصار على عدن ، واعتراض السفن التجارية المتجهة إليها ، وإجبارها على الدخول فى الخليج ، وبذلك يتم قطع الطريق المصرى إلى الهند عبر البحر الأحمر(١) .

ولم يقتصر الأمر عند هذا الحد ، وإنما امتد التفكير إلى إنشاء عدد من السفن لاستخدامها فى نقل البضائع الشرقية من مصادرها رأسا إلى الخليج الفارسى ، مع منع السفن الأخرى من التوجه إلى عدن . وتنشيطا للحركة التجارية فى الخليج عمل الإيلخان المغولى على إنشاء ميناء جديد بدلا من هرمز لمقابلة الزيادة فى الحركة التجارية (٢) .

والواقع أن السياسة الجمركية التى اتبعها المماليك كان لها أبعد الأثر فى إضعاف أهمية البحر الأحمر، وساعد على انعاش الطريق التجارى عبر الخليج، لتفضيل التجار ، وخاصة الفرنج ، استخدامه والتعامل مع المغول ، خاصة بعد استيلاء المماليك على عكا ، وارتفاع الرسوم الجمركية فى الموانى المملوكية بحيث بلغ ما يسدده تجار الفرنج من رسوم ما يصل مقداره ثلثى قيمة البضائع

---

(١) Ferrand (G.) Une Navigation Eurppéene dans l' Oceen Irdien au 14 eme siecle (J. Asiat. 1922, T. 20) p. 309, Bratianu (G.I.) : Recherches sur le Commerce Genois dans la Mer Noire au 13 eme Siecle (paris 1929) p. 158, Lewis (Bernard) : Egypt and Syria . (Camb. Hist of Islam) vol. I, p. 223 .

(٢) Heyd : op. cit T.2, p. III .

أحياناً [١]، مما كان مثار احتجاج هؤلاء التجار ودافعا لهم على ترك التعامل مع الموانى المملوكية، والتوجه إلى الطرق التجارية التابعة للمغول لما يلاقونه من تسهيلات كبيرة لديهم .

وأمام خطر انهيار التجارة الشرقية فى البحر الأحمر، اضطر السلطان المملوكى إلى تعديل سياسته بهدف استعادة النشاط التجارى مرة أخرى . فقام السلطان الناصر محمد بن قلاوون بإغراء التجار الفرنج والبنادقة بوجه خاص على العودة إلى التعامل مع الموانى المملوكية [٢]، فكان للتسهيلات التى منحها لهم وللجنويين أثرها فى كسر الحصار الاقتصادى الذى فرضته البابوية على مصر [٣] .

أما مغول فارس، فقد عمل الناصر محمد على توجيه ضربة لهم والانتقام منهم، لموقفهم العدائى من المماليك، وتحالفهم مع الصليبيين لضرب مصر اقتصاديا . فحاربهم السلطان الناصر وانتصر عليهم بالقرب من حمص فى سنة ٦٨١هـ [٤] / ١٢٨٢م .

ومن الجدير بالذكر أن السلطان محمد بن طغلق [٥]، انتهز فرصة العداء القائم بين المماليك ومغول فارس وأرسل سنة ٧٣١هـ / ١٣٣١م سفارة سرية

---

(١) Heyd : op. cit., T. 2, p 25 .

(٢) Heyd : op. cit . T.2 p. 40 Wiet : L' Egypte Arabe, p. 501 .

(٤) Heyd: op. cit , T. 2 p 49 .

(٣) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة جـ ٩ ص ١١٣ ب، محمد جمال الدين سرور : دولة بنى قلاوون ص ١٦٣ .

(٥) هو السلطان غياث الدين أولوغ خان محمد جنا بن طغلق (٧٢٥-٧٥٢هـ). النويرى : نهاية الأرب جـ ٣١ ص ٥ ١ .

إلي الناصر محمد بن قلاوون ، عن طريق الخليج الفارسي [1] ، تفاديا لاعتراض السلطات اليمنية لها [2] . ورغم أن المصادر لم تشر إلى أسباب تلك السفارة وما أسفرت عنه من نتائج ، إلا أنها قد تكون من أجل التحالف مع المماليك ضد إيلخانات فارس ، والقيام بعمل عسكرى مشترك للقضاء على دولتهم [3] غير أن ذلك جاء فى فترة كانت العلاقات فيها بين المماليك والدولة الإيلخانية قد تحسنت ، وخاصة فى عهـــد الإيلخان بوسعيد [4] . أضف إلى ذلك أن اشتراك المماليك فى مثل هذا العمل من شأنه أن يؤدى ــ بعد القضاء على دولة الإيلخانات ــ إلى زيادة نشاط التجـارة فى طريق الخليج ، وهذا لا يتفق ومصلحة السلطنة المملوكية ، التى كانت تعمل على زيادة النشـاط التجارى بالبحر الأحمر على حساب الطرق التجارية الأخرى ، وهو ما بدت بشائره فى الظهور بعد وفاة الإيلخان بوسعيد سنة ٧٣٧هـ/١٣٣٥م . واضطراب الأحوال الداخلية فى بلادة من بعده ، وفشل خلفائه فى إستعادة الأمن لهذا الطريق [5] .

---

(١) المقريزى : السلوك حـ ٢ ص ٣٣٣ .

(٢) انظر ماسبق ص ٤٣٧ .

(٣) محمد جمال الدين سرور : دولة بنى قلاوون ص ١٤٠-١٤١ .

Lane - Poole : A History of Egypt, p. 310 .

(٤) انظر المقريزى : السلوك حـ٢ ص ٢٠٩ و ٢١٢ ، محمد جمال الدين سرور : نفس المرجع ص ٢٠٧ ــ ٢٠٨ .

(٥) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٤٠٤ ــ ٤٠٦ ، محمد جمال الدين سرور . نفس المرجع ص ٢١٢ ــ ٢١٣ ،

Howorth : A History of Mangols, vol III, pp. 634 - 640.

Browne : A Literary History of persia, vol : III, pp. 57 - 58 .

٢ - تدهور ميناء عدن واحلال ميناء جدة مكانته في حركة التجارة العالمية :ـ

ليس من شك في أن سلاطين بني رسول بتأمينهم لحركة الملاحة في المحيط الهندي ، وارتباطهم مع الدول التجارية في آسيا بعلاقات ودية كان تدعيماً لحركة التجارة في عدن فأسهموا من ناحيتهم في انتعاش تجارة البحر الأحمر العالمية . على أن تدهور علاقاتهم بسلاطين مصر ابتداء من عهد المؤيد بن المظفر، وإجحافهم بمصالح التجار وإرهاقهم لهم بالضرائب ، وتحديهم للسلطنة المملوكية باعتراض السفارات الواصلة إلى عدن في طريقها إلى مصر ، وإقدامهم على انتهاب الهدايا وقتل الرسل ، وقيامهم بتحريض أشراف مكة على الخروج عن طاعة السلطنة المملوكية ، ومنعهم للسفن من التوجه إلى جدة ، أو شحن المراكب التجارية بالمقاتلة بحجة حمايتها من طغيان أشراف مكة [(١)] ، كل ذلك كان من شأنه أن يهدد أمن التجارة في البحر الأحمر ، ويتناقض مع ما كانت يبذله سلاطين المماليك من جهود لتأمين حركة التجارة ، والاحتفاظ بازدهار هذا الطريق وتنشيط حركة التجارة العالمية فيه ، والقضاء على منافسة الطرق التجارية الأخرى .

وقد واصل سلاطين اليمن اصطناع سياستهم التعسفية مع التجار ، وهي سياسة ازدادت حدتها مع بداية القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) ، فقد أساء السلطان الناصر أحمد الرسولي إلى التجار حتى أرغمهم على الفرار من عدن ، والالتجاء إلى جدة والهند ومليبار ، تخلصاً من المظالم التي كانوا يتعرضون

---

(١) الفاسي : العقد الثمين جـ ١ ص ١٧١ .

لها. فانتقم الناصر الرسولي منهم باستصفاء ما لهم من أموال وأملاك في عدن [١].
وأيا ما كان الأمر ، فقد تأثر مركز عدن التجاري بسبب تلك الإجراءات،
وتدهورت أحوال تلك المدينة وانقطعت المراكب الواصلة إليها من الهند وغيرها [٢].
ويمكن القول بأن سفارة ملك الصين التي وصلت في سنة ٨٢٣ هـ / ١٤٢٠م
إلى اليمن ، كانت تستهدف إقناع الناصر أحمد بحسن معاملة التجار [٣] .

على أن تمادى السلطان الرسولي في سياسته كان دافعا لأحد تجار قاليقوط
ويدعى الخواجا ابراهيم ، وكان من كبار التجار الذين يترددون بمراكبهم
على عدن ، بالقيام بمحاولة جريئة تعتبر بداية لمرحلة هامة في تاريخ تجارة
البحر الأحمر ، وكان هذا التاجر قد «حصل عليه جور في ولاية عبد الرحمن
ابن جميع على عدن ، وذلك آخر أيام الناصر بن الأشرف» [٤] ، ولهذا قرر
عدم التوجه إلى عدن ، وواصل سنة ٨٢٥ هـ / ١٤٢٢ م تقدمه إلى باب المندب،
متجاوزا عدن ، وتوجه رأسا إلى جدة، فلما أرسى بمراكبه فيها ، قام شريف
مكة حسن بن عجلان بمصادرة ما معه من بضائع [٥] ، وباعها لصالحه
وبالأسعار التي حددها للتجار [٦] . ولكن ما حدث لم يفت في عضد التاجر

---

(١) بامخرمة: تاريخ ثغر عدن جـ١ ص ١٢ ، قلادة النحر جـ٣ ص ١١١٣.

(٢) يحيى بن الحسين : غاية الأماني ص ٥٦١ .

(٣) انظر ما سبق ص ٤٣٥ - ٤٣٧ .

(٤) بامخرمة: قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٠٣.

(٥) المقريزي : السلوك جـ ٤ ص ٦٨١ ، أحمد دراج : ايضاحات جديدة ص ١٨٧ .

(٦) Wiet : L'Egypte Arabe, p. 573.

الهندى ، وصمم على الاستمرار فى بذل محاولاته ، وعاد فى العام التالى ، ولكنه فى هذه المرة توجه إلى سواكن ودهلك غير أنه لم يكن أسعد حالا من المرة السابقة ، ولقد نفس المصير (١) . ورغم كل ذلك فقد كرر التاجر ابراهيم محاولته للمرة الثالثة سنة ٨٢٧ هـ / ١٤٢٤م ، وأراد تجربة التعامل مع ميناء ينبع ، ولكن الأمير قرقماس الشعبانى ـ أحد أمراء الألوف ـ أقنعه بالرسو فى جدة ، فتوجه إليها فى مركبين ، فعومل معاملة حسنة رغبته فى العودة إليها مرة أخرى فى العام التالى بأربعة عشر مركبا (٢) .

وكانت محاولات التاجر ابراهيم فرصة سانحة استغلها السلطان المملوكي برسباى ، للتعامل مباشرة مع تجار الشرق ، وهو نفس التخطيط الذى سبق أن عرضه حاكم سيلان على السلطان برقوق سنة ٦٨٢ هـ ، وما أعقبه من قيام هذا السلطان باصدار منشوره المعروف سنة ٦٨٧ هـ ، لترغيب التجار فى الوصول إلى الموانى المملوكية (٣) وهو ما تحقق على يد التاجر ابراهيم بعد قرن ونصف قرن من الزمان .

ومهما يكن من شيء فقد أدرك برسباى أهمية وصول السفن الهندية إلى ميناء جدة ، وعمل على تحصيل الرسوم المستحقة على تلك البضائع لخزانته ، وخشية أن يتعرض شريف مكة لتلك الرسوم ، أرسل برسباى قوة مملوكية

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ٤ ص ٦٨١ ، أحمد دراج : ايضاحات جديدة ص ١٨٧ .

(٢) المقريزى : نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٣) أنظر ما سبق ص ٤٤٦ ـ ٤٤٨ .

يرافقها سعد الدين بن المرة لتحصيل المكوس المستحقة على تلك السفن (١).

وكان نجاح التاجر الهندى ابراهيم فى محاولاته للتعامل مع ميناء جدة ، حافزا له للوصول إليها بأعداد أكثر من السفن ، فقام بتشجيع تجار الهند على عدم التعامل مع عدن وجمع نحو سبعة وعشرين مركبا وصل بهم عام ٨٢٩ هـ/ ١٤٢٦ م إلى جدة (٢) ، كما اقتدى به تجار هرمز وغيرهم بحيث بلغت عدة المراكب التجارية التى وصلت إلى جدة فى ذلك العام أربعين مركبا (٣) . فازدهرت جدة وأصبحت بندرا عظيما (٤) ، كما أصبح « نظر جدة وظيفة سلطانية ، يخلع على متوليها » (٥) ، ويختص هذا الناظر بتحصيل الرسوم الجمركية ، والعودة بها بعد الموسم إلى القاهرة ، وقد بلغ مقدار تلك المكوس أكثر من سبعين الف دينار « سوى ما لم يحمل » (٦) .

---

(١) المقريزى : نفس المصدر والصفحة .

(٢) بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٠٣ .

(٣) الفاسى : شفاء الغرام جـ ٢ ص ٢١٠ ، المقريزى نفس المصدر والجزء ص ٧٠٧ – ٧٠٨ .

(٤) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٦٨١ ، ابراهيم على طرخان : مصر فى عصر المماليك الجراكسة ص ٨٨٦ ، ٨٨٨ .

Wiet : op. cit. pp. 574 – 76, Lane - Poole : op. cit. p. 340

(٥) الجزرى . درر الفرائد المنظمة فى أخبار الحج وطريق مكة المعظمة – مخطوط رقم ٣٧ م بدار الكتب – ص ٢٩٢ .

(٦) المقريزى : نفس المصدر جـ ٤ ص ٧٠٧ – ٧٠٨ ، وذكر ابن شاهين أن متحصلها مائتا ألف دينار (زبدة كشف الممالك ص ١٤) .

أما عدن فقد بطل أمرها إلا قليلا » (١) ، وفى محاولة لاستعادة مكانة عدن التجارية ، قام المنصور عبد الله الرسولى بإزالة المظالم ، والعمل على التخفيف عن كاهل التجار ، ولكن تلك المحاولة لم تؤد إلى عودة السفن للتعامل مع عدن (٢) . وبلغ من ضعف تلك المدينة أن توجهت إليها سفينتان صينيتان فى سنة ٨٣٥ هـ / ١٤٣٢ م فلم يتيسر تصريف حمولتها من البضائع ، مما اضطر قائد السفينتين إلى مراسلة ناظر جدة — سعد الدين بن المرة — فأذن له فى التقدم إلى جدة ، بعد أن وافق السلطان برسباى على ذلك (٣) . فكانت تلك هى المرة الأولى التى وصلت فيها السفن الصينية (الجنوك) إلى البحر الأحمر ، وبداية التعامل المباشر مع الصين (٤) .

ويرجع سبب اقبال السفن على جدة إلى تلك المحاولة التى بذلها السلطان الرسولى الظاهر يحيى لاستعادة مكانة عدن التجارية ، إذ أصدر أوامره إلى نائب عدن بتجهيز السفن وشحنها بالمقاتلة والسلاح لرصد المراكب الهندية عند باب المندب ، ومنعها من مواصلة الإبحار إلى جدة واجبارها على التوجه إلى عدن ، فلما ظفروا ببعضها دخلوا بها عدن تحت التهديد وقامت السلطات .

---

(١) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٦٨١ .

(٢) بامخرمة . قلادة النحر جـ٣ ص ١١٠٣ .

(٣) المقريزى : السلوك جـ٤ ص ٨٧٢ — ٨٧٣ ، ابن تغرى بردى : النجوم جـ ١٤ ص ٣٦٢ .

(٤) De La Roncière (ch.) : Le decouverte de l'Afrique au Moyen Age, T.II, p. 118, Lewis (B.) Egypt and Syria, p. 224.

اليمنية بمصادرة حمولتها من البضائع (١) . وقد آثار هذا التصرف السلطان برسباى الذى وجد فى إرغام السفن على استخدام ميناء عدن ضياعا للمبالغ الطائلة التى تدفقت على خزائنه نتيجة وصول مراكب الشرق مباشرة إلى جدة، ومن ناحية أخرى اعتبر هذا التصرف من السلطان الرسولى تحديا شخصيا له ، ولذلك سارع بتهديد السلطان الرسولى باحتلال بلاده ، فلما أحس الظاهر الرسولى باستعدادات السلطان المملوكي لاستخدام القوة (٢) ، أسرع بالتخلى عن محاولاته ، وتعهد بعدم التعرض للسفن مرة أخرى تاركا لها حرية الرسو فى الموانى التى تختارها (٣) .

ومن أجل الحفاظ على المركز التجارى الجديد لميناء جدة ، فرض السلطان برسباى حصاراً اقتصاديا على عدن ، بما يضمن عدم رسو السفن فيها أو التعامل التجارى مع اليمن ، فقد أصدر سنة ٨٣٨ هـ / ١٤٣٥ م مرسوما يقضي بمصادرة البضائع اليمنية المصدرة من عدن إلى جدة مع تجار يمنيين ، ومضاعفة العشور على تلك البضائع إذا وردت عن طريق اليمن مع التجار الشاميين أو المصريين (٤) .

وهكذا أقفرت عدن وانخفضت متحصلات سلطانها من الرسوم الجمركية (٥) ، ذلك أنه كلما قلت أهمية عدن زادت معها أهمية جدة التى أصبحت من أهم موانى التجارة العالميـة ، فى حين أهملت عدن وتعرضت للخراب خاصة بعد

---

(١) بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٠٥ .

(٢) ابن شاهين الظاهرى : زبدة كشف الممالك ص ١٣٧ .

(٣) المقريزى : السلوك جـ ٤ ص ٩٢٩ .

(٤) Heyd: op, cit T.2, p. 445.

(٥) المقريزى : نفس المصدر والصفحة .

احتراقها فى سنة ٨٤١ هـ [1] / ١٤٣٧ م – ٣٨ ، ففقد بنورسول بذلك موردا هاما طالما أعانهم على مواجهة المشكلات الاقتصادية والعسكرية التى اعترضتهم طوال حكمهم ، فكان لانهيار اقتصاد بنى رسول أثـــره الكبير فى ضعف دولتهم [2] وسقوطها سنة ٨٥٨ هـ / ١٤٥٤ م .

---

(١) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ١٠٢٢ .

(٢) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ١١٥٣ .

الفصل الخامس

العلاقات الخارجية في عصر بني طاهر

استطاع بنو طاهر - بحكم كونهم نوابا لبنى رسول - استغلال الظروف السيئة التى كانت تمر بها دولة بنى رسول ، وتمكنوا من الاستيلاء على حكم اليمن من بعدهم . أما فيما يتعلق بالعلاقات اليمنية الخارجية فى عهدهم ، فقد انتهج سلاطين تلك الدولة سياسة انطوائية تجنبا للدخول فى صراعات خارجية ، فى وقت كانوا يحتاجون فيه إلى مضاعفة الجهود والتركيز لتوطيد دعائم دولتهم وتحقيق سيطرتهم الكاملة على اليمن .

أولا :- العلاقات بين اليمن والحجاز :

ساءت العلاقات بين اليمن والحجاز فى أواخر عهد دولة بنى رسول بسبب إقدام أشراف مكة على نهب التجار والحجاج اليمنيين [1] . ولذلك عمد تجار اليمن إلى التوجه بسفنهم إلى ميناء ينبع تفاديا للأضرار التى كانوا يتعرضون لها فى ميناء جدة [2] . ولما كان تحول السفن من جدة إلى ينبع من شأنه أن يفقد الشريف حسن بن عجلان أمير مكة قدرا كبيرا من الرسوم الجمركية،لذلك لم يتردد هذا الشريف فى بذل قصارى جهده لتأمين التجار ، كما تعهد بحسن معاملتهم . والظاهر أنه نجح فى ذلك ، فلم يلبث أن عاد هؤلاء

(١) الفاسى : العقد الثمين جـ ٢ ص ٣٢ ، ص ٣٢٥ - ٣٢٦ ، ٤٤٠ - ٤٤٢ ، جـ ٤ ص ٦٩ - ٧٠ .

(٢) الفاسى : العقد الثمين جـ ٢ ص ٤٦٦ .

التجار إلى استخدام ميناء جدة من جديد [١] . غير أن تلك السياسة لم يتح لها أن تستمر ، فقد توترت العلاقات مرة أخرى نتيجة لاستيلاء الشريف حسن ابن عجلان على أموال تجار اليمن ، وتعسف عماله معهم . مما أغضب السلطان الرسولى الناصر أحمد ، فعاد إلى منع السفن اليمنية من استخدام ثغر جدة ، كما أمر بقطع هدية الحبوب التى كانت ترسل سنويا إلى مكة ، وشجع الصراع على إمرة مكة ، واستقدم الشريف رميثة بن محمد بن عجلان وبالغ فى إكرامه وزوده بالأموال وأعانه فى صراعه ضد عمه الشريف حسن بن عجلان بهدف انتزاع مكة منه [٢].

وعلى الرغم من ذلك فيبدو أن حالة من التحسن النسبي قد طرأت على العلاقات [٣] اليمنية المكية نتيجة لتلك الاجراءات التأديبية ، إلا أن نجاح السفن الهندية والصينية فى التوجه رأسا إلى جدة ومقاطعة ثغر عدن ، أدى إلى توتر العلاقات من جديد بين سلاطين اليمن وأشراف مكة . ومنذ أن استبد الضعف بدولة بنى رسول أخذت مناطق كثيرة من الأطراف تنسلخ عنها وتشق عصا الطاعة عليها، لاسيما المنطقة الشمالية من تهامة المتاخمة للحدود الجنوبية للحجاز التى استقل بها حكامها . وقد استفاد أشراف مكة من ذلك ، واتخذوا من تلك المنطقة اليمنية ملجأ يفرون إليه إذا ما نشب خلاف بينهم وبين السلطان المملوكي وطاردتهم قواته ، مثلما حدث للشريف حسن بن عجلان الذى التجأ فى ٨٢٨ هـ / ١٤٢٥ م إلى حلى بن يعقوب . ومن ناحية

---

(١) الفاسى : العقد الثمين جـ ٢ ص ٥ ، ٢ ، ٢٦٧ ، ٤٦٦ .

(٢) الفاسي : العقد الثمين جـ ٢ ص ٤٨٨ - ٤٨٩ ، ٤٩٧ ، ٩٩ .

(٣) الفاسي : العقد الثمين جـ ٢ ص ٥١٢ .

أخرى فقد ساعد ضعف بنى رسول على دفع أشراف مكة إلى اقتطاع أجزاء من اليمن ، ففى أواخر ٨٥٦ هـ / ١٤٥٢ م استولى الشريف بركات بن حسن بن عجلان على مدينة حلى وأناب فيها ولده [١] .

ومنذ أن ظهر بنو طاهر بالسلطنة وتمكنوا من تأسيس دولتهم ، أخذوا ينتهجون سياسة انعزاليه هدفها التفرغ للشئون الداخلية ، والانصراف ولو إلى حين من الاهتمام بالأمور الخارجية من أجل تأكيد نفوذهم فى البلاد وإقرار الأوضاع الداخلية فى اليمن ، ولولا حركة التبادل التجارى التى نشطت نسبيا فى عهدهم لعاشت بلاد اليمن - فى فترة قيام دولتهم - فى عزلة تامة ، ومن المعروف أن ازدياد حركة التجارة البحرية فى جدة ، لم يعرقل حركة الملاحة التجارية فى ثغر عدن ، ويرجع الفضل إلى السياسة التى انتهجها بنو طاهر فى تنشيط الحركة التجارية بهذا الثغر من جديد ، مما أدى إلى عودة بعض السفن التجارية للتعامل معه ، ومن الجدير بالذكر أن بنى طاهر صرفوا جانبا كبيرا من اهتمامهم على التجاره [٢] ، وكان تجار اليمن يخشون من النتائج التى يمكن أن تترتب على انتزاعهم البلاد من بنى رسول ، إذ أنه لو تحقق ذلك لأمكنهم أيضا أن يستولوا على التجارة لأنفسهم وأن يجعلوا عدن « زريبة للقوة ، لأنهم نشأوا على التكسب والتجارة ، وعرفوا فيها من المصالح، فلا يتركوا ذلك . والسلطان إذا تعلق بالمتجر أبطل متجر التجار وتعطل عليهم الكسب» [٣] .

---

(١) ابن تغرى بردى : حوادث الدهور ص ١٣٧ ، السخاوى : التبر المسبوك فى ذيل السلوك ، نشر أحمد زكى ، القاهرة ١٨٩٦ ، ص ٣٩٤ .

(٢) با مخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ ١ ص ٩٢ .

(٣) با مخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١١١ .

وأياما كان الأمر فإن اهتمام بنى طاهر بالتجارة كان عظيما ،إذ عملوا على زيادة النشاط التجارى فى عدن لارتباط ذلك بتدعيم دولتهم الناشئة ، فكلما زاد إقباله السفن على عدن ، كلما حقق ذلك عائدا أكبر ، يمكنهم استخدامه فى تثبيت دعائم تلك الدولة الناشئة. ولهذا تردد سلاطين بنى طاهر على عدن لتفقد حركة التجارة فيها ، وأولوها رعايتهم [١] ، وتنافس التجار والنواخيذ فى التقرب إليهم بالهدايا النفيسة ، وكان السلاطين يجيزونهم الجوائز السنية لتشجيعهم على العودة [٢]. وأدى اهتمام بنى طاهر بتنمية تجارة عدن إلى عودة التبادل التجارى بينها وبين جدة ، فقد أخذ تجار اليمن يقصدونها بسفنهم ، ولم تلبث العلاقات الطبيعية بين اليمن والحجاز أن استؤنفت من جديد. ففى ٨٦٨ هـ/ ١٤٦٤ م أرسل الشريف محمد بن بركات أمير مكة ابن عمه الشريف إدريس بن قاسم بن حسن بن عجلان فى سفارة إلى اليمن ، فاستقبله والي زبيد استقبالا حسنا وأكرم وفادته [٣] ، وأعطاه من الذهب والفضة والثياب والخيل جملة مستكثرة ، [٤] ، ثم توجه إلى السلطان الظافر عامر الأول ، ففعل معه أكثر من ذلك. [٥]

ومما هو جدير بالذكر أن ثورات قبائل المعاربة والقرشية وبنى حفيص

---

(١) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٥٩ ، قرة العيون ص ١٣١ ب ، با مخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٦٨ ، ص ١١٧١.

(٢) با مخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٨٩.

(٣) با مخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٢٨.

(٤) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٠٥ ، قرة العيون ص ١٢٣ (أ).

(٥) با مخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٢٨.

شمالى زبيد ، جعل تلك القبائل تشكل حاجزا بين زبيد ومناطق تهامة الشمالية، ولهذا لم يتمكن سلاطين بنى طاهر من السيطرة على تلك المناطق ، فاستقل ولاتها بحكمها مثل مدينة جازان التى كانت تحت حكم الشريف أبو الفوايد أحمد بن دريب بن خالد ، ثم انتزعها منه الشريف محمد بن بركات ٨٨٢ هـ/ ١٤٧٧ م ومدينة حلى بن يعقوب التى وقعت تحت سيطرة شريف مكة منذ أن استولى عليها الشريف بركات بن حسن بن عجلان ٨٥٦ هـ/ ١٤٥٢ م .

أما عن الأسباب التى دفعت الشريف محمد بن بركات للاغارة على جازان والاستيلاء عليها ، فترجع إلى ما كان قائما بينه وبين ابن أخيه ابراهيم من خلاف ومنافرة ، دفعت إبراهيم إلى قصد السلطان الملك الأشرف قايتباى وعرض الأمر عليه . وعلى الرغم من تحرز الشريف محمد بن بركات لذلك ، واتخاذه كل وسائل الحيطة لمنعه من تنفيذ خطته فإن الشريف ابراهيم استطاع الوصول إلى جازان وهناك ساعده صاحبها ابن دريب فى الوصول إلى سواكن ومنها إلى مصر [1] . فكان لذلك أثره فى اغضاب الشريف محمد بن بركات أمير مكة ، فجهز حملة أغارت على جازان [2] ورغم المحاولات التى بذلت للصلح الا أن شريف مكة أصر على الحرب فكانت بين الجانبين موقعة كبيرة [3] انتهت بهزيمة صاحب جازان ومقتل عدد كبير من عسكره ، واستيلاء الشريف محمد بن

---

(١) با مخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٤١ .

(٢) وذكر De Gaury (أن هذه الغزوة كانت لسبب غير معروف)
(Rulers of Mecca , p . 109)

(٣) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٢٢ ، قرة العيون ص ١٢٧ ب ، يحيى ابن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٠٩ ، الكبسى : اللطائف ص ٢٢٥ .

بركات على بلادة فقام رجاله بنهب مدينه جازان وأشعلوا فيها النيران [١] ، وهدموا سور المدينة وخربوا دور صاحبها [٢] . وكان صاحب جازان قد تمكن من الفرار ، وأرسل ابنه إلى السلطان الظاهرى المجاهد على فى عدن لبذل الطاعة له ، وطلب معاونته فى استعادة بلاده ، فأنعم عليه المجاهد وأمده بمال كثير [٣] .

وفى نفس الوقت خشي السلطان المجاهد أن تكون هزيمة صاحب جازان دافعاللشريف محمد بن بركات على مواصلة التوغل جنوبا ، مستغلا فى ذلك تمرد القبائل الطامعة فى الاستيلاء على زبيد ، ولما كان يفتقد القدرة على مواجهةهذا الموقف بحكم ظروفه الدقيقة التى تمر بها دولته فقد رأى أن يخاطب قايتباى سلطان مصر الذى كانت له الكلمة على شريف مكة.ولهذا السبب قرر أن

(١) كادت المعركة تنتهى لصالح صاحب جازان ، فلما رأى الشريف محمد بن بركات ذلك ، وكان معه كمية من الدراهم كان قد طلاها بالذهب بحيث لايشك من يراها أنها دنانير ذهب ، وخاصة العرب ، الذين لايميزون بين وزن الذهب وخفة الفضة » فقام ببث هذه الدراهم فى عسكر صاحب جازان حتى أفسدهم عليه فتخاذلوا عنه (بامخرمة : قلادة النحر جـ٣ ص ١١٤١) فلماانتصر الشريف محمد بن بركات أباح انتهاك الحرمات فى جازان « وانكشفت بها العورات وجرى على نساء صاحب جازان من الذل والاهانة وكشف الحجاب ما لم يكن لأحد فى حساب » (ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٢٢ ، بامخرمه: قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٤١) .

(٢) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٢٢ ، قرة العيون ص ١٢٧ ب

De Gaury : Rulers of Mecca, p. 109.

(٣) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٢٣ .

يهاديه ويخطب وده فأرسل إليه هدية سنية وكتب إليه متشفعا فى الشريف أبى الفوارس أحمد بن دريب ، ورجاه أن يمنع شريف مكة من العودة إلى مهاجمة جازان . فاستجاب له السلطان المملوكى وأرسل إلى الشريف محمد بن بركات يأمره بعدم العودة إلى الاغارة عليها ، وكتب إليه يقول « إن « جازان بلدنا» وإننا تصدقنا على الشريف أحمد بن دريب ، فلالك إليه اعتراض بعدهذا»[1].

وهكذا كان لموقف السلطان قايتباى أثره فى توقف نشاط الشريف محمد بن بركات ، وكف يده عن القيام بأعمال معادية لليمن ، ويتضح ذلك من موقفه هذا الشريف من الصراع الذى نشأ على عرش السلطنة بين السلطان المنصور عبد الوهاب وبين أبناء عمه ، ففى ٨٨٣ هـ / ١٤٧٨ م توجه يوسف بن عامر إلى مكة وطلب معاونة الشريف محمد بن بركات ضد السلطان المنصور عبد الوهاب ولكن شريف مكة اعتذر بعدم إمكانه بذل المساعدة[2].

واستمرت العلاقات الطيبة تسود البلدين الشقيقين فى عهد السلطان الطاهرى الظافر عامر الثانى ، ففى صفر ٨٩٧ هـ / ديسمبر ١٤٩١ م وفد الشريف رميثة بن بركات - أخو الشريف محمد بن بركات - إلى زبيد فاستقبله واليها استقبالا حسنا وأكرم وفادته ، ثم أرسله لمقابلة السلطان الظافر عامر الثانى الذى بالغ فى إكرامه والترحيب به وأنعم عليه[3] .

---

(١) بامخرمة : قلادة النحر حـ ٣ ص ١١٤١ .

(٢) انظر الفصل الثالث ص ٢٧١ - ٢٧٤

(٣) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٦٢ ؛ بامخرمة : قلادة النحر حـ ٣ ص ١١٧٢ .

ثانيا ـ العلاقات مع الحبشة :

جرى ملوك الحبشة على اتباع سياسة قوامها معاداة العناصر الاسلامية . ويتجلى ذلك بوضوح فى القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) عندما دخل ملوكها فى مجال الصراع الصليبى ، فاشتدت وطأتهم على المسلمين فى بلادهم من جهة كما بدأت اتصالاتهم بالفرنج لضرب مصر ، قاعدة النضال ، وحامية حمى الاسلام والمسلمين من جهة ثانية .

لم يكتف ملك الحبشة اسحاق بن داود (١٤١٤ ـ ١٤٢٩ م) باضطهاد المسلمين فى بلاده والتنكيل بهم ، بل قام بمراسلة ملوك الفرنج للتحالف معهم ضد المسلمين ، واعداد حملة صليبية مشتركة ضد مصر ، بحيث تقوم جيوش الفرنج بمهاجمتها من الشمال ، وتتولى جيوشه مهمة الإطباق عليها من الجنوب[١] . ولما كان هذا الاتفاق مجرد مشروع لم يدخل بعد فى حيز التنفيذ ، فقد تبنى الملك زرع يعقوب (١٤٣٤ ـ ١٤٦٨ م) هذه السياسة وتوسع فى تنفيذها ، وعاود مراسلة ملوك الفرنج ، وخاصة الفونسو الخامس (١٤٤٦ ـ ١٤٥٨ م) ملك أرغونة المشهور بتعصبه وعدائه للمسلمين . ولم يكتف زرع يعقوب بذلك بل أراد الخروج من الكنيسة المصرية والارتباط بكنيسة روما ، وفى سبيل هذه الغاية أرسل راهبين لحضور مجمع فلورنسة ١٤٣٩ م الخــــاص بالنظر فى

---

(١) المقريزى : الالمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام ص ٨ ، عبد المجيـد عابدين : بين الحبشة والعرب ص ١٨٢ ـ ١٨٣ ، سعيـد عاشور : بعض أضواء جـديدة على العلاقات بين مصر والحبشة فى العصور الوسطى ، المجلة التاريخية سنة ١٩٦٨ ، ص ٣٣ .

توحيد الكنيستين الغربية والشرقية (١) . كما سمح البابا باقامة دير حبشى فى روما (٢) .

ولما كان زرع يعقوب حريصا على سرية تحركاته فقد تظاهر بتمسكه الشديد بالعلاقات الطيبة مع مصر قاصدا بذلك التمويه على سلطانها . ففى عام ٨٤٧ هـ / ١٤٤٣ م أرسل ملك الحبشة هدية إلى السلطان جقمق يطلب إليه حسن معاملة نصارى مصر ولم يخل كتاب ملك الحبشة من اتهامات عن سوء معاملة النصارى فى مصر ، والتهديد بتحويل مجرى النيل ، ومنع المياه من الوصول إلى مصر . وعلى الرغم من عبارات الاتهام والتهديد التى وردت فى كتابه ، فإن السلطان جقمق كان معتدلا فى مسلكه مع رسل زرع يعقوب ، وجهز معهم أحد رجاله هو يحيى بن أحمد بن شاد بك ، برسالة وهدية ردا على سفارة ملك الحبشة، ولكن رسالة جقمق لم ترق لملك الحبشة ، لذلك أساء معاملة قاصدة ولم يسمح له بالعودة واحتجزه وتهدده ، وكانت قواته قد أغارت على إمارة عدل الاسلامية وظفر عسكره بأميرها شهاب الدين بن سعد الدين وقتلوه ، فألزم زرع يعقوب رسول جقمق بتحمل مشاق السفر أياما ليرى ابن سعد الدين قتيلا ، وليشهد ما صنعه بأتباعه « ليكون أنكى للمسلمين » ، ولم يسمح بعودته الى مصر

---

(١) أحمد دراج : المماليك والفرنج ، القاهرة سنة ١٩٦١ ، ص ٥٠ ،

Budge : BHistory of Ethiopia and Nubia, London 1928, Vol. I, P. 334. Kammerer: La Mer Rouge, T.I, P. 305 et Suiv.

(٢) Budge op. cit, Vol. I,P. 311, Trimingham : Islam in Ethiopia, Oxford 1952, P. 67.

إلا بعد مضي أربعة أعوام (١) . وتمادى زرع يعقوب في تعصبه وعدائه للمسلمين ، ووصلت الأخبار إلى مصر أنه تام ٨٥٣هـ/١٤٤٩ م بإعداد أسطول ضخم للاغارة به على بلاد الحجاز وانتهاك حرمة المقدسات الاسلامية (٢) .

تلك الصورة البشعة القاتمة كانت تمثل السمات المميزة لموقف الحبشة العدائي للاسلام ، وجرت العادة أن يتوجه مسلمو الحبشة بصريخهم إلى مصر واليمن كلما تعرضوا لاضطهاد ملك الحبشة المسيحى ، وكان ملوك اليمن بحكم قرب بلادهم من أرض الحبشة لايترددون في المبادرة بإرسال النجدات حسب إمكاناتهم المتاحة . وفي عهد بني طاهر تكرر إرسال المساعدات إلى بني سعد الدين أمراء منطقة عدل الذين أخذوا على عاتقهم مهمة مقاومة اضطهاد ملوك الحبشة للمسلمين ، واقتصرت تلك المساعدات على الخيول وأدوات القتال (٣) . ففي شعبان ٨٧٩ هـ / ديسمبر ١٤٧٤ م أرسل السلطان المجاهد علي بن طاهر مائة وخمسة من الخيول العربية مع كمية ضخمة من السيوف والدروع والرماح لمعاونة ابن سعد الدين على الجهاد (٤) . وفي جمادى الأولى ٨٨١ هـ / أغسطس ١٤٧٦ م أرسل السلطان الظاهري المجاهد علي مجموعة أخرى من الخيول

---

(١) السخاوي : التبر المسبوك ص ٦٧ — ٧٢ ، عبد المجيد عابدين : بين الحبشة والعرب ص ١٨٣ — ١٨٥ ، دراج : المماليك والفرنج ص ٥٢ — ٥٤ .

(٢) السخاوي : التبر المسبوك ص ٢٠٩ ، احمد دراج : المماليك والفرنج ص ٦٥ ، سعيد عاشور : بعض أضواء جديدة ص ٤٠ .

(٣) بامخرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١٠٨٣ .

(٤) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢٦ ب ، بغية المستفيد ص ١٩٨ ، بامخرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١١٣٢ .

تنيف عن خمسين فرسا (١) كما تكرر ذلك فى عصر السلطان المنصور عبد الوهاب ابن داود (٢) . ومما يذكر أن عبد الباقى بن محمد بن طاهر أحد أمراء بنى طاهر ، كان قد دخل فى دوامة الصراع الأسرى حول عرش السلطنة ، وأرغمه السلطان الظافر عامر الثانى إلى أن يلوذ بالفرار إلى ساحل الحبشة ، واتفق أثناء مقامه لدى بنى سعد الدين أن أغار ملك الحبشة على بلادهم ٨٩٧ ﻫ / ١٤٩٢ م فاشترك عبد الباقى فى شرف الجهاد معهم وقام بدور كبير فى هذه المعركة وأظهر شجاعة نادرة وبأسا شديدا أثار إعجاب ابن سعد الدين به فزاد فى تكريمه واكباره (٣) .

ومع ذلك فأن موقف اليمن من سياسة الأحباش التعسفية مع المسلمين لم يكن حاسما كما أن مساندتها لمسلمى الطراز الإسلامى ضد اضطهاد وتنكيل نجاشي الحبشة بهم لم يكن ذا أثر ، فالمساعدات كانت تتم على فترات متباعدة ، وفى معظم الأحيان كانت تقتصر على عدد من الخيول وأدوات القتال . والمعتقد أن السبب الحقيقى من الاقتصار على تلك المساعدات المحدودة المتباعدة التى كان يبذلها الطاهريون وعدم إقدامهم على إمداد المسلمين فى الحبشة بالرجال والسلاح يكمن فى ضعف امكانياتهم وقدراتهم العسكرية فى مواجهات دولية من جهة وفى انشغالهم بتثبيت دعائم ملكهم ، وتركيز طاقتهم للقضاء على

---

(١) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٢١ ، بامخرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١١٤٠ .

(٢) بامخرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١١٨٣ .

(٣) بامخرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١١٧٢ .

حركات العصيان التي انتشرت في أنحاء متفرقة من اليمن، ولهذا كانت مساعداتهم المادية لمسلمي الحبشة بسيطة، إكتفاء بالمساعدات المعنوية .

ثالثا : الكشوف البرتغالية : أهدافها الصليبية وأثرها على الاقتصاد اليمني والمصري :

١ ـ دور الكشوف البرتغالية في تحقيق المطامع الصليبية :

استهدفت الجهود البرتغالية ـ في الكشف عن طريق حول القارة الافريقية ـ التوصل إلى تحقيق التعاون مع الحبشة للقيام بحرب صليبية في البحر الأحمر يكون من أهدافها الرئيسية تدمير المقدسات الإسلامية في الحجاز وضرب مصر اقتصاديا والسيطرة عليها من ناحية الجنوب ، بعد أن فشلت المحاولات الصليبية السابقة في تحقيق ذلك من ناحية البحر المتوسط شمالا . فقد كانت مصر مصدر القوة في المنطقة ، وهي التي حملت لواء الجهاد ضد قوى الصليبيين، منذ قيام الدولة الأيوبية على يد صلاح الدين ، إلى أن تم إجلاؤهم عن آخر معاقلهم في الشام على يد السلطان الأشرف خليل بن قلاوون في سنة ٦٩٠ هـ / ١٢٩١ م (١) .

وكان لسقوط المستوطنات الصليبية في الشام ، وفشل محاولاتهم المتكررة لاستعادتها ، أثره في التركيز على مصر باعتبارها الصخرة التي تحطمت عليها آمالهم . ووجدت البابوية أن محاربة مصر اقتصاديا من شأنه أن يؤثر على قوتها الحربية ، لذلك أعلنت الحرب الاقتصادية ضد مصر ، وحرمت على

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٨ ، ١٠ .
Stevenson : The Crusaders in the east, pp. 354 - 355 .

الأوربيين التعامل معها تجاريا ، وحثهم على انعاش الطرق التجارية الأخرى ، للاضرار بالاقتصاد المصرى . ومن المعروف ان مصر كانت تعتمد بوجه خاص على عائدات التجارة الشرقية التى كانت أوربا سوقا لها . ولا شك فى أن نجاح هذا المخطط كان من شأنه أن يؤدى إلى اضعاف مصر سياسيا واقتصاديا ويمهد السبيل للقضاء على قوتها الذاتية تمهيدا للسيطرة عليها عسكريا (١) ، ويساعد بالتالى على استعادة المناطق التى أرغمهم المصريون على التخلى عنها فى الشام . إلا أن تلك السياسة لم يكتب لهـــا النجاح لعدم التزام الجمهوريات الايطالية بتنفيذها ، لتعارضها مع مصالحها التجارية (٢) ولهذا بدأ نوع جديد من النشاط الموجه ضد مصر ، فقد تعهد القبارصة والكتلان وفرسان الاسبتارية بالقيام بأعمال القرصنة فى البحر المتوسط والاغارة على سواحل مصر والشام . وعلى الرغم من نجاح السلطان برسباى فى الاستيلاء على قبرص (٣)، ومحاولات جقمق الثلاثة للاستيلاء على رودس (٤) ، إلا أن ذلك لم يخفف من حدة غارات

---

(١) أحمد دراج : المماليك والفرنج ص ٧ .

(٢) Heyd : Histoire du Commerce, T. II, P. 25 ff.

(٣) عن فتح قبرص ، انظر ، السيوطى : غـــزوات قبرص ورودس (فينيا ١٨٨٤) ، سعيد عاشور قبرص: والحروب الصليبية (القاهرة ١٩٥٧) ، ابراهيم على طرخان : مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة ص٩٥ وما بعدها،

Hill, (G.): A History of Gyprus (Camb. 1948), Alastres, (D): Cyprus in History, London, 1955, Darrage: L'Egypte sous Le régne de Barsbay, Chap. VII

(٤) عن محاولات جقمق لفتح رودس ، انظر ، السيوطى: المصدر السابق، محمد مصطفى زيادة : المحاولات الحربية للاستيلاء على جزيرة رودس زمن =

القراصنة فى البحر أو على المواني المصرية والشامية [1] . وكان لنجاح حركة القرصنة أثرها فى زيادة المطامع الصليبية ضد مصر المملوكية [2] ، والتفكير فى توسيع نطاق الحرب ضدها بادخال الحبشة فى المعركة الصليبية ، والتحالف معها للقيام بحملة مشتركة لغزو مصر من الشمال والجنوب فى آن واحد ، مما يساعد على انتزاع بيت المقدس وبقية المناطق الساحلية من جديد . إلا أن هذا الحلف لم يقدر له الدخول فى مرحلة التنفيذ ، لتسرب أنبائه إلى المماليك ، فتشددوا فى منع أى اتصال بين الفرنج والحبشة ، التى عادت إلى التمسك مرة

= سلاطين المماليك فى القرن الخامس عشر الميلادى ، مجلة الجيش ١٩٤٩ ، ابراهيم على طرخان : مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة ص ١٠٥ وما بعدها ، أحمد دراج : المماليك والفرنج ، ص ٤٨ ، ٥٤ ، ٥٦ .

(١) السيد عبد العزيز سالم : تاريخ الاسكندرية وحضارتها فى العصر الإسلامي ، الاسكندرية سنة ١٩٦١ ، ص ٨٥ وما بعدها ، طرابلس الشام فى التاريخ الاسلامى ، الاسكندرية ١٩٦٧ ص ٣٥١ وما بعدها ، دراسة فى تاريخ مدينة صيدا فى العصر الاسلامى ، بيروت ١٩٧٠ ، ص ١٧٢ ، أحمد دراج : المماليك والفرنج ص ٩ ، ٧٠ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ١٠٣ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، نعيم زكى : طرق التجارة ص ٢١ .

(٢) كان سلاطين المماليك يلجأون — كلما اشتدت هجمات القراصنة — إلى اعتقال قناصل الفرنج وتجارهم في مصر والشام ، كما كانوا يلقون القبض فى بعض الأحيان على رهبان دير صهيون بالقدس ، مع التهديد بإغلاق كنيسة القيامة فى وجه حجاج الفرنج . كل ذلك كان يقوم به السلطان المملوكي لتخفيف حدة هجمات القراصنة . (أحمد دراج : المماليك والفرنج ص ١٧ ، ١٨ ، ٢٣ ، ٧٦ ، ٩٠ ، ١٠٦) .

أخرى بالارتباط بالكنيسة المصرية [١] .

وحقيقة الأمر أن القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) شهد اشتداد روح التعصب الصليبى ضد المسلمين ، وبلغ التعصب ذروته فى الأندلس بقيام الممالك المسيحية بأسبانيا بتصفية الوجود الاسلامى نهائيا من آخر معاقله غرناطة التى سقطت سنة ٨٩٧ هـ / ١٤٩٢ م [٢] ، وأجبر المسلمون فيها على التخلص عن دينهم واعتناق المسيحية تجنبا للتعذيب والقتل [٣] .

أما البرتغال فقد تجسدت فيها الروح الصليبية وعملت على تطويق العالم الاسلامى [٤] ، وما أن تمكن ملكها خوان الأول من الاستيلاء على سبتة سنة ٨١٨ هـ/١٤١٥ م [٥] حتى أقطعها لابنه الأمير هنرى الشهير بالملاح والمعروف بحقده وكراهيته المتناهية للاسلام والمسلمين .

---

(١) أحمد دراج : المماليك والفرنج ص ١٧ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٦٩ .

Kammerer ; La Mer Rouge, T.I, pp 59 - 62, Atiya : The Crusede, p. 278

(٢) السلاوى : الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى ، الدار البيضاء سنة ١٩٥٤ ، جـ ٤ ص ١٠٣ - ١٠٤ ، أحمد مختار العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ص ٤٦٨ .

(٣) أحمد دراج : المماليك والفرنج ص ١٠ ، ٧٠ ، ٩٤ ، ٩٨ ، ١٠٣ ، ١١١ ، ١٢٧ ، ١٣١ ، ١٣٤ .

Kammerer : op. cit. T. II p. 144.

(٤) Macro (Eric) : Yemen and the Western World Since 1571, London 1968 p. 1.

(٥) السلاوى : الاستقصا جـ ٤ ص ٩٢ ، أحمد مختار العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ص ٤٥٥ وما بعدها .

وقد اهتم هنرى الملاح بدراسة امكانية الوصول بحرا إلى المحيط الهندى لتنفيذ أهدافه الصليبية ، ولهـذا الغرض أحاط نفسه بمجموعة من العلماء ، وكان الأمير هنرى قد تمكن من اكتساب ثقة البابا مارتن الخامس الذى بارك جهود فى حروبه ضد المسلمين مما شجعه على ارسال أولى حملاته البحرية الاستكشافية لساحل إفريقية الغربى فى ١٤١٨ (١) .

وكان يهدف من وراء ذلك إلى تحقيق مكاسب سياسية واقتصادية بالإضافة إلى المكاسب الدينية . ذلك أن نجاح حركة الكشوف من شأنها أن تحقق السيطرة على مواطن التوابل وانتزاع احتكارها من مصر والبندقية ، ومن ثم تصبح اشبونة المركز الرئيسى لها (٢) ، كما يتيح الفرصة للكشف عن مناطق مجهولة ـ قد يكون من بينها بلاد مسيحية ـ كان عدم معرفتها حائلا للوصول إليها والإتجار معها . هـذا إلى جانب التعرف على قوة المسلمين فى إفريقية ، والبحث عن مملكة القديس يوحنا ـ التى انتشرت الأساطير عنها فى أوربا ـ وتحقيق التعاون معها للقضاء على المسلمين وتحقيق الأحلام الصليبية ، مع الاهتمام بالبعثات التبشيرية لنشر المسيحية بين أهالى المناطق المكتشفة ، وحمل السكان على اعتناقها (٣) .

---

(١) سونيا هاو : فى طلب التوابل (مجموعة الألف كتاب ، الكتاب رقم ٩٨) ، القاهرة ١٩٥٧ ، ص ٩٤ ـ ٩٥ .

(٢) سعيد عاشور : أوربا فى العصور الوسطى جـ ١ ص ٥٩٠ ،

Kamerer; op. cit, T. II, p. 9,

(٣) سونيا هاو : فى طلب التوابل ص ١٠٣ .

وكان الفشل الذى منيت به حركة الكشوف - فى سنواتها الأولى - كافيا لإقناع الأمير هنرى الملاح بالتوقف ، نظرا للتكاليف الباهظة التى كانت تتكلفها الحملات ، بالإضافة إلى المصاعب العديدة والأهوال التى كان يتعرض لها البحارة . وعلى الرغم من ذلك واصل جهوده دون كلل فى توجيه الحملات الاستكشافية ، بغية الوصول إلى الهند والتعاون مع مملكة القديس يوحنا للقضاء على المسلمين [١] . وحتى لا تنشغل قواته بحروب جانبية تعوقها عن الاستمرار فى الكشوف ، أصدر أوامره للاحيه بحسن معاملة أهالى المناطق التى يمرون بها ، وعدم التعرض لهم كسبا لقلوبهم وتجنبا لمقاومتهم [٢] .

ولما كانت حركة الكشوف تعتبر امتدادا للحروب الصليبية [٣] ، فقد قام البابوات يوجين الرابع (١٤٣١ - ١٤٤٧م) ، ونيقولا الخامس (١٤٤٧ - ١٤٥٥ م) ، وكالكستس الثالث (١٤٥٥ - ٥٨ ١ م) على التوالى باصدار قرارات بمباركة الجهود البرتغالية ، والاعتراف بحق البرتغال الكامل فى ملكية المناطق المكتشفة ، وتأييد جهودها التبشيرية وحروبها ضد المسلمين ، وغفران خطايا من يلقى حتفه من المشتركين فى حركة الكشوف ، شأنهم فى ذلك شأن رجال الحروب الصليبية [٤] . فكان لتلك القرارات أثرها فى دفع حركة

---

(١) سونيا هاو : نفس المرجع ص ١٠٠ ، بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ، القاهرة سنة ١٩٦١ ، ص ٢٦ .

(٢) سونيا هاو : نفس المرجع ص ١٠٢ - ١٠٣ .

(٣) Serjeant (R.B.) : The Portuguese off the South Arabian Coast, Oxford, 196 , p. 2.

(٤) سونيا هاو : فى طلب التوابل ص ١٠٧ ، بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ص ٢٧ - ٢٨ .

Depping , (G.B.) Histoire du Commerce Entre La Lavant, Paris, 1830, T. II, p. 261

الكشوف ونجاح الملاح البرتغالى بارثلميودياز فى الوصول سنة ١٤٨٧ م إلى أقصي الطرف الجنوبي لإفريقية ، واكتشاف رأس الرجاء الصالح [١] . ثم تمكن فاسكودى جاما من الطواف حول افريقية ، والوصول إلى الشواطىء الغربية الهندية ، والرسو بسفنه فى ميناء قاليقوط سنة ١٤٩٨ م [٢] .

أحدث نجاح البرتغاليين فى اكتشاف طريق جديد إلى الهند ثورة في تجارة الشرق ، وحقق للبرتغال مجداً عظيما إلى درجة أدت إلى تلقب ملوكها بسادة الفتح والملاحة والتجارة فى الهند والحبشة وبلاد العرب وفارس ، وسرعان ما أيد البابا هذا اللقب [٣] . وهكذا قويت عزائم البرتغاليين فى إحتكار التجارة ، وتوجيه الضربات ضد المسلمين ، والتبشير بالمسيحية [٤] .

عمل فاسكودى جاما — منذ وصوله إلي قالقوط — على دراسة الموقف فى الهند ، وأزعجه كثرة العرب ، وسيطرتهم على التجارة ، وتمتعهم بثقة الهنود [٥]

---

(١) سونيا هاو : نفس المرجع ص ١٣١ — ١٣٢ ، بانيكار : نفس المرجع ص ٢٩ ، Kammerer : op. cit, T. 11, p, 9.

(٢) شارل ديل : البندقية جمهورية ارستقراطية، القاهرة ١٩٤٨، ص ١٤٥ ، بانيكار : نفس المرجع ص ١٩ ، أحمد مختار العبادى : تاريخ البحرية الإسلامية ص ٢٦٦ .

(٣) لوريمر : دليل الخليج ترجم وطبع على نفقة حاكم قطر — الدوحة ١٩٦٧ جـ ١ ص ٥ .

(٤) بانيكار : أسيا والسيطرة الغربية ص ٣٠ ، Kammerer : op. cit : T II, P . VI

(٥) نفس المرجع ص ٣٨ .

وكان سلطان قاليقوط عاصمة مليبار الملقب بالزامورين (Zamorin) [١]، أو السامرى - كما يسميه ابن بطوطه - [٢] ، قد أدرك بفضل تحذيرات العرب له، مدى الخطر الذى يتهدد بلاده نتيجة لوصول البرتغاليين إلى الهند [٣] . ولما كان كل مايهم قائد الأسطول البرتغالى فى تلك المرحلة هو الحصول بأى وسيلة على كمية من البهار لتكون دليلا على نجاحه فى الوصول إلى مصادرها ، فإنه قبل شراء ماعرضه السامرى عليه من الأنواع الرديئة ، وبالأسعار التى حددها له ، حتى ينفى عن نفسه صفة الجاسوسية التى ركز تجـــار العرب على إقناع صاحب قاليقوط بها [٤] . والظاهر أنه أدرك مدى الخطر الذى يحيط به ، ولذلك فما أن حصل على كمية التوابل حتى أسرع بمغادرة ميناء قاليقوط فى طريقه إلى كنانور حيث قابله ملكها المعادى لصاحب قاليقوط بحفاوة بالغة ، وتبادل معه الهدايا رمزاً للصداقة [٥] .

ولما كان موعد وصول الأساطيل التجارية العربية قد حان ، فقد بادر فاسكودى جاما بمغـادرة الشواطىء الهندية فى العشرين من نوفمبر ١٤٩٨ ، وأقفل عائداً إلى بلاده . ومن الجدير بالذكر أن دى جاما كان حريصاً فى تلك

---

(١) Kammèrer : Ibid , T. II ; p . 2? .

(٢) رحلة ابن بطوطة جـ٢ ض ١١٥ .

(٣) بانيكار : المرجع السابق ص٣٧ . Kammerer . Ibid · T. II , p 87.

(٤) سونيا هاو : فى طلب التوابل ص ٢٠٠ ، Moreland , W·H . : A Short History of India, London , 1944 , p 183'

(٥) نفس المرجع ، ص٢٠١ ، Kammerer : op . cit . T II , pp 87f·

الرحلة الكشفية على عدم إثارة المشاعر ضد البرتغاليين ، حتى لا تتعرض حماته للخطر ، أو تتنبه القوى المعادية لهم فتستعد للتصدى لسفن البرتغال ، مما يهدد بالقضاء على آمال دولته ، لذلك رفض تنفيذ ما أشـــار به بعض أتباعه بالإستيلاء على شحنات السفن التى يصادفونها فى طريقهم . وواصل تقدمه إلى مالندى على شاطىء إفريقيا الشرقى ، ثم غادرها فى العشرين من يناير سنة ١٤٩٩ ، بعد تبادل الهدايا مع حاكمها ، وتمكنت إحدى سفنه بقيادة نيكولاو كويلها من الوصول إلى أشـــبونه فى العشرين من يوليو سنة ١٤٩٩ ، أما فاسكودى جاما فقد تأخر شهرين ، وكان وصوله فى الثامن عشر من سبتمبر سنة ١٤٩٩ ، بعد سته عشر شهراً استغرقتها رحلته ، التى فقد أثنائها ثلثى ماكان معه من الرجال ، من بينهم أخيه باولودى جاما ، الذى كان قد إشتدت به العلة أثناء رحلة العودة ، وتوفى بجزر الآزور ، وكان السبب فى تأخر وصول دى جاما بعد نيكولا وكويلها (١) .

وكـان لنجاح فاسكودى جاما فى الوصول إلى الهند عن طريق الطواف حول إفريقية وتوصله إلى مصدر التوابل أثره فى تشجيع الملك البرتغالى مانويل على مواصلة إعداد الحملات وإرسالها إلى الهند ، لتأكيد السيطرة البرتغالية على البحار الشرقية ، وتنفيذ الأهداف البعيده التى قامت حركة الــــكشوف من أجلها . وبعد ستة أشهر من عودة دى جاما ، وفى التاسع من مارس سنة ١٥٠٠ أرسل الملك مانويل أسطولا آخر ، شحنه بأنواع السلع

---

(١) سونيا هاو : فى طلب التوابل ص ٢٠٢ – ٢٠٥ .

لمبادلتها بالتوابل [١] وأسند قيادة هذا الأسطول إلى بدرو الفاريز كابرال وزوده بمجموعة من الفنيين والعمال والقسس ، وأمره بالإهتمام بتشييد الحصون والعمل على نشر المسيحية ، ولو بقوة السلاح [٢] . ولشدة العواصف عند رأس الرجاء الصالح تعرضت أربع من سفنه للغرق ، كان بارثلميو دياز يقود إحداها ، فغرق فى المنطقة التى يرجع إليه الفضل فى اكتشافها [٣] ، وتمكن كابرال من مواصلة الإبحار بما تبقى من أسطوله بحذاء ساحل إفريقية الشرقى حتى وصل إلى سفالة فى أواخر يولية سنة ١٥٠٠ [٤] ، ومنها إلى رأس جاردىفوى (القرن الافريقى) ؛ ومنها إلى بربرة [٥] ، ثم إتخذ طريقه إلى الهند فوصل إلى قاليقوط فى ١٣ سبتمبر سنة ١٥٠٠ [٦] .

ويبدو أن صاحب قاليقوط قد راعه قوة هذا الأسطول ، ولم يشــأ أن يخاطر بمحاربته ، ولذلك أبدى ترحيبه بكبرال واستقبله إستقبالا حافلا وتبادل معه الهدايا . ورغم موافقه الســامرى على منح البرتغاليين مركزاً لتجارتهم فى قاليقوط ، إلا أن الأمور لم تلبث أن تأزمت نتيجة استخدام

---

(١) Kammerer : La Mer Rouge, T. *II*, p. 93.

(٢) سونيا هاو : ص٢٠٧ – ٢٠٨ .

(٣) إنفصلت إحدى سفن الأسطول بقيادة دياجو دياز بفعل الرياح عن الأسطول ، فتمكن من اكتشاف جزيرة قمر ، وأطلق عليها إسم سان لورنزو (سونياداو : المرجع السابق ص١٠٢)

(٤) Kammerer : Ibid. T. II, p. 94.

(٥) سونيا هاو : المرجع السابق نفس الصفحة

(٦) Kammerer : Ibid. T. II, p. 9[illegible]

البرتغاليين القوة معه (١) ، ولإصرار كبرال على المطالبة بمنع التجار العرب من الإقامة فى قاليقوط. مما اضطر القائد البرتغالى إلى الانسحاب من قاليقوط بعد أن قصفها بمدافعه ، وتوجه إلى كوشين وكنانور فقوبل فيها بترحيب حار وتوصل إلى عقد إتفاقيات تجارية معها (٢) ، ولم يلبث كبرال أن استعد لرحلة العودة فوصل أشبونة فى آخر يولية سنة ١٥٠١ محملا بكميات هائله من التوابل (٣) .

وهكذا أمكن لأشبونة بفضل عامل القوة للحصول بأرخص الأسعار على كميات كبيرة من التوابل وجنت البرتغال بفضل ذلك أرباحا فاحشـــة عوضت ما أنفق على الحملات ، مع تحقيق فائض من الأرباح كبير . أضف إلى ذلك أن أسعار البيع فى أشبونة كان أقل بكثير من الأسعار التى كانت تبيع بها البندقية ، بل أقل مما كانت البندقية تشترى به من أسواق الاسكندرية نفسها ، مما أدى إلى رواج أسواق أشبونة ، ومنافستها للبندقية والقضـاء على احتكارها لتجارة التوابل ، وأضر ذلك ضرراً بالغاً بمصر واليمن ، إذ توقفت الحركة التجارية إلى حد استحال فيه تصريفها ، وخاصة بعد أن تتمكن البرتغال من احكام السيطرة على المدخل الجنوبى للبحر الأحمر .

---

(١) بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ص٢٩ .

(٢) سونيا هاو : المرجع السابق ص ٢١٠ - ٢١١ .

(٣) زين الدين المعبرى المليباري : تحفة المجـاهدين فى بعض أحوال البرتكاليين ، اشبونة ١٨٩٨ ، ص ٣٧ - ٣٨ ؛

Heyd : Histoire du Commerce, T. *II*, p. 512, *Kammerer*: op cit. T. *II*, p. 94.

ثم تتابعت الحملات البرتغالية ، وانتظم وصولها سنويا إلى الهند ، ففى أواخر يناير ١٥٠١ أبحر فينسنت سودريه على رأس أسطول إلى الهند (١) ، كما جهزت مجموعة أخرى من السفن بقيادة جين دى نوفا ، أبحرت من البرتغال فى منتصف مارس ١٥٠١ ، وكان هدفها الانتقام من قاليقوط ودعم الصلات مع كانانور وكوشين . واشتبك دى نوفا فى معركة بحرية مع أسطـــول قاليقوط (٢) انتصر فيها بفضل استخدام المدفعية (٣) ، وأغرقت خلال تلك المعركة مجموعة من السفن التجارية العربية ، نذكر منها سفينة للسلطان المملوكى كانت قد تهيأت للإقلاع إلى جدة (٤)

وتشتد وطأة البرتغاليين لضرب التجارة العربية ، واستخدام أعنف الأساليب ضد التجار والحجاج العزل ، ففى الثالث من مارس ١٥٠٢ غادر فاسكودى جاما البرتغال مرة أخرى على رأس أسطول كبير إلى الهند ، فوصل أولا إلى ساحل إفريقية الشرقى ، حيث أقام مراكز للتوابل فى كل من سفالة وموزمبيق وكلوة . كما استولى على بعض السـفن العربية التى اتفق وجودها بميناء مالندى ، وفى أول أكتوبر ١٥٠٢ استولى كذلك على سفينة كبيرة للسلطان الغورى كانت محملة بالتوابل عليها مجموعة من الحجاج الهنود

---

(١) *Kammerer* : La Mer Rouge, T. *II*, p. 94.

(٢) زين الدين : تحفة المجاهدين ص٣٨ .

(٣) Heyd ; op. cit. T. *II*, p. 513, *Kammerer*: T. *II*, p. 95.

(٤) زين الدين : نفس المرجع والصفحة ، أحمد دراج : المماليك والفرنج ص ١٣٢ .

Wiet: L'Egypte Arabe, pp. 616 f.

كانوا فى طريقهم إلى البحر الأحمر[١]. وفى الهند توصل دى جاما إلى عقد حلف مع ملك كنانور ضد قاليقوط ، كما عقد اتفاقيات أخرى مع كوشين وكولم[٢]. واستغل فاسكودى جاما فرصة العداء بين بعض القوى الهندية ، وعمل على توسيع هوة الخلاف فيما بينها ، وضرب بعضها ببعض ، كما توسع فى سياسة القرصنة والعنف ، واتبع أساليبا غير إنسانية ، فكان يقطع الطريق على السفن دون أى تحذير ، ويقوم بأسرها ، وينهب ماعليها من بضائع ، ثم إغراقها أو إحراقها بمن عليها من تجار وبحارة وحجاج وغيرهم[٣]. ولم يكن يكتفى بذلك بل كان يعمد إلى تعذيب من يقع فى يده من المسلمين كاستئصال أنوفهم وآذانهم وأصابعهم ، أو القضاء عليهم بقطع رؤسهم[٤].

كان للأعمال الإنتقامية الشنيعة التى لجأ إليها فاسكودى جاما أثرها السيىء فى قاليقوط ، لذلك استعد صاحبها بأسطوله واشتبك فى معركة بحرية عنيفة مع الأسطول البرتغالى تجاه ساحل كوشين ، وإذا كانت مدفعية الأسطول البرتغالى قد تمكنت من إلحاق بعض الأضرار بأسطول قاليقوط ، إلا أن خفة تلك السفن وسرعتها مكنتها من المناورة لتفادى نيران المدفعية ، ولولا

( ) Kammerer : op. cit, T. II p 97.

(٢) زين الدين : نفس المرجع والصفحة

Kammerer : Ibid pp. 97 f

(٣) ديل ، شارل : البندقية ص ١٤٩ . بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ص ٤٠ .

(٤) Kammerer : op. cit.; T. II, p. 98, Wilson: The persian Gulf, London, 1945, p. 114.

انسحاب دى جاما ، لتمكن أسطول ألبوكيرك من إيقاع الهزيمة بالأسطول البرتغالي [1] .

وكان على فاسكودى جاما - تنفيذاً لأوامر حكومته - أن يقوم بإغلاق البحر الأحمر والخليج الفارسي لمنع وصول تجارة الشرق إلى مصر ، وضمان عدم وصول السفن - خاصة الحربية - إلى الهند ، حتى تتمكن الأساطيل البرتغالية من تحقيق السيطرة على الهند ، والقضاء على تجارة عدن ومصر ، تمهيداً لتوجيه ضربة مباشرة في البحر الأحمر ، ولذلك أمر دى جاما - بعد أن استقر عزمه على العودة إلى بلاده - بترك جزء من أسطوله بالقرب من باب المندب لإغلاق البحر الأحمر ، ومنع وصول السفن اليه أو خروجها منه [2] ، كما ترك مجموعة أخرى عند جزر كوريا موريا للقيام بأعمال القرصنة ضد السفن العربية [3] ، وبعد أن تم له ذلك ، أقفل عائداً إلى بلاده ، حاملا معه كميات هائلة من التوابل والسلع التي حصل على معظمها عن طريق السلب والنهب ، فكان وصوله إلى البرتغال في سبتمبر ١٥٠٣ [4] .

---

(١) بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ص ٤١ - ٤٢ .

(٢) ديل ، شارل : البندقية ص١٤٩ ،

Macro : Yemen and Western World; p. 1

(٣) Kammerer: Ibid, p. 98, Sarjeant The portuguese, 41

(٤) ديل : المرجع السابق ص١٤٦ ؛ أحمد دراج : المماليك والفرنج ص١٣٢ ،

Kammerer Ibid, T. *II*, p. 98.

وفى الوقت الذى كان دى جاما يستعد فيه لرحلة العودة كانت حملة بحرية أخرى قد أبحرت من البرتغال فى السادس من ابريل ١٥٠٣ بقيادة ثلاثة من كبار القادة أبرزهم الفونسود البوكيرك وأخوه فرنسسكو وأنطوان دى سالدانها(١) . وكان صاحب قاليقوط قد تمكن من التغلب على صاحب كوشين بعد عودة فاسكودى جاما (٢) ، وأحرق مدينته ، وقضى على الحامية البرتغالية فيها . ولهذا كان أول أهداف دالبوكيرك عند وصوله الانتقام من صاحب قاليقوط ، وقد تم له ذلك وأجبره على الموافقة على إقامة قلعة برتغالية فى بلاده كما فرض عليه غرما عينياً كبيراً ، وأرغمه على منع تصدير التجارة للبحر الأحمر . وفى نفس الوقت عمل على تمكين مركز البرتغال فى كوشين ، واهتم بتدعيم الحامية البرتغالية فيها وزودها بالأسلحة والعتاد ، ثم ترك زميليه فى مجموعتين من السفن ، وعاد الى البرتغال بكميات أكثر من البضائع الشرقية ، فوصل الى أشبونه فى أواخر يوليه ١٥٠٤ (٣)

وهكذا انتشرت السفن الحربية البرتغالية فى المياه الهندية ، بعد أن ترك كل من دى جاما ودالبوكيرك جزءا من أسطوليهما فيها ، كما تعددت القلاع البرتغالية فى ساحل أفريقية الشرق والهند كوسيلة لتأمين الوجود البرتغالى فى تلك المناطق ، مما ساعد على مهاجمة السفن التجارية المتجهة إلى البحر الأحمر ،

---

(١) .Kammerer : Ibid., T. II, p 103.

(٢) زين الدين : تحفة المجاهدين ص ٣٨ .

(٣) زين الدين : تحفة المجاهدين ص ٣٩ ،

Kammerer; op. cit. T II, p. 105

ومنع وصـولها إليه أو خروجها منه ، وترتب على ذلك أن احتلت أشبونة مركز الصـدارة فى التجارة الشرقية بدلا من البندقية ، نتيجة لحرمان دولة المماليك من تجـارة العبور التى كانت تجنى من ورائها أرباحا طائلة ، هذا إلى جانب المحاولات البرتغـالية لتحقيق التحالف مع الحبشة[١]، تمهيدا للاغارة على المقدسات الإسلامية فى الحجاز وتطويق مصر من الجنوب[٢] . ولهذا استمر تدفق الأسـاطيل إلى الهند ، ففى ربيع سنة ١٥٠٤ م أبحر أسطول آخر إلى الهند بقيادة لوبو سواريز داالبير جاريا لتحقيق هذا الغرض ، فأوقع بمجموعة من السفن العربية القادمة من جدة فى كمين ، وبدد شملها . وواصـل تطبيق سياسة الانتقام ضد السفن القادمة من البحر الأحمر ، وفعـل نفس الشىء مع سفن قاليقوط ، وتمكن – بمعـــاونة ملك كوشين – من مفاجأة قاليقوط وتدمير مجموعة من سفنها (٣) ، وبعد أن أحرز انتصاره على ملـكها[٤] عاد إلى بلاده حاملا أسلابا قدرت بأربعة وعشرين ألف قنطار من التوابل (٥) .

وفى سنة ١٥٠٥ تبدأ مرحلة جديدة ، فقد استقر رأى ملك البرتغال على تعيين نائب له يقـيم فى الهند بصفة دائمة ، ليتولى توجيه السفن القادمة من البرتغال بما يحقق الأهداف البرتغالية فكان فرانسسكو دالميدا أول نائب لملك البرتغال فى المستعمرات البرتغـالية فى الشرق فأبحر من البرتغال فى ٢٣ مارس

(١) Macro ; Yemen and the Western World, p. 1!

(٢) أحمد مختار العبادى : تاريخ البحرية الاسلامية ص ٢٦٦ .

(٣) بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ص ٤٢ .

(٤) Kammerer ; op. cit; T. *II*. p. 106.

(٥) Heyd ; op. cit. , T *II* p. 529, Kammerer; op. cit., pp. 106 - 107 , 144.

سنة ١٥٠٥ م على رأس أسطول كبير ضم إلى جانب السفن الحربية أخرى تجارية ، كما استصحب معه عددا من الجنويين والبنادقة والألمان . وكان من بين ضباطه ماجـــلان (١) . وفى طريقه إلى الهند عمل على تدعيم القواعد البرتغالية فى شرق إفريقية ، فأقام فى أغسطس سنة ١٥٠٥ قلعتين فى منبسة ، كما أبدى صاحب كلوة مشاعر الود والتعاون مع الحملة (٢) ، وعمل داالميدا على تثبيت قواعد الوجود البرتغـــالى فى الهند ، فجعل فى كوشين مقـر لقيادته (٣) .

وحرص ملك البرتغال على تدعيم داالميدا ، وسارع بامداده بحملة بحرية كبيرة أبحرت من البرتغال فى الخامس من ابريل سنة ١٥٠٦ بقيادة ترستان داكونهـا ، ضمت إلى جانب السفن الحربية سفنا أخـرى تجارية ، وكان الفونسو دالبوكيرك مسئولا عن الناحية العسكرية لتلك الحـملة التى عززت بأسطولين آخرين فى سنة ١٥٠٨ . ووجه داكونها ودالبوكيرك اهتمامها إلى إقامة القلاع على الشاطىء الإفريقى ، كما عملا على إحـكام إغلاق البحر الأحمر فى وجه التجارة الهندية (٤) ، ولهذا استولى داكنها سنة ١٥٠٦ على

(١) Heyd ; op. cit., T. II, p. 529, Kammerer : op. cit ; II, pp. 107 f.

(٢) تمكن لوريتزودالميدا من الوصول إلى سيلان .

(Kammerer : T. II, p. 108)

(٣) لوريمر : دليل الخليج جـ ١ ص ٦٠ .

Allen : The Cambridge Shorter History of India, London, 1924, p. 487.

(٤) Kammerer : op cit T. II p. 109.

جزيرة سوقطرة الواقعة إلى الجنوب الشرقي من عدن ، والتي تتحكم في الطريق البحري المؤدي إلى البحر الأحمر ، واتخذها قاعدة بحرية لشن الغارات على سواحل حضرموت وعمان وهرمز (١) ، وفرض الحصار على تجارة البحر الأحمر (٢) . وهكذا تركزت جهود دا كونها على إغلاق جميع الممرات والسيطرة على المواني الاستراتيجية كهرمز في مدخل الخليج ، وعدن بالنسبة للبحر الأحمر . ودعم دالبوكيرك ذلك بإرسال مجموعة من السفن لإغلاق باب المندب (٣) . كما سعى إلى الاتصال بالحبشة ، فأرسل إليها بعثة سنة ١٥٠٨ لتحقيق التعاون معها في مشروع صليبي مشترك للقضاء على مصر (٤) . وتواترت الأخبار إلى مصر بتزايد الخطر البرتغالي ، وأن أكثر من عشرين سفينة برتغالية قد توغلت في البحر الأحمر (٥) .

وهكذا تمكن البرتغاليون بحملاتهم البحرية الضخمة المتواصلة ، وباستخدامهم الأسلحة النارية — التي لم يكن للمناطق الواقعة على المحيط الهندي عهداً بها — وباتباعهم أعنف أساليب القرصنة ، من الاستيلاء على عدد كبير من الموانى والجزر في المحيط الهندي . وفرض الحصار على تجارة البحر

---

(١) لوريمر : دليل الخليج جـ ١ ص ٦ .

(٢) بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ص ٤٤ ، ديل شارل : البندقية ص ١٤٩ .

Heyd ; op. cit, T. II p. 535, Serjeant ; Portogues, p. 41.

(٣) Kammerer : op. cit., T. II, pp. 116 – 117.

(٤) بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ص ٤٤ — ٤٥ .

Kammerer; p. 137.

(٥) ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٤ ص ٩٦ .

الأحمر والخليج الفارسي (١) ، واحتكار تجارة التوابل بالقوة،مما أصاب مناطق التصدير ، والموانى الواقعة على الطريق التقليدى للتجارة ، كهرمز وعدن وجدة بأضرار بالغة وأفقدها أهميتها ، كما عرض الإقتصـاد المصرى والبندقى لكارثة محققة . وكان البرتغاليون فى وضع يسمح لهم بتعزيز قواتهم على الدوام ، ويمكنهم من شن الهجمات على الموانى والسفن التجـارية دون أن تجرأ أى من القوى الموجودة فى المنطقة من التصدى لهم أو البدء بمهاجمتهم.

٢ ـ أثر الكشوف البرتغالية على حركة التجارة اليمنية :ـ

أما فيما يتعلق باليمن فقد كان طبيعيا أن تتأثر حركة التجارة فى ميناء عدن وتنخفض تبعا لذلك حصيلة الرسوم الجمركية بدرجة هائلة، اضطر معها السلطان اليمنى الظـافر عامر الثانى إلى الاستيلاء على نصف متحصلات الأوقاف ليستعين بها فى مواجهة النقص فى إيراداته ، مما أثار سخط الفقهاء عليه (٢) . ومع اشتداد الحصـار المفروض على التجارة لم يعد دخل عدن كافيا لسد احتياجات المدينة فقط مما أدى إلى استيلاء الأمير مرجان ـ والى عدن ـ على خراج لحج (٣) لسد النقص الناجم عن عجز ايراداته لمواجهة متطلبات الدفاع عن مدينته .

وإذا أخذنا فى الاعتبار الأطماع البرتغالية للاستيلاء على عدن وغيرها من

Lewis (B.) ; The Camb. Hist. of Islam, vol. I, p. 229(1)

(٢) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٣١ ،

Kammerer op cit.; T. II p. 230

(٣) بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١٢١٠ .

الموانى اليمنية في وقت زادت فيه الحركات الداخلية المضادة للطاهريين ،
فإن اشتغال السلطان الظافر عامر الثانى وقواته فى القضاء على تلك الثورات
والعمل على إقرار الأوضاع الداخلية ، كان يعوق قدرته على مواجهة الخطر
البرتغالى . لذلك بادر السلطان الطاهرى بالاستنجاد بالسلطان الغورى لتخليص
اليمن من هذا الخطر الداهم [١] ولم يكن السلطان اليمنى وحده هو الذى
استنجد بالسلطان المملوكى ، فقد أرسل كل من السامرى صاحب قاليقوط [٢]
ومظفر شاه بن محمود شاه سلطان كجرات [٣] رسلهما للاستنجاد به . ومن
الجدير بالذكر أنه لما نشطت القرصنة البرتغالية وتعرضت السفن للنهب ،
وركابها من البحارة والتجـــار والحجيج للأسر أو القتل [٤] ، اضطر
السلطان الظافر إلى إعداد حملة بحرية من أربعة عشر مركبا ، اشترك فيها
ستمائة من المحاربين بينهم جماعة من طلبة العلم للجهاد ، وقد أبحر هذا الأسطول
من عدن فى ٢٧ شوال ٩١٢ هـ [٥] / ١٢ مارس ١٥٠٧ . ويغلب على الظن

---

(١) الشبلى اليمنى : السنا الباهر ص ٨ ، ٢٠١ ، النهروالى : البرق اليمانى
فى الفتح العثمانى ـ الرياض سنة ١٩٦٧ ـ ١٩ ،

Kammerer ; Ibid T. II p. 130

(٢) زين الدين : تحفة المجاهدين ص ٤٠ ، بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية
ص ٤٢ .

(٣) النهروالى : البرق اليمانى ص ١٩

Kammerer ; Ibid. II p. 153

(٤) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٤٦ ب ، الفضل المزيد ص ٣٨ ب ،
بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٩ ، الشبلى اليمنى : السنا الباهر ص ٦٣ .

(٥) ابن الديبع : الفضل المزيد ص ٤٣ أ .

أن هذا الأسطول عجز عن الصمود ، وأن البرتغاليين تغلبوا عليه ، ذلك أن المصدر اليمنى الذى انفرد بذكر تلك الحملة لم يزودنا بشيء عن أخبارها ، وما إذا كانت قد تمكنت ـ كلها أو بعضها ـ من العودة الى عدن .

٣ ـ موقف مصر من الخطر البرتغالى :

كان لنجاح البرتغاليين فى اكتشاف طريق بحرى جديد إلى الهند ، وسيطرتهم على تجارة التوابل ، وتحكمهم فى المياه الهندية، وفرض الحصار على البحر الأحمر أثره الكبير فى تخفيض كميات التوابل الواصلة إلى مصر، مما عرض دولتى المماليك والبندقية لانهيار اقتصادى خطير [1] . فقد بلغ من نقص كميات التوابل المعروضة فى أسواق الاسكندرية سنة ١٥٠٢ ، أن سفينتين فقط من بين خمسة من سفن البندقية استطاعتا ـ بمشقة بالغة ـ الحصول على حمولتيهما [2] وأن سفنهم عادت خاوية تماما سنة ١٥٠٤ [3]. أضف إلى ذلك أن قلة الواردات من التوابل أدى إلى ارتفاع أسعارها ارتفاعا كبيرا فى مصر وبالتالى البندقية ، فى الوقت الذى تألقت فيه أشبونة كسوق رئيسي لتجارة التوابل ومركز هام لنفائس الشرق ، ولم تلبث أن احتلت مكانة البندقية ، وذلك بما توفر فى أسواقها من هذه السلع والتحف ، واجتذبت اليها تجار أوربا لرخص

---

(١) Heyd:: op. cit., T. II, pp. 521 - 522.

(٢) ديل: البندقية ص ١٥١ — ١٥٢ ، أحمد دراج : المماليك والفرنج ص ١٣٢ ، نعيم زكى : طرق التجارة ص ٧١ .

(٣) ديل نفس المرجع ص ١٥٢ .

أسعارها (١) .

وكان لزاما على مصر أن تدافع عن كيانها الاقتصادى وحمايته من الانهيار، كما لم يكن من السهل أن تتخلى الجمهوريات الإيطالية ، وخاصة البندقية عن مصادر ثروتها (٢) ، لذلك أخذت سفارات البندقية تتوافد على البلاط المملوكى ابتداء من عام ١٥٠٢ ، لتدارك الأمور قبل استفحال الكارثة، وعمل سفراؤها على اقناع السلطان الغورى بمراسلة سلاطين الهند لحثهم على مقاطعة البرتغاليين، وأن يعمل على إرسال بعض السفن الحربية لحماية السفن التجارية ، مع جلب كميات كبيرة من التوابل وتخفيض أسعارها حتى تتمكن البندقية من غمر أسواق أوربا بالتوابل وبيعها بأسعار رخيصة لمنافسة السوق البرتغالية وعرقلتهم فى تصريف ما لديهم من بضائع . كذلك تضمنت مطالب البندقية، أن يعد الغورى أسطولا قويا لمحاربة البرتغاليين فى المياه الهندية، وتوجيه ضربة قاضية لهم وتدمير مشروعاتهم فى الهند (٣) .

وقد استغل الغورى الأضرار التى تعرضت لها البندقية بسبب منافسة البرتغال.

---

(١) ديل: نفس المرجع ص ١٤٩ ،

Heyd: Ibid. p. 516, Kammerer : p. 139.

(٢) هاو سونيا : فى طلب التوابل ص ٢١٦ .

(٣) ديل : نفس المرجع ص ١٤٧—١٤٨ و ١٥٠ و ١٥٢ ، أحمد دراج : نفس المرجع ص ١٣٢ و ١٥١ ، عدلى فريد : السلطان قانصوه الغورى وعصره — رسالة ماجستير بكلية الآداب بإسكندرية سنة ١٩٧٠ ص ٢٠٢ ،

Heyd : Ibid. T. II, pp. 519, 521 - 524.

Kammerer : Ibid. T. II, pp. 141, 144.

لتجارتها، فطالبها بإمداده بالأسلحة والأخشاب لبناء السفن التى يعتزم إرسالها لمحاربة البرتغاليين[١]. إلا أن البندقية اعتذرت عن عدم إمكان تقديم الأخشاب والأسلحة المطلوبة حتى لا تتهم لدى البابا بمساعدة المسلمين ضد المسيحيين . ولم يتردد الغورى فى القيام ببعض الجهود الدبلوماسية حتى يتهيأ له إعداد أسطوله فى البحر الأحمر ، ففى سنة ١٥٠٤ أرسل مبعوثيه إلى البابا يوليوس الثانى ، وإلى ملوك أوربا مهددا بإغلاق كنيسة القيامة والكنائس الكاثوليكية الأخرى ، وقتل الفرنج الموجودين فى بلاده ، إذا لم تتوقف البرتغال عن أعمالها العدوانية ضد المصالح المصرية فى الهند ، فكان لهذه التهديدات أثرها فى إزعاج البابا الذى بادر بالكتابة لعمانويل ملك البرتغال . إلا أن الملك البرتغالى لم يكن مستعدا للتنازل عما يحققه لبلاده من نجاح هائل فى احتكار تجارة الشرق ، وتحقيق أحلام البابوية فى حرمان دولة المماليك من مصدر قوتها وثرائها ، مما يساعد على توجيه حملة صليبية للاجهاز عليها ، وانتزاع المقدسات المسيحية فى الشام . لهذا أرسل عمانويل إلى البابا يطمئنه بأن السلطان الغورى لن يقدم على تنفيذ تهديداته ، وأن البرتغال قادرة على مهاجمة المقدسات الاسلامية فى الحجاز إذا ما حاول الغورى تنفيذ تهديداته [٢] .

---

(١) أحمد دراج : نفس المرجع ص ١٣٠ ، نعيم زكى : نفس المرجع ص ٧٨ — ٨٥ ،

Kammerer : Ibid. T: II, p. 145.

(٢) احمد دراج : المماليك والفرنج ص ١٣٤ — ١٣٦ ، عدلى فريد : السلطان قنصوه الغورى وعصره ص ٢٠٣ — ٢٠٤ ،

Heyd : op cit., T. II, pp. 520 - 522, Kammerer : op. cit., T. II, p, 144, Lane - poole : The Hist. of Egypt, p. 532.

وعلى هذا النحو لم تنجح مساعى الغورى فى الحصول على مساعدات حربية من البندقية ، كما لم تفلح تهديداته للبابا فى وقف الاعتداءات البرتغالية على التجارة المصرية فى المحيط الهندى والبحر الأحمر ، فقد كان من المحال أن ينتظر من البابا أو ملوك أوربا مناصرته على أبناء ملتهم [١] . بل على العكس من ذلك فقد نشط قراصنة الفرنج وعلى رأسهم فرسان الاسبتارية بجزيرة رودس فى الإغارة على السواحل المملوكية ، ومهاجمة السفن المصرية فى البحر المتوسط [٢] .

لم يجد الغورى بدا من محاربة البرتغاليين فى المياه الهندية ، ولهذا بدأ فى إعداد السفن الحربية[٣] ، وتم بالفعل إنشاء خمسين سفينة [٤] ، جهزت بالمدافع والأسلحة النارية [٥] وأسند أمر قيادتها إلى الأمير حسين الكردى ، الذى جعله السلطان نائبا عنه على جدة ، وأبحر الأسطول من ميناء السويس فى ٩١١هـ [٦] / ١٥٠٥م . وبدأ حسين الكردى فى تحصين جدة وبناء الأبراج

---

(١) Kammerer : op. cit., T. II, p 145.

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٤ ص ١٩١ — ١٩٢ ، ابن طولون الصالحى : مفاكهة الخلان جـ ١ ص ٢٤٥ أحمد دراج: المماليك والفرنج ص ١٢٨– ١٢٩ ، عدلى فريد : نفس المرجع ص ١٢٨ .

(٣) Lewis, (B.) : The Camb. Hist. of Islam, vol. I. p. 229.

(٤) زبارة: أئمة اليمن جـ ١ ص ٣٦٣ .

(٥) النهروالى : البرق اليمانى ص ١٩ .

(٦) ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٤ ص ٨٢ ، أحمد مختار العبادى : تاريخ البحرية الإسلامية ص ٢٦٦ .

لحمايتها [١] ، كما عمل على تأمين البحر الأحمر ، وبدأ بالاستيلاء على سواكن بغير حرب [٢] .

وفى أوائل المحرم سنة ٩١٣ هـ / مايو ١٥٠٧ م وصلت طلائع الأسطول المصرى إلى ميناء جازان للتموين ، ثم توجهت إلى جزيرة كمران [٣] ، وتبعها الأمير حسين فى ربيع الآخر سنة ٩١٣ هـ / أغسطس ١٥٠٧ م فى مجموعة أخرى [٤] . فلما وصل إلى عدن أرسل قاصدا من قبله إلى واليها الأمير مرجان الظافرى يستأذنه فى الدخول إلى الميناء، فأذن له ودخل بسفنه « بأدب واحتشام وتعفف واحترام»[٥] . وأرسل إليه الأمير مرجان رسولين فأكرمهما وأعادهما محملين بهداياه ، وأوصاهما بقوله : « بلغا الأمير منى السلام ، وعرفاه ، لولا أنى مأخوذ على من قبل السلطان قانصوه أن لا أدخل عدن لدخلت إليه

---

(١) ابن اياس : نفس المصدر ص ٨٤ ؛
Heyd : op. cit., T. II, p. 521.

(٢) ابن اياس : نفس المصدر ص ٩٥ — ٩٦ ؛ عدلى فريد : السلطان قانصوه الغورى ص ١٢٦ .

(٣) ابن الديبع : الفضل المزيد ص ٤٣ ب ، يحيى بن الحسين: غاية الأمانى ص ٦٣٥ — ٦٣٦ ؛ الكبسى : اللطائف السنية ص ٢٣٢ ؛
Kammerer : op. cit., T. II; p. 154.

(٤) بامخرمة : قلادة النحر ج٣ ص ١٩٢ ؛ زبارة : أئمة اليمن ج١ ص ٣٧٣ ؛
Kammerer : Ibid, T. II. p. 230.

(٥) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٣٦ .

ومثلت بين يديه » (١) . ولم يتردد الأمير مرجان ازاء ذلك فى تزويده بكل ما يحتاج إليه من الماء والمؤن وغيرها (٢) . ثم أبحر الأمير حسين الكردى بأسطوله إلى الهند(٣) . وما أن وصل إلى كجرات ـ الواقعة فى شمال الساحل الغربى للهند ـــ حتى رحب به سلطانها مظفر شاه بن محمود شاه (٤) وأمده بالأموال (٥) . وتعاونت معه الأساطيل الهندية المتحالفة ، وتمكن بفضل هذا العون من التغلب على أسطول برتغالى فى موقعة شول ٩١٣ هـ / ١٥٠٨م(٦) ، التى سقط فيها قائد الأسطول البرتغالى لورنزو دالميدا صريعا(٧) .

---

(١) ابن الديبع : الفضل المزيد ص٤٤أ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٣٦ ، زبارة : أئمة اليمن جـ ١ ص ٣٧٣ .

(٢) ابن الديبع : الفضل المزيد ص٤٤أ ، عيسى بن لطف الله : روح الروح فيما حدث بعد المائة التاسعة من الفتوح ـــ مخطوط مصور ضمن مجموعة رقم ١١ تاريخ م بدار الكتب ـــ جـ ١ ص ٥٨ ب .

(٣) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٤٨ ب ، باغرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٩٣ ، زبارة : أئمة اليمن جـ ١ ص ٣٧٣ .

(٤) Kammerer : Ibid, p. 155.

(٥) النهروالى : البرق اليمانى ص ٢٠ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٣٦ .

(٦) ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٤ ص١٤٢ ، أحمد مختار العبادى : تاريخ البحرية الاسلامية ص ٢٩٧ . أحمد دراج : المماليك والفرنج ص ١٣٧ ، Kammerer : Ibid p. 155.

(٧) زين الدين : تحفة المجاهدين ص ٤٠ ـــ ٤١ ، بانيكار : آسيا والسيطرة =

وأحدث انتصار الأسطول المصرى فى شول دويا هائلا فى مصر ، وأمر السلطان الغورى بإقامة الاحتفالات فى البلاد بهذه المناسبة لمدة ثلاثة أيام. وكان الأمير حسين الكردى قد أرسل فى طلب الإمدادات ليتمكن من مواصلة الحرب ضد البرتغاليين [1] ، فبدأ الغورى فى المحرم سنة ٩١٥هـ / مايو ١٥٠٩م بتجهيز عدد من السفن لإرسالها إليه إلى الهند [2] . غير أن ذلك جاء متأخرا ، إذ استطاع الأسطول البرتغالى بقيادة فرنسسكو دالميدا نائب الملك – بعد وصول سفن ومعدات برتغالية لتعزيز قواته – أن يفاجىء الأسطول المملوكى فى ديو وينزل به هزيمة ساحقة فى الثالث من فبراير ١٥٠٩م ، ويرغم الأمير حسين على الانسحاب بما سلم من سفنه إلى جده [3] .

= الغربية ص ٤٣ ، عدلى فريد : قانصوه الغورى ص ١٢٧ ،

Heyd : op. cit., T. II, p. 536.

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٤ ص ١٤٢ .

(٢) ابن اياس : نفس المصدر والجزء ص ١٥١ .

(٣) ابن اياس : نفس المصدر والجزء ص ٢٨٦ ، زين الدين : تحفة المجاهدين ص ٤١ ، أحمد مختار العبادى : تاريخ البحرية الإسلامية ص ٢٦٧ ، سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ١٧٨ — ١٧٩ ، أحمد دراج : المماليك والفرنج ص ١٣٧ ، نعيم زكى : طرق التجارة ص ٣٠ — ٣١ ، ٩١ ،

Depping : Histoire du Commerce, Paris, 1830, T. II, p. 269, Heyd : op. cit., T. II, p. 536, Kammerer : op. cit., T. II, p. 157, 174, Lane-poole : Mediaeval India under Mohammedan Rule, London, 1925, pp. 176 - 177.

والواقع أن إبطاء السلطان المملوكي في القيام بعمل حربي مباشر ضد البرتغاليين في المياه الهندية عقب نجاح طلائعهم في الوصول إلى الهند، أدى إلى تمكين البرتغال من المبادرة بتعزيز قواتها ، بحيث أصبح من اليسير على تلك القوات التعجيل بتوجيه هجوم شامل على الأسطول المصرى انتهى بتدمير معظمه في ديو .

وكان لانتصار البرتغاليين في ديو أثره في قيام دالبوكيرك بشن حرب صليبية لا هوادة فيها ضد المسلمين ، فقد انتهز فرصة قيام عادل شاه حاكم جوا بإيواء الفارين من بطش البرتغاليين ، وإمدادهم بالمؤونات والأسلحة للصمود في محاربة البرتغاليين، وبادر بمهاجمة مدينة جوا سنة ١٥١٠م واستولى عليها واتخذها قاعدة برتغالية في الهند[١] ، وأرسل إلى ملك البرتغال يبلغه بأنه قتل جميع من وجدهم من العرب فيها، وأنه حيثما أمكنه العثور على عربي، كان إفلاته من يده من المحال ، وأنه كان يملأ بهم المساجد ويضرم فيها النار »[٢] . ثم أنه عمد إلى بث الحماس في نفوس رجاله قبيل اعتزامه الاستيلاء على ملقه سنة ١٥١١[٣] ، وخطب فيهم بقوله ، إن الخدمة الجليله التى سنقدمها لله بطردنا العرب من هذه البلاد ، وبإطفائنا شعلة شيعة محمد بحيث لا يندلع

---

(١) زين الدين : نفس المصدر ٤٤ ،

Kammerer : op. cit., T II, p. 164.

(٢) بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ص ٤٦ .

(٣) أحمد مختار العبادى : تاريخ البحرية الاسلامية ص ٢٦٧ ، أحمد دراج: المماليك والفرنج ص ١٣٨ .

Kammerer : Ibid, T. II, p. VIII.

لها هبا بعد ذلك لهيب » ومزج بين المطامع الاقتصادية والتعصب الدينى بقوله « وذلك لأنى على يقين أننا لو انتزعنا تجارة ملقة هذه من أيديهم (أى من المسلمين) لأصبحت كل من القاهرة ومكة أثرا بعد عين ، ولامتنعت عن البندقية كل تجارة التوابل ، ما لم يذهب تجارها إلى البرتغال لشرائها من هناك » (١) .

وهكذا فقد كان لانتصار البرتغاليين فى ديو أثره فى توطيد دعائمهم فى الهند، فاستولوا على مصادر التوابل واحتكروا تجارتها ، واشتدت وطأتهم على المسلمين ، وتمكنوا من إحكام الحصار على الخليج الفارسى والبحر الأحمر وعدن ، وترصدت أساطيلهم سفن الأسطول المصرى وغيرها من السفن العربية وتمكنوا فى سنة ٩١٥ هـ / ١٥٠٩ م من الظفر ببعض السفن اليمنية الخاصة بسلطان اليمن الظافر عامر الثانى واستولوا عليها ولم يسلم منها إلا مركب واحد وزورقين (٢) . ولم تستطع السلطات اليمنية أو الهندية القيام بأى عمل مضاد للبرتغاليين الذين أصبحت لهم السيطرة الكاملة بغير منازع . ونتيجة لذلك أسرع السلطان الظافر عامر الثانى إلى الاستنجاد من جديد بالسلطان الغورى وحثه على تدارك الخطر البرتغالى (٣) . وتبادل السلطان الغورى معه

---

(١) بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ص ٤٨ .

(٢) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٤١ ب ، الفضل المزيد ص ٤٦ أ ، بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٩٣ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٣٧ ، الكبسى : اللطائف السنية ص ٢٣٢ ،

Kammerer : op. cit., T. II, pp. 157, 230.

(٣) الشبلى اليمنى : السنا الباهر ص ٨ ، ٢٠١ ، النهروالى : البرق اليمانى ص ١٩ .

السفارات (١)، ومنها سفارة الطواشي بشير الذى غادر القاهرة فى ربيع الأول ٩١٦ (٢) هـ / يونيو ١٥١٠ م فى طريقه إلى اليمن ، فوصلها فى جمادى الآخرة من نفس العام ، وقام بإبلاغ رسالة السلطان الغورى إلى السلطان الظاهرى ، وأطلعه على حقيقة الموقف وما يتم من استعدادات لمواجهة البرتغاليين ، ثم قفل الطواشي بشير عائدا إلى مصر محملا بالهدايا فوصلها فى المحرم سنة ٩١٧ هـ (٣) / أبريل ١٥١١ م .

كذلك وفد إلى مصر فى سنة ٩١٦ هـ / مايو ١٥١٠ م قصاد الملك محمود شاه صاحب كنباية ، وغيره من ملوك الهند لمطالبة الغورى بالإسراع فى إرسال الحملات لمعاونتهم ضد البرتغاليين الذين كثر تعبثهم منذ انتصارهم فى ديو (٤) . فقام السلطان الغورى بإرسال مبعوث إلى ملوك الهند فى ربيع الأول ٩١٦ هـ يونيو ١٥١٠ م يطالبهم بمساندته فى قتاله ضد البرتغاليين (٥) .

---

(١) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ، ص ٦٣٧ ، الكبسى : اللطائف ص ٢٣٢ ، Kammerer : Ibid, T. II, pp. 158, 231.

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٤ ص ١٨٨ ، زين الدين : تحفة المجاهدين ص ٤٨

(٣) ابن اياس : نفس المصدر والجزء ص ٢٠٩ ، ابن الديبع : الفضل المزيد ص ١٧ أ ، Kammerer : Ibid, T. II, p. 232.

(٤) ابن اياس : نفس المصدر والجزء ص ١٨٢ ، عدلى فريد : السلطان قانصوه الغورى ص ٢٠٨ .

(٥) ابن اياس : نفس المصدر والجزء ص ١٨٥ .

وفى نفس الوقت عاود السلطان الغورى مطالبة البندقية بالإمدادات العسكرية ليتمكن من مواصلة القتال ضدالبرتغاليين فى الهند . ولكن البنادقة كعادتهم تعللوا بحرجهم من مواجهة البابا والدول المسيحية الأوربية ، ونصحوه بالتوجه بطلباته إلى السلطان العثمانى بايزيد الثانى الذى بادر بتزويد الغورى بالأخشاب والأسلحة على سبيل الهدية إسهاما منه فى حماية المقدسات الاسلامية فى الحجاز [1] .

أما الأمير حسين الكردى فقد اهتم بعدعودته من ديو بإعادة تحصين جدة وبناء سور ضخم حولها [2] ـ وكان سلطان كجرات قد أمده بالأموال لهذا الغرض [3] ـ واستغرق بناء هذا السور عامين ، ومن الجدير بالذكر أن البرتغاليين أقاموا وبدورهم حصنا لهم فى قاليقوط ، وكان صاحبها قد اعتزم الإسهام فى أعمال التحصينات التى يتولاها الأمير حسين الكردى فى جدة ، فأعد سفينة حملها بالتوابل ، وتحايل حتى حصل على اذن من السلطات البرتغالية

---

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٤ ص ١٩٦ ، ٢٠١ ، ابن طولون الصالحى : مفاكهة الخلان ج ١ ص ٣٤٥ ، أحمد دراج : المماليك والفرنج ص ١٤٨ ، Heyd : op. cit., T. II, pp. 537—39, Kammerer: op. cit., T. II, p. 146, Inalcik, (Halil) : The Ottoman Empire, London, 1973, p. 33.

(٢) الطبرى : اتحاف فضلاء الزمن بتاريخ ولاية بنى الحسن ـ مخطوط بالجمعية الآسيوية فى كلكتا رقم ١٢٨١ ، مصور بالميكروفيلم بمعهد المخطوطات العربية ، رقم ٣١٤٣ ـ ص ٥٤ أ .

(٣) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٣٩.

بضمان عدم تعرض الأسطول البرتغالي لها ، وتمكنت تلك الشحنة من الوصول إلى جدة بفضل ملاح عربي يدعى خليفة ، وقام هذا الملاح بابلاغ الأمير حسين بالأمر وأطلعه على أحوال البرتغاليين ، إلا أن الأمير حسين شك في أمر ذلك الملاح واعتقد أنه يعمل لحساب البرتغاليين ، وأنه إنما جاء للتجسس والتعرف على معلومات ليستفيد منها البرتغاليون . ولهذا احتجزه وأرغمه وبحارته على الاشتراك في بناء السور [١] .

وأيا ما كان الأمر ، فإنه ما أن انتهى الأمير حسين الكردى من تحصينات جدة حتى بادر بالعودة إلى مصر ، فوصلها في آخر رمضان سنة ٩١٨ هـ / ديسمبر ١٥١٢ م ، وبصحبته رسول من ملك كنباية جاء للحصول على تقليد من الخليفة العباسي لسيده [٢] ، وكان قد وصل إلى القاهرة أيضا — في بداية ذلك الشهر — رسول آخر من الهند محملا بالهدايا للسلطان الغورى [٣] ، ولم تفصح المصادر من مضمون مهمته ، ولكن يبدو أنها كانت تهدف إلى حث السلطان على إرسال الإمدادات المصرية إلى الهند .

٤ — محاولة البوكيرك الاستيلاء على عدن والسيطرة على البحر الأحمر :-

على الرغم من الحصار الذى فرضه البرتغاليون على عدن ، إلا أن أساطيلهم لم تكن تجروء على المخاطرة بمهاجمتها بسبب تحصيناتها الطبيعية القوية . ولكن دالبوكيرك كان يحرص على الاستيلاء عليها لأهميتها ، وليتخذها قاعدة

---

(١) Depping : Histoire du Commerce, T. II p. : 219.

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور جـ٤ ص ٢٨٦ — ٢٨٧ .

(٣) ابن اياس : نفس المصدر والجزء ص ٢٨٤ .

بحرية لأسطوله والعمل على السيطرة على البحر الأحمر والقضاء على الأسطول المصرى ، حتى يفقد حكام الهند كل أمل فى وصول الإمدادات الحربية من مصر إليهم ، ومن ثم تفتر مقاومتهم ، ويتخلص البرتغاليون من المخاطر التى تعترضهم في حالة وصول أسطول مصرى إلى المياه الهندية ، وبذلك يتحقق الاستقرار للبرتغاليين فى الهند (١) .

ولهذا السبب تجهز دالبوكيرك للاستيلاء على عدن ، فغادر جوا فى ٨ فبراير سنة ١٥١٣ (٢) فى أسطول يتألف من عشرين سفينة (٣) ، فوصل عدن فى ١٧ محرم سنة ٩١٩ هـ (٤) / ٢٤ مارس ١٥١٣ ، ولكن أخبار حملته سبقته ، مما فوت عنصر المفاجأة التى كان البرتغاليون يهدفون إليها ، وعلى الرغم من انزعاج والى عدن من تلك الأخبار ، إلا أنه اتخذ للأمر عدته وكان قد قام — بناء على أوامر سلطانه — بتحصين المدينة والتأهب للقتال دون أن يكون البادىء

---

(١) Wilson : The Persian Gu f, p. 118.

(٢) Kammerer : op. cit T. II, p. 178.

(٣) Kammerer : op cit., T. II, p. 178. Wilson ; op. cit., pp 75 – 76
(وتذكر المصادر اليمنية أن الأسطول البرتغالى كان مكونا من ١٨ سفينة) ، ابن الديبع : قرة العيون ، ص ١٥١ ب ، الفضل المزيد ص ١٥١ أ ، بامخرمة قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٩٤ ، زبارة : أئمة اليمن جـ ١ ص ٣٨٠–٣٨١ .

(٤) ابن الديبع : الفضل المزيد ص ٥٦ أ ، زبارة أئمة اليمن جـ ١ ص ٨٠ ، Kammerer : op. cit. T. II, p. 185.

به (١) . واتفق وقت وصول الأسطول البرتغالي إلى عدن أن كانت مجموعة من المراكب راسية في مينائها ، فاضطر أصحابها إلى تركها والاحتماء في المدينة ، ولما تأكد البرتغاليون من خلو تلك المراكب من الحراسة ، تقدموا إلى الميناء ، واستولوا على دار البندر (٢) . ثم قصفوا المدينة بالمدافع (٣) . وحاول الامير مرجان - حاكم عدن - أن يهادنهم ، ويهاديهم تجنبا لما قد يصيب مدينته من كوارث محتومة إذا ما تصدى لهم ، فأرسل إليهم مجموعة من الكباش وكمية من الفواكه على سبيل الضيافة ، ولكنهم أعادوها إليه ، وطالبوه بتسليم المدينة ، وهددوه بالاستيلاء عليها قهرا وحددوا مهلة لليوم التالي (٤). فلما لم يستجب حاكم عدن لطلباتهم ، هاجموا المدينة ونصبوا عددا من السلالم على أقصر جانب من سورها (٥) وتمكن بعضهم من النزول بداخلها (٦) . فكان لذلك أثره السيء على حاكمها الذي هم بالتسليم ، ولكنه عدل عن ذلك ، عندما رأى استماتة أهل المدينة في الدفاع عنها واستبسالهم في المقاومة رغم قلة ما لديهم من

---

(١) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٥١ ب ، بامخرمة: قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٩٤ ، يحيى بن الحسين : غاية الأماني ص ٦٤٠ .

(٢) تقع دار البندر على جبل صيرة المقابل لعدن والمشرف على مينائها - (بامخرمة: تاريخ ثغر عدن جـ ١ ص ١٢ - ١٣ ، ١٧ .

(٣) بامخرمة : نفس المصدر والجزء ص ١٦ ، قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٩٤ .

(٤) بامخرمة : قلادة النحر ، نفس الجزء والصفحة .

(٥) Kammerer : op. cit. T. *II*, p. 186.

(٦) بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٩٥ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ١٥١ ب ، الفضل المزيد ص ٥١ أ .

إمكانيات ، فقد تجمع عدد منهم واستخدموا الحجارة فى محاربة البرتغاليين المسلحين بالأسلحة النارية . وشجع هذا الموقف البطولى من الأهالى حاكم عدن ، وقوى عزيمته ، وحط بمن معه كالبواشق على من نزل من البرتغاليين فى المدينة . وتغلب عليهم وأرغمهم على اللوذ بالفرار ، وحوصر الباقون وأشعلت النيران فى الأحراش التى اختبأوا فيها ، مما اضطرهم إلى إلقاء أنفسهم من الأسوار ، ولجأت قوات الأسطول إلى قصف المدينة بالمدفعية لتغطية انسحابهم (١) .

وهكذا أسفرت تلك المعركة عن فشل البرتغاليين فى الاستيلاء على عدن (٢) ، وسقوط بعض القتلى منهم (٣) ، وأسر أربعة آخرين (٤) . إشباعا لانتقامهم، قام البرتغاليون ـ عند انسحابهم ـ باشعال النيران فى المراكب الراسية فى الميناء (٥) ، ثم اتخذ دالبوكيرك طريقة إلى باب المندب ، حيث توجه شمالا فى البحر الأحمر بحذاء ساحله الشرقى ، فمر بالقرب من الموانى اليمنية دون أن يتوقف فى أى منها إلى أن وصل إلى جزيرة كمران فى أوائل

---

(١) بامخرمة : نفس المصدر والصفحة .

(٢) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٥١ ب ،

Macro : Yemen and the Western World, p. 1.

(٣) بامخرمة : نفس المصدر والصفحة .

(٤) ابن الديبع : الفضل المزيد ص ٥١ أ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٤٠ ، زبارة : أئمة اليمن جـ ١ ص ٣٨١ .

(٥) زبارة : نفس المرجع والصفحة ،

Kammerer : Ibid T. II p. 186.

صفر سنة ٩١٩هـ /ابريل ١٥١٣م ، فاستولى عليها ونهبهـا رجاله (١) ، ودمرو بعض مبانيها (٢)وقتلوا من وجدوه فيها من اليمنيين (٣) . وأقام دالبوكيرك فى كمران حتى منتصف جمـادى الأولى سنة ٩١٩هـ /يوليو١٥١٣م (٤) ، دون أن يتحرك السلطان اليمنى لمقاومتهم « والناس يأكل بعضها بعضا من الغيـــظ ،يريدون من السلطان المصروف والاذن فى قتالهم ، فلم يساعد على ذلك » (٥) .

وعلى الرغم من نجاح الأسطول البرتغـالى فى التوغل فى البحر الأحمر ، والوصول إلى كمران واحتلالها بغير مقاومة ، إلا أنه فشل فى الوصول إلى جدة ، بسبب الدياح التى سخرت لتشتيت قطع الأسطول ، وقضت عـلى أحلام دالبوكيرك فى العبث بالمقدسات الإسلامية ، وتدمير قبر الرسول (٦) .

---

(١) ابن الديبع : الفضل المزيد ص ٥١ أ ، قرة العيـــون ص ١٥٢ أ ، باخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٩٥ ، أحمد دراج : المماليـك والفرنـج ص ١٥٥ .

(٢) Kammerer ; Ibid. T. II, p. 192.

(٣) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٤٠ ، زبارة : نفس المرجع والصفحة .

(٤) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٥٢ أ ؛

Kammerer ; Ibid, T. II, p. 193.

(٥) باخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٩٥ .

(٦) Kammerer ; op. cit., T. II p. 193, Serjeant The Portuguse p. 169.

ولهذا توجه إلى مصوع (١) ، وأغارت بعض سفنه على زيلع ، وأحرقت ما كان راسيا فى مينائهـا من مراكب (٢) . كما هاجم سواكن (٣) وجزائر دهلك ، واضطر أخيرا إلى العودة إلى عـدن حيث فشلت محاولته الثانية فى الاستيلاء عليها، فتركها فى أول جمادى الآخرة سنة ٩١٩هـ/٤أغسطس١٥١٣م إلى الهند (٤) بعد أن قصفها بمدفعيته ، وأحرق رجاله ما كان راسيا فى مينائها من المراكب (٥) .

وأحدث دخول الأسطول البرتغالى إلى البحر الأحمر، ومحاولته الوصول إلى جدة رد فعل عنيف ، فنى الحجاز خشى الشريف بركات أمير مكة أن يتمكن البرتغاليون من النزول فى جدة، فى غيبة حسين الكردى قائد الأسطول المملوكى ، الذى كان موجودا وقتها فى مصر، ولذلك أسرع الشريف بركات بالتوجه إلى جدة بمن معه من المجاورين لتعضيد الحامية المملوكية فيها. وكان الشريف قد أرسل إلى السلطان الغورى يبلغه بخطورة الموقف (٦) ، فأصدر

---

(١) Kamme er ; Ibid T. II pp. 1X. 197.

(٢) ابن الديبع . قرة العيـون ص ١٥٢ أ ، الفضل المزيد ص ٥١ ب ، بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٩٥ ، يحيى بن الحسين: غاية الأمانى ص ٦٤٠.

(٣) ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٤ ص ٣٠٧ ، أحمد دراج : المماليك والفرنج ص ١٥٥ .

(٤) ابن الديبع : الفضل المزيد ص ٥٢ أ .

(٥) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٥٢ أ ـ ب ، بامخرمة : قلادة النحر ص ١١٩٥ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٤٠ ؛

Kammerer Ibid. pp. 205:

(٦) ابن اياس : نفس المصدر والصفحة .

السلطان أوامره إلى الأمير حسين الكردى لسرعة العودة إلى جدة ، وأرسل معه أحد الأمراء ليتولى مهمة الكشف عن أخبار البرتغاليين [١] . وفى نفس الوقت تضاعفت الجهود من أجل تجهيز السفن الجارى إنشاؤها فى السويس ، وتزويد الحملة بالزردكاشية والنجارين والحدادين ورماة البندق والنفطية [٢] وتوجه السلطان إلى السويس فى شهر صفر ٩٢٠هـ/مارس ١٥١٤م للاشراف بنفسه على إنزال السفن العشرين التى تم إنشاؤها إلى البحر الأحمر [٣] . وتابع الغورى إرسال الإمدادات ، فى جمادى الأولى ٩٢٠هـ/ يونيو ١٥١٤ م جهز تجريدة إلى الأمير حسين الكردى [٤] ، كما أرسل أسطولا آخر من عشرين سفينة فى جمادى الأولى سنة ٩٢١هـ/يونيو ١٥١٥ م ، أسند قيادتها إلى الريس سلمان العثمانى [٥] ، الذى توجه إلى جدة للانضمام إلى الأمير حسين الكردى ، والاشتراك معه فى قيادة الأسطول المملوكى ضد البرتغاليين [٦] .

---

(١) ابن اياس : نفس المصدر ص ٣٠٨ .

(٢) ابن اياس : نفس المصدر ص ٣١٠ – ٣١١ .

(٣) ابن اياس : نفس المصدر ص ٣٦٢ – ٣٦٦ ، عدلى فريد : السلطان قانصوه الغورى ص ٢١٧ – ٢١٨ .

(٤) ابن اياس : نفس المصدر ص ٣٨١ .

(٥) ابن اياس : نفس المصدر ص ٤٥٨ و ٤٦٠ و ٤٦٦ – ٤٦٧ .

(٦) الطبرى : اتحاف فضلاء الزمن ص ٥٨ ب ، ٥٩ أ ،

Kammerer ; *Ibid*, T. *II* p. 231 - 232.

رابعا ـ تطور العلاقات اليمنية المصرية حتى سقوط دولة بنى طاهر :

١ ـ موقف السلطات الطاهرية من الجهود المملوكية ضد البرتغاليين:

لم يؤثر نجاح البرتغاليين فى السيطرة على الطريق إلى الهند ، على الممالك الهندية أو دولة المماليك والبندقية فحسب ، وإنما شمل بالضرورة بلاد اليمن بحكم موقعها وأهمية عدن . وعلى الرغم من السياسة الانعزالية التى اتبعها سلاطين اليمن الطاهريين ، إلا أنها كانت أكثر البلاد تأثرا بما يدور حولها ، فقد تأثرت حركة التجارة فى موانيها تأثرا بالغا وخاصة عدن ،وكان نجاح البرتغاليين فى السيطرة على موانى شرق إفريقيـة ،وخاصة فى المنطقة الواقعة جنوبى رأس جردفوى(القرن الافريقى) ، واحتلالهم لسوقطرة ،إلى الجنوب الشرقى من عدن ـ وسيطرتهم على سواحل عمان وهرمز، وانتشار أساطيلهم لإغلاق الخليـج الفارسي والبحر الأحمر ، كلها مقـدمات للهجوم الذي شنه دالبوكيوك سنة ١٥١٣ م على عـــدن ، فى محاولة للاستيلاء عليها ، لموقعها الاستراتيجى الممتاز ، ولكونها من أصلح الموانى التى يطمع البرتغاليـون فى استخدامها كقاعدة رئيسية لأسطولهم ، ولعملياتهم الحربية فى البحر الأحمر، مما يساعد على الاتصال بالحبشة ، وتحقيق المطـامع الصليبية بضرب مصر والاستيلاء على الحجاز .

وكان موقف السلطات الطاهرية فى عدن بادىء ذى بدء مشرفا عند مرور الأسطول المملوكى بقيادة الأمـير حسين الكردى سنة ٩١٣هـ/١٥٠٧م فى طريقه إلى الهند ، إذ تبادل الأمير مرجان معه الهدايا ، وأمـده باحتياجاته وعامله معاملة الحلفاء [١] . ولكن هذا الموقف لم يلبث أن تغير بعـد أن بدأ

---

(١) انظر ، ابن الديبع : قـرة العيون ص ١٤٨ ب ، بامخـرمة : قلادة

البرتغاليون حملاتهم على عدن والبحر الأحمر فى أعقـــاب انتصارهم على الأسطول المصرى فى ديو سنة ١٥٠٩م ، فقد وقف حاكم عدن موقفا سلبيـا من الهجوم البرتغالي الأول على عـــدن سنة ١٥١٣ م ، وعمل على مهادنة البرتغاليين وموادعتهم ، وأمدهم بالمؤن مما يعد دليلا على جنوحه إلى مسالمتهم، ولكنهم أصروا على تسلم المدينة . ونظرا لتخاذل مرجان الظافرى حاكم عدن الطاهرى فقد تمكنت بعض القوات البرتغالية من تسلق أسوار المدينة والنزول فيها ، ولولا تصدى الأهالى لهم ، واشتباكهم معهم فى معركة انتصرت فيها حجارة الأهالي على الأسلحة النارية البرتغالية ، لسقطت عدن فى أيدى البرتغاليين [1] .

ولم يكن هذا هو موقف مرجان الظافرى وحده ، بل كانت سياسة استنها السلطان الطاهرى الظافر عامر الثانى بدليل أنه لم يتصـدى للأسطول البرتغالى فى البحر الأحمر، مما سهل للبرتغاليين الاستيلاء على بجـزيرة كمـران اليمنية بغير حرب ، كما أنه لم يحاول استرداد تلك الجزيرة رغم حماس أهل اليمن للجهاد، بل ترك البرتغاليين يحتلونها أكثر من شهرين دون أن يلقوا منه أية مقاومة [2] . فكان لهذا الموقف أثره فى تطلع البرتغاليين للاستيلاء على جدة ؛ ولولا مقاومة الرياح لهم لأمكنهم تحقيق ذلك ، وما يمكن أن يترتب على ذلك

النحر جـ ٣ ص ١١٩٣ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٣٦ ،

Kammerer ; op. cit., T II, p 231

(١) انظر ، ابن الديبع : قرة العيون ص ١٥١ب ، بامخرمة : نفس المصدر والجزء ص ١١٩٢ — ١١٩٥، يحيى بن الحسين : نفس المرجع ص ٦٤٠ .

(٢) بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٩٥ .

من الاعتداء على المقدسات الاسلامية ، وانفتاح الطريق أمامهم لتوجيه ضربتهم المباشرة لمصر .

فلما قام السلطان الغوري بإعداد أسطول آخر بقيادة الأمير حسين الكردي والريس سلمان العثماني ، وبدأ هذا الأسطول في الإبحار جنوبا في طريقه إلى الهند ، صدم قادة هذا الأسطول بالموقف العدائي الصارخ الذي وقفته السلطات الطاهرية في اليمن . وكان الأمير حسين حريصا ـ كعادته ـ على عدم المساس بالسيادة اليمنية ، فما أن وصل إلى جازان حتى أرسل رسولا من قبله إلى السلطان الطاهري الظافر عامر الثاني ، يخبره بأمر الحملة البحرية ، ويطلب سرعة العمل على تزويده بالمؤن والأموال تنفيذا لما تعهد به في مكاتباته للسلطان الغوري (١) ، وذلك حتى يمكنه مواصلة الإبحار إلى الهند لمقابلة البرتغاليين هناك ، ولكن هذا الطلب أزعج السلطان اليمني ولم يستجب له (٢). وكان الأمير حسين الكردي قد واصل تقدمه فوصل إلى جزيرة كمران في السابع من ذي القعدة سنة ٩٢١ هـ (٣) / ديسمبر ١٥١٥ م ، وعندئذ أرسل رسله بالهدايا إلى والي زبيد الأمير عبد الوهاب ابن السلطان الظافر عامر الثاني ، فكتب عبد الوهاب إلى والده يخبره بوصول الأسطول المصري إلى كمران ، ومطالبة قائده بالمؤن والأموال لمعاونتهم على الجهاد(٤). ويقال ان السلطان

(١) الشبلي اليمني : السنا الباهر ص ٢٠١ ، النهروالي : البرق اليماني ص ٠/٢ ،
Kammerer : *Ibid*, T. II, p. 231.

(٢) باخرمة : نفس المصدر والجزء ص ١٩٧ أ .

(٣) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٠٥ أ ، الفضل المزيد ص ٥٤ أ .

(٤) باخرمة: نفس المصدر والصفحة ، محمد بن الحسين : غاية الأماني ص ٦٤٢ .

كان ميالا لتقديم المساعدات المطلوبة اتقاء لشرهم ، ولكن وزيره أقنعه بعدم الاستجابة [١] حتى لايكون فى ذلك التزام بتقديمها سنويا [٢] . ولهذا أعرض السلطان عن رسل الأمير حسين الكردى ، وامتنع عن تزويده بالمعلومات التى كان قد اشترطها على نفسه ، و كتب إلي ابنه فى زبيد يحذره من التعاون معهم ، وأمره بعدم إرسال المؤن المعتادة إلى كمران والحجاز حتى لا يستولوا عليها [٣] .

كان لتخاذل السلطان الظافر عامر وعدم وفائه بما التزم به ، وتحوله إلى هذا الموقف العدائى من الحملة ، أثره فى تخويف الأمير حسين الكردى ، الذى كان حريصا على عدم انتهاك حرمة الأراضى اليمنية ، وتأمين سلامتها وحمايتها من الخطر البرتغالى ، مما يفرض على اليمن تقديم المساعدات المطلوبة ، كما كان التعاون اليمنى أمرا ضروريا ولازما لإنجاح مهمة الأسطول المملوكى ، وذلك بالسماح له باستخدام بعض الموانى اليمنية ، مما يساعد على حماية السواحل وتأمين البحر الأحمر ، فى وقت عجز فيه السلطان الظافر الطاهرى عن مقاومة البرتغاليين لانشغاله فى القضاء على الثورات الداخلية ، وهكذا اضطر الأمير حسين الكردى بحكم موقف السلطان اليمنى منه إلى قبول التعاون مع بعض القبائل

---

(١) بامخرمة : نفس المصدر ص ١١٩٨ ،

Kammerer : Ibid, T. II, p. 213.

(٢) الشبلى اليمنى : السنا الباهر ص ٢٠١ – ٢٠٢ ، النهروالى : البرق اليمانى ص ٢٠ .

(٣) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٥٥ أ ، الفضل المزيد ص ٥٠ أ ، بامخرمة : نفس المصدر والصفحة ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٤٤ ، الكبسى : اللطائف السنية ص ٢٣٣ .

اليمنية التي عرضت عليه استخدام القواعد البحرية اللازمة للأسطول في الأراضي اليمنية ، ولهذا تحولت جهوده للاستيلاء على تهامة والدخول في صراع مع بني طاهر ، مما أدى سقوط دولتهم في نهاية الأمر (١) .

ومهما يكن من أمر ، فقد ترك الأمير حسين الكردي مجموعة كبيرة من جنده في تهامة تعاونها القبائل اليمنية للاستيلاء على اليمن ، وتوجه هو في أواخر جمادى الآخرة سنه ٩٢٢ هـ / يوليو ١٥١٦م ومعه الريس سلمان العثماني إلى زيلع (٢) لاصلاح السفن والتزود بالمؤن والمياه وغيرها (٣) . ثم رحلا من هناك إلى عدن فوصلاها في رجب ٩٠٢ هـ (٤) / أغسطس ١٥١٦م ، فلما رأى أهل عدن السفن المملوكيه ـ وكان قد بلغهم غزو الجراكسة لتهامة ـ صرفوا ما كان في الميناء من مراكب خوفاً من أن يستولي المماليك عليها (٥) ، وقد شغل الريس سلمان العثماني بمطاردتها (٦) . أما الأمير حسين الكردي فقد

---

(١) عن الصراع بين الجراكسة وبني طاهر ، انظر ، ما يلي ص ٥٢٦ وما بعدها .

(٢) الشبلي : السنا الباهر ص ٢٠٣ .

(٣) ابن الديبع : الفضل المزيد ص ٥٥ أ ، بامخرمة : قلادة النحر حـ ٣ ص ١٢٠٠ ، يحيى بن الحسين : غاية الأماني ص ٦٤٧ .

(٤) النهروالي : البرق اليماني ص ٢٣ ، الكبسي : اللطائف السنية ص ٢٣٧ .

(٥) بامخرمة : قلادة النحر حـ ٣ ص ١٢٠٠ ،

Kammerer : op. cit., T. II, P. 235.

(٦) ابن الديبع : الفضل المزيد ص ٥٥ أ ، النهروالي : البرق اليماني ص ٢٣ ، يحيى بن الحسين : غاية الأماني ص ٦٤٨ .

فقوبل بمقاومة عنيفة ، واضطر إلى قصف المدينة بالمدفعية ، وتمكن من انزال بعض قواته إلى البر ، حيث دارت معركة حامية بينها وبين عسكر المدينة ، قتل فيها جمع من الفريقين وانتهت بانسحاب حسين الكردى من ميناء عدن (١) . ولكنه لم يكد يبتعد عنها كثيرا حتى لحقه زميله سلمان ، الذى لامه على ترك حصار المدينة ، وأعاده معه إليها فى شعبان ٩٢٢ هـ / سبتمبر ١٥١٦م فحاصرتها مرة أخرى . واتفق عند عودة الأسطول ، أن كان القائمون بالحراسة على حصن صيرة — المقابل لعدن والمشرف على مينائها — قد تركوا مواقعهم ونزلوا إلى المدينة ، ظنا منهم بزوال الخطر ، مما سهل على القوات المملوكية سرعة الاستيلاء على هذا الحصن ، واستخدامه فى ضرب المدينة بالمدفعية . ثم تحول سلمان إلى تصويب مدفعيته إلى سور المدينة ، وتمكن من هدم جانب كبير منه . وحاولت القوات الجركسية اقتحام تلك الثغرة ، ولكن حامية المدينة تمكنت — بعضيد الأهالى — من الصمود (٢) ، ثم قويت عزيمتهم بوصول الإمدادات من السلطان الظافر عامر الثانى ، مما اضطر القوات الجركسية على الانسحاب إلى سفنها ومغادرة عدن (٣) فى رجب سنة ٩٢٢ هـ (٤) / أغسطس ١٥١٦م .

---

(١) ابن الديبع : نفس المصدر ص ٥٥ ب ، بامخرمة : نفس المصدر والجزء ص ١٢٠١ ، يحيى بن الحسين : نفس المرجع والصفحة ، زبارة : أئمة اليمن جـ١ ص ٣٨٦ ، عدلى فريد : السلطان قانصوه الغورى ص ١٣٥ .

(٢) ابن الديبع : الفضل المزيد ص ٥٥ ب ، بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١٢٠١ .

(٣) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٥٨ أ .

(٤) ابن الديبع : الفضل المزيد ، نفس الصفحة ، عيسى بن لطف الله : روح الروح جـ١ ص ٦١ ب ، النهروالى : البرق اليمانى ص ٢٤ .

ومن الجدير بالذكر أن الريس سلمان العثمانى توجه بسفنه إلى قرية رباك (١) للتزود بالمياه، وكان اليمنيون قد رتبوا حامية فيها لمنع الأسطول المصرى من الحصول على الماء ، فوقع سلمان ومن توجه إليها معه فى كمين(٢) أعد لهم، واستطاعت حامية القرية محاصرتهم ، ولكن ما كادت قواته تطلق بنادقها حتى سقط بعض رجال الحامية اليمنية حتى فر الباقون ، وتمكن سلمان من العودة بمن معه إلى سفنه (٣) .

وبدلا من أن يواصل الأسطول المصرى رحلته إلى الهند لانجاز المهمة الرئيسية التى أسندت إليه ، عاد إلى البحر الأحمر . وكان قد حدث خلاف بين الأمير سلمان والأمير حسين الكردى فتوجه الأول إلى زيلع للتزود بالمؤن ومنها توجه إلى جدة . فى حين عاد الأمير حسين إلى جدة مارا بالموانى اليمنية الواقعة على الساحل الشرقى للبحر الأحمر (٤) .

وعلى هذا النحو لم يتمكن الأسطول المصرى من مواصلة التقدم من عدن إلى الهند لتنفيذ المهمة الأساسية التى جهز لها ، وهى محاربة البرتغاليين فى المياه الهندية . وعلى الرغم من أن المصادر لم توضح أسباب عودة الأسطول المماليكى إلى جدة ، إلا أنه يمكن القول بأن هناك عدة أسباب عامة لهذا التصرف منها :

---

(١) رباك ، قرية بالقرب من عدن ، تقصدها السفن المتجهة إلى البحر الأحمر للتزود بالماء ، (باخرمة . تاريخ ثغر عدن جـ ١ ص ٢٠ – ٢١) .

(٢) ابن الديبع : الفضل المزيد ، نفس الصفحة .

(٣) باخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ ١ ص ٢١ .

(٤) باخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١٢٠٢ .

أولا — امتناع السلطان الطاهرى الظافر عامر الثانى عن الوفاء بتعهده للغورى بتقديم المساعدات إلى الأسطول المملوكى ، أو السماح باتخاذ قواعد له فى اليمن ، وقيامه باحتجاز السفن الواردة بالمؤن ، ومنعها من الوصول إلى الأسطول الذى كانت وحداته راسية فى جزيرة كمران .

ثانيا — كان تأمين البحر الأحمر من الخطر البرتغالى من بين المهام الرئيسية للأسطول ، لضمان حماية المقدسات الإسلامية ، وتأمين مصر واليمن ، ومنع اتصال البرتغاليين بالحبشة . وهى أمور كان البرتغاليون يسعون إلى تحقيقها لضمان سيطرتهم على التجارة الشرقية . وكان على قادة الأسطول المملوكى إيجاد قواعد لهذا الأسطول فى موانى البحر الأحمر، تلجأ إليها السفن للاصلاح أو المرابطة والتموين . إلا أن موقف السلطان الطاهرى المعادى ، ألزم قادة الأسطول للعمل على تحقيق ذلك عن طريق القوة وقد استلزم ذلك توجيه جزء من القوات المعدة أساسا لمحاربة البرتغاليين للقيام بالمرابطة فى بعض الموانى اليمنية ، ثم تطورت الأمور إلى غزو اليمن لضرب الطاهريين الذين تسببوا بموقفهم فى عرقلة وتعطيل الأسطول المملوكي عن مواصلة القيام بمهمته الأساسية فى محاربة البرتغاليين بالمياه الهندية .

ثالثا — كانت عدن بموقعها الاستراتيجى الهام نقطة ارتكاز أساسية لتأمين الأسطول المملوكي فى المحيط الهندى ، ولم يكن فى إمكان قادة الأسطول التوجه إلى الهند دون ضمان الاعتماد عليها وتحقيق الرسو فى مينائها ، حتى لا يخلفهم البرتغاليون عليها ، ومن ثم يقطعون خط الرجعة عليهم ويصبح الأسطول المملوكي فريسة سهلة لهم ، ولهذا كان على حسين الكردى أن يؤمن عودته من هذه المغامرة ، خاصة وأن الأمير مرجان حاكم عدن كان يسعى إلى

مهادنة البرتغاليين عند قيامهم بالهجوم على عـدن فى سنة ١٥١٣ ، ولم يلجأ إلى مقاومتهم إلا تحت ضغط الأهالى . ولهذا لم يكن مستبعدا أن يتحالف هـذا الأمير مع البرتغاليين ، بحجة تخليص اليمن من أطماع الجراكسة: وهذا ما أكدته الأحداث بعد ذلك فى سنة ١٥١٧ .

ولهذه الأسباب لم يتمكن قادة الأسطول المملوكى من المجازفة بالتوجه لمحاربة البرتغاليين الذين كانوا قد دعموا مراكزهم فى الهند ومدخل الخليج وهرمز وسوقطرة ، وأحكموا الحصار على الساحل الجنوبى لبلاد العرب ، وامتدت سيطرتهم ، على الساحل الشرقى لافريقية ، وأقاموا القلاع والتحصينات فى المناطق التى يسيطرون عليها ، وأصبح لديهم من القوة الحربية والبحرية ما يجعل الأمير حسين عاجزا عن مواجهتهم ، خاصة إذا لم يكن مسيطرا على عدن والموانى اليمنية فى البحر الأحمر ، حتى يضمن سلامة وصول الإمدادات ، وتأمين عودته . وإلا فإن هزيمته ستصبح أمرا محققا . وإذا أخذنا فى الاعتبار الخلاف الناشب بين الأمير حسين الكردى وزميله سلمان العثمانى ، لرأينا أن عودة الأسطول المصرى إلى البحر الأحمر كان تصرفا صائبا ، وذلك إلى أن يتم الاستعداد لجولة أخرى متكافئة . ولكن ما لبثت الأوضاع أن تغيرت فجأة ، واستولى العثمانيون على مصر ، وخلفوا المماليك فى تحمل عبء الكفاح ضد البرتغاليين .

٢ ـ تعاون حاكم عدن مع البرتغاليين للسيطرة على البحر الأحمر :ـ

على الرغم من فشل دالبوكيرك فى الاستيلاء على عدن سنة ١٥١٣ ، إلا أن فكرة السيطرة عليها ظلت تراود البرتغاليين الذين كانوا يعتبرونها ضرورة ملحة للسيطرة على البحر الأحمر ، وقطع أى اتصال بين مصر والهند ، وتثبيت

الوجود البرتغالي بتوجيه ضربة مباشرة لمصالح مصر الاقتصادية، ولا شك في توصل البرتغاليين إلي معرفة بعض الأخبار المتعلقة بالصراع الناشب بين قوات الأسطول المملوكي وبني طاهر، واستيلاء حسين الكردي على بعض الموانى اليمنية في البحر الأحمر، وتوغل قواته لاستكمال غزو اليمن، فاستغل البرتغاليون ذلك الصراع للقيام بحملة أخرى في البحر الأحمر وتحقيق الاتصال بالحبشة، والتعاون معها ضد مصر والحجاز والعبث بالمقدسات الإسلامية (١).

ففي ٨ فبراير ١٥١٧ غادر أسطول برتغالي قوامه أربعون سفينة (٢) ميناء جوا بقيادة لوبوسواريز، وتمكن من الوصول إلى سوقطرة بعد ثلاثة أسابيع، ولم يلبث أن أبحر منها إلى عدن فوصلها في الخامس من مارس (٣). وبدأ على الفور في مراسلة الأمير مرجان حاكم عدن موضحا له أن هدفه لا يعدو مجرد تقديم العون له ضد المماليك الذين انتهكوا حرمة بلاده، والعمل على طردهم منها (٤)، ومبالغة من لوبو سواريز في التظاهر بحسن نواياه لم يقم بأي عمل عدائي ضد السفن الراسية في الميناء، ويبدو أن حاكم عدن انخدع بهذا الأسلوب الودي الناعم، أو وجدها فرصة سانحة للقضاء على الأسطول المملوكي والقوات

---

(١) Kammerer: op. cit., T. II, p. 265, Wilson: The Persian Gulf, p. 120.

(٢) Kammerer : Ibid., p. 265. (ويذكر بامخرمه أن عدة أسطوله ثلاثون سفينة) قلادة النحر جـ ٢ ص ١٢٠٥.

(٣) Kammerer : Ibid., p. 266.

(٤) يحيى بن الحسين : غاية الأماني ص ٦٥٨، زبارة : أئمة اليمن جـ ١ ص ٣٩١.

الجراكسية ، وتخليص بلادة من سيطرتهم ، فاجتمع فى موضع من ميناء عدن بجماعة من البرتغاليين للاتفاق معهم ، ورحب بهم ، « وقدم لهم الضيافة العظيمة إلى مراكبهم ، وطلبوا ربابين تسير بهم إلى جدة ، فدفع إليهم الأمير جماعة من أهل الشام بالكره من الربابين لذلك ، بعد أن أخيفوا وتجوروا ، فلم يعذرهم الأمير في ذلك كفاية لشر الفرنج» (١) . ولم يتردد الأمير مرجان فى تلبية جميع طلبات البرتغاليين ، حتى أنه عرض عليهم مفاتيح المدينة . وقد أرجع لوبو سواريز موقف حاكم عدن إلى قوة الأسطول البرتغالي وتفوقه على الأسطول المملوكي فى القوة ، مما حدا بالأمير مرجان — خوفا على تخريب عدن — إلى الانصياع البرتغاليين والوقوف موقف المحالف لهم ، وأيا كان الأمر ، فقد آثر القائد البرتغالى التظاهر بالموافقة على عقدهذا الحلف ، حتى يتمكن من مواصلة رحلته إلى البحر الأحمر تنفيذاً لخططه ، وأرجأ التصرف فى أمر عدن إلى حين عودته من تلك المهمة (٢) .

وهكذا لم يقدر مرجان الظافرى خطورة ما أقدم عليه ، من الترحيب بالبرتغاليين والتعاون معهم ، وإمدادهم بأربعة من أكفأ مرشديه (٣) لمساعدتهم فى الوصول إلى جدة ، وهو أمر لو قدر للبرتغاليين تحقيقه ، لما ترددوا فى تدمير المقدسات الإسلامية ، ولكن الله خذلهم وحمى مقدساته . فقد غادر لوبو سواريز عدن بمن أجبر على العمل معه من المرشدين ، وعبر باب المندب

---

(١) بامخرمة . نفس المصدر والصفحة .

(٢) Kammerer : La Mer Ronge, T. Ii pp. 266 f.

(٣) Kammerer : Ibid, p. 267.

بأسطوله فى السابع عشر من مارس ١٥١٧، وبفضل مساعدة الرياية المسلمين، نجح لوبو سواريز فى الوصول إلى مشارف جدة مع حلول فصل الربيع ، حيث تهب الرياح الشمالية ، ولكنه لم يستطع الوصول إلى جدة بسبب شدة الرياح [١] التى عصفت بسفنه ، وفشل البرتغاليون للمرة الثانية فى الاستيلاء عليها [٢] .

ومن الجدير بالذكر أن تلك الحملة البرتغالية البحرية أقلعت وفقا لتخطيط دقيق يتفق مع ظروف مواتية للبرتغاليين ، فقد كان العثمانيون قد استولوا على مصر وقضوا على دولة الجراكسة . وكان سلمان العثمانى قد انفرد بقيادة الأسطول المرابط فى جدة ، بعد أن نفذ أوامر السلطان سليم ، بالقبض على حسين الكردى وإغراقه فى مياه البحر الأحمر أمام جدة[٣] .

وأيا ما كان الأمر فقد أربكت الرياح حركة الأسطول البرتغالى، وأسهمت مع مدفعية سلمان فى إحداث بعض الأضرار بالسفن البرتغالية [٤] ، مما شجع سلمان على مطاردتهم، وتمكنت مدفعيته من إصابة سفينتين أو ثلاثة من سفنهم ، ويصف بامخرمة : الموقف والمعركة بقوله « ثم أن المدافعى طرح فى الباروت شيئا حتى تغير المدفع ، وأحرقت النار بعض الغراب الذى فيه سلمان . ويقال أن المدافعى كان نصرانيا ، يخدم مع الأمير سلمان فاحتر على أهل

---

(١) Kammerer : Ibid; pp. 2c7 - 269.

(٢) Macro : Yemen and the Western World, p. 1:

(٣) النهروالى : الاعلام بأعلام بيت الله الحرام ص ١٢٨ ، البرق اليمانى ص ٢٦ — ٢٧ ، الطبرى : اتحاف فضلاء الزمن ص ٥٨ ب — ٥٩ أ .

(٤) Kammerer : Ibid; p: 269·

دينه »(١) وقد أدى هـذا العمل الذى قام به المـدافعى إلى إصابة المركب. واشتعال النيران فى جانب منها ، ولكن سلمان تمكن من العودة بها سالما إلى. جدة، وانتقم من هذا الرجل وقتله فى حين أخذت بعض سفن سلمان فى مطاردة. سفن البرتغاليين ، حتى تمكنت من أسر إحداها بالقرب من ميناء اللحية اليمنى وعادت بها وبمن عليها إلى جدة (٢) .

أما القائد البرتغالي لوبو سواريز، فقد نجح فى الوصول بمجموعة من سفنه إلى كمران، فى حين ضلت مجموعة أخرى طريقها، ولعبت الرياح بها، وحولتها إلى الشاطىء الافريقى عند جزيرة ظنوها سواكن ، فنزل بها بعض البحارة بحثا عن الماء ، ولكنهم لم يجدوا إلا مياه ملحة ، فأقلعوا منها إلى دهلك ، ووصلوها فى حالة من الإعياء والسوء بسبب نفاذ المياه وهلاك عـدد كبير منهم عطشا ، ولاضطرارهم إلى شرب الماء الملح ، فكان لما لقوه من أهوال أثره فى وقوع حركة تمرد فى صفوفهم (٣) ، وأسرعت سفنهم إلى مصوع ، فوقعت قواتهم فى كمائن نصبت لهم فيها ، وراح ضحيتها عدد منهم (٤) .

أما السفن البرتغـالية التى رست فى كمران ، فقد هاجم بحريوها الحصن.

---

(١) بامخرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١٢٠٥ .

(٢) بامخرمـة : نفس المصدر والصفحة ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٥٨ ،

Serjeant : The portuguese, p. 170.

(٣) Kammerer : La Mer Rouge, T. II, p, 269.

(٤) Kammerer : Ibid, T. II, p. 272.

ودمروا التحصينات التي كان الأمير حسين الكردى قد أنشأها فيها، وأشعلوا النيران فى نخيل الجزيرة ، ثم غادروها فى ١٢ يونيو ١٥١٧ (١) . وكان القائد البرتغالى لوبو سواريز حريصا على تحقيق نصر رخيص ، فأبحر إلى زيلع ووصلها فى يوليو ١٥١٧ وقتل عددا كبيرا من أهلها ، ومضى إلى عدن فى طريقه إلى المياه الهندية (٢) ، بعد أن فشلت حملته فشلا ذريعا ، ومنيت قواته بخسائر جسيمة ، بفعل الرياح ونقص المياه ، مما أدى إلى هلاك عدد كبير من أفراد قواته (٣) ، وفشل محاولاته فى الاتصال بالحبشة . ومن الجدير بالذكر أن لوبو سواريز ، عندما وقف بأسطوله أمام عدن ، أقام خمسة أيام مترددا فى مهاجمتها ، لعظم ما تكبده من خسائر وكثرة من فقده من قواته ، وتفشى المرض فيمن بقى منهم ، وندم على ترك عدن عندما عرض عليه حاكمها مفاتيح المدينة .

وهكذا اضطر لوبو سواريز إلى التخلى عن فكرة الهجوم على عدن ، وقفل عائدا إلى قواعده مرورا بالساحل الصومالى للوصول إلى بربرة ، ثم توجه منها إلى هرمز ومنها إلى الهند (٤) . ويذكر المؤرخون اليمنيون أنه أنه لما عاد إلى عدن لم يلبث إلا أياما زوده حاكم عدن خلالها بما يحتاجه (٦) .

---

(١) Kammerer. Ibid, T. II, p. 273.

(٢) Kammerer. Ibid, T. II, pp. 273 f.

(٣) Macro: Yemen and the Western World, p 1.

(٤) Kammerer: Ibid, p. 275, Macro : Ibid, p.1

(٥) بامخرمة : قلادة النحر جـ ٢ ص ١٢٠٥ — ١٢٠٦، يحيى بن الحسين: غاية الأمانى ص ٦٥٨ .

ويبدو أن عمانويل ملك البرتغال قد استبد به الغضب على لوبو سواريز ، وعزا إليه الفشل الذى أصاب الحملة والخسائر الفادحة التى منيت بها ، فلم يلبث أن عزله وأرسل بدله دييجو لوبيز دى اسكويرا سنة ١٥١٨ ونصبه حاكما على الهند ، واضطر سواريز إلى مغـادرة الهنـد فى ٢٠ ديسمبر ١٥١٨ عائدا إلى بلاده [١] .

ويتبين لنا مما سبق عرضه، أنه فى الوقت الذى وقفت فيه السلطات الطاهرية موقفا معاديا من الأسطول المملوكى،وعرقلت جهوده فى حماية السواحل المطلة على البحر الأحمر أو التأهب لصد الخطر البرتغالى ، كانت تلك السلطات تبذل العون للبرتغاليين ، وتدفعهم إلى تدمير القوات المملوكية المرابطة فى جدة . ولم تقتصر معونات حاكم عـدن للبرتغاليين على مجرد تقديم الضيافات أو إمدادهم بالمؤن والمياه ، وإنما تجاوزت ذلك إلى تقديم مفاتيح المـدينة إليهم ، ولحسن طالع الاسلام أنهم لم يقبلوها، أملا فى تحقيق انتصارات أعظم، يضاف إلى ذلك أن الحاكم الطاهرى لعدن أجاب المطالب البرتغالية وأمدهم بعدد من المرشدين، أجبرهم — تحت التهديد — على قيادة الأسطول البرتغالى إلى جدة ،وكان ذلك كفيلا — لو تم تحقيقه — لإحداث كارثة محققة للأمـة الاسلامية جمعـاء ، وهى تدمير المقدسات الإسلاميـة ، والقضاء على قوة مصر البحرية ، وتحقيق تحالف مع الحبشة، من الممكن أن تنعكس أولى نتائجه على اليمن نفسها ، وهى أمور لابد أن يكون الأمير مرجان حاكم عدن مدركا مدى خطورتها . وعلى الرغم من اندحار الحملة البرتغـالية فإن الأمير مرجان لم يعـدل عن سياسته ،

---

(١) Kammerer. Ibid, T. II, p. 276.

واستمر فى كرمه لهم ، وقـدم إليهم المؤن والمياه بعد عودتهم وهم فى حالة انهيار تام .

ومن الجدير بالذكر أن حاكم عدن أحس بخطورة ما قام به ، ذلك أنه ما أن علم بسقوط دولة المماليك الجراكسة وانتقال السيادة عـلى مصر إلى العثمانيين الذين امتد نفوذهم إلى الحجاز والبحر الأحمر ، والمناطق التى احتلها الجراكسة من اليمن ، حتى خشي عاقبة مساعدته للبرتغاليين ، واحتمال انتقـام السلطات العثمانية منه ، فبادر بالكتابة إلي السلطان سليم عـلى لسان السلطان الظاهرى الظافر عامر الثانى، مع أن هذا السلطان كان قد لقى مصرعه قبل ذلك فى إحدى المعارك التى خاضها ضد الجراكسة حول صنعاء ، وضمن كتابه الشكوى من الأمير حسين الكردى وزميله سلمان ، وما قاما به من سفك للدماء ونهب للأموال ، كذلك ضمن كتابه « الاعتذار من فعله مع الافرنج من المسالمة ، ودفع الربابين اليهم » (١) . وأخذ على هذا الخطاب توقيعات جماعة من أعيان عدن وفقهائها وتجارها ، وأرسله مع رسولين الى الحجاز وزودهما بهدايا لأمير مكة الشريف بركات والسلطان سليم. فقام شريف مكة بتوجيههما الى مصر ومنها إلى البلاط العثمانى فى القسطنطينية ، حيث قاما بتسليم الكتاب والهدايا . ومات أحد رسوليه هناك ، وعاد الثانى بهدية من السلطان سليم ، ولكن هذا الرسول لم يكد يصل بالقرب من سواكن فى طريقه الي اليمن ، حتى خرج عليه جماعة من جزيرة دهلك ، واستولوا على ما كان معه (٢) .

---

(١) باخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١٢٠٦ .

(٢) باخرمة : نفس المصدر والجزء والصفحة .

٣ ـ غزو الجراكسة لليمن :

رأينا أن غزو الجراكسة لبلاد اليمن جاء كرد فعل لموقف سلطانها الظاهرى الذى كان قد ألح فى طلب حملة مملوكية للقضاء على الخطر البرتغالى المحدق ببلاده ، بعد أن تعهد بتقديم كافة المساعدات من مؤن وأموال وقواعد للأسطول . وإذا كان السلطان الظاهرى قد وفى بالتزاماته حيال الحملة البحرية الأولى ، إلا أن الأمر اختلف بالنسبة للحملة الثانية . إذ لم يكد الأسطول المملوكي يصل إلى السواحل اليمنية حتى امتنع هذا السلطان عن الوفاء بما التزم به ، واتخذ موقفا عدائيا سافرا من تلك الحملة التى كانت موجهة لتحقيق عدة أهداف هامة من بينها أمرين هامين ، أحدهما ، تدمير القوة البرتغالية فى المياه الهندية ، والثانى ، تدعيم الدفاع عن السواحل اليمنية الجنوبية والجنوبية الغربية . ولم تكتف السلطات الظاهرية بمجرد الامتناع عن تقديم ما التزمت به ، بل تجاوزت ذلك إلى الكف عن ارسال المؤن المعتادة إلى جزيرة كمران والحجاز ، حتى لا تقع فى أيدى القوات المملوكية (١) . ومما زاد من غضب الأمير حسين الكردى ، إقدام صاحب الحديدة ـ تنفيذا لأوامر سلطانه ـ على حجز ثلاثة من السفن كانت قد وصلت من زيلع مشحونة بالمؤن لإمداد الأسطول المملوكى ، ومنعها من مواصلة التقدم إلى كمران (٢) ، واستولى على

---

(١) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٥٥ أ ، بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٩٧ ـ ١١٩٨ ، الشبلى اليمنى : السنا الباهر ص ٢٠١ ـ ٢٠٢ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٦٢ ، الكبسى : اللطائف السنية ص ٢٣٣ .

(٢) يحيى بن الحسين : نفس المرجع ص ٦٤٤ ، زبارة : أئمة اليمن ص ٣٨٤
Kammerer : La Mer Rouge, T. II, P. 234 .

حمولتها ، رغم مراسلة الأمير حسين الكردى له ، وتهديده بتخريب مدينته إذا أصر على منعها من الوصول (١) . واستمرت محاولات الأمير حسين السلمية فأرسل فى ذى الحجة ٩٢١ هـ / يناير ١٥١٦ م بعض أتباعه فى ثلاثة أغربة لمحاولة التوصل إلى حل والحصول على المؤن ، ولكن لم يكد هؤلاء يصلون إلى الحديدة حتى خافهم أهلها ، وأرسلوا إلى والى زبيد يبلغونه بالأمر ، فأمدهم بتجريدة . ولكن أهل الحديدة أرهقهم تحمل نفقات أفراد التجريدة فتركوا المدينة لهم بحجة الخوف من المماليك ، وكان رجال الأمير حسين الكردى فى أغربتهم الراسية عند الميناء ، فلما علموا باخلاء المدينة نزلوا إليها واستولوا على أبواب دورها وماوجدوه هناك من أخشاب وعادوا بها إلى كمران (٢) .

ولقد كان فى امكان السلطان الطاهرى الظافر عامر الثانى تدارك الموقف والقضاء على أسباب الخلاف قبل أن تتعقد الأمور ويستفحل النزاع ، ولكنه كان محاطا بمستشارين إما خونة لم يخلصوا النصيحة له ، أو جهلة لم يكونوا على دراية كافية بخطورة مايدور حولهم ، ذلك أن السلطان كان قد اتخذ مدينة المقرانة - بخلاف رداع فى منطقة الجبال - مقرا له ، بعيدا عن مسرح الأحداث ولهذا لم يقدر هؤلاء خطورة الموقف ، فكان وزيره سببا فى اقناعه بعدم الوفاء بما التزم به . فلما تطورت الأمور وأغارت بعض قوات الأمير

---

(١) ابن الديبع : الفضل المزيد ص ٥٤ أ .

(٢) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٥٥ ب ، الفضل المزيد ص ٥٤ أ ، بامخرمة : نفس المصدر ص ١١٩٨ ، يحيى بن الحسين : نفس المرجع ص ٦٤٤ - ٦٤٥ ، زبارة : نفس المرجع ص ٣٨٣ .

حسين الكردى على مدينة الحديدة ، أحس السلطان بالخطر ، وبدلا من أن يعمل على اصلاح الأمور ، عهد إلى أحد كبار خواصه ــ وهو الفقيه عبدالحق ابن محمد النظارى ــ بحشد الرجال ، والاستعداد لمحاربة القوات الجركسية وهو أمر لم يتحرك السلطان للقيام به ضد البرتغاليين ، فغادر الفقيه عبد الحق زبيد فى آخر ذى الحجة سنة ٩٢١ ﻫ / فبراير ١٥١٦ م متوجهــا إلى منطقة جبال اليمن ، وعاد فى منتصف صفر ٩٢٢ ﻫ / مارس ١٥١٦ م إلى زبيــد بجمع كبير ، معظمهم من الضعفاء وعديمى الخبرة وكبار السن . وبينما قدم بعض القادرين من هؤلاء قدرا من المال نظير إعفائهم من الاشتراك فى الحرب ، بقى الضعفاء الذين لا خبرة لديهم بالحرب ولا قدرة لهم على القتال (١) .

ولم يكن غريبا فى الوقت الذى وقف فيه السلطان الظاهرى موقفه العدائى من الجراكسة دون سبب ظاهر ، أن يحظى الأمير حسين الكردى بتأييد كبير من القبائل والعناصر اليمنية الساخطة على بنى طاهــر ، إذ توافدت جموعهم للانضمام إلى قواته ومساعدته فى الانتقام من بنى طاهر والقضاء عليهم ، فقد بدأ صاحب جازان بالترحيب بالأمير حسين الكردى ، وأمده بابنه الشريف عز الدين بن أحمد بن دريب ، الذى توجه معه فى جموع أتباعه إلى كمران (٢) وفى نفس الوقت قام الإمام الزيدى يحيى شرف الدين بمراسلته عندما علم بوصــوله إلى كمران ، وطلب معاونته فى محاربة السلطان الظافر عامر الثانى ، فأحسن

(١) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٥٥ ب الفضل المزيد ص ٥٤ أ ، بامخرمة قلادة النحر ﺣ ٢ ص ١١٩٨ ، الكبسى : اللطائف السنية ص ٢٢٤ .

(٢) الشبلى اليمنى : السنا الباهر ص ٢٠٢ ، النهروالى : البرق اليمانى ص ٢١ ، Kammerer . La Mer Rouge, T. II p 231.

الأمير حسين استقبال رسول الإمام وبالغ فى اكرامه ، ولكنه لم يتسرع فى الرد وانتظر حتى عادت رسله كاشفة عن موقف السلطان الظافر العدانى ، وعندئذ رد على الإمام « بجواب يشفى الأوام ، وأجاز رسوله وأحسن قفوله »[1].

كذلك كان الفقيه أبو بكر بن المقبول الزيلعى صاحب اللحية — الواقعة إلى الشمال من كمران فى نهاية وادى مور — ميالا للجراكسه [2] ، فتوجه إلى كمران وأمدهم بالمؤن والأموال [3] وعرض عليهم أن يتخذوا ميناء اللحية قاعدة لأسطولهم ، ولم يتردد الأمير حسين فى تلبية طلبه لمعاونته فى محاربة الطاهريين ، وأمده بغراب ومائة مملوك مسلحين بالبنادق [4] ، وخلع عليه وأكرمه وطلب منه الخطبة ببلده للسلطان الغورى فوافق [5] ، وعلى اثر ذلك عاد الفقيه ابن المقبول بمن معه إلى مدينته ، وخرج منها شرقا عبر وادى مور لغزو البلاد الواقعة فيه ، فتصدت له القوات الطاهرية فى المنطقة بقيادة الأمير محمد بن جياش السنبلى . ومن الجدير بالذكر أن الأسلحة النارية لم تكن

---

(١) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٤٢ — ٦٤٢ ، الكبسي : اللطائف السنية ص ٢٢٣ — ٢٣٤ ، زبارة : أئمة اليمن حـ ١ ص ٣٨٣.

(٢) الشبلى اليمنى : السنا الباهر ص ٣٠٢ ،

Kammerer : op. cit , p. 234 .

(٣) النهروالى : البرق اليمانى ص ٢١ ، الكبسي : اللطائف ص ٢٣٥ .

(٤) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٤٤ ، زبارة : أئمة اليمن ص ٣٨٤.

(٥) ابن الديبع : قرة العيون ص ٥٥ ب ، الفضل المزيد ص ٥٤ أ ، بامخرمة قلادة النحر ، حـ ٣ ص ١١٩٨ .

معروفة فى اليمن [١] ، أو أنها كانت معروفة بالسماع والوصف ، وكانت لها هيبة ورهبة تذهل القلوب [٢] . لذلك فما أن استخدم المماليك بنادقهم فى المعركة ، وسقط الأمير محمد بن جياش السنبلى قتيلا فى عدد من أتباعه ، حتى انهزمت قواته ، ولم تتمكن من الصمود وولت الأدبار واستولى الزيلعى والقوات المملوكية على منطقة مور [٣] .

وتتابعت العناصر الساخطة على بني طاهر معلنة انضمامها إلى الجراكسة ، ومن بين تلك العناصر قبائل بنى حفيص [٤] عرب مدينة الزيدية الواقعة إلى الشرق من جزيرة كمران ، فقد وفد جماعة من رؤسائهم على الأمير حسين الكردى ،

---

(١) ابن الديبع : قرة العيون نفس الصفحة ، الفضل المـــزيد ص ٥٤ ب زبارة : أئمة اليمن حـ ١ ، ص ٣٨٤ .

(٢) الكبسي : اللطائف السنية ص ٢٣٠ . (ويذكر ابن الديبع ، أن البنادق « شيء عجيب ، لا يكاد أحد يقاتل صاحبها إلا غلب . وهو شيء يشبه المدفع إلا أنه أطول منه وأدق ، مجوف يجعل فى جوفه قطعة رصاص كحبة البندق وتحشي من البارود ، ويدفع بنار فى فتيلة من أسفل البندق . فلا تصيب أحدا إلا هلك . وربما أصابت البندقة شخصا ونفذت منه فى آخـــر فقتلتها » . الفضل المزيد ص ٥٤ ب ، قرة العيون ص ١٥٦ ب .

(٣) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٥٦ أ ، الفضل المـزيد ص ٥٤ ب ، بامخرمة : قلادة النحر ، حـ ٣ ص ١١٩٨ ، يحيى بن الحسين : غـاية الأمانى ص ٦٤٤ – ٦٤٥ .

(٤) عن بنى حفيص وحملات بنى طاهر المتواصلة ضدهم ، انظر ، ماسبق ص ٢٠٧ وما بعدها .

مستقوعين بما ذاقوه من عسف سلاطين بني طاهر ووجد أن الفرصة قد سنحت للانتقام منهم ، فبايعوا الأمير حسين الكردى على الطاعة والمناصرة ضد بنى طاهر ، وطلبوا بدورهم إمدادهم بجموعة من الجند تكفلوا بجوامكهم ومؤنهم مع الالتزام بتسليم خراج بلادهم للأمير حسين الكـردى ، فأمدهم بمائتى مملوك (١) . وتوجهوا بهم لمحاربة القوات الطاهرية المتمركزة عند قرية الضحى القريبة من مدينة الزيدية ، وتمكن بنو حفيص بمساعدة القوات المملوكية المسلحة بالبنادق ، من هزيمة جموع القوات الطاهرية ، وارغامها على الفـرار مخلفة وراءها الكثير من القتلى ، ونهب بنو حفيص قرية الضحى ، وأضرموا فيها النيران (٢) .

وكان بنو حفيص بحكم تمركز معظمهم فى مدينة الزيدية التهامية ، قد نسبوا للمدينة وعرفوا بالزيدية ، ومع أنهم سنيين ، إلا أن بعض المؤرخين اختلط عليهم الأمر واعتبروهم من أهل الجبال أتباع المذهب الزيدى (٣) ، ووصفوا حملتهم المشتركة مع الجراكسة على أنها تمت بمساعدة أتباع الامام الزيدى يحيى شرف الدين ، الذى على الرغم من مكاتبته للأمير حسين الكردى ، إلا أنه لم يثبت اشتراك أتباعه مع الجراكسة ضد بنى طاهر .

---

(١) ابن الديبع : الفضل المزيد ص ٥٤ ب ، الكبسى : اللطائف السنية ص ٢٣٥ .

(٢) ابن الديبع : قرة العيون ص ٢٥٦ أ ، الفضل المـزيد ص ٥٤ ب ، بامخرمة : قلادة النحر ، جـ ٣ ص ١١٩٨ يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٤٥ ، الكبسى : اللطائف السنية ص ٢٢٥ ، زبارة : أئمة اليمن جـ ١ ص ٤ ٣ .

(٣) النهروالى : البرق اليمانى ص ٢٠ .

إزداد قلق السلطان الظافر عامر الثاني على اثر تخريب مدينة الحديدة ...
وهزيمة قواته في وادي مور وفي نواحي قرية الضحى ، لهذا أرسل قوة
عسكرية بقيادة أخيه عبدالملك بن عبدالوهاب الى زبيد ، فلما وصلها في الحادي
عشر من ربيع الأول سنة ٩٢٢ هـ (١) / ابريل ١٥١٦ م ، ونظم أموره بها ،
توجه بقواته شمالا في السابع من ربيع الآخر ٩٢٢هـ / مايو ١٥١٦ م للتصدي
للقوات الجركسية (٢) . فلما علم الأمير حسين الكردي بذلك ، أسرع من كراف
لملاقاته في ألف من جنده المزودين بالبنادق (٣) ، وانضم إليه الشريف عزالدين
ابن أحمد بن دريب بن صاحب جازان (٤) ، والفقيه أبو بكر بن المقبول الزيلعي
صاحب اللحية (٥) بقواتهما ؛ كما انضوت تحت لوائه جموع قبائل المنطقة وعلى
رأسها قبائل المعازبة (٦) . ووقعت بين الجانبين معركة عنيفة ، قاتلت فيها
القوات الطاهرية بقيادة عبدالملك بن عبدالوهاب قتالا عظيما ، استبسل فيها وأظهر من

---

(١) ابن الديبع : الفضل المزيد ص ٥٤ ب ، بامخرمة قلادة النحر جـ ٣
ص ١١٩٨ - ١١٩٩ ، يحيى بن الحسين : غاية الأماني ص ٦٤٥ .

(٢) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٥٦ أ .

(٣) ابن الديبع : الفضل المزيد ص ٥٤ ب ، بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣
ص ١١٩٩ ، يحيى بن الحسين : غاية الأماني ص ٦٤٥ ، زبارة : أئمة اليمن
جـ ١ ص ٣٨٤ .

(٤) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٥٦ ب ، بامخرمة . قلادة النحر جـ ٣
ص ١١٩٩

(٥) الكبسي : اللطائف السنية ص ٢٣٥ .

(٦) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٥٦ ب ، بامخرمة جـ ٣ ص ١١٩٩ .

للشجاعة والإقدام ما جعله يؤخـــر الهزيمة المحتومة ، ولكنـه اضطر إلى الانسحاب إلى زبيد [1] ، فوصلها في العاشر من جمادى الأولى سنة ٩٢٢ هـ / [2] يونيو ١٥١٦ م ، بعد أن فقد في المعركة جماعة من شجعان جنده [3] ، كما قتل من الجراكسة عدد آخر ، احتز عبد الملك منهم أربعة عشر رأسا عاد بها إلى زبيد [4] .

وحرص بعض رؤساء القبائل الملازمين للجراكسة على الإجهاز على بني طاهر ، فأقنعوا الأمير حسين الكردي بمتابعة فلولهم المنسحبة إلى زبيد ، وانتزاعها منهم ، فتوجه الأمير حسين برا على رأس جيش كبير من الجراكسة ، ومن انضم إليه من عرب تهامة كالمعازبة والقرشيين وبني حفيص وأهل جازان وغيرهم ، تعضده بحرا بعض قطع الأسطول المشحونة بالجند والأثقال بقيادة الريس سلمان العثماني . فلما وصلت تلك القوات إلى زبيد في التاسع عشر من جمادى الأولى سنة ٩٢٢ هـ [5] / يونيو ١٥١٦ م اشتبكت مع القوات الطاهرية

(١) الكبسي : اللطائف السنية ص ٢٣٦ .

(٢) ابن الديبع : الفضل المزيد ص ٥٤ ب ، بامخرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١١٩٩

(٣) بامخرمة : نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٤) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٥٦ ب ، يحيى بن الحسين : غاية الأماني ص ٦٤٥ ، زبارة : أئمة اليمن ج ١ ص ٢٨٤ .

(٥) ابن الديبع : الفضل المـــزيد ص ٥٤ ب ، النهروالي : البرق اليماني ص ٢١ ، زبارة : أئمة اليمن ج ١ ص ٣٨٥ .

بقيادة عبد الملك بن عبد الوهاب وابن أخيه - والى زبيد - عبد الوهاب ابن الظافر عامر فى معركة عنيفة وقعت خارج زبيد ، ورغم استبسالهما إلا أنهما لم يتمكنا من الصمود ، نتيجة لتخاذل القوات الطاهرية ، واشتداد وطأة الجراكسه وحلفائهم مما أدى إلى هزيمة الطاهريين هزيمة نكراء ، وأسرع عبد الوهاب بن الظافر عامر بالدخول إلى زبيد بعد إصابته برصاصة ، ولحقه عمه عبد الملك وأخرجه من المدينة ، وتوجها بمن تبقى من عسكرهما إلى مدينة تعز (١) ، حيث مات عبد الوهاب متأثرا بجراحه (٢) فى الرابع عشر من جمادى الآخرة سنة ٩٢٢ (٣) / يوليو ١٥١٦ م .

أما الأمير حسين الكردى ، فقد استولى قهرا على زبيد وانتهزت القبائل الفرصة واعتبرتها دار حرب ، فانتهت المدينة نهبا شنيعا ، وسفكت فيها الدماء وانتهكت المحارم ، واستمر نهب المدينة ثلاثة أيام ، بالرغم من صدور أوامر الأمير حسين بالكف عن ذلك (٤) . وليس من شك فى أن أعمال العنف التى .

---

(١) ابن الديبع : الفضل المزيد ص ٥٤ ب ، قرة العيون ص١٥٧ أ - ب ، بامخرمة : قلادة النحر جـ٣ ص١١٩٩ - ١٢٠٠ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص٦٤٦ .

(٢) الكبسى : اللطائف السنية ص٢٣٩ ، زبارة : أئمة اليمن جـ١ ص ٣٨٥ .

(٣) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٥٧ ب ، الفضل المزيد ص ٥٥ أ .

(٤) ابن الديبع : قرة العيون ص١٥٧ ب ، بامخرمة : قلادة النحر جـ٣ ص١٢٠٠ ، الشبلى اليمنى : السنا الباهر ص ٢٠٢ - ٢٠٣ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٤٦ - ٦٤٧ زبارة : أئمة اليمن جـ ١ ص٣٨٥ .

مارسها المتنصرون ضد أهل زبيد إنما تعـــزى فى حقيقة الأمر إلى القبائل المشتركة مع الأمير حسين الكردى ، والتى كانت ترى فى الانتقام من زبيـد وأهلها إنتقاما من بنى طاهر لحملاتهم المتواصلة ضدهم من قبل ، هذا بالاضافة إلى ميل القبائل الطبيعى إلى هذه الأساليب .

ولم يبق الأمير حسين الكردى فى زبيد طويلا ، وروى عن أسباب إسراعه فى مغادرتها ، أنه كان قد وعد جنده بأن يمنح كل منهم مائة أشرفى إذا ما تحقق له الاستيلاء على زبيد ، فلما سقطت المدينة فى يده أخذ يماطلهم فى منحته، فثاروا عليه وهموا بقتله ، ولكنه استمهلهم حتى يستحضر لهم الأموال من سفنه ، وبهذه الحجة استناب عنه الأمير برسباى أحد رجاله من الجراكسة (١) على زبيد ، ودعمه بالشريف عز الدين بن دريب ، وبادر بالرحيل إلى ميناء القمة اليمنى حيث لقيه هناك الريس سلمان العثمانى (٢) وتوجها معا فى أسطولهما إلى زيلع ، ومن هناك أبحرا إلى عدن حيث قوبلا من حاميتها بمقاومة عنيفة ، واضطر إلى العودة إلى جدة بدلا من مواصلة التوجه شرقا إلى الهند لمحاربـة البرتغاليين (٣) .

أما برسباى ، فقد أعلن الأمان لأهل زبيد (٤) ، وانتهج سياسة حكيمـة

---

(١) الطبرى : اتحاف فضلاء الزمن ص ٥٨ .

(٢) Kammerer : La Mer Rouge, T. II, p 234.

(٣) انظر ما سبق ص ٥١٥ وما بعدها

(٤) ابن الديبع - قرة العيون ص ١٠٨ أ ، بامخرمة قلادة النحـــر جـ ٣ ص ١٢٠٠ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٤٧ ، الكبسى : اللطائف السنية ص ٢٣٦ .

« فأنه لما استقر بزبيد قرر أحوال الناس ، وأظهر حسن السياسة والتدبير ، ومشى بالناس مشيا حسنا » (١) . ثم بدأ يستعد للزحف بقواته برا إلي عدن لمعاونة الأمير حسين الكردى أثناء حصاره لها ، غير أنه لم يكد يصل إلي مدينه حيس جنوبي زبيد ، حتى علم بإقلاع الأمير حسين من عدن ، ووصوله إلى ميناء المخا ، فتقدم برسباى إليه واجتمع به ، ثم زحف إلى مدينة موزع (٢) الواقعه إلى الشرق من ميناء المخا ، فقامت قـــواته بنهبها ، ثم قفل عائدا إلى زبيد ، فوصلها في رمضان سنة ٩٢٢ هـ (٣) / أكتوبر ١٥١٦ م .

وهكذا ازدادت الأمور تأزما بين الجراكسة وبنى طاهـر ، وعلى الرغم من عجز السلطان الطاهرى عن مواجهة القوة الجركسية المدعمـــة بالأسلحة الحديثة ، ومن انضم إليها من العناصر اليمنية الساخطة على الطاهريين ، مما يهدد بزوال الحكم الطاهرى ، إلا أن السلطان الظافر عامر الثـانى لم يحـاول تسوية الخلافات لإنهـاء حالة الحرب ، والتفرغ لإقرار الأوضاع الداخلية فى بلاده . وإتاحة الفرصة للجراكسة لمواصلة القيام بمهمتهم الأساسية فى محاربة البرتغاليين ، واستمر يتحداهم رغم شعوره بالعجز عن مواجهتهم ، وأصر على الانتقام منهم لغزوهم منطقة تهامة ، واستيلائهم على زبيد وتسببهم فى قتل ابنه عبد الوهاب ، فخرج على رأس حملة من المقرانة فى طريقه إلى زبيد لمحاربتهم .

---

(١) بامخرمة : نفس المصدر والجزء ص ١٢٠٢ .

(٢) ابن الديبع : الفضل المزيد ص ٥٥ ب ، يحيى بن الحسين : نفس المرجع ص ٦٤٨ ، الكبسى : الطائف السنية ص ٢٣٧ .

Kammerer : Ibid, p 235

(٣) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٥٨ ب ، بامخرمة : قلادة النحـر جـ ٣ ص ١٢٠٢ ، النهروالى : البرق اليمانى ص ٢٢ .

وتذكر المصادر اليمنية أن الجراكسة بادروا ـ عندما علموا بأمر الحملة ـ إلى مراسلته ، وعرضوا عليه الصلح (١) ، وتسليم ما بأيديهم من البلاد ، مقابل مبلغ حددوه ، مع تأمين خروجهم بما معهم ، ما عدا الخيل والسلاح . وكانت فرصة مواتية لم يحسن السلطان الظافر الثاني اغتنامها . وعلى الرغم من ميله إلى الموافقة إلا أن بعض كبار حاشيته أقنعوه مرة أخرى برفض هذا العرض ، بحجة أن هذا الصلح قناع زائف يخفى وراءه حقيقة المطامع الجركسية . فتراجع السلطان عن رأيه ، وأعرض عن الرسل وأعادهم بغير جواب ، (٢) دون أن يعمل شيئاً للتأكد من مدى صدق هذا العرض وحسن نواياهم . وواصل السلطان تقدمه ، إلى أن اصطدمت قواته بالجراكسة فى معركة طاحنة بالقرب من زبيد فى التاسع من شوال سنة ٩٢٢هـ / نوفمبر ١٥١٦م ، استمرت يومين. ومن الجدير بالذكر أن الجراكسة عادوا إلى زبيد فى نهاية اليوم الأول من المعركة للراحة والاستعداد للقتال فى اليوم التالى ، فى حين « أمسى أصحاب السلطان ما بين جريح ومن الجوع طريح » (٣) . ثم استؤنف القتال فى اليوم

---

(١) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٥٨ ب ، الفضل المزيد ص ٥٥ ب ، بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١٢٠٢ ، الشبلى اليمنى : السنا الباهر ص ٢٠٣ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٤٩ ، الكبسى : اللطائف السنية ص ٢٣٧ ، زبارة : أئمة اليمن ص ٣٨٦ .

(٢) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٥٨ ب ، الفضل المزيد ص ٥٥ ب ، بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١٢٠٣ ، الشبلى اليمنى : السنا الباهر ص ٢٠٤ ، يحيى بن الحسين . غاية الأمانى ص ٦٤٩ ، الكبسى : اللطائف السنية ص ٢٣٧ .

(٣) ذكر بامخرمة ، أنه كان صحبة السلطان الظافر كميات كبيرة من =

الثانى ، واشتدت هجمات الجراكسة ، وعلى الرغم من ثبات السلطان الظافر ، فقد تخاذل عنه معظم عسكره ، وانتهت المعركة بانتصار الأمير برسباى ، وفرار السلطان إلى تعز . ولولا انشغال القوات الجركسية فى نهب محطة الظاهريين ، لكان فى مقدورهم أسر السلطان أو قتله (١) .

عاد برسباى منتصرا إلى زبيد ، وأعلن الأمان لأهلها ولمن كان قد انضم إلى السلطان ضده ، وأقام فيها إلى أواخر المحرم ٩٢٣هـ/ فبراير ١٥١٧م لإقرار أحوال أهلها ، ثم سار بقواته ومن انضم إليه من اليمنيين لمحاربة السلطان الظافر عامر الثانى فى تعز . وما أن وصلت طلائع قواته إلى مشارف تعز فى السادس عشر من صفر ٩٢٣ هـ / مارس ١٥١٧ م حتى تفرقت القوات الطاهرية ، وتوجهت كل مجموعة منها إلى مضارب قبائلها ، وأصبح فى المعتذر على السلطان الصمود أمام الجراكسة بمن تبقى معه من الجند ، ولذلك اضطر إلى الانسحاب إلى منطقة إب الواقعة إلى الشمال الشرقى من تعز ، فاستولى الجراكسة على تعز وقلعتها بغير قتال (٢) ، وأعلنت الخطبة فيها للسلطان

= الدقيق والزبيب ، وقد أشار عليه بعض قادته بتوزيع شىء منهما على الجند ليتقووا بها ، ويتمكنوا من الاستمرار فى القتال فى اليوم التالى ولكنه بخل عليهم بها . (قلادة النحر جـ ٣ ص ١٢٠٢ - ١٢٠٣) .

(١) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٥٩ أ ، الفضل المزيد ص ٥٦ أ ، بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١٢٠٣ ، الشبلى اليمنى : السنا الباهر ص ٢٠٤ ، يحيى ابن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٤٩ ، الكبسى : اللطائف السنية ص ٢٣٨ .

(٢) ابن الديبع : الفضل المزيد ص ٥٦ أ قرة العيون ص ١٥٩ أ ، الشبلى اليمنى : السنا الباهر ص ٢٠٤ ، النهروالى : البرق اليمانى ص ٢٨ ، يحيى بن =

الغورى (١) .

ولم يضيع الأمير برسباى وقته ، فقد تجهز خلال أسبوع من وصوله إلى تعز ، وأناب فيها الأمير أقباى (٢) ، ثم تقـــدم بقواته إلى مدينة المقرانة ، عاصمة الطاهريين ، ولكن السلطان الطاهرى كان قد أسرع إليها قبله لاستنفاذ مافيها من أموال وحريم بنى طاهر ، ونجح فى مغادرتها قبيل وصول برسباى إليها (٣) . وفى المقرانة ، وفد بعض مشايخ آل عمـار وبايعوا برسباى على الطاعة ، وعرضوا تسليم بلادهم – الواقعة فى نواحى رداع – إليه ، فتـوجه برسباى معهم فى قلة من أتبـاعه ، ولـكن آل عمار لم يكونوا صادقين فى مبايعتهم ، ذلك أنهم كانوا قد أعدوا كمينا له فى الطريق ووثبوا عليه وقتـلوه هو (٤) ومن معه من أتباعه ، ولم ينج منهم إلا المخبر عنهم ، (٥) .

=الحسين:غاية الأمانى ص ٦٥٠ ، الكبسي:اللطائف السنية ص ٢٣٨، زبارة : أئمة اليمن جـ ١ ص ٣٨٦ ،

Kammerer : La Mer Rouge, T II, p. 235

(١) بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١٢٠٣ .

(٢) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٥٩ أ ، النهروالى : البرق اليمانى ص ٢٨، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٥٠ .

(٣) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٥٩ أ ، بامخرمة قلادة النحـر جـ ٣ ص ١٠٢٣ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٥٠ .

(٤) Kammerer : Ibid. T II, p. 235.

(٥) ابن الديبع قرة العيـون ص ١٥٩ ب ، بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١٢٠٣ .

تأثر الجراكسة لمقتل أميرهم برسباى ، وأجمعوا على اختيار اسكندر بن محمد ليخلفه فى الامارة عليهم . فلما تمت مبايعته ، أمر عسكره بتخريب مدينة المقرانة ، ونهب أموالها وذخائرها ، ثم غادرها فى طريقه إلى صنعاء للاستيلاء عليها ، ومن الجدير بالذكر أن بعض القبائل اعترضت طريقه إليها ، وأغارت على قواته ، ولم ينج منهم إلا بصعوبة (١) .

أما السلطان الظافر عامر ، فقد أخذ يحدوه الأمل فى النصر عندما بلغه نبأ مقتل برسباى وإغارة القبائل على قوات الأمير اسكندر واستهانتهم به ، واعتقد أن بمقدوره إيقاع الهزيمة بالجراكسة والانتقام منهم . فخرج على رأس حملة كبيرة للتصدى لهم قبل أن يتمكنوا من الاستيلاء على صنعاء (٢) . ويقال أن أخاه عبد الملك بن عبد الوهاب حذره من التوجه إلى صنعاء ، وقال له : « أنت تعرف عداوة الزيدية ، فتقع بين عدو بن المصرى والزيدى ، فلم يصغ إلا كلامه ونسبه إلى الجبن والذل (٣) » . ثم وصلت القوات الظاهرية إلى صنعاء أثناء قيام الجراكسة بمحاصرتها . ورأى الأمير اسكندر ألا يدع للسلطان وقواته

---

(١) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٥٩ ب ، بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١٢٠٣ – ١٢٠٤ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٥٠ – ٦٥١ ، الكبسى : اللطائف ص ٢٣٨ ، زبارة : أئمة اليمن ص ٣٨٧ .

(٢) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٥٩ ب ، الفضل المزيد ص ٥٦ أ ، بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١٢٠٤ ، الشبلى اليمنى : السنا الباهر ص ١٢٠٤ يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٥١ .

(٣) بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١٢٠٤ .

فرصة للراحة ، وقام بمهاجمته بمجرد وصوله (١) ، وقبل أن يتمكن من حط أثقاله وترتيب قواته ، ونجح في إحراز نصر سريع وحاسم على الطاهريين في الرابع والعشرين من ربيع الآخر سنة ٩٢٣ هـ/مايو ١٥١٧م ، وقتل في المعركة عدد كبير من القوات الطاهرية على رأسهم عبد الملك بن عبد الوهاب (٢) ، وتم أسر الكثيرين من بينهم أبي بكر بن الظافر ، وعامر بن عبد الوهاب (٣) . أما السلطان ، فقد أصابته الهزيمة بالذهول ، وهام على وجهه ، وتعقبه بعض الجراكسة حتى أدركوه وهو في حالة مزرية ، لدرجة أنهم لم يتعرفوا عليه ، وحسبوه من جنده الفارين وقتلوه ، ثم تحققوا من شخصيته (٤) ، وقيل إنه رآه أحد اليمنيين فأسره وقدمه إلى الجراكسة فاحتزوا رأسه (٥) . فكان لتلك الهزيمة النكراء التي لحقت بالطاهريين ، وأسقطت دولتهم بمقتل آخر

---

(١) يحيى بن الحسين : غاية الأماني ص ٦٥١ ، زبارة : أئمة اليمن ج ١ ص ٣٨٧ .

(٢) الطبري : اتحاف فضلاء الزمن ٥٨ ،

Kammerer : op. cit. T. II, p. 236.

(٣) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٠٩ ب - ١٦٠ أ ، الفضل المزيد ص ٦ أ ، بامخرمة : نفس المصدر والصفحة .

(٤) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٦٠ أ ، بامخرمة : نفس المصدر والصفحة ، الشبلي اليمني : السنا الباهر ص ٤ ٢ ، الكبسي : اللطائف ص ٢٣٩ .

(٥) يحيى بن الحسين : غاية الإماني ص ٦٥١ ، زبارة : أئمة اليمن ج ١ ص ٣٨٧ .

Kammerer : Ibid. T. II, p. 236.

سلاطينهم(١)، أثرها فى طلب والى صنعاء الطاهرى الأمير على بن محمد البعدانى الأمان من الجراكسة ، فتسلموا مدينته وغنموا منها أموالا كثيرة لاتقع تحت حصر ، وكان فى المدينة عـدد كبير من آل عمار – قتلة برسباى – فاستأصلهم الأمير اسكندر عن آخرهم (٢) .

أصبح الجراكسة باستيلائهم على صنعاء وجها لوجه أمام القوى الزيدية ، وكان الإمام الزيدى يحيى شرف الدين قد عمل على الاتصال بالقوات الجركسية عند بداية وصولهم إلى كران ، وطلب معاونتهم ضد الطاهريين . وإذا كان الاتصال ينهض دليلا على رضاء الإمام الزيدى بالوجود الجركسى فى اليمن ، إلا أنه ليس لدينا ما يدل على قيـام تعاون من جانب الإمام معهم أو قيـامه بتقديم المساعدات لهم . ويهمنا أن نشير إلى أن القوى الزيدية بدأت تنشط منذ أن تمكن الجراكسة من الانتصار على الطاهريين ، والقضاء على دولتهم، وقد يكون مرجع ذلك إلى أن تخلصهم من الطاهريين قد بعث الأمـل فى نفوسهم الاستيلاء على اليمن والاستقلال بحكمه . أو أنهم كانوا يخشون امتداد النفوذ الجركسى شمالا، مما يهددهم تهديدا مباشرا . لذلك لم يضيع الامام وقتا وزحف بقواته إلى مدينة ثلا الواقعـة إلى الشمال الغربى من صنعاء ، وذلك فى أواخر ربيع الآخر سنة ٩٢٢ هـ/ مايو ١٥١٧م ، فسلمها له حاكمهـا الطاهرى وتعاون

---

(١) الطبرى : اتحاف فضلاء الزمن ص ٥٨ ب .

(٢) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٦٠ أ ، بامخـرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١٢٠٥ ، الشبلى اليمنى : السنا البـاهر ص ٢٠٢ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٥٢ ، الكبسى : اللطائف السنية ص ٢٣٩ .

معه . وبدأ الامام فى الاستعداد لمواجهـــة صنعاء ونصرة أهلها (١) . فلما علم الأمير اسكندر بذلك أرسل حملة إلا ثلا للقضاء على أحلام الامام ، وتمكنت القوات الجركسية من محاصرة الامام وأتباعه فى ثلا (٢) وترددت الرسل بين الجانبين فى محـاولة للصلح ، وعرض الجراكسة موافقتهم على أن تكون ثلا للامام ، وأن يحتفظوا هم بصنعاء ، وتعهدوا بعدم التعرض له . وكان الإمام ميالا للموافقة ، إلا أن بعض أتباعه شككه فى نواياهم ، فاختار الحرب (٣). وبدأت الإمدادات الجركسية تنهال على ثلا لإحكام الحصار عليهـا . ولكن حدث مالم يكن فى الحسبان ، إذ وردت الأنباء المؤكدة للأمير اسكندر بن محمد بهزيمة السلطـان الغورى ومقتله فى مرج دابق ، وسقوط دولة الجراكسة ، واستيلاء السلطان سليم على الشام ومصر ، فكتم الأمير هـذا الخبر ، وبدأ فى فتح باب الصلح مع الامام مرة أخرى . وقد لقى هـذا العرض ترحيبـا من الإمام حتى يتمكن من التخلص من الحصار الذى أقامه الجراكسة عليه ، فلما تم الاتفاق عاد الجراكسة إلى صنعاء (٤) .

أما الأمـير اسكندر فقد خشي أن تتعرض قواته لأخطار من الداخل والخارج بعد استيلاء العثمانيين على مصر ، ولذلك وجد أنه من الحكمة أن

---

(١) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٥٣ .

(٢) Kammerer ; op. cit . T. II, p. 238.

(٣) يحيى بن الحسين : نفس المرجع ص ٦٥٤ الكبسى : اللطائف السنية ص ٢٢٩ ، زبارة : أئمة اليمن ص ٣٨٨ .

(٤) يحيى بن الحسين: نفس المرجع ص ٦٥٤ – ٦٥٦، زبارة : أئمة اليمن جـ ١ ص ٣٨٩ .

يعلن ولاءه للعثمانيين ويجعل الخطبة فى صنعاء باسم السلطان سليم (١) ثم قرر الانتقال إلى زبيد حتى يتمكن من متابعة الأحداث، ولهذا استخلف أحد أتباعه فى صنعاء، وغادرها ـ فى معظم قواته ـ فى الثالث عشر من جمادى الآخرة سنة ٩٢٣هـ/يوليو١٥١٧م فى طريقه إلى زبيد (٢) ولكن خبر سقوط دولة الجراكسة أثار استخفاف القبائل اليمنية بالأمير اسكندر وقواته، فخرجت عليه قبائل بنى حبيش ومن والاها عند مروره ببلادهم وتمكنت تلك القبائل من التغلب عليه، وفتكت بعدد كبير من اتباعه، واستولت على كثير مما كان قد حصل عليه من أموال بنى طاهر وذخائرهم (٣)، وخلص الأمير اسكندر ببقية أصحابه بصعوبة (٤). وتمكن من الوصول إلى زبيد

---

(١) عيسى بن لطف الله : روح الروح جـ ١ ص ٩٣ أ، زبارة : أئمة نفس الصفحة .

Inalcık : The Ottoman Empire, p 34

(٢) يحيى بن الحسين : نفس المرجع ص ٦٥٦ ؛ زبارة : أئمة اليمن. نفس الصفحة .

(٣) يقال أن قبائل بنى حبيش قد استولت على ثمانية آلاف جمل محملة بالذخائر والجواهر والنقود والذهب والفضة وأنواع المصاغ والقماش والعدد والسلاح وغير ذلك (ابن الديبع : قرة العيون ص ١٦٠ أ الفضل المزيد ص ٥٦ أ، بامخرمة : قلادة النحر جـ٣ ص١٢٠٥ ، النهر والى : البرق اليمانى ص ٣٢) .

(٤) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٥٦، والكبسى : اللطائف السنية ص ٢٤٠ – ٢٤١ ، زبارة : أئمة اليمن جـ ص ٣٠٩ .

ليلة التاسع من جمادى الآخرة ٩٢٣هـ(١) /يوليو ١٥١٧م .

وهكذا يتضح أن موقف اليمن كان مؤثرا ومتأثرا بمجريات الأحداث الدولية وقتئذ ، فقد أدى موقف السلطان الظافر عامر المعادى للحملة المملوكية إلى تحولها عن هدفها الأساسى إلى غزو اليمن ، وقيام الأمير مرجان الظافرى والى عدن بالتعاون مع البرتغاليين، وهو أمر لا يمكن حدوثه دون موافقة السلطان نفسه ، ولكن القوات الطاهرية لم تتمكن من الصمود أمام أسلحة الجراكسة النارية ، وانتهى الأمر بمقتل السلطان الطاهرى الظافر عامر الثانى وسقوط دولته ، ولولا سقوط دولة الجراكسة فى الوقت نفسه لأمكن لتلك القوات استكمال السيطرة على اليمن .

والحقيقة أن الفتح العثمانى لمصر قلب الأوضاع رأسا على عقب ، ففى الحجاز ، أسرع الشريف بركات بإعلان الخطبة للسلطان سليم ، وأرسل ابنه أبا نمى إلى الفاتح العثمانى بالقاهرة لإعلان ولائه ، فاحتفى السلطان بمقدمه ، وأقر أباه على ولايته (٢) . وفى اليمن أعلنت القوات الجركسية كما ذكرنا اعترافها بالسيادة العثمانية ، وأصبحت المناطق الخاضعة لنفوذهم فى اليمن ،

---

(١) ابن الديبع : قرة العيون ص١٦٠أ، الفضل المزيد ص ٥٦أ ، بامخرمة: قلادة النحر جـ٣ ص١٢٠٠ ، الشبلى اليمنى : السنا الباهر ص٢٠٥ ، الكبسى : اللطائف السنية ص ٢٤١ .

(٢) النهروالى : البرق اليمانى ص ٢٤ - ٢٥ و٢٦ ، ابن داعر : الفتوحات المرادية فى الجهات اليمانية - مخطوط مصور رقم٢٦٤٢١ بمكتبة جامعة القاهرة - جـ١ ص٥٠١أ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٥٥ ،
Inalcik : op. cit , pp 33 f.

تابعة تلقائيا للعثمانيين ، وأصدر السلطان العثماني أوامره بإقرار الأمير اسكندر ابن محمد — الذي عرف بالمخضرم لمعاصرته لعهدين — نيابة عنه في حكم اليمن[١].

وهكذا استكمل العثمانيون — بعد استيلائهم على مصر — السيطرة على المناطق التي كانت تابعة للمماليك بغير عناء . وأغناهم ذلك عن القيام بالحملات لتحقيق السيطرة على الحجاز واليمن ، إلا أن انشغال العثمانيين في إقرار الأوضاع في إمبراطوريتهم الكبيرة ، وتحولهم إلى غزو أوربا الشرقية ، وتجدد النزاع بينهم وبين الفرس ، ساعد على تدهور الأوضاع في اليمن وانتشار الفوضى والاضطرابات هناك ، ونشوب القتال الدامي بين بقايا الطاهريين والقوى الزيدية والقوات الجركسية ، كل يريد السيطرة على البلاد . ولكن الزيدية الذين كانوا قد ادخروا قوتهم ، تجمعوا حول الإمام يحيى شرف الدين ، واستطاعوا السيطرة على صنعاء[٢] ، وامتد نفوذهم على معظم المناطق اليمنية .

وليس من شك في أن سيطرة العثمانيين على مصر قد ألقى على عاتقهم مسئولية التصدي للقوى البرتغالية ، إلا أنهم ادخروا قوتهم لفتوحات جديدة ، واكتفوا بالأسطول المملوكي الموجود في جدة — والذي انفرد

---

(١) النهروالي : البرق اليماني ص ٢٣ ، ابن داعر : الفتوحات المرادية جـ ١ ص ١٦٩ أ ، Kammerer : op. cit., T. II, p. 238

(٢) العصامي : سمط النجوم العوالي جـ٤ ص ٤٢٨ ، يحيى بن الحسين : غاية الأماني ص ٦٥٧ ، الكبسي : اللطائف ص ٢٤١ — ٢٤٢ ، زبارة : أئمة اليمن جـ ١ ص ٣٩٠ ، Kammerer : p. 232

بقيادته سلمان العثمانى بعد أن أعلن ولاءه للعثمانيين ـ للتصدى للبرتغاليين الذين هاجموا جدة سنة ١٥١٧ (١) . وعلى الرغم من مثول هـذا الخطر ، إلا أن السلطات العثمانية لم تتحرك لمواجهة البرتغاليين فى الهند، مما شجعهم على مواصلة حملاتهم وتركيزها على جدة ، ففى عام ١٥٢٠ توجه الأسطول البرتغالي بقيادة دييجو لوبيز دى سكويرا لمهاجمة جـدة ، ولكن الرياح تصدت لهم للمرة الثالثة ، وكانت كفيلة وحدها لإعاقة تقدم البرتغاليين وتشتيت شملهم وفشل الحملة (٢)، ومع استمرار الحملات البرتغالية على البحر الأحمر كانت أساطيلهم تلقى كالمعتاد معاونة ومساعدة حاكم عدن (٣) . واستمر الوضـع كذلك إلى أن تمكن العثمانيون من إعداد أسطول ضخم فى سنة ٩٤٥هـ/١٥٣٨ بقيادة سليمان باشا الخادم لمحاربة البرتغاليين فى الميـاه الهندية (٤) . وما أن وصل إلى عدن حتى خرج إليه حاكمها عامر بن داود آخر الطاهريين لاستقباله والترحيب به ، وانتهز سليمان باشا تلك الفرصة وأمر بالقبض عليـه وشنقه ، واستولى على عدن فى ربيع الأول سنة ٩٤٥هـ/ أغسطس ١٥٣٨م (٥) . فكان لغـدر

(١) انظر ما سبق ص ٥١٥ وما بعدها .

(٢) Serjeaut The Portuguese, pp. 170F,. Macro :Yemen and the Western World, P.2.

(٣) باعخرمة : قلادة النحر جـ٣ ص١٢٠٩ ـ ١٢١٠ ،

Kammerer , pp. 283-88.

(٤) القطبى : إعلام فضلاء الزمن ص ٧٦ب ، لوريمر : دليـــل الخليج جـ ١ ص ١٠ .

(٥) النهروالى : البرق اليمانى ص٨٠ ، زبارة : أئمة اليمن ص ٤١٧ ،

Serjeant; op. cit., p. 95; Macro; op. cit., P. 4.

سليمان باشا بالحاكم الطاهرى أثره الكبير فى فشل حملته ، إذ تخوف سلاطين الهند من التعامل معه ، وامتنعوا عن معاونته أو تموينه ، مما اضطره للعودة إلى بلاد اليمن لاستكمال السيطرة العثمانية عليها [١] .

وأيا ما كان الأمر فإنه إذا كان استيلاء العثمانيين على مصر قد أدى إلى تعطيل المشروعات المملوكية ضد البرتغاليين فى البحر الأحمر ، فإن العثمانيين قد فشلوا فيما كان المماليك يستعدون له ، وانحصرت جهودهم ـ تقريبا ـ فى الدفاع عن البحر الأحمر .

---

(١) عن العثمانيين فى اليمن ، انظر . السيد مصطفى سالم . الفتح العثمانى الأول لليمن ـ معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٦٩ .

الخاتمة

تهيأت الظروف لنور الدين عمر بن علي بن رسول لإعلان استقلاله بملك اليمن . ولما كان حريصا على حماية دولته من انتقام الأيوبيين فقد عمد إلى إرسال الحملات إلى بلاد الحجاز للتصدى لما قد يجهزه الأيوبيون من قوات لاستعادة السيطرة على اليمن . وبهذا تحول الأمر إلى منافسة الأيوبيين نفوذهم في بلاد الحجاز ، وجعلها خط دفاع أمامي لإعاقة تقدم الحملات الأيوبية ، ووقف تقدمها جنوبا لتهديد دولته الناشئة . وقد أدى تدفق الحملات بين الجانبين إلى الاسهام في زيادة ضعف الدولة الأيوبية، والتمهيد بالتالى لاستيلاء المماليك على دولتهم في مصر والشام .

ومن الجدير بالذكر أنه على الرغم من انسلاخ اليمن عن الدولة الأيوبية فقد واصل بنو رسول السير على نفس السياسة ، واستمروا يحكمون اليمن وفقا لما ورثوه من نظمها ، بل واعتمدوا في تطوير تلك النظم على مصر ، يستقصون أخبارها في موسم الحج ، ومن التجار المصريين الذين يصلون إلى عدن . أما في حالة تحسن العلاقات ، فقد كانت رسلهم يحيطونهم علما بتطوراتها . ولهذا اتفقت تلك النظم في معظمها - بين مصر واليمن - في كثير من الأحيان . وفي اطار العلاقات ، كان الخبراء العسكريون يصلون من مصر إلى اليمن ، لإعادة تنظيم الجيش اليمنى، كما تدفقت العناصر المملوكية على اليمن ، عن طريق الشراء أو ضمن الهدايا التى كان يرسلها سلاطين المماليك لتدعيم القوات اليمنية . ولم يقتصر الأمر على ذلك بل تعداه إلى ارسال الأطباء لمواجهة الأوبئة والطواعين ، أو عمال طراز لصناعة النسيج ، أو

تدريجيا على مسرح الأحداث اليمنية إلى أن واتت نور الدين الفــــرصة ، واستقل بملك اليمن .

كما تعرضت الدراسة لما ذكره المؤرخون عن انتساب بنى طاهر للأمويين وتطور ظهورهم فى خدمة بنى رسول واستغلالهم الفرص لاقامة دولتهم على انقاض دولة بنى رسول .

وبالنسبة لأحوال اليمن الداخلية ، فقد كان الاضطراب وعدم الاستقرار والقلاقل الداخلية المناهضة للسلطة المركزية تمثل السمات المميزة لها فى كثير من الأحيان . ولم يكن ذلك كله وليد ظروف طارئة ، وإنما يرجع فى معظمه إلى جذور تاريخية تتمثل فى الصراع حول الخلافة الاسلامية ، وفرار كثير من المضطهدين كالشيعة ، والتجاؤهم إلى بلاد اليمن للاحتماء بها . ذلك أن تلك البلاد بطبيعتها الجبلية وحصونها الشاهقة المنيعة وصعوبة مسالكها وبعدها عن عاصمة الخلافة ، كانت من أنسب المناطق التى يتوفر فيها الأمن والطمأنينة لتلك المجموعات المضطهدة . ومع مرور الزمن نجحت تلك العنــــاصر ، من إسماعيليه وزيدية فى دعوتها ، وظهرت كل منها على مسرح الأحــداث اليمنية ولم يقتصر دورها على مناوأة القوى السنية الحاكمة فحسب ، وإنما اتخذ الموقف شكل صراع عسكرى ثلاثى متشابك يسعى كل جانب منه إلى تقويض الآخر وتحقيق الهدف السياسي بالسيطرة على البلاد والانفراد بحكمها . فكان لهذا الصراع أثره فى اختلال الأوضاع الداخلية ، وتفتيت البلاد الى أشلاء ممزقة وفقدان الوحدة السياسية فى كثير من الأحيان . ومما يذكر أن الأوضــــاع كانت أكثر استقــراراً فى عهد الأيوبيين لاستمرار الإمدادات من مصر ، مما حقق وحدة اليمن السياسيه خلال فترة طويلة من حكمهم .

أما بالنسبة للفترة موضوع هذه الدراسة ، فإن الدارس قد يتوه في دوامات الحروب الداخلية التي لا تكاد تنتهي حتى تعود أشد ضراوة ، لعدة أسباب منها ، ضعف السلطات الحاكمة أو انشغال السلطان القائم وقتئذ بالدفاع عن عرشه ضد الطامعين فيه من أمراء البيت المالك ، وما يستتبع ذلك من انقسام الجند بين المعسكرات المتناحرة ، وهي ظاهرة تفشت خلال حكم هاتين الدولتين ـ الرسوليه والطاهرية ـ مما كان دافعا للقوى الزيدية للعمل على تحقيق سيطرتها على المناطق التي تنتشر فيها جموعهم فيما بين صعدة شمالا وصنعاء وذمار جنوبا . وقد أدى الصراع الدائر بين السلطة الحاكمة والقوى الزيدية إلى إتاحة الفرصة لكثير من القبائل لإعلان تمردها . وهكذا كان لكل تلك الحركات أثرها في صرف جهد الدولة لتجهيز الحملات ، ودفعها لخوض سلسلة من الحروب الداخلية المستمرة ، التي استنزفت جانبا كبيرا من الدخل ، وكان من الممكن توجيه تلك الجهود لما هو أجدى وأنفع للشعب اليمنى . والخلاصة فقد أثرت تلك الصراعات في الكيان الداخلي لدولتي بني رسول وبني طاهر ، وانعكس أثر ذلك على المجال الخارجي ، وكانت من أهم أسباب سقوط هاتين الدولتين .

وفيما يتعلق بالعلاقات الخارجية ، فإن انفصال اليمن عن الدولة الأيوبيه ؛ واستقلال نور الدين عمر بن رسول بحكمها ، مؤسسا دولة بني رسول ، حدد مسار العلاقات اليمنية بمصر الأيوبية ، ولم يكن متوقعا من الملك الكامل أن يسلم بالأمر الواقع ، فكان لا بد من اتخاذ الاجراءات الكفيلة بإعادة اليمن إلى حظيرة الدولة الأيوبية . وفي نفس الوقت ، كان نور الدين يعلم ذلك جيدا ويتوقع سرعه تحرك الملك الكامل للمحافظة على الدولة كيان دولته . ومن أجل الحفاظ على الدولة الناشئة ، بادر نور الدين بالاستعداد لذلك الصراع المرير ، وتفاديا للمخاطر التي قد تترتب على وصول

الحملات الأيوبية إلى اليمن ، فقد استقر رأيه على نقل مسرح المعارك إلى بلاد الحجاز - التي كانت لاتزال تابعة للأيوبيين - وجعلها بمثابة خط دفاع أمامى لليمن ضد القوات الأيوبية ، وتوالت الحملات من الجانبين - الرسولى والأيوبي - كل يعمل على تثبيت سيطرته على الحجاز ، حتى تمكن نور الدين فى نهاية الأمر - نتيجة لضعف الدولة الأيوبية - من تحقيق تبعيتها لليمن ، وهو ماكان يسعى جاهداً لتحقيقه من أجل اكتساب احترام العالم الإسلامى وتقديره له باعتباره حامى حمى الحرمين الشريفين .

وقد سار المظفر يوسف على سياسة أبيه ، فعمل بعد تثبيت قواعد حكمه على تثبيت النفوذ اليمني فى الحجاز . ولكن ماكادت الدولة الأيوبية تسقط ويتمكن المماليك من توطيد دعائم دولتهم ، وتتوالى انتصاراتهم ، ويشرعون فى تحقيق السيطرة على البحر الأحمر ، حتى تغيرت السياسة اليمنية وتحول المظفر إلى مسالمة دولة المماليك البحرية بمصر والشام ، وتبادل مع سلاطينها السفارات والهدايا درءا لشرهم . ومن ثم بدأ دور جديد مثمر من التعاون عاد على اليمن من ورائه الكثير ، وذلك لقيام المماليك بتأمين البحر الأحمر ، وانصراف السفن اليمنية من جانب آخر للقضاء على القرصنة فى المحيط الهندى ، مما أدى إلى زيادة نشاط تجارة العبور عن طريق البحر الأحمر ، وتدفق السفن التجاريه على عدن لاعادة تصدير ماتحمله من بضائع إلى الموانى الهندية أو المصرية .

وقد بلغ من ارتفاع مكانة سلطان اليمن - فى تلك المرحلة - لدى السلطان المملوكى أن لجأ ملك الحبشه « يكونو أملاك » إلى إرسال رسله إلى السلطان المظفر يوسف ليصلح ذات البين بينه وبين السلطان المملوكى الظاهر بيبرس .

ولم يكتف البحث بدراسة العلاقات اليمنية مع بلدان حوض البحر الأحمر كمصر والحجاز والحبشة ودول الطراز الاسلامى هناك . وانمـــا تعرض لدراسة العلاقات الاقتصادية والسياسية مع آسيـا . فقد توافد سفراء بعض الدول الآسيوية بالهدايا على البلاط اليمنى لخطب ود سلطانها من بنى رسول ، وتسهيل تجارتهم ، والإحسان إلى تجارهم ، وقد بولغ فى كسب قلوب سـلاطين اليمن إلى حد قيام سلطان قاليقوط بالخطبة لسلطان اليمن فى بلاده ، فقد كان لموقع اليمن الهام على الطريق التجارى الرئيسى أثره فى أن تحتل ميناء عـدن مكانة عالمية وقتئذ ، وقامت بدور بارز فى التجارة العـالمية التى كانت مصر تمتلك ناصيتها . وهكذا فقد كان لرعاية اليمن للتجارة أثرها فى زيادة نشاطها . كما أخذت مصر على عاتقها مهمة التصدى للمحاولات الموجهة إليها أو إلى اليمن حتى لو لم تتحرك السلطات اليمنية للدفاع عن مصالحها . فمع قيـام الدولة الايلخانية المعادية لمصر وتحول البابوية إلى فرض الحصار الاقتصـادى على دولة المماليك وتحريم التبادل التجارى فى موانيها . فقد اتفقت المصـالح الأيلخانية فى عهد الخـان أرغون مع الصليبيين ، فتحالف معهم ضد مصر المملوكية ، وعملوا على توجيه ضربة إلى تجارة مصر بتحويل النشاط التجارى إلى الخليج الفارسى ، والحيلولة دون وصول السفن المحملة بتجارة الشرق إلى عدن ، وذلك بانزال بعض السفن إلى مياه الخليج لتتولى نقل البضائع من مصادرها ، وفرض حصار بحرى على عدن . وهكذا كانت عدن ، وبالتالى اليمن تشكل هدفاً صليبياً لمكانتها التجارية بين الشرق والبحر الأحمر ، ولما تقدمه من معونات لمسلمى الطـراز ضد الحبشة المسيحية . ومهما كان الأمر ، فقد فشلت هذه المحـاولات لتصدى مصر لهـا ، بتوجيه الضربات للدولة الايلخانية ،واجتذاب التجار الفرنج للتعامل مع الموانى المملوكية .

أما مايتعلق بتعسف سلاطين اليمن مع التجار فى عدن ، فلم يكن فى إمكان مصر المملوكية أن تقف مكتوفة الأيدى دون الدفاع عن مصالحها التجارية والعمل على وضع حد للمظالم التى كان يتعرض لها التجار من سلاطين اليمن وعمالهم . وكنتيجة لتعنت هؤلاء السلاطين مع التجار ، وتكرار شكوى دولهم لسلاطين المماليك ، فقد تحملت اليمن أضرارا كثيرة أثرت على اقتصادها ، خاصة بعد أن رحب السلطان برسباى بمحاولة السفن الهندية فى الوصول رأسا إلى جدة ، مما أدى إلى احتلالها المكانة التجارية الأولى كميناء هام ، واضمحلال ميناء عدن نتيجة لهجرة السفن التجارية له ، وللحظر الذى فرضه برسباى على التجار ومنعهم من التعامل مع ميناء عدن .

وإذا كانت الأحداث التاريخية قد أثبتت أنه كان فى مقدور مصر وحدها القيام دائما بدور طليعى متحملة - بامكاناتها الذاتية - المسئولية كاملة فى التصدى للأخطار الخارجية وحماية العالم العربى ، فقد كان من الطبيعى أن يكون لتعاون بعض الأقطار العربية الأخرى وتحمل نصيبها فى الجهاد أثره البالغ فى زيادة فاعلية هذا الدور . غير أن تلك الأحداث تبين أيضا أن الضغط الذى قد يصيب مصر كان ينعكس أثره على العالم العربى ، فمع نهاية القرن التاسع وبداية العاشر الهجريين (الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين) وخاصة بعد عهد السلطان المملوكى قايتباى ، برزت عوامل متعددة أثرت على قوة مصر ، منها انتشار الأوبئة والقحط وماترتب عليها من غلاء فاحش ، ومبالغة فى الضرائب والمظالم ، وعدم استقرار الأوضاع نتيجة الخلافات والمنازعات المستمرة بين طوائف المماليك ، وتولى خمسة من السلاطين خلال السنوات الخمس التى أعقبت وفاة قايتباى ، مما جعل فترة حكم سادسهم

وهو السلطان الغورى فترة تنذر بنهاية محققة ، ليس فقط نتيجة للأحوال الداخلية السيئة ، وإنما لتضافر الظروف الدولية على ازدياد ضعف دولة المماليك ، وجعلها لقمة سائغة فى نهاية الأمر للعثمانيين . فقد نجحت الحركة الصليبية فى تصفية آخر المعاقل الإسلامية فى الأندلس والقضاء على العناصر الإسلاميه فيها ، كما نشطت حركة القرصنة الصليبية الموجهة للموانى والسفن المملوكية ، وفى نفس الوقت استمر الصراع فى المشرق بين العثمانيين والصفويين مؤكدا قيام المنتصر بمهاجمة الحدود الشرقيه لدولة المماليك .

وفى تلك الظروف المعقدة كانت الجهود البرتغالية قد أثمرت اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح والوصول إلى الهند سنة ١٤٩٨ . ولا شك أن الجهود البرتغالية كانت حلقة من حلقات الصراع الصليبي وامتدادا لها ، وكانت أشد خطرا على الاسلام والمسلمين من سابقاتها ، كما كانت نتيجة طبيعية للجهود الصليبية السابقة ، بعد فشل المحاولات المستمرة لاستعادة السيطرة على الممالك الصليبية التى كانوا قد أسسوها فى بلاد الشام . وعدم جدوى القرارات البابوية بتحريم التعامل التجارى مع الموانى المملوكية.

ومن الجدير بالذكر أن المصادر العربية لم تشر إلى المراحل التى أسفرت عن كشف البرتغاليين لرأس الرجاء الصالح ، أو وصولهم إلى الهند عند نجاحهم فى ذلك ، وانما اكتفى بالإشارة فى حوليات متأخرة إلى الوجود البرتغالى فى المياه الهندية وليس ذلك بالتأكيد اغفالا من المؤرخين لتلك الأحداث ، وإنما قد يكون ذلك لتأخر علمهم بها ، أو أن الأحوال الداخلية بمصر كانت من السوء بحيث طغت على ما عداها ، ولم يكن متوقعا أن يزداد خطر البرتغاليين إلى هذا الحد الذى هدد

البلاد تهديدا مباشرا من الخلف. وقد يؤيد ذلك أن الأساطيل البرتغالية لم تلجأ فى بداية الأمر إلى استعمال العنف ، ولكنها انتهجت أسلوب المسالمة تفاديا للتصادم ، فى وقت كانت حريصة فيه على تثبيت مركزها ، ولم تتمكن من القيام بأعمال يكون من شأنها التعرض لمقاومة جماعية . ولكن ما أن اتضحت حقيقة المطامع البرتغالية الصليبية - التى تعرض البحث لها - وزاد الخطر البرتغالى فى المياه الهندية حتى أسرع سلاطين الهند واليمن إلى الاستنجاد بالسلطان الغورى ، الذى قام رغم ظروفه الداخلية والخارجية الصعبة بإعداد أسطول لمحاربة البرتغاليين والعمل على القضاء عليهم .

وبالنسبة لليمن ، فقد تميزت فترة ماقبل ديو بتعاون السلطات الطاهرية ووفائها بما التزمت به . ولكن الموقف لم يلبث - بعد هزيمة الأسطول المملوكى فى ديو - أن تحول إلى عداء سافر للقوى المملوكية . فى حين تعاون الطاهريون مع البرتغاليين إلى حد التحالف معهم من أجل إيقاع الهزيمة بالمماليك وتحقيق الأهداف البرتغالية الصليبية فى البحر الأحمر . وهكذا يتضح أن موقف سلطان اليمن كان مؤثرا ومتأثرا بمجريات الأحداث الدولية وقتذاك ، ذلك أن تغير موقف السلطان الطاهرى ، وامتناعه عن الوفاء بتعهداته الخاصة بتقديم مساعدات للحملة البحرية المملوكية الثانية ، أدى إلى تخوف الأمير حسين الكردى قائد الأسطول المصرى خاصة وأن السلطات اليمنية لم تسمح له باستخدام قواعد لأسطوله بالموانى اليمنية ، ومن ثم يصبح خروج هذا الأسطول من البحر الأحمر أو العودة إليه محفوفا بالكثير من المخاطر . وهكذا ، اضطر الأمير حسين الكردى بعد أن أخفقت محاولاته لإقناع السلطان الطاهرى الظافر عامر الثانى ، إلى استخدام القوة للسيطرة على بعض المناطق الساحلية لتأمين أسطوله وضمان سلامة وصول الامدادات إليه . ولاستكمال المهمة الأساسية التى جهز

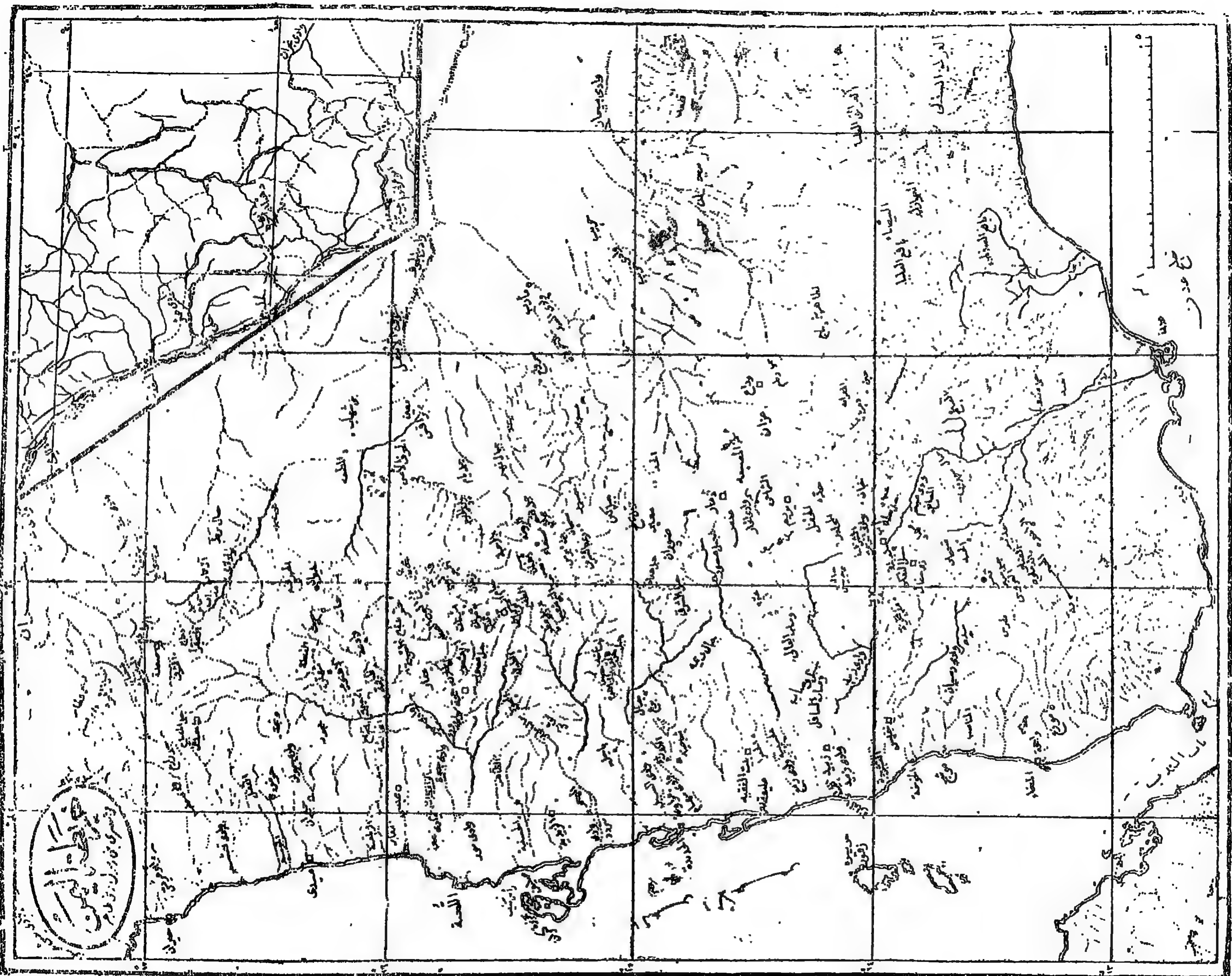
الأسطول للقيام بها ، ترك الأمير حسين الكردى بعض قواته لحمـــاية ماتم السيطرة عليه من المناطق ، وتوجه فى بعض قطعه البحرية إلى عدن ، علّه يستطيع أن يتخذ منها قاعدة لتأمين سلامه البحر الأحمر ، وضمان عدم التعرض للاخطار عند عودته من الهند . إلا أن فشل حسين الكردى فى الاستيلاء على عدن لحصانتها الطبيعية ومقاومة حاكمها له ، اضطره إلى تفضيل العـودة إلى البحر الأحمر ، وتركز قوته فيه والاكتفاء بالعمل على تأمينه . وهكذا تحول هدف الحملة - نتيجة لموقف السلطات الطاهرية - من التوجه لمجابهة البرتغاليين فى المياه الهنديه ، إلى مجرد الدفاع عن البحر الأحمر .

وعلى الرغم من الاضرار التى تعرضت لهـــا بلاد اليمن نتيجة لسيطرة البرتغاليين على التجارة ومحاولتهم للاستيلاء على عدن ، إلا أن السلطان الطاهرى الظافر عامر الثانى لم يكتف بما اتخذه من مواقف معادية للجراكسة ، الذين كان من بين أهدافهم حماية اليمن نفسها من الخطر البرتغالى ، إذ تعاون نائبه على عدن - الامير مرجان - مع البرتغاليين ، وأمدهم بالمرشدين لتسهيل وصولهم إلى جدة لضرب الأسطول المملوكى فيها ، وهو أمر لابد وأن يكون قد تم بموافقة السلطان الظافر الثانى شخصيا ، رغم النتائج الخطيرة التى كانت سوف تترتب على نجاح البرتغاليين فى تحطيم الأسطول المملوكى فى جـــدة . من الاستيلاء على الحجاز ، وتعريض المقدسات الاسلامية للدمار ، وتحقيق الاتصال بالحبشة والتعاون معها لتوجيه ضربة مباشرة ضد مصر ، باعتبارها مصدر القوة فى العالم الاسلامى ، وما قد يتبع ذلك من تسهيل مهمة البرتغاليين فى تنفيذ كافة الأهداف التى قامت حركة الكشوف الجغرافيه من أجلها .

وفى الحقيقة لقد كان لموقف السلطان الطاهرى أثره فى إعاقة الأسطـــول

المملوكى عن مهمته ، مما أدى إلى تحول قوات ذلك الأسطول إلى مقابلة تحديات السلطان الطاهرى والتفرغ لغزو اليمن . ومن العجب أن السلطان الظافر لم يتزحزح عن موقفه رغم عجز قواته عن الصمود أمام الأسلحة النارية الحديثة التى كانت تستعملها القوات الجركسية ، مما أدى فى النهاية إلى مقتل هذا السلطان ، وسقوط دولته واستيلاء الجراكسة عليها . ولولا استيلاء العثمانيين على مصر والشام وسقوط دولة الجراكسة لاستمرت قوات المماليك فى العمل على استكمال السيطرة على بقية المناطق الأخرى من اليمن ، كمقدمة للتفرغ لمواجهة البرتغاليين .

ويمكن القول بأنه إذا كان السلطان الطاهرى قد أسهم بموقفه هذا فى نسف الجهود التى بذلها الغورى ضد البرتغاليين ، وساعد الأسطول البرتغالى على اقتحام البحر الأحمر ، وتعاون حاكم عدن معهم لتنفيذ أهدافهم ، فقد أسهم العثمانيون بتقاعسهم ، فى ترسيخ الوجود البرتغالى فى المياه الهندية وذلك لانشغالهم بالفتوحات فى مناطق أخرى ، مما ساعد البرتغاليين على إحكام السيطرة على تجارة الشرق ، وتوطيد نفوذهم وتفاقم خطرهم فى المنطقة .



المصادر والمراجع

أولا – مصادر مخطوطة

أدريس عماد الدين بن الحسن القرشي (ت ٨٧٢ هـ / ١٤٦٧ م) .

— نزهة الأفكار وروضة الأخبار في ذكر من قام باليمن الميمون من الملوك الكبار والدعاة الأخيار ، (جزءان) مخطوط بمكتبة أحد علماء حراز اليمن .

الأهدل ، أبو عبد الرحمن الحسين بن عبد الرحمن بن محمد الحسيني (ت ٨٨٥ هـ / ١٤٨٠ م) .

— تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن ، مخطوط بمكتبة خدابخش بتنه رقم ٢٤٨٥ مصور بالميكروفيلم بمعهد المخطوطات العربية برقم ٣٠٨٨ .

ابن ايبك الدواداري ، أبو بكر بن عبد الله (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م) .

— درر التيجان وغرر تواريخ الأزمان ، (٤ مجلدات) مخطوط بمكتبة أحمد خان بالآستانة ، مصور بدار الكتب برقم ٤٤٠٩ تاريخ .

— كنز الدرر وجامع الغرر ، (٩ أجزاء) مخطوط بدار الكتب رقم ٢٥٧٨ تاريخ .

بيبرس الدوادار ، ركن الدين المنصوري (ت ٧٢٥ هـ / ١٣٢٥ م) .

— زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ، (جـ ٩) مخطوط بالمتحف البريطاني رقم ٢٣٣٢٥ إضافات ، مصور بالفوتوستات بمكتبة جامعة القاهرة برقم ٢٤٠٢٨ .

ابن تغرى بردى ، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ م) .

— المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى ، (٥ مجلدات) مخطوط بدار الكتب رقم ١٢٠٩ تاريخ تيمور .

— الدليل الشافى على المنهل الصافى ، مخطوط بدار الكتب رقم ١١٨٩ ح .

الجزيرى ، زين الدين عبد القادر بن محمد الحنبلى (ت ٩٦١ هـ / ١٥٥٤ م) .

— درر الفرائد المنظمة فى أخبار الحج وطريق مكة المعظمة ، مخطوط بدار الكتب رقم ٣٧ م .

الجندارى ، صفى الدين أحمد بن عبد الله (ت ١٣٣٧ هـ / ١٩١٨ م) .

— الجامع الوجيز فى وفيات العلماء أولى التبريز ، مخطوط بمكتبه الجامع الكبير بصنعاء .

الجندى ، أبو عبد الله بهاء الدين يوسف بن يعقوب (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م) .

— السلوك فى طبقات العلماء والملوك ، (٣ مجلدات) مخطوط بمكتبة كوبريلى رقم ١١٠٧ مصور بدار الكتب برقم ٩٩٦ تاريخ .

ابن حاتم ، بدر الدين محمد (كان موجودا سنة ٧٠٢ هـ) .

— السمط الغالى الثمن فى أخبار الملوك من الغز باليمن ، مخطوط بالمتحف البريطانى رقم ٢٧٥٤١ إضافات .

ابن حبيب ، الحسن بن عمر (ت ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧ م) .

— درة الأسلاك فى دولة الأتراك ، (٤ جـ) مخطوط مصور بدار الكتب رقم ٦١٧٠ ح .

ابن حجر ، شهاب الدين أحمد بن على العسقلانى (ت ٨٥٣ هـ / ١٤٤٩ م) .

— إنباء الغمر بأنباء العمر ، (جـزءان) مخطوط بدار الكتب رقم ٢٤٧٦ تاريخ .

الحنبلى ، أحمد بن ابراهيم بن نصر الله (ت ٨٧٦ هـ / ١٤٧١ م) .

— شفاء القلوب في مناقب بنى أيوب ، مخطوط بالمتحف البريطانى رقم ٧٣١١ إضافات مصور بالميكروفيلم بالجامعة العربية برقم ٣ .

الخزرجى ، أبو الحسن على بن الحسن (ت ٨١٢ هـ / ١٤٠٩ م) .

— طراز الزمن فى طبقات أعيان اليمن ، (جـزءان) مخطـوط بدار الكتب رقم ١٢٦٥٧ تاريخ .

— العسجد المسبوك فيمن ولى اليمن من الملوك ، مخطـوط بمكتبة بلدية الاسكندرية رقم ١٢٦٥ ب .

— العقد الفاخر الحسن فى طبقات أعيان اليمن ، مخطوط بالمتحف البريطانى 72 Kings Collage مصور بالميكروفيلم بالجامعة العربية رقم ٣٣٦ .

ابن داعر ، عبد الله بن صلاح الدين بن داود بن على (كان موجـودا سنة ١٠١٠ هـ) .

— الفتوحات المرادية فى الجهات اليمانية ، نسخة المؤلف وبخطه ، بمكتبة راغب باشا باستانبول ، وتوجد نسخة منهـا مصورة بالفوتستات بمكتبة جامعة القاهرة برقم ٢٦٤٢١ ، وأخرى بالميكروفيلم بالجامعة العربية برقم ٩٣٣ تاريخ .

ابن دقماق ، صـارم الدين ابراهيم بن محمد بن أيدمر العلائى (ت ٨٠٩ هـ / ١٤٠٦ م) .

— الجوهر الثمين فى سير الملوك والسلاطين ، مخطوط بدار الكتب رقم ١٤٩٢ تاريخ تيمور .

ابن الديبع ، أبو عبد الله عبد الرحمن بن على الشيبانى الشافعى (ت ٩٤٤ هـ / ١٥٣٧ م) .

— بغية المستفيد فى أخبار مدينة زبيد ، مخطـوط بدار الكتب رقم ٦٠٧ تاريخ تيمور ، وأخرى رقم ١١ م تاريخ .

— الفضل المزيد على بغية المستفيد ، مخطوط مصور بدار الكتب رقم ٩٠٨٧ ح تاريخ عن الدار رقم ١١ م تاريخ .

— قرة العيون فى أخبار اليمن الميمون ، مخطوط بدار الكتب رقم ١٣٥٥ تاريخ .

الذهبى ، شمس الدين أبى عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قيماز (ت ٧٤٨ هـ/ ١٣٤٧ م) .

— تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام ، (٣٢ مجلد) مخطوط بدار الكتب رقم ٣٩٦ تاريخ .

— سير أعلام النبلاء ، (١٣ جزءا) مخطوط بدار الكتب رقم ١٢١٩٥ تاريخ .

الرازى ، أبو العباس احمد بن عبد الله بن محمد الصنعانى (ت ٤٦٠ هـ/١٠٦٧م)

— تاريخ صنعاء ، مخطوط بالمتحف البريطانى رقم ٢٩٠٣ ، مصور بمكتبة جامعة القاهرة برقم ٢٦٠٥٧ .

الرسولى ، السلطان الملك الأشرف إسماعيل بن الأفضل عباس (ت ٨٠٣ هـ/ ١٤٠٠ م) .

— فاكهة الزمن ومفاكهة الآداب والفتن فى أخبار من ملك اليمن ، مخطوط بدار الكتب رقم ١٤٠٩ تاريخ تيمور .

الرسولى ، السلطان الملك الأفضل عباس بن المجاهد على بن داود (ت ٧٧٨ هـ/ ١٣٧٦م) .

— العطايا السنية والمواهب الهنية فى المناقب اليمنية ، مخطوط بدار الكتب برقم ٢٥١ تاريخ .

— نزهة العيون فى تاريخ طوائف القرون ، مخطوط بدار الكتب رقم ٣٥١ تاريخ .

الرشيدى ، أحمد .

— حسن الصفا والابتهاج بذكر من ولى إمارة الحاج ، مخطوط بدار الكتب رقم ٨٧، تاريخ .

الشبلى اليمنى ، جمال الدين محمد بن أبى بكر الحسنى (ت ١٠٩٣ هـ/١٦٨٢م) .

— السنا الباهر بتكميل النور السافر فى أخبار القرن العاشر ، مخطوط بدار الكتب رقم ٢٠٣٢ تاريخ تيمور .

الشرقى ، أحمد بن محمد بن صلاح (ت ١٠٥٥ هـ / ١٦٤٥ م) .

— اللآلى المضية فى أخبار أئمة الزيدية ، (٣ أجزاء) مخطوط بمكتبة الجامع الكبير برقم ١٠٧ – ١٠٩ .

الصفدى ، صلاح الدين خليل بن أيبك (٧٦٤ هـ / ١٣٦٣ م) .

— الوافى بالوفيات ، (٧٠ أجزاء فى ١٧ مجلد) مخطوط بدار الكتب رقم ١٢١٩ تاريخ .

الصمدى ، بدر الدين محمد بن يوسف (ق ١٠ هـ) .

— مآثر الأبرار فى تفصيل مجملات جواهر الأخبار ، مخطوط ملك الباحث .

الطبرى ، محمد بن على بن فضل (ق ١٢ هـ) .

— إتحاف فضلاء الزمن بتاريخ ولاية بنى الحسن ، مخطوط بالجمعية الآسيوية فى كلكتا رقم ١٢٨١ ، منه نسخة بالميكروفيلم بالجامعة العربية برقم ٣١٤٣ .

الطبرى ، على بن محيى الدين عبد القادر (ت ١٠٧٠ هـ / ١٦٦٠ م) .

— كتاب الأرج المسكى فى التاريخ المكى ، مخطوط بدار الكتب رقم ٢٢٠٥ تاريخ تيمور .

العامرى ، أبو زكريا يحيى بن أبى بكر الحرضى (٨٩٣ هـ / ١٤٨٨ م) .

— غربال الزمان فى وفيات الأعيان ، مخطوط بمكتبة الجامع الكبير بصنعاء .
ابن عبد المجيد ، تاج الدين عبد الباقى القرشى (ت ٧٤٣ هـ / ١٣٤٢ م) .
— بهجة الزمن فى تاريخ اليمن ، مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس رقم ٥٩٧٧ عربى .
العصامى ، عبد الملك بن حسين بن عبد الملك (ت ١١١١ هـ / ١٦٩٩ م) .
— سمط النجوم العوالى فى أنباء الأوائل والتوالى ، (٥ أجزاء) ، مخطوط بدار الكتب رقم ٥٦٦٤ تاريخ .
عيسى بن لطف الله بن المطهر (١٠٤٨ هـ / ١٦٣٨م) .
— روح الروح فيما حدث بعد المائة التاسعة من الفتن والفتوح ، مخطوط بدار الكتب رقم ١١ تاريخ م .
العينى ، بدر الدين محمود (ت ٨٥٥ هـ / ١٤٥١ م) .
— عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان ، (٢٣ جزءا فى ٦٩ مجلد) . مخطوط مصور بدار الكتب رقم ١٥٨٤ تاريخ عن نسخة الآستانة .
الفاسي ، تقى الدين أبى الطيب محمد بن أحمد بن على الحسنى (٨٣٢ هـ/١٤٢٩م) .
— تحفة الكرام ، مخطوط بدار الكتب رقم ١٣٨١٣ ح مصور عن نسخة الدار رقم ١٦٤٦ تاريخ .
— العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين ، (٤مجلدات) مخطوط بدار الكتب رقم ٨٤٩ تاريخ تيمور .
ابن الفرات ، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن على (ت٨٠٧ هـ / ١٤٠٤م) .
— تاريخ الدول والملوك ، (١٨ مجلدا) مخطوط بدار الكتب رقم ٣١٩٧ تاريخ مصور عن نسخة فيينا .

ابن فضل الله العمرى ، شهاب الدين أبي العباس أحمد بن يحيى (ت ٧٤٩ هـ / ١٣٤٨ م).

— مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ، (الجزء الخامس) مخطوط بدار الكتب رقم ٨ معارف عامة م .

الفيومى ، أحمد بن محمد بن على المقرى (ت ٧٧٥ هـ / ١٣٧٤ م) .

— نثر الجمان فى تراجم الأعيان ، (٣ مجلدات) مخطوط بدار الكتب رقم ١٧٤٦ تاريخ .

ابن القاسم ، صارم الدين ابراهيم بن القاسم بن المؤيد (النصف الأول من ق ١٢ هـ).

— طبقات العلماء الزيدية ، مخطوط بمكتبة الجامع الكبير بصنعاء .

الكبسي ، محمد بن اسماعيل بن محمد بن يحيى (ت ١٣٠٨ هـ / ١٨٩٠ م) .

— اللطائف السنية فى أخبار الممالك اليمنية ، مخطوط بدار الكتب رقم ٧٧٤ تاريخ تيمور ونسخة أخرى رقم ٤١٦٣ تاريخ .

المحلى ، حسام الدين أبي عبد الله حميد بن احمد (ت ٦٥٢ هـ / ١٢٥٤ م) .

— الحدائق الوردية فى مناقب الأئمة الزيدية ، مخطوط بدار الكتب رقم ٤٨٧٥ تاريخ .

بامخرمة ، أبو محمد عبد الله الطيب بن عبد الله (ت ٩٤٧ هـ / ١٥٤٠ م) .

— قلادة النحر فى وفيات أعيان الدهر ، (٣ أجزاء) مخطوط بمكتبة ينى جامع بالآستانه رقم ٨٨ مصور بدار الكتب برقم ١٦٧ تاريخ .

ابن مظفر ، محمد بن أحمد بن يحيى (ت حوالي ٩٢٠ هـ / ١٥١٩ م) .

— كتاب الترجمان المفتح لثمرات كمائم البستان ، مخطوط بمكتبة القاضي حسين بن أحمد السياغى من علماء صنعاء .

النويرى ، شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م) .

— نهاية الأرب في فنون الأدب ، (٣١جزءا) مخطوط بمكتبة كوبريلي بالآستانة ، مصور بدار الكتب برقم ٥٤٩ معارف عامة ، وأخرى برقم ٥٥١ معارف عامة .

يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد (ت ١١٠٥ هـ / ١٦٩٣ م) .

— أنباء الزمن في تاريخ اليمن ، مخطوط بدار الكتب رقم ١٣٤٧ تاريخ .

ثانيا - مصادر مطبوعة

ابن الأثير ، عز الدين أبو الحسن على بن الكرم (ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٣م) .
— الكامل فى التاريخ ، القاهرة ١٣٠١هـ .
الأهدل ، محمد بن على .
— نثر الدر المكنون من فضائل اليمن الميمون ، القاهرة ١٩٣١ .
ابن إياس، أبو البركات محمد بن أحمد الحنفى (ت٩٣٠هـ / ١٥٢٤م).
— بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، الأجزاء ٣ - ٥ تحقيق محمد مصطفى ١٩٦٠ - ١٩ ٣ .
ابن بطوطة ، أبو عبد الله محمد بن الله بن محمد اللواتى الطنجى (ت ٧٧٩هـ / ١٣٧٧ م) .
— تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (جزءان) القاهرة ١٩٣٨ .
ابن تغرى بردى ، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت ٨٧٤هـ / ١٤٦٩)م .
— النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقـــاهرة ، (١٦ جزءا) القاهرة ١٩٣٠ - ١٩٧٢ .
— المنهل الصافى والمستوفى بعـد الوافى ، (الجزء الأول) تحقيق أحمد يوسف نجاتى ، القاهرة ١٩٥٦ .
— منتخبات من حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور .
Ed. William Popper, California, 1930 - 1931.
ابن جبير ، أبو الحسن محمد بن أحمد الكتانى (ت ٦١٤ هـ / ١٢١٧م).
— رحلة ابن جبير ، تحقيق الدكتور حسين نصار ، القاهرة ١٩٥٥ .
الجندى ، أبو عبد الله بهاء الدين يوسف بن يعقوب (٧٣٢هـ/١٦٥٦م).

— أخبار القرامطة باليمن ، منقول من كتاب السلوك فى طبقات العلماء والملوك) ، نشره هنرى كاى ، ضمن كتاب تاريخ اليمن لعمارة ، لندن ١٨٩٢ .

حاجى خليفه ، مصطفى كاتب شلبى (ت ١٠٦٧ هـ /١٦٥٦م) .

— كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون ، والآستانة ١٩٤١ .

ابن حجر ، شهاب الدين احمد بن على العسقلانى (ت ٨٥٣ هـ/١٤٤٩م) .

— الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ، (٤ أجزاء) حيدر أباد ، الهند (١٣٤٨ - ١٣٥٠ هـ) .

الحمادى ، ، محمد بن مالك بن أبى الفضائل اليمانى (أواسط القرن الخامس الهجرى) .

— كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ، القاهرة ١٩٣٩ .

حمزة بن الحسن الأصفهانى (٣٦٠ هـ / ٩٧٠م) .

— تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء ، برلين ١٣٤٠هـ .

الخزرجى ، أبو الحسن على بن الحسن (ت ٨١٢ هـ / ١٤٠٩م) .

— العقود اللؤلؤية فى تاريخ الدولة الرسولية ، (جزءان) تحقيق محمد بسيونى عسل ، من مطبوعات Gibb Memorial Series القاهرة ١٩١١ .

ابن خلدون ، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م) .

— العبر وديوان المبتدأ والخبر ، بولاق ١٢٨٤هـ .

— تاريخ اليمن ، منقول من كتاب العبر ، نشره كاى ملحقا بكتاب تاريخ اليمن لعمارة ، لندن ١٨٩٢ .

ابن خلكان ، شمس الدين أبو العباس أحمد بن أبى بكر الشافعى (ت ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م) .

— وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، (٦ أجزاء) نشر محمد محيي الدين.
عبد الحميد ، القاهرة ١٩٤٨ .
الدمشقى ، محمد بن أبي طالب الأنصارى (ت ٧٢٧ هـ / ١٣٢٨ م) .
— كتاب نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر ، ليبزج ١٩٢٣ .
الذهبي، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن عثمان بن قيماز (ت ٧٤٨ هـ/١٣٤٧م) .
— دول الإسلام ، (جزءان) ، حيدر أباد ، الهند ١٣٣٣هـ - ١٣٣٧ هـ.
الرسولي ، السلطان الملك الأشرف عمر بن المظفر يوسف (ت٦٩٦هـ/١٢٩٦م).
— طرفة الأصحاب فى معرفة الأنساب ، تحقيق سترستين ، نشر المجمع
العلمى العربى بدمشق ١٩٤٩ .
زين الدين المعبرى المليبارى (٩٨٥ هـ ١٥٧٩ م) .
تحفة المجاهدين فى أحوال البرتكاليين ، لشبونة ١٨٩٨ .
سبط ابن الجوزى، شمس الدين أبي المظفر يوسف بن قز أوغلى (ت ٦٥٤هـ/
١٢٥٧م).
— مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان ، (جـ ٨) حيدر أباد ، الهند ١٩٥١.
السبكي ، تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن تقى الدين (ت ٧٧١ هـ /
١٣٧٠ م) .
— طبقات الشافعية الكبرى ، (٦ أجزاء) القاهرة ١٣٢٤ هـ .
السخاوى ، شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن (٩٠٢ هـ / ١٤٩٧م).
— التبر المسبوك فى ذيل السلوك ، نشر أحمد زكي ، القاهرة ١٨٩٦ .
— الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، (١٢ جزءا) القاهرة ١٣٥٣ -
١٣٥٥ هـ .
ابن سمرة ، أبو حفص بن على (ق ٦ هـ) .

— طبقات فقهاء اليمن ، تحقيق فؤاد سيد ، القاهرة ١٩٥٧ .

السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (٩١١هـ/ ١٥٠٥ م) .

— غزوات قبرص ورودس ، فيينا ١٨٨٤ .

ابن شاكر الكتبي ، صلاح الدين محمد بن شاكر بن أحمد (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٣م).

— فوات الوفيات ؛ (جزءان) تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ١٩٥١ .

أبو شامه ، شهاب الدين أبي محمد بن عبد الرحمن الرحمن ابن اسماعيل المقدسي (ت ٦٦٥ هـ / ١٢٦٧م) .

— الروضتين في أخبار الدولتين . (جزءان) القاهرة ١٢٧٨ – ١٢٨٨هـ .

— الذيل على الروضتين . نشره السيد عزت العطار . القاهرة ١٩٤٧ .

ابن شاهين الظاهري ؛ غرس الدين خليل (ت ٨٧٣ هـ / ١٤٦٨ م) .

— كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ؛ تحقيق بولس راويس Paul Ravaisse باريس ١٨٩٤ .

ابن الشحنة ، محب الدين أبي الوليد محمد بن كمال الدين الحلبي (ت ٨١٥ هـ / ١٤١٢ م) .

— روض المناظر في أخبار الأوائل والأواخر، مطبوع على هامش الجزء التاسع من كتاب (الكامل) لابن الأثير . القاهرة ١٢٩٠ هـ .

الشرجي ، أبو العباس أحمد بن أحمد بن عبد اللطيف (ت ٨٩٣ هـ / ١٤٨٨م) .

— طبقات الخواص أهل الصدق والاخلاص ، مصر ١٣٢١ هـ .

ابن طباطبا ، محمد بن علي (ت بعد ٧٠١هـ/١٣٠١م) .

— الفخري في الآداب السلطانية ، القاهرة ١٣١٧ هـ .

ابن طولون الصالحي ، شمس الدين محمد بن علي بن محمد (٩٥٣هـ/ ١٥٤٦م) .

— مفاكهة الخلان فى حوادث الزمان ، (جزءان) تحقيق محمد مصطفى ، القاهرة ١٩٦٢ .

ابن ظهيرة ، جمال الدين محمد جار الله بن محمد بن أبى بكر (٩٦٠هـ/١٥٥٢م).

— الجامع اللطيف فى فضل مكة وأهلها و بناء البيت الشريف ، الطبعة الثانية ١٩٣٨ .

ابن عبد الحق ، صفى الدين عبد المؤمن (ت ٧٣٩ هـ / ١٣٣٨م) .

— مراصد الاطلاع فى أسماء الأمكنة والبقاع ، القاهرة ١٩٥٤ .

ابن عبد الظاهر ، محيى الدين أبى الفضل عبد الله (ت ٦٩٢هـ/١٢٩٢م) .

— تشريف الأيام والعصور فى سيرة السلطان الملك المنصور ، تحقيق د. مراد كامل ، القاهرة ١٩٦١

العلوى ، على بن محمد بن عبد الله العباسى (من علماء الزيدية فى أواخر القرن الثالث الهجرى) .

— سيرة الامام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين ، تحقق د. سهيل زكار بيروت ١٩٧٢ .

ابن العماد الحنبلى ، أبو الفلاح عبد الحى (ت ١٠٨٩ هـ / ١٦٧٨ م) .

— شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، (٨ أجزاء) القاهرة ١٣٥١ هـ .

عمارة اليمنى ، أبو محمد نجم الدين بن أبى الحسن على بن زيدان الحكمى (ت ٥٦٩هـ / ١١٧٤م) .

— تاريخ اليمن ، تحقيق هنرى كاى ، لندن ١٨٩٢ .

— النكت العصرية فى أخبار الوزراء المصرية .

Ed. Hartwig Derenbourg, Paris, 1897-1902.

العيدروسى ، محيى الدين عبد القادر بن عبد الله العلوى (ت١٠٣٨هـ/١٦٢٨م).

— النور السافر فى أخبار القرن العاشر ، بغداد ١٩٣٤ .

الفاسي ، تقي الدين أبي الطيب محمد بن احمد الحسني (٨٣٢هـ/ ١٤٢٩م) .

— شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ، (جزءان) القاهرة ١٩٥٦ .

أبو الفدا ، الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل بن علي صاحب حماة (ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣١ م) .

— كتاب تقويم البلدان ، باريس ١٨٤٠ .

— المختصر فى أخبار البشر ، (٤ أجزاء) الآستانة ١٢٨٦ هـ .

ابن فضل الله العمري ، شهاب الدين أبي العباس أحمد بن يحيى (ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٨ م) .

— التعريف بالمصطلح الشريف . القاهرة ١٣١٢ هـ .

ابن الفوطي ، كمال الدين أبي الفضل عبد الرازق البغدادي (ت٧٢٢هـ/١٣٣٢م) .

— الحوادث الجامعة والتجارب النافعة فى المائة السابعة ، نشره د. مصطفى جواد بغداد ١٣٥١ .

الفيروز أبادي ، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الشيرازي (ت ٨٠٧هـ/ ١٤١٤م) .

— القاموس المحيط ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٣٤٤ هـ.

القلقشندي ، أبو العباس أحمد بن علي (ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨م) .

— صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ،(١٤جزءا) ، القاهرة ١٩١٣–١٩١٩.

— قلائد الجمان فى التعريف بقبائل عرب الزمان ، نشره ابراهيم الابيارى ١٩٦٣ م .

ابن كثير ، عماد الدين أبي الفدا إسماعيل بن عمر الدمشقي (ت ٧٧٤ هـ / ١٣٧٣ م) .

— البداية والنهاية ، (١٤ جزءا) ، القاهرة ١٣٤٨هـ / ١٣٥٨ هـ .

ابن المجاور ، جمال الدين أبو الفتح يوسف بن يعقوب بن محمد الدمشقي (ت ٦٩٠ هـ / ١٢٩١ م) .

— صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز ، ويسمى تاريخ المستبصر ،

Ed.,O. Loefgren, 2 vol. Leiden, 1951-1954.

مجمع اللغة العربية .

— المعجم الوسيط ، قام بإخراجه نخبة من العلماء ، القاهرة ١٩٦٠ .

بامخرمة ، أبو محمد عبد الله الطيب بن عبد الله (ت ٩٤٧ هـ/١٥٤٠م) .

— تاريخ ثغر عدن ، (جزءان)

Ed:, O. Loefgren Leiden, 1936 - 1950.

المسعودي ، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي الشافعي (ت ٣٤٦هـ/١٩٥٦م) .

— مروج الذهب ومعادن الجوهر ، (٤ أجزاء) تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٥٨ .

المقدسي ، شمس الدين ابي عبد الله محمد بن أبي بكر البشاري (ت ٣٨٨ هـ / ٩٩٧ م) .

— أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ،

Ed., De Goeje, Leiden, 1906.

المقري ، شهاب الدين أبي العباس أحمد بن محمد التلمساني (ت ١٠٤١ هـ / ١٦٣١ م) .

— نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب ، (١٠ أجزاء) ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٤٩ .

المقريزى ، تقى الدين أبى العباس أحمد بن على بن عبد القادر (ت ٨٤٥ هـ/ ١٤٤١ م) .
— الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الاسلام ، Patavia, 1890.
— البيان والاعراب عما بأرض مصر من الأعراب ، تحقيق فستنفيلد ، جوتنجن ١٨٧٤ .
— الذهب المسبوك فى ذكر من حج من الخلفاء والملوك ، نشر الشيال ١٩٥٥ .
— السلوك لمعرفة دول الملوك .
جـ١ ، ٢ تحقيق د. زيادة ، القاهرة ١٩٣٤ – ١٩٥٨ .
جـ٣ ، ٤ تحقيق د . سعيد عاشور ، القاهرة ١٩٧٠ – ١٩٧٢ .
— المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار ، (٤ أجزاء) القاهرة ١٣٢٤ – ١٣٢٦ هـ .
مؤلف مجهول .
— أخبار مجموع فى فتح الأندلس وذكر أمرائها ، نشره دون لافونتى الكنترا ، مدريد ١٨٦٧ .
نشوان بن سعيد الحميرى (ت ٥٧٣ هـ/١١٧٧ م) .
— الحور العين، تحقيق كمال مصطفى ، القاهرة ١٩٤٨ .
— منتخبات من أخبار اليمن من كتاب شمس العلوم ، تحقيق عظيم الدين أحمد . لندن ١٩١٦ .
النهروالى ، قطب الدين محمد بن أحمد المكى (ت ٩٩٠ هـ/ ١٥٨٢ م) .
— البرق اليمانى فى الفتح العثمانى ، أشرف على طبعه حمد الجاسر ، الرياض ١٩٦٧ .

— الاعلام باعلام بيت الله الحرام ، تحقيق بروك هوس، ليبزج ١٨٥٧ .

النويرى ، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م) .

— نهاية الأرب فى فنون الأدب ، (١٨ جزءا) طبعة دار الكتب ١٩٢٣ــ ١٩٥٦ .

الهمدانى ، أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب بن يوسف (ت ٣٣٤هـ / ٩٤٥ م) .

— الأكليل ، (جـ ١٠) تحقيق محب الدين الخطيب . القاهرة ١٣٦٨ هـ .

— صفة جزيرة العرب ، ليدن سنة ١٨٩١ .

ابن واصل ، جمال الدين محمد بن سالم (ت ١٢٩٧ م) .

— مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب .

(الأجزاء من ١ ــ ٣) تحقيق د. الشيال ، القاهرة ١٩٥٣ ــ ١٩٦١ .

(جـ ٤ ــ ٥) تحقيق د. حسنين محمد ربيع ، القاهرة ١٩٧٢ .

ابن الوردى ، زين الدين أبو حفص عمر بن المظفر (ت ٧٤٩ هـ / ١٣٤٨ م) .

— تاريخ ابن الوردى (جزءان) ، القاهرة ١٢٨٥ هـ .

— خريدة العجائب وفريدة الغرائب ، القاهرة ١٣٠٩ هـ .

ياقوت، شهاب الدين أبي عبد الله الحموى الرومى (٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م) .

— معجم البلدان ، (١٢ جزءا) ، القاهرة ١٩٠٦ .

يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد (ت ١١٠٥ هـ / ١٦٩٣ م) .

— أنباء الزمن فى أخبار اليمن ، القسم الأول من ٢٨٠ إلي ٣٢٢ هـ ،

تحقيق د. محمد عبد الله ماضى ، برلين ١٩٣٦ .

— غاية الأمانى فى أخبار القطر اليمانى ، تحقيق د. سعيد عاشور ، القاهرة ١٩٦٨ .

اليعقوبى ، أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح (ت ٢٨٢ هـ / ٨٩٥ م) .

— تاريخ اليعقوبى ، (جزءان) نشر هوتسما ، ١٨٨٣ .

ثالثا - مراجع عربية حديثة

ابراهيم على طرخان (الدكتور) .

— مصر فى عصر المماليك الجراكسة ، القاهرة ١٩٥٩ .

أحمد حسين شرف الدين .

— اليمن عبر التاريخ ، القاهرة ١٩٦٣ .

أحمد دراج (الدكتور) .

— المماليك والفرنج فى القرن التاسع الهجرى ، القاهرة ١٩٦١ .

— ايضاحات جديدة عن التحول فى تجارة البحر الأحمر منذ مطلع القرن التاسع الهجرى ، محاضرات الجمعية التاريخية المصرية : ١٩٦٨ .

أحمد مختار العبادى (الدكتور) .

— دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ، الاسكندرية ١٩٦٨ .

— قيام دوله المماليك الأولى فى مصر والشام ، بيروت ١٩٦٩ .

— تاريخ البحرية الاسلامية فى مصر والشام، القسم الثانى، بيروت ١٩٧٢ .

— فى التاريخ العباسى والأندلسى ، بيروت ١٩٧٢ .

بانيكار ، ك.م.

— آسيا والسيطرة الغربية ، ترجمة عبد العزيز جاويد ، القاهرة ١٩٦٢ .

بروكلمان ، كارل .

— تاريخ الشعوب الاسلامية ، ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكى ، بيروت ١٩٥٣ .

الجرافى ، عبد الله بن عبد الكريم .

— المقتطف من تاريخ اليمن ، القاهرة ١٩٥١ .

جمال الدين الشيال (الدكتور) .

— تاريخ مصر الإسلامية ، (جزءان) ١٩٦٧ .

حسن ابراهيم حسن (الدكتور) .

— تاريخ الإســـلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ، الطبعة الخامسة ١٩٦٠ .

حسن ابراهيم حسن وطه شرف .

— عبيد الله المهدى إمام الشيعــة الإسماعيلية ومؤسس الدولة الفاطمية في بلاد المغرب ، القاهرة ١٩٤٧ .

حسن أحمد محمود (الدكتور) .

— الإسلام والثقافة العربية فى إفريقية ، (الجزء الأول) القاهرة ١٩٥٨ .

— دور العرب فى نشر الحضارة فى غرب افريقية — المجلة التاريخية — ١٩٦٨ .

— قيام دولة المرابطين ، القاهرة ١٩٥٧ .

حسن سليمان محمود (الدكتور) .

— تاريخ اليمن السياسى فى العصر الاسلامى ، بغداد ١٩٦٩ .

— الصليحيون وعلاقاتهم بالفاطميين ، رسالة دكتوراه بجامعة القاهرة .

— علاقات الفاطميين بالدول الإسلامية ، القاهرة بدون تاريخ .

— الملكة أروى سيدة ملوك اليمن ، القاهرة بدون تاريخ .

حسين الهمدانى وحسن سليمان محمود (الدكتوران) .

— الصليحيون والحركة الفاطمية فى اليمن ، القاهره ١٩٥٥ .

حمزه على ابراهيم لقمان .

— تاريخ عدن وجنوب الجزيره العربية ، القاهره ١٩٦٠

- دائرة المعارف الإسلامية ، (الترجمة العربية) .
- دار الكتب المصرية .
— فهارس الكتب العربية ، (٨ أجزاء) القاهرة ١٩٢٩ - ١٩٤٢ .
— فهرست المخطوطات ، (٣ أقسام) تصنيف فؤاد سيد .القاهره ١٩٦١.
— قائمة بالكتب والمراجع عن الجزيره العربية .
— قائمة المخطوطات العربية المصوره بالميكروفيلم من الجمهورية العربية اليمنية ١٩٦٧ .
- ديل ، شارل .
— البندقية جمهورية ارستقراطية، ترجمة الدكتور أحمد عزت عبدالكريم وتوفيق اسكندر ، القاهره ١٩٤٧ .
- زامباور .
— معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الاسلامى ، ترجمة الدكتور زكى محمد حسن والدكتور حسن أحمد محمود وآخرين ، القاهره ١٩٥١ - ١٩٥٢ .
- زبارة ، محمد بن محمد بن يحيى الحسنى الصنعانى .
— أئمة اليمن ، (الجزء الأول) تعز ١٣٧٢ هـ .
— إتحاف المهتدين بذكر الأئمة المجددين ، ومن قام باليمن الميمون من قراء الكتاب المبين وأبناء سيد الأنبياء والمرسلين ، صنعاء ١٣٤٣ هـ .
- زترستين .
— تاريخ سلاطين المماليك ، (من ٦٩٠ الى ٧٤١ هـ) ، ليدن ١٩١٩ .
- زينى دحلان (ت ١٣٠٤ هـ / ١٨٨٦م) .
— خلاصة الكلام فى بيان أمراء البلد الحرام ؛ ١٣٠٥ هـ .

سركيس ، يوسف اليان .

— معجم المطبوعات العربية والمعربة ، (مجلدان) القاهرة ١٩٢٨-١٩٣٠م.

سعد زغلول عبد الحميد (الدكتور) .

— الترك والمجتمعات التركية عند العرب وغيرهم ، مجلة كلية آداب الاسكندرية ، ١٩٥٦ .

— فى تاريخ العرب قبل الاسلام ، بيروت ١٩٧٥ .

سعيد عبد الفتاح عاشور (الدكتور) .

— الإمبراطور فزدريك الثانى والشرق العربى، المجلة التاريخية سنة ١٩٦٣م.

— أوربا فى العصور الوسطى ، (جزءان) ، القاهرة ١٩٦٤ .

— الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام ، القاهرة ١٩٧٠ .

— بعض أضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة فى العصور الوسطى ، المجلة التاريخية سنة ١٩٦٨ .

— الحركة الصليبية ، (جزءان) القاهرة ١٩٦٣ .

— قبرص والحروب الصليبية ، القاهرة ١٩٥٧ .

— مصر فى عصر المماليك البحرية ، القاهرة ١٩٥٩ .

سعيد عوض باوزير .

— صفحات من التاريخ الحضرمى ، القاهرة ١٣٧٨ هـ .

السلاوى ، أبو العباس أحمد بن خالد الناصرى (ت ١٣١٥هـ/١٨٩٧م) .

— الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى ، (٩ أجزاء) الدار البيضاء ١٩٥٦ .

السيد الباز العرينى (الدكتور) .

— مصر فى عصر الأيوبيين ، القاهرة ١٩٦٠ .

السيد عبد العزيز سالم (الدكتور) .

ـــ تاريخ الاسكندرية وحضارتهـا فى العصر الاسلامى ، الاسكندرية ١٩٦١ .

ـــ تاريخ البحرية الاسلامية فى مصر والشام ـ القسم الأول ـ بيروت ١٩٧٢ .

ـــ تاريخ العرب فى العصر الجاهلى ، بيروت ١٩٧٠ .

ـــ تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ، بيروت ١٩٦٢ .

ـــ دراسة فى تاريخ مدينة صيدا فى العصر الإسلامى ، بيروت ١٩٧٠ .

ـــ طرابلس الشام فى التاريخ الاسلامى ، الإسكندرية ١٩٦٧ .

السيد مصطفى سالم (الدكتور) .

ـــ الفتح العثمانى الأول لليمن، مطبوعات معهد الدراسات العربية، ١٩٦٩ .

الشوكانى ، محمد بن على (ت ١٢٥٠هـ/١٨٣٤م) .

ـــ البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، (جزءان) القاهرة ١٣٤٨ هـ .

صلاح البكرى .

ـــ تاريخ حضرموت السياسى ، (جزءان) القاهره ١٩٥٦ .

ـــ فى جنوب الجزيرة العربية ، القاهرة ١٩٤٩ .

عبد الرحمن زكى (الدكتور) .

ـــ قلعة صلاح الدين وما حولها من الآثار ، القاهره ١٩٧١ .

العبدلى ، أحمد فضل بن على بن محسن .

ـــ هدية الزمن فى أخبار ملوك لحج وعدن ، القاهره ١٣٥١ هـ .

عبد المجيد عابدين (الدكتور) .
— بين الحبشة والعرب ، مصر ١٩٤٧ .
عبد المنعم ماجد (الدكتور) .
— التاريخ السياسى للدولة العربية ، (جزءان) ١٩٦٥ .
عدلى أحمد فريد (الدكتور) .
— السلطان قانصوه الغورى وعصره ، رسالة ماجستير بكلية الآداب بالاسكندرية ، ١٩٧٠ .
العرشى ، حسين بن أحمد الزيدى (ت ١٣٢٩هـ/١٩١١م) .
— بلوغ المرام فى شرح مسك الختام فى من تولى ملك اليمن من ملك وامام ، تحقيق الكرملى ، ١٩٣٩ .
العقيلى ، محمد بن أحمد عيسى.
— تاريخ المخلاف السليمانى ، أو الجنوب العربى فى التاريخ ، (جزءان)، الرياض ١٣٧٨ ، والقاهره ١٣٨٠ .
عمر رضا كحالة .
— معجم المؤلفين ، دمشق ١٩٥٧ .
فييت ، جاستون .
— المواصلات فى مصر فى العصور الوسطى ، نشرها محمد وهبى مترجمة فى كتاب (فى مصر الإسلامية) ١٩٣٧ .
لوريمر .
— دليل الخليج ـ القسم التاريخى ، ٧ أجزاء ـ ترجم وطبع على نفقة حاكم قطر ، الدوحة ١٩٦٧ .
الجمعية المصرية للدراسات التاريخية :
— المجلة التاريخية .

محمد جمال الدين سرور (الدكتور) .
— دولة بنى قلاوون فى مصر ، الحالة السياسة والاقتصادية فى عهدها بوجه خاص ، القاهرة ١٩٤٧ .
— قيام الدولة العربية ، القاهرة ١٩٦٤ .
— النفوذ الفاطمى فى جزيرة العرب ، القاهرة ١٩٦٤ .
محمد حسن .
— قلب اليمن ، بغداد ١٩٤٧ .
محمد حسين هيكل (الدكتور) .
— فى منزل الوحى ، القاهرة ١٩٧٠ .
محمد عبد العال أحمد .
— دولة بنى أيوب فى اليمن، رسالة ماجستير بكلية الآداب بالاسكندرية، ١٩٦٨ .
محمد عبد الله ماضي (الدكتور) .
— دولة اليمن الزيدية ، المجلة التاريخية ، مايو ١٩٥٠ .
محمد مختار .
— التوفيقات الإلهامية في مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الأفرنجية والقبطية ، بولاق ١٣١١ هـ .
محمد مصطفى زيادة (الدكتور) .
— بعض ملاحظات جديدة فى تاريخ دولة المماليك ، مجلة كلية آداب القاهرة ، ١٩٣٦ .
— المحاولات الحربية للاستيلاء على جزيرة رودس زمن سلاطين المماليك فى القرن ١٥ م ، مجلة الجيش ١٩٤٩ .

— نهاية سلاطين المماليك فى مصر ، المجلة التاريخية ١٩٥١ .
محمد بن هاشم العلوى .
— تاريخ الدولة الكثيرية ، القاهرة ١٩٠٨ .
معهد المخطوطات العربية بالجامعة العربية .
— فهرس المخطوطات المصورة ، (الجزء الثاني ـ التاريخ ـ ٤ أقسام)
القاهرة ١٩٥٦ .
— مجلة معهد المخطوطات .
مكتبة البلدية بالاسكندرية .
— فهرس التاريخ ، تصنيف أحمد أبو على ، ١٩٢٥ .
نظير حسان سعداوى (الدكتور) .
— التاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين ، القاهرة ١٩٥٧ .
نعيم زكى فهمى (الدكتور)
— طرق التجارة الدولية بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى ،
القاهرة ١٩٧٣ .
نلدكه ، ثيودور .
— أمراء غسان ، ترجمة د. بندلي جوزى ، ود. قسطنطين زريق ،
بيروت ١٩٣٣ .
هاو ، سونيا . ى .
— فى طلب التوابل ، ترجمة محمد عزيز رفعت ، ومراجعة د. محمود
النحاس ، القاهرة ١٩٥٧ .
الواسعى ، عبد الواسع بن يحيى اليمانى .
— تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن ، فى حوادث وتاريخ

اليمن ، القاهرة ١٩٤٧ ؛

— البدر المزيل للحزن في فضائل اليمن ومحـــاسن صنعاء ، القاهرة ١٣٤٥ هـ.

الويسى ، حسين بن علي

— اليمن الكبرى ، القاهرة ١٩٦٢ .

رابعا : مراجع أجنبية

Alastros (D.) :

— Cyprus in History. London; 1955.

Allen (J.) :

The Cambrige Shorter History of India, Cambridge, 1924.

Arnold (T. W.) :

— The Caliphate, Oxford, 1924.

Barthold (W.) :

— Art. « Hulagu » in ENC. of Islam.

Bratianu (G. I.) :

— Recherches sur le Commerce Génois dans la Mer Noire au 13 eme. Siecle; Paris 1929.

Brockelmann (C.) :

— Geschichte de Arabischen Litteratur.
2 Vols. Leiden, 1943 - 1949.
3 Supplementbande, Leiden, 1937

— History of Islamic peoples, Lond9on, 142. - 1949,

نقله إلى العربية د. نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي بعنوان « تاريخ الشعوب الإسلامية » .

Browne (E. G.) :

— A literary History of Persia, Cambridge 1909:

Budge (E. A. W.) :

— A History of Ethiopia, Nubia & Abyssinia. 2 vols. London, 1928.

Burckhurdt (J. L.) :

— Travels in Arabia, 2 vols: London, 1819.

Cambridge :

— The Combridge History of Islam, 2 Vols. Cambridge, 1970.

Darrag (A.)

— L' Egypte sous le Regne de Barsbay, Damas, 1961.

De Gaury (G.) :

— Rulers of Mecca.London, 1951.

De la Ronciere (ch.) :

— Le Découverte de L' Afrique au Moyen Age, 3 Tomes, Le Caire, 1925 – 27.

Derenbourg (H.) :

— Omara du Yémen,sa vie et son Oeuvre, 2 tomes, Paris, 1897 - 1902.

Depping (G. B.) :

— Histoire du Commerce entre le Levant et l' Europe, Depuis les Croisades Jusqu' a la Fondation des Colonies d' Amérique, 2 Tomes, Paris 18.0.

Diehl (Charles) :

— Une Pépublique Patricienne Venise, (Bibliothèque de Philosophie Scientifique) 1928.

نقله الى العربية د. أحمد عزت عبد الكريم وتوفيق اسكندر بعنوان « البندقية جمهورية ارستقراطية » . القاهرة ١٩٤٧ .

D' Ohsson (Le Baron C.) :

— Histoire des Mongols depuis Tchinguiz Khan, jusqu à Timour Bey ou Temelan, 4 Tomes, (Les Freres Van Cheef.) La Haye & Amsterdam, 1834 – 1835.

Dozy (R.) :

— Supplément aux Dictionnaires Arabes, 2 Tomes, Leiden - Paris, 1927.

ENCYCLOPAEDIA OF ISLAM.

— 4 vols. Leyden, 1913 - 1934.

Ferrand (G.) :

— Une Navigation Eurppéene dans l' Oceen Indien au 14 eme siecle, J. Asiat. 1922, T. 20.

Fuller (J. F. C.) ;

— Decisive Battles; Their influence upon history & civilization, London, 1950.

Grousset (R.) :

— Histoire des Croissdes et du Royaume Franc de Jerusàlem, 3 Tomes, Paris 1934 - 1936.

Heyd (W.) :

— Histoire du Commerce du Lavant au Moyen Age, 2 Tomes, Leipzig; 1925.

Hill (G.) :

— A History of Cyprus. Camb. 1948.

Hogarth (D. G.) :

— A History of Arabia, Oxford, 1922.

Howe (Sonia E.) :

— In Queste of Spices, London, 1946.

نقله الى العربية محمد عزيز رفعت بعنوان «فى طلب التوابل» ، وراجعه د. محمود النحاس . القاهرة ١٩٥٧ .

Howorth (Sir Henry) :

— A History of Mongols, 4 vols. London 1876 - 1888.

Huart (C.):

— Histoire des Arabes, 2 Tomes, Paris, 1912 - 1913.

Hunter :

— An account of the British settlement of Aden in Arabia; London, 1877.

Inalcik (Halil) :

— The Ottoman Empire, (The Classical age, 1300 - 1600), translated by Norman Itzkowitz and Colin Imber, London, 1973.

Jomier :

— Le Mahmal et la Caravane Egyptienne de Pelgrime de la Mecque, Le Caire, 1935.

Kammerer (A.)

— Le Mer Rouge, l' Abyssinie et l' Arabie depuis l' antiquité, (Mémoires de la société Royale de Géographie d' Egypte), 2 Tomes 1929 - 1935.

Kantarowicy :

— Fredric The Second.

Kay (H. C.) :

— Yemen, Its early Mediaeval History, London, 1892

Khalil Ed - Dahiry :

— Zoubdat Kachf El-Mamalik, Publie Par Poul Raveisse, Paris, 1894.

EL - Khazrejiyy :

— The Pearl - Strings, A History of the Resuliyy Dynasty of Yemen. Ed by E. G. Browne, Gibb Memorial Series, 3 vols, London, 1906.

Lamb (H.) :

— The Crusades; The Flame of Islam, London, 1931.

Lane - Poole (St.) :

— A History of Egypt in the Middle Ages, London, 1936.

— Mediaeval India Under Mohammadan Rule, London 1925.

— The mohammadan Dynasties; Paris, 1925,

— Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem, London, 1898.

Lewis (Bernard) :

— Egypt and Syria, (The Cambridge History of Islam,) 2 vols. Cambridge, 1970.

Lorimer (J G.) :

— Gazetter of the Persian Gulf, Oman and Central Arabia.

ترجم بعنوان « دليل الخليج » ونشر على نفقة حاكم قطر ، الدوحة ١٩٦٧ .

Marco (Eric) :

— Yemen and Western World Since 1571, London, 1963.

Marin (M.) :

— Histoire De Saladin; Sulthan D' Egypte et Syrie. 2 Tomes

IBNAL MUGAWIR :

— Desciptis Arabiae Meridionalis Preamissis Capitibus de Mecca et parte regionis Higaz qui liber inscribitur Tar'h al - Mustabsir, Ed. Oscar Lofgren, 1951.

Moreland (W. H.) :

— A Short History of India, London, 194

Murray :

— Aidhab (J. R. A. S.) Sept. 1926.

Neibuhr (C.) :

— Voyage en Arabie et en d' autres Pays, Amesterdam, 1776.

Panikkar (K. M.) :

— Asia and western Dominance, London, 1935.

ترجمه عبد العزيز توفيق جاويد بعنوان « آسيا والسيطرة الغربية » .

Piloti (E.) :

— L' Egypte au Commencement du Quinzième Siècle, Le Caire 1950.

Playfair (Sir Robert Lambert) :

— A History of Arabia Felix or Yemen. Selection from the records of Bombay Govenment, Bombay. 1859.

Rene Besset :

— Art, « Dahlak » in ENC. of Islam.

Reinaud (M.) :

— Extraits des Historiens Arabes Relatifs aux Guerres de croisades, Paris 1829.

Runciman (S.) :

— A History of the Crusades. 3 Vols. Cambridge, 1951 - 1954.

Scott (Hugh.) :

— *In the High Yemen*, London, 1947.

Serjeant (R. B) :

— The Portuguese off the South Arabian Coast, Oxford, 1963.

Stevenson (W. B.) :

— The Crusaders in the East, Cambridge, 1907.

Streck (M.) :

— Art. « Baghdad » in ENC. of *I*slam.

Thenaud (J.) :

— Le Voyage d'Outre Mer de Jean Thenaud, Paris, 1884.

Trimingham (J. S.) :

— *I*slam in Ethiopia, Oxfoad, 1952.

Wensinck (A J.)

— Art « Mecca » & « Katada » in ENC. of *I*slam.

Wiet (G.) :

— Histoire de la Nation Egyptienne, T. IV. (L' Egypte Arabe) Paris, 1937.

— Le Communication en Egypte au Moyen Age, L' Egypte Contemposaine, 1933.

ترجمها محمد وهبي بعنوان « المواصلات في مصر » ونشرها في كتاب « في مصر الاسلامية » القاهرة ١٩٣٧ .

Wilson (A. T.) :

— The Persian Gulf, London, 1945.

Zetterstéen (K. W.) :

— Beitrage Zur Geschichte der Mamluken Sultane, Leiden, 1919.

فهرس المحتويات

الباب الأول

رقم الايداع بدار الكتب

٤٩١٠ / ٧٩

٢ – ٧٨٢ – ٢٠١ – ٩٧٧

مطابع دار الناشر الجامعى

ت: ٨٠٣٧١٤

PREFACE

This work deals with the history of yemen and its foreign relations during the reign of the Rasulites and Tahirides dynasties .

It covers a period of three centuries of the political history of yemen . That political historv is marked by uprises, internal struggle, disorder and unstability whose outcome was the loss of the political unity of yemen and the engagement of the rulers in almost continuous wars.

The work, furthermore; endeavours to clarify the significant role that yemen played in the Red Sea area, and explains most of the aspects of the Egyptian and yemeni policy in that area during the reign of the Mamlukes dynasty.

The history of yemen, compared to that of many other countries, is both difficult and complicated for its lack, mainly, of resources, or rather, their availabilitis due to verions reasons.

Yet every available Source has been consulted and every possible datum has been used in this work .